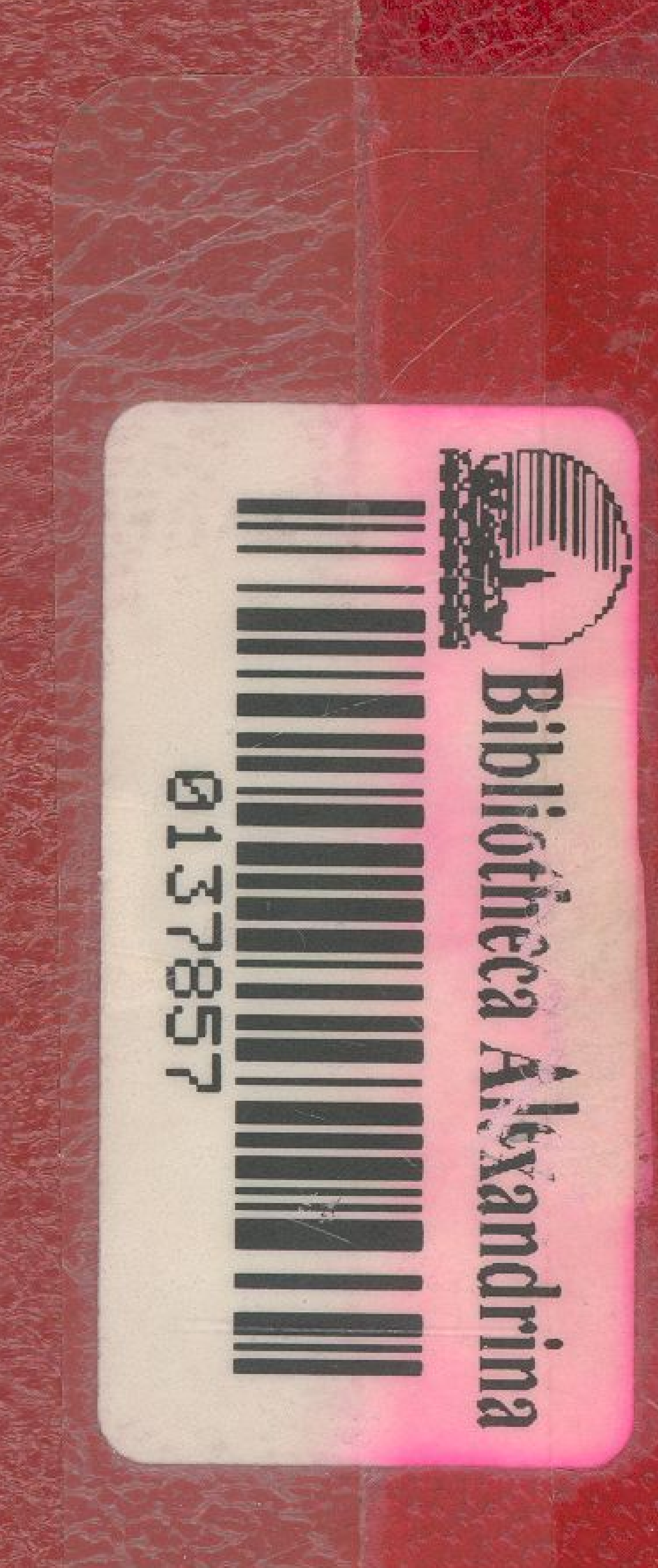

Bibliotheca Alexandrina
0137857

اقرأ

خالدون في الوطن



إبراهيم المصري

دار المعارف بمصر

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

خالدون في الوطن

إبراهيم المصرى

خالدون فى الوطن

اقرأ ٢٨١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨١ - مايو سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

« فى تاريخ البشرية زهور دامية لا يمكن أن تذبل ـ ولا يمكن أن تموت . وهذه الزهور الخالدة الرائعة الشبيهة بالمشاعل ، هى معارك الاستقلال والحرية » . . .

إبراهيم المصرى

من بلاد الإغريق :

عذراء الوطن

« تمثل هذه القصة روح البطولة والوطنية التى كانت مستولية على الشعب اليونانى أثناء حرب الاستقلال ضد الفرس وملكهم داريوس عام ٤٩٠ قبل الميلاد . وقد وقعت هذه الحرب فى ميناء ماراتون على بعد عشرين ميلاً من أثينا وتولى قيادتها الزعيم الوطنى والقائد العبقرى ملتيادس ».

* * *

ابتسم الكاهن « هرمس » ابتسامة رقيقة ، وقال وهو ينظر بعينيه المستديرتين إلى ضيفه « شالكاس » :

ـ إنى لأستغرب كيف تكون فيلسوفاً ثم تتعلق بأشياء عارضة لا يلبث أن يأتى عليها الزمن . فى رأيى أن من كان مثلك يجب أن ينظر إلى أحداث هذا العالم كما ينظر الرجل العادى إلى اختلاف فصول السنة . . .

فضحك الفيلسوف « شالكاس » والتفت إلى زميله « أوريون » وقال له :

ـ ما رأيك فى هذا اللون من التفكير الذى أصبح يستعذبه صديقنا هرمس ويشيد به ويدعو إليه ؟ . . .

فأطرق أوريون لحظة ثم رفع رأسه الصغير ، فبدا وجهه الذى نقره الجدرى ، عابساً متجهماً محتقناً ، أشد دمامة مما هو عليه ، وحاول أن يتكلم . ولكن أعصابه المتوترة تغلبت عليه وضاعفت انفعاله ، فلم يستطع إلا أن يرسل شبه صيحات مخنوقة مبهمة .

ورمقه الفيلسوف بنظرة مشفقة ثم تحول إلى صاحب الدار وقال :

ـ أنت تأخذ عليّ يا هرمس اهتمامى بشئون وطنى ، وترى أن من واجبى كمفكر أن أظل بمعزل عن السياسة ، وأن أعيش فى عالمى الخيالى المغلق . ولكنك تنسى أن بلادى هى مادة فكرى ، وأن المجتمع الذى يكتنفنى هو الذى يغذى عقلى وقلبى ، وأن الأرض التى تحملنى هى التى توحى إلىّ مختلف الأفكار والعواطف . فكيف تريدنى على أن أنفض يدى منها ، ولا أحفل بكفاحها المقدس ضد أعدائها ، ولا أساهم فى هذا الكفاح بكل ما أوتيت من قوة الفكر والبيان . إنك بذلك تساعد على إفناء المادة التى أعيش منها ، وتصيرنى أنا نفسى إلى عدم .

فقال هرمس وهو يشيح بوجهه كى لا تقع عيناه على وجه أوريون المشوه :

ـ ولكنك كلما تعلقت ببلادك ، انطويت على نفسك ، وضيقت أفق تفكيرك ، وآثرت مصلحة اليونان العارضة على خير الإنسانية الباقى .

فعقد الفيلسوف أصابعه الضامرة على بطنه المتكور ، وقال دون أن يفارقه هدوؤه :

ـ الحرية التى أنشدها لبلادى هى القوة التى لا بد أن تتوافر لى أولا ، كى أستطيع فى دائرتى المتواضعة تحقيق الخير والحرية للإنسانية كلها .

فندت عن أوريون صرخة أعرب بها عن إعجابه بأستاذه . ولكن هرمس لم يعبأ به واستطرد :

ـ وإذا كانت القوى غير متكافئة ؟ . . . إذا كانت جيوشنا لن تستطيع الثبات أبداً أمام جحافل الفرس ، أفلا يكون من الخير لنا أن نستعيض عن الحرب بالسياسة وأن نخدع أولئك القوم ونتقرب إليهم ، عسى أن تنفع الحيلة حيث أخفقت الحرب؟

٩

وهنا صاح الفيلسوف :

— ولكن الحرب لم تنته بعد . وليس معنى تقهقرنا فى المعركة الأولى أن الفشل مقضى به علينا .

فقال الكاهن هرمس وهو يبتسم ويربت على كتف الفيلسوف :

— لا . . . لا ياصديقى شالكاس . . . إنك لم تعد فيلسوفا بالمرة . إن عواطفك الوطنية تطغى عليك وتؤثر فى تفكيرك . وإنك الآن لتفضل هزيمة بلادك وخرابها على استخدام عقلك وذكائك وحنكتك لإنقاذها .

فقطب شالكاس حاجبيه وقال وهو يطيل النظر إلى مضيفه :

— لا أنت ولا أنا سنصبح شيئاً مذكوراً إذا ما فقدت البلاد معركة استقلالها ضد جيوش داريوس ! . . . وأنه لمن البديهى أن الحكمة والفلسفة والفنون والشرائع لن تزهر فى أمة من العبيد . . . والواقع أنى عندما أكافح من أجل حرية بلادى ، إنما أذود فى الوقت نفسه عن حرية فكرى ، أى عن تطور الفكر البشرى إطلاقاً . لهذا السبب أنا من أنصار الحرب ، ومن أنصارها حتى النهاية !

فأسبل هرمس عينيه المستديرتين الضيقتين ، وتظاهر بالتبسط والمسايرة والتسليم . ومضى الفيلسوف يفكر وهو يدير إبهاميه على بعضهما فى حركة هادئة . وانطلق أوريون يضحك بلا مسوغ ضحكات مزعجة متقطعة ، وقد تهدل لحم خديه ، وارتعش أنفه الأفطس ، وبرزت من بين شفتيه الغليظتين أسنانه الحادة السوداء .

وقر فجأة وزايلته نوبة الضحك ، وارتد وجهه ساكناً كئيباً حزيناً . فلاح عليه ضوء غريب من جمال لم يلحظه ولم يبتهج له غير الفيلسوف شالكاس

وقال صاحب الدار بعد فترة :

— لقد أنذرتكم وأنذرت سواكم وما أنا بعد بمسئول إذا حلت الكارثة ! . .

وهنا انتفض أوريون الدميم ، واستطاع بعد جهد أن يقول :

— أية كارثة ؟ ! . . .

وتلفت يميناً ويساراً كأنه يشهد الملأ على ما سيقول وأردف :

— نحن سنكسب هذه الحرب . . . سنكسبها . . . سنكسبها ! . . .

وطفق يضحك كمعتوه ويهز جسمه هزاً متوالياً ، كأنما هو يرقص على نغمات موسيقى النصر . ثم صمت مرة أخرى وأربد وجهه وعاودته كآبته . فانتحى زاوية قبع فيها وظل يحدق باهتمام إلى قدميه .

فلم يتمالك الفيلسوف نفسه ، وانفجر بالضحك هو الآخر وقال :

— ما أمتع حياتى معك يا أوريون ! .. إن تقلباتك الغريبة تسحرنى وتفتننى ! . . . إنك تمثل الحياة الكبرى ، وكل ما فيها ينعكس عليك . كل ما سوف يأتى به القدر يستشعره قلبك وتفيض آثاره على محياك . وما دمت أنت مؤمناً بالنصر فأنا مؤمن به أيضاً . . . فلا تكتئب ولا تحزن . . . إن « هستيا » تقدرك وتثق فى إلهامات بصيرتك ، وتعتقد نفس اعتقادك ولو كره والدها . فنحن ثلاثة : هى وأنت وأنا ، ولسوف نتغلب بعون الآلهة على ضعف هرمس وشكوكه .

فغافل أوريون هرمس ومال نحو أستاذه وهمس فى أذنه متوسلاً وهو يرتجف :

— لا تنصرف . . . ابق قليلاً . . . أريد أن أراها فى حلتها المقدسة البيضاء قبل أن تذهب إلى المعبد . . .

فطمأنه الفيلسوف بنظرة معنوية ، ثم تحول إلى مضيفه وقال :

— لابد أن سيكون احتفال هذه السنة رائعاً . . .

فأجاب الكاهن هرمس وهو منصرف إلى تفكيره :

— ماذا تقول ؟ . . . نعم . . . أجمل العذارى من أرقى بيوتات اليونان

اشتركن فى حياكة ثوب الإلهة « بالاس » الذى سنكسو به اليوم تمثالها . سيكون الموكب كما ألفتموه عظيماً . . . ولكن رهطاً كبيراً من الأعيان والوجهاء سيشترك فيه هذا العام ، كما سترتل « ميرا » لأول مرة ، يصحبها جمع من الفتيات ذوات الجمال الباهر والصوت الرخيم .

فهتف أوريون وهو يصفق :

ــ سيكون عيد « بالاس » بشير النصر !

ثم اتجه بغتة نحو هرمس وركع أمامه نصف ركعة ، ثم تشجع وقال فى احترام عميق :

ــ آمل وأنت الكاهن الأول فى معبد الإلهة « بالاس أتينا » ألا ترفع إليها اليوم صلواتك وأنت فى شك من انتصار أبنائها ! . . .

فرمقه هرمس بنظرة ساخرة . وقال فى صرامة وشموخ :

ــ إن سلامة نيتى تثبت لها طهارة قلبى .

وكان الفيلسوف يحدق إليه وهو ينطق بهذه العبارة . فلما التقت عيناهما ابتسم هرمس ابتسامة خفيفة وأشاح بوجهه وأطرق . وفى هذه اللحظة سمع صوت عذب يقول : هأنذى يا والدى . . .

وتلفت الكل وإذا بهستيا الجميلة واقفة بباب مخدعها تبتسم لهم ، وترفل مبتهجة فى حلة العيد الجديدة البيضاء .

وصاح الفيلسوف وهو يتأملها معجباً بها :

ــ كم أنت جميلة يا هستيا !

فطربت الفتاة لهذا الإطراء ، وتألقت عيناها الزرقاوان ، وانسكب على كيانها كله ضوء من الزهو الفاتن البرىء . ولكنها قالت فى وداعة ورقة :

ــ سترى فى الموكب فتيات أجمل منى بكثير يا أستاذى العزيز ...

فلوح الفيلسوف بيده وقال :

ـ أنت أجملهن جميعاً .

فأمالت هستيا رأسها على كتفها بحركة لطيفة ، وقالت وقد ارتعشت جدائل شعرها المصفف حول رأسها كتاج من ذهب :

ـ لقد علمتني التواضع يا أستاذى ، فحذار أن تلقى فى نفسى بذور الكبرياء .

فقال الكاهن هرمس وهو ينظر إلى ابنته نظرة ملؤها الاعتزاز :

ـ يحق لك أن تفخرى يا ابنتى فالكبر من شيم الجمال . . .

وأردف مداعباً وهو يبتسم :

ـ آه لو رآك خطيبك « كرونوس » على هذه الصورة ، إذن لازداد جنوناً بك . . .

فغضت الفتاة من بصرها حياء وقالت فى خفر ودل :

ـ ألن تكف عن ذكر هذا الموضوع يا أبت ؟ . . .

فقال الفيلسوف وهو يحك صلعته :

ـ هذا أحب موضوع إلى الفتيات يا هستيا .

فتضرجت وجنتاها ، وشاع الخجل والاضطراب فى صوتها ، وقالت وهى تلقى على الفيلسوف نظرة عتاب :

ـ وأنت أيضاً يا أستاذى ؟ ! . . . إنى أغفر لك لأنى أحبك ، ولكن عدنى بألا تطرق هذا الموضوع مرة ثانية . . .

فقهقه الفيلسوف وقال :

ـ إذا امتنعت أنا عن الكلام فيه فلن تعدمى أنت وسيلة لإثارته بنفسك . . .

فضج الوالد بالضحك ، وتململت هستيا ، وتحولت عنهما إلى أوريون . ولكنها ما كادت تدنو منه وتنظر إليه ، حتى انقبض محياها ، وخنق الاشمئزاز الكلمات فى صدرها على الرغم منها .

وكان اوريون قابعاً فى زاويته ، رافعاً رأسه إليها ، يتأملها بنظرات ملؤها العبادة والتقديس . فلما ابتعدت عنه ، وأحس منها ذلك النفور الطبيعى الذى لم تكن لها حيلة فيه . طوى رأسه على صدره كى يخفى وجهه الدميم ، وأرسل أنة قصيرة ، وانكمش ولم يتحرك .

وبعاطفة إنسانية نبيلة غالبت الفتاة نفسها وتحولت نحو أوريون وقالت له :

ــ ألا ترى أن من واجبى اليوم ألا أفكر فى نفسى ، أو فى خطيبى ، أو فى أية سعادة غير سعادة ومجد وطنى ؟ . . . كل عذراء فى بلاد اليونان ، ولا سيما أنا بنت الكاهن الأول ، يجب أن تتجه اليوم بعقلها وقلبها إلى المعبودة « بالاس » كى تعجل بعقد أكاليل النصر على هامات أبطالنا !

فهز الفيلسوف رأسه ، وتعمد أن يقول كى يحرج هرمس :

ــ ما أعجب أن تناقض البنت آراء أبيها .

فتطلعت هستيا إلى أستاذها وقالت فى دهشة :

ــ ما معنى هذا ؟ . . .

فأجاب الفيلسوف على الفور :

ــ والدك يرى أن النصر على الفرس ضرب من المحال ، وأنه أولى بنا وأجدى لمصالحنا أن نتفق معهم ونلقى السلاح .

فبهتت هستيا ، وامتقع لونها وتبدلت فى لحظة . تغضن جبينها وارتسمت عليه صراحة مهيبة . ثم اتقدت عيناها واتسعتا ، وقدح منهما بريق غضب واستنكار . زايلها كل خفر وكل رقة ، وتقلص عنها جمال العذارى ، وأغدق عليها السخط جمالاً آخر أشد تأثيراً وأوقع فتنة . فمشت إلى والدها كامرأة راشدة كاملة ، وقالت فى صوت جاف جهير :

ــ أصحيح ما قاله شالكاس يا أبت ؟ .

فاضطرب هرمس ، وأجاب متلعثماً وهو يرشق الفيلسوف بنظرة حانقة :

ـــ هذه الفكرة عرضت لى . . . وليست من الأهمية بحيث . . .

فقاطعته هستيا منفعلة :

ـــ بل هى من الخطورة بمكان عظيم . واو تسربت منك أنت الكاهن الأول ، وتغلغلت فى أوساط الشعب فى أيام المحنة هذه التى نجتازها ، فمن ذا الذى يضمن أن تظل الأمة متماسكة أمام عدوها فى حرب هى بالنسبة لها حرب حياة أو موت ؟ . . .

وصمتت فجأة ثم صرخت :

ـــ أنتم تعلمون شدة حبى لخطيبى كرونوس ، ولكنى برغم هذا الحب أوثر أن يقتل فى ساحة الحرب على أن يعود إلى حياً وفى صدره خيبة الهزيمة . . . الموت . . . حب الموت يا والدى . . . إنكار الحياة . . . الزهد فيها . . . التحرر من مباهجها . . . التغلب على سلطانها باحتقار هذا السلطان . . . تلك هى المبادئ التى أخذتها عن أستاذى شالكاس والتى أعلم علم اليقين أن فيها سعادة وطنى كما كانت فيها حتى اليوم سعادتى !

وكانت تتكلم وأوريون شاخص إليها ، يتأمل وجهها الملتهب ، وعينيها القاسيتين ، وشفتيها القرمزية وهى ترتجف ، وإشاراتها القاطعة ، وحركاتها الفياضة بالإباء والعزة . فغفر لها من صميم قلبه نفورها العميق منه ، لفرط ما شاهد من إخلاصها وصدق وطنيتها .

وفجأة وقع بصرها عليه فلم تتقزز ، بل اتجهت نحوه ، وأمسكت بذراعه ، وتقدمت به إلى حيث كان يجلس والدها واستطردت :

ـــ ماذا قدمنا نحن للوطن ؟ . . . لا شىء ! . . . أما أوريون الذى منعه الضعف والعجز البدنى عن حمل السلاح والذى لم يستطع أن يقدم للوطن حياته ، فقد وهب خزانة الجيش كل ثروته ! . . . يجب أن نقتدى

به . وإن أعوزتنا روح التضحية فلا أقل من أن نصمت وندع اليونان تقاتل، موحدة متراصة الصفوف مرتاحة الضمير!

ورنت بطرفها إلى أوريون وربتت على كتفه . فتفتح قلب الرجل الدميم المنبوذ ، وابتهجت روحه ، وانحدرت على خده المشوه دمعة .

وأحست هستيا أنها قد أسرفت فى القسوة على والدها . فاندفعت نحوه وطوقته بذراعيها ، ومضت تبتسم وتقول بصوتها الناعم وقد عاودتها فتنة العذارى الرقيقات المستضعفات :

ـ سامحنى يا أبت . . . ما قصدت الإساءة إليك . . . لتنصب علىّ لعنة الإلهة « بالاس » فى يوم عيدها العظيم إن كان قد خامرنى أى شك فى وطنيتك . . . اعف عنى . . . ابتسم لى كعادتك . . . انس ما بدر منى . . . وهات يدك . . .

وتناولت يد والدها وقبلتها فى خشوع . ثم انثنت إلى أستاذها وقالت وقد تغاضت عن أوريون كعادتها ، وأهملته كأن لم يكن له وجود :

ـ ألا ترى أنى بوصفى بنت الكاهن الأول يجب أن أحمل الآنية المقدسة وأتقدم موكب العذارى ؟ . . .

فأجاب الفيلسوف :

ـ يكون منك أجمل وأروع وأنت بنت الكاهن الأول فى معبد الإلهة التى سنحتفل اليوم بعيدها ، أن تضربى المثل الصالح فى التواضع ، وأن تقدمى عليك أترابك وتسيرى فى مؤخرة الموكب . . .

فحنت هستيا رأسها وقالت :

ـ لك ما تريد يا أستاذى . وسأظل فى المؤخرة وأنت العظيم إلى جانبى .

ولم تكد تتم عبارتها حتى سمعت خارج البيت حركة وأصوات مصحوبة بلجب كبير .

فصاحت هستيا وقد غمر الفرح وجهها :

ــ جاءت العذارى وأزف الموعد . . .

فهتف أوريون :

ــ هيا بنا . . .

فرمقهم الكاهن هرمس بنظرة جانبية ، ثم قال فى هدوء وهو يشيح بوجهه ويبتسم ابتسامته الخفيفة الغامضة :

ــ تقدمونى إلى المعبد . يجب أن أغتسل وأتطهر قبل أن أشرع فى الصلاة . تقدمونى ولتبارككم الآلهة .

فنهض الفيلسوف شالكاس ، وتأبطت هستيا ذراعه . وسار أوريون خلفهم بخطى التابع القانع السعيد ، وخرجوا جميعاً متجهين نحو المعبد .

* * *

ولم يكن هرمس فى حاجة إلى التطهر . إذ الواقع أنه كان قد اغتسل وتطهر منذ الفجر . فلما ألفى نفسه وحيداً ، ذكر كل كلمة قالها للفيلسوف ، وطفق يضحك . ضحك ضحكات ساخرة هادرة متوعدة شبه وحشية . ثم اندفع نحو نافذة صغيرة وفتحها ، ثم أطل منها ، وجعل يتأمل الشارع العريض وهو يلهث . وفجأة أبرقت عيناه ، وارتعش بدنه كله ، وصاح :

ــ ها هم . . .

وأسرع وفتح الباب . فنفذ منه سبعة رجال فى مقدمتهم رئيس الشرطة والشاعر الغنائى المشهور أكتيون . فاستقبلهم الكاهن مرحباً ، ثم أهاب بهم وهو يتعجلهم :

ــ الوقت ضيق وثمين . . . فتكلم . . . تكلم يا أكتيون . . . ماذا فعلت ؟ . . .

فقال الشاعر وهو يصعر خده ويشمخ برأسه زهواً وكبراً :

ــ لقد أعددت المنشورات وهى معى . . . هذه هى . . . موقعة بخاتمك وخاتم الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة . . . سنوزعها على الشعب فى أيام العيد . . . ثم نبدأ بإشعال نار الثورة بعد غد ، فنحتل المرافق العامة ، وننظم المظاهرات ضد الحرب ، وننادى بسقوط القائد ملتيادس ، وضرورة عقد الصلح مع الفرس وملكهم داريوس . . . .

فهتف رئيس الشرطة :

ــ مرحى لك يا أكتيون . لأنت بطل الثورة ولا ريب ، وزعيمنا الأوحد فى المستقبل القريب .

فاندفع الكاهن هرمس ، وعانق الشاعر وقبله وهو يردد :

ــ أنت زعيمنا . . . أنت منقذنا . . . امض فى سبيلك ، وهيء رجالك للعمل وأسرع . إن كل لحظة محسوبة علينا . فابدأ بتوزيع المنشورات فى الحى الشرقى من المدينة حيث يقطن التجار أصحاب المصالح . أما رئيس الشرطة فسيحرض الحرس كله على عدم التدخل لمنع المظاهرات . وأما أنا فسأنطلق من فورى إلى المعبد حيث أطلع الكاهن الأعظم على ما قمتم به من جهود ، وأشغل الجماهير بصلوات وحفلات العيد . . . اذهبوا . . .

فانحنى الجميع فى احترام وقبلوا يد الكاهن . فشيعهم هرمس حتى الباب وهو يحدق فى عينى رئيس الشرطة تحديقاً غريباً ، وينظر إلى الشاعر المزهو أكتيون نظرات ملؤها التشجيع والتقدير والإعجاب .

ولما ألفى نفسه بمفرده مرة ثانية ، لم يضحك ، بل ضم قبضتيه ، وعض على شفتيه ، وأرسل شبه صرخة ، ثم التقط أنفاسه واندفع متجهاً نحو « الأكروبول » كى يلحق بموكب العذارى .

* * *

وكان الأكروبول قلعة أقيمت فى أثينا فوق صخرة عالية شيدت عليها معابد مختلفة ، منها البارتنون معبد الإلهة بالاس . وكانت الجماهير الغفيرة قد احتشدت حول المعبد . أما المعبد نفسه فكان مقسما إلى مناطق ثلاث : المنطقة الأولى رحبة فسيحة أعدت فى الجهة الشرقية لتلقى القرابين والنذور ، والمنطقة الثانية رحبة أيضاً أقيمت فى الجهة الغربية لحفظ كنوز الإلهة وجواهرها . وأما المنطقة الثالثة فكانت تبرز فى الوسط ، وينهض فيها على قاعدة عظيمة تمثال الإلهة نفسها .

وكانت الجماهير ومعظمها من أبناء الشعب البائسين الكادحين وذوى العاهات ، تتجمع عند أبواب البارتنون فى انتظار مقدم الموكب وبدء الصلاة .

فالمشلولون والمقعدون والعميان ، والأمهات الحاملات أطفالهن المرضى ، والشيوخ الذين أعيتهم مكافحة الهرم ، والمصابون بداء الصرع ، والأرامل الحزينات ، والمطلقات المنبوذات ، والنساء العقيمات اللاتى يتمنين الحمل ويشتهين الأمومة ، كل أولئك كانوا يتزاحمون بالمناكب نحو المعبد ، ومن خلفهم طوائف المتفرجين من أبناء الطبقة الوسطى ، وأرهاط الشباب الماجن العابث من أبناء الطبقات العالية ، جاءوا لإمتاع نفوسهم بالاندماج فى حفلات العيد ، والاشتراك فى الرقص مع الغوانى ، والاستماع لتراتيل المغنية « ميرا » ومشاهدة موكب العذارى .

أما الرجال والنساء الذين ذهب إلى الحرب أبناؤهم أو أزواجهم أو إخوتهم ، والذين فقدوا الكثيرين منهم فى ميدان القتال ، فقد كانوا فى المقدمة متجمعين بعضهم حول البعض الآخر ، يتنسمون أنباء القتال ، ويواسون المرضى ، ويبتهلون إلى الإلهة بالاس أن تعجل يوم الخلاص والنصر .

ولم يكن ليلفت النظر فى هذه الجموع سوى الغوانى المحترفات بائعات الهوى . فقد كن يبرزن من بين الجماهير بأرديتهن الزاهية ،

وضحكاتهن العالية ، ونكاتهن الصارخة ، ووجوههن الوقحة المطلية بالمساحيق . وكن يتحرشن بالشبان الأثرياء ، ويبادلنهم مختلف النكات ، ويعقدن معهم أواصر الصداقة ويضربن لهم مواعيد الغرام .

وكانت الأحاديث تدور حول المرض والحرب والحب . وكان الفرح بالعيد يخفف من وطأة المرض ، والأمل العميق فى النصر يحجب كوارث الحرب ، ومشهد العذارى المنتظر يؤجج فى النفوس شعلة الحماسة ويضرم عاطفة الوطنية وعاطفة الحب .

وفجأة ترامت إلى الآذان أنغام موسيقية بعيدة . فاضطربت الجماهير واختلطت ، ومالت صفوفها المتراصة متدافعة كالموج ، وارتفع صراخها وهتافها عاصفاً مدوياً كهدير بحر خرافى هائل .

وتقدم الموكب شيئاً فشيئاً ، وأفسح له الشعب الطريق . ولم يكد يبدو هرمس ومن خلفه الكهنة يتبعهم خدم الهيكل حتى استولى على الناس شبه جنون . فاندفعوا نحو الكاهن الأول ، وداس كبيرهم على صغيرهم ، وولولت النساء ، وبكت الأطفال ، ولم ينعم غير نفر قليل بلثم رداء هرمس خادم الإلهة بالاس .

وفى أقل من لحظة تبدلت نفسية الجماهير ، وخمدت أصواتها ، وقر فيها النظام ، واحتواها الصمت .

تراجع الناس واصطفوا خاشعين ، ثم اشرأبت أعناقهم ، واندلعت عيونهم ، ومضوا يحدقون فى لهفة ونشوة إلى موكب العذارى .

وكن عشرا من أجمل وأفتن بنات أثينا ، يسرن متئدات شامخات ، صارمات الوجوه فى جلال مهيب ، تائهات العيون فى ورع قدسى ، ملتهبات الخدود فى فرح محتجز عميق ، يحملن فى كبر واعتزاز ثوب الإلهة الجديد الذى حاكته أناملهن ، وزركشته ، ووشت مختلف أطرافه ، ورسمت عليه صوراً رائعة من شتى المعجزات التى قامت بها الإلهة ،

ونقشت فيه أسماء الأبطال الذين استشهدوا وماتوا فى سبيل الوطن .

وجثت الجماهير عند مرور الموكب ، وحنت رؤوسها أمام الثوب الذى كان يتألق ويسطع تحت أشعة الشمس ، متموجاً من خلالها ، سابحاً فيها ، أشبه بقارب صغير من ذهب ، يرمز إلى النجاة ، ويتجه فى هدوء نحو شاطئ الأمن والخير والسلام .

وارتفعت غمغمة كبيرة تعالى بعدها الهتاف :

ـ المجد لبالاس أتينا ! . . .

فارتعشت يد هستيا وهى تحمل طرف الثوب المقدس ، وضمت شفتيها خشية أن تبكى من فرط التأثر ، واستطردت السير وئيدة الخطى ، صافية العينين ، مشرقة الوجه ، ممشوقة القد ، لينة الأعضاء ، تكلؤها عين الفيلسوف أستاذها ، ويرمقها أوريون الدميم بنظرات ملؤها الحسرة ، وتنهب حسنها الباهر أبصار الجماهير .

ومر الأشراف والنبلاء وكبار رجال الحكومة ، وتبعتهم فرق الموسيقى وجماعة الشعراء والأدباء ورجال الفن ، يحيطون بالمغنية « ميرا » وقد ارتدت ثوباً أبيض ناصعاً محلى بزهرات حمراء ، وأرخت شعرها الأسود الرائع على كتفيها ، وتمنطقت بحزام من فضة . فما إن عرفتها الجماهير حتى صاحت :

ـ ميرا . . . ميرا . . .

فابتسمت المغنية ، ولوحت للهاتفين بذراعها ، كأنما هى تعدهم بسماع ما لم يسمعوا فى حياتهم من أشجى التراتيل وأحرها وأقدسها .

وجعل الموكب يختفى ويغيب فى جوف المعبد على مهل . ثم تدفقت فى أثره الجماهير متسابقة متدافعة ، ثم هدأت الساحة بعض الشىء ، وتخلف فيها ذلك النفر من الشباب الأثرياء فى صحبة بنات الهوى اللاتى جلسن على الأرض ، ومضين يجاذبن أصدقاءهن الحديث ، ويداعبنهم ،

ويمرحن ويضحكن فى انتظار نهاية الصلاة وبدء أفراح الشعب .

وكان آخر من دخل المعبد هو عاشق هستيا التعس المسكين ، أوريون الدميم المعذب المنبوذ الذى لم تستطع أن تطيل النظر إليه عين ، والذى لم يكن له بين كل هذه الجموع صديق .

* * *

واخترق أوريون الجماهير وتسلل بين أعمدة المعبد ، حتى وقع اختياره على زاوية يمكن أن يلمح منها الآونة بعد الأخرى وجه حبيبته هستيا . وكان الكاهن الأعظم قد بدأ يتلو صلاته وهو جالس على أريكة عالية مجاورة لقاعدة تمثال الإلهة ، يشخص إليها البصر ، موفور التقى ، مشبوب الفكر والقلب والروح . أما الكاهن الأول هرمس فكان قد اقترب من التمثال المقدس وحوله صغار الكهنة يبتهلون ويرنمون ، وشرع ينزع فى بطء وحرص عن الإلهة ثوبها القديم ، ويتناول الثوب الجديد من أيدى العذارى ويخلعه على التمثال .

وظل الكهنة يرتلون والشعب صامت ثم انحنوا فجأة وتراجعوا كأنهم يقدمون الإلهة هبة للجماهير .

ولاحت إذ ذاك « بالاس أتينا » تتلألأ فى ثوبها الجديد الرائع ، مستوية على قاعدة تمثالها ، عزيزة ومرهوبة ، تعلو رأسها خوذة يزينها رسم أبى الهول ، ويحمى صدرها درع نقشت عليها صور بعض الأفاعى ، وتقبض يدها اليسرى على رمح أسند إلى درع ، وتحمل يدها اليمنى شارة النصر المجنح .

وعندئذ جاشت الجماهير واصطخبت . فارتفعت الأذرع مرتعشة ، وامتدت الأكف نحو الإلهة متضرعة ومبتهلة ، وفتح الكاهن الأعظم باب الحجرات الشرقية حيث تراكمت القرابين والنذور التى قدمها الشعب بالأمس . فضج الناس بالفرح ، واتقدت حماستهم وجعلوا يرددون :

ــ المجد لبالاس أتينا ! . . .

وقبل أن تفتر حميتهم ، توسطت المغنية ميرا بهو المعبد ، ثم تقدمت صوب الهيكل و وقفت تجاه تمثال الإلهة . ثم جثت ، ثم نهضت ، ثم رفعت ذراعها وأنشأت ترتل بصوتها الحار الجميل وهى شاخصة إلى عينى الإلهة ، والجمهور يتبعها النظر ، وقد خفتت صيحاته ، وحل محلها سكون خاشع رهيب .

وغنت ميرا تمتدح بالاس وتمجدها :

« الحكمة شعارك يا بالاس والعقل قوتك » .

« الفصاحة لسانك والفنون زينتك » .

« الرقى إيمانك والحضارة قبلتك » .

« فامنحينا النور يا عذراء الخلود وقوى قلوبنا ! »

فرددت الجماهير فى حماسة :

ــ امنحينا النور ! . . .

وجلجل صوت ميرا واستطردت :

« يا بعيدة النظرة يا سيدة الروية » .

« يا بنت العلى وحارسة المدنية »

« يا ذات العيون الصارمة والنفس الأبية »

« يا درع الوطن ، يا عذراء ، أنقذينا ، وامنحينا نعمة الخلاص والحرية ! . . . »

فرددت الجماهير فى جنون :

ــ امنحينا نعمة الخلاص والحرية ! . . .

وحلق صوت ميرا ودوى كالرعد القاصف :

« يا راعية الأبطال يا عاقلة » .

« يا ربة الحكمة والشجاعة يا باسلة . »
« يا عبقرية السيف والقلب والفكر . »
« يا روح الكفاح ومجد هذا العصر . »
« امنحينا الثبات يا عذراء . »
« وجودى علينا بالنصر ! . . . »
فماجت الجماهير وانشقت حناجرها وهى تصرخ :
— جودى علينا بالنصر !

ثم صمتت ميرا ، وانحنت تقبل قدمى الإلهة ، ثم تراجعت فتلقاها الشعراء والفنانون وأحاطوا بها وجعلوا يلثمون أطراف ردائها ، بينما كانت الموسيقى تعزف ، والجماهير تهلل ، والعذارى ينثرن الورود على الإلهة فتتساقط كالنجوم وتنحدر على قاعدة التمثال حيث كان يزدحم المصلون ويتبارون فى أيهم يفوز بوردة منها .

وبعد أن أتم الكهنة الشعائر الدينية وتحولوا فى اتجاه رئيسهم الأعظم وانحنوا لتحيته ، اصطفت الفتيات فى نصف دائرة تجاه الهيكل ، ووقف هرمس على الدرجة الثانية لقاعدة التمثال ، ثم طوى ذراعيه على صدره وقال :

— يا أطهر وأنقى عذارى اليونان . تعلمن أن الكاهن الأعظم لم يعهد إليكن بحياكة ثوب الإلهة العذراء بالاس إلا ليكون الاقتداء بفضائلها رائدكن منذ الساعة ، وحتى بعد أن تغادرن بيوت آبائكن إلى دور أزواجكن. فلتتقدم إذن كل واحدة منكن ولتقسم أمام الإلهة أنها ستحتفظ بنفسها طاهرة من كل خيانة وكل نميمة وكل رذيلة وكل دنس . واعلمن أن من تحنث بيمينها لا بد أن تحق عليها لعنة الإلهة بالاس ! . . .

فرفعن جميعاً أبصارهن نحو الإلهة ومددن أذرعهن وقلن فى صوت واحد :

— نقسم أن نقتدى بالإلهة بالاس !

فاستدار هرمس نحوها وتمتم بعض الصلوات ، ثم تحوّل وبارك العذارى . فانحنين لتحيته بعد أن قبلن قدمى الإلهة ، ثم انصرفن متئدات ساكنات ، وقد امتلأت قلوبهن راحة وصفاء وقوة .

وبدأ المصلون يمرون بالتمثال وهم يلمسونه ويقبلون أناملهم متبركين . ثم اندفعت جموعهم نحو الخارج ، وفترت حركتهم فى المعبد ، وشرع الكاهن الأول هرمس يتلو صلاة الشكر الطويلة الجامعة وهو جاث تجاه التمثال ، والكاهن الأعظم يردد عن بعد نفس الصلاة ، ويتهيأ لنحر الذبائح التى قدمها المؤمنون قرابين للإلهة بالاس .

وكان قد خطر لحستيا أن تتخلف ريثما يفرغ والدها من صلاته فيعودا إلى البيت معاً . ولكنها ذكرت أن الفيلسوف أستاذها لابد أن يكون فى انتظارها خارج المعبد ، وأن من واجبها ألا تدعه ينتظر . فاتجهت نحو الباب . غير أنها لم تكن تتوسط الرحبة الكبيرة المؤدية إلى الخارج ، حتى جمدت فى مكانها ، ثم ابتسمت ، واستضاء وجهها كأنما قد صب عليه فجأة سيل من نور . . . أبصرت خلف أحد أعمدة المعبد حبيبها وخطيبها كروزوس ، رئيس فرقة الفرسان فى الجيش الوطنى المقاتل ، يشير إليها بالصمت ، ويدعوها إلى الدنو منه . فتقدمت وهى ترتعد . فجذبها الشاب من يدها ، وسار بها إلى أقصى المعبد حيث ينهض عمود ضخم أخفاهما عن الأبصار . وهناك ضمها فى حنان إلى صدره ، فأقصته عنها فى رفق وغمغمت :

— كيف جئت ؟ . . . إنها لمعجزة ! . . . أأنت فى إجازة ؟ . . . وهل . . . هل نحن منتصرون ؟ . . .

فحاول الشاب أن يجيب . ولكنها تأبطت ذراعه وآثرت أن تخرج به من المعبد . فردها بحركة وقال فى همس :

ـ أستاذك وأوريون ينتظران بالباب ، ولا أريد أن ألتقى بهما قبل أن أتحدث إليك . . . إليك وحدك . . . الآن . . . لدينا متسع من الوقت . . . ابقى مكانك . . . لا تتحركى . . . اصغى إلىّ . . .

وكان شاباً وضيء الطلعة ، سبط القوام ، مدمج الأعضاء ، بادى عظام الوجه فى رجولة أخاذة . وكان يتكلم وهو يرتجف ، ويعض شفته الدقيقة السفلى ، ولا يفتأ يرشق هستيا بنظرات حادة متقطعة وجلة ، كأنما هو يخشى التحديق إليها مواجهة .

وكانت هى تتطلع إليه وقلبها يخفق ، ونظراتها تحوم حول ملامح وجهه وتقتنص من حركاتها ما يمكن أن يميط لها اللثام عن دخيلة نفسه .

وقالت بعد فترة :

ـ أنت مضطرب . . . لم أرك أبداً على هذه الصورة . . . ماذا ؟ . . هل بدأت المعركة الثانية ؟ . . . وهل هزم جيشنا ؟ . . . تكلم . . . أسرع . . .

فقال الشاب وهو يلتقط أنفاسه :

ـ لن نهزم فى ساحة القتال أبداً . ولكننا قد نهزم هنا . . . فى الداخل . . . وهذه الهزيمة المروعة قد تقضى على جيشنا شر قضاء ! . . .

فتمتمت هستيا :

ـ لا أفهمك . . .

فاستطرد وهو يختلج :

ـ ما إن ظفرت بأجازة يومين ، ومنيت نفسى برؤيتك ، حتى امتطيت صهوة جوادى وأسرعت ودخلت المدينة متجهاً نحو بيتك . ولكنى لم أكد أشرف على بابه حتى رأيت الشاعر أكتيون خارجاً منه . . . من بيتك أنت . . . خارجاً فى صحبة نفر من أصدقائه يتقدمهم رئيس

الشرطة . فاستغربت أمرهم ، ولم أفهم لماذا اجتمعوا اليوم فى دارك ، وتراجعت. ولكن أكتيون أبصرنى فودع رئيس الشرطة ، ثم نادانى واندفع نحوى وعانقنى . ثم استفسرنى عن حقيقة موقف الجيش فى ميدان القتال وهو يبتسم ابتسامة غامضة أدهشتنى وأرابتنى . وفجأة ، مال إلىّ ، وربت على كتفى ، وقال لى بالحرف الواحد :

« من الخير لك أن تظل فى أثينا ، وأن تنضم إلى صفوفنا ، وأن تعدل عن العودة إلى ميدان القتال ، لأن البلد أصبح فى أيدينا . وقد اعتزمنا نحن أن تعقد الصلح مع الفرس ، وأن نشعل نار الثورة فى الداخل كى نضع حداً لحرب الاستقلال الطائشة ، ونعرقل جهود القائد ملتيادس ، ونقيم الكاهن الأعظم صديق الفرس ملكاً علينا ! . . . »

هذا ما قاله لى الشاعر أكتيون . فبهت أنا ولم أصدق . وعندئذ أبرز لى الشاعر منشوراً يدعو إلى الثورة ووقف القتال ، موقعاً عليه بخاتمه هو ، وخاتم الكاهن الأعظم ، وخاتم رئيس الشرطة ، وخاتم شقيقى الأكبر « بلوتون » حارس صوامع الذخيرة فى أثينا ، وخاتم رجل آخر تعرفينه أنت حق المعرفة يا هستيا . . .

فاندفق الدم إلى وجه الفتاة ، وانخلع قلبها وهتفت :

— من ؟ . . . من هو ؟ . . .

فأومأ الشاب بأصبعه إلى الهيكل وقال :

— هو ذلك الرجل الذى يصلى ! ... هو والدك ... هو الكاهن الأول فى معبد بالاس ، وهو الذى عقد المتآمرون اجتماعهم صباح اليوم فى بيته ! . . .

فجحظت عينا الفتاة ، وعقد الحول لسانها . أما كرونوس فاستطرد يقول :

ـ تصورى مبلغ دهشتى ورعبى عندما تأكدت أن الكاهن الأعظم وأكتيون الشهير ووالدك النبيل ورئيس الشرطة نفسه وشقيقى الأكبر بلوتون ، أى صفوة رجال هذه الأمة ، هم جميعاً من الثوار دعاة الهزيمة وأنصار الفرس وأعداء جيشنا الذى يقاتل قتال المستميت ذوداً عن كرامتنا وحريتنا واستقلالنا ! . . . جن جنونى ، ولم أفكر فى تلك اللحظة إلا فى أخى . . . فى شقيقى . . . فى ذلك الرجل الذى ربانى بعد وفاة والدى ، والذى لا أحب بعدك فى هذه الدنيا إنساناً سواه . فلم أتردد ، وقفلت راجعاً إلى بيتنا ، والتقيت بأخى ، وما زلت به أنبهه وأحذره وأبصره بالخطر الذى لابد أن يستهدف له لو فشلت الثورة ، حتى اقتنع برأيى ، ونزل على حكمى ، وكتب أمامى إلى الشاعر أكتيون بأنه قد عدل بصفة نهائية عن تأييد المتآمرين . فتنفست أنا الصعداء . ولكنى لم أهدأ حتى عثرت على ملجأ أمين نصحت شقيقى بأن يختبئ فيه خشية أن ينقم عليه أكتيون فيبعث بمن يقتله . ولما اطمأن قلبى على أخى ، عدت فامتطيت جوادى وأسرعت إلى هنا أحمل إليك النبأ المنكر المشؤوم . . . فخذى . . . اقرأى أنت أيضاً وتأكدى . . . هذا هو المنشور وهو يدل أبلغ الدلالة على صدق كلامى!

وصمت وهو يلهث . فتعاقبت أنفاس الفتاة ، وأحست كأن هوة عميقة تحتفر عند قدميها ، وكأن دواراً عنيفاً يطوح بها . ذكرت تلك العبارات الغريبة النابية التى صدرت اليوم فى البيت عن والدها . ذكرتها كلمة كلمة . ذكرتها وقلبها يتمزق سخطاً وكبراً وأنفة . وذكرت موقف أستاذها ، وثورتها هى على أبيها ، وإشادتها بوطنية صديقهم أوريون المشوه الدميم . . . فشعرت بالعار يغمرها ، ولم تستطع أن تتصور كيف يكون والدها الكاهن الأول ثم يخون ، وكيف تكون هى بنت هذا الكاهن ثم تغض الطرف عن الخيانة ، وتسمح بالنفاق يتستر خلف شعائر الدين ، وتحنث فوق ذلك باليمين الكبرى ، يمين النزاهة والاستقامة التى أقسمتها

الساعة أمام الإلهة بالاس !

وحانت منها التفاتة إلى داخل المعبد ، فلمحت والدها ينهض ثم يسجد ، ثم يمعن فى صلواته . فتصاعدت من صدرها موجة اشمئزاز أخذت بمخنقها ، وزايلتها رقة العذارى ، وانبثقت فى نفسها المرأة الصارمة القاسية التى كانت تعترض اليوم والدها وتحاسبه على انحرافه ومروقه حساباً عسيراً . فقالت وقد تقطب جبينها واتقدت عيناها :

ـ اصغ إلىّ يا كرونوس . أنت تعلم بالطبع أن ملك الفرس داريوس عندما أنزل جيوشه فى سهل ماراتون هاجم قلب جيشنا فتغلب عليه فى المعركة الأولى . ولكنى سمعت والدى يقول بالأمس للكاهن الأعظم أن هذه خطة دبرها قائدنا العبقرى ملتيادس ، وأنه تعمد إضعاف قلب جيشنا وتقوية جناحيه كى يستدرج العدو إلى وسط السهل الفسيح ، ثم يطبق عليه بجناحيه القويين ، ويمعن فى الطعن فيه حتى يلقى به فى البحر . وإذن فهزيمة الملك داريوس فى المعركة الثانية محتومة . لهذا ولا شك رأى المتآمرون أن يسرعوا بإشعال نار الثورة كى يضطر قائدنا إلى نقل جزء من جيوشه إلى الداخل ، فيحارب فى ميدانين ، فيتخبط ، فيهزمه الفرس ويدخلوا بلادنا ، ويجعلوا من المتآمرين بين عشية وضحاها سادة وحكاماً علينا ! . . . فالمعركة الثانية الفاصلة قد تبدأ غداً إذن أو بعد غد . فإذا بقى المتآمرون أحياء ، ماتت اليونان ، وضاع استقلالها إلى الأبد . فيجب ، يجب القضاء على المتآمرين يا كرونوس . . .

وأبرقت عيناها بريقاً ثابتاً حاقداً وأردفت :

ـ يجب سحقهم جميعاً والتخلص منهم ، كى يدب الذعر فى صفوف أنصارهم ، فيعجزوا عن إشاعة الفوضى فى الداخل ، ويقبعوا فى جحورهم مكرهين ، ريثما تتم المعركة الثانية ويتحقق لجيشنا النصر ! . . . إن حاكم المدينة لن يجسر على اعتقال الرؤوس والزعماء وهم أعظم وأقوى

الشخصيات فى أثينا . بل هو لو اعتقلهم فستندلع نار الثورة بفعل أنصارهم وتلك هى الغاية التى يسعون إليها . وإذن فواجبنا نحن ، نحن الشعب ، أن نعمل . . . واجبنا نحن الشعب أن نحاسب ونعاقب ونضرب ! . . .

فحدق إليها كرونوس مرتجفاً وقال :

ــ صرحى عما فى ضميرك . . .

فقالت بصوت قاطع :

ــ إن أستاذى الفيلسوف شالكاس وطنى صميم ، وله فى البلاد أتباع ومريدون ، فإليه سأتوجه حال انصرافى من هنا ، وهو الكفيل بالقضاء على الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة والشاعر أكتيون . . . أما أنت ، أنت يا كرونوس ، أنت يا حبيبى ، فواجبك أمامك ، وهو على ملتقى العزم منك . . . فكن شجاعاً ولا تتردد . ومتى اختفى الآن الكاهن الأعظم وشرع فى نحر الذبائح ، فتقدم أنت ، تقدم واطعن الكاهن الأول وهو يصلى ! . . .

فتراجع كرونوس مذهولاً وغمغم :

ــ ماذا تقولين ؟ . . .

فصرخت هستيا :

ــ لا تفكر فى أنه والدى ! . . . لم يعد لى والد ! . . . كنت يتيمة الأم فأصبحت يتيمة الأب . ولست منذ الساعة إلا بنت الإلهة بالاس ! . . لقد أقسمت أن أقتدى بها . ولن أحنث بيمينى ! . . . فلا تفكر فىّ كامرأة لها عواطف بنوية مقدسة . اطرد هذه المرأة من ذهنك . أقصها عن خيالك . اقتلنى فى قلبك إلى حين . لتستطيع أن تقتل المجرم وأنت ثابت مطمئن !

فارتعد الشاب من فرعه إلى قدمه وقال :

ــ هستيا . . . هستيا . . . كيف تطلبين إلىّ أن أرتكب جرماً كهذا ! ؟ . . كيف يمكن لرجل يحبك أصدق الحب أن يسعى لإشقائك وهو لا يتمنى

على القدر إلا أن يجعل منك أسعد امرأة ؟ . . . لا . . . لا أستطيع . . .
هذا ليس فى طاقة مخلوق ! . . . إن وطنيتك تحرضنى اليوم على قتل
والدك . ولكن عاطفة البنوة لا بد أن تثور فى نفسك غداً ، وتعدنى مسئولاً
عما ارتكبت يداى ! . . أنت فى حماستك لا تفكرين فى المستقبل . ولكن
المستقبل هو كل ما نملك . . . وأنا أراه . . . أراه فى هذه الساعة وألمسه
وأعيش فيه ... أجل . أعيش فيه وأعلم علم اليقين أنه سيكون الظلام ...
سيكون الهلاك . . . سيكون مقبرة حبنا العظيم ! . . . آه يا هستيا . . .
أنى لو طعنت والدك فالطعنة سترتد إلى صدرى وتمزقنى وتمزقك أنت أيضاً
يا حبيبتى . . . لن تموت الجثة بيننا أبداً ! . . لن يموت والدك فى قلبك
بل أنا الذى سيموت ! . سأكون ذعراً لك . سأكون موضع حقدك و بغضك
ونقمتك مدى الحياة . فثوبى إلى رشدك واشفقى على نفسك وعلىّ . . .

فقالت فى مجالدة وعناد :

ـــ سأقترن بك ، وسيزداد حبى لك كلما ذكرت أنك أنكرت حبك وقمت بواجبك ! . . .

فضمها إلى صدره فى عنف ، وصاح بها يصب الكلمات فى مسمعها صباً كأنما هو يريد أن يحرك فيها عوامل الأنانية التى تملأ قلوب العشاق :

ـــ أنت شابة ، ومن حقك أى تعيشى وتسعدى . . . وما من قوة فى الأرض تستطيع أن تطلب من امرأة أكثر مما يمكن أن تعطى . . . ليس فى وسعك يا هستيا ولا من حقك أن تضحى فى سبيل الوطن برجل أنت نفسك مدينة له بالحياة ! . . . على أن للوطن رجاله ، وأنا على ثقة بأنهم سينقذونه ... وحتى لو نشبت الثورة فهى لن تؤثر فى نتيجة المعركة الفاصلة ...

فقالت الفتاة وقد اشتد فى صوتها لهب الغضب والاستنكار :

ـــ ما أدراك . . . وكيف تستحل تقدير الأمور وفق هواك ؟ . . .

ألست تحبنى ؟ . . . إذن فاصدع بأمرى وقم بواجبك ولا تبك على والدى أكثر منى ! . . .

فتشبث بها ، وقال :

ـ إنما أبكى عليك وعلىّ ! . . . محال . . . لن تخدعنى حماستك الطارئة . . . لن أنزلق . لن أطيعك . لن أشقيك . . . لن أجلب على نفسى بغضك الناقم الأبدى ! . . .

وألصق خده بخدها ، وجعل يميل بها كأنه يهدهدها ، وأردف :

ـ الحياة أمامنا ياحبيبتى فلماذا نضيعها ؟ . . . السعادة بين أيدينا فلماذا نفقدها ؟.. الحب يدعونا يا هستيا فلنلب النداء ! . . لنذهب ... لنتركهم . . . لنفر إلى الخارج . . . اليوم . . . بل الليلة . . . لقد أعددت عدتى . . . معى نقود ولى فى الخارج أصدقاء . فاستمعى لنصحى قبل فوات الوقت ، واعلمى أنى أحبك أضعاف ما تحبيننى ، وأنى أرتضى الفرار من الجيش فى سبيل حبك وإنقاذ والدك !

فحملقت فيه مبهوتة وغير مصدقة ، وتأملته . . . أهذا هو الرجل الذى عقدت عليه كل آمالها ؟ . . . أهذا هو الفارس البطل الذى آمنت بشرفه إيمانها بحياتها ؟ . . . يريد أن يأخذ ولا يعطى . يريد أن يتمتع ويتنصل . يريد أن يحب ويسعد ولكن بعد أن يفر ويخون ؟ ! . . .

وظلت تتأمله وأنفاسها اللاهثة تتعاقب ، وبدنها المحموم يرتعش ، وعينها الصارمة ترقبه وتبحث فيه ولو عن لمحة واحدة من الرجل الذى كان منذ لحظة أمير أحلامها .

ولم يكد يصمت حتى كان صمته الزاخر بالخزى والعار قد باعد بينه وبينها . فتأملته ثانية واحتقرته . احتقرته برغم حبها الشديد له . احتقرته ولكنها لم تيأس مع ذلك منه . لم تيأس من تبديل عزمه وإيقاظ ضميره

والهاب وطنيته ودفعه إلى تأدية واجبه والعودة إلى ميدان القتال . فقالت له وهى تكذب لأول مرة فى حياتها ، وتجاهد ما استطاعت لتخفى عواطفها وأفكارها ، وتلاحق بعينها الحاقدة الرجل الخائن الذى يصلى والذى شاء القدر أن يكون هو والدها :

ـ ما أشد حبك لى يا كرونوس . . . ليس فى مقدورى أن أجيبك الآن إلى سؤلك . . . أريد أن أتحدث إليك على انفراد . . . تقدمنى إلى بيتى وانتظرنى هناك . . . يجب أن أصلى أيضاً وأستوحى الإلهة . ومتى أتممت صلاتى أسرعت إليك بمفردى لأن والدى قد دعى لتناول طعام الغذاء على مائدة الكاهن الأعظم وكذلك أستاذى وصديقنا أوريون . . . فاذهب ، اذهب إلى بيتى حالاً وانتظرنى . . .

فأشرق وجه الشاب وخيل إليه أنه سيتغلب عليها ويقنعها . فاحتقرته أيضاً لسذاجته وهى تحس برغم احتقارها أنها ما تزال تحبه بل تعشقه . ولكنه لم يفهمها . لم يستشعر العواطف الثائرة التى كان يجيش بها صدرها . فأراد أن يعانقها . فلم تتمنع وعانقته . فزهاه الفرح وأعماه ، وأراد أن يقبلها أيضاً . ولكنها ردته عنها فى رفق فأطاع . ثم انصرف مسرعاً وهى تشيعه بنظرة ثابتة ملؤها الألم والحزن والحسرة .

* * *

وكان الكاهن الأعظم قد انطلق فى صحبة صغار الكهنة إلى الرحبة المجاورة للهيكل والمعدة لنحر الذبائح . فأجالت هستيا الطرف حولها . فلم تبصر غير والدها جاثياً عند قدمى تمثال الإلهة ، مستغرقاً فى تلاوة صلاة الشكر الجامعة . فاستغربت منه كيف يستطيع أن يصلى وفى نفسه إرادة الخيانة والغدر . وأهاجها ما كان يبدو عليه من خشوع صادق واطمئنان عجيب . فازداد سخطها لنفاقه وقدرته الخارقة على المداراة والتمويه . وفى

مثل لمح الطرف تصورت نشوب الثورة ، وهزيمة الجيش ، ودخول الفرس بلادها غزاة فاتحين . فضمت شفتيها في بغض وحنق ، وهالها أن يقع كل هذا بفعل رجل هو والدها ، كما هالها ما ينتظرها على يده من عار لم تكن لتتصور لحظة أن شبهة منه قد تلحق بها . فلبثت واقفة تنظر إلى الرجلى وترتجف . . .

وتغلغل سكون المعبد في أطواء نفسها ، وأسلمها بجمع عواطفها إلى الفكرة المستبدة التي ملكتها . فابتهجت بوحدتها ، وأحست الأمن يغريها ويدفعها ، ويوسوس لها ألا تضيع هذه الفرصة الفريدة التي حباها القدر بها

وتقدمت بضع خطوات وهي لا تدرى على وجه التحقيق ماذا يجب عليها أن تفعل . وإذ ذاك وقع بصرها على تمثال الإلهة . فتفرست فيه ، ولبثت فترة شاخصة إليه ، تبتهل وتتضرع وتلتمس أن يهبط الوحى عليها .

وغابت عن صوابها لحظات ، وشعرت كأنها تتحلل من كل ثر جثمانى ، وكأن روحها تندمج في روح الإلهة وتفنى فيها . فعاودت التضرع والابتهال ثم دبت فيها الحياة فجأة . فتألقت عيناها ، وتحرك بدنها على دهش منها ، ومشت كما يمشى النائم ، متجهة صوب حجرة النذور ، تدفعها وتحرسها قوة مجهولة لا قبل لها بمقاومتها .

وجعلت تنقل بصرها في أنحاء الحجرة ، ونداء الإلهة يتبعها ، وصداه يرن في أذنها ، ويفعم قلبها إيماناً وحرارة وعزماً .

وكانت الحجرة مليئة بقلائد ذهبية وأساور وأقراط وأهلة من فضة وذهب ، وسيوف وخناجر مرصعة المقابض بالأحجار الكريمة ، وكلها نذور جمعت في هذا المكان وقدمها الشعب اعترافاً بفضل الإلهة وتمجيداً لمعجزاتها . فرفعت هستيا ذراعها واختطفت أحد الخناجر ، ثم مرقت من

الحجرة وتوقفت لحظة وأصغت . فدوّت حولها صرخات الذبائح منبعثة من الرحبة المجاورة . فأيقنت أن الكاهن الأعظم ما يزال هناك . فاطمأنت ومشت مرفوعة الرأس ، ثابتة الخطى ، مدفوعة بنفس القوة ونفس العزم ونفس الإيمان .

ولما دنت من الهيكل ، خلعت نعليها ، وسارت على أطراف قدميها ، وهي ما تفتأ تحدق إلى حركات والدها وترقبها . وعندما ألفته أمامها جاثياً يصلي ، محنى الرأس ، محدودب الظهر ، بارز العنق ، أغراها سكونه وعجزه ، فحبست أنفاسها جهدها ، وأهابت بعزمها الحاقد ، ورفعت ذراعها والخنجر مشهر في يدها . . . وفي تلك اللحظة . . . وقبل أن تتئد هستيا وتفكر وتتخير المقتل الذي يجب أن تصوّب إليه طعنتها ، كان الكاهن الأعظم قد لمحها وهو في رحبة الذبائح . فقفز إليها صارخاً . فأجفلت الفتاة وطعنت . ولكنها لم تستطع أن تصيب والدها إلا في كتفه . فأطبق عليها الكاهن الأعظم ، وانتزع الخنجر من يدها . ثم أسرع وأوصد باب الرحبة ، وكر راجعاً إلى الفتاة وهو يصرخ ثائراً مستهولاً :

— أنت ؟ . . . أنت يا هستيا ، تريدين قتل والدك ؟ . . .

فصاحت الفتاة :

— لقد خان عهده لوطنه . وأنت ، أنت أيضاً خنت ، وكذلك رئيس الشرطة وصفوة الوجوه والأعيان في هذا البلد . كلكم وصوليون ، كلكم نفعيون وطلاب مصالح . الدم الحر في الصفوة المختارة من رجال اليونان قد نضب ، والعصارة الطاهرة في قلوبهم قد جفت . فكيف نصبر نحن الشعب عليكم ، وكيف لا نحاول التخلص منكم قبل أن توردوا الوطن مورد الهلاك ؟ . . . انظر . . . انظر إلى هذا المنشور الذي دسه في يدي أحد المصلين . . . أليس هو من صنع أيديكم ؟ . . . أليست هذه أختامكم ؟ . . . ألستم أنتم الذين تحرضون الشعب على الجيش وزعيمه

وتطلبون عقد الصلح مع العدو ولو استحال أبناء اليونان إلى رهط ممزق من السائمة والعبيد ؟ . . . اقرأ . . . واحجب وجهك عنى ، فقد كنت أنت خليقاً بطعنة أبلغ وأعمق من تلك التى أردت أنا أن أسددها إلى عنق والدى ! . . .

واستردت أنفاسها وهمت بأن تتحول نحو أبيها الذى كان يبتسم ابتسامته الغامضة والدم ينزف منه . ولكن الكاهن الأعظم أسرع وغمس منديله فى حوض الماء المقدس المجاور لتمثال الإلهة ، ثم ضمد جرح الكاهن الأول ، ثم ارتمى على هستيا ، وأمسك بها ، وطفق يهزها هزاً عنيفاً ويقول :

ـ أيتها الفتاة الطائشة ، أيتها الفتاة الغريرة ، كان عليك أن تستفسرى قبل أن تتهورى . كان عليك أن تتثبتى قبل أن تضربى . إن والدك يا هستيا أشرف وأطهر إنسان . أما أنا ، أنا حارس معبد الإلهة بالاس والكاهن الأعظم فى هيكلها المقدس ، فتقطيع بدنى إرباً ، أو حرقى بالنار ، أو موتى على خشب التعذيب ، أحب إلى من خيانة وطنى ولو وعدت بملك الدنيا ! . . . نحن الذين أردنا ذلك . . . نحن الذين دبرنا المكيدة . . . والدك وأنا ورئيس الشرطة حالفنا المتآمرين عن عمد ، وشاركناهم فى توقيع منشور الخيانة ، وأردنا أن نكون عيوناً للوطن عليهم ، وجواسيس للزعيم عندهم ، كى نكشف عن خططهم ونحبطها وننقذ الجيش والزعيم فى معركة الاستقلال الفاصلة ! . . وإذا كنت فى شك من ذلك فانظرى . . . تعالى وانظرى . . . اقتربى . . . هذا هو البرهان . . . هذا ما أمر به والدك اليوم بعد أن اجتمع فى بيته بالمتآمرين ، وهذا ما نفذه على الفور رئيس الشرطة . انظرى واسمعى . . .

واتجه الكاهن الأعظم إلى أحد الأبواب الجانبية وفتحها . فأبصرت هستيا شبه غمامة كثيفة ، ثم رأت الغمامة تقترب ، ثم أبصرت ضبابها

يتمزق ويسفر عن جماهير غفيرة تدفقت نحو ساحة الهيكل الخارجية ، وطفقت تلوّح بأذرعها ، وتهدد بتمبضاتها ، وتهتف :

ــ الموت لأكتيون ! . . . نريد رأس أكتيون ! . . . الموت للخونة ! .

وأوصد الكاهن الأعظم الباب ، وتحول إلى الفتاة وقال :

ــ لقد أخذناهم فى الفخ نفسه الذى نصبوه لنا . ألقينا القبض عليهم جميعاً ، ما خلا اثنين . . . اثنين فقط . . . اثنين من أخبثهم وأخطرهم . أمهلنا الأول فترة كى نطمئنه ونستدرجه ، ونعرف منه المكان الذى لجأ إليه الثانى فنباغته وهو فى جحره ، ثم نقتص من الرجلين معاً . . .

فجحظت عينا هستيا دهشة مما رأت ونشوة بما سمعت وذعراً لما أقدمت عليه . فارتمت عند قدمى والدها وصاحت :

ــ غفرانك يا أبت الطاهر العظيم . . . اقتلنى . . . إنى لأستحق الموت من يدك جزاء وفاقاً على تهورى وطيشى .

فهتف الوالد المطعون :

ــ بل تستحقين الحياة . . . العاطفة تصبح ألزم للوطن من العقل ، عندما يكون الوطن بين الموت والحياة ... لقد كنت مؤمنة بخيانتى ، وكانت القرينة واضحة ضدى ، فكان لزاماً عليك أن تنكرى البنوة وتفكرى فى الواجب . إنى لفخور بك يا هستيا . ولكنى أتمنى أن تعودى فتغمدى خنجرك حقاً فى عنقى لو رأيتك ناكصة على أعقابك ، ومتهاونة ولو لحظة فى تأدية واجب وطنى آخر أقسى وأفجع من قتلى ! . . .

فتفرست فيه الفتاة وقالت :

ــ لا أفهمك . . . مرنى بما تريد . حياتى فداء للوطن ولك .

فلم يتكلم الوالد . بل انحنى الكاهن الأعظم على الفتاة وصاح :

ــ جاءنى رسول من قبل قائدنا وزعيمنا ملتيادس وأنبأنى أن خطيبك ،

حبيبك . . . كرونوس . . . رئيس فرقة الفرسان فى الجيش المقاتل ، فر من الجيش . . . أتفهمين ؟ . . . فر من الجيش حاملاً بعض مستندات وخرائط سرية خطيرة متعلقة بالخطة التى رسمها قائدنا لمعركة الاستقلال الحاسمة . . . فر من ساحة الحرب ، ثم هبط هذه المدينة ، ثم اتصل ولا ريب بشقيقه الخائن بلوتون حارس صوامع الغلال والذى كان منذ أيام عضواً عاملاً فى عصبة المتآمرين ثم تخلى عنهم ليضللنا . . . نعم . . . اتصل كرونوس بشقيقه . أسرع لإنقاذه قبل أن نقبض نحن عليه . واتفق كلاهما ولا شك على أن يغافلا حرس الحدود ، أو يرشوهم بالمال ، ثم ينسلا من المدينة تحت جنح الظلام ، وينطلقا إلى معسكر الفرس فيسلما العدو أسرار جيشنا ! . . . هذا هو خطيبك يا هستيا ، وغد جبان ، مهتوك الشرف العسكرى وخائن ، بل هو شر علينا من أفتك الخونة والمتآمرين . ولقد أعيا رجالنا البحث عن شقيقه الذى اختفى . فأمرت أنا الشرطة بتعقبه هو وتفتيش بيته دون أن يقبضوا الآن عليه . ولكنهم بعد أن فتشوا منزله ، لم يوفقوا لا إلى العثور على المستندات الخطيرة التى سرقها ولا إلى معرفة المكمن الذى يختفى فيه شقيقه . . . واليوم . . . بل منذ لحظات أبصروه هو . . . كرونوس . . . يدخل بيتك أنت يا هستيا . . . فأسرع أحدهم منذ دقائق وأنهى إلى النبأ . فأمرتهم بأن يحاصروا بيتك عن بعد . وكنت على وشك أن أصارح بالأمر والدك كى يسرع فيلحق بك قبل أن تبلغى البيت ، تنفيذاً لخطة وضعتها أنا لتوى وألقيت عبء تنفيذها على عاتقك . . . فكرونوس ينتظرك الآن فى دارك ، ومن المحال أن تكون المستندات السرية معه . أنها ولا ريب فى حوزة أخيه . أما هو فأكبر الظن أنه لم يذهب إليك إلا ليقنعك بالفرار معه . فالواجب الذى أطالبك به اليوم يا هستيا ، واجبك العظيم . واجبك المقدس حقاً ، واجبك المرهون بتأديته انتصار جيشنا ، هو أن تتفوق على

نفسك ، وتقهري حبك وقلبك ، وترحبي بمقدم الشاب وتجرديه من سلاحه إن استطعت ، ثم تستدرجيه بالمكر والحيلة ووهم العاطفة والإغراء ، كي تعرفي أين يختبئ شقيقه الخائن بلوتون . إذ نحن لو قبضنا على كرونوس ، وحتى لو عذبناه ، فهو لن يعترف . لن يضحي أبداً بأخيه الذي يعتبره بمثابة والده . ولو تركناه طليقاً ثم راقبناه أيضاً ، فلابد أن يشعر بعد أن فشلت ثورة المتآمرين أنه هو وشقيقه في خطر ، فيخدعنا عامداً ويضللنا ويسلك بنا سبلا ملتوية وزائفة كي يتيح لنفسه أو لأخيه فرصة الفرار من المدينة وحمل أسرارنا إلى معسكر الفرس . وإذن فنحن نريد أن نعرف المخبأ الذي يكمن فيه بلوتون ، نريد أن نعرفه من كرونوس نفسه وبمحض اختياره ، وإن كنا مع ذلك قد أمرنا رجالنا زيادة في الحيطة والحذر بأن ينتشروا عند الحدود ويراقبوا كل مسافر متسلل . . . فالساعة فاصلة يا هستيا ، ومصير جيشنا في يدك ، وأنت وحدك التي في مقدورك أن تنتزعي السر من صدر كرونوس ، على أن توطني نفسك يا ابنتي على التضحية بخطيبك وحبيبك لأنه هو أيضاً يجب أن يعاقب ، وهو أيضاً يجب أن يلقى مصير الخونة المتآمرين ! ...

فوجمت هستيا فترة ثم ذكرت ما قاله لها كرونوس واقشعر بدنها .

أدركت أنه كان يخاتل وينافق ويحتال عليها . أدركت أنه لم يحجم عن قتل والدها حباً فيها بل اعتقاداً منه أن والدها كان مثله مارقاً وخائناً . أدركت أنه لم يفكر في ترك جيشه وبلاده من أجلها هي وحدها بل من أجل مصلحته أيضاً ، من أجل مطامعه ، من أجل منصب كبير كان يثق ولا ريب أنه سيظفر به من حكومة الخونة بعد أن يكون الجيش قد انهزم على يده ويد شقيقه . . . وإذن فهو قد أراد أن يظفر بكل شيء على أنقاض وطنه . المرأة والمنصب ، الجسد والمال ، شهوة البدن وشهوة الدنيا ! . . . نعم . هذا ما أراده كرونوس . هذا ما أراد أن تعاونه عليه

هستيا ، بل هذا ما كان يستره خلف قناع الحب كي تنخدع به الفتاة الساذجة وتنساق إليه .

وارتعدت فرائصها ، وغشيتها موجة طاغية من الحنق والكره والحقد . كانت عندما صرفت حبيبها من المعبد لم تزل تحبه ، ولم تزل مبقية عليه ، برغم ثورتها على ضعفه واحتقارها له . كانت تريد أن تخلو به فى بيتها كى توقظ ضميره ، وتستنهض كرامته ، وتلهب وطنيته ، وترده إلى ساحة القتال مرفوعة الرأس به وهو ماض فى تأدية واجبه . أما الآن وقد وضحت الخيانة المروعة ، ووضح الخبث المحكم ، والغرض المتأصل المكين ، فقد تحجر قلب هستيا ، وغاضت عواطفها ، ولم تعد باقية فى عقلها الذى التهم كيانها غير فكرة ثابتة واحدة هى الثأر لبلادها ولو على أشلاء حبها التاعس وأملها المخيب المنكود .

ورأت من العبث أن تصارح بأنها قد التقت بكرونوس فى المعبد منذ قليل . فاكتفت بأن نهضت واتجهت من فورها صوب تمثال الإلهة ، وجثت عند قاعدته ، ورفعت ذراعها وقالت :

— أقسم بالإلهة بالاس فى يوم عيدها أن ألبى نداء كاهنها الأعظم ، وأنهض بالواجب المقدس المفروض علىّ ! . .

فعانقها الكاهن الأعظم وباركها ، واحتضنها والدها وقبلها . فتأبطت ذراعه وخرجت به من المعبد ، ملتمعة العينين ، متقدة الوجنتين ، راسخة الخطى ، يرتسم على جبينها المقطب الصارم عزم امرأة فذة عجيبة ، تجردت من أنوثتها ، واستحالت إلى قوة مرهوبة للعدل والثأر والعقاب .

وكانت الجماهير ما تزال تهتف فى الميدان المحيط بالمعبد وتطلب الموت للخونة المتآمرين . وكان الفيلسوف شالكاس واقفاً مع صديقه أوريون على مقعد كبير من حجر فى طرف من أطراف الميدان ، وحولهما رهط من

الفنانين والأدباء وخادمات الهيكل ، يتبارون جميعاً فى إثارة روح الكفاح والصبر فى نفوس الجماهير بإلقاء الخطب الحماسية ، أو القصائد الوطنية ، أو الأناشيد التى تمجد القائد العظيم ملتيادس ، أو الأزجال التى تحقر وتهزئ الشاعر الخائن أكتيون ، وهى تستنزل لعنة الإلهة عليه وعلى صحبه المارقين . وكان أوريون الدميم يخطب هو أيضاً . وكانت حماسته الصادقة تخلع على وجهه المشوه حلة رائعة من جمال . ولكنه كان حزيناً ، لا يكاد يصمت حتى يفكر فى حظه ويفكر فى حبيبته ، فيتمنى لو انه لم يكن ضعيفاً عليلاً كى يسرع إلى ميدان القتال ويموت فيظفر بالنعمتين العظيمتين : تقدير الوطن وإعجاب هستيا .

وبرزت الفتاة على درج المعبد . فقفز قلب أوريون بين ضلوعه ، وخف إليها . فلوحت له ولأستاذها بأطراف أناملها . فأسرع شالكاس وحيا رفاقه واتجه نحوها . فناولته ذراعها اليسرى فتأبطها . ومشى الثلاثة وأوريون يتبع هستيا كظلها ، ويتنسم فى بهجة عبير وجودها ، محاذراً أن تقع عينها عليه فينقبض قلبها وتلوى بوجهها عنه .

ولم تتردد الفتاة وشرعت تقص على أستاذها كل شىء . كل ما أقدمت هى عليه ، وكل ما قاله الكاهن الأعظم وعهد إليها به ، دون أن تذكر لقاءها بكرونوس فى المعبد خشية أن يلومها الفيلسوف على ترفقها بحبيبها وأملها فى إيقاظ ضميره وإلهاب وطنيته بعد أن رأته يتبدل ويوشك أن ينحرف عن السبيل السوى .

وكان أوريون يسمع وهو يرتعش . أثلجت صدره خيانة غريمه وانحطاطه فى نظر الفتاة . ولكنه كبح ثورته على كرونوس ولم يتكلم حرصاً على كرامة هستيا . أما الفيلسوف فظل مصغياً للحديث فى هدوء المفكر المتأمل ، ثم تطلع إلى الفتاة وأبرقت عيناه وقال :

— هذه ساعة مجدك يا ابنتى . لن تكونى جديرة بالانتساب إلى أمتك

يا هستيا ، إذا أنت أحجمت ولو لحظة عن تأدية واجبك . فاحذري وتنبهي . إنك مهما قلت أنك تبغضين الآن كرونوس ، فقلبك كان يحبه وروحك كانت أخت روحه ، ومستقبلك كله كان معقوداً عليه . فاحذري الضعف ساعة الحساب يا هستيا . إن الإنسان قد يكره دون أن يعلم أنه على قدر كرهه يحب . فالكره يخفي الحب في معظم الأحيان يا بنيتي . ومتى أراد الكره أن يعاقب ويضرب فقد يثور الحب في النفس فجأة ، وتحل الشفقة العميقة محل الكراهية الغامرة . فإياك أن يغدر بك الحب فتشفقي على كرونوس . أية قيمة لحبنا إذا هو لم يرتفع بنا إلى عالم أفضل وأسمى وأبقى منا . فأنت أن غلبت واجبك على حبك ، وعاقبت المذنب دون رحمة ، جاوز حبك نفسه محيط ذاتك الفانية وسما بك إلى حب أروع وأعلى هو حبك لوطنك الباقي وبلادك الخالدة . فانقلي الحب من الأنانية إلى التضحية ، من أرض الناس إلى سماء الآلهة ، من فناء ترابك الجسدي إلى خلود وطنك الغالي في أصلابه المتعاقبة . ومتى ضحيت بحبك ، وخنقت عامدة قلبك ، وآثرت خلود وطنك على دوام متعتك وسعادتك ، خلدت أنت نفسك في نظر ذاتك ، وفي ذكرى أهلك وعشيرتك ، وفي عزة وطنك الذي لن ينسى أنه كان على وشك أن يموت فقدر له أن يجد الخلاص على يدك . فتقدمي ولا تجزعي . أضربي ولا تشفقي . هذه كلمتي إليك يا هستيا ، فاذكريها ، وضعيها نصب عينك وأنت تحاسبين الخائن المجرم الشقي ! . . .

وصمت الفيلسوف وهو يلهث . فضمت هستيا ذراعه إلى قلبها وصاحت :

ــ لقد مات حبي وبقي حقدي . والحقــد أقوى من أية عاطفة رخيصة يمكن أن تغلبني . فادخلوا أنتم هنا . في الجناح الأيمن من بيتنا . والبثوا هناك حتى أدعوكم . ولسوف أبدل أنا جوهر

طبيعتى حتى أنكرها ، وأمعن فى خلق ذاتى خلقاً جديداً عجيباً ، حتى أنفذ إلى أعماق نفس كرونوس ، وأنتزع سره ، وأنقذ وطنى .

ودخل الثلاثة مسرعين . أما هستيا فقد توقفت لحظة ، وتنفست طويلا ثم استجمعت قواها ودخلت الجناح الأيسر حيث كان ينتظرها كرونوس .

* * *

ولكنها ما إن نحت ستار الحجرة قليلاً ولمحت الشاب جالساً على مقعد ومعتمداً رأسه بيده ، حتى تملكها ذلك الانفعال العنيف الذى توقعه أستاذها . تخاذلت وتراجعت وأشفقت . وثب حبها فى صدرها وأرجف قلبها رجفاناً كاد يخنقها . لم تستطع أن تتصور أنها ستكون هى السبب فى المصير الفاجع الذى ينتظر حبيبها . نعم . لقد ثارت عليه فى المعبد واحتقرته لضعفه . ولكنها اعتبرته خائناً بالفكر فقط وكان فى عزمها أن تؤنبه وتراجعه وتهديه . أما الآن فهو خائن بالفكر والفعل ، بالنية والعمل . ويجب أن تحاسبه . يجب أن تعاقبه . يجب أن تقتله بيدها هى ، بيدها التى لم تكن تتمنى أكثر من أن تضمه وترعاه وتخدمه الحياة بطولها .

وغشى الدم عينيها ، واشتد خفقان قلبها ، وأوشكت الشفقة الغادرة أن تستبد بها وتقهرها . فتلفتت حولها شبه مخبولة ، وذكرت كلمات أستاذها ، وتصلبت . . . تصلبت جاهدة ، وأمسكت بقلبها ، تهصره بيدها هصراً كأنها تريد أن تنتزع من شغافه كل حبها وكل حنانها . ولما ألفت نفسها ما تزال محجمة ومستخذية وخائرة ، ذكرت شيئاً آخر ألهبها وأيقظها . ذكرت أنها كانت ستقتل والدها نفسه فى سبيل بلادها . فكبر عليها أن تضحى بالوالد وتشفق على الحبيب ، أن تقسو على الأصيل وترحم الغريب ، فضمت قبضتيها ، وعضت بأسنانها على طرف ثوبها الأبيض الذى باركه ملمس الإلهة المقدسة منذ لحظات ، ثم استغفرت الإلهة واستنجدت بها ، ثم رفعت رأسها فى شموخ ، وجذبت ستار الحجرة

فى عنف ، ودخلت على كرونوس امرأة مستبسلة جديدة ، دهشت هى نفسها من حلولها الطارئ فيها ، ومن قوتها التى لم تكن تحلم أبداً بها .

وما إن أبصرها الشاب حتى فتح ذراعيه وأقبل عليها . فارتمت فى حضنه ، وعانقته فى حرارة ، وقبلته فى نشوة ، ثم صاحت به وهى تضمه إلى صدرها ضماً عنيفاً ، وتحاول بكل ما أوتيت من دهاء الأنثى وفتنتها أن تصب فى عروقه سحراً يختم على بصره ، ويخضع إرادته ، ويقهر وساوسه ويخنقها :

ــ ألم يبلغك النبأ ؟ . . .

فتطلع إليها ثابتاً وقال :

ــ ومنذا الذى يجهله . . . إنهم ألقوا القبض على الشاعر أكتيون وأنصاره . ولقد سمعت الجماهير من هنا تطالب بموته . وأكبر ظنى أنهم لابد أن يقبضوا أيضاً على والدك يا هستيا وعلى الكاهن الأعظم ورئيس الشرطة وجميع من وقعوا المنشور . . .

فصرخت الفتاة :

ــ لم يبق لى غيرك ! . . الجميع فى السجن يرسفون فى الأغلال ! . . . والدى وأصحابه . . . ولكنهم ليسوا وحدهم الخونة . أنت جاهل يا كرونوس بما هو أدهى وأعظم . . . الحاكم نفسه خائن . . . حاكم المدينة هو أكبر عملاء الفرس . . . أتدرى ماذا فعل ؟ . . . لقد أصدر أمره أيضاً باعتقال ابن عمى وأربعة من رفاقه . . . ابن عمى العالم الفلكى الشهير الذى كان يعيش فى صومعته منقطعاً لعلمه وبعيداً عن الدنيا . . .

فارتجف كرونوس وقال :

ــ حتى هو ؟ ! . .

فصاحت هستيا مستنكرة :

ــ أذلك الرجل العبقرى المشهود له بالنزاهة والاستقامة وصدق الوطنية

يمكن أن يكون خائناً ؟ ! . . . لا . . . لقد قبض عليه الحاكم واعتقل أيضاً رفاقه لأنهم كانوا مخلصين وأوفياء لقائد الجيش زعيمنا . . . إن فى فى الأمر لتدبيراً شائناً يا كرونوس . . . إن فى الأمر لطمعاً مروعاً فى الأسلاب والغنائم بعد الهزيمة . . . ولقد بات حاكمنا يعتقد أن هزيمة جيشنا محتومة ، فأراد أن يقضى على المتآمرين والمخلصين معاً كى يصبح هو وحده صاحب الكلمة النافذة فينا ، فيستطيع أن يحالف العدو المنتصر ؛ وأن يفوز هو وأعوانه بحكم البلاد تحت حماية الغاصب المحتل . . . نعم . الحاكم وأعوانه هم طليعة الخونة ، وهم طليعة الوصوليين ، وهم الذين يستخدمون سلطانهم للقضاء على كل من ينافسهم ويعارضهم ، بغية القضاء على جيشنا وعقد الصلح مع العدو . . . فإذا كان ذلك العالم النبيل خائناً ، ورفاقه الأشراف أيضاً خونة ، والحاكم وأتباعه هم وحدهم الأبرار ، فقل العفاء على جيشنا ، وقل السلام فى هذا البلد على كل جهد يبذل من أجل الحرية والخلاص .

والتقطت أنفاسها واستطردت وعيناها تتوهجان كأنما قد تلبستهما قوة علوية تلهمها دورها إلهاماً :

ــ أنا لا أتألم ولا أتمرد لأن والدى الآن طريح السجن . يجب أن يلقى جزاءه . ولكنى أقول كيف يقبض على والدى ثم يكون الذين قبضوا عليه هم خونة مثله ، بل أبلغ منه خيانة وأوقع غدراً ؟ ! . . . هذا ما يثيرنى عليهم . وأن ثورتى لتملأ كيانى ، وتغلى كالمرجل المستعر فى دمى . ولكن ما حيلتى ؟ . . . ماذا فى طاقتى أنا المسكينة أن أفعل ؟ . . . أنا ثائرة ويائسة وكذلك أستاذى وأوريون . كلنا ساخط ، وكلنا ناقم ، وكلنا عاجز . فكيف يطلب منا ونحن أفراد أن نكون أكثر وطنية من حكامنا ؟. كيف يطلب منا أن نبذل بينما القدوة التى تهبط إلينا من أعلى تعلمنا

الأنانية ، وتغرينا بالمصلحة ، وتدفعنا إلى الاستسلام ؟ . . . لا . . . أنا لن أضحى بشخصى إلا إذا رأيت مثل التضحية حياً نابضاً فيمن هم أعظم منى . وما داموا هم قد خانوا ، فأنا أتحلل من كل رابطة وكل قيد ، ولا أفكر إلا فى نفسى ومصلحتى . . .

فهتف كرونوس وهو ذاهل :

— ألم أقل لك ؟... بأى حق نموت نحن ويعيشون هم على أنقاضنا فى بحبوحة ورخاء ؟ . . . إن حبى هو الحقيقة الوحيدة التى أعرفها ، وهو المبدأ الفرد الذى أصبحت أعيش من أجله وأومن به ! . . . لن أكون مطية للوصوليين! . . . لن أخدع بهم ! . . . لن أدعهم يتخذونى أداة لأطماعهم ثم يلقون بى جثة هامدة يرقصون على أشلائها متقهقهين . إن قوتى فى أن ألتهمهم قبل أن يلتهمونى ، وأن أعيش وأحب وأسعد قبل أن يقضوا القضاء المبرم علىّ . . . يجب أن أرحل . فإذا كنت حقاً تحبيننى يا هستيا فاتبعينى . . .

فلمعت عينا الفتاة ، وارتمت عليه ، ثم انسكبت فى لهفة بين أحضانه ، وانكمشت وتكورت كالهرة المستأنسة المولعة بالملاطفة والدعاب ، وقالت فجأة وهى تتأرجح على ركبتيه وتقبله :

— وإلى أين ستأخذنى؟ . . .

فقال وقد أشرق محياه :

— إلى أية جزيرة نائية فى البحر المتوسط ، إلى أية بقعة من الأرض يمكن أن تكون وطن الحب والحرية والنعيم الدائم الأبدى .

فقالت هستيا وهى تحملق فيه وتبتسم فى دهشة كالأطفال :

— ومن أين لك المال ؟ . . . ما أظنك قد جمعت ثروة وأنت فى ساحة الحرب ؟ . . .

فرماها بنظرة فاحصة ، واضطرب بالرغم منه ، ومرت على وجهه المحتقن سحابة من ريبة . . . ولكن الفتاة عاجلته بضحكة ساذجة ناضرة ، وتعلقت بعنقه وصاحت :

ــ أية قيمة للمال ما دام هناك حب . الحب نفسه ثروة تكسو وجه الفقر طبقة من ذهب . وسواء أضمنى بك الحب فى قصر أم فى كوخ ، فأنت الذى أنشد ، وأنت أملى وحلمى ، ومن قلبك وحده تنبع سعادتى لا من الجدران والأحجار !

فطرب الشاب ولم تعد تسعه الدنيا ، وردد :

ــ إذن فاتبعينى !

فقالت فى صوت جهير يتقد حباً ومغامرة وعزماً :

ــ سأرحل معك !

فجثا عند قدميها ، وطوقهما بذراعيه ، وطفق يقبلهما كمعتوه . اختلج بدنه ثقة وعزة ونصراً ، وتحدرت على وجنته دمعة فرح ، وتمثلت فيه صورة إنسان كان يطلب المستحيل فدان له المستحيل وأذهله وروعه وسحقه .

ونظرت إليه الفتاة وهالها مرآه . هالها أن يحبها على هذه الصورة . هالها أن يبكى من فرط عشقه لها فتغدر هى به عامدة وتطعنه . فعاودها الحنان ، وعاودتها الشفقة . فمزقت الشفقة قلبها ، بل قطعت أحشاءها ، وكادت أن تعصف بها وتعميها عن رؤية واجبها . ولكنها تراجعت وتماسكت . تصلبت جهدها كما فعلت منذ لحظة . ثم تصورت والدها يلعنها ، وأستاذها يلفظها ، وأوريون يزدريها ، والكاهن الأعظم يصب جام سخطه عليها ويحرمها من دخول المعبد ويعلن فى الملأ أنها مارقة وخائنة . فجن جنونها ، وعز عليها مصيرها ومصير وطنها . فغرست أظافرها فى راحتيها ، وقالت صارخة :

ــ وأين نلتقى ؟ . . . ومتى ؟ . . .

فهمس كرونوس وهو يزفر :

ـ الليلة . . . يجب أن نرحل الليلة . . . وسأكون فى انتظارك بعد منتصف الليل ، عند سفح الهضبة الكبيرة القائمة خلف مساكن الشعب البعيدة عن قلب المدينة ومشارف المعبد . . . لقد أعددت عدتى . . .

فانتفضت الفتاة وأحست أن الساعة المرتقبة المرهوبة قد دنت . فأهابت بكل ما فيها من شجاعة وصلابة ، وأسرعت وقالت قبل أن تشفق مرة أخرى وتنهزم :

ـ وشقيقك . . . بلوتون . . . ذلك الرجل الطيب الكريم الذى رباك بعد وفاة والدك ، وعلمك وثقفك ، ولم يشأ أن يتزوج خشية أن تستبد امرأته بك . . . أنتركه هنا ؟ . . . أندعه فريسة للحاكم ؟ . . . سيعتقد الحاكم الخائن أنك فررت لتلحق بالجيش ، وأنك ستعلن عن خيانته ، وتفضح خططه عند القائد الزعيم ، فيقتل شقيقك انتقاماً منك ! . . . أفيهون عليك أن تسلم أنت ويموت الرجل الذى هو بضعة من لحمك ودمك ؟ . . . لا . . . أنا لا أقبل . لا أقبل هذا أبداً !

فصاح كرونوس وقد راعه إخلاص الفتاة وضاعف حبه تأججاً واشتعالاً :

ـ بلوتون سيرحل معنا !

فلم تمهله وقالت وبدنها يكاد ينخلع :

ـ ولكن أين هو الآن ؟ . . . ألم تقل انه يختفى فى مخبأ عينته أنت له ؟ . . . فأرشدنى إلى ذلك المخبأ وابتعد . . . لا تظهر . . . الحاكم لا يمكن أن يغفل عنك وأنت الوطنى المخلص ورئيس فرقة الفرسان . وهو كما قلت لك لا بد أن يتعقبك ويقبض عليك خشية أن تلحق بفرقتك وتفضح تدبيره عند القائد . فما الذى يضطرك بالظهور والاستهداف

للخطر ؟ . . . أهو المال الذى جمعته والذى نحن فى حاجة إليه ؟ . . .
لا ريب أنك أودعته عند أخيك . سأجيئك أنا به . فابق هنا ولا تخرج .
إنى خائفة عليك . الحاكم لن يفكر أبداً فى اقتحام بيتى بعد أن اعتقل
والدى . . . فدعنى أذهب إلى المخبأ . . . سأتصل بأخيك تحت جنح
الظلام ، وأصطحبه معى إلى سفح الهضبة الكبيرة حيث تلحق بنا أنت .
وهكذا نفر جميعاً وننجو . . . فقل لى أين يختبئ بلوتون ؟ . . . تكلم .
وثق فى حنكتى وذكائى ، واعتمد بعد الآلهة علىّ ! . . .

وتراجعت كمن يتحفز لعمل جرىء هو خليق به ، ووقفت مرفوعة الرأس شامخة ومتأهبة . فبهره صدقها ، وفيض حماستها وغيرتها ونبلها .
فاندفع إليها شارداً مفتوناً ، وضمها إلى صدره كمن يضم كنزاً ، وقال وهو يغمر وجهها بالقبلات :

ــ فى الكهف . . . فى كهف المجذومين ! . . . هناك خبأت شقيقى ، فى ذلك الكهف الذى كان يطرح فيه مرضى الجذام قبل أن تنشئ الحكومة مستعمرة لهم . . . الكهف على بعد ساعة من هنا . ولكن كيف يمكنك أنت الذهاب إلى هناك ، واجتياز الطريق فى الليل بدون رفيق ؟ . . .

فقالت هستيا وهى ترتعد :

ــ إذن فالمخبأ هو كهف المجذومين ؟ ! . .

وتقلصت عضلات وجهها تقلصاً مخيفاً ، وتلوت فى تشنج وألم كظيم ، كأن قوة تعتصرها اعتصاراً وتستنزف آخر نقطة من دمها . ولم تشأ أن تنظر إلى كرونوس . فأغمضت عينيها . . . أغمضت عينيها كى لا تراه فى هذه اللحظة الرهيبة ولا تنجذب إليه ولا تدع قلبها يتأثر ويتحول ولو بمسكة من الشفقة عليه . وقبل أن يوجس ويتنبه ويستفيق ، غافلته وهو ساهم ، واستصرخت فى عمق نفسها معبودتها الجبارة بالاس ، ثم انحنت على الشاب ، واختطفت منه خنجره ، ودسته فى صدارها ، ثم

انطلقت نحو باب الحجرة ورفعت ستاره ، وصاحت بصوت غائر مخبل مخنوق :

ــ تعالوا . . . ادخلوا . . . لقد اعترف ! . . . إن شتيمه الذى يحمل أسرار جيشنا يكمن الآن فى كهف المجذومين ! . . .

واندفع إلى الحجرة والدها وأستاذها وأوريون ونفر من رجال الشرطة الذين كانوا قد حاصروا البيت . وما إن أبصرهم كرونوس وشاهد والد هستيا حراً طليقاً ، حتى تراجع مصعوقاً وجمد . اندلعت عيناه ، وارتجفت شفتاه ، ورمى الفتاة بنظرة من نار ، وظل يحدق إليها منهوم الفم ، مستشيط العين ، ممسوخ القسمات ، أشبه بوحش وقع بغتة فى فخ ضيق المنافذ عالى السدود ، فهو يود أن يعض وينهش ويثأر فلا يستطيع . . . ووضحت أمامه المكيدة المحكمة التى دبرتها له المرأة الوحيدة التى أحبها . أدرك لفوره أن قصة الحاكم كانت كلها محض اختلاق . أدرك أن والد الفتاة ورئيس الشرطة كانوا جميعاً جواسيس للحاكم والقائد عليه هو وعلى بقية المتآمرين . فتاه عقله ، وأيقن من موت شقيقه وموته هو أيضاً بالسهام أو الحراب بعد أن يجر فى شوارع أثينا ، ويعرض على الجماهير الثائرة ، ويلطخ اسمه واسم أسرته بشر ضروب الفضيحة والعار . فظل لحظة تائهاً كأنه فى بحران حمى ، ولم يتكلم . وعندئذ دنت منه هستيا وصاحت بأعلى صوتها وهى تتفطر وتتلوى والدمع ينهمر من عينيها :

ــ أشهد الآلهة يا كرونوس علىّ أنى كنت أوثر أن يكون عقابك وعارك على يد غيرى . كنت أحبك بل أعبدك يا كرونوس . كنت أستدرجك وأتمزق . كنت أحاسبك وأتقطع . كنت أدينك وقلبى المفعم بالشفقة عليك يقطر دماً . ولكنى كنت مجبرة يا كرونوس . كنت مواطنة قبل أن أكون امرأة ، وكنت إغريقية قبل أن أكون أنثى وعاشقة . كان يجب أن أضع واجبى فوق حبى ، وأن أتجرد من كل رحمة وأحب موتك

يا حبيبي . لأستطيع أن أحبَ الحياة لوطني ! . . . فقدر موقفي يا كرونوس ولا تكرهني . أشفق عليّ شفقة أستحقها ولا تبغضني . لقد ارتفعت أنا بحبنا إلى عالم أسمى وأبقى منا . فانظر أنت إلى هذا العالم فقط ولا تنظر إليّ . انظر إلى وطنك ولا تحقد عليّ . كن نبيلاً كما كنت في ماضيك ، وكفر عن جريمتك مختاراً واقبل عقابك . اقبل العقاب العادل واحتمله في إقرار متواضع بذنبك ، أحس أنا أن وطنيتك قد بعثت وضميرك قد استفاق ، فأعبدك روحاً أكثر ألف مرة مما كنت أعبدك جسداً ، وأعاهدك على ألا أعرف بعدك أي رجل ، وأن أدخل المعبد منذ الساعة ، وأنقطع فيه عن الدنيا ، وأنذر نفسي وحياتي لخدمة الآلهة حتى أموت ! . . .

فاختلج كرونوس اختلاجاً عنيفاً ولم يجبها بكلمة . لم يلق عليها أية نظرة ، بل أشاح بوجهه وأجال بصره في أوريون الناقم الحاقد ، وفي الفيلسوف الهادئ المتأمل ، واستقر على والد هستيا الجامد الصابر . فاتجه نحوه ، واتأد فترة ، ثم قال في صوت ثابت جهير :

— لا أنكر شيئاً مما تتهمونني به يا سيدي . أنا مقر بأني قد فررت من الجيش وسرقت أسراره ، ومقر بأني خائن لوطني ومستحق للعقاب . ولقد ندمت كل الندم على جريمتي . ندمت من أعماق قلبي ولم أعد آمل في أكثر من أن يشفع لي ندمي عند الآلهة فتغفر لي في العالم الآخر وترحمني . ولكني جندي يا سيدي ، جندي خدمت بلادي في ساحة الحرب مرات ، وقاتلت في بسالة وجرحت . فغاية ما أطلب الآن هو أن تجنبني الفضيحة والعار . فأعطني سلاحي أقضي به على نفسي بنفسي ، وأموت كجندي لا كمجرم . هذا كل ما أطمع فيه يا سيدي . فلا تبخل عليّ بهذه النعمة في لحظتي الأخيرة وترفق بي ! . . .

فاضطرب الكاهن ورمق الفيلسوف بنظرة . أما هستيا التي لمست فعل كلماتها في نفس كرونوس ، والتي كان عزاؤها الأوحد أن تراه يرتد إلى

حظيرة الوطن تائباً نادماً متطهراً قبل أن تفقده إلى الأبد ، فقد راعتها عباراته ، وبهرتها يقظة ضميره ، وأثلج صدرها فرط ندمه وتوبته . فاستضاء وجهها ، وتألقت عيناها ، وانبعثت أمامها صورة الفارس الوطنى البطل الذى كان بالأمس كل حياتها . فارتمت على والدها ، وتشبثت به وصرخت :

ـ ما جدواكم من تعذيب الرجل وتلويثه ؟ . . . ما جدواكم من عرضه فى شوارع المدينة أمام الشعب الثائر ، ثم قتله بالسهام أو الحراب كأنه قاطع طريق ؟ . . . إن أسرار جيشنا فى حوزة شقيقه ، وشقيقه أصبح الآن فى قبضتكم . أما هو فقد رد إلى نفسه اعتبارها بيقظته الخالصة وندمه العميق . فأنا ، أنا التى مالأته واستدرجته وانتزعت لكم سره ، من حقى عليكم أن تدعونى أفصل فى القرار الذى يجب أن تنتهى بموجبه حياته ! . . . لا . . . لن تنتهى بموت الرجل كمجرم . . . لن يلطخ بالعار بعد أن استهول الجريمة وآمن بالوطن . . . خذ سلاحك يا كرونوس ، واسترد ولو بعض كرامتك ، ومت على الأقل كجندى . خذ . . .

وانتزعت خنجره من صدارها ودفعت إليه به . فانحنى حتى الأرض وهو يتناوله منها . ثم رفع رأسه وحدق إليها . فألفت نفسها فجأة تجاه عينين واسعتين ضاريتين مثبتتين فيها . فأجفلت وتراجعت . ولكن كرونوس لحق بها . وقبل أن تتنبه هى أو يفطن أوريون أو والدها أو أستاذها أو رجال الشرطة ، غافلها الشاب وهى مشدوهة ، وجذبها فى عنف إليه . وفى مثل خطف البرق أو وقع الصاعقة ، أغمد خنجره فى صدرها . ثم انتزعه وحاول أن يضرب به نفسه . فأسرع الجند وارتموا عليه ، ثم جردوه من سلاحه وكبلوه ، بينما كان أوريون يطلق صرخة مدوية ، ويتلقى الفتاة بين ذراعيه ، ويرقدها على إحدى الآرائك ، والفيلسوف وقد ملكه الذعر ، يهرع إليها ، وينادى الخدم ، ويطلب طبيباً ، ووالدها المسكين ينحنى

عليها ويهزها فى تهافت وخبال ، ويصيح :

— هستيا ... حبيبتى هستيا ...

ولكن الفتاة التى كان ينزف الدم من صدرها ، زفرت زفرة مخنوقة أعقبها أنين أجش . ثم أرسلت نفساً عميقاً سمع له اصطخاب أشبه بهدير موج . ثم اصفر لونها ، وغارت وجنتاها ، ولمعت عيناها الجاحظتان لمعاناً ثابتاً خاوياً مخيفاً لا أثر فيه لأى وعي بشرى . ففقد الوالد صوابه ، وصرخ وهو يضرب صدره بقبضته وينفجر بالبكاء :

— ماتت ابنتى ! ... ماتت هستيا ! ...

وأخذته أخذة مروعة من الحنق والكمد واللوعة . فتحول إلى الجند ، وأشار إلى كرونوس وصاح :

— لقد عاش خائناً وانتهى نذلاً . فعذبوه . عذبوه هو اليوم بالفضيحة أولاً ، ثم عذبوا بها فى غد شقيقه الذى هو الآن فى قبضتكم .. اعرضوهما على الجماهير فى الشوارع . مرغوهما فى حمأة الذل والتنكيل والعار ، ثم اقتلوهما بالسهام أو الحراب . فكلاهما أغلظ وأقسى من أفتك مجرم قاطع طريق ! ...

فانقض الجند على كرونوس ، وجردوه من مئزره العسكرى وقميصه ، وانتزعوا من صدره شارات فرقته ، وكبلوا قدميه بالأغلال ثم ساقوه . فعاد الوالد وارتمى على جثة ابنته ، وأردف مخبولاً وهو يقبلها فى حرقة ويبكى :

— احملوها إلى فراشها ... اغمروها بالزنابق والورود ... سيصلى عليها الكهنة هنا ... وستدفن هنا ... فى ضريح بيتى ... فى الضريح الذى دفنت فيه أمها ، والذى لابد أن ترحمنى الآلهة وشيكاً وتغيبنى أنا أيضاً فيه ! ...

ومد ذراعيه المرتعشتين ليعاون فى حملها . ولكن أوريون ، أوريون

الذى كان يتأملها ويختلج ، ويضم إلى صدره جسدها البارد والدمع يطفر من عينيه ، تشبث بها ، وأحكم ضمها واعتناقها ، وصاح فى صوت غائر قاطع تمشت فيه شبه لوثة من جنون :

ـ لن يجسر واحد منكم على أن يسلبها منى . إنها الآن لى . . . لى أنا وحدى ! ... لقد أحببتها وعبدتها كما لم أحبب وأعبد آلهتى ! . . . فأنا الرجل الشقى ، أنا الرجل الدميم المحتقر المنبوذ الذى وهبت كل ما أملك لوطنى ، وكنت أتعس إنسان برغم ثرائى ، ولم أشعر فى حياتى بأية نفحة من حب أو قبس من حنان ، ألتمس منكم ، بل أتوسل إليكم أن تعطونى هستيا . . . لا تأخذوها منى . . . . إن مثلها لا يسجى على أرض فانية كجميع الناس . . . يجب أن يصلى عليها فى المعبد لا هنا . إنها منذ اليوم عذراء الوطن الخالدة . لقد ماتت شهيدة . فالمقبرة الخليقة بها هى مقبرة المعبد المقدسة حيث ترقد من حلت عليهن معجزات الإلهة بالاس ، ومن اختلطت عظامهن بعظام خادمات الهيكل البتولات الطاهرات . . . هناك مثوى ابنتك يا سيدى الكاهن . فلا تحرم الوطن من تقديسها ، ولا تحرمنى أنا منها . فأنا سأقتدى منذ اللحظة بها . سأفعل ما كانت ستفعله هى من أجل رجل لا يستحقها . سأودع الدنيا فى سبيلها ، وأدخل المعبد ناذراً نفسى لخدمة الإلهة ، وأظل فى المعبد بجوار قبرها ، أحبها وأذكرها وأصلى ، حتى تحبنى هى ، وتنادينى ، فأموت وقد استوعبت روحها روحى كما يستوعب النور ظلمة الليل الحالكة ! ... فلا تكن أنانياً يا سيدى ، ومر بحمل ابنتك إلى المعبد ...

وما كاد أوريون يتم خطابه ، حتى اهتزت جوانب البيت ، وتصاعدت من الخارج جلبة كبيرة ، ثم شوهدت الجماهير التى علمت من رجال الشرطة بخيانة كرونوس واستشهاد هستيا ، تتقدم نحو البيت كالسيل الجارف ، وتصرخ طالبة تمجيد الشهيدة وحملها إلى المعبد .

فهتف أوريون والفرح يخنقه :

— هذا هو صوت الشعب !

فلم يسع الكاهن إلا أن يسلم . فتقدم أوريون نفسه وحمل الجثة بمعاونة أستاذه ، وخرج موكب الشهيدة يتبعه والدها الشيخ وخدم الدار ، وطوائف الشعب التي كانت تهتف للعذراء المجيدة ، "وتستنزل لعنة الآلهة على كرونوس ، وتغافل الجند وتقتحم نطاقهم ، كي تبصق فى وجه المجرم ، وهو عارى الصدر ، مكبل اليدين والقدمين ، يمسح بذراعه قطرات الدم التى تسيل من وجهه ، ويشهد عاره بعينيه قبل أن يضرب بالحراب ويموت .

ولما دخل الموكب المعبد ، أقيم جثمان هستيا على منصة عالية عند قاعدة تمثال الإلهة بالاس ، وغطته خادمات الهيكل بالزنابق والورود وسعف النخل وأكاليل الغار التى كان قد جاء بها الشعب . ثم تقدم الكاهن الأعظم وقدم عليه والد الشهيدة ، وشرع يتلو صلاة الجنائز ، ومن حوله الشعب ينتحب وصغار الكهنة يحبسون دموعهم ويرتلون .

ولما صمت الكل فترة ، وأنصتوا لسماع كلمة التأبين ، نهض الفيلسوف الذى كان قد تداعى من فرط الألم وجلس على إحدى درجات المعبد ، وتمالك نفسه ، ووقف فى الجمع المحتشد ثم رفع ذراعه وقال :

— إخوانى وأبنائى فى الوطن الجريح . . . منذ أن تحضر الإنسان عز عليه أن يفنى جهاده . فصبت نفسه إلى الخلود . أحس أن حياته الشخصية فانية . فآمن بالدين كى يخلد ، وآمن بالعائلة كى يخلد ، ثم آمن بالوطن لأن الوطن هو الرمز الشامل المقدس لخلوده وخلود أصلابه ، وخلود جميع من تحملهم الأرض التى منها يتنفس وبوساطتها يعيش . ولكن الإنسان قوى وضعيف ، باذل وأنانى . وهو دائم التأرجح بين مصلحته الخاصة ، وبين ما عليه من واجب نحو الوطن الذى يغدق عليه خيره والذى يكلؤه ويحميه . فبقدر ما يقهر الإنسان أنانيته ، وبقدر ما يتفوق على ضعفه

وغرائزه ، و بقدر ما يتألم و يبذل و يضحى ، يرتفع فى سلم التحضر ، و يتسنم ذروة الخلود الأسمى فى الحياة والموت من أجل وطنه وخير العالم . وهذا ما فعلته الشهيدة هستيا . لقد أحبت والدها وخطيبها بكل قوى قلبها و إيمانها وشبابها . فلما صدمتها الخيانة وأيقنت من خطرها الداهم على بلادها ، أنكرت بنوتها ، ثم قهرت حبها ، ثم غالبت النعيم الباطل الذى كان فى متناول يدها ولم تتردد فى تسليم حبيبها الخائن الذى حاولت مع ذلك أن تهديه فقتلها . فهذه الفتاة وضعت كرامتها فوق حبها ، و وطنها فوق نفسها ؟ وخلودها فى الوطن الباقى فوق نعيمها فى دنيا الحب البشرى الفانية . فاتخذوا منها مثلاً حياً لكم . قدسوها ما حييتم . واعلموا أن النصر لو حالف فى معركة الاستقلال قائدكم وزعيمكم ، فسيرجع الكثير من الفضل فيه إلى الشهيدة الباسلة التى ماتت من أجلكم! .

فانحنت الجماهير فى خشوع ورددت :

— المجد للوطن ! . . . المجد لهستيا ! . . .

فتقدمت خادمات المعبد ، ورفعن الجثمان وسط عاصفة من الهتاف ، وحملنه إلى المقبرة المقدسة القائمة تحت حرم الهيكل ، بينما كانت الجماهير تندفع نحوه ، وتتألب عليه ، كى تلمسه وتتبرك به قبل أن يغيب عن أعينها و يستقر فى مثواه الأخير .

وانتهت الصلاة وانصرفت الجماهير شيئاً فشيئاً . ولكنها لم تغفل عن القيام بالواجب المفروض عليها نحو أسرة الشهيدة . فانطلقت فى الشوارع تجمع زنابق وورود وأكاليل غار أخرى ، لتحملها إلى الكاهن الأول تعزية له وتمجيداً للبيت العتيد الذى ولدت فيه هستيا .

وساد الصمت فى المعبد . فارتعش أوريون الدميم وظل ينظر فى سكون إلى حجرة المقبرة . نظر إلى قلبه ، إلى روحه ، إلى آماله ، إلى حلمه العظيم الذى استحال فى مثل لمح الطرف حقيقة واقعة . فانخلع بدنه وأومضت

عيناه وأحس فرحاً عاتياً غمره وأذهله وأنساه حياته البائسة كلها . فلم يتمهل وتقدم . تقدم لفوره . تقدم وهو تائه ونشوان ، وعانق والد حبيبته ، ثم عانق أستاذه ، ثم صارح الكاهن الأعظم بما اعتزم عليه . ولما أجابه الكاهن إلى سؤله ومنحه بركته ورضاه، خلع أوريون نعليه ، وتمتم صلاة قصيرة . ثم مشى كالمؤمن المجتبى ، ودخل حرم الهيكل الذى تنهض تحته المقبرة التى دفنت فيها هستيا . وهناك حيث آلى على نفسه أن يعيش ويموت، ارتمى على سطح المقبرة المقدسة ، وبسط ذراعيه الملهوفتين كأنه يحتضنها ثم قبل أرضها الطاهرة وبكى .

وعندئذ فقط أحس أن موته عن الدنيا هو الحياة ، وأنه الآن مكتمل السعادة كالأرباب ، وأن هستيا قد أصبحت حقاً له وحده ، وأن من المحال أن ينازعه فى حبها بعد اليوم إنسان.

* * *

ولم يفلح الفرس فى الوقوف على أسرار جيش الإغريق، ولم تنشب أية ثورة داخلية بعد مصرع كروزوس وشقيقه وعصبة المتآمرين. فاطمأن القائد الزعيم ملتيادس ، وتأهب لمعركة الاستقلال الفاصلة فى سهل ماراتون . فطاف بجنوده قبل المعركة، وأثار حميتهم بذكر ما أقدمت عليه هستيا عذراء الوطن الشهيدة، ثم أطبق بجناحيه القويين على جيش الفرس . فمزق صفوفهم ، وما زال بهم يتعقبهم ويطاردهم حتى حطمهم تماماً وألقى بهم فى البحر .

من بلاد فارس

طريق الشرك

«كانت بلاد إيران حتى عام ٢٢٥ للميلاد محكومة بطائفة من الملوك الأجانب عرفوا باسم « الأرزاس » وانحدروا إلى إيران من شمال غرب آسيا . وقد استبد أولئك الملوك بالشعب الإيرانى وعاملوه معاملة القطيع . وكان الملك أرتبان الرابع أشدهم ظلماً واستبداداً . فتشجع أهل مدينة « كرمان » وأعلنوا الثورة عليه بقيادة ضابط إيرانى باسل خرج من صميم الشعب ويدعى « أردشير » . وتدور وقائع هذه القصة حول الحادثة التاريخية الغريبة التى عززت قوى الثورة ، والتى تمثل أبلغ تمثيل كفاح شعب وجهاد زعيم وبطولة فنان » .

* * *

كان الفنان الشيخ « بهزاد » قد بسط على لوح من خشب قطعة قماش مربعة كبيرة ثم تراجع خطوة وجعل يتأملها ، وأصابع يده الضامرة تعبث بطرف لحيته الكثة البيضاء .

وكان قد رسم على القماش سماء حمراء ، ونسوراً سوداء ، وأتربة خانقة ، وفرساناً يتقاتلون ، وعذارى تحث المقاتلين على الثبات ، وشيوخاً يخطفون سلاح الجرحى ويندفعون به فى حومة القتال ثم يسقطون على الأرض مستشهدين وهم يهتفون

وكان بهزاد قد فكر أول الأمر فى رسم بستان خصيب يانع الثمار . ولكن إحساسه الوطنى تحكم فيه بغتة ، فدفعه إلى رسم معركة صغيرة . وسرعان ما استحال البستان إلى سهل فسيح ، والأغصان والأشجار إلى مشاة وفرسان ، والمعركة الصغيرة إلى حرب طاحنة تشترك فيها أمة بأسرها .

وعجب الشيخ من نفسه كيف فكر فى شىء ثم صدر عنه شىء آخر . فأدرك أن إحساسه الوطنى هو المسيطر عليه وأن خوفه العميق على مستقبل بلاده هو الذى تحوّل بفكره وخياله ، وهو الذى أوحى إليه رسم هذه اللوحة ، تفريجاً عن صدره ، وتلطيفاً للألم العميق الذى يعانيه .

ونظر إلى قطعة القماش نظرة فاحصة واتقدت فيه شخصية الفنان . لم يقنع بما رسم . لم يطرب لما رأى . كان ينشد الكمال . فطفق يصلح ويهذب من هيا كل العذارى المجاهدات ومن صور الأبطال المقاتلين وهو يتأمل اللوحة بعينين ثاقبتين ويرتجف . . .

وكان بهزاد أول فنان إيرانى تطور بفن الرسم من الزخرفة إلى التعبير ، من الخطوط الملتوية المتعرجة المنسجمة التى تطرب العين ، إلى الشخوص الدقيقة الحية النابضة التى تطرب العين والقلب والفكر على السواء .

وكان مما حبب الجماهير فى فنه ، روحه القومية الأصيلة ، وذلك الإحساس الإيرانى الصميم الماثل فى رسومه والنابع من شعوره بأن أمته خليقة بالمجد ، حقيقة بالعظائم ، جديرة بأن تعيش وأن تنفض عن كاهلها عبء الذل الذى فرضه عليها الملوك المستبدون الطغاة .

والحق أن بهزاد كان قد رسم عدداً كبيراً من اللوحات التى تمثل بؤس الشعب وعذابه . فكان فى رسومه رجع صدى العواطف المتأججة فى صدور أبناء وطنه . كان مثلهم ثائراً على حكم الملك الظالم أرتبان ، متمرداً على أسرة الأرزاس العاتية ، تواقاً إلى تحرير وطنه من سلطانها ، وإقامة دولة إيرانية جديدة يتولى الحكم فيها الزعيم أردشير الذى خرج من الشعب والذى يكافح ويجاهد لا لمصلحة طبقة بل لمجموع الشعب .

فهذه الروح ، روح الثورة والتحرر ، أبصرها الآن بهزاد تنبض وتختلج فى صورة المعركة التى أبدعها بوحى من عقيدته الوطنية الراسخة . فابتسم للصورة . وعاد فانكب عليها يهذبها أيضاً ويصقلها . ولكن يده

البصيرة كانت مع ذلك ترتعش ، وعينه المتقدة كان يغشاها هم دفين ، وفكره المتنبه اليقظ كان يسبح بين لحظة وأخرى فى عالم لا يمت إلى الصورة بصلة . . .

وابث برسم غير حافل . بيد أنه خاف أن يشوه اضطرابه جمال فنه . خشى آخر الآمر من نفسه على عمله . أحس أن سلطان الألم يوشك أن يطغى عليه . فتنهد وألقى بفرشاته جانباً ثم صفق . فدخلت جاريته حاملة وعاء كبيراً وإبريق ماء . فغسل يديه ، ثم ألقى على كتفيه عباءته الحمراء ، وأمر الفتاة بإغلاق جميع أبواب البيت . ثم توكأ على عصا ، واستنهض قواه الخائرة وانطلق . . .

* * *

وظل يمشى فى شوارع مدينة « كرمان » ، مستغرقاً فى التفكير ، متطوحاً كالشارب الثمل ، والناس يحيونه ، والشباب يفسحون له الطريق ، والعظماء ينحنون له ، والنساء يتبعنه النظر معجبات ، ويتبرك البعض منهن بلثم أطراف عباءته .

ولما أشرف على الفندق الذى اجتمع فيه أصدقاؤه ومريدوه ، خرج إليه الكل وأحاطوا به ، واستفسروه عن آخر أنباء الثورة ، والتمسوا منه أن يبقى لحظة معهم . فخطب فيهم حافزاً هممهم ، مستنهضاً عزائمهم ، مضرماً فى صدورهم روح الكفاح ، مثيراً فى نفوسهم إرادة الثبات والصبر والأمل المحقق فى النصر القريب . ثم تملص منهم ، وحنى رأسه فى عياء ، واستطرد السير جاراً قدميه جراً ، ومتجهاً بخطى حثيثة نحو قصر ابنته الوحيدة أمسترس .

* * *

وكانت « أمسترس » مضطجعة على أريكتها ، وحولها جواريها ينادمنها ، أو يرقصن رقصات محببة إليها ، أو ينشدنها بعض أبيات من الشعر ، أو

يسمعها أغانى العشق والجوى .

وكانت متبرمة متضجرة ، تتقلب على فراشها ونظراتها مصوبة إلى جاريتها الصغيرة « أتوسا » تلحظ ابتسامتها الناعسة وهى تترقرق فى سكون حالم على وجهها الصبيانى الجميل .

ولم تشأ أتوسا فى ذلك اليوم أن تغنى لأن سيدها رب الدار كان متغيباً ، ولأن أمسترس كانت حزينة تفكر فيه ولا تدرى متى يعود .

وكانت الشمس ترسل أشعتها من خلال قضبان النوافذ الحديدية ، وتلقى على وجوه الجاريات بدرات من لؤلؤ يضاعف تألقها بريق أثوابهن الموشاة بخيوط من فضة وذهب .

وأوشك النوم أن يأخذ بمعاقد أجفان أمسترس ضجراً وسأماً . فعادت تطلب إلى أتوسا أن تغنى . فأطرقت الفتاة مذعنة ، وأمالت رأسها ، واتكأت على الأريكة ، وأشارت إلى زميلاتها أن يبدأن . فامتلأ جو القصر فجأة بنغمات المزمار واصطفاق الدفوف ورنين الصنوج ، وأنشدت أتوسا فى صوت حار شجى :

« الساعات تمر ثم تعود .
وكذا الأعوام تمر ثم تعود .
وضباب الزمن يهطل مطراً علينا ،
ويحجب الحب الذى إن مر لا يعود ! »

فتأوهت أمسترس ، وفاض الدمع من عينيها . فكفت أتوسا عن الغناء ، وسكنت حركات الجوارى ، وشاع الصمت فى القصر بغتة وزايلته الحياة . ولكن أمسترس أهابت بجواريها فنهضن مسرعات وشرعن يرقصن ، وفى تلك اللحظة فتح باب الصدر وظهر الشيخ بهزاد . فجمدت الأبدان المتمايلة ، ثم انحنت جميعاً أمام الضيف ، ثم تقهقرت وانسابت وغابت ظلالها خلف الأبواب .

وخفت أمسترس لاستقبال والدها ، وقبلت يده فى احترام ، وأجلسته على الأريكة ، ثم تربعت أمامه على الأرض فرحة بمقدمه ، مبتهجة بزيارته . غير أنها لم تشأ أن تبدأ الحديث . فتريثت وجعلت تحدق إلى الشيخ وقلبها يختنق . ولما رأته شاحب الوجه ، زائغ البصر ، متقبض القسمات ، أوجست خيفة ، وتشجعت وقالت فى حنان :

ـــ ما بك يا أبت ؟ . . .

فرفع بهزاد رأسه ، ونضا عنه عباءته ، وقال فى صوت غائر دون أن ينظر إلى ابنته :

ـــ أتعلمين يا أمسترس إلى أين ذهب زوجك ؟ . . .

فأجابت متجاهلة :

ـــ قال لى انه على موعد من الزعيم أردشير ، وانه قد يتغيب اليوم ثم يعود بعد ظهر غد . . .

فضم بهزاد شفتيه وأطرق ، ثم قال فى هدوء وهو يضع يديه فى رفق على كتفى ابنته :

ـــ وقد لا يعود إلى هذه المدينة أبداً .

فصرخت أمسترس فى ذعر مصطنع :

ـــ ماذا تقول ؟ . . .

فتحامل الشيخ على نفسه ، ونهض عن الأريكة ، وجمع أطراف ثوبه الفضفاض ، وتربع فوق وسادة على الأرض بجوار ابنته ، وقال :

ـــ إن الزعيم أردشير هنا فى مدينتنا ، فى كرمان . ولكن زوجك لم يذهب إليه . . . زوجك ليس هنا . . .

فقاطعته نافدة الصبر :

ـــ ولكن أين هو إذن ؟ . . .

فنكس بهزاد رأسه وأجاب :

ـ فى مدينة هرمز . . . عند عدونا ، عند الملك أرتبان ! . . .

ففغرت المرأة فاها كأنها بلهاء وتمتمت :

ـ أسافر إلى هرمز ؟ . . .

ثم أردفت وهى تشيح بوجهها :

ـ ولكن كيف؟ ألم ينضم زوجى إلى الثوار ؟ ألم ينضم إليكم ؟ ألم يقسم يمين الطاعة لزعيم الشعب أردشير ؟ . . . فكيف يغادر الآن مدينة كرمان مركز الثورة ، ويلحق بعدونا الملك أرتبان فى هرمز ؟ . . .

فقطب بهزاد حاجبيه وقال :

ـ لقد خان زوجك قضيتنا . خان بلاده وطعنها فى ظهرها . كان رئيس الكهنة فأراد أن يصبح الوزير الأول . فلما اندلعت الثورة بقيادة الزعيم أردشير وانهزم الملك الأجنبى أرتبان وارتد إلى مدينة هرمز واستقر فيها كى يجمع فلول جيشه ويتهيأ لمواصلة قتالنا ، أرسل إلى زوجك « باردس » يعرض عليه منصب الوزارة إن هو كف عن تأييد الزعيم أردشير واستطاع فوق ذلك بالقوة أو بالحيلة أن يسرق . . . أتفهمين ؟ . . .

فصاحت المرأة :

ـ يسرق ؟ . . .

فأجاب الشيخ :

ـ نعم . يسرق من الهيكل شعلة جهادنا ، مصدر الحكمة والنور لشعبنا ، الوصية الروحية المقدسة التى خلفها لنا مؤسس عقيدتنا المصلح زرادشت العظيم . ولقد فر زوجك إلى هرمز . لحق بعدونا ومعه الوصية . . . سرق الوصية المقدسة وفر . . .

فهتفت أمسترس :

ـ زوجى يفعل هذا ؟ . . .

فصاح بهزاد :

ـ لقد خان الوطن وخان الله ، بل هو بالسرقة المروعة التى أقدم عليها قد يخمد نار ثورتنا ، ويقضى القضاء المبرم على آمالنا ، ويمكن للملك المستبد من أن يعود فيرتد علينا ويحكمنا ، ويسومنا شر ضروب الظلم والإذلال . أنت تعلمين قيمة الوصية المقدسة فى جهادنا . إن من يملكها هو الذى يستطيع أن يحكم . وما دامت الوصية فى يد الملك أرتبان فسيظل هو الملك الشرعى للبلاد فى نظر سكان الأقاليم البعيدة التى لم تبلغها دعوة أردشير ، ولم تشتعل فيها بعد نار الثورة . إن فى مقدور أردشير أن يهاجم الملك ويطرده من مدينة هرمز . ولكن الملك قد يجمع فلول جيشه المهزوم ويرابط فى مدينة أخرى ، ثم يكر يوماً علينا مستنداً إلى حقه الشرعى فى الحكم بوجود الوصية المقدسة فى يده . فكيف يستطيع أردشير أن يحطم نفوذ الملك المستبد ويحرر المقاطعات الإيرانية البعيدة كلها وهو لا يملك تلك الوصية الروحية المقدسة التى تمنحه حق الحكم وفقاً لتقاليدنا ؟ . . . إن أهل هذه المدينة ، مدينة كرمان ، قد أيدوا ثورة أردشير لفرط ما أصابهم من ذل واضطهاد على يد الملك أرتبان . ولكن الجماهير المتعصبة المحافظة فى الأقاليم البعيدة لن تناصر أردشير إلا إذا باركته الكهنة وظهر أمام الشعب وبيده الوصية المقدسة . فإذا عجز أردشير عن امتلاك الوصية ، فشعوب الأقاليم قد تخذله وقد تعتقد أن الآلهة تعانده وتبارك خصمه أرتبان حامل الوصية . فزوجك يا أمسترس يوشك أن يخنق ثورتنا ، ويهدم كل ما بنيناه ، ويردنا إلى حكم الملك المستبد عدونا . ولقد جئت إليك يا ابنتى بعد أن استوثقت من جريمة زوجك ، وبعد أن علم بها الزعيم أردشير ، وذاع أمرها بين أعضاء المجلس الثورى كله . . . لم أذق طعم النوم ليلة أمس . فحاولت هذا الصباح أن أدفن همى فى فى ، وأن أتناسى معرفتى بضع ساعات ريثما تستيقظين . ولقد خطر لى أن أؤدى الواجب بنفسى ، ولا أصارحك بالحقيقة أو أعتمد فى شىء عليك . ولكنى فكرت فى أنى

شيخ فى السبعين ، وأن الخائن هو زوجك ، وأنك صاحبة الحق عليه قبلى ، وأنك امرأة فى وسعك أن تنجحى حيث يمكن أن أفشل أنا . فجئت لأتحدث إليك ، لأراك ، لأرى هل أنت يا أمسترس خليقة بالانتساب إلى أبيك ، وإلى هذه الأرض الطاهرة التى حملتك ! . . .

فامتقع وجه المرأة ، وبدت كأنها لم تفهم . ثم بسطت يديها فى حيرة وابتئاس وقالت :

ـــ وماذا فى وسعى أن أفعل ؟ . . .

فقال بهزاد بصوت واضح المخارج باتر النبرات :

ـــ لابد لنا من الاستيلاء على الوصية المقدسة كى نعزز ثورتنا ، ونستميل شعوب الأقاليم النائية ، ونستأنف هجومنا على جيش الملك أرتبان المرابط فى مدينة هرمز . ولقد فر زوجك إلى هرمز . فعليك أنت أن تلحق به وأن تتوسلى بجمالك ودهائك لمعرفة المكان الذى أخفى فيه زوجك الوصية المقدسة . ومتى تم لك ذلك فاتصلى على الفور بالقائد « نارباس » وكاشفيه بما اهتديت إليه ، فهو من أنصارنا ، وهو عين الزعيم أردشير فى البلاط الجديد الذى أنشأه الملك أرتبان فى مدينة هرمز . وهو لن يتردد فى جمع رجاله المخلصين ومغافلة أعدائنا ، والاستيلاء على الوصية وحملها إلينا . وعندئذ يصبح فى وسع زعيمنا أردشير ، وقد أيقن من امتلاكه الوصية ومن قدرته على اجتذاب شعوب الأقاليم ، أن يصدر أمره إلى جيش الثورة بالهجوم على مدينة هرمز وخلع الملك أرتبان ، وتحرير البلاد الإيرانية كلها من نير الطاغية المستبد . هذا هو الواجب المفروض عليك اليوم يا ابنتى !

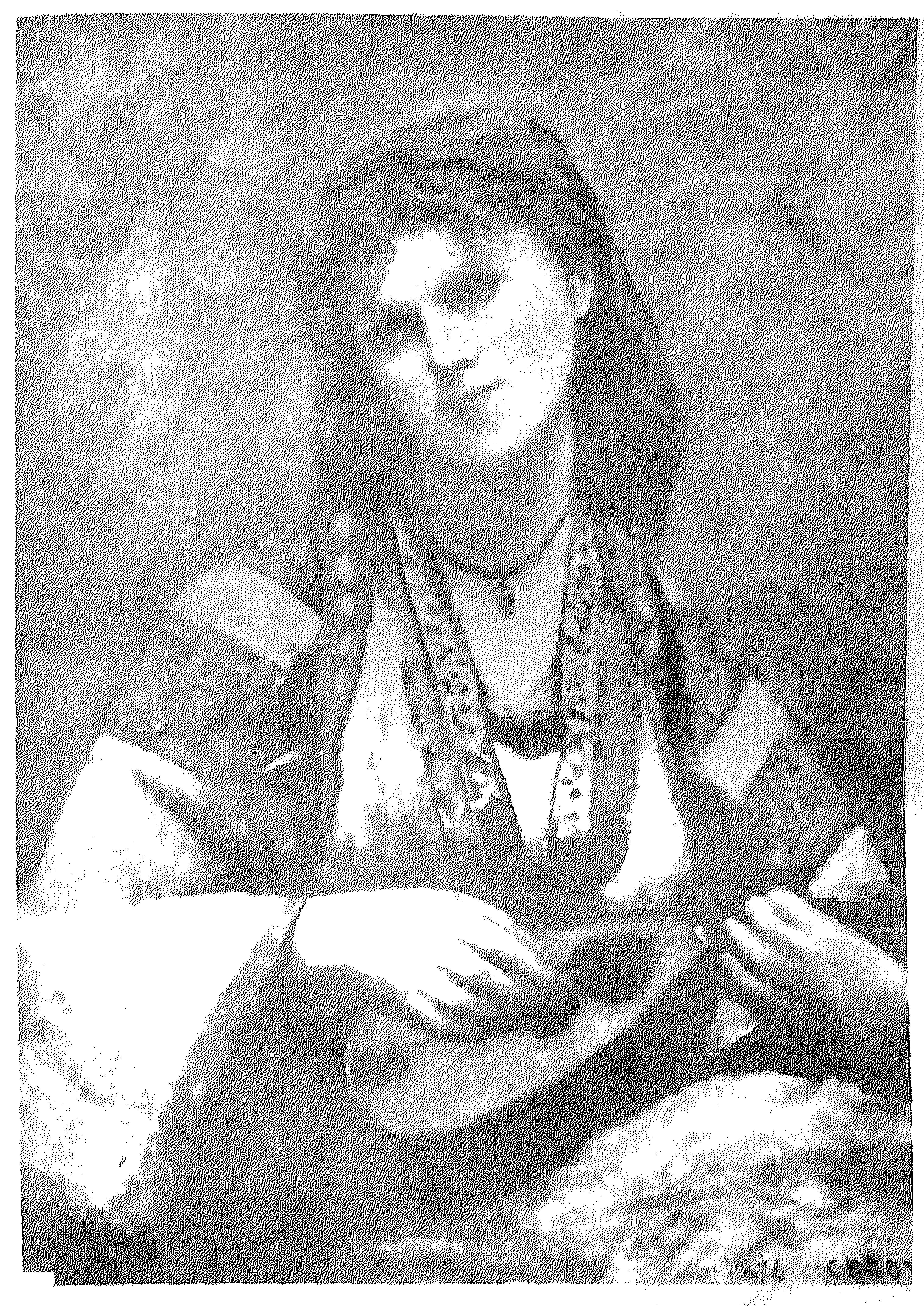
فارتعدت فرائص أمسترس وقالت :

ـــ وزوجى ؟ . . . إن الزعيم لن يرحم بعد النصر أعداءه ، وهو سيأمر ولا ريب بقتل زوجى . أليس كذلك ؟ . . .

فأجاب بهزاد :



« القارئة الصغيرة » — للفنان كورو — مجموعة أوسكار رينهارت ڤينترتور



« كريستين نيلسون أو الغجرية تعزف على الماندولين » — للفنان كورو
متحف سان پاولو.

ـ لن يكون الزعيم زعيماً إن هو استضعف وترفق بخائن يستحق العقاب .

فانفجرت عواطف أمسترس ، وصاحت فى صرخات متقطعة مستهولة :

ـ لن أسافر أبداً . . . أبداً . . . لن أقتل زوجى بيدى ! . . . إنه ليس فقط زوجى . إنه حبيبى . إنه كل شىء لى . لم أعرف رجلاً سواه . لقد تزوجته وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى . أخذنى طفلة فربانى . كنت يتيمة الأم فحبانى عطف الوالدة وحنانها . . . إنه زوجى وأمى وأبى . وأما أنت فلو انك كنت حقاً والدى لما جئت إلى هنا تطلب إلىّ أن أقضى بنفسى على نفسى . لن أسافر ، بل سأسافر . . . الليلة . . . الليلة . . . ولكن لا لأغدر بزوجى ، بل لأحذره منكم ، وأكون إلى جواره ، وأقاسمه حظه ، هزيمة أم نصراً ، شقاء أم سعادة ، موتاً أم حياة . أما أنت فإذا بلغت عنى قبل سفرى ، إذا وشيت بى ، فلن يظفر رجال الثورة منى إلا بجثة هامدة . فانبئهم بعزمى إن شئت . أقتل ابنتك إن شئت . هذا ما سيجلبه عليك إخلاصك الأعمى لأردشير !

وصمتت والشرر يقدح من عينيها فرمقها الفنان بنظرة ملؤها الأسف المرير وتمزق . ولكنه أسرع وكبح نفسه وسيطر جهده على عواطفه ، وحنى رأسه فجأة وابتسم . ابتسم ابتسامة غريبة ، ابتسامة خاطفة ، ابتسامة لم تلمح ابنته مقدار الاوعة التى شاعت فيها ، ولا مقدار العزة التى ارتسمت عليها ، ولا مبلغ العزم الراسخ المستميت الذى فاض منها . فعجبت له أمسترس كيف لم يغضب ، وكيف لم يسخط ، وكيف لم يثر ، وأوجست منه وحدقت فيه . بيد أنه ظل محنى الرأس جامداً كأنما هو قد أحس أنه تهور وطلب المستحيل . فتفرست فيه المرأة أيضاً وقالت :

ـ ما بالك لا تتكلم ؟ . . .

فأجاب بصوت شارد :

ــ يخيل إلىّ أنى مجنون . . .

فهتفت المرأة :

ــ أنت تراجع نفسك . أنت تقدر الآن ولا ريب فظاعة مطلبك .

فصرخ :

ــ أنا إنما أفكر فيك . فيك وحدك . إن الزعيم لا يمكن أن يتجاوز عن عصيانك لأنه هو الذى أشار علىّ بأن أعهد بتلك المهمة إليك . هذه هى الحقيقة . فماذا أفعل لو اعتبرك الزعيم خائنة كزوجك ؟ ماذا أفعل لو قتلوك ؟ كيف يمكن أن أعيش لو فقدتك ؟ ماذا يمكن أن يحل بى ؟ . . . آه ! لقد شوشوا عقلى ، وأفسدوا طبيعتى وأوشكوا أن يستأصلوا منى شعور الأبوة الذى فيه إنسانيتى . نعم . أنا مجنون . وما طلبته منك يا أمسترس يفوق طاقة البشر . . .

فتعلقت به وصاحت :

ــ ألم أقل لك ؟ . . .

فتمتم :

ــ كان يجب ألا أدخل المجلس الثورى أبداً . . . أنت على حق . . . أنا رجل فن وخيال وشعر . فمالى والسياسة التى التهمت جزءاً ثميناً من فكرى ووقتى كان أحق بهما فنى الثابت الباقى . . . لا . لن أجن فى نهاية عمرى . لن أدعو إلى سفك الدم يا أمسترس . . .

فقالت :

ــ إذن فانسحب من المجلس الثورى واتبعنى . . .

فضمها إلى صدره وهتف :

ــ سأفعل . . .

فابتهجت المرأة بتحوله . ولكنه قطب حاجبيه وأشاح بوجهه . فأرابها قلقه واضطرابه . فعادت وأوجست منه . وهجس فى روعها أنه قد يكون

غير صادق وأنه يخدعها . فاستشعر هو إحساسها وأسرع وصوب إليها عينيه الهادئتين النادمتين ، وظل يقاوم فى شجاعة نظراتها الثاقبة حتى أجبرها على أن تغض من بصرها وترى فيه الشخصية الجديدة التى أراد أن يتقمصها . . .

وأثر فيها هدوؤه . ولأنها كانت تحب زوجها فقد اقتنعت فى النهاية بأنها أقنعت والدها وأنه قد انضم فعلاً إلى صفها . فاحتضنته بغتة وقالت :

ـ ابق الآن هنا . امكث معى . بجوارى . سأعد معدات السفر وأرحل الليلة . لقد استطاع زوجى عندما كان رئيساً للكهنة ومناصراً للزعيم أردشير ، أن يحصل منه على إذن باجتياز الحدود عساه أن يلحق يوماً بالأنصار الذين أرسل بهم الزعيم عيوناً وجواسيس على الملك أرتبان . ولكن زوجى فر من طريق الجبال وأبقى الإذن معى . فأنا سأجتاز الحدود آمنة مطمئنة . فلا تخش أنت على حياتى . ومتى غادرت هذه المدينة وسألوك عنى ، قل لهم انك جئت لزيارتى فلم تجدنى فى قصرى . أما جوارى فلن تجسر إحداهن على مصارحة إنسان بأنك كنت الساعة هنا . . .

فلاطف الشيخ خدها بأنامله وقال :

ـ ما عرفت قبل اليوم مبلغ حبى لك وقيمة حياتك عندى . سأعمل بما قلت . لن أتصل بالزعيم أو بمجلس الثورة إلا فى ظهر الغد وبعد أن تكونى أنت قد غادرت المدينة واجتزت الحدود . . .

فقالت وعيناها تلمعان :

ـ وأنت ؟ . . .

فأجاب وهو ساهم :

ـ سأتبعك . . . سأعرف كيف أغافلهم جميعاً وألحق بك بعد أيام . . .

فأرادت أن تعانقه وتقبله . ولكنه نحاها عنه وقال :

ــ يجب أن أمضى . يجب أن أكون فى بيتى كى لا تحوم حولى أية شبهة فأتهم بالتواطؤ معك ، فأقع تحت الرقابة وأعجز عن اللحاق بك . فدعينى أذهب واستأنف عملى الفنى ، وانطلقى أنت إلى زوجك ، ولتحرسك الآلهة . . .

وكاد أن يترنح ويسقط ويفتضح . ولكنه غالب نفسه ما استطاع ، وأدنى ابنته منه وقبلها فى جبينها قبلة أبوية خالصة . فعانقته عناقاً طويلاً . بيد أنه أفلت منها فى رفق ، وقبلها أيضاً ليمعن فى تضليلها . ثم اختطف عباءته وعصاه . واتجه نحو الباب مرفوع الرأس ، وطيد الخطى ، ثابتاً عازماً مستبسلاً ، لا تأخذ العين منه غير قدمين هزيلتين تحملان كومة راسخة من عظام . . .

* * *

ولم يكد بهزاد يغادر قصر ابنته ويرى الأفق الواسع والشمس الضاحكة والشارع العريض ، حتى تنفس ملء رئتيه ، ثم تحول ونفذ لى زقاق مقفر . ثم تحسس موضع الجيب من قميصه ، وأخرج ورقة زرقاء مطوية لفها فى منديله وعقده عليها ، ثم دس المنديل فى جيب آخر بعيد الغور وتمنطق عليه بحزامه الأحمر ، ومرق من الزقاق ، ويمم وجهه شطر الفندق الذى يختلف إليه أصدقاؤه ومريدوه .

وسار مشتعل العينين ، مضموم القبضتين ، محموم الخطى ، يلفح النسيم لحيته الطويلة الكثة ، وترفرف حوله أطراف عباءته الخضراء ، فتحيله لى شبه طائر هرم مكدود يأبى مع ذلك إلا أن يبعث شبابه ، وينشر جناحيه ، ويضرب ما استطاع فى أجواز الفضاء .

وعرفه الناس كالعادة ، وأفسحوا له الطريق . وشاهده جمع من الشباب الوطنيين فلوحوا له بأذرعهم وحيوه . أما هو فكان مشغولاً عن السابلة بنفسه . كان مستغرقاً فى التأمل والتفكير . كان يتقدم وركبتاه

لا تقويان على حمله . كان ينظر إلى الناس فى حب وشفقة وخوف ويناجى ربه ويقول :

ــ أيها الرب الأعلى ، يا « أورمازد » العظيم ، فاطر السموات والأرض ، أعنى على شيخوختى ، وهبنى قوة الصبر والثبات واحتمال الألم . وكما كنت تسرع لنجدتى وتقف خلفى ، وتمد عقلى وأصابعى بسيل من روحك وأنا مكب على عملى الفنى ، كذلك ألتمس إليك أن تكون الساعة بقربى وأنا مقدم على المغامرة بحياتى . قد أموت أيها الرب الأعلى . ولكنى لا أريد أن أموت قبل أن أؤدى واجبى . أنا الذى سأنهض بما أبت أن تقوم به المرأة الخائنة التى هى وأأسفاه ابنتى . أنا الذى يجب أن أسافر وانتزع السر من زوجها وأمتلك الوصية وأنقذ بلادى . وإذن فلا مفر لى من الكذب . . . لا مفر لى من الخداع . . . نعم . . . سأكذب . . . سأخدع . . . وستكون هذه أول مرة فى حياتى أتقمص فيها أمام الناس شخصية غير شخصيتى ، وأخاطبهم بلسان غير لسانى ، وأعرب لهم عن عواطف وأفكار بغيضة وغريبة عن قلبى وعقلى . فهبنى يا إلهى قوة احتمال الألم ، واشدد أزرى . لا تهلكنى . لا تتخل عنى . إنك معى . أشعر أنك معى . وسأمضى فى طريق العذاب حتى آخره ! . . .

ومضى لا يلوى على شىء وقد تلهب عزمه وتصلبت أعضاؤه وسرت فى بدنه الواهن إرادة لا تقاوم .

ولما بلغ الفندق استقبله أصدقاؤه بالتهليل ، وأحاطوه بشتى ضروب التجلة والإكرام ، وأجلسوه فى صدر المكان ، وتباروا فى أيهم يسبق الآخر ويحظى بلثم يده .

وجلس بهزاد صامتاً ، وجعل ينقل الطرف فى الحاضرين ، حتى وقع بصره على فتى قصير القامة أسود العينين . فأومأ إليه بهزاد إيماءة معنوية . فنهض الفتى من فوره وتسلل إلى الخارج دون أن يشعر به أحد .

وانقضت فترات فى التحدث عن الثورة ومستقبل البلاد ومبلغ القوى التى أعدها الملك أرتبان فى هرمز ، وموعد زحف الزعيم أردشير إلى تلك المدينة . وكان بهزاد يجيب على الأسئلة التى توجه إليه بكلمات جافة ومقتضبة تنتهى دائماً بهذه العبارة :

ــ الزحف مستحيل قبل أن يعثر رجالنا على الوصية المقدسة .

وكان فى الآونة بعد الأخرى يتحدث فى ضجر ويهز كتفيه كالمستخف اليائس ويردد :

ــ إن عدونا أرتبان رجل ذكى . . . رجل قوى . . .

فيصمت أصدقاؤه ، ويتلفت بعضهم إلى البعض الأخر ، ويحدقون إليه مبهوتين . غير أنه كان لا يحفل بهم ويمضى فى حديثه عن الملك الطاغية بإعجاب متحمس مستور ولهجة غامضة لا عهد لأحد بها .

وهكذا شعر الجميع أن شيئاً فى الشيخ بهزاد قد تغير . ولكن أحداً منهم لم يرتب فى عواطفه ولم يشك فى إخلاصه لأنه كان حتى هذه اللحظة فوق جميع الشبهات .

ولما عاد الفتى الأسود العينين ، القصير القامة ، وتبادل وبهزاد نفس النظرة المعنوية ، ثم انصرف للمرة الثانية كأن عليه واجباً عاجلاً يجب أن يؤديه ، أعرب الشيخ لرفاقه عن رغبته فى التريض . فخرج الجميع من الفندق ، وبدل أن يسلكوا طريق الضواحى ، أشار عليهم بهزاد بالاتجاه صوب الطريق العام .

وكانت الشمس متوهجة ، والحر شديداً ، وفى السماء مع ذلك بعض سحب خفيفة كأنها غلائل من حرير . فتباطأ بهزاد فى مشيته ، وجعل يتأمل جمال السحب ويتطلع إلى الأفق الساطع . فلمح طائراً يتسنم غارب ربوة عالية ثم يحلق فى الأفق صعداً ويختفى . فعرته هزة كبرياء وضم قبضته على عصاه ، وأحس أن قوة خارقة قد ملكته . فتوقف عن السير وتفرس

فيمن حواه . وفجأة أبرقت عيناه وصاح محتداً كمن أطال التفكير فى أمر ثم اهتدى إلى حقيقته :

ـ كلا . إن الظلم أحب إلىّ من الفوضى . وليس شك فى أن الملك أرتبان يظلم الشعب ولكنه يعرف على الأقل كيف يحكم ويقر النظام فى المملكة . أما أردشير فحديث العهد بالحكم ، ولو ألقينا إليه غداً مقاليد الأمور فسوف يضطرب ولا شك حبل الأمن وتعم البلاد الفوضى . . .

فنظر إليه أصدقاؤه مذهولين ، ولكنه استطرد :

ـ لقد فكرت طويلاً وانتهيت إلى ما اطمأن إليه ضميرى . يجب أن يحل مجالس الثورة ، ويجب أن نعدل عن مواصلة الحرب . الوصية المقدسة فى يد أرتبان ، والشعب فى المقاطعات النائية لابد أن يؤيده ، وهو قوى بجيشه المنظم وسوف يقهرنا . فالحكمة تقضى بأن نستدرجه للتفاهم مع زعمائنا لا أن نقاتله فنستهدف لخطر الهزيمة ونتعرض لانتقام الشعب .

فظل أصدقاء بهزاد يتطلعون إليه وهم فى شك مما يسمعون ، لا يصدقون آذانهم وعيونهم ، ولا يستطيعون أن يتصوروا أن هذا الرجل الذى يطعنهم الآن فى مبادئهم وآمالهم وروح كفاحهم ، هو الرجل نفسه الذى كان بالأمس علماً عليها ، يذود عنها بعقله وقلبه ولسانه ، ويبذل فى سبيلها كل مرتخص وغال .

وخيل إلى بعضهم أن الخرف قد خالط عقل الشيخ ، واعتقد البعض الآخر أنه قد جن . ولكن بهزاد استأنف حديثه فى منطق محكم وأساوب بليغ أقنعا الجميع أنه يتكلم عن وعى لا عن جنون . فتقطبت جباههم ، وشحبت وجوههم ، وارتسمت عليها علائم صرامة مستنكرة سرعان ما استحالت إلى سخط .

ولما ألفوه يمعن فى تجريح أردشير ويغرق فى الثناء على الملك المستبد ويوغل فى الدعوة إلى الهزيمة ، انطلقوا يصيحون فى وجهه ، ويخطئونه ،

ويعاملونه معاملة الند للند ، ويحاسبونه على كل فكرة وكل كلمة وكل إشارة .

واحتدم نقاشهم وتعالت صيحاتهم وغص الطريق بالناس . ولكن بهزاد لم يكترث وظل ثابتاً راسخاً يرد على هذا ويحاول أن يفحم ذاك ، ويجبه الجميع ويتحداهم فى صلابة غريبة وإصرار عجيب .

وزاد عناده سخطهم ، وتطور السخط إلى حقد ، وانقلب الحقد فى صدورهم إلى رغبة فى المعاقبة والتنكيل . فأسرع واحد منهم واختطف مقعداً من أحد الحوانيت واعتلاه وصاح فى الجمهور المحتشد :

— إن بهزاد يسب أزدشير . . . بهزاد يطلب عقد الصلح مع الطاغية . . . بهزاد يدعو إلى الهزيمة . . . عاقبوا الخائن . . . اقتصوا من المجرم ! . . .

وهبط الرجل إلى الأرض ، واندس بين الجموع الحانقة ، فاضطربت وتدافعت واصطفقت كالموج ، واندفعت نحو بهزاد .

وأحس الشيخ كأن نطاقاً من حديد يضرب حوله ، وكأن سوراً من الأجساد الآدمية يقوم بغتة فى وجهه ، وكأن ألف ذراع توشك أن تنقض عليه وتمزقه . فحجب رأسه بيده اليسرى ، وهز بالأخرى عصاه ليستند إليها . فظن البعض أنه يهم بالدفاع عن نفسه . فهالتهم وقاحته ، وأسرع واحد منهم وجرده من العصا وانهال بها ضرباً على كتفيه ورأسه .

وإذ ذاك ، وفجأة ، وعلى غير انتظار ، أقبل جمع كبير من الشرطة ، وشرعوا يفرقون الناس ، ويجاهدون لإقصائهم عن الشيخ . . . ولكن الجماهير التى كان قد أصابها شبه خبل ، تملصت من الشرطة وغافلتهم ، وتدفقت على بهزاد فى صفين متراصين يحاولان الإطباق عليه .

وتقدم الشيخ فى طريق الشوك والعذاب ، مشعث الشعر ، جاحظ العينين ، ممزق الثياب ، ينزف من رأسه الدم . فبدأوا يضحكون لمنظره ،

ويعيرونه بحدبته ، ويسخرون من شيبه ، ويتوعدونه بالرجم وبإحراق داره وإلقاء صوره ورسومه طعمة للنار .

ولما سار أيضاً بضع خطوات ، بصقوا فى وجهه ، وسبوه فى عرضه ، وألقوا عليه حفنات من تراب . ولما أبصروه يحث الخطى فى طلب النجاة ، عز عليهم أن يفلت منهم . فاشتد عجيجهم ، واقتحموا الحاجز الذى أقامه الشرطة ، وجذبوا بهزاد من أطراف عباءته ، وضربوه بقبضاتهم ، وركلوه بأرجلهم ، فترنح الشيخ وتهاوى وانهار على الأرض .

وعند ئذ التحم الشرطة بالشعب ، فثارت ثائرة الجماهير وأبت إلا أن تقتل بهزاد . فشرعت تجمع الحجارة من الشارع وتقذف بها رجال الشرطة والشيخ الصريع وهى تصرخ :

ـــ إنه خائن . . . وابنته أيضاً خائنة . . . إنها عشيقة الملك الظالم . . . إنها خائنة وبغى . . . لقد باع ابنته للملك أرتبان وإلا لما وعد الملك زوجها بأن يعينه وزيراً ! . . . اقتلوه . . .

واختلط الحابل بالنابل ، وكادت جموع الشعب أن تتغلب على الشرطة وتفتك ببهزاد . ولكن فرقة من الفرسان أقبلت بغتة ، وشقت زحمة الجماهير ، وشطرتها أجزاء وبعثرتها . فدب الرعب فى قلوب أفرادها ، فتفرقوا ناقمين متوعدين .

وفى تلك اللحظة ، وبعد أن جلت الجماهير عن شارع وارتد إليه النظام ، شوهدت أمسترس محلولة الشعر ، زائغة العينين ، تعدو كمعتوهة ، وتخترق نطاق الجند ، وتلقى بنفسها على أبيها الذى كان أشبه بجثة فارقتها الحياة .

* * *

وفتح بهزاد عينيه ، فأبصر نفسه فى مخدع ابنته ممدداً على فراشها وهى واقفة بجواره ترنوا إليه بنظرة ملؤها الكمد والشفقة .

وانتفض وتذكر ما وقع . تمثلت له أشباح أصدقائه ، والوجوه المتشنجة الحانقة التى أبغضته ، والأفواه الملتوية القاسية التى لعنته ، والشاب الذى كان أول من اجترأ وضربه . فسرت فى بدنه قشعريرة ، وخيل إليه أن الجموع الساخطة ما تزال تزحف إليه . فأرسل صيحة جزع ورعب ، وتعلق بابنته وهو يلهث . فتفطر قلب أمسترس حزناً عليه ، وجلست على الفراش بجواره ، وأسندت رأسه إلى ذراعها ، وطفقت تهدهده وهى تكبح ما استطاعت من سورة دهشتها وغضبها واستنكارها . . .

وروعه هذا التدليل ، وخشى أن يكون قد أصيب إصابات بالغة تحول بينه وبين تأدية مهمته ويقتضى الشفاء منها وقتاً طويلاً . فتحسس بدنه ، ثم لمس رأسه المعصوب ، ثم استجمع قواه واستوى على الفراش . فألفى نفسه سليماً إلا من الجرح الذى يثقل هامته ، ومن الخدوش التى تحرق وجهه ، ومن الرضوض التى ترهقه وتنوء بها أعضاؤه .

وهم بترك الفراش . فتشبثت به ابنته ولكنه أقصاها عنه ، ثم نهض وجعل يذرع الحجرة ، شاداً عصبه ، مروضاً عضله ، مكافحاً ضعفه ، مطمئناً إلى أن عين الله الساهرة لم تنصرف عنه ، وأنه لم يزل حتى الساعة على قيد الحياة .

وتذكر الورقة المطوية الزرقاء . فاضطرب وتحسس جيبه . فألفاها قابعة فى غوره . فاستضاء محياه ، وزايلت تقاطيعه مسحة الخور والألم . فجلس على إحدى الوسائد ، وتربع وهو يتلفت وسمعه المرهف ينصت إلى كل حركة تنبعث من الباب . . . وعندئذ دنت منه أمسترس وقالت وبوارق الدهش والحنق تشع من عينيها :

ـ لماذا فعلت ما فعلت ؟ . . . أفقدت صوابك ؟ . . . أنت الشيخ الضعيف تتحدى الشعب ، وتحمل على الزعيم ، وتتحمل العذاب ، وتستهدف لخطر الموت ؟ . . . كيف أقدمت على هذا ؟ . . . ألم تفكر

فى أنه لن يكون فى وسعى الآن أن أسافر ؟ . . . كيف يمكننى أن أفر بعد أن أصبحت أنت أمام الجميع خائناً . لقد جاهرت أنت بالخيانة وعصيت أنا أمر الزعيم . فالزعيم لابد أن يأمر بإعدامك وقتلى . ألم تفكر فى هذا ، ألم تفكر فى ابنتك الوحيدة التى كنت ترتعد خوفاً على حياتها ؟ .

فصاح :

— لم أفكر إلا فى مصلحة الشعب وحدها . لم يكن فى مقدورى أن أترك الشعب فى ضلاله . أنا لست بالرجل الذى يعتنق مذهباً ثم يخفيه . لم أستطع وقد تحولت عن معتقدى القديم إلا أن أجهر بمعتقدى الجديد ولو مت فى هذا السبيل وكنت السبب فى قتل ابنتى !

فصرخت أمسترس :

— أإلى هذا الحد أصبحت تستهين بتضحية نفسك وابنتك ؟ . . .

فقال :

— أتخشين على حياتك أم على حياتى ؟ . . . ألم أجهر أنا بالمبادئ التى تؤمنين أنت بها ؟ . . . ماذا يهم لو متنا معاً فى سبيلها ؟ . . . ماذا يهم لو قتلوك وقتلونى ؟ . . . ألست أنت التى أيقظتنى وهديتنى ؟ . . .

فتراجعت المرأة خطوة ، ثم ارتمت عليه ، ثم غرست فيه نظراتها ، ثم قالت فى صوت غائر ساكن عجيب :

— وإذا كنت أنا قد تغيرت ؟ . . .

فحملق فيها ولم يفهم . فقالت :

— أنا التى كنت عمياء لا أنت . ولكنى أبصر الآن وأرتعد لأنى جعلت منك أعمى !

فثبت فيها عينيه الحادتين الحذرتين مستطلعاً دخيلة نفسها . بيد أنها لم تحفل به ومضت تصرخ :

— أتدرى ما الذى وقع بعد أن هبطت أنا إلى الشارع ورأيتك مثخناً

بالجراح وأمرت خدمي بأن يحملوك إلى هنا ؟ . . . عادت الجماهير وشقت نطاق الجند ولحقت بي . . . بصقوا في وجهي أنا أيضاً . ركلوني بأقدامهم . مزقوا ثوبي . كان الرجال يصيحون « هذه بنت الخائن ! » وكانت النساء تجأر « اقتلوا البغي عشيقة الملك أرتبان ! . . . » . وهنا ، هنا في بيتي ، أبصرت الوجوه تشيح عني . لمحت بارقة الاحتقار تلمع في عيون عبيدي . رأيت ابتسامة الزراية تومض على شفاه جواري . الكل اعتقدوا أني أغريتك بالتمرد على أردشير لأني بعت عرضي للملك أرتبان ! أجل . . . أصبحت في نظر الجميع بغياً استخدمها زوجها لأطماعه ، واستخدمت هي والدها لتحقيق تلك الأطماع . ما شعرت أبداً بمثل ما شعرت به منذ ساعات ، أنا المرأة التي وضعت سعادتي كلها في حب زوجي ، وكان مجدي في بياض صفحتي وعزة عفتي وكبرياء نفسي . لم أطق أن أرى الشعب كله يمزقني ويلدغني بعارين ، عار الزنا وعار المروق . لم أطق أن أكون في نظرهم تلك البغي التي تبيع جسدها ووطنها لأنها تحب رجلاً وإن كان هذا الرجل هو زوجها . شعرت أن حبي المفرط لزوجي هو الذي أفقدني صوابي ، وهو الذي أعمى بصيرتي ، وهو الذي دفعني إلى إفساد عقيدة أبي ، والتنكر لبلادي ، وخيانة شعبها التاعس المنكود . ولم أكن قد عرفت الشعب . لم أكن قد اتصلت بالشعب . فلما أبصرته يثور عليك تلك الثورة العارمة ويهم بأن يفتك بك ويبطش أيضاً بي ، أدركت مبلغ ما احتمل بالأمس من عذاب وظلم ، ومبلغ ما يتقد اليوم في صدره من حرص على المبدأ وذود عن الكرامة وإيمان بالحرية وعزم على الخلاص . فسرت وطنيته في عروقي ، وتغلغل إيمانه في دمي ، ولم أستطع أن أتصور أن أخونه أنا أيضاً كما خانه أبي . فأبغضت نفسي ، وأبغضت حبي ، وأبغضت زوجي ، وكرهت أن تكون أنت ، أنت يا بهزاد العظيم والدي ! . . .

فبهت الشيخ ورمقها بنظرة فاحصة ، ثم غافلها وطفق يتفرس فيها :

موجساً منها ، مرتاباً فى أن تكون قد نصبت له شركاً تحاول إيقاعه فيه . وبعد أن كان يظنها امرأة ساذجة قاصرة العقل والذكاء ، بات يعتقد أنها داهية تمثل أمامه دوراً وتصطنع العواطف الوطنية اصطناعاً ، كى تضلله وتضلل الزعيم ، وتحرص على حياتها ، وتعرف فى الوقت نفسه حقيقة ما يدبره والدها فتنتهز فرصة ثانية للفرار ثم تحبط تدبير بهزاد بأن تكشفه لزوجها .

وتدافعت هذه الخواطر فى ذهن الشيخ . فظل يتفرس فى ابنته وهو مسهول وذاهل . ولكن المرأة لم تضطرب ولم تتغير ، بل أمسكت به فى عزم وقالت :

ــ يجب أن تتوب إلى رشدك . يجب أن تعود كما كنت ! . . .

فدفعها عنه فى شموخ وقال :

ــ لن أتحول عن معتقدى الجديد وفى صدرى نفس يتردد .

فصاحت به وقد نفد صبرها :

ــ ألا أن العجب ليأخذ مأخذه منى تجاه جنونك . أتأتى إلى هذا الصباح موقداً فى صدرى شعلة الوطنية ، مضرماً فى قلبى هوى الحرية ، مثيراً كيانى كله ضد الجور والظلم ، فلما اعترضك تسرع وتأخذ برأيى ، ولما ارتد إلى سابق تعاليمك تذهب أنت فى تحطيمها إلى أبعد مما كنت أذهب إليه أنا ؟ ! . . . إنى لأكاد أسجل عليك تعصبا أخرق عنيداً هو شر من الجنون . أين إيمانك القديم ؟ . . . أين مبدؤك الراسخ ؟ . . . استفق . . . تيقظ ! . . . لا تطلب الموت فى العار ، أنكر نزعتك الجديدة ، واستغفر الزعيم عما بدر منك . . .

فهتف بهزاد :

ــ بل سأذهب من فورى إليه . إلى مجلس الثورة . وسأجهر أمام أعضائه بما بت أعتقد أنه الحق . لابد أن أخرج . . .

وخطا خطوة نحو الباب . فعادت إليه أمسرس وتشبثت به وصاحت :

ــ لن أدعك تسقط أيضاً . لن أطعن فى كرامتى مرتين . سأنقذك من نفسك ، وأنقذ وطنى من زوجى الخائن ومنك . لن تخرج ! . . .

وأطلقت ضحكة وحشية هادرة وأردفت وهى تركض وتغلق الأبواب :

ــ أنت أسيرى ومكانك أصبح هنا ! . . .

فنظر إليها بهزاد حائراً مشدوهاً . كانت عينه تجاهد لتأخذ منها ولو لمحة عابرة تنم عن الدهاء ونية الغدر . ولكنها كانت مشبوبة الحس فى صراحتها ، مستعرة العاطفة فى كلماتها ، قاطعة العزم فى حركاتها وسكناتها ، فلم يسعه إلا أن يسلم بأنها صادقة . فأراد مع ذلك أن يقسو عليها أيضاً ويمتحنها فردد :

ــ طريقاً يا أمسترس ، ودعينى أذهب ، فلعلى أقنع المجلس برأيى ، فأجنب الشعب ويلات الحرب وأنقذ بلادى وحياة زوجك .

فصرخت وعيناها تبرقان :

ــ حياة زوجى وموته فى يدى لا فى يدك أنت . ولقد عزمت أن أقضى عليه كى لا يقال أنى قد بعت عرضى لأحقق مطامعه وأخون بلادى . كبريائى أصبحت أقوى من حبى . عارك الذى رأيته بعينى ألهب إحساسى بعارى وقتل الحب والرحمة فى نفسى . . .

وأردفت وهى تضحك ضحكتها الوحشية الجشاء :

ــ أتظن أنى احتجزتك هنا لأنى أخشى أن يؤثر كلامك فى أعضاء المجلس الثورى ؟ . . . كلا . إنما أنا احتجزتك هنا إنقاذاً للبقية الباقية من كرامتك وكرامتى . أما أن تعتقد أن فى مقدورك أن تجذب إليك أعضاء المجلس وتدفعهم إلى عقد صلح شائن يتوج بالنصر هامة الملك المستبد ، فهذا منك وهم يزين لك المحال . . . بل هذا قد بات اليوم ضرباً من المحال . أتدرى لماذا ؟ . . . لأن النصر أصبح لنا . . . أتسمع ؟ . . . اصبح لنا . . . بل فى يدى أنا ! . . .

وجذبته من ذراعه وهو مبهوت وهتفت :

ــ تعال . . . تعال انظر . . .

واندفعت صوب مخدعها واتجهت نحو خزانة قائمة فى إحدى زواياها ، وفتحت بابها ورددت :

ــ انظر . . .

فحملق بهزاد فى جوف الخزانة ، وأحس كأنما قد ضربته صاعقة . ثم انفتحت عيناه وتلألأ فيهما فرح جنونى ، وسقط جاثياً على الأرض إذ أبصر الوصية المقدسة ، الوصية الروحية الحافزة ، تنهض فى إطارها المكسو بالذهب ، وتسطع أشعتها فى جوانب الحجرة كأنما قد أشرقت عليها شمس . فتطلع إلى ابنته وهو يرتجف من فرعه إلى قدمه . فابتسمت المرأة وأوصدت الخزانة وقالت :

ــ هذا هو المكان الذى أخفى فيه زوجى الوصية التى ننشدها لاستئناف كفاحنا . . . أخفاها عندى ، فى مخدعى ، يقيناً منه أن كائناً من كان لن يجسر على اقتحام حرم امرأة ، وإلا استهدف للعنة الآلهة ، وأمر الكهنة بإعدامه كما تقضى بذلك تقاليدنا . ولقد أبقى زوجى الوصية هنا ، فى مدينتنا ، ثقة منه بأن الملك أرتبان لابد أن يسرع ويهاجمنا ، مستعيناً بشعوب الأقاليم ، ومعززاً سلطانه بوجود الوصية المقدسة فى يده ، فيهزم جيشنا ، ويتوج للمرة الثانية ملكاً علينا فى نفس هذه المدينة التى تعد مركز الثورة ومعقل الزعيم أردشير ! . . .

وصمتت وهى تلهث ، ثم قالت متحدية :

ــ فماذا يمكنك أن تفعل الآن ؟ . . . الشعلة فى أيدينا ، والأقاليم كلها ستتبعنا ، والقوة الروحية أصبحت لزعيم الشعب أردشير . . . فاذهب أنت إلى مجلس الثورة إذا شئت . انطلق منذ اللحظة إذا شئت . ولكن اعلم أن النصر بات مكفولاً لنا ، وأنك لن تصيب من دعوتك الشائنة

لخصمنا ومن انضمامك السافر إلى أعدائنا ، إلا لعنة أمتك و بغض ابنتك والموت المحقق المحتوم . اذهب إذا شئت !

وأرادت أن تحرجه ، فعدت نحو باب الصدر وفتحته على مصراعيه ، ورددت :

– انصرف . . . اذهب . . .

فظل بهزاد شاخصاً إليها ولم يتحرك . وفى تلك اللحظة سمع فى الخارج صهيل خيل وصراخ جند وقعقعة سلاح . فاندفعت إلى الحجرة إحدى الجوارى وقالت :

– مولاتى ، عشرة من رجال الشرطة يسألون عن سيدى الكبير . . .

فقال بهزاد :

– لينتظروا فى الفناء الخارجى . أكرمى وفادتهم وسألحق بك . . .

فجحظت عينا أمسترس . وقالت وهى ترتعد :

– جاءوا للقبض عليك . . . بل علينا معاً . . . كنت أتوقع ذلك . . . كنت واثقة . . .

وملكها اليأس والذعر ، فأحاطت والدها بذراعيها وصرخت :

– أنا ولا ريب سأنجو . أما أنت فستموت . ليس لى سواك . لا . . . لا أريد أن تموت . . . أنا امرأة وتأدية الواجب لا يمكن وحدها أن تسعدنى . . . بى حاجة إلى الحب ، إلى العطف ، إلى الحنان . ولقد ضحيت بزوجى ، فلا أقل من أن يبقى لى والدى . فثب إلى رشدك . أنكر منزعك الجديد . استغفر عما بدر منك وأشفق على نفسك وعلىّ . . .

وضمته إلى صدرها فى عنف . فاقتنع بهزاد ووثق وتهاوى . أحس وهو بين ذراعيها سعادة خارقة لم يشعر بمثلها أبداً . أحس تلك السعادة الغامرة الخارقة التى يشعر بها مجاهد كافح طويلاً بمفرده ثم التقى فجأة بأخ له فى الجهاد . فالتصق بابنته ، وطفق يقبلها فى وجهها وعينيها قبلات محموم .

ثم حنى رأسه الكليل على كتفها وغمغم :

ـ أنا الذى عذبت نفسى . أنا الذى أردت أن أفعل ما فعلت ! . . .

وفك أزرار جلبابه ، وكشف عن قميصه الأبيض ، وأخرج من جيبه الورقة المطوية الزرقاء وناولها لابنته وقال :

ـ اقرئى . . .

فلم تكد أمسترس تلقى على الورقة نظرة حتى جمدت وعقد الدهش لسانها . لم تصدق . لم تستطع أن تتصور . فانحنت أيضاً وقرأت . فطغت عليها فرحة مخبولة وصاحت :

ـ كنت إذن على اتفاق مع الزعيم أردشير ؟

فأجاب :

ـ وهذا هو الإذن منه باجتياز الحدود . أجل كنا متفقين ، وكنت قد عزمت فى حالة رفضك أن أسافر وحدى إلى هرمز لتأدية الواجب بدلاً منك . ولقد أمر أردشير رجاله بالسهر على حياتى ، فحالوا بين الجماهير وبين قتلى . وها هم الآن أقبلوا لا لإلقاء القبض علىّ ، بل ليسهلوا لى السفر ويحمونى من سخط الجماهير . . .

فقالت أمسترس وهى مأخوذة :

ـ ولكن لم لم ترحل خفية ؟ . . . لم ظهرت أمام الناس بمظهر الخائن ؟ . . . لم عرضت نفسك لغضب الجماهير وبطشها . كان يمكن أن تموت . . . .

فصاح بها :

ـ كان يجب أن أواجه الموت يا ابنتى . كان يجب أن يعلم الجميع أنى بالفعل خائن . أردت ألا أدع مجالاً للشك عند أعدائنا بأنى قد أصبحت للملك الغاصب داعية ونصيراً . وإلا فكيف كان يمكننى أن أكسب ثقة زوجك وأنتزع سره وأعرف منه أين أخفى الوصية المقدسة

التى كنت أعتقد أنها فى حوزته ثم أوعز إلى أنصارنا فى هرمز بالقضاء عليه ؟ . . . أردت أن يعتقد أن انقلابى كان من الصدق بحيث جاهرت به أمام الكل واستهنت فى سبيله بحياتى . ولقد بعثنا إلى زوجك مع قوافل التجار بمن أبلغه النبأ وقص عليه قصتى . ولو انى ذهبت الآن إليه وكانت الوصية المقدسة فى حوزته ، لرحب بمقدمى وما تردد لحظة واحدة فى مصارحتى بالحقيقة كلها .

فقالت أمسترس وهى ترتجف :

— إذن فأنت قد تحملت بمحض اختيارك كل ذلك العار والعذاب ؟ . . .

فهتف :

— من أجل بلادى. كان لا بد أن أضرب وأهان وأرى الموت بعينى . ولقد بوركت على تضحيتى بأن رأيت المعجزة وربحت كل شىء . . وصية المصلح العظيم مؤسس عقيدة شعبى ، وكرامة ابنتى ، ومستقبل وطنى . فإلى العمل الآن يا أمسترس . إلى الحرية المكفولة والنصر المحقق . احتفظى بكنزك الثمين ريثما يصل أردشير ويتسلمه من يدك ! . . .

واندفع إلى الفناء الخارجى وأسر إلى رئيس الشرطة بأنه قد عثر على الوصية المقدسة ، وأمره بأن يسرع ويستدعى زعيم الشعب .

وكر راجعاً وهو شبه مجذوب . يحدق إلى ابنته التى افتقدها بالأمس فوجدها اليوم ، وينعم النظر فى قامتها المديدة ، ورأسها الشامخ ، وأنفها المعتز ، ولا يستطيع أن يتصور أنه هو والدها ، وهو الذى أوجدها ، وهو الذى بتضحيته وعذابه قد خلقها خلقاً جديداً ، ونفخ فيها روح الإيمان وإرادة القوة ونبض الحياة .

وظل يشخص إليها وشعور الإعجاب والحب يملأ صدره ، حتى ارتج

القصر من حوله ، ودوى فى الجو صفير الأبواق ، وصاح فى الخارج رسول يعلن مقدم أردشير . فسترت أمسترس وجهها بنقاب وخف بهزاد لاستقبال الزعيم .

ودخل أردشير ساكناً ثابتاً مهيباً وعانق بهزاد . وكان رجلاً فى نحو الأربعين من عمره ، صلب الجبهة ، أسود الشعر ، متقد العينين ، ضامر الوجنتين ، فى تقاطيعه الناتئة ثقة وعزم ، وفى نظراته الخاطفة ذكاء ثاقب متيقظ لماح . فانحنت أمسترس فى احترام وهمت بأن تلثم يده . ولكنه جذب ذراعه وقطب حاجبيه وأعرض عنها . فأسرع بهزاد وقص عليه ما وقع وكيف أن أمسترس التى خانت وعصت قد آمنت فى النهاية واهتدت . ثم قاده إلى مخدعها ، واتجه به نحو الخزانة وفتحها. فتراجع أردشير حيال الضوء الساطع المتدفق منها ، واختلج إذ أبصر فى جوفها المتوهج أمله المنشود ممثلاً فى الوصية الروحية المقدسة . فخر على الأرض ساجداً ، ثم نهض فجأة وأبرقت عيناه ، وقال لأمسترس فى صوت صارم جهير :

ـــ لو انك لم تتحولى عن غيك وترتدى إلى صوابك لكان والدك نفسه قد أقر حكمى بإعدامك قبل أن تلحقى بز وجك المجرم وتحملى إلى الملك المستبد حافز كفاحنا ممثلاً فى وصية مصلح بلادنا العظيم . إن قلب والدك هو الذى أنقذك . قلب الفنان الذى فى مقدوره أن يشعر بكل شىء ، ويرتفع إلى أعظم شىء ، ويحتمل فى سبيل عقيدته أقسى وأفجع شىء . فأنا أبقى على حياتك تقديراً لتضحية والدك واهتدائك . ولكنى لن أتجاوز عما سبق وأبديته من مروق وعصيان . فتهيئى للتضحية أنت أيضاً . أمامك أسبوع واحد تتزودين فيه من مناعم الحياة . ومتى انقضى الأسبوع فعليك أن تغتسلى وتتطهرى ، ثم ترتدى ثوب عرسك الأبيض ، ثم تدخلى المعبد ، معبد المصلح زرادشت ، وتمكثى هناك . . . لن تخرجي قبل خمسة أعوام كاملة . لن ترى عيناك نور الدنيا قبل أن تكفرى عن ذنبك طويلاً ،

وتصومى وتصلى ، وتبتهلى إلى الآلهة أن تغفر لك ! . . .

وتحول أردشير صوب الباب ، وأهاب برئيس حرسه :

— لقد دقت الساعة . فمر رجالك بأن ينفخوا فى الأبواق ، وادع الكهنة والشعب إلى التجمع حالاً تحت شرفات هذا القصر . اذهب .

ونضا عنه مئزره ، فبدا فى شكته العسكرية جندياً كامل السلاح . فانخلع بدن بهزاد وتراجع . ولكن أردشير صاح به آمراً :

— تقدم . . . أنت الذى يجب أن تحمل الوصية وتتقدم . . .

فأدرك بهزاد مراده ، وجثا على ركبتيه ، ومد يده إلى جوف الخزانة . ثم ارتد رافعاً بين ذراعيه المرتعشتين الوصية المقدسة . فدفعه أردشير إلى الشرفة الكبيرة ، وفتح بابها ، وأطل منها على الشعب .

وكانت الجماهير التى استنفرها صفير الأبواق ، والتى عجبت لوجود أردشير فى قصر بهزاد ، قد تنادت وتجمعت واحتشدت تحت شرفات القصر وهى تدمدم وتتسخط . ولكنها ما إن تطلعت وأبصرت . ما ان أخذت عيونها الشاخصة هيكل أردشير وبالقرب منه بهزاد رافعاً بذراعيه الوصية المقدسة ، حتى جمدت وتحيرت ، ثم ماجت وتخبطت ثم أخذتها فرحة اليقين بأن رمز قوتها الروحية أصبح لأردشير بعد أن كان للملك الطاغية . فجعلت تهتف بأصوات مدوية مهللة . وعندئذ رفع أردشير ذراعه . فسكنت الأصوات ، واشرأبت الأعناق ، وقال الزعيم بصوته الثابت الجهير وهو يشير إلى الفنان البطل :

— لم يكن بهزاد خائناً . لقد اصطنع الخيانة ليضلل الملك المستبد ويضلل أعوانه فى مدينتنا ، ويعرف منهم أين أخفوا الوصية المقدسة التى خلفها مصلحنا العظيم . إنه هو الذى عثر عليها . إنه هو الذى بتضحيته وعذابه واستهدافه للموت قد رد إلينا مثار قوتنا ، وحافز كفاحنا ، وواسطة التآلف والترابط بين جميع أفراد شعبنا . فأنا أحيي البطل بهزاد وأرد إليه

اعتباره أمامكم . . .

فاصطخبت الجماهير وعز عليها أنها كانت على وشك أن تفتك ببهزاد وهو برىء . فضمت تهتف باسمه هتافاً متواصلاً . فاستمهلها أردشير لحظات ثم قال :

— لن تكون لبطولة بهزاد أية قيمة إن نحن لم نتخذ منها مثلاً وقدوة . وما دامت الوصية المقدسة قد أصبحت فى يدنا فيجب أن تكون البطولة شعارنا وأن نسرع منذ اللحظة باستطراد الكفاح . الساعة الفاصلة قد دنت . والوطن يدعوكم ، والخلود فى الوطن هو الذى ينبغى أن يكون منذ اللحظة غايتكم . إن التضحية بالحياة هى الحياة . وأما حب الحياة فيجب أن يكون حباً للموت كى يلد الحياة . الآن سيبدأ الزحف إلى هرمز . سيتحرك الآن جيشنا وسيحمل على أسنة الرماح الوصية المقدسة . فإما أن نموت جميعاً ، وإما أن نحطم الملك المستبد ونحرر بلادنا !

فانفجرت الجماهير صارخة ، وتعالى هتافها بالجهاد وحياة الزعيم . فتحول أردشير وقبل الوصية ثم لوّح بذراعه وحيا الشعب ، ثم أمر بهزاد بالتراجع وارتد هو فى إثره ، وأوصد باب الشرفة فى سكون .

وما إن احتوته الحجرة الصامتة الزاغرة حيث كانت أمسترس واقفة فى إحدى زواياها تنظر إليه بعينين عابدتين كأنه رب من الأرباب ، حتى اتجه نحوها وقال :

— اذكرى ما للوطن والآلهة عليك من حق القصاص . يجب أن تدخلى المعبد متى انقضى الأسبوع . يجب أن تكفرى عن خيانتك يا أمسترس . . .

وتناول الوصية من أبيها ، وكساها بمئزره فى خشوع وحرص . ثم طوى عليها أطراف المئزر وهو يضمها إلى صدره ثم فتح ذراعيه وعانق بهزاد ، واندفع إلى الخارج متهيئاً للزحف وخوض المعركة .

وعندئذ ، وفى تلك اللحظة التى لم يكن يحلم بها الشيخ أبداً ، تدفق الدم حاراً فى عروقه ، وراعه من نفسه أنه هو الذى استطاع أن يحقق بتضحيته كل ما أبصرته عيناه . فاحتوته نشوة عاتية وهم بأن يطلق من صدره صرخة فرح . ولكنه خاف مع ذلك من الغد المجهول . خاف من غدر القدر واحتمال فشل المعركة . فاختنقت الصرخة فى صدره ، لا سيما وأنه ذكر أيضاً حكم الزعيم على ابنته . فناء عليه الهم والتعب بعد طول الكفاح . فتصدع بدنه ، وتلهبت جراحه ، وارتمى خائراً منهوكاً بين ذراعى المرأة التى كانت تفكر فيما قاله الزعيم ، وتتصور نفسها سجينة فى المعبد ، وتنظر إلى السماء من خلال قضبان نوافذ قصرها وترتعش . . .

* * *

وظل الوالد والبنت منزويين فى القصر الهامد ستة أيام بطولها ، يتلقيان أنباء المعركة فى لهفة محمومة يتنازعها الأمل والخوف . وبعد منتصف الليلة السابعة بساعات وقبل أن يطلع الفجر ، جاءهما النبأ بانتصار الزعيم ، وسحق جيوش الملك الطاغية ، وانتحار زوج أمسترس . فتاه عقل بهزاد ، وانطلق يهتف ويهلل ويشكر الآلهة وهو يقبل الأرض . أما أمسترس فقد غمرها فجأة صفاء ساهم عجيب . أشرق جبينها ، وتألقت عيناها . فأسرعت من فورها واغتسلت وتطهرت ، ثم مرقت إلى مخدعها ، ثم عادت وعليها ثوب عرسها الأبيض ، وفى يدها مئزر عاطل من الزينة حالك السواد . فنظر إليها بهزاد واختلج . نظر إليها وأدرك . نظر إليها ولم ينطق . ثم دنا منها ، وأخذ مئزرها الأسود وألقى به على كتفيها . وقبل أن ينتشر نبأ النصر فى المدينة وتغص شوارعها بالجماهير ، خرج بهزاد بابنته فى الظلام الدامس وقادها بنفسه إلى معبد المصلح زرادشت ، وسلمها إلى رئيس الكهنة وهو يعلم علم اليقين أن الاتصال بها أصبح منذ اليوم محرماً عليه ، وأنه قد يموت فى غضون تلك الأعوام الخمسة دون أن يرى ابنته الوحيدة مرة ثانية . . .

ولما قبلها قبلة الوداع ، وأغلق عليها باب المعبد ، تمالك نفسه جهده ، واتجه نحو بيته ، ودخل مرسمه ملتمساً عزاء لروحه فى فنه . فتناول الريشة وأراد أن يهذب صورة من صور العذارى المجاهدات اللاتى كان قد رسمهن فى لوحته . بيد أنه لم يكد يفعل حتى رأى فى الصورة رأى العين وجه ابنته . ففاض به شعور الكبر والعزة والفخار . ولكنه كان مع ذلك والداً ، وكان إنساناً . فتمزق قلبه ، وجاشت لواعجه ، وطفق يحدق إلى الصورة ، وانهمرت من عينيه الدموع .

من تاريخ قرطجنة :

المشعل

« وقعت حوادث هذه القصة خلال الحرب المشهورة التى نشبت بين روما وقرطجنة عام ١٤٩ قبل الميلاد ، وهى صورة حية لكفاح شعب يذود عن حريته ، كما هى مأساة قلب بشرى موزع عصفت به عوامل الفطرة فجاهد ليؤكد دعوة الروح » .

* * *

قال الشريف لوسيوس :

ـ لقد صدر إلينا الأمر نحن الأجانب بمغادرة بلادكم . . . ولقد جئت لاودعك يا هملكار قبل أن أعود إلى روما . . . فأنا صديقك ولكنى رومانى صميم . . . وغاية ما أود أن أقوله لك هو أن تنصح زعيمكم بمهادنة بلادى ، وأن تحذر أنت عاقبة تهورك . . .

فصاح الشيخ هملكار :

ـ كيف تطلب إلينا أن نحبكم ونتعاون معكم وأنتم تريدون اغتصاب بلادنا ؟ . . . لسنا بأقل وطنية منكم . سندافع عن قرطجنة بكل ما أوتينا من قوة وإيمان . وأنا ، أنا الشيخ الهرم الذى لم أعقب غير ولد واحد تعرفه أنت تماماً وتعرف مبلغ حبى له ، كما تعرف أنه غير مجبر على خدمة الجيش لانه وحيدى ، هذا الابن العزيز هو أيضاً دائم التلهف على قتالكم ،

وأنا لن أستبقيه بجوارى بل سأشجعه على التطوع متى دقت الساعة ونشبت الحرب !

فابتسم لوسيوس وقال :

ـ ولكن ابنك هذا ما يزال بائساً مثلك ، يعيش عالة عليك وإن كان يستجلب لك الثياب الرثة التى تبيعها فى هذا الحانوت ، ويتصدق بها عليك بعض الأغنياء من أبناء جلدتك . . . أنت اليوم فى السبعين من عمرك ، ولو طاوعتنى فنى مقدورى أن أهوّن عليك حمل شيخوختك ، وأنتشل من وهدة البؤس ولدك ، وأجعل منك سيداً ثرياً عظيما . . . فثب إلى رشدك ، ودع التآمر على روما والرومانيين . الحرب على الأبواب . وسيهاجمكم قائدنا « سيبيون أميليان » ، وسيدمر مدينتكم . . . فدع وطنك للقدر واتبعنى . . . إنى أحبك وأريد أن أنقذك قبل فوات الوقت . . .

فهتف هملكار :

ـ الوقت لم يفت بعد . وإذا كانت ذراع قائدكم سيبيون قد ارتفعت علينا ، فسنقف صفاً واحداً لنردها عنا ، وسنجد عند الاقتضاء . . . بل لقد وجدنا . . . وجدنا من يقطع تلك الذراع وينقذنا منها ! . . .

فبهت لوسيوس وقال :

ـ ماذا تعنى ؟ . . . لا أفهمك . . .

فضحك هملكار ضحكة متوعدة وأجاب :

ـ ذلك سرى . . . سنستخدم فى كفاحنا كل شىء . . . الرجال ، والسلاح ، وقوة أخرى . . . قوة لن تخطر لكم أبداً على بال ! . .

فقطب لوسيوس حاجبيه وصمت . فابتسم هملكار ، واستطرد :

ـ لن نضع السلاح حتى نحقق النصر . فوداعاً يا صديقى . فقد يكتب لى أن أموت قبل أن أراك مرة ثانية .

فنهض لوسيوس مكتئباً ، وصافح الشيخ هملكار . وقال :

ـ لست مسئولاً عما يمكن أن يحدث لك فى غد .

فقال هملكار :

ـ خير لى أن أموت فى أرض آبائى من أن أعيش فى روما ملطخاً بالعار !

وما إن انصرف لوسيوس حتى أسرع الشيخ هملكار فارتدى قفطانه، وأمر غلامه بإغلاق الحانوت .

وكان الليل قد أرخى سدوله ، وحركة الجمهور تتضاءل وتخف شيئاً فشيئاً . فلما غمر السكون الشارع العريض ، وانصرف الغلام ، تلفت هملكار ليستوثق من أن الشارع قد أصبح مقفراً، ثم جمع إلى بطنه أطراف معطفه ، وانسل بخطى وئيدة تحت جنح الظلام .

* * *

كان بطل الاستقلال القرطجنى فى ذلك العصر قائداً شاباً يدعى « هيرو » . اشتهر بحنكته ودهائه وعبقريته فى شتى فنون القتال .

فإلى الزعيم هيرو اتجه هملكار . وكان الزعيم ينتظر مقدمه فى منزل صغير كائن فى أول ضاحية من ضواحى مدينة قرطجنة .

فلما دخل الشيخ هملكار وحيا الزعيم ، تراجع وجمد .

شاهد بالقرب منه تلك القوة ، القوة الغامضة التى أشار إليها الشيخ فى حديثه مع لوسيوس . وكانت تلك القوة تتمثل فى شخص امرأة . امرأة ممددة على أريكة عالية . امرأة مصطفاة ومعدة للعظائم ، عرف فيها الشيخ على الفور الأميرة « ديدون » بنت رئيس الكهنة وأرملة أحد حكام المقاطعات القرطجنية الغربية .

وتقدم الشيخ إلى الأميرة ، وقبل فى احترام وخشوع طرف ردائها . فاعتدلت ديدون فى جلستها . وفى تلك اللحظة فقط رآها الشيخ ، وأمكنه أن يتأمل تقاطيع وجهها الباهر الفتان . وكانت امرأة فى عنفوان أنوثتها ،

شامخة الرأس ، ناهدة الصدر ، بضة الإهاب . كانت أجمل امرأة فى قرطجنة . ولقد أسرعت ولبت نداء الزعيم بعد أن علمت بما يضمره القدر لبلادها على يد القائد الرومانى سيبيون .

جاءت ولم يعلم بمقدمها أحد . وها هى ذى جالسة جلسة المرأة الخاضعة الطيعة ، منكرة نفسها ، متناسية أنها أميرة ، مسلمة قيادها للزعيم ، ساكنة ثابتة فى روعة كروعة الفدائيين المؤمنين .

وتصاعد صوت الزعيم هيرو مخترقاً حجاب الصمت :

ـ اعلم يا هملكار أن القائد الرومانى سيهاجمنا صباح الغد !

فأرسل الشيخ صرخة وهم بالكلام . ولكن الزعيم رده واستطرد :

ـ جاءنى النبأ ظهر اليوم . ولذلك أرسلت فى طلبك . ستلقى قرطجنة بعد ساعات أهوال الحرب ولكنها ستكتب لنفسها صفحات مجد تظل أبد الدهر خالدة . فهيئ رجالك للعمل ، وبث فيهم روح التضامن والولاء ، والزم حانوتك غداً منذ الفجر ، وانتظر هناك أوامرى .

وتحول عنه والتفت إلى الأميرة وقال :

ـ أما أنت يا مولاتى فواجبك أن تمكثى هنا ، ولا تغادرى هذا البيت مهما حدث . فإذا شاءت الآلهة وانتصرنا ، فلن أصبح فى حاجة إليك ، وسأردك إلى قصرك معززة مكرمة . أما إذا تنكر الحظ فى مبدأ الأمر لنا ، واستطاع العدو أن يقتحم هذا الجزء من مدينتنا ، ووقعت أنت أسيرة فى يد القائد الرومانى سيبيون ، فعندئذ يبدأ دورك أيتها الأميرة العظيمة الباسلة . . . فأرهفى السمع وتأملى فيما أقول : إن المهمة المعهود بها إليك هى أن تستميلى القائد وتقنعيه بأن من الخير لروما أن تكف عن قتالنا وتحالفنا محالفة الند للند . فإن استعصى عليك إقناع القائد بفائدة المحالفة ، فاستدرجيه . . . استدرجيه لتعرفى منه أين تتجمع هيئة قيادة جيشه ، ثم اصبرى حتى يجن الليل ، وأرشدينا إلى ذلك الموقع ببعض العلامات . . أنا موقن من أن هيئة

القيادة الرومانية متجمعة إما بجوار التل الشرقى ، وإما عند سفح الجبل الأجرد . . . وأنا أريد أن أعرف الموقع بالضبط لأباغته وألتف حوله وأضربه ، فأتخلص بذلك من هيئة القيادة وأحرز النصر الساحق المنشود . فإذا كشفت أنت عن هذا السر ، وكان موقع القيادة بجوار التل الشرقى ، فأوقدى هذا المصباح الكبير وضعيه تجاه هذه النافذة المفتوحة . وإذا كان الموقع فى سفح الجبل الأجرد ، فأوقدى مشعلاً . . . مشعلاً صغيراً ولوّحى به من النافذة . . . ولسوف أرقبك أنا ورجالى من سطح قصر والدك رئيس الكهنة . . . هذه هى مهمتك الأولى . أما المهمة الثانية فهى أن تتحينى الفرص ، وتحاولى القضاء على حياة القائد الرومانى . . . وسواء أوفقت فى مسعاك أم أصابك الفشل ، فواجبك يا ديدون أن تحاولى . . .

وكانت الأميرة تصغى إلى الحديث وأصابعها تعبث بقلب صغير من ذهب ، يتدلى من قلادة كبيرة زينت بها جيدها . . . وفجأة وثبت من مكانها بخفة عجيبة وقالت :

ـ اطمئن يا هيرو . لو وقع سيبيون فى قبضتى ، فسأنتزع سره من شغاف قلبه . ثم أقتله قبل أن يعرف لذة امتلاكى !

واتجهت إلى حيث المصباح الزيتى الخافت القائم على منضدة صغيرة ، ومضت تتلهى بالنفخ فى النار ، مما جعل الضوء يتلألأ حولها ، ويلقى على الجدران ظلالاً رهيبة متراقصة .

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، شرعت جيوش القائد الرومانى فى نصب مجانيقها والتقدم بها نحو أسوار قرطجنة .

وحمى وطيس القتال . فكانت الأحجار تتساقط على المدافعين كوابل المطر ، وهم فى أماكنهم ثابتون ، يكرون على المجانيق ويبذلون قصاراهم لتحطيمها .

واستحالت الحرب إلى سلسلة معارك طاحنة . ودام الحصار أسابيع طويلة ، تمكن سيبيون فى خلالها من إحداث ثغرة صغيرة فى الأسوار تدفق منها بعض عسكره إلى أول ضاحية فى المدينة . غير أن المدافعين حفروا الخنادق وأقاموا المتاريس ، وجعلوا من كل بيت حصناً ، ومن كل زقاق مخبأ ، ومن كل فرد مقاتلاً .

وفى تلك الفترة العصيبة ، تقدمت كتيبة رومانية صوب الدار التى تقيم فيها ديدون . فأدرك الزعيم هيرو أن الأميرة على وشك أن تقع أسيرة فى يد القائد الرومانى . فاستدعى إليه الشيخ هملكار ، وأمره بأن يسرع ويتصل بالأميرة ويذكرها بأن ساعة الواجب قد دنت .

فلما دخل عليها الشيخ وأنهى إليها الأمر لم تجزع ولم تضطرب . فارتمى هملكار عند قدميها وقال :

— إذنك يا أميرتى بأن أظل بجوارك ، أشهد انتصارك أو أموت معك ! . . .

فغمغمت وهى ساهمة :

— لك ذلك . سأقول إنك أنت الذى ربيتنى وأنك ملازمى وصفيى .

وعندئذ تعالت فى الخارج أصوات الحرس هاتفة لسيبيون . فأطلت المرأة من النافذة . فأخذت عيناها فى ضوء القمر وجه عدوها الألد ، القائد الرومانى ، مقبلاً نحو البيت . فأمرت الشيخ بأن يسرع ويختفى فى إحدى الحجرات . ثم نصبت قامتها وتقدمت . .

وإذ ذاك ، وقبل أن تصل إلى عتبة الباب تراجعت مروعة ومأخوذة . . اتقد بدنها ، وأومضت عيناها . ولبثت فى مكانها منكمشة ومتنبهة . . ترامى إلى سمعها صوت القائد يقول لتابعه وهو يودعه : « الحق بمقر قيادة الجيش حالاً . . اذهب إلى سفح الجبل الأجرد ، وقل لرجالى أن يتهيأوا للهجوم العام الذى سيبدأ بعد غد ! . . . »

فاختلجت ديدون وغمرتها فرحة لم تشعر بها حتى فى ليلة عرسها ... أحست أن القدر حالفها ، ومكن لها فجأة من عدوها ، وهى بعد لم تسدد إليه من جعبة أنوثتها أى سهم ... فطفقت تردد : يا لحظى ! ... يا لحظى ! ... السر قد انكشف من تلقاء نفسه أمامى ، وطالع النصر أقبل ساعياً إلىّ ! ... إن هيئة القيادة متجمعة عند سفح الجبل الأجرد ... فأبشر بمقدم النصر يا هيرو ، وودع حياتك يا سيبيون ، وعش وتفوّق يا وطنى ! ...

ثم كرت راجعة ، وتمددت على أريكتها ، ومضت تحدق إلى الباب وهى تتحفز وتنتظر .

ودخل القائد سيبيون إميليان ولكنه لم يكد يخطو خطوة حتى بهت ...

لم يشهد فى حياته كلها امرأة جميلة مثل هذا الجمال الخارق الفتان . فتقدم إليها على مهل وقال :

ـــ أشهد الآلهة أنى ما كنت أود أن أهاجم مدينتكم . ولكن شعبكم العنيد هو الذى أراد هذا . ولقد كان من واجبى أن أعاقب العصاة فعاقبت !

فرشقته ديدون بنظرة حادة وقالت :

ـــ لا أفهم كيف تسمى الأحرار الذائدين عن بلادهم عصاة ؟! ..

فأجاب فى هدوء :

ـــ كل من لا يقبل عدل روما يعتبر عاصياً !

فهتفت ديدون :

ـــ بأى حق تريدون أن تفرضوا عدلكم على الناس ؟! ...

فهم القائد بالضحك ولكنه قال :

ـــ القوة هى التى تفرض العدل على الضعيف خدمة له . فإن لم يتقبله

راضياً فرض عليه بالسيف فرضاً . ذلك هو ناموس الحياة منذ الأزل !

فارتجفت ديدون وقالت :

— إذا فرض الأقوياء عدلهم على الضعفاء ، تحول العدل عن غايته ، وانتهى إلى مصلحة الأقوياء ! . . . العدل الصحيح يجب أن يكون ثمرة الحرية لا وليد الاستبداد ! . . . كيف لا تفهم هذا يا سيبيون وأنت الرجل النابغ العبقري ؟ . . . أنت ، أنت وحدك يمكنك إنشاء عالم يقر العدل المثالى الصحيح . فإلى محالفة شريفة بين قرطجنة وروما أدعوك . إلى العدل والسلام والحرية أدعوك يا سيبيون ! . . .

وكانت ترمقه بنظرة جانبية فاحصة . أما هو فكان يتأمل شفتيها الحمراوين ، وصدرها الناهد ، وأنفها الدقيق ، وخفق أهدابها الطويلة على عينيها السوداوين ، وفجأة ، سلب لبه جمالها . فالتصق بها على الرغم منه وقال :

— أنت أسيرتي يا ديدون . وأنا معجب بك . فانبذى النقاش السياسي الخيالي واسمعي : لن أغتصبك ! . . أنت امرأة فذة ! . . امرأة خارقة الحسن والذكاء ! . . فما رأيك لو حررتك وتزوجتك ؟ . . أتدهشين ؟ . . أنا رجل عسكري سريع التأثر شديد العزم . وأني لأقسم بآلهتي أن أتزوجك بعد انتصاري . أما إذا كان فى نيتك أن تثأري لقومك باستدراجي إلى خيانة أو مروق ، فأنا لا أخافك بل أعفو عنك وأقول لك منذ الآن : اذهبي . . .

وتحول نحو الباب . فاستهولت المرأة فشلها ، وملأ الحنق قلبها ، وأفعمته نية القتل . فلحقت بالرجل وصاحت :

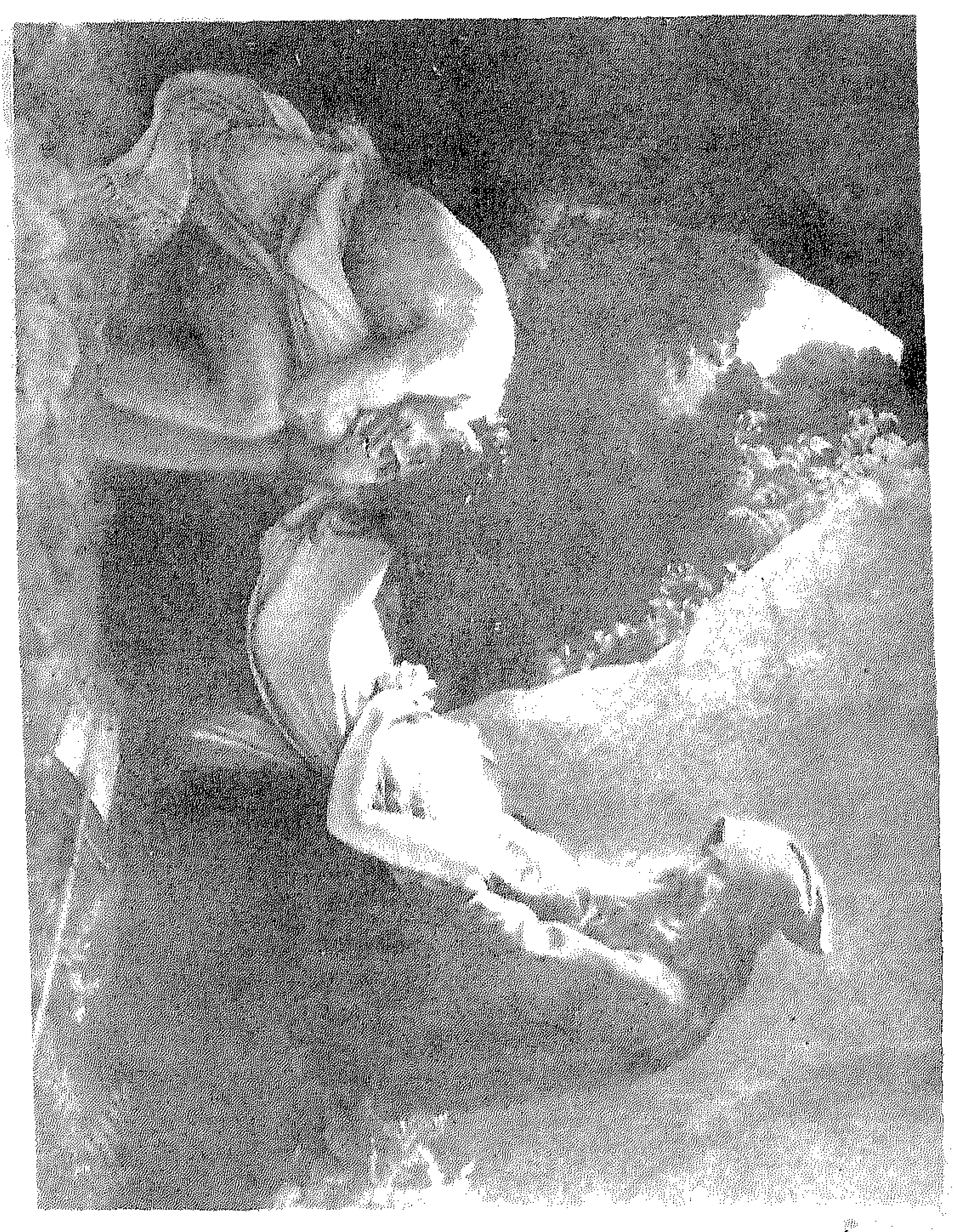
— أيهون عليك طردي وأنت قد بدأت تحبني ؟ . . أنت قاس ولكنك جميل ! . . وأنا أيضاً قد أعجبت بك وأخذت ! . . فإلى أين يمكن أن أذهب الآن بدونك يا سيبيون ؟ . .

وأرجفت بدنها إرجافاً متعاقباً وبكت . . وعندئذ وقع ما ليس فى الحسبان . اندفع القائد إليها . فتوهمت ديدون أن الشهوة العاتية قد جرفته وأنه سيغتصبها . ولكنه ضمها إلى صدره فى رفق ، وهدهدها كأنها طفلة ، وزايلته وحشيته ، وحل محلها حنان غريب . . . حنان عميق . . . حنان غامر . . . فبهتت المرأة وترنحت ، وأحست على دهش منها شيئاً جديداً ، طارئاً ، شيئاً يستيقظ فى نفسها بغتة ويخلبها . فانكمشت بين ذراعى القائد وانهار عزمها . خضعت لسلطان العاطفة ، فأحبت هى أيضاً سيبيون وافتتنت به . ولما كانت تتوقع منه استباحة وبطشاً ثم رأت على النقيض سماحة وحناناً وعشقاً ، لم تستطع أن تتصور كيف يمكنها أن تغدر به وتقتله . . . فأدنته منها ، وأشارت إلى القلادة الكبيرة المزدان بها جيدها حيث يتدلى القلب الذهبى الصغير . ثم ضغطت على القلب فانفتح . فانتزعت منه دبوساً أسود لوّحت به فى وجه القائد وقالت : « بهذا الدبوس المنقوع فى السم كنت سأقتلك ! . . »

فغمغم القائد : « كنت أشعر أنك عدوتى . . . ولكنى كنت أود أن أظل أنا أيضاً عدوك كى لا أقع أسير غرامك ولو قتلتنى ! . . . أما الآن فأنا أعبدك . . . » فخبلها الحب ، وأعماها عن رؤية واجبها . فألقت بالدبوس المسمم من النافذة . وفى تلك اللحظة ، دوّى فى الخارج صوت النفير فهب سيبيون واثباً وقال :

— النفير يدعونى . . يجب أن أنطلق من فورى إلى هيئة القيادة كى أعد العدة للهجوم الكبير . . . لن أعود قبل ظهر الغد يا ديدون . . . فامكثى هنا فى انتظارى . . . وسيسهر عليك رجال حرسى . . أما اليمين التى أقسمتها لك فلن أحنث بها أبداً . . . لن أغتصبك يا ديدون بل سأقترن بك ! . . .

واحتواها بين ذراعيه وقبلها ثم طوّح بمئزره على كتفه وخرج .



« أتالا — بطلة قصة شاتوبريان المشهورة — عند القبر » — للفنانة چيروديه تريوسون — متحف اللوفر — باريس .



« الحبيبان فى الريف » – للفنان كوربيه – متحف القصر الصغير –

* * *

ولما ساد الصمت أرجاء البيت ، وألفت ديدون نفسها فى الحجرة وحيدة يكتنفها الضوء الهامس الفاضح الرهيب المنبعث من المصباح الخافت ، وترامى إلى سمعها قعقعة سلاح رجال الحرس الجاثمين تحت النافذة ، انتفضت فجأة وأفاقت من سباتها ، واستشعرت فى مثل خطف البرق هول خيانتها وجرمها . فجمد الدم فى عروقها . ثم أخذتها أخذة من بالذعر الساخط المستنكر المخبول ، فجعلت تعض شفتيها ، وتلطم وجهها ، وتمزق ثوبها ، وتجهش بالبكاء . . كيف ؟ . . أممكن هذا ؟ . . أحقاً أن ديدون قد أحبت عدو بلادها ، وعفت عن جلاد شعبها ، وتنكرت لرسالتها وقومها ، وأصبحت هى الفدائية المصطفاة مضرب المثل فى الجبن والخسة والخيانة والفجور ؟ ! . . نعم . لقد أحبت وخانت ! . وها هى ذى ، وحتى هذه اللحظة ، وبرغم يقظة ضميرها وثورة كرامتها ، ما تزال تشعر أنها تريد أن تحب ، وتريد أن تخون ! . . . أجل . إنها تريد أن تحب وتخون لأنها ترتعد وتخاف . . . تخاف على حياة سيبيون . . تخاف على حياة حبيبها ! . . لقد أمرها الزعيم هيرو أن توقد مشعلاً صغيراً وتلوح به من النافذة إذا استوثقت من أن هيئة القيادة الرومانية تتجمع عند سفح الجبل الأجرد . . . وهى واثقة من ذلك كل الثقة . . . ولقد سمعته بأذنها من سيبيون نفسه وهو يخاطب تابعه . . . فإذا أوقدت المشعل الآن واوحت به ، أسرع الزعيم هيرو ، والتف حول سفح الجبل وأطبق بجنوده على هيئة قيادة جيش الرومان فقتل أفرادها جميعاً ومن بينهم سيبيون ! . . إن سيبيون هناك ! . . لقد ذهب إلى هناك ! . . إنه الآن فى هيئة القيادة ، وحياته وموته رهن إشارة من ديدون ! . أفتقتله ؟ . . أتوقد المشعل وتقتله ؟ . . أتقتله وهى تحبه ؟ . . . ولكنها إن قتلته قتلت قلبها . وإن لم تقتله قتلت ضميرها ، ومكنت لجيش

العدو من إعداد عدته للهجوم المنتظر ، ومن إحراز نصر قد يأتى على بلادها ، ويجعلها بين عشية وضحاها كومة من خرائب وأطلال ! . . .

وتشوش فكر المرأة ، وأصابها من فرط التخبط والرعب شبه جنون .

وفى تلك اللحظة تصاعدت من تحت النافذة حيث يجثم الحرس صيحات متقطعة مزعجة أعقبتها صرخة مخنوقة أشبه بحشرجة إنسان . فانتفضت ديدون وتلفتت . ففتح الباب الداخلى وبرز منه هملكار .

دخل الشيخ متوهج العينين ، منصوب القامة ، مشرق الأسارير ، وتقدم من الأميرة ، ثم هتف ملء صدره كمن أصاب من السعادة حظاً خارقاً طالما تمناه :

— لقد قتل الحرس ولدى ! . . . ولدى الوحيد ! . . . رأيته بعينى يموت ! . . . كان قد تطوع فى الجيش . ولابد أنه علم أنى هنا فظن أنهم أسرونى . فجاء ليستطلع جلية الأمر فاصطدم بالحرس فقتلوه ولكن بعد أن قتل هو منهم اثنين . . إنى لفخور به أيتها الأميرة ومعتز بتضحيته وسعيد برغم عذابى !

وتفرس الشيخ فى المرأة وهو يلهث . فألفاها زائغة البصر ومضطربة ، ثم لمح القلب الذهبى الصغير مفتوح الغلاف على نحرها وخلواً من الدبوس المسمم . فاشتعلت عيناه ، وفاض به الفرح وصاح :

— إذن فقد قمت بواجبك أنت أيضاً يا ديدون ؟ . . . نعم . لابد أنك قمت بواجبك ! . . لابد أنك نفثت السم فى بدن القائد ! . . . أليس كذلك ؟ . . . لقد رأيته بعينى يسير مترنحاً وهو يخرج من هنا . . . سيموت ! . . . لا ريب أنه سيموت ! . . .

وجرفته فرحته ، فجثا عند قدميها ، وطفق يقبلهما ويقول :

— ما أصغر تضحية ولدى إلى جانب ما بذلت يا ديدون ! . . . يا لك من فدائية جبارة الحسن والعزم يا ديدون ! . . .

فنظرت إليه المرأة وأحست كأنما هو يطعنها . . . صغرت تماماً فى عين نفسها . احتقرت ذاتها ، واحتقرت قلبها ، واحتقرت أنوثتها التى كانت تزهو بها . أخجلها أن يثق أهلها فيها ثم تخيب الأمل وتهدم الثقة . كبر عليها أن يفرح الرجل باستشهاد ولده الوحيد بينما ترتع هى فى بؤرة خيانتها وعارها . كبر عليها أن يكون هذا الشيخ المهدم التاعس الفقير المسكين ، أنبل منها خلقاً ، وأبرأ طبعاً ، وأصدق ألف مرة وطنية وحماسة وإيماناً . فشخصت إليه وهو يهتف ويهلل ، وارتمت عليه وصرخت :

— سيموت سيبيون يا هملكار ! . . . ولكنه لن يموت بالسم بل بيد هيرو ! . . . إنه الآن هناك . . . فى هيئة القيادة . . . وهيئة القيادة مجتمعة عند سفح الجبل الأجرد . . . وسيعلم الزعيم موقعها . . . سيعلم الزعيم الساعة كل شىء !

واندفعت لفورها ، واختطفت مشعلاً صغيراً كان ملقى فى إحدى زوايا الحجرة ، ثم أوقدته . واتجهت نحو النافذة ، ورفعت ذراعها ، وجعلت تلوح بالمشعل فى الفضاء . . .

وانقضت ساعة طويلة . . . وفجأة ماج الجو حول البيت ، وانبعثت من جوف الظلام صرخات استغاثة مدوية . فأسرعت ديدون إلى النافذة وتبعها هملكار . فأبصروا الجنود . . . جنود الرومان . . . جنود الكتيبة التى نفذت إلى الضاحية ، يتراجعون عنها ، والذعر يطاردهم ، والفوضى تعيث فيهم . فتعلق الشيخ هملكار بديدون وهو يجاهد نشوة الفرح ويتماسك . ولكنه ارتعد فجأة ، وصاح :

— انظرى . . . هذا الفارس . . أليس هو ؟ . . . إنه هو سيبيون . . . قادم إلينا على ظهر جواده ! . . . لقد نجا ! . .

فحدقت المرأة إلى الشارع وغاض دمها . أيقنت أن القدر الغاشم يتحداها ، وأن التجربة المروعة قد عادت وزحفت إليها . فأسرعت

وأهابت بالشيخ :

ـ يجب أن نفر يا هملكارا ! . . .

فطوقها الرجل بذراعه ، وانتزع خنجره وصرخ :

ـ ويل لمن يمسك بأذى يا ديدون !

ودس الخنجر فى صداره ، واتجه بالمرأة صوب الباب . غير أن الباب ارتج فى تلك اللحظة وفتح ودخل منه سيبيون . . . دخل فى صحبة أربعة من جنوده ، مندلع العينين ، مشوش الشعر ، مهلهل الثياب ، وقال دون أن يلقى على الشيخ هملكار نظرة : « إن جيشنا يتقهقر ، والزعيم هيرو قد انتصر فى هذه المعركة ! . . عرف موقع القيادة ، فباغتها والتف حولها ، وقتل رجالها ، وكدت أموت أنا أيضاً لولا أن تداركتنى معجزة ! . . . فاتبعينى يا ديدون . . اتبعينى حالاً . . . يجب أن تتبعينى وإلا أهلكتك . فأنا أحبك وأنت تحبيننى . إنك الآن أملى وحافزى وقوتى ! . . . سأحملك على ظهر جوادى ، وأنطلق بك خارج الأسوار قبل أن يفاجئنا جيش العدو ويسد أمامنا مسالك الطريق . . . اتبعينى . .

وجذبها من ذراعها . فارتجفت المرأة وصاحت :

ـ إلى أين ؟

فأجاب :

ـ إلى روما ، حيث أقترن بك ، وأعد العدة لكفاح جديد وهجوم جديد .

فصوبت إليه ديدون بصرها ، ثم تحولت إلى الشيخ هملكار الذى كان يحدق إليها فى دهش واستنكار ووجوم . ثم ارتدت إلى القائد الرومانى وقالت فى ثبات :

ـ كلا أيها القائد ! . . . لم تعد ديدون أنثى ! . . . انظر إلى . . . ألم أتغير ؟ . ألا ترى حول وجهى هالة الفدائيين ؟ . . . لا . . . لم أعد

أنثى بل مواطنة ! . لقد نفضت عنى عارى وتطهرت ! . . أنا ، أنا التى هزمتك ! . . . أنا التى أوقدت هذا المشعل ، مشعل الحرية ، وأرشدت به إلى موقع قيادتكم بعد أن سمعتك أنت تتحدث عنه إلى تابعك ! . . فمهما حاولت الآن فلن تصرعنى ! . سأكفر عن حبى الأثيم كما كفرت عن خيانتى ! لن تستطيع الثأر منى باغتصابى ثم بقتلى ! . . أتسمع ؟ . . لن أبيح نفسى ! . . لن أبيح نفسى لعدو بلادى ! . .

وغافلت الشيخ وهو ذاهل ، واختطفت الخنجر من صداره ، وصرخت :

ــ الوداع يا هملكار ، واذكرنى! . .

واستجمعت قواها ، وأغمدت الخنجر فى صدرها .

من شمال أوربا :

قلب وضمير وأشباح

« إن تاريخ أوربا الشمالية حافل بمظالم الاستعمار . فقد كانت بلاد أسوج واقعة تحت نير الدنمارك التى اغتصبتها وسامتها الذل أعواماً طويلة ، حتى ظهر فيها عام ١٤٨٩ للميلاد ، زعيم بطل يدعى « جوستاف فازا » ، ناصب الدنمارك العداء ، ثم أعلن الثورة عليها . فتربص به الدنماركيون واعتقلوه . ففر من معتقله ، وواصل جهاده ، حتى حرر البلاد الأسوجية من نير الغاصب وتوج ملكاً عليها .

وفى هذه القصة صورة مجيدة لكفاح ذلك الزعيم . ومأساة وطنية وعاطفية خليقة بأن ينعم النظر فيها كل مواطن مسئول » .

* * *

خرج هنريك من بيته ، وطفق يمشى فى شوارع مدينة ستوكهلم ، هائماً متخبطاً ، يحدث نفسه ويقول :

— لا . . . لا . . . ذلك لن يكون ! . . . يا لها من ليلة رهيبة تلك التى فاجأتنى المرأة فيها ، فلم أصدق بصرى وسمعى ، واعترانى من فرط الدهش والخوف شبه ذهول ! . .. كان الحب صادقاً فى عينيها النجلاوين. ولكن نظرتها . . . لست مطمئناً لنظرتها ولا لضحكتها الخفيفة العابثة التى يشوبها فى بعض الأحيان تهكم خفى . . . أين أنا ؟ . . . وماذا أفعل

هنا؟ . . . هذا هو بيتها الذى تعارفنا فيه ... هذا هو بيتها ! . . .
لقد قادتنى قدماى إلى بيتها بالرغم منى ! . . . ما أشد حبى لها ! . . .
عيناها سر غامض يحيرنى . . . فهما الساحر الخبيث لا يكاد يهم بالكلام
حتى يحجم . . . ومع ذلك فمحياها أرق من صفحة الماء وأفتن من ضوء
الربيع وأبهى من الشمس فى مطلع النهار . . . جسمها اللدن لا يتحرك
بل يتلوى ، ولا يتلوى إلا ليثب ويخلب . . . نفسها مبهمة مخيفة كأعماق
البحر ! . . . ما هذا الهدوء المخيم على منزلها ؟ . . . أين والدها الشيخ الذى
كان يحبنى ؟ . . . نعم . لقد مات . . . وماتت أمها أيضاً وبقيت هى
وحدها على قيد الحياة لتشقينى ! . . . أكان يجب أن تفكر فىّ أنا بعد هذا
الهجر الطويل ؟ . . . كنت قد بدأت أنساها وأغفر لها خيانتها ، وأروض
نفسى على القناعة بالسعادة الروحية يسبغها على أدائى لواجبى نحو زعيمى ،
وحبى العظيم له ، وإيمانى بأن الإخلاص لشخصه ومبادئه هو السبيل
الفرد لإنقاذ بلادى من الهمجية التى كان قد فرضها عليها الدنماركيون
الطغاة ! . . . لا . . . لن أتحول عن إخلاصى للزعيم جوستاف .
جوستاف الأكبر بطل الإصلاح ورجل التجديد . جوستاف الباسل ،
جوستاف الصخرة ، الصخرة التى تنهال عليها معاول الرجعيين كل يوم
فلا تزداد إلا صلابة وشموخاً ولا يزداد أعداؤها إلا حنقاً ويأساً ! .
يا لبلادى التى حررها الزعيم وأنقذها ! . . . إنه اليوم قلبها وروحها وأملها
الواثق المطمئن العنيد ! . . . انظر . . . انظر إلى بلادك اليوم يا هنريك ،
يا وليد العهد الغابر وابن الاستبداد والذل . انظر إلى بلادك وكيف تبدلت
وتطورت على يد الزعيم جوستاف ! . . . لقد انقض على الرجعيين
انقضاض طائر جارح ، فجرد الأشراف من سلطانهم ، وانتزع من
القساوسة المستغلين امتيازاتهم ، وضم إلى الدولة كنوز الإقطاع ، وراح يغدق
على الشعب الكادح الصابر البائس المسكين ! . وها هو الجيش الذى

أنشأه . . . ها هو ذا الأسطول الذى خلقه فى بضعة أعوام ! . . . انظر إلى رجال الجيش والأسطول يا هنريك . . . أكنت بالأمس تحلم بشىء كهذا ؟ . . . أكنت تتصور احتمال حدوث شىء مثل هذا . . . الجنود تخطر فى الشوارع كأنها دروع حية ! . . . ها هم يتقدمون على دوى الطبول . . . ها هم يتقدمون فى خوذاتهم الشامخة ، وشكاتهم اللامعة ، وخطاهم الثابتة ثبات العزم الراسخ المكين ! . . . هذا هو جيشنا ! . . . هذا هو معقد آمالنا ! . . هذا هو ثمرة غرس زعيمنا العظيم ! . . . »

واختلج هنريك اختلاجاً عنيفاً ، وعاد يخاطب نفسه ويقول :

ــ كيف لم أعد أبصر كل هذا ؟ . . . كيف ينهض فى قرارة نفسى شيطان يريد أن يعميني عن رؤية كل هذا ، بل كيف أتردد لحظة فى تأدية واجبى ، وأحجم عن خنق قلبى وحتى عن بتر أعضائى فى سبيل رئيسى وزعيمى ؟ ! . . . الريح بدأت تعصف . . . الناس يهرعون إلى منازلهم . . . كلهم يطلب الملاذ والمأوى . . . لا ملاذ لى ! . . . أيجب أن أحزم أمرى وأقدم ؟ . . . أيجب أن أكر راجعاً إلى حيث ينبغى أن أضرب وأقتل ؟ . . . أيجب أن أقتلها فأقتل كل أمل لى فى الحب والسعادة والحياة ؟ . . . أنا كهل فى الستين ، ولكنى أحس أنى أشوق ما أكون إلى الدنيا ، وأنى أقدر على التمتع بها من أى شاب ! . . . لم تفت الستون فى عضدى . . . لم أزل قوياً وجميلاً وفاتناً ، بل لم أزل برغم كهولتى ، ذلك الشاب القاهر الباطش الذى كان يلقب بالأمس ساحر النساء ! . . . أجل . ليس فى القصر من هو أجمل منى وجهاً ، وأصلب عوداً ، وأجدر بمتعة الحب والحياة بين ذراعى امرأة شائقة مثل كاترين ! . . . فكيف أقتلها ، ولو قتلتها فكيف يمكن أن أعيش بعدها بهذا القلب الذى هى نبضه وشعلته ومناه ؟ . . . الطبول تدق . . . لا أريد أن أسمع شيئاً . . . لماذا أعرضت عنى بعد وفاة زوجك الوزير الأول يا كاترين ؟ . . .

لم يعجبك منصبي ، لم يعجبك مني أني رئيس الشرطة فقط ، ولكني كنت أعبدك يا كاترين ، وكنت أرمل أنا أيضاً وليس لى غير ولد واحد ، فقربتني إليك أول الأمر ومنيتني ، ثم أعرضت عني لفقرى ، ثم استبدت بك المطامع ، فأثرت علىّ رئيس حرس القصر ، واتصلت به ، وعاهدته على الزواج ، ثم شرعتما تتآمران فى جرأة مروعة وخسيسة على حياة الزعيم ! . . . أجل تآمرتما على الزعيم بالاتفاق مع الدنماركيين أعدائنا ، المتربصين بنا ، المتلهفين على فتح ثغرة بين صفوفنا ، يمكن أن ينفذوا منها ثانية إلى وطننا الحر العزيز ! . . . ولقد كشف الزعيم اليقظ عن المؤامرة ، فأعدم رئيس الحرس صديقك وشريكك . ولما بحث وتحرى واستوثق من تواطؤك معه واتصالاتك بأعدائنا أصدر أمره بإعدامك أنت أيضاً ، فبلغك النبأ ، فأسرعت وفررت من القصر تحت جنح الظلام ، ولجأت إلىّ أنا ! . . . أنا رئيس الشرطة ! . . . أنا المنوط به السهر على أمن البلاد ومستقبل الثورة ! . . . أنا المكلف بالقبض عليك يا كاترين ، وبتسليمك إلى الجلاد أو بقتلك إذا اضطررت ! هو ذاك ، لجأت إلىّ وأنت واثقة من أني ما أزال أحبك وأعبدك . لجأت إلىّ وملء نفسك اليقين بأني لابد أن أشفق عليك وأنقذك . ولقد تحقق بعض ظنك . فاختبل عقلي ، وتزعزعت إرادتي ، وتوزع ضميري بين واجبي وحبي ، ولم أعد أدرى ماذا يجب علىّ أن أفعل ! . . . الطبول تدق . . . ألن تكف عن هديرها المتواصل ؟ . . . أغلب ظني أن المطر سيغرق الارض . . . الشمس تكافح وكذلك السحب تكافح . . . يالقوة السحب وتفانيها فى التجمع والتساند ومحاولة خنق الشمس ! . . . ولكن أصحيح ما قلته لى يا كاترين ؟ . . . أصحيح أنك تحبينني أم أن خوفك من الموت هو الذى قادك إلىّ وزين لدهائك أن يستخدمني ؟ . . . لقد تمنعت علىّ . . . عذبتني . . . صارحتني بأنك لن تكوني أبداً لى إلا بعد أن أنقذك . ومع

ذلك فقد عانقتني ، وقبلتني ، وذرفت الدمع حاراً بين يدى ، وأقسمت لى أغلظ الأيمان أنك قد ندمت على خيانتك لى وإعراضك عنى وأنك اليوم تحبينني ! . . . تحبينني ؟ . . . ماذا يهمني من هذا . ماذا يهمني إذا كنت صادقة أم كاذبة . المهم أنى أنا أحبك يا كاترين ، وأنى لا أدرى ماذا يجب أن أفعل ، وأنى من أجلك أتدهور ولا أفتأ أتخبط فى أعماق لجتى ! . . . لقد تركتك فى بيتى وخرجت . تركتك فى حراسة ولدى الوحيد وفررت . فررت من ضعفى . فررت من خيانتى . فررت من ترددى وجبنى وصغارى . وطفقت أهيم على وجهى عسى أن أجد مخرجاً من هذا المأزق المروّع الذى يكبلنى ! . . . لقد كان ولدى الذى لم يبلغ العشرين بعد ، أنبل وأقوم وأشجع منى عندما نصحنى بالإصغاء إلى صوت ضميرى وقهر غرامى الفاضح وتأدية واجبى . كان على وشك أن يتحدانى ويذهب هو ويبلغ عنك يا كاترين . فهددته بقتل نفسى إن فعل . فامتثل صاغراً لإرادتى وانفجر باكياً فى لوعة وكمد وسخط ! . . . آه يا كاترين . . . لا قدرة لى على تصور ما ينتظرك لو تخليت عنك وأسلمتك مكرهاً للعقاب ! . . . أين أنا وفى أى طريق أسير؟ . . . هذا الكهل المهدم يخالسنى النظر عن بعد وكأنه يريد أن يتعقبنى ! . . . ماذا يبدو علىّ ؟ . . . أينم مظهرى عما يعتمل فى نفسى ؟ . . . أفى سحنتى شىء قد تغير ؟ . . . أتراه يعرف شيئاً عنى ؟ . . . لأنطلق من هنا . . . لا . . . لم يعد يتبعنى . . . ما هذا الشارع ؟ . . . لم أسر فيه أبداً . . . نعم . . . مرة واحدة . . . أنا أرتجف . . . أسنانى تصطك . . . ماذا أرى ؟ . . . ما هذا التجمهر ؟ . . . آه . . . أنت يا كاترين . . . أنت دائماً وأبداً . . . كل هذا الجمع قد احتشد بسببك . . . حتى جدران الحوانيت تبرق عليها صورتك . . . أجل . هذه هى النشرات التى ألصقها رجالى بأمرى ، والتى أعد فيها بمكافأة عظيمة لمن يرشد عنك ، وأتوعد

بالموت شنقاً من يخفيك فى داره أو يعاونك على اجتياز الحدود . . .
أنا فعلت هذا ! . . . أنا نفسى ! . . . الكل يعلم الآن بخيانتك . الكل يبحث عنك . . . رجالى يقتفون أثرك . . . أنت طلبة الجميع ، ومدار فكر الجميع . وأنت فى هذه الساعة عندى ، فى بيتى ، وإن كان خيالى لا يستطيع أن يتصور أنك هناك ، وإننى استقبلتك ، وآويتك ، وعصيت أمر زعيمى ، أنا عينه وساعده وموضع ثقته ورأس أتباعه المؤمنين المخلصين ! ...
لقد احتجبت الشمس تماماً . . . لم أعد أسمع دق الطبول . . . لا أسمع غير طنين أشبه بالصفير يصم أذنى ويطوح برأسى . . . كيف فكرت فى هذا ؟ . . . كيف أنقذك يا كاترين ، فأشجع الحركة الرجعية كلها ، وأبعثها بنفسى من مرقدها ، وأهدد مستقبلنا المجيد ، وأزعزع دعائم حاضرنا الراهن الذى شيدناه بعقولنا وقلوبنا ودمائنا ؟ ! . . . ولكننى أحبك يا كاترين ، فكيف أفقدك بعد أن وجدتك . كيف أفقدك بعد أن طال عذابى ، فأفقت بغتة وأبصرتك على ماقى اليد منى . كيف أكون أنا قاتلك ؟ . . . الصمت يكتنفنى ما خلا الطنين . . . الشارع يقفر من السابلة . . . أصبح مظلماً موحشاً كنفسى ! . . . ترى أيسقط المطر ؟ . . . ما هذه الكنيسة ؟ . . . إنها لبديعة الصنع يا هنريك . . .
إن قبتها المزخرفة التى يعلوها الصليب لتشبه تمام الشبه ذلك التاج الذهبى الذى يلبسه الأسقف عند تأدية الصلاة فى الأعياد الكبرى . . . ترى أوجدت القبة قبل التاج أم التاج قبل القبة ؟ . . . أنى لأهذى . . . أيمكن أن يتيح لى القدر أن أتزوج كاترين فى كنيسة جميلة كهذه ؟ . . .
يا للمرأة التى يفوق حسنها كل تصور ! . . . إنها تحبنى . . . أصبحت تحبنى . . . لقد أكدت وأقسمت بل قالت إنى لن أكتهل أبداً ولن أشيخ ، وإنى أقوى وأجمل من أنضر وأفتن شاب ! . . . أهى الحقيقة أم أن قلبى هو الذى يريد أن تكون هى الحقيقة ؟ . . . كيف أصدقك

يا كاترين ؟ . . . أريد أن أصدقك وإلا فلماذا حملت معك مجوهراتك وعرضت على أن نفر معاً إلى حيث الحب والسعادة والنعيم ؟ . . . يجب أن أصدقك . . . هذه فرصة حياتى ولن أدعها تفلت منى . فهل أحزم فى النهاية أمرى وأستقر ؟ . . . هل أخنق ضميرى وأغامر وأقدم وأخون ؟ . . . أم يجب أن أطعنك يا كاترين لأتخلص وأستريح؟ . . . إنى لو طعنتك فطيف جثتك لن يفارق خيالى إلا إذا انتحرت وتبعته ! . . . أأقتل ثم أنتحر ؟ . . . ماذا أفعل ؟ . . . إلى من بدورى ألجأ ؟ . . . أين هو الخلاص ؟ أأدخل هذه الكنيسة ؟ . . . أأصلى ؟ . . . لا . . . لا قدرة لى على النظر إلى الله ! . . . ليس فى وسعى أن أعود الساعة إلى البيت . . . يجب أن أظل وحيداً . . . أن أتأمل أيضاً . . . أن أفكر أيضاً . . . السحب تتجمع وتتلبد كأنها توشك أن تطبق على ! . . . من هذا الرجل ؟. هو بعينه . . . الكهل المهدم . . . ماذا يريد منى ؟ . . . لا شىء . . . لقد اختفى . . . إلى أين أذهب ؟ . . . نعم . إلى هناك . . . إلى ذلك المنزل المهجور . . . فلأجلس . . . على هذا الدرج البارد . . . الريح تزأر . . . الرعد يدوى . . . ما أعذب الراحة والأمن هنا ! . . . هدوءاً يا هنريك وتنفس . . . ولكن ما هذا ؟ . . . ماذا أشعر ؟ . . . أصبح كيانى نهباً مقسماً لقوى غير منظورة تحيط بى فجأة وتتقاذفنى ! . . . ما أشبهنى بخلية النحل ! . . . ماذا أسمع . . . ؟ من أنت ؟ . . . من تكون ؟ . . .

العقل : على رسلك يا صاحبى . علام كل هذا الاضطراب . أنت أبله غر . لا تقتل ولا تنتحر . انظر إلى المصلحة فقط . أنت رجل فقير ، والمرأة تحمل ثروة من المجوهرات . فاذهب من فورك إلى بيتك ، واجتهد فى أن تغرر بالمرأة وتخدعها . ألم تعرض هى بالأمس عنك وتنبذك . لا تنظر إلى جسدها بل إلى الصرة الثمينة التى تحملها . لن يجسر أحد على اتهامك .

أنت فوق جميع الشبهات . غافل المرأة ، وانقض عليها ، وجردها من كل ما تملك ، ثم سلمها لرجالك يفتكون بها . وهكذا تنقذ حياتك وتظفر بالثروة ولا تخون واجبك . هذا هو صوت المصلحة ، فانصت إليه ولا تكن غبياً . . .

الملك الأبيض : هنريك ، لا تهدم فى لحظة ما بنيت فى سنين . لا تسرق . قم بواجبك حالاً ولا تتردد . كن عفيفاً ونزيهاً . لا تقرب المرأة ولا تسرقها . اقهر حبك الأثيم لها ، وعاقبها فهى تستحق العقاب ، ثم احتجز مالها كى تضمه إلى خزانة الدولة كما فعل زعيمك . لا تسرق . لا تفكر فى المصلحة الملوثة أبداً . هناك أشياء أثمن بكثير من المصلحة وأغلى بكثير من المال . أشياء يجب أن نقدسها ولو لبثنا فقراء محرومين . أشياء بدونها تفقد الحياة قيمتها ، ويفقد الإنسان حقه فى الاعتزاز بأنه إنسان . فاسرع بتأدية ما عليك وكن رجل الواجب والنزاهة يا هنريك . كن إنساناً .

هنريك : لقد ضقت ذرعاً بإنسانيتى . ضقت ذرعاً بسعادة الواجب والنزاهة ، تلك السعادة الضيقة الخانقة المظلمة التى تطوينى على نفسى وتغلق دونى أبواب العالم ! . . .

الحواس : أنت على حق . ونحن الحواس نفتح أمامك هذه الأبواب . . . انظر . . . انظر إلى كاترين مقبلة عليك ترفل فى حلة جمالها الباهر وتقبلك قبلة الهوى والوفاء . . . أنتما فى مدينة بعيدة . . . فى مكان شائق ومأمون . . . فى حرم الحب الرائع . . . الرياش حولك ساحرة ، والطعام فاخر ، والشراب معتق ومجيد . . . كل ما تشتهيه يتحقق . . . المال بين يديك ، وكاترين تتلوى وجداً وهياماً بين ذراعيك . . فاحتفظ بها . . . فر معها . . . احتفظ بها يا أحمق ، ولا تتبتل للواجب . كن جسوراً ، فما فاز باللذة غير الجسور !

الملك الأحمر : تعجبنى من الحواس عبارة « التبتل للواجب » . يبدو لى أنها على شيء من العمق . . .

الحواس : أليس كذلك ؟ . . .

الملك الأحمر : أخلق بها أن تكون شعاراً لأولئك العبيد المكفوفى البصر . الذين يكدحون لسواهم وما هم مصيبون من مأدبة الحياة إلا الفتات ! . كلا يا هنريك . دع العبيد يتبتلون للواجب ، واصغ إلى صوت الحواس وتمتع لأنك سيد لا عبد . . .

الملك الأبيض ساخطاً : ماذا تقول ؟ . . . كف عن الرجل . . . لا تشوش فى ذهنه الأفكار والخيالات . . . لن تتغلب عليه وأنا حى ! . . . اسمع يا هنريك . إن السيد الحقيقى لا يتمتع بل يخدم ، وهو إن تمتع فيجب أن يبرر تمتعه بأن يبذل ويخلص ويخدم . فكن سيداً أصيلاً يملك حق التمتع ، لأنه يعرف عند الاقتضاء كيف يؤدى الواجب وكيف يخدم الآخرين .

هنريك : هذا كلام طيب أشعر أنى مرتاح إليه . هو ذاك . السيد لا يملك حق التمتع إلا إذا خدم . . .

الملك الأحمر منفعلاً : اخدم الواجب إذن . اقتل كاترين . ولكن كيف يمكنك أن تتمتع بالحياة بعد ذلك ! . . . ستنتحر كما قلت . فتفقد نفسك بعد إذ تكون قد فقدت المرأة فيذهب انتحارك سدى .

الملك الأبيض : وحتى لو مات هنريك منتحراً ، فسيموت راضياً عن نفسه لأنه يكون قد أدى واجبه .

الملك الأحمر فى تهكم : وكيف يموت راضياً وحسرة قتل من يحب تنهش صدره . كيف يموت راضياً بعد أن يكون قد دفن قلبه بيده ؟ . . لا . . . الرأى عندى أنا . . . الرأى السليم عندى أنا . . .

العقل : قل . . . تكلم . . .

الحواس : كلنا آذان صاغية . . .

هنريك : لا تعذبني وتكلم . . .

الملك الأحمر : الرأى عندى أن يرجع هنريك بعد فترة إلى بيته ، وأن يعرف كيف يمكر ويحتال ويموه . أليس هو رئيس الشرطة ؟ . . . إذن فى وسعه بأيسر مجهود ، وخدمة للمصلحة العامة أيضاً ، أن يضلل كاترين ، ويصدر أمراً زائفاً بالعفو عنها ، ويمهره بخاتم الدولة . وعندئذ ، عندئذ فقط ، تقتنع المرأة بأنه قد أنقذها . فتثق فيه ، وتهيم به ، وتندفع من تلقاء نفسها إلى أحضانه . ومتى فاز هو بها واستمتع وأرضى حواسه ، فسيجد فى نفسه الشجاعة ولا ريب للتضحية بها والتضحية بنفسه إن شاء . وهكذا يؤدى واجبه ثم يموت بعد أن يكون على الأقل قد تمتع ! . . .

هنريك هاتفاً : لك الله من عبقرى . ما أجملك فى توهجك الساطع الشبيه بضوء الشمس !

الملك الأحمر : كثيرون غيرك قالوا لى مثل هذا الكلام . . .

الملك الأبيض صارخاً : احذر يا هنريك .. إنه يخدعك . لو عرفت لذة امتلاك من تحب فلن تسلى تلك اللذة أبداً . لن يمكنك أن تعاقب المرأة بعد ذلك ولن يمكنك أن تنتحر . ستفكر فقط فى أن تعيش ، وأن تضحى بكل واجب وكل شرف فى سبيل دوام تلك اللذة والحرص عليها وحدها !

هنريك متحمساً : كلا . . . كلا . . . سأمتلك كاترين ثم أقتلها . . . سأمتلكها ثم أقتلها وأنتحر !

الملك الأبيض : لن تستطيع . . . لن تقتلها ولن تنتحر ! . . . إنه يخدعك . . . يخدعك . . . استمع لى وأسرع . استقل هذه العربة حالاً ، واذهب وقم بواجبك دون أن تلوث نفسك . . . أسرع وإلا أهلكك ترددك . . .

الملك الأحمر لغريمه وهو يبتسم : دعه يلتقط أنفاسه ، ولا تفسد

عليه فرحته بفكرتي . لن يطيعك . أنت تقدم له الجمال البارد أما أنا فأقدم له الجمال الحار . . . تعال معي يا هنريك . . .

الملك الأبيض ممزقاً ثوبه : أتتبعه ؟ . . .

هنريك : ذلك حظي وليس منه مفر .

الملك الأبيض لغريمه : إلى أين تسوق الرجل ؟ . . .

الملك الأحمر : إلى الحانة قبل كل شيء . . . إلى الحانة حيث يجرع بضع كؤوس من الخمر تنعشه وتشجعه . . .

الملك الأبيض متشبثاً بهنريك : لا تستمع له . . . اذهب إلى البيت حالاً . . . ألتمس منك . . . اذهب مسرعاً وإلا ندمت .

هنريك : دعني وشأني . . . حلقي جاف . . . صورة الكأس المترعة تلمع أمام بصري ، وتمدني منذ الآن بالقوة وتحفزني . أريد أن أتأهب لاستقبال نشوتي . . . هذه هي الحانة . . . وهؤلاء هم الأقوياء . . . خمراً . . . هات خمراً يا غلام . . . قدحاً آخر . . . وقدحاً أيضاً . . . وقدحاً للطريق . . . أين أنا ؟ . . . نعم . . . هذا هو الطريق . . . من هنا . . . سأراها . . . سأراها . . . السماء لم تعد تمطر . . . هذا فأل حسن . . . الغيوم تتبدد . وها هي ذي الشمس تبدو ثم تختفي . . . سوف تشرق . لابد أن تشرق . . . لك الله من عبقري أيها الملك الأحمر الجميل ! . . . لا . . . لم يعد يتبعني أحد . . . إن الملك الأبيض لمعتوه ! . كان يطلب إلي أن أقتلها وأنا لم أنعم بها ولو ميقات لحظة ! . . . تباً له من أحمق مأفون ! . . . ستكون لي ! . . . سأحظى بها ! . . . من هنا يا هنريك . . . من هنا إلى البيت . . . هذا أقرب طريق . . . ما أشوقني لرؤيتها ! . . . ما أظمأني إليها ! . . . يا لفرحتي ! . . . هوذا بيتي ! . . . هوذا الباب الحديدي والسياج العالي والبرج الشامخ العتيد ! . . . هأنذا يا كاترين . . . أتمنى لو صعدت الدرج في قفزة واحدة ! . . . ماذا ؟ . . .

ماذا أرى ؟ . . . إن ابنى « أوجو » لمتهور ! . . . لماذا لم يغلق الباب الداخلى ؟ . . . « ويصيح » أوجو . . . أوجو . . . كاترين . . . أوجو . . . هذه الحجرة خاوية ! . . . وكذلك بقية الحجرات . لا أرى أحداً ! . . . أوجو . . . أين هما ؟ . . . كيف هذا ؟ . . . لا أحد فى البيت ! . . . رباه إلى أين ذهبت ؟ . . . أين ولدى ؟ . . . أين هى ؟ . . . وحدى ! . . . كيف يمكن . . . ماذا حدث ؟ . . . الصمت الرهيب يكتنفنى ، والصوت الوحيد الذى أسمعه ينبعث من فى المستصرخ العاجز ويكاد يمزق صدرى ! . . . ما هذا ؟ . . . ما الذى أراه على هذه المنضدة ؟ . . . كيس فيه مجوهرات ؟ . . . مجوهرات . . . ثم ما هذا ؟ . . . ورقة ؟ . . . ورقة بيضاء . . . ما الذى كتب فيها ؟ . . . آه يا هنريك . . الويل لك ! . . . الويل لك . . . تمزق . . . تقطع . . . انحن على الورقة المشئومة واقرأ . . . « وينحنى ويقرأ وهو مسلوب » . . . « اغفر لى يا أبت . لقد أحببت كاترين وهى أيضاً أحبتنى . ولقد فررنا معاً وتركنا لك بعض المجوهرات . إن حياتنا ومستقبلنا فى يدك . وفى وسعك إذا شئت أن تقبض علينا . فاغفر لنا ، وأصدر أمرك إلى رجالنا بأن يدعونا نجتاز الحدود بسلام . لا تعترض سبيلنا يا أبت وإلا قضيت على ابنك وحبيبتك على السواء . سامحنى ، فأنا شاب ، وهذا الحب هو اليوم كل حياتى . أما أنت فقد طالما تمتعت ، وطالما سعدت ، وفى مقدورك أن تعيش بالذكرى ، وأن تجد فى جهادك الوطنى ما يعوضك عما فقدت . فلا تتعقبنا بالقصاص وإلا أنكرت أبوتك ، وتجردت من إنسانيتك ، وقتلت فى لوثة الغيرة العمياء ولدك الوحيد . لا تقتلنى يا أبت. لاتقتل ولدك . لا تحرمنى نعمة الحياة . أنت الذى منحتنى حياتى فلا تأخذها منى وإلا مت وأنا ألعنك . . . » . . . « ويتلوى هنريك منسحقاً ويصرخ » آه . . . لا أرى شيئاً . . . الظلمة تعمى بصرى . . . ولدى يفعل هذا ؟ . . . ولدى الذى

كان هو صوت ضميرى وكان ينصحنى بقتل المرأة ، يفر معها ويسلبها منى ؟ ! . . . لقد أغرته الفاجرة واقتادته ! كيف وثقت أنا فيه ؟ كيف أمنته عليها ؟ كيف لم أتوقع منه شيئاً كهذا ؟ . . . كنت على يقين من صدق وطنيته ، وكنت فى الوقت نفسه لا أخاف من شبابه . . . كنت أحتقره . . . كنت أحتقر شبابه . . . كنت أنظر إليه كطفل غرير . . . كنت أنظر إليه من علياء قوتى وجمالى واعتزازى بما أحرزت حتى اليوم من نصر على أصلب وأفتن النساء ! . . . كنت من فرط كبرى لا أتصور أن فتى شائعاً مثله يمكن أن يجرؤ وينافسنى . . . يا لغرور الكهل وزهوه وخيلائه واعتداده بنفسه متى أحب ! . . . لقدْ لوّثت ولدى بيدى . . . وضعته تجاه التجربة وجعلت منه خائناً مثلى . فقهرنى بشبابه واحتفر لى منذ الآن قبرى ! . . . يا للطعنة الصادقة النجلاء ! . . لم أعد أحتمل . . . لا قوة لى . . . أنا خجل مما زعمت انه رجولتى ! . . . ألمى يخنقنى . الغيرة تنهشنى . . . عض شفتيك يا هنريك وابك . . . ابك ما شاء لك الحنق المرير . . . لقد خدعاك واحتقراك ولم يضنا عليك حتى بالمال ! . . . ما أجدرك بأن تظل إلى الأبد مثل الخديعة المروّع الحى ! . . . ابك . . . ابك . . .

الملك الأبيض : ألم أقل لك أن تسرع بتأدية واجبك وإلا هلكت .

هنريك منفجراً : وماذا تريد الآن منى ؟ . . .

الملك الأحمر — أعتقد يا هنريك أنه خير لك فى هذه اللحظة أن تنتحر !

هنريك بملء حقده ويأسه : لن أطاوعك بعد الآن ولو أغريتنى بملك الدنيا ! . . . لقد خدعتنى . . . نعم خدعتنى . . . ولكن أتظن أنك أجهزت على ؟ . . . لا . . . أنى أصرخ فى وجهك الساعة وأقول : بوركت الخديعة أيها الملك الأحمر البغيض فقد ردت إلى قوتى ! . . .

سأجد فى أثر المجرمين ، ومن المحال أن يفلتا منى . وإذا كانت الغادرة تعتقد أن حرصى على حياة ولدى سيحميها من بطشى فهى واهمة ! . . . لم يعد لى ولد ! . . . لن أرحمها ولن أرحمه ! سأعيش لأرى مصرعهما ، ثم أعيش بعد ذلك مرتاح الضمير سعيداً ، واضعاً نصب عينى صورة هذا المصرع المزدوج ، متخذاً منه حافزاً كان ينقصنى لمواصلة الحياة والجهاد بهمة جبارة تطاول همة رئيسى ومحرر بلادى جوستاف العظيم ! . . . هذا عزمى ! . . .

الملك الأحمر : ألن تتحول عنه ؟ . . .

هنريك : كيف أتحول والخيانة الفاضحة تغلى فى دمى ؟ . . . ألا تصدقنى ؟ . . . سترى . . . تعال . . . تعال معى . تعالوا جميعاً . . . لماذا ينظر إلى كل واحد منكم وهو مروّع ومشدوه ؟ . . . اتبعونى . . . تقدموا . . . ما بالكم ترتجفون ؟ . . . تقدموا أيضاً . . . من هنا . أترون ؟ . . . هوذا البيت . . . بيت تابعى ورئيس مكتبى الملازم ادولف . . . « ويصيح منادياً وهو يختلج » : أدولف . . . أدولف . . . هذا أنت . . . اسمع . . . ارهف السمع ولا تتعجب . . . الخائنة كاترين أغوت ولدى . . . ولدى الوحيد . فخان هو أيضاً وفر بها لينقذها . فاجمع رجالك حالاً ، وأسرع بهم إلى الحدود ، وألق القبض على المرأة وعشيقها ، وسلم المجرمين إلى الزعيم جوستاف ! . . . هذا أمرى . . . انطلق . . . آه . . . أكاد أسقط . الدوار يعصف برأسى . . . ولكن لا . . . أنا سعيد . . . سعيد . . . الآن فقط أتنفس . . . الآن فقط أتحدى . . . الآن فقط أستطيع أن أنصب قامتى وأواجه الناس وأقول إنى سعيد . . .

الملك الأحمر : أتظن ؟ . . .

هنريك : بل أنا واثق . . .

الملك الأحمر : لا تخدع نفسك .
هنريك : ماذا تقول ؟ . . .
الملك الأحمر : أنت تتعذب . أنت تتعذب الآن كما لم تتعذب أبداً . . .
هنريك : اغرب عنى .
الملك الأحمر : تتعذب لأنك تشعر وتدرك . . . تدرك تماماً أنك لم تفعل ما فعلت عن واجب وطنى بل عن رغبة فى الانتقام . شهوة الانتقام لكمدك وغيظك وهزيمتك فى حبك ، هى التى دفعتك إلى ما فعلت لا الواجب . هذا ما يعذبك . ولسوف تتعذب أيضاً . وتتقطع أيضاً . لن تعرف نعمة الراحة أبداً يا هنريك . . .
هنريك : اصمت . . . أقول لك أصمت . . .
الملك الأحمر ضاحكاً : ولكنى سأنقذك . . .
هنريك يتطلع إليه مذهولاً — فيم تفكر ؟ . . .
الملك الأحمر — ألم تفهم بعد ؟ . . .
هنريك وهو يرتجف — أشفق علىّ . . .
الملك الأحمر : وهل أنا أريد غير هذا ؟ . . .
هنريك : وماذا تريد بى ؟ . . .
الملك الأحمر : تقدم . . . تقدم أنت . . . « وينظر إلى العقل الصامت المتنبه المرتعد ويقول » غداً ، بعد أن ينفذ حكم الإعدام فى حبيبة هذا الرجل وفى ولده الوحيد ، تغادر أيها العقل جمجمة هنريك وتتبعنى ...
هنريك فى توسل المذعور : لا . . . لا تأخذ العقل منى . . . إنه الحياة ! . . .
الملك الأبيض : هذا عقابك . . . لماذا ترددت فى تأدية واجبك . كان ينبغى أن تكون منذ البدء بطلاً !

هنريك : لقد حاولت . . . حاولت . . . ولكنى لم أستطع أن أكون غير إنسان . ومع ذلك فأنا لست بنذل . ولقد ضحيت أمامكم بابنى الوحيد . فاشفع لى عند هذا الملك الجبار وقل له أن يرحمنى . . .

الملك الأبيض : فات الوقت يا هنريك . . .

الملك الأحمر مقهقهاً : لا تحزن يا صاحبى . . . الجنون هو الذى سيرحمك من الحياة ! . . .

« فيرسل هنريك صرخة مدوية ، ويقع على الأرض مغشياً عليه . »

من تاريخ إيطاليا

قلوب الفدائيين

كانت حرب الاستقلال الإيطالية دائرة الرحى فى سهول مقاطعة « لومبارديا » عام ١٨٢٠ بين الفدائيين المنتمين إلى هيأة المقاومة السرية فى إيطاليا ، وبين رجال الجيش النمسوى الذين احتلوا هذه المقاطعة . ففى غضون تلك الحرب وقعت فى قرية إيطالية مجاورة لسهول لومبارديا ، حادثة غريبة سجلها معظم المؤرخين وذهبت مثلاً فى صدق الوطنية .

* * *

كان ذلك فى حجرة كبيرة فى منزل عمدة القرية . وكان عن يمين الحجرة باب يؤدى إلى مخدع النوم . وعن اليسار باب كبير يفضى إلى الخارج ، وعلى مقربة منه نافذة مفتوحة تطل على حقول القرية . وكان الناظر يلمح فى إحدى زوايا الحجرة باباً آخر منخفضاً ومقوساً يبدو منه سلم خشبى صغير يؤدى إلى قبو عميق حافل ببراميل وزجاجات خمر معتقة اعتصرها رب الدار من الكروم التى يملكها فى القرية .

وكان الوقت ليلاً وأشعة القمر تنصب من النافذة وتغمر الحجرة ، وسيلفيا بنت العمدة صاحب الدار تتجه بخطى متلصصة نحو باب القبو ، وفى يدها منشار صغير ، وبصرها الزائغ يرمق النافذة المفتوحة .

وهتفت الفتاة تخاطب نفسها : « لن أصبر بعد الآن لحظة واحدة ! . ذلك الضابط النمسوى السفاح يجب أن يلاقى مصرعه الليلة ! . . . لقد قتلنا

منهم ثلاثة فافتدوا رجالهم بأن قتلوا منا ثلاثين ! . . . وهذه المجزرة المروعة كانت بأمر الضابط ! . . . لن تطلع شمس الغد حتى تكون القرية قد تخلصت منه ! . . . »

وأوصدت النافذة ثم أسدلت عليها الستار وكرت راجعة إلى باب القبو ، وانحنت على السلم الخشبي ، وأخذت فى نشر إحدى قوائمه وهى تلهث وتستطرد التحدث إلى نفسها : « ما أشد حب ذلك الضابط السفاح للخمر ! . . . إنه لا يعب منها بل يلغ فيها كما يلغ الحيوان فى الدم . إنه يزورنا كل ليلة ويبتلع أجود وأندر ما فى قبونا من زجاجات النبيذ . . . وسيكون هنا بعد لحظة ، وسيقتحم القبو كعادته . ولكنه لن يشرب من خمرنا بعد اليوم جرعة واحدة ! . . »

وعكفت على عملها فى دأب وإصرار ثم نهضت وقد أبرقت أساريرها ، وأسرعت إلى مخدع النوم لتخفى المنشار الصغير ، ثم عادت مبتهجة ، وفتحت النافذة ، ومدت المائدة الكبيرة ، ثم جعلت تعد عليها مختلف ألوان الطعام .

وانقضت فترة وجيزة ثم دخل والدها السنيور ألفونسو عمدة القرية وهو شيخ فى السبعين ، يتبعه الشاب الجميل سلفاتور ، ووالده التاجر الثرى السنيور برانتانو ، فخفت الفتاة لاستقبالهم وعلى شفتيها ابتسامة قريرة هادئة .

قال العمدة :

ــ لم نستطع إقناع الضابط السفاح وحلم بإطلاق سراح الشبان الإيطاليين الخمسة الذين اتهمم المجلس العسكرى بتدبير الكمين للقافلة النمسوية . لقد دافعت أنا عنهم ، وأثبت للمجلس أنهم أبرياء ، وأنهم ما وجدوا بقرب القافلة إلا اتفاقاً . ولكنهم أبو الإصغاء إلى وأدانوهم ...

فعقب برانتانو قائلاً :

ــ وعلمت أنا أن حكم الإعدام سينفذ فيهم بعد أسبوع .

فصاح العمدة وقد أمضه الالم :

ــ إن قلبي ليتمزق شفقة عليهم . ولكن ما حيلتى ونحن فى حرب تحرير قاسية وغير متكافئة .

فأطرقت سيلفيا قليلاً ثم قالت :

ــ أجل . إنهم اليوم أقوى منا . إنهم يرا كمون الأشلاء والضحايا أملاً فى زعزعة كفاحنا و إلقاء الرعب فى قلوب المقاتلين منا . ولكننا لن نضعف. لن نسلم . وكلما ازدادوا هم تنكيلاً بنا ازددنا نحن إيماناً بأنفسنا . إن سهول لومبارديا ملآى الآن بالفدائيين ولن يضع الفدائيون السلاح حتى يتم استقلال إيطاليا ! . . .

فجعل التاجر الثرى برانتانو يهز رأسه وهو يقول مؤمناً على كلام الفتاة ومستدركاً لبعض ما فيه من تهور :

ــ نعم . . . ولكننا نحن فى غضون ذلك نكون قد فقدنا كل ما نملك وأصبحنا فقراء ، وغير واثقين فى الوقت نفسه من أن النصر يمكن أن يحالفنا . . .

فردت سيلفيا فى عنف :

ــ أى كلام هذا الذى تقوله يا سنيور برانتانو ؟ . . . ليس من الشجاعة ولا من النخوة أن نفكر تفكيراً طبقياً والوطن فى خطر. أنت تفكر الآن فى طبقتك فقط ، وفى مصالحك فقط . ولكن اعلم أنه لو انتصر النمسويون علينا ، فلن يبقوا على رفاهية طبقتك إلا إذا حالفتهم هذه الطبقة ورضيت أن تشاركهم فى استعباد الشعب . فهل ترضى أنت بمحالفة العدو على إذلال شعبك ؟ . . . هل ترضى بأن تكون والضابط النمسوى السفاح سواء ؟! . . . أجبنى ؟ . . .

فرد برانتانو فى هدوء :

ـ يا بنيتى إن إيطاليا ضعيفة ، وطبقتها العالية قد تنقذها . وهذه الطبقة الغنية العامرة بالمحنكين من أهل السياسة هى التى يمكن أن تستعيض بالعقل عن السيف ، وتصل بالحكمة والدهاء إلى اتفاق معقول يصون مصالح الشعب .

فصاحت سيلفيا فى غضب :

ـ بل يصون مصالحها هى لأنها تعتقد أن الشعب ممثل فيها وحدها . كلا يا سيد برانتانو . إن الشعب ممثل فى الفدائيين ، ومعظم الفدائيين فقراء ، والفقراء ينشدون استقلالاً كاملاً ، وليس فى وسع طبقتك أن تردهم عن عزمهم وتحول بينهم وبين مواصلة الجهاد .

فصاح برانتانو محتداً :

ـ ولكن . . .

فتدخل الشاب سلفاتور وقاطع والده وهو يقول فى ابتسامة ساخرة :

ـ دعها يا أبى . . . إنها تتنكر لطبقتها ومع ذلك فهى ستتزوج منها . . . أليست خطيبتى أنا ؟ . . . لماذا اختارتنى ولم تختر شاباً فقيراً من أبناء الشعب ؟ . . . إن روح الطبقة فى دمها وليس من اليسير عليها أن تخون هذه الروح .

فتأملته الفتاة فى هدوء وقالت :

ـ أنا لم أنظر إلى مكانتك يا سلفاتور ولا إلى مالك . وإذا كنت قد رضيت بك زوجاً ، فذلك لأنى أحببتك .

فهتف الشاب :

ـ وواجب الحب يقتضيك أن تحرصى على طبقتى التى توشك هذه الحرب الطائشة الحمقاء أن تقضى على جميع مصالحها .

فهزت الفتاة رأسها وقالت :

ـ لا . . . لا أضحى بمستقبل شعب من أجل مصلحة طبقة .

فردد التاجر برانتانو منفعلاً :

— ولكن . . . ولكن . . .

فقال العمدة :

— كفى . . . كفى . . . تفضلوا . . . ولنجلس إلى المائدة قبل أن يباغتنا الضابط السفاح . سيكون هنا بعد قليل ، وسيقتحم القبو كعادته ، وينتقى منه أجود الخمور ، ويظل يعب فيها حتى يفقد صوابه . فرجائى إليكم ألا تتبرموا به ، وأن تحسنوا استقباله وإلا فقد يثور ثائره وينتقم منا بأن يمعن فى البطش والتنكيل برجالنا . تفضلوا . . .

فجلس الجميع حول المائدة ، وشرعوا فى تناول الطعام ، وسيلفيا تحدق إلى باب القبو تارة ، وتختلس النظر إلى النافذة المفتوحة أخرى ، وتحاول جهدها أن تضبط أعصابها وتتهيأ لتحمل عواقب الخطة التى أقدمت على تنفيذها . وفجأة سمع طرق على الباب . فتلفتت الفتاة مذعورة وجمدت . وصاح العمدة : « من الطارق ؟ » ثم نهض بنفسه ، وفتح الباب الأيسر . ولكنه تراجع مذهولاً وتمتم :

— من . . . أنت ؟ . . . ماريو ؟ ! . . .

فانبعث صوت من الخارج يقول :

— عفواً يا سيدى العمدة . . . لحظة واحدة . . . امنحنى لحظة واحدة . . .

فأفسح له العمدة الطريق . فدخل رجل محدودب الظهر ، مشعث الشعر ، مهلهل الثياب ، معصوب الساق بقطعة من قماش متسخ . ثم ارتمى على مقعد ، وأجال الطرف حوله وهو ينتفض من شدة البرد ثم استقر ببصره على العمدة وقال :

— أنا قادم من الميدان يا سيدى . . . من سهول لومبارديا . . . تركت الميدان عند الفجر وقطعت الطريق سيراً على قدمى ! . . . غافلت الحرس

النمسوى ، وانحرفت ودخلت القرية من الطريق الشرقى المهجور لا من الطريق العام . . . ثلاثة أسابيع وأنا أقاتل قتالاً وحشياً منقطع النظير! .. أقاتل فى غمرة البرد والمطر . . . لم تذق عينى طعم الرقاد الخالص . . . لم أبرح خندقى إلا لأرتد إليه ! . . . لم أتبلغ طوال جهادى بغير الخبز الأسود ، والجبن المتعفن ، والأرز المملوء بالحصى ! . . . ولكنى قتلت من أعدائنا أربعة جنود وثلاثة ضباط . . . ثم أصبت فى ساقى ، فانهارت قواى ولم أعد أصلح للكفاح ، فانثنيت راجعاً إلى قريتى . . . فأنا الآن يا سيدى العمدة لا أملك شيئاً . . . كل ما كان معى وكل ما منحتنى إياه هيئة المقاومة أنفقته فى الميدان عن آخره . فرجائى إليك يا سيدى أن تقرضنى بعض المال ، أستعين به على الحياة ، ريثما أعود إلى عملى فى المزارع ، وأستطيع أن أحتطب وأكسب قوتى وقوت امرأتى وولدى ! . . . ألتمس منك ألا تخيب سؤلى وتدعنى أنصرف يائساً ! . . .

واستمع العمدة إلى حديث الرجل ثم تفرس فيه لحظة وهمهم فى سكون :

ـ تنصرف ؟ ! . . .

فأجاب الرجل :

ـ أجل . أريد أن أرى امرأتى وولدى .

فقال العمدة وهو ما يزال يتفرس فيه :

ـ أيعرفك الضابط النمسوى والحلم ؟

فأجاب ماريو :

ـ كل من فى القرية يجهل أنى من الفدائيين . وأما الضابط فلم يرنى أبداً لأنى التحقت سراً بهيئة المقاومة قبل أن يحتل النمسويون القرية ويعين الضابط حاكماً عليها .

فأطرق العمدة ثم قال :

ـ ومع ذلك فالأمر خطير . . . وإذا كان فى مقدورى أن أعطيك

مالاً ، فليس فى وسعى وقد أصبحت هنا أن أدعك تنصرف وفق هواك . .
لو خرجت الآن من بيتى ، فقد يباغتك الحرس ويشتبهون فيك ،
ويتهموننى بأنى قد آويتك فى منزلى . . . وأنا رجل مسئول أريد أن أعاون
الفدائيين ، ولكنى أريد فى الوقت نفسه أن أظل محتفظاً بثقة المحتل . . .
هذه سياستى بل سياسة الحكومة . وإذن فيجب أن تبقى الليلة هنا . . .
أتفهم . . . على أن هذا أيضاً لا يكفى . . . الضابط وطلم سيزورنا بعد
قليل ، وقد يشتبه هو أيضاً فيك نظراً لمظهرك الذى يبعث على الريبة .
فخير ما يمكن أن أفعل لمصلحتك ومصلحتى هو أن أبدل معالمك وأضمك
إلينا . . . فتعال . . . تعال وادخل مخدعى ، وانفض عنك هذه الأسمال .
سأعطيك ثوباً من أحدث وأجمل أثوابى ، وستظل معنا الليلة .
ولو استفسر الضابط عنك فسأقول له إنك من أقربائى . . . تعال . . .

وقاده إلى المخدع ودخل به إليه ثم أعاده بعد لحظة فى حلة نظيفة أنيقة
وتأمله وهو يبتسم مرتاح البال وقال :

ـــ اجلس هنا كأنك منا . . . شاركنا فى الطعام والشراب . . .
سأقرضك المبلغ الذى تريد . ومتى طلع الفجر وانصرفت دورية الحرس ،
تركتك تعود إلى بيتك ثم عاونتك حالاً على إيجاد عمل أفضل فى قرية
أخرى .

فانكب ماريو على المائدة ، وأخذ فى التهام الطعام وهو شارد .
قال إليه الشاب سلفاتور وقال :

ـــ وكيف حال رجالنا فى الميدان ؟ . . . أتظن أن فى مقدورهم التغلب
على العدو ؟ . . .

فأجاب ماريو فى هدوء :

ـــ النصر شىء والقيام بالواجب شىء آخر .

فتطرح سلفاتور فى مقعده وقال وهو يهز كتفيه :

ـ ولكن أية قيمة لواجب يتطلب تضحيات خارقة ولا يزينه ويشجع عليه يقين من النصر ؟ . . .

فنظر ماريو إلى محدثه منفعلاً وأجاب :

ـ اليقين فى قلوبنا يا سيدى . وما دمنا نحرص على يقين القلب ، فالنصر لابد أن يحالفنا إن عاجلاً أو آجلاً .

فقال سلفاتور فى سخرية :

ـ أنت رجل مثالى .

فرد ماريو على الفور :

ـ أجل . ولا أعتقد أنك أنت من دعاة الهزيمة ! . . .

فأشرق وجه سيلفيا ، ومدت يدها إلى ماريو وصافحته وقالت :

ـ ما شككت أبداً فى أن جميع المقاتلين من رجالنا هم على مثل إيمانك يا سيد ماريو . ولكنى وقد رأيتك وسمعتك ، ازددت ثقة فى المستقبل ويقيناً بقرب النصر .

وانحنت عليه تخدمه وتقدم إليه ألوان الطعام بنفسها وهى تتأمله فى احترام وإعجاب . ولكى تحكم الصلة الروحية بينها وبينه ، نهضت بغتة واقترحت عليه أن تعزف له فى نغم خفيض نشيد الفدائيين . فابتسم لها شاكراً . فاتجهت نحو المعزف وفتحته ، وشرعت فى العزف . وفى تلك اللحظة ، سمع عن بعد صوت طلق نارى أعقبته صرخات طويلة متقطعة . فلم يجزع ماريو ولم يضطرب بل هز رأسه مغتبطاً . أما الجميع فبهتوا وجمدوا فى أماكنهم فترة . ثم أسرعوا إلى النافذة المفتوحة ، وأطلوا منها ثم تراجعوا واجمين . فأوصد العمدة النافذة ، وأشار إليهم بالتزام الصمت والجلوس حول المائدة . فجلسوا وأبصارهم الزائغة متجهة إلى الباب ، وآذانهم المرهفة تنصت إلى كل صوت ينبعث من الخارج ويترامى إلى الحجرة الساكنة . . .

وانقضت لحظات ثم فتح الباب الأيسر فى عنف ، ودخل منه الضابط النمسوى ولهلم ، جاحظ العينين ، محتقن الوجه ، وصاح بصوت غليظ وهو يهدر :

— ألن تضع حداً لهذه الحال يا سيدى العمدة ؟ . . . أنت المسئول عن حمايتنا ! . . . أنت المسئول عن أهل قريتك . لقد اغتالوا الآن جندياً آخر من جنودنا ! . . . لم يتعظوا بمسلكى ! . . . لم يكترثوا بما أنزلته بهم من عقاب ! . . . ولكنى فى هذه المرة لن أسدد الضربة إليهم ! . . . أتفهم . . . لن أقتص من فلاحين متعصبين وأغبياء . لن أقتل منهم عشرة مقابل واحد سأسحق الرأس فى هذه المرة . سأسحق رأساً خليقاً بأن يصبح مثلا وعبرة ! . . . وأكبر ظنى أنى سأقر العدل والنظام وأنقذ حياة رجالى . . .

فاتجهت سيلفيا نحو الضابط ، وقالت فى رقة ودماثة وهى تربت على كتفه وتطوق ظهره بذراعها :

— هدئ من روعك يا سيدى الضابط وتفضل . . . تفضل بتناول الطعام معنا . . . سيعاونك والدى فى القبض على القاتل وسيودع السجن كل من تشتبه أنت فيه . وإذا شئت أن تفتدى القتيل فى هذه المرة بعشرين من أهل قريتنا فلك ذلك . . . ولكن هدئ الآن من روعك ، واصبر حتى الصباح ، وتعال . . . تعال فرّج عن نفسك . . . ما تزال خمرنا من أشهى الخمور وأندرها . . . تعال واهبط القبو كعادتك ، وتخير من أجود الزجاجات ما تشاء . . . تعال . . .

وجذبته نحو القبو وهى تميل إليه فى دلال وبدنها يرتجف وعيناها تلمعان . ولكن الضابط أقصاها عنه فى أدب ثم حدق إليها تحديقاً صارماً ، وقال وقد استعاد هدوءه وبدت فى عينيه نظرة باردة مخيفة لم تعهدها فيه الفتاة من قبل :

ـ ليس الوقت وقت مجاملة يا آنسة . إن حياة رجالى أمانة فى عنقى . ولو تهاونت فى الذود عنها تنكرت لواجبى ، وغامرت بمنصبى ، وبكل ما أديت لبلادى من خدمات . ففى المسألة الآن موتى أنا أو حياتى . ويجب ، يجب أن أضع حداً لكل هذه الاغتيالات . ولقد عزمت . . .

فتطلعت إليه الفتاة وقالت :

ـ وعلام عزمت يا سيدى ؟

فأجاب الضابط فى صوت قاطع جهير :

ـ عزمت أن أقتص من الرؤوس لا من الأذناب . عزمت أن أقتص منكم أنتم عيون القرية ووجهائها ! . . .

وأردف وقد وقعت عينه على ماريو :

ـ من هذا الرجل ؟ . . .

فأجاب العمدة :

ـ هو ابن عمى . . .

فقال الضابط ونبرات صوته تزداد حدة وتصميماً :

ـ عظيم جداً . فاسمعوا . لقد قتل القرويون جندياً من جنودى ولكنى لن أفتديه هذه المرة بعشرة من الفلاحين بل بإنسان واحد ممتاز ، إنسان واحد فقط . على شرط أن يكون منكم . . . منكم أنتم . . . أنتم الخمسة . . . أنتم الصفوة الممتازة فى هذه القرية ! . . . فأمامكم الآن ساعة . . . ساعة واحدة فقط . . . تختارون فى أثنائها الفدية المطلوبة ، وإلا افتديت الجندى النمسوى القتيل بكم أنتم الخمسة جميعاً ! . . . سأنتظر قراركم فى مكتبى . فأنعموا النظر فيه وطاب ليلكم ! . . .

وخرج الضابط ، ونظر العمدة وبرانتانو وسلفاتور بعضهم إلى بعض ذاهلين غير مصدقين ، وماريو منصرف عنهم إلى تناول الطعام ، وسيلفيا وقد تولاها الحنق على نفسها والسخط على الضابط ، تتفرس فيهم وتتأمل

عيونهم المندلعة ، وأفواههم المفغورة ، ووجوههم الشاحبة الممتقعة التى استغرقها تفكير طارئ عميق تتنازعه عوامل الحيرة والرعب .

وبعض لحظات مليئة بالقلق والخوف والتوجس ارتفع فى بطء صوت العمدة قائلاً :

ــ هذا قضاء مروّع ! . . . قضاء لا حيلة لأحدنا فيه ! . . . الساعة عصيبة . وإنها لساعة فاصلة فى مصيرنا جميعاً ، فإما أن نقبل الموت ، وإما أن نقبل التضحية بواحد منا ! . . . يجب أن نسلم ونتشجع ! . . . وأنا . . . أنا أقسم لكم بالله العظيم وبابنتى الوحيدة أنى لو لم أكن عمدة هذه القرية والمطالب بإقرار سلطان الحكومة الإيطالية فيها ، ما ترددت لحظة واحدة فى افتدائكم جميعاً والتضحية بنفسى ! . . . ولكنى مجبر . . . مجبر على التشبث بحياتى لأتمكن من إداء واجبى . . .

فنظر إليه التاجر برانتانو وتفرس فيه ثم تاهت نظراته بين الجميع وهو يصرخ :

ــ ولكن ما ذنبنا أنا وولدى ؟ . . . أنا تاجر أخشاب ولست من محترفى السياسة وأنتم تعرفون صدق وطنيتى ، وتعرفون أنى طالما سخوت بمالى على المشروعات العامة . . . غير أنى لم أحمل السلاح أبداً ضد النمسويين ، ولم أشترك فى أية مظاهرة سياسية . وأما ولدى فهو صورة مصغرة منى . وإذن فلماذا يجب أن نضحى بحياتنا ونحن أبرياء ؟ . . . ثم لو مت أنا فماذا يمكن أن يحل بتجارتى ؟ . إن الخراب يتهددنى ويتهدد أسرتى . . . لقد عقدت صفقة أخشاب أخيرة ، ولكنى لم أقبض بعد ثمنها . . . كلا . . . كلا . . . لا أقبل أن أكون كبش فداء لا أنا ولا ولدى ! . . .

وانبعث صوت الشاب سلفاتور رقيقاً وادعاً واثقاً :

ــ كان بودى أن أكفيكم مئونة هذه الحيرة الأليمة وأن أكون أنا الضحية . . . ولكنى لا أستطيع . . . لا أستطيع لأنى لا أفكر فى نفسى

بل أفكر فى مصير سيلفيا ! . . . إنى أحبها ، وأريد أن أعيش من أجلها ! . . . أريد أن أعيش لاقترن بها وأسعدها ! . . . أنسيت . . . أنسيت يا سيدى العمدة أنك يجب أن تضع مستقبل ابنتك فوق كل اعتبار ؟ . . .

فنظر إليه العمدة وهو يردد :

ـ ابنتى ؟ . . . نعم . . . أعرف ذلك . . . إنها لن تجد فى القرية كلها زوجاً أوفر منك مالا ، وأسمى مكانة ، وأشد إخلاصاً .

فصاح التاجر على الفور :

ـ إذن فأنت يا سيدى العمدة ، أنت الذى يجب أن تضحي بنفسك من أجل ابنتك ! . . . فى وسع أى وجيه من وجهاء القرية أن يشغل منصبك . . . فقم بواجبك يا سيدى واطمئن على مستقبل سيلفيا ! . . . اطمئن على مستقبلها تماماً ! . . .

فردت سيلفيا فى صيحة باترة :

ـ لا . . . لن يكون والدى هو الضحية ! . . .

فقال العمدة فى هدوء :

ـ إن مستقبلك أعز علىّ ألف مرة من حياتى .

فقالت سيلفيا :

ـ هذا لن يكون ! . . .

فصاح التاجر برانتانو :

ـ بل هذا لا مفر منه ! . . .

فارتفع صوت سيلفيا ثابتاً :

ـ أبداً ! . . .

فحدق إليها برانتانو وقال :

ـ فكرى وتعقلى . . .

فتحولت عنه سيلفيا ساخطة وأردفت :

— إذا سلمت بأن يقتل والدى فلن يعزينى عن فقده شىء ولو أوتيت ملك الدنيا .

فجعل برانتانو يتأملها فى كمد وغيظ ، وراح يتمشى فى الحجرة ويدور فيها كأنه سجين فى قفص ، ثم أجال بصره فى الجميع لحظة حتى استقر به فجأة على ماريو فصاح :

— ولماذا . . . لماذا لا تتقدم أنت أيها الوطنى المجاهد فتضيف مأثرة عظيمة إلى سابق مآثرك وتموت بطلا ؟ . . .

فتطلع إليه ماريو فى دهشة وقال :

— أنا ؟ ! . . . ولكنى قمت بواجبى على خير وجه يا سيدى . لقد تصديت لأعداء بلادى ، وقتلت نفراً منهم ، وجرحت وأنا أقاتلهم . وأما أنتم فماذا فعلتم ؟ . . . ماذا فعلت طبقتكم اللاهية العابثة المترفة ؟ . . . الفقراء هم الذين ضحوا . فالدور الآن دوركم . وإذا شئتم أن تعرفوا رأيى فأنا أقوله فى صراحة ولا أبالى . الشباب هو الذى يجب أن يكون القدوة ، وابنك السيد سلفاتور هو الذى يجب أن يتقدم ! . . .

فقال سلفاتور صارخاً وهو يرتعد :

— أتخلى عن سيلفيا ؟ . . . هذا فوق طاقتى ! . . . إنى أحبها ! . . . إنى أعبدها ! . . . ومن أجلها أريد أن أعيش ، ومن حقها أن أحرص على حياتى كى أسعدها ! . . .

فاتجهت سيلفيا نحو سلفاتور وتأملته طويلا ثم قالت فى هدوء :

— إذا كنت حقاً تحبنى ، فأنت ، أنت الذى ينبغى أن تتقدم ! . . . هذا هو الحب الخالص فى أسمى مراتبه بل هذه هى الوطنية فى أروع صورها ! . . . كيف يمكن أن أسعد فى المستقبل معك ، وأنا أعلم علم اليقين أنك تنكرت فى مثل هذه الساعة لواجبك ، ولوثت نفسك بالعار ،

وأبيت أن تجود بحياتك فى سبيل وطنك ؟ ! . . . كن خليقاً بحبى وإكبارى يا سلفاتور ! . . . دعنى أقول إن الرجل الذى أحبنى كان بطلاً وشهيداً ! . . . واعلم أنك لو تشجعت الآن وأقدمت ، فلن أعرف فى حياتى رجلاً غيرك ، وسأظل إلى الأبد عذراء طاهرة وفية لحبك وذكراك ! . . .

وفى نبرة جمعت بين الخوف والحرج انطلقت كلمات سلفاتور :

ـ لا أستطيع أن أسومك هذا القضاء الفاجع . . .

فقالت سيلفيا :

ـ أنا راضية به لنفسى .

فعاجلها الشاب بقوله :

ـ محال ! . . . هذا محال ! . . .

فنهضت سيلفيا وقد التمعت عيناها ، وقالت فى ثبات :

ـ إذن فالفدية المطلوبة ستكون أنا !

وارتمت على صدر والدها وقالت :

ـ الوداع يا أبى .

فأمسك بها سلفاتور وصرخ :

ـ سيلفيا . . .

فرددت الفتاة :

ـ هذا عزمى ! .

فاندفع والدها نحوها وقال :

ـ وأنا ؟ . . . ماذا يمكن أن يحل بى لو فقدتك . هل تتصورين أنه سيكون فى مقدورى أن أعيش ؟ كلا يا سيلفيا . ما حياة الوالد إلا تضحيات متواصلة فى سبيل ولده . إن سلفاتور وأباه لعلى حق . وأنا ... أنا الذى سيمضى . . . أنا الذى يجب أن أموت ! . . . لن أدعك تبرحين هذه

الدار وفى صدرى نسمة من حياة .

فنصبت الفتاة قامتها وقالت فى عزم راسخ :

ـ بل سأبرحها ولو قتلتنى أنت قبل أن يقتلنى الضابط السفاح !

فثارت ثائرة الوالد وصاح بابنته :

ـ لا تعترضى مشيئتى . لا أريد أن أكرهك وأبرأ منك قبل أن ألفظ النفس الأخير . . . مكانك هنا . . . إياك أن تخرجى . . .

وفى تلك اللحظة فقط اندفع ماريو نحو العمدة وقال وهو يحدق فى الفتاة :

ـ إذا كان ضمير السيد سلفاتور الذى يزعم أنه يحبك يطاوعه على موتك أو على حرمانك من والدك ، فضميرى أنا لا يحل هذا ولا يقبله ! . . . سلفاتور هو الذى كان يجب أن يكون الضحية . ضحية الوطن وضحية الحب . أما وهو الآن يتنصل ويراوغ ، وينشد الفوز بحياته على حساب خطيبته أو والدها ، فمن الواجب أن يتقدم رجل آخر ، أن يتقدم فدائى أنبل نفساً من سلفاتور وأنزه عاطفة وأكرم خلقاً . . . رجل يلبى نداء الواجب ، ويحاول أن ينقذ مستقبل فتاة مسكينة وحياة شيخ فى السبعين ! . وهذا الرجل هو أنا . . . أنا أيضاً . . . أتسمعون ؟ . . . أنا الذى سأقدم نفسى ! . . . أنا رجل فقير . . . أية قيمة لحياتى ؟ . . . كان يمكن أن أفقدها فى ميدان القتال . . . على أن هذا أيضاً ميدان قتال بل هو الميدان نفسه ، ومن حق الوطن على أن أستهدف لناره ولو مت فيه شهيداً ! . . . سأذهب إلى الضابط وأسلم نفسى . ولكنى أوصيكم فقط بزوجتى وولدى . إنهم أمانة فى عنقك يا سيدى العمدة . وأما أنت ، أنت يا آنسة فغاية ما أطلب إليك بعد أن أنقذت حياتك هو أن تحرصى عليها ، ولا تمنحيها أبداً لهذا الشاب المراوغ المخاتل الجبان المدعو سلفاتور ! . . . وداعاً . . .

واتجه نحو الباب . فصرخت سيلفيا ، وتشبثت به وقالت :

ـ هذا يفوق حد التصور . لا يمكن أن ينصب الهلاك كله على رأس رجل واحد .

وتحولت الفتاة نحو سلفاتور وأردفت :

ـ أتصمت ؟ . . . أتهون عليك نفسك إلى حد التضحية بمثل هذا الرجل ؟ . . .

ـ كل تضحية تهون فى سبيل احتفاظى بك . . .

فرددت سيلفيا :

ـ التمس . . . ألتمس إليك ألا تدعه يخرج .

فقال سلفاتور :

ـ لن أحرك ساكناً ولو أصبحت من أجلك أذل أهل الأرض جميعاً .

فصاح ماريو وهو يقهقه :

ـ إنه يعبدك ! . . . إنه يبيع وطنه وشرفه وكرامته وكل شى لأنه يعبدك ! . . . طريقاً ! . . . وليملأ هواء النار المنقذة صدرى وإلا اختنقت هنا اشمئزازاً وتقززاً ! . . . طريقاً . . .

ودفع عنه الفتاة وانطلق إلى الخارج . فاستهول العمدة ما وقع ، وهم بالخروج فى إثر ماريو . ولكنه أنعم النظر فى ابنته فارتد واهناً واستند إلى الحائط خشية أن يسقط . أما سلفاتور فأومضت عيناه . وأما التاجر برانتانو فتنفس الصعداء . ثم أسرع الابن وأبوه وأحاطا بسلفيا ، وأقصياها عن الباب ، وجعلا يطيبان خاطرها ويعللانها بزواجها المقبل وهنائها المكفول .

وانقضت فترة طويلة ، ثم ترامى إليهم صوت الضابط يأمر جنوده بإطلاق النار على ماريو . . . وأطلقت النار . . . فأخفت سيلفيا وجهها بين كفيها وانهارت فجأة على مقعد وأجهشت بالبكاء . فأقبل عليها سلفاتور وجثا عند قدميها ، وطوقها بذراعه ، وحاول جهده أن يسكن روعها .

فرفعت إليه الفتاة بصرها الشارد ، ورمقته بنظرة ، ثم حدقت فيه طويلا ، ثم غالبت نفسها والتصقت به ، وألقت برأسها على ذراعه وابتسمت فجأة له . فبهت الشاب ، وتهلل محياه ، وانحنى عليها وقبل يدها . فأرسلت سيلفيا أنة مستطيلة ، ولمعت عيناها وغمغمت وهى ما تزال تحدق فى الشاب :

ـ أشعر بتعب شديد . . . صدرى ضيق . . . بى حاجة إلى التفريج عن نفسى . . . اذهب . . . اذهب يا سلفاتور . . . إلى هناك . . . إلى القبو . . . واسعفنى . . . أسعفنى بكأس من النبيذ . . . النبيذ الأبيض المعتق الذى أحبه . . .

فنهض الشاب مسرعاً . فاتبعته سليفيا النظر وهى ترتعد وتنكمش وتجاهد كى تظل فى مكانها . وما إن وصل سلفاتور إلى باب القبو ، وانحنى ، ووضع قدمه على السلم الخشبى الذى كانت سيلفيا قد نشرت إحدى قوائمه ؛ حتى تمايل السلم بغتة ، وتصدع ، وماد بالشاب فى دوى يشبه قعقعة النار . فصرخ الشاب ثم اختنق صوته . فاندفع والده والعمدة إلى باب القبو مذعورين . وجن جنون برانتانو . فانبطح على الأرض ، وتعلق ببقايا السلم المتداعى ، وقفز إلى القبو العميق ، وغاب لحظة فيه ، ثم أرسل صوتاً ممزقاً متحشرجاً مخبولاً وجعل يردد : « مات . . . مات ولدى ! . . . »

فأجال العمدة حوله الطرف كمعتوه ، وظلت سيلفيا تحدق إلى باب القبو ذاهلة ومأخوذة وجامدة . . .

من تاريخ روسيا :

المنديل الأبيض

« التاريخ الروسى حافل بقصص التضحيات المجيدة التى بذلها أحرار الروس فى سبيل التخلص من الحكم القيصرى الجائر ومن سطوة الأشراف الإقطاعيين الذين كانوا يحالفون القيصر على استنزاف دم الشعب . وقد عثرت بين صفحات ذلك التاريخ على هذه القصة الوطنية الإنسانية التى كانت بطلتها فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها ».

كانت تدعى « سونيا بتروفنا » وكانت تشتغل عاملة فى أحد المصانع . فاتصل بها كاتب من الأحرار ، ثقفها وأرشدها ، وفتح عينيها على المظالم التى يرزح تحتها الشعب . فآمنت بالحرية ، واندمجت فى صفوف المجاهدين وشرعت تكتب النشرات ، وتوزعها بنفسها ، حاملة فيها على الإقطاعيين والاشراف وعلى القيصر « إيفان الهائل » الذى استبد بالشعب استبداداً مروعاً ، وفاق طغيانه المرضى حد كل تصور . . . وشاء القدر أن يحب سونيا شاب من الأعيان هو ابن محافظ العاصمة وأن تحبه سونيا حباً شديداً . ولكن الفتاة التى كانت قد رصدت حياتها لتحرير بلادها ، أبت إلا أن تثير الشاب على طبقته ، وتدفعه إلى اعتناق مبادئها هى .

فآمن فيدور بالحرية مثلها ، واتصل خفية بها وأقسم لها أن يعترض مشيئة أهله ويتزوجها . غير أن رجال القيصر كانوا يتربصون بسونيا. فنى اليوم نفسه الذى اعتزم فيه فيدور أن يتزوجها ، اقتحم رجال القيصر بيتها وألقوا القبض عليها وساقوها إلى السجن حيث أبلغت أن الحكم قد صدر بإعدامها . . .

وها هى ذى سونيا قابعة فى زاوية السجن ، ترسف فى القيود والأغلال ، وتتأمل ضوء الشمس وهو ينصب من كوة صغيرة ، ويرسم على الأرض السوداء خطاً أبيض متماوجاً يلمع كالأمل ويرقص كالحياة !

والحق أن سونيا برغم شجاعتها واستبسالها كانت مبهوتة ومذعورة حيال النهاية الفاجعة التى تنتظرها .

كانت لفرط حبها فيدور ، وفرط تلهفها على السعادة بقربه ، لاتتصور أنها يمكن أن تموت ، ولا تستطيع أن تسلم بأنها فقدت كل أمل فى الحب والحياة . فالواقع كان يقول لها إن مصيرها المحتوم هو الموت ، والحب كان يجذبها ويطغى على عقلها ويلقى فى روعها أن من الممكن أن تقع معجزة ترد إليها الامل وتبدل فى لحظة كل شىء . وهكذا كانت تتأرجح بين الإقدام فى بسالة على البذل والتضحية ، وبين الأمل فى الحب والحياة . . . وبرح بها هذا التوزع ، فنهضت وتقدمت صوب الكوة ، وجعلت تتطلع إلى ضوء الشمس ، وعز عليها أن تموت . . . شاهدت من الكوة جمال الدنيا . فذكرت نفسها ، وذكرت جمالها وشبابها ، وانتابها ضعف طارئ ساحق ، أفعم قلبها حسرة ولوعة ، وفجر من عينيها الدموع . . . وظلت تبكى والضعف يتمكن منها ، والحرقة على الامل الضائع تذهب بلبها وتصليها عذاباً لا يطاق . . . وفجأة فتح باب السجن ودخل منه الحارس يتبعه فيدور . وكانت الفتاة زائغة العينين ، غائرة الخدين ، محطمة ومسلوبة ، توشك أن تسقط صريعة الكمد واليأس.

فما إن أبصرت حبيبها حتى ارتمت عليه ، وضمته فى عنف إلى صدرها ، وخنقها الشهقات والدموع . ولكن الشاب صاح بها وهو يغمرها بالقبل : « لابد أن أنقذك يا سونيا . . . سأبذل المستحيل لأنقذك ! . . . أنا ابن المحافظ ، وسمعتى ما تزال فوق الشبهات ، ولن يخيب لى القيصر سؤلا ... سأذهب إليه الساعة بنفسى وألتمس منه العفو عنك ، وأضمن سلوكك بحياتى . يجب أن نعيش ونتزوج ونستطرد الجهاد معاً يا سونيا ! »

فتفرست فيه الفتاة واختلجت . أحست أن الحياة الشائقة ، الحياة الغالية ، الحياة المنشودة الساحرة ، تتدفق عليها فجأة وتغمرها ، بل تجتاح صقيع نفسها كسيل من نار . . . واحتوتها هذه النار ، ولفتها فى سعيرها . فتاه رشدها ، وذابت إرادتها ، وانهارت على الأرض وهى تصيح وقد حطمها حبها وضعفها :

ـــ اذهب . . . اذهب ولا تتردد فقد يعفو عنى القيصر وأعيش . . .

فقال فيدور وهو يعانقها :

ـــ غداً موعد التنفيذ . فكونى شجاعة كما عرفتك . سيقتادك الحرس إلى الساحة الكبرى . فاتبعيهم شامخة الرأس ولا تستضعفى . وإذا رأيتنى مسرعاً إليك ألوح لك بمنديلى الأبيض ، فاعلمى أن القيصر قد أجاب سؤلى ، وأنى أحمل أمر العفو عنك . أما إذا رأيتنى ألوح بذراعى فقط ، فاعلمى أنى لم أوفق فى مهمتى ، وأنى لن أعرف بعدك امرأة ، وأن من واجبى أن أعيش لأستطرد جهادك ، كما أن من واجبك أن تموتى عظيمة كما عشت بطلة عظيمة يا حبيبتى !

فنظرت إليه الفتاة نظرة ممزقة ، نظرة ملؤها الأمل واللهفة والشكر وعرفان الجميل . ثم عانقته طويلاً ، وظلت تتبعه النظر حتى تقلص طيفه ، وغاب فى دهليز السجن . ولما أصبح الصباح كانت الجماهير قد احتشدت فى الساحة الكبرى لتشهد مصرع الفتاة . وكانت النفوس واجفة ، والقلوب

حانقة ، والعيون مشرئبة تحدق فى نقمة وبغض إلى المشنقة المنصوبة فى وسط الساحة كأنها فخ هائل أعدته يد جبارة لالتهام فريسة رائعة . . . وفجأة ظهرت سونيا وحولها رهط من الحرس . فتحركت الجماهير البائسة التى كانت تقدس الفتاة وتعبدها وترى فيها مثل الخلاص الأعلى . وانبعثت منها غمغمة هادرة تفيض بالحب والشفقة والتمجيد . . . وصعدت سونيا درجات السلم ، ووقفت على حافة المنصة ، وأجالت البصر فى الجماهير المعجبة الخاشعة ، وهى مسلوبة الحول ، ذاهبة اللب ، أشبه بغريق يصارع الموت جهده ، ويبحث يائساً عن حطام . . . . وفى تلك اللحظة لمحت فيدور ! . . . أبصرته قادماً عن بعد ، مشوش الشعر ، مشرق الوجه متألق العينين ، يشق عباب الجماهير الذاهلة ويلوّح بمنديله الأبيض ، ثم يندفع نحو رئيس الحرس ويصيح :

— إليك أمر العفو عن سونيا ! . . .

ولم يكد يصمت حتى وجمت الجماهير ، وخيم عليها بغتة سكون زافر ، ثم تقطبت الجباه ، وأظلمت العيون ، وتحولت الرؤوس ، وانطلقت من صدور الناس جميعاً صيحات حنق وسخط أعقبتها دمدمة زراية واستنكار . . . وتلفتت سونيا حولها ، وإذا بالجماهير التى كانت تقدسها ، الجماهير التى كانت تعبدها ، الجماهير التى كانت ترى فيها رمزخلاصها ، ترمقها بالنظر الشزر ، وترتد فجأة عنها ، وكأنها تقول لها إنها قد باعت وطنها لتشترى حياتها ، وإنها حانثة ومارقة وخائنة . . . وعندئذ ، عندئذ فقط ، أفاقت سونيا من سباتها وتمثلت لها فى مثل لمح الطرف صورة ماضيها. فرأت رئ العين جهادها المر الطويل ، وتضحياتها اليومية الخارقة ، وآلامها المطردة القاسية ، ومجدها النقى العتيد . فجن جنونها على نفسها ، وثارت ثورتها على ضعفها وحبها ، وكبر عليها أن تخون رسالتها وتخون هذا الشعب المعذب المسكين الذى كان يؤمن بها . فلم تنظر إلى فيدور ، ولا إلى عينيه

المبتهجتين ، ولا إلى منديله الأبيض ، بل استجمعت قواها ، وتحولت نحو رئيس الحرس وصرخت :

– إنى أرفض العفو ولتحيا الحرية ! . . .

ومشت إلى حيث يقف الجلاد ، ورفعت رأسها فى شموخ ، ثم أسلمت عنقها إلى حبل المشنقة !

من جزيرة العرب :

أقصى التضحية

كان يعيش بـ « الطائف » وفى واحة من واحاتها البعيدة ، شيخ إحدى تلك القبائل العربية المشهورة بالنخوة والشهامة والصلاح والتقوى .

ولم يكن ذلك الشيخ فى الواقع شيخاً ، وإنما كان رجلاً فى مقتبل العمر ، قوياً وجميلاً ومهيباً ، يرتدى على الدوام حلة سوداء ، ويطوق خصره محمل ثمين لسيفه موشى بالذهب .

وكان من عادة بعض تلك القبائل أن تقدم مثل هذا المحمل الثمين هدية من مالها للرجل الذى تحبه وتثق فيه وتميزه على أقرانه وتختاره شيخاً عليها .

وكان الشيخ مثال الطيبة والعدل والنبل . كانت الرحمة تملأ قلبه ، وحب الخير يملك عليه نفسه ، وفضائل الكرم والجود والإحسان أصيلة فيه . فأغدق من آلائه على كل بائس محروم . فأحبه أفراد قبيلته حباً عظيما ، وتعلق به الفقراء ومجدوه ، وأخلص له الكل إخلاصاً منقطع النظير .

وكان مقترناً بامرأة باهرة الحسن ، تقية وورعة ، ذات عينين صافيتين كصفحة الجدول الرقراق .

وكان سعيداً بحب الفقراء له ، وسعيداً بحبه لقبيلته ، وحبه لامرأته ، وحبه لطفله الوحيد ، وللمربية الأمينة التى ترضع هذا الطفل وتتفانى فى

رعايته والسهر عليه كما لو كان قد صيغ من صميم أحشائها .

وكانت هذه المربية أرملة بائسة شريدة لا أهل لها وذات طفل وحيد هي الاخرى ، أبصرها الشيخ فى ليلة شتاء قابعة تحت شجرة ، تستجدى السابلة وتبكى ، والبرد يفرى عظامها الناتئة ، والجوع يكاد يقتلها هى وابنها . فأشفق الشيخ عليها ، وكفلها ، وعهد إليها بطفله ترضعه من ثدييها وتربيه مع طفلها فى كنف المرأة التقية الورعة زوجة الشيخ .

ولم تكن الأرملة البائسة لتحلم يوماً بمثل هذا الحظ العظيم . فقدرت صنيع الشيخ المحسن الكبير ، وأولعت بابنه الصغير الحبيب ، وأخلصت جهدها فى خدمة السيدة الوالدة التى كانت مشغوفة حباً بابن المربية بقدر ما كانت مشغوفة بابنها هى .

وكانت المربية تعيش فى خيمة قريبة من خيمة الشيخ ، قام فى أحد أركانها سرير حديدى مجلل بالحرير ،يرقد فيه ابن سيدها ، وسرير آخر من الجريد يرقد فيه ابنها . وكانت كثيراً ما ترضع ابن سيدها وتنسى ابنها ، وكثيراً ما تسهر الليل بجوار ابن سيدها وتغفل عن صياح وعويل ابنها . والحق أن قلبها كان موزعاً بين الطفلين ، هائماً بين السريرين . ولكن ابن سيدها كان يستأثر بعطفها وكانت كلما حنت عليه وأرضعته طويلاً ، أبرأت ذمتها وأرضت ضميرها وأبصرت فى ضحكة الطفل الناضرة صورة عرفانها للجميل وإخلاصها العميق لسيدها .

وهكذا كانت نعمة السعادة ترفرف على الخيمتين وتخفق فى قلوب أفراد القبيلة وقلوب التعساء والمحرومين ، وتحلق بأجنحة ناصعة البياض فوق أرجاء الواحة كلها .

وفجأة تبدل الفرح ترحاً ووقع ما لم يكن فى الحسبان .

خرج شيخ القبيلة ذات يوم للصيد والقنص . وكان من عادته أن يسبق رفاقه ويتوغل بمفرده فى البرارى والقفار البعيدة ، ثم يعود بصيده

فيقدمه مبتهجاً لزوجته .

في ذلك اليوم المشئوم أمعن الشيخ في الابتعاد عن أصحابه ، وانطلق بجواده ينهب الارض ، وتغلغل في بطن واد عميق لم يكن قد طرقه من قبل .

وتقلص النهار ، والتهب قرص الشمس ، ثم جن الليل ولم يعد الشيخ . فقلق عليه رفاقه ، وجد رجال القبيلة في البحث عنه ، وظلوا الليل بطوله يجوبون البراري والقفار ، ويصيحون وينادون على غير جدوى .

ولما انقضت أيام ولم يعد الشيخ ، مزق الألم قلب الزوجة اليائسة . فأمعنت في البكاء واتشحت بالسواد ولزمت خيمتها ، وآلت على نفسها ألا تغادر الخيمة إلا إلى القبر . وكانت الزوجة تبكي والمربية أيضاً تبكي . وبات الطفل الصغير ابن الشيخ قبلة حياتهما ، وسلوى روحيهما ، وغايتهما الوحيدة في هذه الدنيا .

وفجأة تبدل كل شيء مرة ثانية ووقع حادث أفجع وأهول من حادث الأمس .

كان يتحكم في إحدى مناطق الصحراء المجاورة أحد الأشقياء السفاحين قطاع الطرق . فلما بلغه نبأ اختفاء الشيخ المحسن الطيب النبيل ، وسوس له شيطانه أن يغزو قبيلته ، ويسبي امرأته ، ويقتل طفله الوحيد . فاتأد وتمهل ، وحشد رجاله ثم عزم .

وفي ليلة من الليالي ، والقمر تحجبه السحب ، زحف المجرم قاطع الطريق وأطبق بغتة على الخيام الآمنة . فلم يكد يتنبه أهل القبيلة حتى وثبوا من مراقدهم ، وفزعوا إلى عتادهم ، وهبوا هبة رجل واحد للدفاع عن زوجة شيخهم وعن ابنها الصغير الذي كانوا قد أقسموا أن يكون هو شيخهم وسيدهم بعد أبيه .

وتقابل الجمعان بالسيوف ، وتطاعنا بالرماح ، وتراشقا بالسهام ،

واستبسل أفراد القبيلة ثم كروا مهاجمين . ولكن رجال المجرم المغتصب تكاثروا عليهم ، وشقوا نطاقهم ، واجتاحوا الخيام ، وهددوا كل من فيها بالموت أو التسليم .

وذهب الرعب بلب زوجة الشيخ . فألفت نفسها بعيدة عن زوجها ، أسيرة فى خيمتها ، يطوقها الغزاة من كل صوب . فصرخت تطلب ابنها وتنادى المربية . وظلت تصرخ وتبكى وتكاد من فرط الرعب واليأس أن تقع مغشياً عليها .

وفى تلك اللحظة كان الغزاة قد توجهوا إلى خيمة المربية وهم ينذرون ويتوعدون . فأدركت المرأة مرادهم . فهلع قلبها ، وجن جنونها ، وأيقنت من موت الطفل الحبيب ابن سيدها ومنقذها وولى نعمتها . وفى مثل خطف البرق جاشت نفسها ، والتهب خيالها ، وحفزها عرفان الجميل . فأرادت أن تنقذ ابن سيدها وفاء لدين أبيه عليها وعلى جميع البؤساء والمحرومين من أفراد القبيلة وأهل الطائف .

وغمرتها نشوة التضحية والفداء ، فلم تتردد وتقدمت بخطى ثابتة وحملت طفلها الوحيد على ذراعها ، ثم حملت ابن سيدها على الذراع الأخرى ، ثم أرقدت ابن سيدها على سرير الجريد الذى كان يضطجع فيه ابنها ، وأرقدت طفلها هى على السرير الحديدى المجلل بالحرير . ولم تكد تفعل حتى تدفق الغزاة على الخيمة ، وانهالوا بسيوفهم على السرير الحديدى الانيق يطعنون ابن المربية وهم يعتقدون أنه ابن شيخ القبيلة ، وأن موته لابد أن يشيع الهلع والذعر بين أفرادها .

ولبثت المربية تحدق فيهم وهم يقتلون طفلها دون أن تند عنها زفرة . وفيما هم يوسعون الطفل طعناً ، ويهمون بالتحول صوب الخيمة المحاصرة فيها زوجة الشيخ ، تصاعدت فجأة من أطراف الناحية صيحات كأنها الرعد القاصف . فاضطرب الغزاة وماجوا ، وتلفتوا حولهم فى ذهول . وإذا بهم

تجاه جمع غفير من الفقراء والبؤساء الذين كانوا لم ينسوا فضل الشيخ الكريم عليهم ، يتقاطرون من كل حدب وصوب وهم يهدرون ويزأرون ، ملوّحين بالمناجل والفؤوس والعصى ، عازمين على الثأر لشيخهم ، والفتك بالسفاحين الغزاة .

واشتبك الفريقان فى صراع دموى طويل . فتشجع أفراد القبيلة ، وتنادوا ثم ضموا صفوفهم ، وكروا مهاجمين . وعندئذ وفى لجب القتال وهوله ، علت صرخة مدوية تلتها صرخات هتاف أرسلها رجال القبيلة وجميع البؤساء فى شبه هوس وجنون . فاشرأبت المربية بعنقها ونظرت . فأبصرت الغزاة يفرون مندحرين ، ورأت ، رأت بعينها المبهوتة رأس المجرم ، رأس الشقى قاطع الطريق ، يترنح فى الهواء مقطوعاً ومعلقاً على قمة عصا . فخلبها الفرح ، وهزها المجد ، وأثارها النصر . فتقدمت من فورها ، وشقت صفوف البؤساء ورجال القبيلة الظافرين ثم صاحت بأعلى صوتها وهى تكشف الستار عن سرير الجريد وتومئ بأصبعها إلى الطفل الصغير :

ــ عاشت لكم إلى الأبد حريتكم . . . إن ينصركم الله فلا غالب لكم ! . . . ها كم ابن سيدكم . . . إنه حى ! . . . ؟

وماجت الجموع كالبحر الزاخر ، واندفعت نحو السرير تتقدمها زوجة الشيخ . ولم تكد المرأة تدخل وترى ابنها راقداً على سرير الجريد ، وبجواره ابن المربية ملقى على السرير المجلل بالحرير ، مثخناً بالجراح ومضرجاً بالدم ، حتى تراجعت وجمدت ثم استضاء عقلها بغتة ، فصاحت بالمربية كمعتوهة :

ــ ماذا فعلت ؟ ! . . .

فأجابت الأرملة الثكلى :

ــ أرقدت ولدى فى سرير طفلك ليقتله الغزاة فداء لابن سيدى النبيل

الكريم ! . .

وفى تلك اللحظة ، وقبل أن يضج الجمهور بالهتاف ، شوهد عن بعد رجل مجهد ومنهوك ، محدودب الظهر ، مشوش الشعر ، معفر الوجه بالتراب ، يزحف على الأرض زحفاً ويصرخ :

ــ أوشك أسد أن يفترسنى . . . ولكنى نجوت منه . ثم أضنتنى جراحى فلم أستطع أن أعود . فعشت هذه الأيام الطويلة أقتات من ورق الشجر حتى ارتدت إلى قواى . . . فأين ولدى . . . وأين زوجتى . . . وماذا حدث ؟ . . .

فذهل الجميع ولم يصدقوا أبصارهم ، وعرفوا فى الرجل شيخهم المفقود . فأنهضوه وأحاطوا به مرحبين مهللين. وطفقت زوجته التى استطار الفرح لبها ، تقص عليه ما وقع وما كان من أمر المربية الوفية التى ضحت بابنها كى تنقذ طفله العزيز الوحيد . فارتفع صوت الشيخ قائلاً : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير » . ثم اندفع نحو الأرملة الثكلى وضمها إلى صدره بين هتاف الجموع المأخوذة ، وصاح بها وهو يعانقها عناق الشقيق لشقيقته :

ــ اطلبى . . . اطلبى ما تشائين . . . لأنت خير امرأة من خير قبيل !

فرفعت المربية رأسها ، وتأملت الشيخ . تأملت محمل سيفه ، المحمل الثمين الموشى بالذهب والذى كان من عادة تلك القبيلة أن تقدمه لشيخها . ثم قالت فى ثبات :

ــ أعطنى محمل سيفك يا مولاى . . .

فأجفل أفراد القبيلة ، وانبعثت من صدورهم غمغمة استنكار . ولكن الشيخ أسرع وانتزع المحمل من خاصرته . فتناولته المرأة وقبلته ، ثم رفعته بين يديها ولوحت به للجماهير ، ثم تقدمت بخطى وئيدة ،

وانحنت على الطفل العزيز ، وطوّقته بالحمل وصاحت بالشيخ :

ـ لن يفارق العز والمجد بيتك يا مولاى . مد الله فى عمرك ، وصان الحرية الغالية لأهلك وعشيرتك ، وجعل ابنك الشيخ والسيد من بعدك . ما أنا فلاأطلب لنفسى شيئاً . فابن مولاى هو اليوم حشاشتى وولدى !..

فانفجرت عندئذ حماسة الجموع ، وشق هتافها عنان السماء ، بينما كانت المربية الوفية ترتمى على الطفل الحبيب ، وتأخذه بين ذراعيها ، وتقبله فى لهفة محمومة وقد انهمرت من عينيها الدموع .

من تاريخ الإسكندرية :

شهيدة النور

« هذه القصة تمثل صورة من جهاد آخر ، هو جهاد الفكر الحر في بحثه المطرد عن الحقيقة والنور . »

* * *

مشت الفتاة فى الرواق الطويل المؤدى إلى حجرة نومها ، ثم دخلت الحجرة وأوصدت الباب ، وارتمت على حافة فراشها دون أن تتجه صوب المصباح الزيتى الصغير وتوقد النور .

وكان الظلام حالكاً ، والإسكندرية راقدة ، والبحر وحده هو المستيقظ تهدر أمواجه هديرها الأبدى .

واشتد الهدير فى نفس الفتاة . فهبت واقفة ، ودنت من النافذة المفتوحة ، واشرأبت بعنقها وجعلت تحدق إلى البحر .

وفجأة تمزقت السحب المتكاثفة ، وبرز القمر ، وألقى شعاعه الفضى على المياه الجائشة . فتلألأت ولاح فى سطحها بدن جميل يتقلب عليها تقلب السابح الحاذق المنتشى .

واختلجت الفتاة وهمت بأن تغلق النافذة . ولكن البدن الجميل انبثق إذ ذاك من جوف المياه ، وقفز إلى الأرض فارعاً وممشوقاً ، ثم اكتسى بمئزر أحمر ، وعبر الشاطئ واستقام فى الحجرة الساكنة .

وكان بدناً قوياً متكتل العضلات ، يعلوه رأس مكلل بشعر أسود مموّج ، تطل منه عينان ساحرتان ، تخفق أهدابهما المستطيلة على خدين مضرجين بحمرة لامعة تشبه حمرة التفاح .

وتراجعت الفتاة مرتعشة وغمغمت :

— أبولونيوس !

فأسرع الشاب وأوصد النافذة التي وثب منها ، وكر راجعاً يريد أن يحتضن الفتاة . بيد أنها ردته عنها في رفق ، ثم أمسكت به في تلهف ، ثم عادت ودفعته في عزم وقالت :

— الحب رب من الأرباب يا أبولونيوس ، وكذلك الفكر . . . وأنا لن أعبد ربين وإلا كنت مارقة ومنافقة ! . . لا تظن لأنك رئيس حرس الحاكم والشخصية الثانية المرموقة في هذه المدينة أني سأنكر من أجلك رسالتي . . . لا . . . لن أكون لك أبداً يا أبولونيوس !

فجثا الشاب عند قدمي الفتاة وصاح :

— أنا مسيحي ، ولكني مستنير ومؤمن بتعاليمك أيضاً يا حبيبتي . فلا تفصلي بين العقل والجسد ، أنت التي تنادين بضرورة الجمع بين الجسد والعقل كي تتم على الإنسان فرحته بوجوده فيحب الفكر ويحب الحياة ، يجب أن تكوني أنت المثل الحي لدعوتك . يجب أن تكوني امرأة . . . يجب أن ينبض فيك القلب كما ينبض العقل . وها هو ذا قلبك المتحرق المحتدم يكاد خفقانه يشق قميصك . . . أنت تحبينني ! .

فسرت قشعريرة في جسم الفتاة وترنحت . ولكنها غالبت نفسها ، وكبحت ما استطاعت ثورة دمها وأعصابها ، وقالت وهي ثابتة ، ورأسها شامخ وعيناها تتوهجان :

ــ كان سقراط متزوجاً فشقى ، وحتى لو سعدت أنا بزواجى بك فالسعادة لابد أن تقتلنى . كيف تريد أن أفكر فى سعادتى ثم أفكر فى الناس . كيف تريد أن أحبك وأحبهم . كيف تريد أن أخلص لهم وأخدمهم بينما أنا موزعة النفس بينك وبين بيتى وأولادى ؟ . . . لا يمكن الجمع بين الجسد والعقل لمن يريد أن يعيش للعقل خدمة للناس . الآلهة لا تتزوج غير آلهة مثلها . وأنا قد اقتديت بالآلهة ولن أتزوج غير الفكر الذى هو أيضاً رب ومعبود ! . . . تلك هى رسالتى . فاحترمها يا أبولونيوس وانصرف عنى . .

فصرخ الشاب :

ــ الفكر خيال ، وهو لم يسعد قط إنساناً .

فقالت الفتاة :

ــ الفكر حقيقة . وبالفكر يغير العباقرة وجه العالم . أما السعادة الفردية فأنانية رخيصة لا يفيد منها صاحبها إلا على حساب خير الناس ونطور الدنيا . . . فاذهب بسلام يا أبولونيوس ولا تعذبنى . . . إنى أتمزق فاشفق علىّ . . .

فأخذ الشاب يديها بين يديه ، وطفق يلثم أصابعها ويردد :

ــ أنت تحبيننى . . . لا تقتلى نفسك .

فقالت وهى تزفر :

ــ إنما أنت الذى تقتلنى . . . عبثاً تحاول . لن أكون لك ولا لغيرك . انصرف ولا تدعنى أكرهك ، ولا تضطرنى إلى الصياح وإيقاظ والدى ! . . .

فامتقع وجه الشاب ، وتصدع بدنه ، وخيل إلى الفتاة أنه سيتداعى ويسقط . فطوقته بذراعها ، ومالت إليه بفمها ، وطبعت على جبينه الناصع

البياض قبلة . ثم دفعته نحو النافذة فى حنان ، وقالت له وهى تلهث :
ــ أنت أخى . . . الوداع . . . الوداع يا أخى !
فرفع إليها الشاب بصره الحانق . فألفاها جامدة كأنها تمثال . فأيقن أنها لن تضعف ولن تتحول . فاشتد سخطه وحنقه . ولكنه تماسك ، وهز رأسه كمن يتوعد . ثم استجمع قواه ، ووثب من النافذة ، وارتمى على الشاطئ .

وعندئذ فقط ، شخصت الفتاة إلى طيفه ، إلى طيفه الذى كان يسرى على حافة البحر الهادر ثم مدت ذراعيها فى جنون ، ثم ردتهما فى فى تشنج ، ثم انتفض بدنها كله . فأوصدت النافذة ، وبكت . . .
ولكن من هى هذه الفتاة ، من هى هذه الانثى التى لم تشأ أن تكون أنثى ، ولم تشأ أن تكون حبيبة وزوجة وأماً ، ووهبت نفسها للفكر المجرد مدى الحياة ؟ . . .

هى الفتاة العظيمة « هيباتيا » ، بنت الفيلسوف « تيون » ، التى ولدت فى الإسكندرية عام ٣٧٠ للميلاد وماتت عام ٤١٥ ، والتى أشربها والدها حب الرياضيات والفلسفة . فاشتهرت بشرح فلسفة أفلاطون وأرسطو ، ونشرت الثقافة اليونانية فى بلاد الشرق . فأسند إليها كرسى الفلسفة فى جامعة الإسكندرية .

وكان الصراع إذ ذاك على أشده بين الفكر المسيحى النامى ، وبين الفكر اليونانى والفلسفة اليونانية . وكانت الإسكندرية ميدان هذا الصراع . فانقسم كهنة النصارى إلى فريقين : فريق متطور مستنير لا يخشى على الدين من العلم ، ولا يرى أى خطر على الدين من الثقافة بل يقول ان المعرفة الشاملة غريزة فى الإنسان وأن الدين يأمر بها وأن فلسفة أفلاطون نفسه هى فلسفة معنوية روحية تؤيد تعاليم الدين وتدعمها . وفريق متأخر

متزمت متعصب يدعو إلى الإيمان مقروناً بالجهل . ويخشى من الثقافة على الدين ، ويقول ويؤكد إن الكتاب المقدس قد وعى كل شىء ، وأن هذا الكتاب يغنى الإنسان عن غيره ، وأن من واجب المؤمنين المخلصين أن يحاربوا المعرفة الحرة ، وأن يقاوموا ما استطاعوا كل من يدعو إلى نشر ثقافة اليونان باعتبار أن هذه الثقافة المستمدة من العقل البشرى الحر هى الكفر بعينه .

وكان على رأس هؤلاء المتعصبين الرجعيين كاهن يدعى (سيريل) ، وثيق الصلة بأوساط الشعب المتدينة الجاهلة ، يبشر فيها بآرائه الرجعية ، وينفث فى أفرادها روح التعصب ، ويحثها على مقاومة الأحرار من المفكرين ولو بالعنف .

هذا الرجل كان ألد أعداء هيباتيا ، كان يرى أن هذه الفتاة ذات الشعر الأسود الغزير والعينين الحادتين الخالبتين ، والانف الدقيق ، والفم الصغير ، والبشرة الناضرة ، هذه الفتاة التى يجتمع فيها جمال المرأة بعقل الرجل ، هى أخطر على الدين من أى رجل ، لأن جمالها يجذب الناس قبل ذكائها ، ويلقى فى روعهم أن ما تقوله هو الحقيقة التى لا ريب فيها .

بيد أن « أورست » حاكم الإسكندرية المشبع بثقافة اليونان ، كان يذود عن هيباتيا ويحميها . فاشتد العداء بين الحاكم والكاهن . فاستند الحاكم إلى سلطته ، واستند الكاهن المتعصب إلى نفوذه وتأثيره فى الأوساط الجاهلة من جماهير الشعب .

وهكذا كانت هيباتيا ، وظل الحاكم يرعاها ، تقوم بتدريس الفلسفة اليونانية جهرة ، وتدعو إليها فى الجامعة والمنتديات ، وتعقد لها الحلقات فى الشوارع ، حيث تجلس هى على الأرض وحولها جمع من مريديها ،

يحدقون إليها بعيون ظامئة ، ويستمعون لصوتها العذب الرخيم وهى تشرح لهم كل خاف ومستغلق من آراء أفلاطون وأرسطو .

* * *

في صباح تلك الليلة التى تمزق فيها قلب هيباتيا والتى صارحت فيها حبيبها أبولونيوس بأنها ستهب ذاتها وحياتها لخدمة الفكر ولن تتزوج ، خرجت الفتاة من بيتها ، متشحة بمئزرها الابيض ، وشعرها الغزير يتهدل على كتفيها ، ومشت مرفوعة الرأس ، منصوبة القامة ، واتجهت بخطى وئيدة صوب صخرة عالية قائمة على الشاطئ ومطلة على البحر .

ولم تلحظ وهى تمشى أن عينا ترقبها ، ورجلاً متسللاً يتبعها . فظلت تمشى حتى بلغت الصخرة فارتمت عليها ، وتفرست فى البحر ، وانطلق من صدرها الناهد شبه أنين . وما هى إلا فترة حتى أقبل عليها مريدوها ، والتفوا حولها ، وهتفوا لها . فاندس بينهم رهط من الدهماء أتباع الكاهن المتعصب سيريل ، وطفقوا هم أيضاً يهتفون ويهللون .

وابتهجت الفتاة بهذه التحية وشرعت تعلم وتقول فى صوت جهير :

— الله معرفة ونور . وهو جل جلاله إذا كان قد أودع نوره قلوب الرسل والأنبياء ، فذلك ليقبس الإنسان النور منهم ، ويدرك أن فى وسعه بهذا النور أن يفكر بعقله المستقل ويتصل بنور الله نفسه . فالفلسفة لا تعترض الدين . إذ الدين عاطفة وضمير . والفلسفة بحث فى أصل هذه العاطفة وهذا الضمير ، إعلاء لشأن الإنسان ، وتمكيناً له من فهم سر وجوده ، ومعالجة شئون دنياه ، والجمع بين ضميره الدينى وعقله البشرى فى وحدة واعية ورائعة ترمز إلى الوحدة الكاملة الكبرى التى هى الله .

وصمتت هيباتيا وقلبها يخفق ، والعرق يتصبب على وجهها الساحر. فهتف لها المريدون ، وانبرى لها المتعصبون ، وطفق بعضهم يجادلها ، والبعض الآخر يسفه آراءها ويزجرها ، وهى متحملة وصابرة ، ترد على هذا ، وتفحم ذاك ، وتخاطب الكل فى عبارات سمحة رقيقة ، تشفعها بالمنطق المحكم والبرهان المتين .

وفجأة ، وبينما هى تتكلم ، ونشوة الفكر تجرفها ، وحماسة المجاهدة والإقناع تلهب عينيها الفاتنتين وتشيع فى بدنها المختلج وقدة الحمى ، ظهر الرجل المتسلل الذى كان يتبعها ، واقتحم الجمع المحتشد ، واستقام بغتة أمامها .

وحدقت إليه هيباتيا ، وعرفت فيه أبولونيوس ، فارتجفت .

ولم يكن من عادة الشاب المترفع المستكبر أن يؤم حلقاتها ويجلس بين صفوف الشعب . فتفرست فيه واستغربت ولم تفهم . . . أما هو المفتون بها ، والمحترق بحبها ، والناقم على صدها وإعراضها وما أخذت به نفسها من تبتل وتضحية وحرمان ، فقد كان يعلم أن حماية الحاكم مبسوطة عليها ، ويعتقد أن ليس فى مقدور الكاهن المتعصب وأنصاره أن يصيبوها بأى أذى . فأضمر فى نفسه أن يكون هو الذى يعترضها ، وهو الذى يتحداها ، وهو الذى يثير ثائرة المتعصبين عليها . حتى إذا ما أطمعهم فيها وأبصرهم يصرخون ويلعنون ويلتئم جمعهم فى شكل مظاهرة تهدد حياتها وتهدد الأمن والنظام ، أسرع وشق صفوفهم ، وحمل الفتاة إلى دار الحاكم ، ثم التمس منه بوصفه رئيس حرسه وصديقه أن يقيل هيباتيا من وظيفتها فى الجامعة ، ويأمرها بالكف عن نشر الفلسفة والعلم شفقة عليها ورحمة بها وإقراراً للنظام فى المدينة المضطربة المنقسمة

على نفسها . وعندئذ تدرك الفتاة أنها أصبحت فى الإسكندرية عامل فوضى ، وأنها امرأة ، وأن تدريس الفلسفات والعلوم ليس من شأنها . فتفكر مكرهة فى مصيرها ، وتضطر إلى التزوج بأبولونيوس .

هذا ما أضمره الشاب الذى كان قد أقبل مصحوباً بخمسة من أتباعه رجال الحرس . فلما سمع الفتاة وهى تبشر بتعاليمها ، وأبصر المتعصبين الساخطين متربصين بها ، لم يتردد ، وتوسط الجمع المحتشد ، ولوح بذراعه ، وصرخ فى وجه هيباتيا :

ـــ هذا كلام الزنادقة والكفرة يا فتاة ! . . . لن نؤخذ به ، ولن ندع العقل البشرى الناقص يستكبر على القوة التى خلقته ! . . . الدين والعلم لا يتفقان . . . نحن لسنا فى حاجة إلى علم . . . فى الكتاب المقدس وحده كل الحقيقة وكل العلم ! . . .

فانبعثت غمغمة هادرة من بين صفوف المتعصبين . وذهلت هيباتيا ، وجحظت عيناها ، وأيقنت أن أبولونيوس يريد أن ينتقم منها . ولكن جماعة المريدين الأوفياء تصدوا لنقاشه ، وثبتوا فى وجهه ، وهددوه بالشكوى إلى الحاكم نصير العلم . فقال لهم إن مهمة الحاكم هى الذود عن الأمن ، وإن هيباتيا تنشر الفوضى ، وإنه بوصفه رئيس الحرس والمقدم على زعيم الشرطة نفسه ، يجب أن يصون سلامة المدينة وحياة الحاكم ويفض كل مظاهرة وكل اجتماع .

وتحول نحو الفتاة وصاح :

ـــ طاردوها . . . إلى بيتها ! . . .

فتشجع عليه أنصار الكاهن سيريل ، وهال الفتاة من أبولونيوس أن ينقلب حبه الشديد لها إلى بغض . فتفطر قلبها ، وهمت مع ذلك بأن ترد عليه فى تسامح ورفق . ولكنه لم يمهلها ، والتفت إلى الجمع يستفزه ويثيره

واستطرد :

ــ هذه المرأة عدوة الله . . . لا يجب أن تتكلم ، أو تكتب ، أو تظهر فى الشوارع أو فى أى محفل عام . . . طاردوها . . . إلى بيتها . . . إلى حيث تغزل الصوف وتدرك أنها امرأة !

وأعماه حبه وحنقه . فاندفع أنصار الكاهن المتعصب ، وبرزوا من بين صفوف الجمع الزاخر ، ملوّحين بقبضاتهم ، مهددين بعصيهم ، منقضين على المريدين والفتاة وهم يرددون :

ــ إلى غزل الصوف يا امرأة . . . إلى غزل الصوف . . .

واتقدت المظاهرة التى كان ينشدها أبولونيوس . فأسرع وأهاب بأتباعه الخمسة رجال الحرس ، وأمرهم بأن يحملوا هيباتيا إلى قصر الحاكم . ولكن الفتاة التى أسخطها مسلك حبيبها ، والتى كبر عليها أن تنكر رسالتها ، وتضعف وتستخذى أمام الجماهير الجاهلة المتعصبة الظالمة ، نحت عنها رجال الحرس فى عنف ، وصاحت بأعلى صوتها :

ــ هذا الرجل يخدعكم . . . يريد أن يسومكم الجهل والفقر باسم الدين لينعم هو وأمثاله بالدنيا على حسابكم . . . الدين هو العدل . . . الدين هو العلم . . . الدين هو الحرية . . .

فصرخ متعصب مجذوب :

ــ إنها تجدف . . . تقول إن علمها هو الدين ، وإذن فالعلم فى زعمها يحل محل الله . . . لا ترحموها . . .

وعندئذ انفجر مرجل التعصب فى صدور الجماهير . فتصايحت وتنادت وتكاثرت ، وخرجت من شتى الأزقة والدروب ، واجتاحت

المريدين ، وأطبقت على أبولونيوس الذى لم يقدر لفرط كبره وحنقه بأس الكاهن سيريل وأتباعه ولم يتوقع انقلاب المظاهرة إلى ثورة . فاستل خنجره ليحمى هيباتيا ، وأمر جندياً من رفاقه بأن يسرع ويدعو فرقة الحرس . وكان وأصحابه الأربعة مشهرين سلاحهم ، مطوقين الفتاة بأذرعهم ، والفتاة تنظر مبهوتة إليهم ، وقد فطنت الآن فقط إلى النية البعيدة التى انطوى عليها مسلك أبولونيوس ، وأدركت وهى تتفطر أن حبه الأنانى هو الذى دفعه وأعماه . . . وظل الشاب يذود عنها ، ويحاول أن يكبح الجماهير حتى يخف إليه من ينجده . ولكن الجماهير الثائرة كانت قد تنبهت ، وأسرعت وقبضت على الجندى وحالت بينه وبين طلب النجدة . ثم كرت على أبولونيوس ورجاله . فطعن أحدهم بخنجره فرداً منها . فهاج هائجها ، وارتمت على أبولونيوس وصحبه ، وأوسعتهم ضرباً وركلا ثم غافلتهم وهم يدافعون عن الفتاة وأنفسهم مستبسلين ، وانتزعت هيباتيا من أيديهم ، وجرتها إلى وسط الطريق العام ، وطفقت تقتلع الأحجار من الأرصفة والشاطئ وتنهال بها رجماً على الفتاة .

وكانوا يقذفونها بالأحجار وهى مذعورة وتائهة ، مخبولة ومستسلمة ، تتطوح كالغريق والدم ينزف منها ، وعينها الزائغة البائسة المقهورة ترمق حبيبها والجماهير بنظرة ملؤها الشفقة والرثاء والحسرة .

وحيال هذا المشهد المروع جن جنون أبولونيوس . فوثب كالوحش الكاسر ، واندفع يضرب بخنجره كل من يعترضه ، ويحاول أن يبلغ الطريق العام كى ينقذ هيباتيا قبل أن تفتك بها الجماهير .

وما إن اخترق الصفوف متبوعاً برجاله ، وهم بأن يتجه صوب الفتاة ، حتى أبصر فرقة الفرسان التى كان قد بلغها النبأ من أحد المريدين تقبل مسرعة . فأبرقت عيناه ، واشتد عزمه ، واندفع أيضاً يريد أن يختطف

هيباتيا وينطلق بها . ولكن الجماهير التى غاظها مقدم الحرس ، لم تتفرق ، بل تجمعت وتساندت وأمعنت فى رجم الفتاة . فتمزق بدنها ، وتهشم رأسها ، وتهاوت وسقطت على الأرض . فقفز إليها أبولونيوس وجعل يهزها ويناديها ، والجماهير تسدد إليه أذرعها ، والأحجار تتساقط من كل صوب عليه .

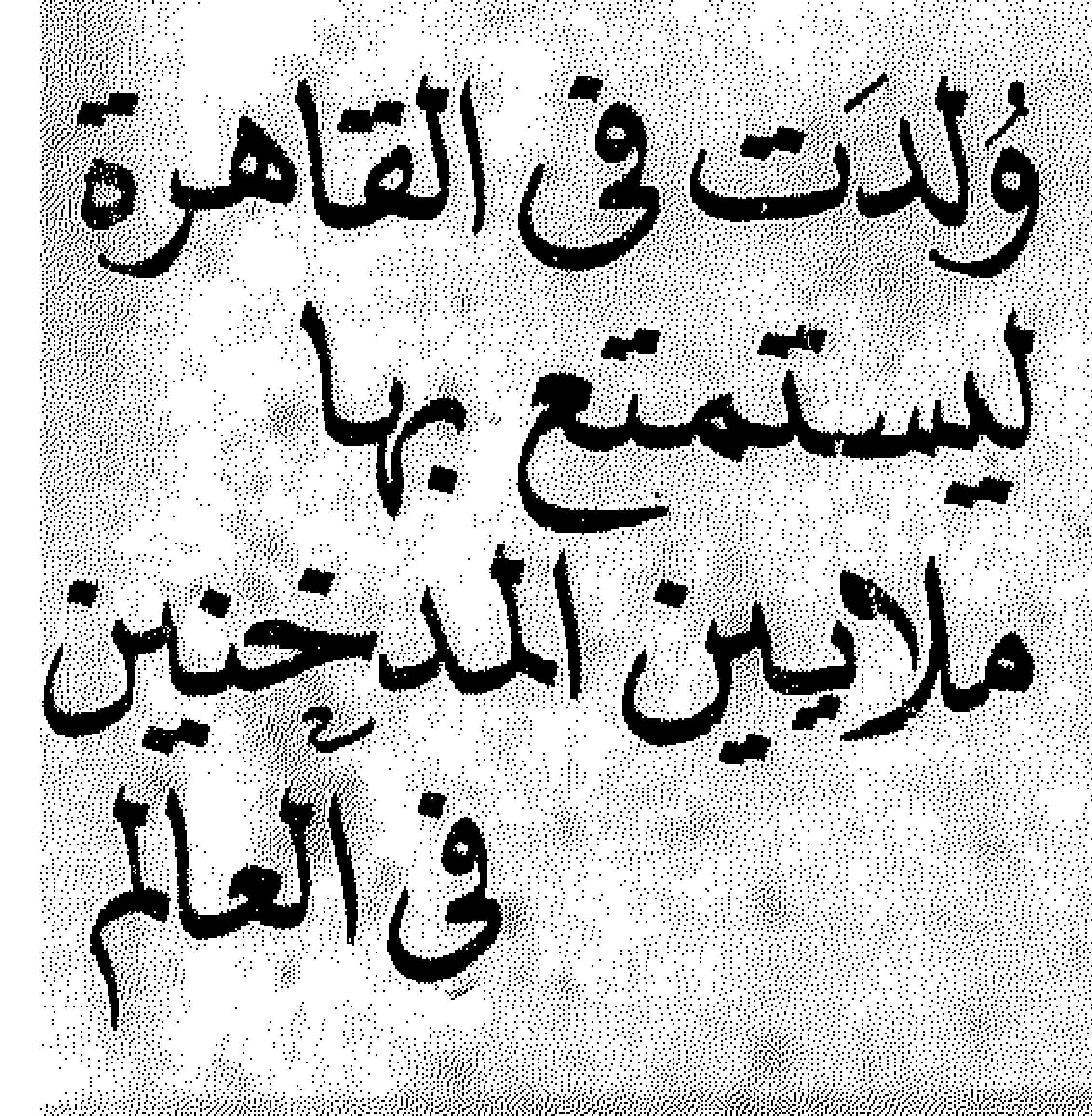
ولما ألفاها جثة شوهاء لا حراك بها ، تاه عقله ، وتقطع قلبه ، واشتعل حبه وضميره . فلم يستطع أن يتصور كيف أقدم على هذه الفعلة ، وكيف يمكنه أن يعيش فى الغد بعد هيباتيا . فلم يعبأ بصرخات فرقة الحرس التى كانت تستنهضه وتحذره وتحثه على ترك الفتاة ، بل جثا على الأرض ، على الأرض الصلبة الغاشمة الحمراء ، وضم حبيبته إلى صدره ، ثم قبلها ، وترك الأحجار كوابل المطر تنهمر عليه .

وهكذا مات أبولونيوس مكفراً عن حبه الأحمق المستكبر الأعمى ، وذهبت الفتاة العظيمة هيباتيا ضحية أنانية الرجل ، وفريسة التعصب ، وشهيدة حرية الفكر والضمير .

فهرست الكتاب

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر







سيجارة كليوباترا

المستوردون الوحيدون

- الكويت : عبد العزيز سعود البابطين
- الإمارات المتصالحة وقطر : يوسف حبيب وإخوانه
- البحرين : المؤسسة التجارية الشرقية
- العراق : طالب مصطفى خان
- اليمن : شركة التبغ والكبريت الوطنية
- عدن والجنوب العربى : وكالة الأهرام التجارية
- غزة : عيسى سليم وأولاده
- المملكة العربية السعودية : عبد الوهاب محمد على بحراوى
- الجزائر : الشركة الوطنية للتبغ والكبريت
- دول غرب أفريقيا : فروع شركة النصر للتصدير والاستيراد

انتاج : الشركة الشرقية "ايسترن كومبانى" ش.م.م بالجيزة

إحدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية

اقرأ

الصيدلة

علم وفن وإنسانية

الدكتور جورج وهبة العفى

دار المعارف بمصر

الصيدلة
علم وفن وإنسانية

الدكتور جورج وهبة العفى

الصيدلة
علم وفن وإنسانية

اقرأ ٢٨٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٢ — يونية سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

« فيه شفاء للناس »
قرآن كريم

الصيدلة علم وفن وإنسانية

من هو الصيدلى ؟

يبدو أن معرفة الكثيرين بصاحب هذه المهنة لا تزيد عن شرائهم الأسبيرين أو الفيتامينات أو العقاقير التى يصفها الطبيب المعالج من حبوب أو حقن أو شراب ،وما قد يجرى من حديث بين المريض والصيدلى عن طريقة تناول الدواء .

لم تكن الصيدليات فى عهودها الأولى سوى حوانيت تبيع أنواعاً كثيرة من الأعشاب الطبية أو أوراقها وزهورها والبذور والثمار والجذور فى صورتها الطبيعية أو على هيئة مسحوق أو مغلى . كالراوند والحنظل والصبر والشيح وخشب الكينا والقرفة ومسحوق العرقسوس و (البلادونا) وثمار الخشخاش وبذوره والحبهان والشمر والنعناع واليانسون ، وبعض الأملاح مثل سلفات الصودا والمانيزيا والملح الإنجليزى وغيرها مما كانوا يعترفون بفوائده الطبية .

وازدادعدد الأعشاب واستخرجت منها الخلاصات بالغلى والتركيز ، أو بواسطة الكحول . وأضيفت أملاح معدنية جديدة كأملاح الحديد والبزموت والزئبق والكبريت والبروم واليود والفوسفور والزرنيخ . وتحولت محال العطارة إلى صيدليات بعد أن أصبحت تقوم بتحضير الأدوية من أشربة وحبوب ومساحيق ومراهم . حسب مواصفات متفق عليها تحولت فيما بعد بما أدخل عليها من تعديلات علمية إلى دساتير طبية مكتوبة وطرق

معينة للتحضير ، ومعايير تقيس وتزن العناصر الداخلة فى تلك الأدوية بعناية ودقة . وقفزت صناعة الدواء منذ نصف قرن تقريباً من أعشاب وخلاصاتها وأملاح معدنية بسيطة إلى مركبات كيماوية عضوية بفضل الكشوف التى قامت بها معامل الكيمياء عندما بدأت تنمو وتزدهر وأخذت تضم إلى مصانعها معامل ومعاهد للأبحاث يعمل فيها أساتذة جامعيون وأطباء وصيادلة وكيماويون يستنبطون كل يوم أدوية جديدة . فأخرجوا للعالم الأنسولين والطعوم والأمصال والسلفا والبنسلين وأنواع (المايسين) والهورمونات والفيتامينات وألوفاً من المركبات الكيماوية تستخرج من عناصرها الطبيعية . ثم أصبح فى الإمكان تحضير عدد كبير منها بطرق كيماوية تركيبية وبكميات ضخمة فانخفضت أثمانها إلى حد أنها أصبحت فى متناول الجميع .

وكانت تلك المستحضرات الطبية الجديدة علاجاً سحرياً ناجعاً لأمراض وحميات كثيرة كانت تودى بحياة الملايين كل عام .

لقد قدمت الصيدلة للمجتمع الإنسانى خدمات عظيمة قام بها صيادلة وكيماويون من بينهم أسماء خلدها التاريخ وأخرى لجنود مجهولين تعرف البشرية بكشوفهم وجهودهم وتضحياتهم .

ومنذ بدء الخليقة عرف الإنسان الصيدلة والعلاج بالعقاقير وآمن بقدرتها على شفائه من أمراضه . وإن كان قد خلط فى بعض الأحيان بين الشفاء بواسطة الدواء والسحر والآلهة . ثم تقدم إلى الأمام خطوات ، ومرت ألوف الأعوام وأصبح فى متناول يده طرق واضحة للعلاج وأدوية جربها المرضى .

وكلما ازدادت المدنية تقدماً بفضل الكشوف العلمية وتطور الصناعة عامة ، ومن بينها صناعة الأدوية ، ازداد عدد تلك المستحضرات الطبية ذات الفائدة المجربة ووضحت مهمة الصيدلى كرجل توكل إليه عملية تحضير

الأدوية ، وأصبح لكل من الطبيب والصيدلى عمله الفنىّ الذى يختص به حتى كان ازدهار الحضارة العربية وظهر الصيادلة لأول مرة فى التاريخ . وأنشئت الصيدليات ووضعت دساتير وقوانين خاصة بها . وقامت الدولة بالتفتيش عليها ومراقبتها فأصبح للصيدلى مهنته ذات المسؤولية الخطيرة وصاحبها موضع ثقة الدولة والشعب .

واشتغل الصيدلى حينذاك بتحضير العقاقير من الأعشاب وأملاح المعادن . وأحب مهنته وشغف بالعلم والبحث وأخذ يجرى التجارب على



السيماويون فى معملهم

المواد الكيماوية والخلاصات المختلفة باحثاً عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة، تلك التى كان لها أعظم الفضل فيما وصلت إليه الكيمياء فى العصر الحديث من كشوف رائعة ومعجزات لم يكن يحلم بها الأجداد .

كانت ألغازاً غامضة وأسراراً مغلقة أمام ذلك الكيماوى الذى أطلقوا عليه اسم السيماوى Alchemiste يحاول بواسطة أجهزته الصغيرة التى يعدها بنفسه أن يفتح مغاليق أسرارها ويفيد منها لتحقيق أحلامه بالحصول على الإكسير الذى يطيل الحياة، وحجر الفلاسفة ليحول معادن، كالنحاس إلى ذهب، ودفعتهم آمالهم وأحلامهم إلى إجراء البحوث والتجارب فى حوانيتهم، وجعلوا ركناً منها كمعامل يعدّون فيها أجهزتهم ويجرون تجاربهم .

إن قصة السيماويين أشبه بقصة ذلك الرجل الذى أوصى أولاده قبل وفاته بالبحث عن كنز من الذهب مدفون تحت أرض المزرعة . . وحفر أبناؤه كل أجزاء الحقل إلى أعماق بعيدة ولكنهم لم يعثروا على أى أثر للذهب، وعندما عادوا إلى زراعتها من جديد بعد المجهود الذى بذلوه فى تقليب تربتها عادت عليهم بمحاصيل وافرة وأدركوا ما كان يقصده أبوهم .

وكذلك أيضاً كانت الثمار الجليلة الفائدة التى جناها رجال الكيمياء الأوائل من جهودهم وتجاربهم ودراساتهم وبحوثهم فى سبيل الحصول على الذهب ، فكانت خيراً للإنسانية أعظم قدراً من الذهب .

بدأت تلك العمليات الكيماوية الساذجة أيام ازدهار العلوم فى الإسكندرية فى مصر القديمة، ثم عند العرب الذين نقلوها معهم إلى أوربا، وازداد عدد أولئك الكيماويين الأوائل خلال عدة قرون ، يعدون العقاقير لشفاء المرضى . ويبحثون عن خواصها السحرية حتى يتاح لهم تحضير إكسير الحياة أملا فى إعادة الشباب إلى الشيوخ . بل طمعوا فى أن

يمنحهم ذلك الإكسير حياة الخلود . ثم تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نبيلة .

ولكنهم بالرغم من تنقيبهم وتجاربهم لم يصلوا إلى إكسير الحياة ولا إلى حجر الفلاسفة . ولكن ما بذلوا من جهود لم تضع سدى بل هي الأساس لكيمياء اليوم ،والأدوية التي تزخر بها الصيدليات ومعامل الكيمياء ليست فقط للأغراض الطبية ، بل في جميع مظاهر تقدم الأجيال الحاضرة في الزراعة والصناعة .

لقد كان لهم الفضل في الكشف عن حامض الكبريتيك والنتريك وماء الذهب والأنتيمون والزرنيخ والزنك والبزموت والفوسفور والنشادر والأملاح المعدنية الهامة ، والكؤول والأثير وملح البارود وأجهزة للترشيح والتقطير والتصعيد والترسيب والباورة والتنقية وغيرها ما زالت تستعمل حتى اليوم .

ألم تتحقق آمالهم بعد مئات الأعوام ؟!... وحولت الطاقة الذرية المعادن بعضها إلى البعض الآخر . وأضحى في مقدور العلم أن يحول المعادن الخسيسة إلى معادن نبيلة ، وإن كانت حتى يومنا هذا باهظة التكاليف ، فسوف يأتي يوم يتسنى ذلك بنفقات اقتصادية وطرق عملية .

لم تكن العقبات لتثنيهم عن متابعة عملهم وبحثهم بالرغم مما اتهموا به من سحر وكذب وغش . وليس معنى ذلك إنكار وجود فئة من بينهم اتخذوا الغش والخداع وسيلة للكسب . ألا يوجد مع الذهب والفضة وغيرهما من المعادن الثمينة من الأقذار والأوساخ مايسمى بالخبث لا يلبث أن ينفصل عند التنقية .

كان الكيماويون الأوائل يدرسون ويبحثون من أجل لذة العلم وخير الإنسانية ، يعملون أحياناً في جو من القلق والاضطراب والتهديد بالعقاب

والموت أحياناً . فحنين بن إسحاق الذى أراد الخليفة اختبار أمانته ، فأوعز إليه بوضع السم فى طعام أحد أعدائه فرفض وبقى فى السجن عاماً كاملا . وصمم على الرفض مرة ثانية بعد أن دعاه الخليفة من السجن — حتى لو أدى ذلك إلى الموت . . ولكن الخليفة كان يريد اختبار صدق أمانته وكافأه أجزل المكافأة .

وروجر بيكون الذى رفض أن ينكر كشوفه ، فقضى بقية عمره سجيناً . وترك ابن سينا وجابر بن حيان والرازى والبيرونى وابن الهيثم وغيرهم ، مئات الكتب والبحوث فى الطب والصيدلة ومختلف ألوان العلوم والفنون والآداب . ظل بعضها يدرس فى جامعات أوربا حتى أوائل القرن السابع عشر بالرغم مما كان يتخلل حياتهم أحياناً من سجن ونفى وتشريد أو تهديد بالموت .

ومن أعظم من جاء بعدهم (باراسلوس) فى القرن السابع عشر ، وبالرغم من أنه أحرق مؤلفات من سبقه من الأطباء والكيماويين من أمثال أبقراط وجالينوس وابن سينا وجابر بن حيان وغيرهم من الخالدين ، إلا أنه أسس الكيمياء الحديثة التى تقوم على إجراء التجارب العملية .

وفى أواسط القرن الثامن عشر ظهر فجر جديد ، وأخذت علوم الكيمياء والصيدلة القائمة على الدراسة والبحث العلمى تحتل المكان اللائق بها فى عالم العلوم الحديث .

إن قصة الصيدلة منذ العصور الأولى للتاريخ ليست قصة العقاقير فحسب . بل هى صفحة من تاريخ كفاح الطب والصيدلة ضد المرض كفاحاً إنسانيا عظيماً جديراً بأن نتتبعه خلال العصور المتعاقبة منذ كان الطبيب والصيدلى رجلا واحداً . بل منذ كان المريض هو الصيدلى والطبيب الذى يجرب بنفسه الأعشاب المختلفة . ثم تطور المجتمع وارتباطه الوثيق بالطب والصيدلة حتى وصل إلى الصورة التى يرى عليها اليوم .



أحد معامل البحوث الكيماوية للدواء

والصيدلة كغيرها من المهن تتجه إلى الاشتراكية الإنسانية المثلى . بل إنها سارت شوطاً بعيداً فى تحقيق اشتراكية العلاج والدواء والوصول إلى نظام شامل للتأمين الصحى لجميع طبقات المجتمع .

والحياة فى تطور مستمر . وحياة الصيدلى فى ميدان مهنته مغامرة رائعة إذا عرف كيف يعدّ لها ويدرس ما يتوقعه من تغييرات تلائم ظروف الحياة وتقدمها . وليتوفر للوطن أولئك الذين يعملون من أجل مهنتهم لا يقيسون عملهم بما وراءه من كسب مادى بل ينظرون إلى أداء خدمات عامة للمجتمع قد لا تعود عليهم بالثروات الضخمة إنما بإرضاء ضمائرهم ويشعرون أنهم قبل كل شىء يعملون من أجل خير الإنسانية .

وقد تفتحت أمامهم أوسع الآفاق للنجاح فى مهمتهم بما أقيم من مصانع للكيماويات تمد البلاد بحاجتها من المواد الأساسية اللازمة لتركيب الأدوية والعقاقير الجاهزة وأغذية الأطفال المحفوظة كالألبان المجففة والتفاح والجزر والخروب . ثم البحث عن الأملاح وخاماتها المعدنية التى تزخر بها أراضى الجمهورية العربية وجبالها وصحاريها وبحارها والاستغناء بذلك عن استيرادها من الخارج .

وكذلك التوسع فى زراعة النباتات الطبية والعطرية والعثور على أنواع جديدة ذات فوائد طبية أكيدة عن طريق إجراء التجارب عليها فى معاهد البحوث ومصانع العقاقير وفى المستشفيات .

لقد قامت شركة النصر للأدوية فى أبى زعبل . هذه المدينة الدوائية الضخمة التى كانت حلماً طالما راود الأطباء والصيادلة بل أهل الوطن جميعاً فحقق الله آمالهم إذا لم تترك الثورة ميداناً تستفيد منه البلاد دون تحقيقه تحقيقاً كاملا وعلى أوسع نطاق . وبفضل هذه المصانع ومصانع مؤسسات مصر وممفيس وتنمية الصناعات الكيماوية والإسكندرية (نصار) ودوش والقاهرة وغيرها ومشاركة بعض المصانع العالمية فى إنشاء مصانع لها

فى الجمهورية العربية المتحدة تصنع أدويتها ذات الشهرة العالمية محلياً . فقاربت البلاد حد الاكتفاء الذاتى . بل أخذت فى تصدير جزء من منتجاتها إلى بلاد الوطن العربى وإفريقيا . . .

ومنذ عامين تقريباً أنشىء مركز البحوث الدوائية ترتكز عليه صناعة الأدوية لتخريج أجيال جديدة من الكيماويين والصيادلة الإخصائيين فى مختلف النواحى الفنية .

إن الصيادلة العرب يذكرون دائماً أنهم أمناء على إرث علمى ضخم من أسلافهم الرواد الأول من الكيماويين والصيادلة العرب والمصريين القدماء . وإنهم بدورهم سيقومون بتخليد أزهر العصور علماً وتقدماً وازدهاراً فيزيدون هذا الإرث بكشوف وأبحاث جديدة تزيد من مجد وطنهم العربى الإفريقى الكبير ويكون شعارهم دائماً : « الفخر بمهنة الصيدلة تلك التى يزداد قدرها بالعلم والتضحية والعمل والشعور » .

بدء الصيدلة

عرف الإنسان الصيدلة منذ العصور الأولى للتاريخ . فعندما شعر الإنسان الأول بالآلام والأمراض حاول أن يعثر فيما حوله من ماء ونباتات عن علاج لتلك الأوجاع وكان الماء دون شك أول عقار استعمله لإطفاء ظمئه وتخفيف آلامه . ثم بدأ يجرب النباتات والمعادن فوجد من بينها ما كان علاجاً سحرياً لأمراضه فاحتفظ به ووصفه لأهله الأقربين والبعض الآخر كان ساماً وأضر به فابتعد عنه . وبذلك كان الإنسان الأول هو الطبيب والصيدلى والمريض فى نفس الوقت .

كان العلاج فى العصور الأولى للتاريخ خليطاً من الكشوف التى وقع عليها الإنسان بغريزته الفطرية كما كان نتيجة للتجارب والمحاولات التى يصيب بعضها ويخطئ البعض الآخر .

فالكلب إذا عضته حشرة جرى نحو الطين وغطى موضع الألم به . ورأى الإنسان أنه إذا قلد الكلب فى علاجه الذى أملته الغريزة فسوف يجد علاجاً مماثلا . والجاموس تنزل إلى الماء ليس فقط هرباً من حرارة الشمس بل للتخلص أيضاً من الحشرات التى تعلق بجسمها . وحيوانات أخرى تغطيه بطبقة من الطين أو تنظفه بلسانها لوقايته كما تفعل القطط .

وربما كانت مراقبة الإنسان الأول للطبيعة وما فيها من حيوان وطيور وكيف تعالج نفسها من الأمراض بعض الطرق التى استعملها فيما بعد . ويلاحظ أحياناً ميلا خاصاً لتناول نوع من الغذاء أو الشراب فيستنتج أن الطبيعة هى التى تقود خطانا . فالحامل ترى أحياناً دون وعى منها تأكل من الطبقات الجيرية التى تغطى جدران المنازل لافتقار جسمها إلى المواد الجيرية .

ويعرف الأطباء مرضى كثيرين يتناولون قدحاً من القهوة لتنشيط الدورة الدموية أو المواد الحرّيفة أو الحمضية تدفعه الغريزة إلى تناولها لمسيس حاجته إليها دون شعور منه .

ويرجح أن تكون المرأة وهى التى تعنى بصحة زوجها وأولادها قامت بتمريضهم وتنظيم غذائهم فتمنع عنهم بعض الأطعمة وتقدم لهم أغذية خاصة أخرى وتهيئ لهم أسباب الراحة والتدفئة والتدليك أو بتناول مزيج من الأعشاب المغلية تجمعها من الغابة وقد اكتسبت بالتجربة خبرة للتعرف على كل نبات وخصائصه العلاجية والتميز بين السام منها وغير السام .

تفيد أحياناً هذه الطرق فيشفى المريض، وكان هذا هو الطب الواقعى كوضع الأعشاب أو اللبخات أو الطين موضع الألم والمكمدات الباردة أو الدافئة والحقن الشرجية والدهانات للحروق والجروح . ويحدث أحياناً أن جميع المحاولات لشفاء المريض تبوء بالفشل ويموت المريض بمرض غريب . فاعتقد الإنسان البدائى أن الموت قبل الشيخوخة بمثل هذه العلل ظاهرة غير طبيعية لابد أنها جاءت عن طريق قوى غامضة لا يستطيع إدراكها أو التحكم فيها . . ربما كانت الأرواح الشريرة التى لا يستطيع محاربتها وحده . بل عليه أن يبحث عن وسيلة يحمى بها نفسه . هذا العدو الذى لا يراه ولكن شبحه يخيفه ويهدده فى كل لحظة من حياته دون أن يستطيع الصمود أمامه أو محاربته والتغلب عليه ، هذا العدو هو الأرواح الشريرة التى تتعقب كل خطوة من خطواته وفى طعامه والماء الذى يشربه والهواء الذى يستنشقه وأثناء نومه . فإذا انتابه مغص حاد أو صداع فى رأسه أو آلام فى جسمه أو أصيب بالعمى أو انهارت قواه فلم يعد يستطيع الوقوف على قدميه والخروج إلى الغابة لجمع غذائه من الحيوانات والثمار فلا بد أن يكون مرضه عن طريق هذه الأرواح أو الشياطين

أو إنسان يريد له الأذى .

وأخذ يبحث عن تلك القوة التى تستطيع أن تتغلب على تلك القوى غير المنظورة . ووجد فى السحر ضالته . بل إنه هو الذى خلق ذلك الساحر عندما وضع فيه ثقته بأن لديه من القوى ما يمكنه من محاربة تلك القوى الخفية أو التوسل لدى إله قادر بأن يرفع عنه غضبه ويمنحه الشفاء .

وهكذا بدأت العقيدة فى السحر منذ العصور الأولى للتاريخ وما زالت آثارها باقية حتى اليوم فى كل أنحاء العالم ليس فقط فى آسيا وإفريقيا بل فى أوربا وأمريكا . وتعجب عندما تعلم أن أمراضاً كثيرة كان يشفيها هؤلاء السحرة بالرغم من عدم فهمهم للأمراض . إن نظرية الجراثيم والفيروسات التى بدأت كشوفها العلمية منذ باستور وكوخ فى القرنين التاسع عشر والعشرين كانوا يجهلونها فى الماضى ولكنهم كانوا يحسون بوجود شىء غير منظور يسبب الأمراض والأوبئة عبروا عنه بالشياطين والأرواح الشريرة .

وكانت عقاقيرهم التى وصلوا إليها خلال تجارب الأجيال المتعاقبة إلى جانب العلاج النفسى الذى يحتل فى المدنية الحاضرة مركزاً ذا خطورة هما أساس العلاج الناجح الذى كانوا يستعملون له الرقى والتمائم والتعاويذ السحرية تخفف من آلام المريض وتنجح فى بعض الأحيان من شفائه والتغلب على المرض .

استفاد الطب كثيراً من تجارب هؤلاء السحرة الأولين ومن محاولاتهم وإخفاقهم أحياناً ونجاحهم فى أحيان أخرى فى الكشف عن نباتات تساعد فى إحداث الشفاء وإن كانوا يعملون على إخفاء ذلك ويتظاهرون بأنه نتيجة للسحر وقوى خارقة للطبيعة . وكان هذا الطب السحرى هو بداية الطريق لتراث من العقاقير الطبية والنباتات التى ازدادت بمرور

آلاف الأعوام . وما زال بعض منها يستعمل حتى اليوم فى الطب الشعبي ومنها عقاقير ثبتت فوائدها وصارت جزءاً من الدساتير الطبية فى العالم . وأصبح الساحر أهم رجل فى القرية يهرعون إليه ويطلبون منه النجدة .

ولم يكن من اليسير لأى إنسان أن يتخذ السحر مهنة له ، وهو بمقام الطبيب والصيدلى فى زماننا والساحر الطبيب والكاهن فى عصور الفراعنة وأهل أشور وبابل والهنود والصينيين والإغريق وغيرهم . بل كانت هناك شروط يجب توافرها فيمن يريد أن يصبح الطبيب الساحر .

قد يكون الطبيب الساحر ذا قوة خارقة للطبيعة أو ذا شعور مرهف أو طبيباً نفسياً ماهراً عالماً بالعلاج الحقيقى للأمراض يعالج بها المرضى الذين يشكون من العلل العادية إلى جانب طرقه السحرية . وحتى يصبح الساحر والطبيب الماهر كان عليه أن يتدرب على يد ساحر قضى فى مهنته الأعوام الطوال حتى يعرف عنه العقاقير والأعشاب والطرق والأساليب السحرية التى كان يضطر أحياناً إلى بذل الكثير من الجهد والمال فى سبيل الوصول إليها .

وفى أغلب الأحيان كان أبناء الأطباء السحرة يحلون محل آبائهم وتنتقل وسائلهم السرية وطرق تطبيبهم عبر الأجيال لا تخرج عن عائلات معينة .

وعندما يصبح الطبيب والساحر للقرية أو القبيلة يرتدى ثياباً خاصة ويتناول أطعمة غير الأطعمة المألوفة ثم يعيش معتزلا لا يتحدث إلى أحد فى أمور الحياة العادية بل يصير الإنسان الغامض للجميع .

كانت الحال حرباً عواناً بين الساحر وبين الشياطين وأعمال السحر التى يعتقدون أنها سبب جميع الأمراض، وكانوا يطاردونها بالأقنعة المخيفة والأبخرة والروائح الكريهة الخانقة والأصوات المفزعة والتصفيق بالأيدى والضرب على الطبول والصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض

بواسطة أنبوبة مجوفة وحمل التمائم والرقى المضادة للسحر ، ثم تقديم القرابين والهدايا وتلاوة التعاويذ . ومن وسائلهم التى كثيراً ما كانوا يلجأون إليها أن يتناول المريض أشربة كريهة الطعم والرائحة حتى تضطر الأرواح الشريرة إلى مغادرة جسم العليل . وطريقة ثالثة أن يعالج بأعشاب أو أجزاء من النبات شبيهة فى شكلها بالعضو المصاب .

لم يبق من تلك الطرق البدائية للعلاج بالسحر أو التوسل للآلهة أو بالأعشاب وغيرها من العقاقير إلا ما يمكن مشاهدته حتى اليوم فى بعض مناطق العالم النائية عن العمران ، أو ما تركوه من نقوش وآثار فى مصر والعراق والهند والصين وإيران واليونان وبعض البلاد الأوربية والأمريكية . وهى آثار قليلة وجاءت فى أزمنة متأخرة كثيراً عن العصور الأولى للعلاج . ومن العسير أن نجزم بأن وسائل العلاج هذه كان أول ظهورها فى إقليم ما وانتقلت إلى غيره فى عصور تالية . ولكن هذه الآثار لها قيمتها البالغة لو عرفنا منها أعشابهم وطرق تطبيبهم . وما زال لبعض الأعشاب التى استعملوها قيمته الطبية المعترف بها .

فنبات (الراولفيا) الذى ذكرته أقدم كتب الطب الهندية كان يستعمل منذ آلاف الأعوام واعترف به الطب الحديث لوجود مادة (الرزربين) الفعالة لتهدئة الأعصاب وتخفيض الضغط المرتفع وتصنع منه حبوب وحقن يصفها الأطباء كثيراً فى الأعوام الأخيرة. وكان المهاتما غاندى الزعيم الهندى يتناول مغلى نبات الراولفيا العلاج الشعبى المعروف فى الهند ، ليساعده على تحمل أعباء مسؤولياته الضخام دون إرهاق لحالته النفسية .

وشراب الجنسنج الذى عرفته الصين منذ أقدم العصور وذكرته دساتير الصين المغرقة فى القدم ما زال حتى اليوم عقاراً معروفاً وشعبياً .

ويعد الصينيون منذ آلاف السنين لعلاج الاستسقاء شراباً من

مغلى جلود الضفادع ، وأثبتت بحوث العلماء فى أيامنا أن جلدها غنى بمادة (البوفاجين) المدر للبول و (الإدرينالين) ولهذا أيضاً فوائده الطبية المعروفة .

وإلى جانب الأعشاب الطبية توجد بين الأساليب الصيدلية التى كان يلجأ إليها الإنسان البدائى صنوف من المواد المخدرة التى أريد بها تخفيف آلامهم وجراحاتهم مثل القنب والأفيون والكافور وإلى سموم يضعونها فى أطراف سهامهم كالكيرار curare .

وازداد اهتمام العلماء فى العصر الحديث بالعلاجات الطبية القديمة التى كانت على صورة أشربة وخلاصات يأخذها المريض عن طريق الفم أو مساحيق تخلط بالزيوت النباتية أو الدهون الحيوانية كمراهم للحروق والقروح وأبخرة تستنشق أو حقن شرجية . وكثيراً ما كان يستعمل الدواء مع تلاوة التعاويذ السحرية أو الصلوات الدينية التى كان فى اعتقادهم أنها تزيد من قوة فعل الدواء . وبقيت بعض تلك العقاقير حتى اليوم واختفى البعض الآخر بتقدم الطب المعاصر، كما زاد الاهتمام بدراسة ما تركوه من آثار . وإذا عثروا على أوراق أو جذور جافة أو قطع متناثرة منها أو من سيقان الأعشاب أو زهورها أو بذورها أو ثمارها فكثيراً ما يلاقون الصعاب فى الكشف عن حقيقة النبات وهل اندثرت فصيلته أو نوعه أم يوجد حتى اليوم . ومعرفة ما إذا كان يحتوى على جواهر فعالة .

وتشاهد أهمية الساحر الطبيب عند الأفريقيين الوطنيين حتى اليوم . إنهم يعرفون جيداً مئات الأنواع من أشجار الغابة وأعشابها ونباتاتها العطرية والمعادن والأملاح وخواصها وفوائدها عن طريق التجربة عبر الأجيال المتعاقبة .

وفى استطاعة الساحر أن يقتل كما كان فى استطاعته أن يبرئ .

وكان الساحر الذى يقتل أو يؤذى أى إنسان منبوذاً فى المجتمعات البدائية الحضارة . ويطلق على سحرَه السحر الأسود. ومَن تثبت عليه تلك الجريمة الشنعاء يجب أن يعترف فوراً . فإذا أنكر قاموا باختبارات . ومن أهم تلك الاختبارات تجرع السم . فإذا كان بريئاً تقيأ السم ونجا من الموت . أما إذا كان يمارس السحر الأسود فلا بد أن يموت مسموماً . وكانت المواد السامة فى أنواع من الأعشاب يعرفونها تجمع بشروط خاصة وتحضر حسب طرق معينة وتركيز متفق عليه للسم فى الشراب .

إن اعتقادهم فى فعل السم كان يختلف تماماً عن الحقائق الطبية والكيماوية للمواد الفعالة به بأنه يقتل إذا وصل تركيزه إلى درجة معينة قد تبلغ أجزاء من المائة ألف أو عشرة آلاف أو أكثر أو أقل من ذلك . وتختلف مقاومة الأجسام فى حدود خاصة حسب قوة المادة السامة . فإذا زادت كميتها ولو قليلا جداً فالموت واقع لا محالة . أما القدماء فكانوا يؤمنون بأن العقاقير لا تأثير لها ألبتة على الإنسان سواء كعقار شاف أو سم قاتل إلا إذا كانت مصحوبة بالصلوات والتعاويذ .

وهناك اختبار آخر غريب كان معروفاً فى إفريقيا والهند وهو الماء . فللتأكد من ممارسة المذنب للسحر الأسود يلقى فى بحيرة أو نهر . فإذا طفا ثانية فوق سطح الماء تثبت عليه جريمة السحر لأن الماء نبذه فقذف به ثانية ويكون جزاؤه القتل . أما إذا كان بريئاً — كما يعتقدون — فالنهر يقبله ويأخذ فى الغرق . وحينئذ يسارع السباحون إلى انتشاله من الماء وإنقاذه من الغرق .

ولا تزال آثار هذه المعتقدات القديمة موجودة حتى الآن عند بعض الشعوب . وإن كانت آخذة فى الانقراض سريعاً بتقدم المدنية وازدياد عدد المتعلمين .

كانت الظواهر الطبيعية الخارقة للعادة كالبرق والرعد والزلازل والثورات البركانية وفيضان الأنهار وصياح أنواع من الطير والولادات غير الطبيعية عند الإنسان والحيوان تعتبر نذيراً للحوادث المشؤومة . وفى أحيان أخرى كانوا يبحثون عن مثل تلك الدلائل على وقوع الخير أو الشر فيفحصون أحشاء الحيوان ، أو بنقط الزيت يلقونها فى الماء أو غير ذلك من الطرق التى كانت منتشرة فى المجتمعات الأولى . فإذا سقط الملح على الأرض كان دليلا على قرب وقوع سوء لأهل البيت . ولكن كانت عندهم طرق لمنع وقوع ذلك الشر . فيأخذ أحد أهل هذا البيت بعض ذلك الملح ويلقيه من وراء كتفه .

وإذا أراد أحدهم السفر ورأى من العلامات أو الدلائل ما ينذر بوقوع الشر أجل سفره .

وفى جزر بورنيو مثلا يعتقدون حتى الآن بأنهم إذا لقوا فى طريقهم طيراً يطير عن يمينهم كان هذا فألا طيباً . فإذا كان الواحد منهم فى طريقه لزيارة مريض فإنه يتمنى أن يلتى طيراً فى طريقه على يمينه ليطمئن على قرب شفائه . وإذا تحققت أمنيته وقابل الطير جلس على الأرض وأخذ يمضغ قطعة من الطباق أو عشباً من الأعشاب حتى يمسك بتلابيب الحظ الحسن . ثم يضع القطعة التى مضغها فى ورقة شجر ويحملها إلى المريض الذى يبتلعها ولابد أن يشعر بتحسن فى صحته على الفور ، وقد يكون ذلك للأثر النفسي على حالتهم المرضية .

وإذا فوجئ الزائر وهو فى طريقه إلى بيت المريض برؤية طير عن يساره فهذا نذير شؤم . فما على الزائر إلا أن يدور حول نفسه ويعود إلى الوراء حتى يجد الطير إلى يمينه . ويظل هكذا يسير فى طريق نصف دائرى حول الطيور لتكون دائماً إلى يمينه وبذلك يتحول نذير الشؤم إلى فأل حسن يحمله الزائر معه إلى بيت المريض .

وفى ميناء دربان فى الناتال كان يشاهد فى السوق الوطنية وفى الحىّ الذى يعيش فيه أهل البلاد الأصليون حوانيت تبيع الأعشاب الطبية والمعادن والثمار المجففة وأدوات السحر من أحجبة وجماجم وجلود ثعابين وعيون وأسنان . إنهم يعرفون كثيراً من الوصفات الطبية والسحرية من الأعشاب ، وقد أثبت الطب الحديث فائدتها ؛ كما أن هناك من العقاقير السامة ما يعطى ترياقاً لسموم أخرى . وقد انتشر العلاج بالترياق عند العرب ثم فى أوربا خلال العصور الوسطى . وفى موزمبيق وفى أنجولا وجزيرة (ساو تومیه) على خط الاستواء فى المحيط الأطلنطى يجلس بائع العقاقير على قارعة الطريق وقد وضع أمامه عشرات الأنواع من الأعشاب والحجارة وجلود الحيوان وشعرها وقطع العظام والزيوت والدهون . وفى غابات الكونغو وأنجولا واتحاد جنوب إفريقيا وغيرها من البلاد الإفريقية ترى الأثر البالغ للسحر وخوفهم منه ثم التجاءهم إلى الطبيب الساحر الذى يعتبر أهم رجل فى القرية .

ويعتقدون أن فى استطاعته أن يشفيهم حتى ولو كان فى بلدة بعيدة عنهم . ويقدمون له النقود ليبعد عنهم الأمراض والنكبات ويمنحهم الأحجبة والتمائم التى يؤمنون بأنها تجلب لهم الثروة والخير وتحفظ عليهم صحتهم . ومن المناظر المألوفة لديهم رؤية الساحر يمتطى حصاناً أو حماراً يدخل إحدى القرى فيلتفون حوله هذا يطلب منه شراء تميمة تقيه من الكسور فى الحروب والمعارك وآخر ضد الأمراض وثالث ضد عضة الحيات وآخر ضد الأرواح الشريرة والعين الحاسدة . وتوجد التمائم داخل أكياس وضعت بها أشياء مختلفة مثل قرون الجاموس وريش العصافير الحمراء أو بعض الطين الأحمر اللون أو أسنان أو شعر حيوانات الغابة وقطع من جماجم بشرية قتل أصحابها لهذا الغرض. ويعلقون التمائم أحياناً فوق أكواخهم أو على أشجار وسط زراعاتهم لتبعد عنها



بائع الأحجبة أو الساحر الطبيب فى أفريقيا

الشر . ولايزال الكثيرون من سكان المناطق الإفريقية ذات الغابات، والنائية عن العمران يعتقدون أن الأمراض تسببها الأرواح وكذا السحر ثم الديدان التى يعبرون بها عن المرض فيقال إن هذا المريض عنده ديدان فى الصدر أو الأمعاء أو فى الرأس ويجعلون كل عقاقيرهم والشعائر السحرية من أغان ورقص وإطلاق أبخرة وروائح كريهة وأدوية ذات طعم مقزز قصد بها إخراج هذه الديدان والتخلص منها حتى يشفى المريض .

لم تتغير هذه الغابات والأحراش كثيراً منذ آلاف السنين بالرغم من اختفاء كثير من الحيوانات الضارية وامتداد العمران وإنشاء الطرق الممهدة التى تصل حتى القرى وسط الغابة والمكونة من أكواخ بنيت من فروع الأشجار وألواح الصفيح أو الغاب .

إن حياة أهلها وطرق تطبيبهم وسحرهم لم تتغير إلا قليلا خلال تلك الأجيال الطويلة وتقدم صورة قريبة بعض الشىء من مظاهر الحياة منذ آلاف السنين .

ويشاهد حتى اليوم فى الريف الهندى والمصرى وغيرهما من البلاد الآسيوية والإفريقية كيف يعالج ملايين المرضى بطرق اختلط فيها الطب الشعبى القديم بالسحر، وتجد فى بعض الكتب القديمة وصفات ضد السحر والأرواح الشريرة والحسد إلى جانب وصفات طبية كشف الطب الحديث عن أثر بعضها الناجع فى علاج الأمراض . وآمن كثيرون بالعلاجات الشعبية حتى من بين المتعلمين والأطباء أنفسهم . ومعظم العقاقير الشعبية القديمة لا تزيد عن أطعمة وأعشاب وأملاح معادن وزيوت استعملت فى الأصل لأغراض منزلية أو نمت فى الحقول المجاورة . . ويمارسون أيضاً الفصد والكىّ والحجامة كما كان يمارسها القدماء .

واللبخات كعلاج طبي أو سحرى صنعت من أوراق أنواع خاصة من النبات تدق وتعجن مع دهون أو زيوت وقد يكون مع روث الحمير أو الجاموس . ثم توضع محل الألم . وينزعها المعالج وهو الطبيب الساحر ليرى المجتمعون حول فراش المريض جسما غريباً داخل اللبخة يعتقدون أنه دخل جسم المريض بطريق السحر . .

وفى جزر الملايو يصنع الطبيب الساحر دمية من ورق الشجر ويضعها فوق رأس المريض مع بعض الطعام . ومن معتقداتهم أن الأرواح الشريرة تخرج لتأكلها .وفى تلك اللحظة يقطع الساحر رأس الدمية (العروسة) التى انتقلت إليها الأرواح الشريرة .

إن قصة الطب فى المائة العام الأخيرة وتقدمه السريع المذهل منذ ثلاثين عاماً قصة رائعة . . .

فمن العقاقير ما كشف عنه منذ أعوام قليلة ثم أخذ مكانه عقاقير أخرى جديدة اختفت بدورها وأصبحت نسياً منسياً فى ركن من أركان الصيدليات.

فمثلا سكان بيرو الأصليون من الهنود الحمر يستعملون الشاى المصنوع من خشب الكينا لعلاج الحمى، ونقلها الرهبان الكاثوليك معهم إلى أوربا واستخرج منها الكيماويون فيما بعد أملاح الكينين القلوية .

أذكر أن والدى رحمه الله كان أصيب بالحمى (المالطية) عام ١٩٣٧ تقريباً ولم يكن فى جعبة الأطباء المعالجين حينذاك من عقار لتخفيض حرارة الحمى سوى أملاح الكينين . فإذا هبطت الحرارة قليلا فرح الطبيب . وهلل لمفعول الكينين السحرى الذى يفوق الأسبيرين وأشباهه . ولكن الحرارة كانت لا تلبث أن تعود إلى الارتفاع . إن أملاح الكينا ما زالت محتفظة بقيمتها الطبية فى علاج الملاريا وأمراض أخرى . وفى ذلك الوقت تقريباً ظهر البرونتوزيل وهو أول سلفانميد

استعمل فى العلاج، ولم يكن البرونتوزيل فى بدء أمره سوى جزء من مادة كيماوية ملونة مركبة فى المعمل تستعمل فى صباغة الأقمشة . ثم استعملت مركبات كيماوية أدخل على تركيبها تحسينات حتى تكون أعظم أثراً وأقل ضرراً . وجاء بعدها عقاقير كالمضادات الحيوية : البنسلين والستربتومايسين والكلورماستين والتراسيكلين . . .

وكانت إحدى السيدات المشتغلات بالعلاج الشعبى فى إنجلترا أواخر القرن الثامن عشر تصف مزيجاً من الأعشاب مكوناً من عشرين نباتاً مختلفاً لمداواة الاستسقاء وأمراض القلب . وقام الدكتور (وليام ويزرنج) بإجراء أبحاث طويلة ومختلفة عرف بعدها أن نبات الديجتالا له ذلك الأثر الطيب على القلب والاستسقاء وهو موجود فى مادة الديجتالا. وفى أوربا ومصر وربما كان ذلك فى بلاد أخرى يوجد أطباء يصفون حتى اليوم مزيجاً من الأعشاب خلطت بنسب معينة . بل هناك بعض الصيدليات فى أوربا تبيع أكياساً وعلباً بها صنوف الأعشاب يكتب عليها أسماء الأعشاب وأجزائها المستعملة وقد يحتفظون بأسمائها سراً . فيكتب عليها فقط طريقة الاستعمال والفوائد الطبية .

ومنذ عشرين عاماً تقريباً كان شيئاً مألوفاً فى الأسواق الأسبوعية فى الريف المصرى رؤية الدجالين يعالجون المرضى ويبيعونهم قطرات العين السائلة والجافة والأشربة المقوية والمنقية للدم والشافية من الأمراض والحميات والمراهم العجيبة والأقراص والحبوب ذات التأثير السحرى لتقوية الأعصاب أو ضد الإسهال أو الإمساك .

وظل الكثيرون من الفلاحين وأهل الريف من الفقراء يعتمدون فى تطبيبهم على حلاق الصحة والعطارين والدايات ومدعى الطب والسحرة إذ قد يتعسر على مرضاهم الانتقال إلى المستشفيات فى المدن أو إلى

عيادات الأطباء أو تمنعهم تقاليد قديمة من معالجة نسائهم . وكثيراً ما كان يحدث أن نساء الريف يصبن بنزيف خطير قد يكون نتيجة جهل مدعيات الطب والمولدات الجاهلات وعبثاً يحاول أطباء المستشفى أو الممرضات نقلهن لإنقاذهن .

سومر وبابل وآشور

يبدأ التاريخ المعروف للعلاج فى أرض العراق أو بلاد النهرين دجلة والفرات . وكانت من أوائل الشعوب القديمة ذات الحضارة التى عاشت قبل الميلاد بنحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وعاصرت أولى الحضارات المصرية القديمة . أى هاتين الحضارتين كان أسبق ؟ . . . هذا ما لم يمكن تأكيده حتى اليوم وإن كانت أقدم الآثار التى وصلت إلينا وكشفت عن مدنيتها وعن آثارها الطبية لشعب سومر بالقرب من رأس الخليج الفارسى . وعرف من آثار كل من مصر وسومر القديمة أن هناك شبهاً كبيراً بين مخلفات العصر الحجرى فالنحاسى فالبرونزى فالحديدى فى كل منهما . وكذلك اقتصاديات البلاد، ونظم حكمهما ومعتقداتهما الدينية وما تركوه من آثار فنية وأدبية ومعيشة أهلها . وكان الطب عند كليهما مزيجاً من الطب الواقعى والدين والسحر . وأثرت مدنيتهما فيما حولهما من بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وآسيا .

وكان من مظاهر مدنية سومر وبابل النقش على الصخور والكتابة على ألواح الطين بقلم مدبب من الغاب لذلك سميت بالكتابة المسمارية ثم تجفف الألواح فى الشمس أو فى أفران .

وقد بقى إلى يومنا هذا عدد كبير منها وإن كان الكثير منها قد تحطم إلى قطع صغيرة من الصعب الجمع بين أجزائها المتناثرة أو العثور على كل أجزاء اللوح الواحد . من بينها آثار طبية وأدبية وتاريخية رائعة بقيت تلك الآلاف من السنين لتقص على العالم أولى حضاراته . كان من بينها قصص عن بداية الخليقة والطوفان الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة .

وقد عثر فعلا على عمق كبير تحت الأرض على آثار تدل على حدوث فيضان مروع قبل ذلك التاريخ بآلاف أخرى من الأعوام .

وقد عثر على مكتبة كاملة من هذه الألواح الطينية جمعها الملك آشور بانيبال الذى حكم آشور فى القرن السابع قبل الميلاد وكان له الفضل فى تسجيل المعلومات الطبية وغيرها من العلوم والفنون والآداب التى ازدهرت فى عهده . ومعظم هذه الألواح سجلات رسمية وتواريخ الملوك والآلهة وعقاقير طبية وتعاويذ سحرية وأناشيد دينية . وقد قام بدراستها العالم الأثرى كامبل تومسون ونشر نحو سمائة وستين اوحة طبية وكذلك كتاب (الأعشاب الآشورية) ذكر فيه أكثر من مائتين وخمسين من العقاقير النباتية التى استعملها أهل سومر وبابل وآشور .

ومن بين الألواح الطينية ما اختلطت فيها التعاويذ والرقى والأناشيد التى يلقيها الأطباء الكهنة عند زيارتهم للمريض وقوائم بأسماء الأعشاب والمواد الحيوانية والمعدنية ونصائح لعلاج الحمى والصداع وأمراض العيون والآذان والأسنان والصدر والأمعاء وغيرها من مختلف الأمراض .

ويبدأ الطبيب الساحر أو الطبيب الكاهن بالاستقصاء عن أسباب المرض فلا بد أن يكون بسبب ارتكاب المريض بعض الأخطاء بعلم أو دون علم مما أساء إلى أحد الآلهة أو الشياطين . أو نسى تعليق التميمة التى يجب عليه ألا يخلعها من عنقه . أو أكلَ سمكاً فى الأيام المحرم أكله فيها ، أو سمع كلباً ينبح وراء أسوار المدينة وقت غروب الشمس ، وربما كان ذلك بسبب نعيق غراب أسود على يمينه وهو فى الطريق إلى بيته . . . وإذا لم يكن شىء من ذلك فقد يكون بسبب لعنة أو سحر دبره له أعداؤه .

وقد ييأس الطبيب الساحر من معرفة تلك الروح الشريرة فيسميها جميعاً بأسمائها . فإذا ذكر اسمها خرجت من جسم المريض . وربما

يستعصي على أمهر الأطباء الكهنة والسحرة إخراج تلك الشياطين والأرواح فيطلبون العون من (يا) إله مدينة (إريدو) وهو أيضاً إله النور والخير . وينشد الكاهن التراتيل ويضع أمام المريض العسل والزبد والبلح والثوم لعله يغرى الروح بالخروج للأكل منها . ثم يحرقها الطبيب الكاهن . وإذا لم تنجح هذه الطرق ففي جعبته وسائل أخرى كثيرة . فيعد للعليل شراباً تعافه النفس لا يكاد يتجرعه المريض حتى يولى الشيطان الأدبار . أو يشعل النار في بعض الأعشاب والصموغ التي لا تلبث أن تنتشر أبخرتها حول المريض . أو يلجأ الساحر الطبيب إلى دمية صغيرة مصنوعة من الشمع ويوجه الحديث إلى الروح ليغريها بالدخول في جسم الدمية .

وعندما تنتشر الأوبئة ويرى الكهنة الأطباء ألوف المرضى يموتون ولا سبيل إلى إنقاذهم فإنهم يلازمون معابدهم ويرقبون تحركات النجوم في السماء . ويعرفون منها إذا كان الوباء سيزداد انتشاراً أو في طريق الزوال . وذلك بتجمع النجوم في ركن معين من السماء إذا بدأ التحرك عنه كان دليلا على قرب نهاية الوباء .

واشتهر الكهنة البابليون بالتنبؤ عن المستقبل وعن شفاء المرضى أو موتهم بدراسة كبد الماشية ومقارنتها بكبد مثالية صنعت في قالب من الطين . كانوا يؤمنون بأن الكبد هو مقر الروح . روح الإنسان الغامضة . فإذا وجدوا في الكبد التي بين أيديهم تغييراً كبير عن تمثال الكبد المصنوع من الطين دلهم ذلك على ما ينتظرهم من خير أو شر .

وعرف عن أهل بابل أن المريض إذا يئس الأطباء من شفائه حملوه إلى الطريق العام ليراه المارة وقد يصف له أحدهم علاجاً عرفه من قبل لمثل مرضه .

وسجلت التعاويذ والأناشيد والوصفات وأنواع العلاج والعقاقير

فى اللوحات الطينية المحروقة .

ووجد من بينها عدد كبير من الالواحات الطبية التى أصبحت مرجعاً هاماً لدراسة العقاقير السومرية .

وعثروا منذ أكثر من خمسين سنة على لوحة طبية لأنواع العلاج بالعقاقير التى كان أكثرها من النباتات وبعض المواد الحيوانية والمعدنية فى مكتبة (نفر) وإن لم تترجم إلا منذ أعوام قليلة . يوجد بها اثنتا عشرة وصفة أو تذكرة طبية وتعتبر أول دستور للأدوية فى العالم .

وفى إحداها « نظف جلد ثعبان الماء ثم جففه واسحقه . اخلطه بنبات (الأمامشد وباسكال) وجذور الآس والمسحوق القلوى والشعير ورأتنج شجر الشربين وجلد طائر (الكوشيو) . اغمرها بالماء واغلها على النار . افصل هذا الماء واغسل الجسم المريض وضع عليه زيت الشجر وأضف إليه (الشالك) » .

وهذه تذكرة طبية أخرى « اسحق خشب شجر الكمثرى مع زهور نبات القمر . ثم أذبها فى الجعة وليشربها المريض » .

وللصداع « نصف مقياس من الخردل المسحوق معجون بماء الورد يوضع فوق الرأس ويغطى برباط لمدة ثلاثة أيام » .

واستعملوا الحقن الشرجية واللبوسات والتقيؤ لعلاج أمراض المعدة . وكان يتبع مع هذا العلاج نظام غذائى مقصور على اللبن أو السوائل .

ولأمراض الصدر استعملوا جهازاً خاصاً . يضعون مغلى الشمر فى إناء تغلق فتحته بالطين وتمرر منها غابة رفيعة توضع فى فم المريض لتلقى البخار . « ويستمر العلاج تسعة أيام » . . .

ومن الأملاح التى استعملوها وذكرتها اللوحة الطبية ملح الطعام (كلورور الصوديوم) وملح البارود (نترات البوتاسيوم) . وذكر فى

إحدى الوصفات طين النهر المسحوق لاستعماله كعقار يخلط بالعسل .
واستعمل زيت النهر وزيت الشجر . وعرفوا صناعة الصابون بمزج المسحوق القلوى الذى عرفوا كيفية تحضيره من النباتات القلوية مع بعض الشحوم والزيوت .

وعرفوا طلاءات الوجه ودهان الشعر لإطالته وإزالة الشيب وكان علاجها « صفراء الثور الأسود والعقرب والخنزير ورأس الغراب الأسود واللقلق (البجع) مع الأفيون وبعض العقاقير الأخرى والزيوت » .

ومن هذه اللوحة الطبية وغيرها من اللوحات عرف عدد كبير من النباتات والحيوانات والمعادن .

فمن النباتات التى عرفوها ذات العقاقير المخدرة والمهدئة للآلام كالأفيون والحشيش والبلادونا واللفاح .

ومن النباتات السامة الخطرة الشيكران .

والشيح بابونج لاضطرابات المعدة والأمعاء . ومن المسهلات بذور الخردل تؤخذ كما هى . وتستعمل أيضاً لعمل اللبخات . والخردل فى الماء للتقيؤ . وكان للخربق Hellabour أهمية طبية كبيرة للعلاج من الداخل والخارج وللتبخير . ويبدو من كتاباتهم اهتمامهم بماء الورد وكان من الأدوية العزيزة الغالية الثمن التى تحضر فى معابد بابل .

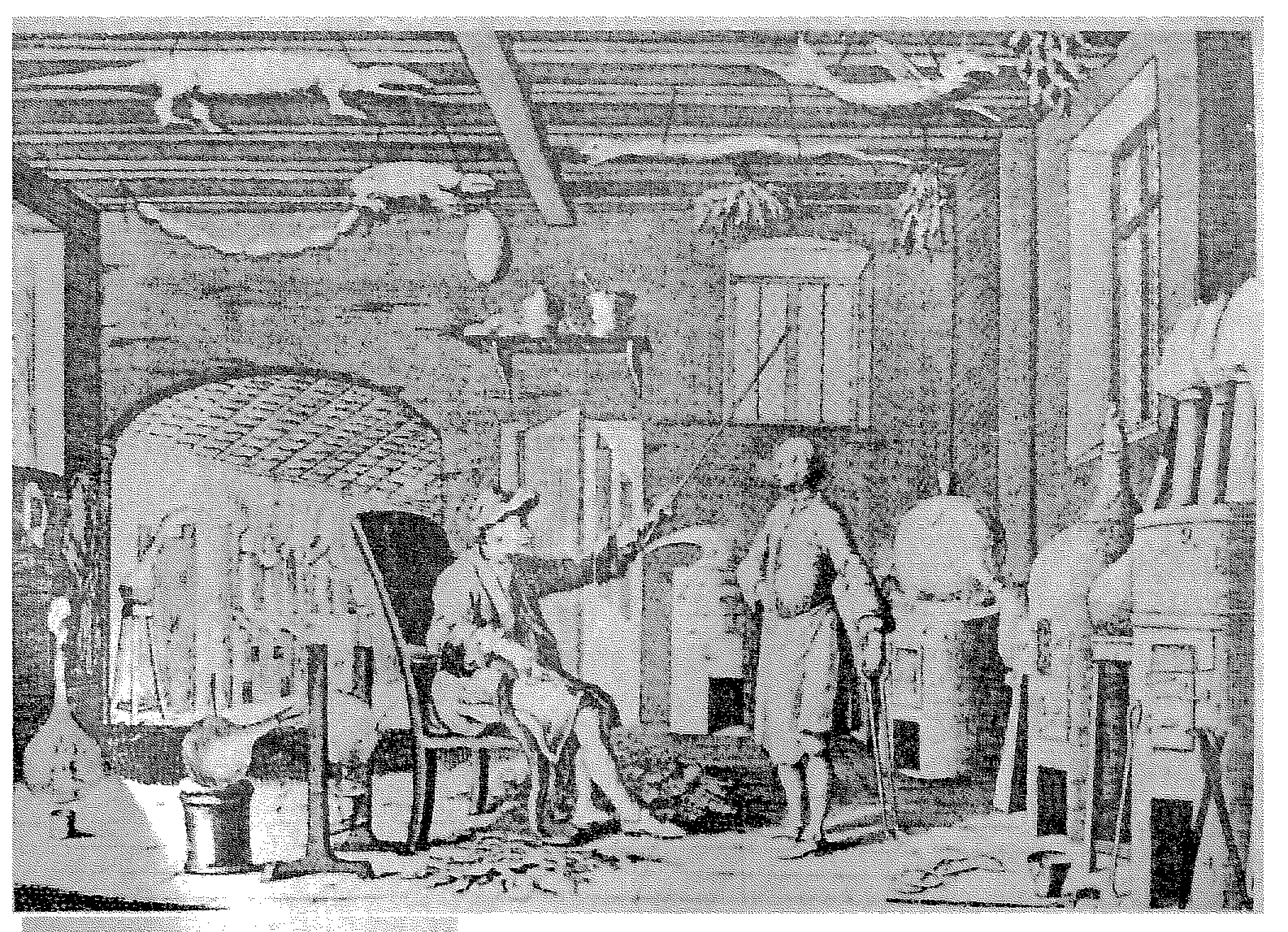
ومن النباتات ذات العقاقير القاسيا (القثاء الهندى) والشيكوريا والخس والبصل والخيار والترمس والثوم والزعتر والشمر والكراوية وجذور عباد الشمس والحلتيت . . . والقمح والشعير والذرة الرفيعة .

وكانت العقاقير تعد من الثمار وعصاراتها أو البذور والجذور والأوراق والراتنجات والصموغ .

ومن العقاقير التى كان يصفها قدماء أطباء بابل تلك التى كانوا ينسبون إليها فوائد كثيرة مما يضطرنا للشك فى فائدتها وأن بعضها علاجات سحرية .



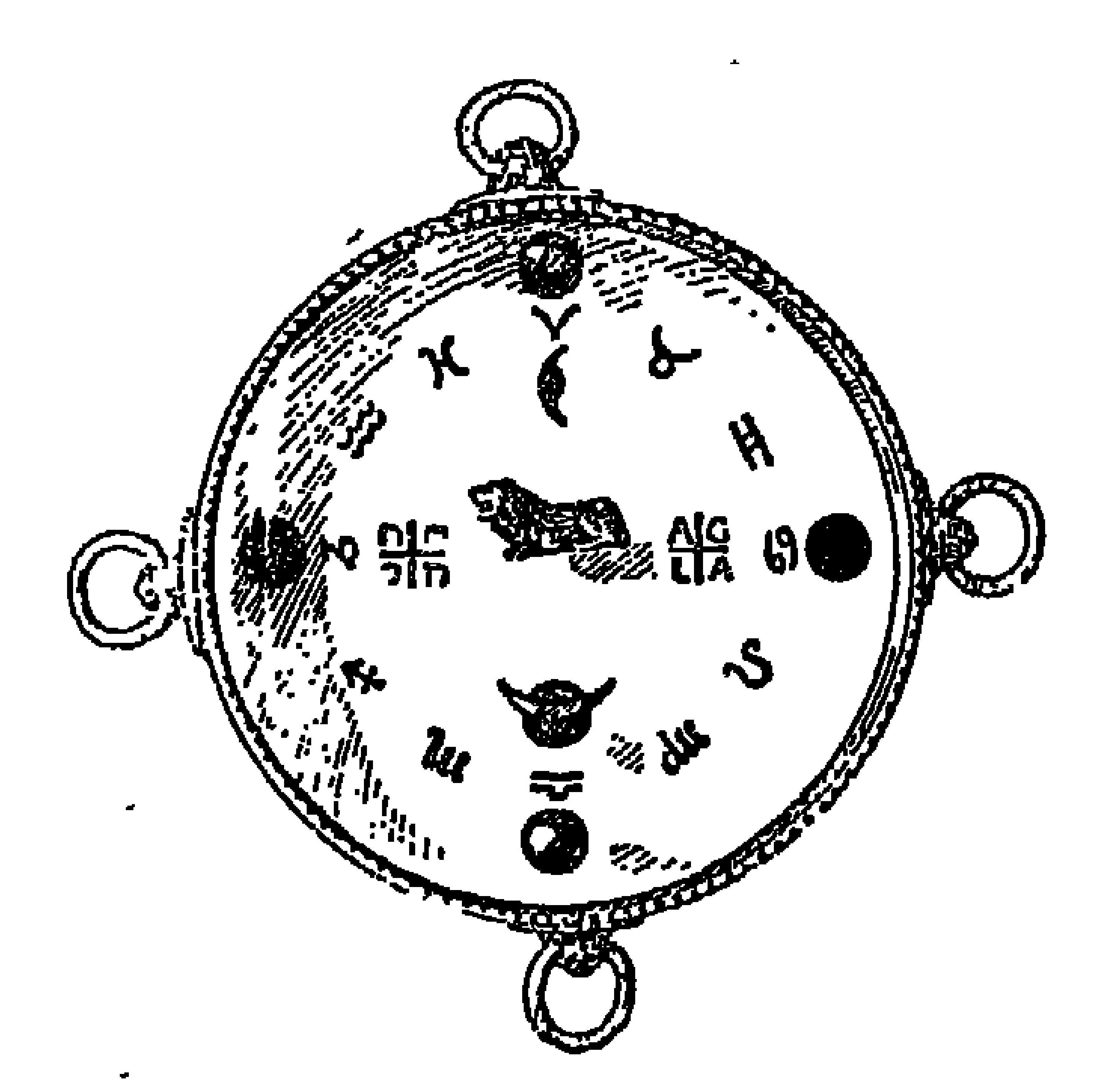
أبو بكر الرازي



معمل كيماوى فى القرن الثامن عشر

ومن هذه العقاقير ما كانوا يسمونه (أمهور ـــ بانى) ويغلب على الظن أنه نبات الأقحوان الأصفر وقد أوصوا به كدهان للدغ العقرب وآلام الأسنان وغسول للوجه والأذن والعين . ويعطى على هيئة شراب لليرقان واضطرابات المعدة ولدغة الحية والأمراض التناسلية وطرد الشياطين من الجسم .

ومثال ذلك أنهم كانوا يوجهون اهتمامهم لشروط هي إلى السحر أقرب منها إلى الطب مثل الأماكن التى يزرع فيها ووقت جمعها . فتستعمل مثلا جذور نوع من نبات الحسك الذى ينمو فوق القبور لعلاج بعض الأمراض . وعقاقير أخرى يجب أن يشربها العليل فى الصباح على الريق . ومن الحيوانات دهن الحية السوداء ولبن بقرة بيضاء . وعين ودم الدجاجة . ولسان الفأر . وشعر الكلب والثعلب . وهذه أيضاً



حجاب يعلق على الصدر للوقاية من الأمراض

يظهر عليها الطابع السحرى .

ومن المعادن الفيروز والياقوت وغيرهما من الأحجار النفيسة والمعادن ، والتراب يؤخذ من أطلال منزل أو معبد قديم . وكانت العقاقير تحضر بعناية فتسحق فى الهاون أو تغلى فى الماء أو تمزج بالدهون ولم يذكروا إلا نادراً كميات العناصر الداخلة فى الأدوية بل تترك لتقدير الصيدلى الطبيب .

الصيدلة والطب فى مصر القديمة

بقيت صور من حياة المصريين القدماء آلافاً من السنين منقوشة على جدران الأهرام والمعابد والقبور ، وفى أوراق البردى التى تعد من أروع كشوف الإنسانية التى قفزت بالحضارة خطوات كبيرة إلى الأمام فسجلت التاريخ والعلوم والفنون . وعثر على أقمشة وأدوات تستعمل فى الحياة اليومية فى صناديق من البرونز والفخار والرخام بها عقاقير وجذور جافة ومراهم وأطلية للوجه وكحل للعين وأنواع من الغذاء إذ كان المصريون يعتقدون فى حياة أخرى بعد الموت . ولإيمانهم بهذه الحياة الأخرى أتقنوا فن التحنيط مما يدل على بلوغهم شأواً عالياً فى الكيمياء التجريبية .

وأدركوا بما كانوا يشاهدونه فى الدور الخاصة بالتحنيط أن تخمر الأطعمة فى الأمعاء وتعفنها هو السبب فى كثير من الأمراض وأن نظافة الأمعاء بالنظام الغذائى والحقن الشرجية والملينات والمسهلات من أهم العوامل التى تحفظ للمرء صحته وتقيه من أمراض كثيرة فجعلوها من أهم عاداتهم الصحية . وهم الذين عرفوا أن حفظ الأجسام بالتجفيف الشمسى يحتاج إلى وقت طويل كما أن التسخين يحال الجسم . فاستخدموا التحنيط بواسطة مواد كيماوية حافظة كملح الطعام وملح النطرون والزيوت العطرية .

وتعجب حين تعلم أن ملح النطرون من أهم صفاته إذابة الشحوم والدهون إلى جانب حفظ الجسم .

ويقدم لنا كل من هيرودوت وديودور الصقلى أوصافاً رائعة لعملية التحنيط من تنظيف الأحشاء وغمر فى محلول من أملاح النطرون وغيرها

أو وضعها في هذه الأملاح وهى جافة كما جاء فى إحدى كتابات هيرودوت « يوضع فى ملح النطرون سبعين يوماً » والترجمة لوصفه أنها تملح كما تملح الأسماك بوضعها فى الملح الجاف .

واستخلصوا العطور من الزهور بواسطة الزيوت والدهون .

وتوصلوا إلى صنع الزجاج بمزج الرمل مع النطرون وما زالت حتى الآن فى وادى النطرون آثار تدل على صناعة الزجاج منذ آلاف السنين ، بل إنهم كانوا يخلطون الزجاج المنصهر بمواد كيماوية أخرى بنسب معينة وبطرق خاصة فحصلوا على أنواع مختلفة من الزجاج منها الأوانى والقوارير وذات ألوان شفافة بيضاء وحمراء وخضراء وزرقاء .

ومهروا فى إعداد الجرعات الدوائية وبرعوا فى طرق تحضيرها بالغلى والترشيح أو السحق فى الهاون أو بين حجرين وأجهزة للعصر فى أكياس ، ثم يضغط عليها بواسطة عدد من العصى .

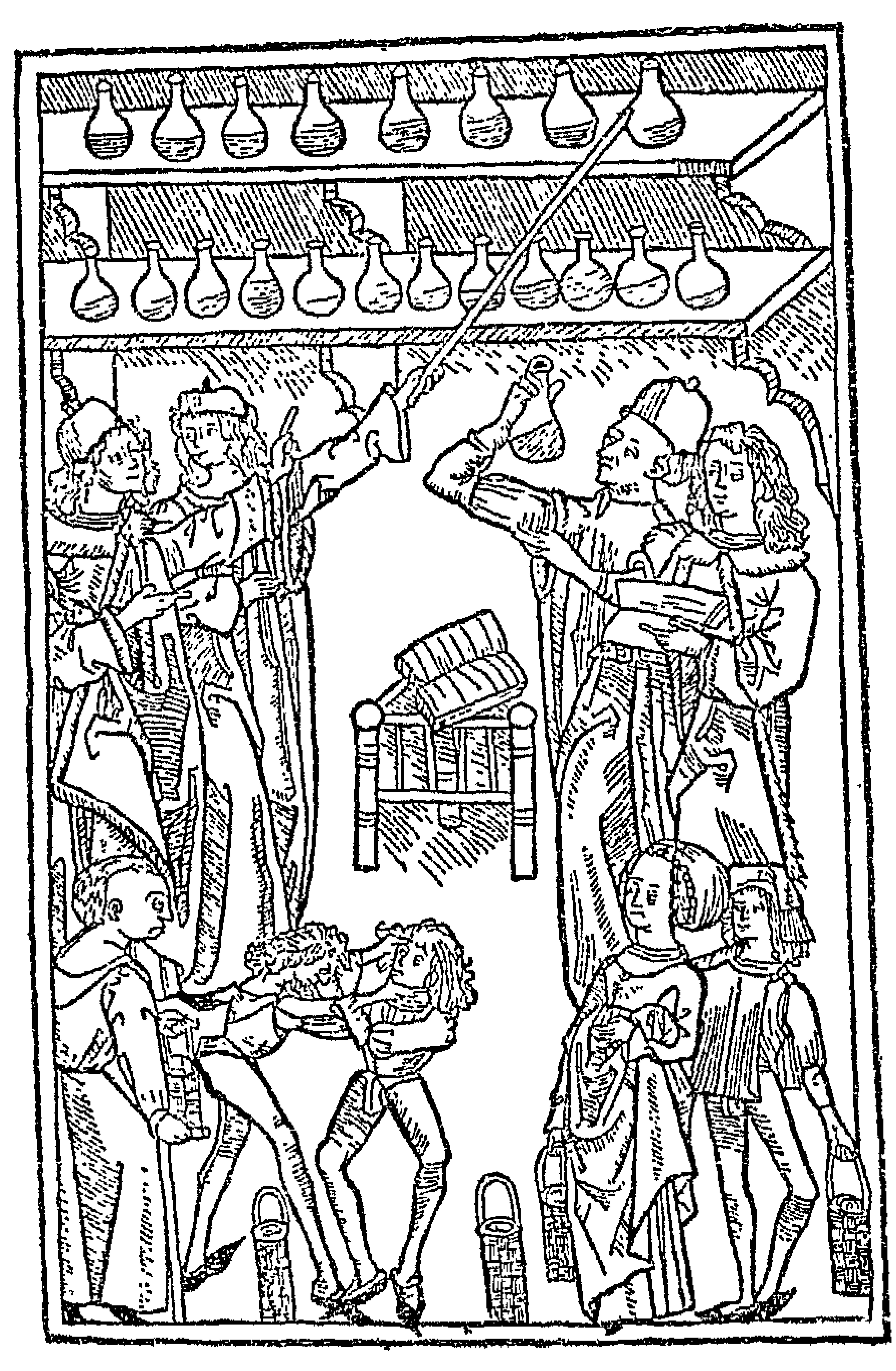
واستعملوا الأوانى الفخارية لتنقية الماء وتبريده .

كذلك عمليات النخل والتجفيف الشمسى وفى الأفران والتبخير واستخلاص الأملاح من السوائل والعصارات .

كما يبدو مما تركوه من آثار تقدمهم فى التعدين ومهاراتهم فى الكشف عن خامات النحاس والحديد والقصدير والأنتمون والذهب والحجارة النفيسة كالفاروز واللازورد وطرق تنقيتها بوسائل جديرة بالإعجاب إذ تقدموا فى تلك العلوم آلاف السنين عن العالم المعروف فى ذلك الزمان .

عرفوا وقد يكون ذلك بطريق المصادفة أن النحاس بمزجه مع القصدير يتحول إلى معدن البرونز الأكثر صلابة والذى نقل الحضارة إلى العصر البرونزى .

واستخدموا الكور لزيادة الحرارة فى أفران الصهر .



رسم محفور على الخشب لأستاذ يجرى تجربة على تحليل البول أمام تلاميذه

وقطعوا الأحجار الجيرية من الجبال القريبة من النيل ، والرخام بالقرب من تل العمارنة ، والجرانيت من وادى الحمامات بين كوبتوس والبحر الأحمر ونقلت تلك الكتل الضخمة التى تزن عدة أطنان إلى عواصم ملكهم فى طيبة ومنف وعين شمس .

وهم أول من استخدم المحراث فى الزراعة . وأقاموا السدود والخزانات لتنظيم رى الأراضى واتقاء الفيضان . ونبت فى أرضهم الخصبة الخضراوات والفاكهة والكروم والحبوب . واعتنوا بتربية الماشية من أغنام وطيور . وكان لهم من الماشية اللبن يشربونه كثيراً فى الصحة والمرض . وأتقنوا صناعة الجلود ودبغها وصبغها بالألوان لعمل أغطية أسرة النوم والمقاعد والوسائد .

وكانت الأقمشة من الكتان متينة ومتقنة الصنع إلى حد أنها شفافة كالحرير شبيهة به أيضاً فى ملمسه .

وكان نبات البردى ينمو فى مستنقعات الدلتا ، صنعوا منه أقمشة وأكاليل للآلهة واستخدموا ساقه طعاماً واتخذوا من جذوره وسيقانه قوارب وسلالا وحصراً استعملت كأسرة للنوم وصناديق وحبال . وأروع ما استعملوه من نبات البردى هو سيقانه لعمل ورق البردى الذى يعتبر من أهم كشوف المصريين كأداة لنشر العلم وتخليده .

ولا يزال تمثال الكاتب الجالس ممسكاً بيديه ورق البردى دليلا على تقدير المصريين للمتعلم . . .

ويخاطب الأب العجوز ابنه قائلا « يا بنى ! واظب على طلب العلم حتى تصبح كاتباً . فالكاتب دائماً فى مقدمة الركب . لن يجوع أبداً . إن بطنه دائماً ممتلئ بفضل علمه وحكمته . وينال شرف الجلوس على مائدة فرعون » .

ودون كثير من علومهم وفنونهم وطبعهم فى عدد من قراطيس البردى

صنعت بطريقة بارعة على شكل كتاب كامل يتكون من لفائف طويلة يلصق طرف كل واحدة منها بالتي تليها ، وقد يصل طولها إلى ثلاثين متراً أو أكثر .

وصنعوا الحبر الأسود بمزج السناج (المادة الكربونية التي تترسب على الجدران) مع الصمغ والماء .

وصنعوا الحبر الأحمر يكتبون به ملاحظاتهم إلى جانب الكتابة بالحبر الأسود أو للتصحيح أو كتابة المقادير . ومن حسن الحظ أنهم وجدوا فى مستنقعات البردى نباتاً آخر وهو السمار أمدهم بأقلام مدببة الطرف للكتابة بها على القراطيس . وكان من بين البرديات التى عثر عليها عدد من البرديات الطبية أهمها بردية (إيبرس) وتبلغ سطورها ٢٢٨٩ سطراً وبردية (سميث) من ٤٦٩ سطراً وبرديات أخرى صغيرة أو قديمة مهلهلة مثل لفائف كاهون لأمراض النساء وكاهون للأمراض البيطرية وبرلين المسماة(وستكار) وبرلين للأمهات والأطفال و(جاردنر)... ودراستها تكاد تكون دراسة شاملة لطب المصريين القدماء وصورة لما كان عليه . ومن بين أمراضهم التى عالجوها بالوصفات الطبية ما ذاع صيته وثبتت فائدته وانتقل عبر البحر المتوسط إلى اليونان وسائر بلاد أوربا ولا يزال بعضها معروفاً حتى اليوم فى ريفهم .

كان جزء كبير من طب بقراط وجالينوس وديوسقوريدس مأخوذاً عن الطب المصرى كما أن كلمة(فارماكوبيا) التى تعنى دستور الأدوية يرجع أصلها إلى الكلمة المصرية القديمة (فارماكى) أى الذى يمنح الشفاء .

كان الطب المصرى القديم متقدماً على غيره بالرغم مما خالطه من دين وسحر . كان ثوث وأوزيريس وإيزيس آلهة للطب وجاء من بعدهم أمحتب الذى مارس الطب والهندسة والفلك والدين . وهو الذى بنى

هرم سقارة المدرج فى عهد الملك زوسر حوالى عام ٢٩٠٠ ق.م. ورفعه المصريون فيما بعد إلى درجة الآلهة . وأقاموا له مثل غيره من الآلهة المعابد فى منف وطيبة وصالحجر وأون وغيرها وجعلوا من تلك المعابد مدارس للطب وتعليم الدين . وأطلقوا عليها (بيوت الحياة) . أخذ يكبر شأنها ونفوذ الكهنة على مر الأيام . وكان جزء منها مخصصاً لإقامة المرضى والنساء العقيمات . ومارس الكهنة العلاج بالصلوات والتضرعات للآلهة وتقديم القرابين وعالجوا بالرقى والسحر والطلاسم . وقد تفيد هذه الوسائل فى بعض الأحيان كما يفعل الطب النفسى فى العصر الحديث من شفاء عدد من المرضى . وجمعوا بينها وبين العلاج بالعقاقير يعدها الصيادلة فى معاملهم داخل المعابد أيضاً . وهم الذين يقومون بجمع الأعشاب الطبية من جذور وسيقان وأوراق وزهور وثمار وبذور يستعملونها على هيئة مساحيق أو أشربة والعقاقير المعدنية والحيوانية واختزانها فى أماكن خاصة .

وكان الأطباء والكهنة يذهبون بأنفسهم إلى منازل المرضى لعلاجهم بالسحر أو الصلاة أو بالعقاقير أو الزيوت والدهون يدلكون بها مواضع أوجاعهم أو قروحهم وجروحهم وكسورهم .

وفرق (الكتاب السرى للقلب) بين الطبيب وكاهن سخمت والساحر . فكان بعض المرضى يقصدون الساحر وآخرون الكاهن والبعض الثالث رجال الطب والصيادلة الذين يعالجون بالعقاقير . بل إن بعضهم كان ينتقل من أحدهم إلى الآخر . وكانت العقاقير فى أول الأمر يتجرعها المريض كعلاج سحرى لإخراج الشياطين أو (الدودة) أو (الأوخدو). . وكانت الجعة والعسل هما المادتين الأساسيتين تمزج بهما العقاقير ليستسيغها المريض أو الزيوت والشحوم للمراهم . أو ماء الشعير كغذاء وحيد فى حالات الامتناع عن الطعام . والثوم والأعشاب التى عرفت خواصها السحرية يتلون عليها الأناشيد والصلوات ويستعملون كوباً اتخذ كمعيار

مقدس للأدوية .

وقد ذكرت بردية (هيرست) التعويذة الآتية لتتلى على العقاقير « هذه الكأس التى أقيس بها الدواء هى الكأس التى قاس بها (حورس) عينه التى أتقن قياسها فمنحته الحياة والسعادة والصحة . وهذا الدواء الذى يقاس فى هذه الكأس يخرج من الجسم جميع الأمراض . . . » .

بدأت المعايير فى العلاج السحرى والدينى ثم استعملت لقياس الكميات المضبوطة من الأصناف المختلفة التى يتجرعها المريض وقد يبلغ عددها فى العقار الواحد خمسة وثلاثين صنفاً . ومن أهم المعايير التى كانوا يقيسون بها :

(دو) ويساوى خمسة عشر سنتمتراً مكعباً أو ملعقة كبيرة .

واستعملوا الميزان فى وزن العقاقير بعد أن كان الغرض منه وزن الحسنات والسيئات .

ومن أوزانهم (القدت) ويساوى تسعة جرامات وثلث جرام و (الدبن) ويوازى عشرة من (القدت) .

وكانت تصاحب عملية مزج العقاقير التى يتناولها المريض تلاوة التعاويذ والصلوات والأناشيد . فهم يعتقدون أن تأثير العقار ليس فى صفاته الأقرباذينيه أو نتيجة تجاربهم بل هو تأثير سحرى . فالكل نوع من الأعشاب أو أملاح المعادن أو العقاقير الحيوانية خواص سحرية خاصة به وتتلى عليه كلمات معينة . وكانت هذه بداية العلاج بالعقاقير . فبعد أن كانت تؤخذ لأغراض سحرية ودينية أصبحت على مرّ الأيام عقاقير طبية بقى منها ما ثبتت فائدته وأهمل ما كان ضاراً .

ومن البرديات ما يمكن اعتباره كتباً طبية كاملة مثل بردية (إيبرس) للعلاج الطبى بالعقاقير . وتتكون من ٨٧٧ وصفة طبية من بينها اثنتا عشرة وصفة فقط تشتمل على تعاويذ سحرية .

وبردية (إدوين سميث) الجراحية كلها طبية ما عدا وصفتين فى ظهر البردية . وكان الكشف عن بردية إيبرس فى مدينة طيبة عام ١٧٨٢. عثر عليها جورج إيبرس وكان أستاذاً للآثار فى ليبزج وأهداها إلى متحفها كما أنه كتب قصصاً تصور الحياة فى مصر الفراعنة نالت نجاحاً فى أوربا فى ذلك الوقت .

بردية إيبرس :

وتبدأ بردية ايبرس التى كتبت عام ١٥٥٢ قبل الميلاد بأناشيد وتعاويذ لتقوية مفعول العلاج الطبى . أولها :

« . . . وقال (رع) الإله الشمس . سوف أنقذه من أعدائه . ويقوده الإله (ثوث) يمنح المهارة للذى يكون معه . الذى تحبه الآلهة وتحفظه حياً » .

ودعاء يقرأ على عقاقير مكونة من: لبن امرأة ولدت طفلا ذكراً، والصمغ وشعر كبش ويستعمل علاجاً للحروق . وبعد اثنتى عشرة وصفة تعالج بالرقى والأدعية والتعاويذ ، تبدأ بوصف تشريحى لجسم الإنسان ووظيفة القلب والأوعية « بدء الكتاب السرى للأطباء معرفة حركة القلب. ومعرفة القلب . توجد أوعية من القلب إلى كل الأعضاء . إذا وضع طبيب أو جراح يده أو أصابعه على الرأس أو اليدين أو مكان المعدة أو الذراعين أو القدمين فإنه بذلك يفحص القلب . لأن الأوعية موجودة فى كل من الأطراف . إنه القلب يتكلم فى أوعية كل الأطراف . . . »

ومن بين الأمراض التى يصفها ويذكر علاجها الأورام وتمزقات الأنسجة وأمراض الجلد والأطراف واللسان والأسنان والأنف والأذن والعينين وأمراض النساء والأطفال . ويذكر أكثر من سبعين وصفة

لعلاج الجلد والحروق والنمش والعناية بالشعر .

وكان المصريون والمصريات يخشون الشيخوخة فاستعملوا زيت الحلبة لإزالة تجعدات الوجه .

ووصفوا لعودة اللون الأسود للشعر زيوتاً مخلوطة بدماء عجل أو ثور أسود أو دهن ثعبان أسود . ولمنع تساقط الشعر و « نمو الشعر فى رأس الأصلع » مزيجاً من دهن الأسد والتمساح والقطة والثعبان . أو علاجاً آخر عبارة عن أشواك قنفذ محروقة ومغمورة فى الزيت . أو حبراً أحمر وأصابع الكلاب وحوافر الحمير وبلحاً ناضجاً . أو تدليك الرأس بالزيت والتربنتينا .

وما زالت حتى اليوم الأوانى التى يضعون فيها أدهان الزينة والكحل وغيرها من أدوات الزينة موجودة بين آثارهم بكميات كبيرة . واستخدمت العطور لتعطير أجسام النساء وثيابهن وشعورهن . والحناء لصبغ راحة اليد والقدم . والمغرة الحمراء لطلاء الشفاه والخدود باللون الأحمر . واستعملن الكحل للحواجب والجوانب الخارجية للعين . وكن يضعن الكحل الأسود على الجزء العلوى من العين وهو من الجالينا (كبريتيد الرصاص) والكحل الأخضر من الملاخيت (كربونات النحاس الأخضر على الجزء أسفل العين . ثم استعملن اللون الأسود لكل من الجزأين ومن المعتقد أن المراد من ذلك إظهار بريق العين وإبراز جمالها بل كان أيضاً لأغراض سحرية .

ومن العقاقير التى ذكرتها البردية وما زالت تستعمل زيت الخروع لعلاج الإمساك ودهاناً للشعر .

وللشفاء من الصداع تدق حبوب الخروع وتخلط بالماء ثم توضع على الرأس « سوف يزول الصداع كأن لم يكن » . والثوم والبصل وكزبرة البئر وبصل العنصل وهذا الأخير للاستسقاء . والرمان للديدان فى

الأمعاء وضد الإسهال واللبخ والزعفران والجنطيانا والكرفس والشبت والكمون واليانسون والشمر والقرفة وجذور العرقسوس يعدون منها دواء ملينا وشرابا مرطبا فى الصيف وقد وجدت كمية منه فى مقبرة توت عنخ آمون، والجميز والتين ، ومن الحبوب القمح والشعير والذرة الرفيعة .

ويؤخذ الدواء كجرعات مسهلة هى مزيج من اللبن والعسل والخميرة .

أو تعمل حبوب من العرعر والخشخاش والبصل وعسل النحل .

ووصفة لجرعة يشربها المريض ضد الإمساك أيضاً « يؤخذ بلح طازج جزء واحد وملح البحر جزء واحد . وعصير (السبت) جزء واحد . تضعهم فى الماء فى إناء من الفخار . ضع فوقها قرون السنامكى بعد تكسيرها . ويطهى المزيج ثم يبرد . ويشربه المريض . دعه يشرب عقبه الجعة الحلوة » .

وعقاقير لإزالة الروائح الكريهة والتبخير والاستنشاق ومراهم من شمع وعسل وبذر كتان مدقوق وزيوت وشحوم ودهون . . . ولبخات ولبوس شرجية وتلابيس مهبلية . وقطرات توضع فى العين بواسطة ريشة طائر .

ولأمراض العين الملاخيت والإثمد والمغرة الصفراء .

واستعملوا مغلى الخشخاش لتهدئة الأطفال من الألم والمغص ونومهم . وعالجوا النزلات المعوية بلبن الأم التى ولدت طفلا ذكراً مع حبوب (سبت) وسيقان البردى .

ولعلاج الأسنان استعملوا الكندر (لبان ذكر) والمغرة الصفراء مع العسل . وللثة المتقرحة القرفة والصمغ والزيت والعسل . أو الجميز والمغرة الصفراء والعسل . ومضمضة للفم مكونة من لبن البقرة والبلح الطازج والمن يستمر لمدة تسعة أيام متتالية .

بردية إدوين سميث :

بردية إدوين سميث طولها ٤,٦٨ أمتار وعرضها ٣٣ سنتيمتراً مكتوبة بالحبر الأسود والكلمات التى يراد إظهارها والملاحظات الهامة بالحبر الأحمر ، وتبدأ بأجزاء من (كتاب أوعية القلب) ثم ثمانية وأربعين حالة من جروح وكسور وأورام وقروح وكيفية علاجها . وفى الوجه الخلفى من البردية تعويذة سحرية لتحويل الرجل العجوز إلى شاب فى العشرين. وأدعية لمنع الرياح الحاملة للأوبئة .

بردية هيرست :

محفوظة فى جامعة كاليفورنيا . وهى مكتوبة أيضاً فى فترة لا تبعد كثيراً عن بردیتى إيبرس وسميث وبها عدد من الوصفات ذكر فى بردية إيبرس إلى جانب وصفات سحرية والكأس السحرية لقياس الأدوية وتعاويذ تتلى على الأدوية وماء الشعير والعسل والجعة والدهون والزيوت .

ووصفات لعلاج (الميتو) لتهدئتها . فإن ثورة (الميتو) تسبب الأمراض فى اعتقادهم .

ووصفات لنمو الشعر من عقاقير بينها بذر الحلة وحب العزيز والعفص وزيوت الصنوبر والتربنتينا .

بردية برلين :

للأم والطفل ، بها تعاويذ لتسهيل الولادة ومعرفة نوع المولود ووقاية الأطفال من الأمراض والأرواح الشريرة .

بردیتی کاهون :

أقدم برديتين عثر عليهما فى كاهون بمحافظة الفيوم وهما فى حالة ممزقة والكثير من كلماتهما اختفى . إحداهما لأمراض النساء والثانية للطب البيطرى .

ثم بردية لندن وأكثرها سحرى .

وبردية جاردنر لأمراض الشرج .

حضارات أخرى قديمة

عاصرت حضارة بابل وآشور ومصر حضارات أخرى فى بلاد العرب واليمن والحبشة ثم فارس والهند والصين واليابان وفى أمريكا الوسطى والجنوبية وغيرها .

وليس من اليسير معرفة أى هذه الحضارات كان أعرق فى وسائل تطبيبها ومن الذى بدأ بتشخيص هذا المرض أو ذاك واستعمال العقاقير التى ظل البعض منها حتى يومنا هذا علاجاً شعبياً أو معترفاً به فى الدساتير الطبية .

طب العرب فى الجاهلية

كان العرب كثيرى الترحال بحثاً عن الماء والمرعى فى صحراء شاسعة، يعيشون على ماشيتهم، يتغذون بلحومها وألبانها، ويتخذون من صوفها ثياباً يغزلونها بأيديهم .

أما المناطق القريبة من شواطئ البحار فقد كان بها مدنيات ذكرها القرآن الكريم كمدينة سبأ وسد مأرب فى بلاد اليمن التى كان يسكنها بنو قحطان . وفى الأراضى التى سميت فيما بعد بالحجاز شعب بنى عدنان. وكان هذان الشعبان على اتصال وثيق بما جاورهما من بلاد الساحل الإفريقى . ثم فى آسيا بلاد النهرين وفارس والهند والصين . وساعد على ذلك موقعهم الجغرافى المتوسط . وكانت القوارب والسفن فى البحر وقوافل الجمال فى مسالك الصحراء سبيلهم إلى ذلك .

لم يصل إلينا من حياة عرب الجاهلية إلا النادر خلال ما تناقلته الأجيال من رواية شعرهم وذكر عرافيهم وأطبائهم ووسائل العلاج بالسحر أو الشعوذة أو الطب بالعقاقير أو الحمية أو الفصد أو الحجامة أو الكى .

وكان من علومهم الكهانة وهى التنبؤ بالأحداث قبل وقوعها . ونسب ذلك إلى عزلتهم وصفاء نفوسهم، فهى بذلك أقدر على الاطلاع على أسرار الطبيعة .

ثم الفراسة وقد انتشر هذا العلم منذ الجاهلية وبقى حتى إلى ما بعد الإسلام . وهناك قصص كثيرة تدل على مهارتهم الفائقة وذكائهم الفطرى .

والعزائم وهى التى تعرف الآن بالتنويم المغناطيسى وتحضير الأرواح.
والسحر والطلاسم والتمائم والتنجيم والفأل والطيرة .

ومن العلوم الهامة التى اشتغل بها العرب قديماً وكانوا يعتبرونها نوعاً هاماً من التطبيب : العرافة .

اشتهروا بها وحازوا ثقة أهل زمانهم كرباح بن عجلة عرّاف اليمامة الذى قال فيه الشاعر عروة ابن خزام :

جعلت لعراف اليمامة حكمه — وعراف نجد إن هما شفيانى
فقالا نعم نشفى من الداء كله — وقاما مع العواد يبتدرانى
فما تركا من حكمة يعلمانها — ولا سلوة إلا بها سقيانى

وقوله أيضاً :

فقلت لعرّاف اليمامة داونى — فإنك إن أبريتنى لطبيب

وكان العرب يستعينون بالعرافين للكشف عما يخبئه المستقبل واستنتاج الحوادث بتطبيقها على مثيلاتها فى الماضى .

ولكنهم عرفوا الطب العلاجى التجريبى . وكان لهم أطباء بقيت ذكراهم آلاف السنين . بل كانت منهم طبيبات ذاع اسم إحداهن وهى زينب طبيبة بنى أود . اختصت بأمراض العيون . وهى التى قال فيها أبو السماك الأسدى كما جاء فى كتاب الأغانى :

أمخترمى ريب المنون ولم أزر — طبيب بنى أود على النأى زينبا

ومن أطباء الجاهلية الحارث بن كلدة الثقفى كان من الطائف وسافر إلى بلاد فارس وتعلم فنون الطب وكان يتقن العزف على العود . وعاش إلى ما بعد الإسلام . وله كتاب مشهور عن أحاديثه الطبية مع كسرى

أنو شروان ملك فارس عن الصحة والمرض والعلاج بالحمية والابتعاد عن التخمة وعدم الاستحمام بعد الطعام أو التفكير فى هموم الحياة أثناء الطعام أو قبل النوم . والفصد والحجامة والعقاقير وأثرها . . .

وكان ابنه النصر بن الحارث طبيباً ماهراً فى فنه مثل أبيه .

وكذلك ابن حزيم ، وابن أثال فى دمشق ودميان وكوسم وسمى هذان الأخيران أبوى الطب والصيدلة فى سوريا وكانا مسيحيين أقيمت لهما هناك كنيسة تذكارية .

ثم رشيد الدين أبو خليفة الطبيب الصيدلى وقضى معظم حياته فى مصر وأدركه الإسلام ومن كتبه (المختار فى الألف عقار) فى الأدوية المفردة والمركبة .

بلاد الفرس

كان الكهنة هم الأطباء فى بلاد فارس يتبعون قوانين (زرادشت). مارسوا السحر والرقى لإخراج الشياطين معتقدين أنهم سبب تسعمائة وتسعين مرضاً تصيب الإنسان .

وبالرغم من ذلك فإن أهل فارس القدماء استعملوا لعلاجهم كثيراً من العقاقير الطبية كالأفيون والحلتيت وبعض الراتنجات العطرية وعقاقير أخرى تعافها النفس كان من بينها بول الإنسان .

الهند

دلت الآثار الباقية من حضارة الهند القديمة أن الطب وتشخيص المرض وطرق العلاج بالجراحة والعقاقير كانت متقدمة . وما زالت حتى اليوم طرق العلاج القديمة تمارس بين الهنود مما يدل على أنها ذات فائدة

محققة وخالط الطب كثير من الكهانة . وكان لكل مرض إله خاص به كما أنهم آمنوا بأرواح الخير والشر. يقيمون الاحتفالات الدينية وينشدون الأناشيد لعلاج المرضى . ولقربهم من بلاد سومر وبابل والأكاديين والأشوريين فإنهم آمنوا بالكهانة . والتنبؤ بالمرض والتفاؤل والطيرة وتقمص الأرواح نجد الكثير منها فى لوحات أكادية جاء فيها أيضاً ذكر الهند وملوكها.

وأهم مصدر لمعلوماتنا الطبية عن الهند كتاب (الفيداس) المكتوب باللغة السنسكريتية منذ أكثر من أربعة آلاف عام . وهو مجموعة من الرقى والتعاويذ للشفاء من الأمراض . ثم كتاب :(آيورفيداس) ومعناه (علم الحياة) ويصور حياة الطبيبين (شاركا) و (سوسروتا) وطرق علاجهما والعقاقير والأعشاب التى كانا يصفانها . ويعرف بالتقريب أنهما عاشا فى فترة تقع ما بين مائتى عام قبل الميلاد ومائتين بعده .

وقد قسم (سوسروتا) المادة الطبية إلى سبعة وثلاثين جزءاً تبعاً للأمراض ومن بين السبعمائة عقار من الأعشاب التى ذكرها اللحلاح والقثاء الهندى والصبر والكركم وزيت الخروع . . .

ومن المعادن الشبه والزرنيخ والبورق وأملاح الرصاص والزنك .

ومن العقاقير الحيوانية الزراريج ولحم الثعابين وعدد من الشحوم والدهون و إفرازات الحيوانات .

وفى الكتابات الدينية لأتباع بوذا المكتوبة أيضاً باللغة السنسكريتية أوصاف للأمراض وقصة بعض الذين كانوا يمارسون الطب وجمع العقاقير والأعشاب مثل (جيفاكا) الذى طلب أستاذه فى العقاقير منه ومن زملائه أن يجمعوا له النباتات ذات الفائدة الطبية . واستطاع (جيفاكا) أن يجمع عدداً من النباتات يفوق زملاءه بكثير . ولما سأله أجابه عن خواصها الطبية المعروفة حينذاك . وخواص أخرى لم يكن

يعرفها أستاذه !.

وقصة أحد ملوك الهند الذى كان يقاسى من آلام لم يعرف الأطباء سبباً لها أو ينجحوا فى شفائه .

وعندما علم (جيفاكا) بذلك . وكان قد سمع بالأمس عن أحد المرضى مات بنفس العلة ، ذهب إلى القبر وفتح الجثة وأخذ يفتش فى أحشائها حتى عثر على ديدان فى أمعائه وأجرى عليها التجارب فوجد أن عصير الثوم يقضى عليها . فقام إلى الملك من توّه وأعدّ له جرعة من عصير الثوم قتلت ما فى بطنه من ديدان وعوفى من مرضه .

العلاج الطبي القديم في الصين

تضاربت الأقوال عن تاريخ أول دستور للأدوية فى الصين وهو الذى يطلق عليه اسم (بن تساو) أى مجموعة الأعشاب . ذكر البعض أن كتابته كانت قبل مولد المسيح بألفى عام . وقيل إن إمبراطور الصين (شين نونج) هو الذى كشف عن عدد كبير من العقاقير النباتية والسموم وجمعها فى هذه المجموعة النباتية الكبرى . وكان عددها ثلثمائة وخمسة وستين عقاراً طبياً تمثل أيام السنة الشمسية مقسمة إلى ثلاث طبقات . الطبقة العليا من مائة وعشرين عقاراً تمثل (إكسير الحياة) والمائة والعشرون الوسطى لحفظ الصحة . أما المائة وخمسة وعشرون الباقية فللعلاج من الأمراض .

ويذكر الكتاب خواص كل من تلك الأعشاب وأين تنمو وكيف ومتى تجمع وطريقة تحضير الدواء منها . ومما ذكره من تلك العقاقير الأفيون والجنسنج والقنب وخانق الذئب والقرطم والراوند والقرفة وجوز الطيب . وأملاح معدنية كأملاح الزرنيخ والحديد والنحاس والزئبق والكبريت . ووصف العلاج بالأشباه . أى أن مرض عضو فى الجسم يعالج بجزء من نبات أو حيوان مماثل له أو شبيه به .

واستخلصوا المواد الفعالة بغلى النباتات ثم تركيز محاليلها وإعداد أنواع من النبيذ تخلط بالأدوية وخاصة النبيذ المخدر . كما كانت الحبوب المحتوية على الأعشاب والمعادن من الأدوية التى تعاطاها مرضاهم .

ومن بين عقاقيرهم ما وصل إليهم من بلاد العرب كالترياق الذى كان الأفيون من أهم المواد التى يضعونها فيه .

وتقدم لنا طرق العلاج فى الصين مثلا رائعاً لتأثير العقيدة الدينية على الطب إذ كان للفلسفة الكونفوشيوسية أثر كبير على معتقداتهم فى الطب . فكان يوجد توازن بين العنصر (يانج) المذكر و (ين) المؤنث إذا كان المرء يتمتع بصحته . فإذا اختل ذلك التوازن أصيب بالمرض . وإن الإنسان مثل الكون المركب من خمسة عناصر وهى الخشب والنار والأرض والمعدن والماء ويقابل هذا فى الإنسان خمس وهى الأحشاء والحواس والأاوان . . . وكل منها خمس . وكانت وصفاتهم الطبية تحتوى على خمسة عقاقير تؤخذ على خمس مرات .

اليابان :

كشفت الآثار التى عثر عليها فى مدينة (نارا) فى اليابان عن كثير من العقاقير الطبية والأوانى والأدوات التى استعملوها فى طبهم . ومن بين الستين عقاراً التى وجدت عدد ليس بالقليل انتقل إليها من بلاد الفرس والصين وكذلك ظهر اهتمامهم بالنظام الغذائى وبالبحث عن إكسير الحياة .

اليونان وأمجادها الطبية

مضى نحو ألف عام بين حضارة المصريين أيام الفراعنة وبين ازدهار حضارة اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد وظهر فى خلال تلك الفترة حضارات أخرى عظيمة مثل الحضارة المينية فى جزيرة كريت وطروادة وغيرها اندثرت ولم يبق إلا القليل من آثارها .

وفى آسيا الصغرى بدأت حضارة الإغريق فى الظهور منذ القرن السابع قبل الميلاد وأسست أول مدرسة فى الطب فى (كنيدوس) ثم فى (قوس) المدينة التى ولد فيها وعاش أبقراط الملقب (بأبى الطب) وعلا

شأنها فى الطب والعلاج .

امتلأت أشعار هومير فى الإلياذة والأوديسة بصور حياتهم ومعتقداتهم وخرافاتهم وكيف كانوا يمارسون الطب وأنهم من مصر أخذوا كثيراً من معارفهم « والحقيقة أن كل شىء كان يأتى إلى اليونان من مصر » . كان اليونانيون فلاسفة ومفكرين وطلاب علم عباقرة فأخذوا من الطب المصرى القديم ما رأوه صالحاً وابتعدوا ما أمكنهم عن طقوس السحر والدين فى علاجهم . وإن كان للطب الدينى شأن كبير فى معابد إسكولاب إله الطب .

ومن آراء فلاسفتهم وأطبائهم نظريات صحيحة وأخرى خاطئة . كان أرسطو يعلم أن القلب مركز الأعصاب فى الجسم وأنه عضو مقدس نبيل لا تصيبه الأمراض مطلقاً . لذلك ابتعدوا عن دراسته وجهلوا حقيقته .

وقالوا بالطبائع الأربعة التى تتوقف على سلامتها صحة الإنسان وهى الدم والبلغم والمرارة السوداء والمرارة الصفراء . فإذا زادت أو قلت كمية إحداها دل ذلك على المرض .

معابد إسكولاب العلاج النفسى

كان اسم إسكولاب هو أول اسم طبى عرف فى اليونان . ثم أقاموا له المعابد على سفوح الجبال المحاطة بالغابات تمر بها جداول المياه وجعلوا منها مستشفيات روحية يهرع إليها المرضى من الرجال والنساء والميئوس من شفائهم كالعمى والمصابين بالشلل أو الصرع أو غيرهم من الباحثين عن معجزة إلهية ترد عليهم صحتهم .

وصنعوا تماثيل لإسكولاب تصوره كرجل فى عنفوان شبابه وممتلئ صحة وقابض بيديه على عصا يلتف عليها ثعبان . وبقى الثعبان الملتف على العصا رمزاً للصيدلة والصيدليات حتى اليوم . كانت الثعابين عند الإغريق رمزاً للحياة والحكمة والشفاء . وامتلأت بهم معابدهم .

وينام المرضى فى قاعات فسيحة فى المعبد وسط الهدوء الشامل ، ويعنى الكهنة بشؤونهم أكبر عناية يتلون الصلوات والأناشيد ويفسرون لهم الأحلام ، ولا مانع من استعمال عقاقير من أعشاب مغلية أو مذابة فى النبيذ أو ممزوجة بالعسل . وقد تفيدهم مياه الينابيع التى عرفت فائدتها الطبية بعد نحو ألفى عام لاحتوائها على أملاح معدنية ، أو يمارسون تدليك أجسامهم بدهانات وزيوت أو يضمدون جراحاتهم ويضعون الجبائر على كسورهم . . .

وكان أغلب العقاقير من النباتات التى يجمعها العشابون وجامعو الجذور والتزموا بقواعد خاصة لاقتلاعها من الأرض فكان بعضها يجمع فى الظلام أو أول الشهر القمرى أو آخره أو يرددون تعاويذ أو أناشيد خاصة .

ومن بين الأعشاب الطبية كثير ما زال يستعمل حتى اليوم . وكان الثوم والأفيون هما العقارين اللذين أهدتهما الآلهة المصرية إلى هيلين لتخفيف آلامها ومساعدتها على النوم كما ذكر هوميروس . . .

وانتشرت بين اليونانيين خرافات كثيرة إلى جانب طبهم الديني في المعابد . فقد كان رقم سبعة مقدساً عندهم . هناك سبع عجائب في العالم . وسبعة أعمار للإنسان . وسبع سماوات وسبعة أبواب للجحيم وسبعة كواكب وإن الكواكب آلهة تؤثر في حياة الأفراد والشعوب وأخلاقها وانتشر أيضاً علم التنجيم .

أبقراط (أبو الطب التجريبي) :

ولد أبقراط أعظم أطباء اليونان القدماء بل العالم المعروف في عام ٤٥٠ قبل الميلاد في جزيرة (قوس) .

ويعود سر عظمته إلى نبل أخلاقه وإلى الكثير من وسائل العلاج التي بناها على أسس علمية تجريبية بعد أن كان أكثر الطب في معابد إسكولاب . والكتب الكثيرة التي ألفها أو جمعها تلاميذه في موسوعات أهمها المجموعة البقراطية وتشخيص الأعراض والأوبئة والتسنين والحكم والقسم — ترجمت إلى لغات العالم وإن كان للنساطرة والعرب الفضل الأكبر في ترجمتها وحفظها عبر الأجيال .

لم يكن أبقراط من محبذي العلاج في المعابد وهو وإن كان يؤمن بالتأثير النفسي على سرعة الشفاء فإنه كان يعتقد أنه إذا عرفت أسباب المرض أمكن علاجه ، وكان يؤمن بنظرية الطبائع الأربعة وأن المرض يحدث نتيجة نقص أو زيادة أحد العناصر الأربعة . وأن وسيلة العلاج المقيئات والحقن الشرجية أو الفصد . ولم يكن ليستعمل العقاقير إلا بعد

أن يتأكد أنها الوسيلة الوحيدة بعد أن يترك الفرصة للطبيعة أن تعمل بنفسها على استرداد المريض لصحته . كان بقراط طبيباً وجراحاً وبرع فى الجراحات ورد المفاصل المخلوعة وعلاج الكسور .

وهو إلى ذلك كله كان صيدلياً . فى عهده والعصور التالية له كان المرضى يأتون إلى دور الشفاء التى أطلقوا عليها اسم (ياتريون) وتتكون من عيادة للكشف على المرضى ومعمل لتحضير العقاقير من جرعات ومراهم وحقن شرجية . أما إذا حمل المريض دواءه معه إلى منزله فكان يوضع فى غلاف مختوم بخاتم الطبيب الصيدلى .

قسم أبقراط العقاقير إلى أدوية تستعمل من الظاهر كالمكمدات والزيوت والمراهم وأخرى يتناولها المريض منها السائل مثل الأعشاب المغلية يتجرعها مع العسل أو النبيذ أو على صورة حبوب أو قطرات للعين وهى على هيئة قلم صغير تمس به العين أو لبوسات أو غيرها . . .

كان أبقراط يستعمل فى علاجه أكثر من مائتين وثلاثين من العقاقير والأعشاب ذكرت فى المجموعة البقراطية .

وأهم من ذلك كله حكمة بقراط وإنسانيته التى خلدها الدهر لهذا الطبيب المثالى صاحب القسم الذى يردده الأطباء فى أنحاء كثيرة من العالم قبل ممارسة مهنة الطب وغيرها من المهن الطبية ومن نصائحه :

« أحثك على أن تكون كريماً وأن تقدر ظروف المريض . فلتكن خدماتك أحياناً دون مقابل . . . وإذا أتيحت لك الفرصة لإغاثة الغريب فى مأزق مالى فقدم له المعونة . لأنه حيث يوجد حب الإنسان للإنسان يكون أيضاً الحب الحقيقى لفن الطب » .

تيوفراست (عالم النبات والأعشاب الطبية) :

عاش تيوفراست الطبيب والفيلسوف وعالم النبات العظيم قبل الميلاد

بثلثمائة عام تقريباً . ولم يكن ليطلق عليه فقط اسم (أبي النباتات) لأعماله ودراساته عن النباتات بل سمى أيضاً (أبا الأقرباذين) للجهود الرائعة والدراسات القيمة التي قام بها للتعريف بخواص الأعشاب الطبية . وترك كتباً عن النباتات ووصف جميع الأشجار والشجيرات والأعشاب والحشائش. ودراسة جذورها وسوقها وأوراقها وأزهارها وثمارها وبذورها. وشرح خواص النبات وصفاتها الأقرباذينية لعلاج شتى الأمراض المعروفة حينذاك . وكان من بينها العقاقير المهدئة والمخدرة والتي تيسر الولادة أو تخفف آلام الوضع .

الطب والصيدلة فى الإسكندرية

أنشأ الإسكندر الأكبر ميناء الإسكندرية ومات عام ٣٢٣ قبل الميلاد وقد خلفه بطليموس سوتر مؤسس أسرة البطالمة التى حكمت مصر نحو ثلثمائة عام . واستعانت بعدد من العلماء اليونانيين ومهندسى المعمار فيها ليجعلوا من المدينة الجديدة مدينة ذات حضارة عظيمة ومركزاً للعلوم والفنون وأسسوا المتحف والمكتبة المشهورين اللذين حملا مشعل العلوم فترة طويلة من الزمن . إذ لم يكن المتحف مبنى بالمعنى المعروف له لحفظ الآثار بل كان معهداً للدراسات العلمية والبحوث بفضل (ستراتون) الذى كان تلميذاً لتيوفراست عالم النبات اليونانى . كان بمثابة جامعة يؤمه الطلبة الذين قدر عددهم فى وقت ما بأربعة عشر ألف طالب يتلقون المحاضرات من أساتذتهم فى مختلف العلوم والفنون فى معامل للكيمياء والطبيعة ومراصد وقاعات فسيحة لتعليم الطب والتشريح الذى كان يشتمل على تشريح الحيوانات والإنسان وسمحوا بتشريح أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام وهم أحياء .

وفى حدائقها مئات الأنواع من الأعشاب والنباتات .

وقد رحبت جامعة الإسكندرية بهؤلاء الأساتذة والعلماء والطلبة وهيأت لهم مساكن يقيمون بها .

احتكر البطالمة صناعة ورق البردى وكان أداة ثمينة فى أيديهم لتسجيل العلوم القديمة والحديثة يجعلون منها صوراً متعددة يبيعونها إلى المكتبات الأوربية الموجودة حينذاك .

وكان من بينها مجموعة أبقراط وطب قدماء المصريين وكل ما وقع

تحت أيديهم من فلسفة وعلم وأدب وتاريخ حتى قيل إن مكتبة الإسكندرية جمعت فى وقت من الأوقات ثلاثة أرباع مليون بردية مكتوبة .

فى هذا المتحف أو الجامعة الإسكندرية ظهر علم السيمياء أو الكيمياء القديمة لأول مرة فى التاريخ . كان الغرض الرئيسى منه الحصول عن طريق التجارب الكيماوية على الذهب والمعادن النفيسة من الرصاص . كما أنهم حاولوا العثور على ما سموه (المذيب العالمى) الذى يذيب كل مادة أو معدن فى الوجود . لم يعرف شىء عن المواد التى أجروا عليها تجاربهم للحصول على هذا المذيب العالمى . إذ أنه بالرغم مما كشف عن عمليات الإذابة والغليان والتقطير والترشيح والتصعيد والتنقية وغيرها وتصميم الأجهزة التى قام هؤلاء السيماويون الأوائل باختراعها وتركيبها فإنهم احتفظوا بعملياتهم الكيماوية سراً وكثيراً ما كانوا يكتبون تحضيراتهم السرية فى صورة ألغاز مبهمة لا يتاح لغيرهم تفسيرها أو الكشف عنها بل قد يحدث أحياناً أنهم هم أنفسهم كانوا ينسون مفتاح تلك الألغاز بعد فترة من الوقت .

ولم ينفق السيماويون كل وقتهم وجهودهم فى البحث فقط عن حجر الفلاسفة بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب . بل اتجهوا أيضاً إلى البحث عن عقاقير تحفظ عليهم صحتهم . والعباقرة العلماء الذين بحثوا عن الحقيقة كشفوا عن أن وظائف جسم الإنسان وصحته إن هى إلا نتيجة تفاعلات كيماوية طبيعية داخل الجسم ولذلك بحثوا عن طريق التفاعلات الكيماوية عن علاج واحد لجميع الأمراض والعلل الإنسانية . بل أملوا حياة طويلة خالية من الأمراض قد تمنحهم الخلود على الأرض وسموه (إكسير الحياة) .

كانت بحوثاً بدائية ولكنها كانت أول خطوة أعقبتها جهود العرب الرائعة التى وصلت بالعالم إلى معجزات الكيمياء فى العصور الحديثة .

وفى إسكندرية البطالمة عرف كثير من الصفات الطبية لأعشاب ونباتات كثيرة وصفات المعادن وأجزاء الحيوانات .

وكتب (نيكاندر) أحد أطباء جامعة الإسكندرية القديمة قصيدتين شعريتين إحداهما وهى (الألكسيفارما) عن العقاقير الطبية ودراسة للسموم النباتية والحيوانية والمعدنية ومضاداتها الشافية و (الترياق) وهو أيضاً عن علاج السموم بالترياق الذى أصبح له شأن عظيم فى عالم الطب والصيدلة عند العرب ثم فى أوربا خلال العصور الوسطى .

وذكر المؤرخ بلوتارك أن (فيلوميتر) ملك برجامون كان يزرع النباتات الطبية المخدرة والسامة فى حدائقه و يشرف بنفسه على جمع أعشابها وثمارها بنفسه وتجربة أثرها على الإنسان والحيوان .

ميثريدات :

ملك بنتوس . درس خواص السموم وأثر الكميات الصغيرة منها والحصانة التى تعطيها للجسم إذا زيدت تدريجياً . وكان يجرى التجارب على نفسه وأقاربه أو المجرمين المحكوم عليهم ويسجل مذكرات بملاحظاته .

وذاع صيت الترياق الذى أعده (ميثريدات) وسمى (ترياق ميثريدات) أو الترياق العالمى ،وهو مركب من مجموعة كبيرة قد تبلغ المئات من العقاقير البسيطة وسموم الثعابين يمزجها بدم البط . وأصبح أهم وأثمن عقار يباع فى الصيدليات .

كان هناك أيضاً كثير من العشابين وجامعى الجذور الذين لا تحتاج مهنتهم إلى علم أو دراسة . كما كان يساعد الصيدلى والطبيب فى عملية تحضير العقاقير طهاة وصانعو المراهم والجبائر واللبخات والذين يقومون بعمل الحجامة والفصد . . .

الطب الرومانى

انتقلت الحضارة من الإسكندرية إلى روما . وقد عرفت طب معابد إسكولاب اليونانى حتى عام ٢٢٠ قبل الميلاد حين ظهر (أركاجاتوس) الذى عرف بعقاقيره وطرق علاجه القاسية .

كان هناك أطباء ولكنهم من طبقة الرقيق إذ كانوا لا يحبون الأطباء اليونانيين ويفضلون عليهم الأرقاء والعشابين الجهلة والسحرة والدجالين واشتهر من حكام روما (كاتو) الملقب بالرقيب وجعل نفسه طبيباً لأسرته ولشعبه . والغريب أنه عاش إلى ما بعد الثمانين فى صحة جيدة . كان يعالج كل الأمراض بالكرنب فيضع أوراقها على الجروح والقروح والأورام أو يتعاطاها المرضى مع قليل من النبيذ . وهو يردد أن لا حاجة إلى الأطباء حيث تكثر زراعة نبات الكرنب. ومن وصفاته الطريفة : « يسخن بول شخص يأكل كميات كبيرة من الكرنب . ثم يوضع هذا البول على الجزء المريض . وإذا اغتسل الأطفال الصغار به فإنهم لن يصابوا أبداً بالهزال والضعف » .

وتروى القصة التالية عن الطبيب الإغريقى (إسكلبياد) وهو اسم قريب الشبه باسم إله الطب الإغريقى (إسكولاب) . فقد مرّ يوماً بجنازة فى طريقها إلى المقابر . وإذا به يضع يده على جسم الميت فى صندوقه بحركة لا شعورية دفعته إليها طبيعة مهنته ولم يلاحظ أحد من المشيعين ما فعل . ولشدة دهشته كانت تلك اللمسة السريعة كافية لأن يتأكد بأنه ما زال ينبض بالحياة ..سار « إسكلبياد » بين المشيعين حتى باب القبر وإذا به يصرخ قائلا : « أنا إسكلبياد الطبيب. لا تدفنوا الميت فهو حى . أسرعوا بإعادته إلى المنزل » ... ثار القوم وغضبوا أول الأمر ولكنهم

أذعنوا أخيراً . وفى المنزل أجرى له تنفساً صناعيا وسقاه شراباً منعشاً وإذا بالميت يتحرك ويعود إلى الحياة . . .

كان للمعجزة التى قام بها الطبيب إسكليباد أثرها فى شعب روما الذى تدفق على عيادته وكان قبل ذلك الطبيب المغمور . واطمأنوا منذ ذلك اليوم إلى علاج أطباء اليونان . وتقدم الطب وتخصصوا فى الأمراض المختلفة فى الجراحة وأمراض العين والأذن . وكانت العقاقير يصنعها الأطباء الصيادلة ويحتفظون بسريتها ويبيعونها بأغلى الأثمان . كانت قطرات العيون توضع فى أوعية صغيرة دقيقة الصنع مختومة بخاتم الطبيب الصيدلى المسؤول عن إعدادها ويكتب على الوعاء من الخارج أسماء العقاقير الموجودة فى تركيبه . وكانوا يبيعون فى الصيدليات التى تسمى عندهم الحان الطبى Talerne Medica عقاقير من الأعشاب والأملاح المعدنية وأجزاء الحيوان . من بين النباتات اليبروح والأتروبين والأفيون والفاليريان تستعمل فى التخدير أو تساعد على النوم .

وحلوى ذات رائحة عطرية تستحلب لتطهير الفم . وكان لمساحيق الوجه وأدهنته والأقنعة والزيوت والمعاجين للتجميل ركنا فى الصيدليات. واستعملت النساء لبن الحمير للاستحمام وغسل وجوههن . . .

ديسقوريدس :

كان جراحاً فى عهد الإمبراطور نيرون وأتاحت له تنقلاته مع الجيش جمع عقاقير كثيرة وتصنيفها وشرحها شرحاً دقيقاً سهل على علماء العصور التالية معرفتها. وخصوصاً كتابه عن «الأعشاب» ووصف الأفيون وكيف يحصل عليه من ثمار نبات الخشخاش وذكر فوائده للنوم والتخدير وفى السعال المزمن وحذر من تناول كميات كبيرة منه قد تؤدى إلى الموت.

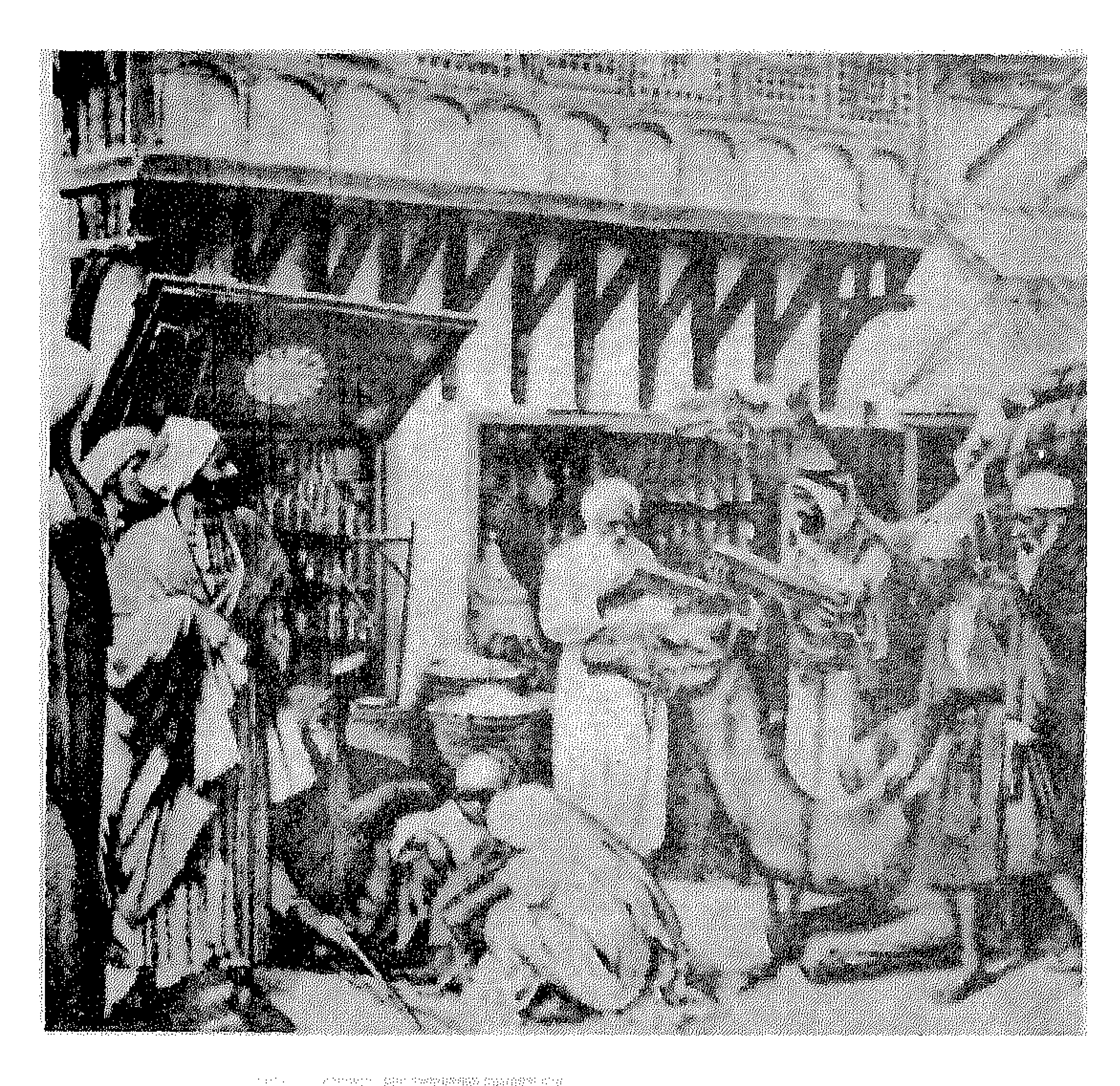
وحضر شحم الخنزير بطريقة طبية لصنع المراهم . كذلك (خل بصل العنصل) ونباتات مثل خانق الذئب والصبر والجنزبيل . ثم النشادر والزئبق وسماه الفضه السائلة . . ووصف الحديد لعلاج نزيف الرحم ولتقوية الضعاف . وقد أحصى بعضهم نحو تسعمائة وثمانية وخمسين عقاراً كتب عنها ديسقوريدس وشرحها .

سيلسوس :

صاحب الموسوعة الطبية المعروفة باسم(De Re Medica)جمع فيها كل ما عرف من عقاقير طبية كانت تستعمل فى زمانه .

جالينوس :

ظهر جالينوس بعد مولد المسيح بثمانية وثمانين عاماً أى بعد وفاة بقراط بنحو خمسة قرون وكان منشؤه فى آسيا الصغرى فى بلدة برجامون وكان بها مكتبة ضخمة وحركة علمية ضخمة مثل (قوس) مدينة أبقراط . وكان مثله عظيما بقيت أعماله وآراؤه وبحوثه خالدة وترك عدداً كبيراً من المؤلفات فى الطب والصيدلة ظلت تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر . ذكر فيها آلاف العقاقير مما عثر عليه بنفسه ودرسه فى رحلاته الطويلة فى البحر الأبيض المتوسط والخمسة الأعوام التى قضاها بجامعة الإسكندرية وأضاف إليها أمزجة للشرب كالترياق . وكان يؤمن بفائدته إيماناً عظيماً وسماه (المزيج السحرى العالمى) وكان يحضره بنفسه من أكثر من مائة عقار وأخذ مكانه فى الدساتير الطبية وفى الصيدليات بعد أن يغلف ويوضع عليه خاتم الدولة . كما قام بتحضير دهانات أساسها الصمغ والزيت وشحم الخنزير ووضع طرقاً خاصة لتحضير العقاقير ما زالت تستعمل حتى اليوم فى الصيدليات وسميت بالصيدلة



صيدلية فى بغداد فى عصر العباسيين



صيدلى عربى أثناء قيامه بتحضير دواء فى صيدليته .

الجالينية . . وكانت عيادته وصيدليته فى الطريق المقدس فى روما وكانت تسمى الخان الطبي . . .

ظهور المسيحية والطب والصيدلة

انتقلت الحضارة العلمية بعد اضمحلال إمبراطورية روما إلى فرنسا غرباً وبيزنطة شرقاً . وكان يتخذ مهنتى الصيدلة والطب فى فرنسا الأرقاء الرومان بعد هجرتهم وتحررهم . وظهرت الصيدليات المستقلة لتحضير العقاقير وبيع الأعشاب وكانت قد بدأت تنفصل عن عيادات الأطباء منذ أيام جالينوس فى روما . وتركوا من آثارهم قطرات للعين على هيئة مستطيلات صغيرة صلبة تذاب عند استعمالها ، ويبحث جامعو الآثار عن هذه المستحضرات الطبية القديمة ويعتبرونها من أندر الآثار وأثمنها .

وكان هناك الرهبان ممن طاردهم الرومان قبل الاعتراف بالمسيحية وظهر أيضاً كثير من الدجالين والمشعوذين كانوا يمارسون مهنة التطبيب بالأعشاب والصلوات والأحجبة وفتحت الأديرة أبوابها للمرضى تواسيهم وتخفف عنهم أمراضهم وجعلت لهم أماكن للإقامة كالمستشفيات وكان من الرهبان من يقوم بجمع النباتات الطبية وإعداد العقاقير منها .

أما فى الشرق فقد برزت إمبراطورية بيزنطة وأسس إمبراطورها قسطنطين مدينة القسطنطينية لتنافس الإسكندرية فى مجدها وحضارتها العلمية وإن لم يتحقق أمله لما حدث فى عاصمته ثم فى مجمع (أفسس) من مناقشات دينية وخلافات بين رؤساء رجال الدين منها .

أوريباسيوس :

ظهر فى هذه الفترة أوريباسيوس من أشهر أطباء ذلك العصر . ولد عام ٣٢٥ ميلادية فى برجامون فى آسيا الصغرى وهى التى ولد فيها جالينوس وقضى معظم حياته فى القسطنطينية فى عهد إمبراطورية بيزنطة وعرف بموسوعته الطبية التى ترجم بعض أجزائها عيسى بن يحيى إلى العربية وترجع أهميتها إلى احتفاظها بالكثير من الطب القديم الذى جمعه فى سبعين مقاله منها المسهلة والمقيئة والمدرة للبول والمنفثة للدم والمكمدات واللبخات والأغذية وسائر العقاقير وطرق إعدادها .

النساطرة

انتقلت حضارة اليونان والإسكندرية إلى الشرق بفضل النساطرة الذين أدانتهم المسيحية بالانحراف عن الدين الحقيقى . ونفى بعضهم إلى مصر وعلى رأسهم بطريركهم نسطور حيث أمضى بقية حياته فى الصحراء ومات ودفن بالقرب من أخميم . وهاجر البعض الآخر من أتباعه إلى (الرها) فى سوريا وكان بها مكتبة علمية حافلة ومدرسة طبية فنقلوا إليها مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبقراط وجالينوس وترجموها إلى الفارسية والسريانية ثم إلى العربية . وأصبحت مركزاً للطب وغيره من العلوم حتى عام ٤٨٩ حين قرر الإمبراطور (ذينو) البيزنطى إغلاق مدرسة الرها واضطهاد النساطرة . فاضطروا إلى الفرار إلى (جنديسابور) فى بلاد فارس وكان ملكها الساسانى كسرى أنوشروان فرحب بهم . وعند ما أغلق (جستنيان) جامعة أثينا سنة ٥٩٢ لجأ عدد من فلاسفة الإغريق إلى فارس وأصبحت جنديسابور من أكبر مراكز العلوم فى الشرق ونشطت حركة

الترجمة من اللغات اليونانية والهندية إلى اللغة الفارسية واللغة السريانية وازدهرت جامعاتها وكان بها مستشفى ومدرسة للطب ولعلوم الفلك والرياضة والفلسفة ، وفى مدرستها الطبية وضع أول أقرباذين للأدوية . وفى عصور الخلفاء المسلمين انتقلوا إلى بغداد فازدادت حركة الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية واللغات الأخرى إلى العربية ، ووصلت الحضارة العلمية إلى قمة ازدهارها

الصيدلة والطب وحضارة الإسلام

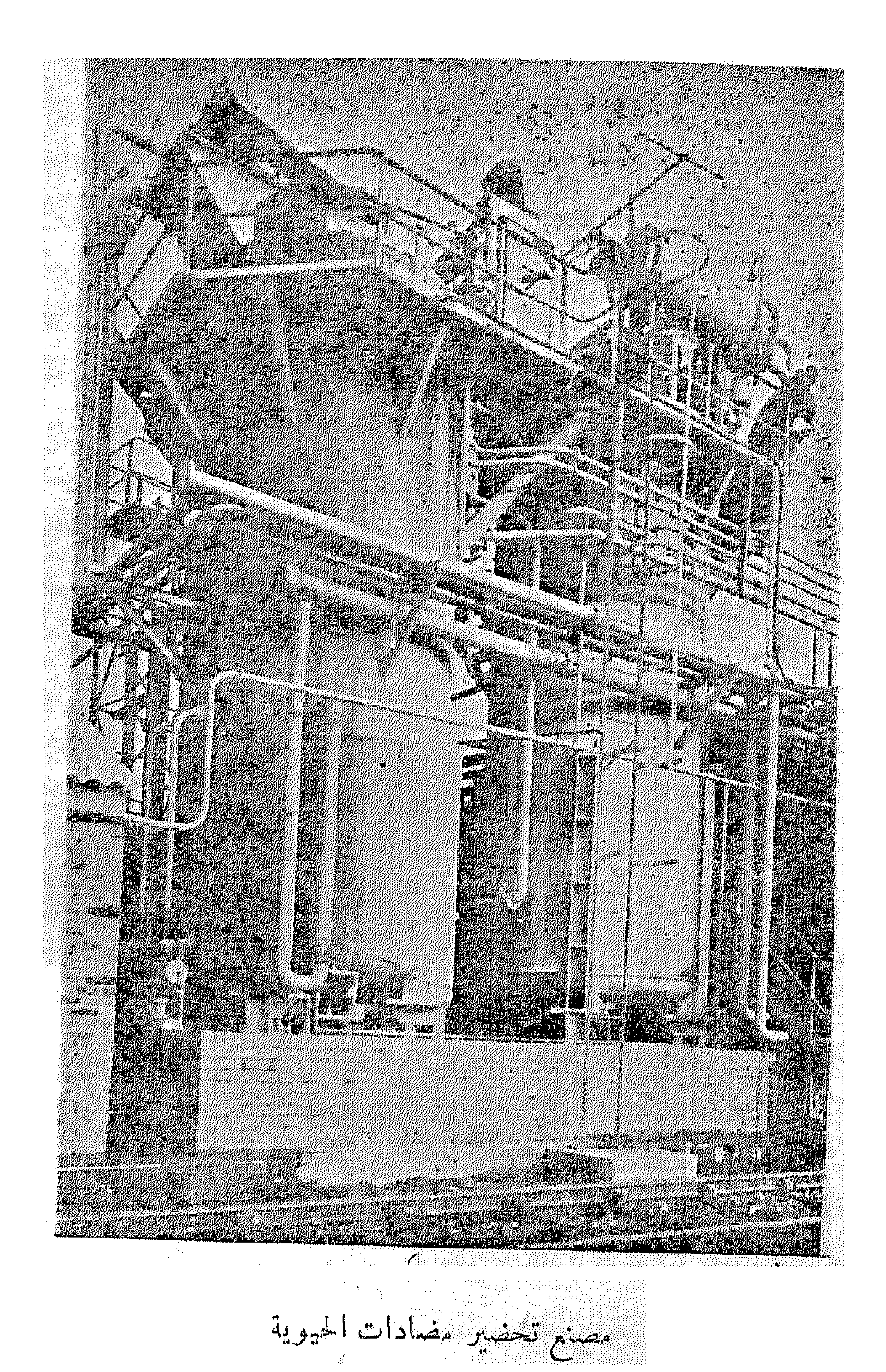
« إذا استثنينا القليل من الشعوب نرى أن العرب قد بلغوا من المدنية درجة عظيمة لم يبلغها شعب من شعوب الأرض فى مثل تلك الفترة القصيرة من التقدم والحضارة . كان دين العرب من أعظم الأديان فى التاريخ نقلوا معه إلى أوربا حضارتهم العلمية والأدبية والفنية »

(غوستاف لوبون)

وقال (جورج سارتون) فى موسوعته عن تاريخ العلم : « يقول الغربيون إن العرب والمسلمين نقلوا التراث العلمى القديم دون أن يضيفوا إليه شيئاً . وهذا الرأى خطأ . إذ لو لم ينقلوا إلينا كنوز الحكمة الإغريقية وما زادوه عليها من عندهم من إضافات هامة لتوقفت المدنية عن التقدم عدة قرون ».

كانت حياة النبى محمد صلى الله عليه وسلم مثالا يقتدى به . كان يحث المسلمين على طلب العلم ، ومن بين الأحاديث المنسوبة إليه : « العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان » مما يدل على تقديره للصحة كعلم ، ومن أقواله أيضاً : « يا عباد الله تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحداً وهو الهرم » .

أثر ظهور الإسلام على حياة المجتمع العربى تأثيراً عميقاً حاسما . فبعد أن كان مجتمعاً بدوياً يعيش فى قبائل أصبح يسكن المدن الكبيرة . وفى أقل من خمسين عاماً كانت الدولة العربية تمتد من الهند وفارس شرقاً إلى المحيط الأطلسى وشمال إسبانيا غرباً . وأصبحت الكوفة ودمشق وبغداد والبصرة وسمرقند والقيروان والقاهرة وتونس وغرناطة وقرطبة وإشبيلية وطليطلة مراكز لحضارة العرب .



مصنع تحضير مضادات الحيوية

ومع نمو الحضارة الإسلامية انتشرت اللغة العربية وأصبحت لغة الثقافة العلمية والفنية والأدبية . وترجمت كتب اليونان والهند وفارس إلى العربية . وكان من عوامل انتشار تلك الثقافة انتشاراً سريعاً صاحب انتشار الحضارة العربية الإسلامية صناعة الورق من عجينة من الكتان وغيرها من النباتات ذات الألياف تعمل منها صفحات رقيقة وتوضع فى الشمس حتى تجف . نقلوها عن سمرقند عند فتحهم إياها سنة ٧١٢ م ، وعن الصين . وأنشأوا أول مصنع للورق فى دمشق تلاه مصانع فى البلاد العربية الأخرى فأصبح ثمنه زهيداً فى متناول الجميع . وقيل إن الوراقين الذين كانوا يبيعون الورق والكتب كانوا على جانب من الثقافة . وكانت حوانيتهم مكتبات صغيرة يهرع إليها محبو العلم يقرءون الكتب وينقلون فى أوراقهم ما يريدون مقابل أجر متواضع .

وجد العرب فى جنديسابور والإسكندرية والقسطنطينية مكتبات هامة ومراكز عظيمة للدراسة والعلوم . غنية بمؤلفاتها وخاصة جنديسابور التى كانت تزخر بالكتب اليونانية المترجمة إلى السريانية . فشجعوا العلماء على الحضور إلى دمشق عاصمة الأمويين ثم إلى بغداد فى عصر الدولة العباسية وكان خالد بن يزيد بن معاوية من أوائل المشجعين على التأليف والترجمة . زاهداً الخلافة لدراسة علوم الكيمياء والطب والفلك . وأرسل فى إحضار عدد من الكتب النفيسة فى تلك العلوم وطلب من العلماء والمترجمين نقلها إلى اللغة العربية وأنشأ أول خزانة للكتب وقام بتأليف وترجمة عدد من الكتب . ويذكر التاريخ أن من بين من لبى دعوته الراهب اليونانى (مريانوس) الذى تعلم الكيمياء على يديه . وكان أول كتاب ترجم فى الطب (كناش فى الطب) لأهرون الراهب والطبيب السريانى من مدرسة الإسكندرية وهو الذى ترجمه فيما بعد (ماسرجويه) من السريانية إلى العربية .

وألف يوحنا بن ماسويه الدمشقى الذى لقب بأبى الصيادلة موسوعته الطبية التى ظلت مرجعاً للطب والعقاقير طوال القرون الوسطى، وقد أودعها تجاربه فى معالجة الأمراض، كما ذكر ما استوعبه من كتب أبقراط وجالينوس وديسقوريدس وأوريباسيوس . وكان دقيقاً فى كتابته بالرغم مما كان يلقاه من صعوبات فى ترجمة المصطلحات وأسماء العقاقير والأعشاب الطبية .

ومن أشهر الأطباء المترجمين من النسطوريين والعرب ابن أثال طبيب معاوية ، وتياذوق طبيب الحجاج وماسرجويه وجرجس بن بختيشوع الطبيب السريانى الذى دعاه الخليفة المنصور من جنديسابور إلى بغداد . وكان ابنه الطبيب المشهور أيضاً بختيشوع وحفيده جبرائيل بن بختيشوع أطباء للخلفاء أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومن تلاهم من العباسيين . وفى عصر هارون الرشيد أسس (بيت الحكمة) وهو دار الكتب جمع فيه ألوف المخطوطات المؤلفة والمترجمة وأقيمت فيه ندوات علمية وفلسفية وطبية كانت بمثابة مدارس لتعليم الطب والصيدلة والنباتات والكيمياء والفلك والرياضيات . .

وبلغ اهتمام العشابين والصيادلة بمهنتهم أنهم كانوا لا يقنعون بدراسة كتب النبات والعقاقير المؤلفة فى اليونانية أو المترجمة بل قاموا بالرحلات إلى مختلف الأقطار لجمع الحشائش والأعشاب والأملاح المعدنية يجرون عليها التجارب ويكشفون عن طرق جديدة للتحضير والتنقية واخترعوا الأنبيق وحللوا عدداً كبيراً من المواد تحليلا كيماوياً . وسجلوا ملاحظاتهم بكل عناية ودقة . وفرقوا بين الأحماض والقلويات ودرسوا مئات من العقاقير الطبية من ثمار وبذور وجذور وأوراق وأعشاب ومعادن وأملاحها وعقاقير حيوانية .

وواصلوا علم السيمياء الذى رأى النور فى الإسكندرية وجامعتها

العظيمة . وأجروا التجارب فى البحث عن حجر الفلاسفة وإكسير الحياة . وفى سبيل الحصول عليهما كشفوا عن عمليات كيماوية تعتبر أساسية فى معامل الكيمياء حتى اليوم كالإذابة بالأحماض والتكليس والتصعيد والبلورة والترشيح والتجفيف فى الأفران أو فى الشمس .

شجع المأمون الترجمة فكان يكافئ المترجم بوزن كتبه بالذهب وأرسل الرسل إلى الهند وفارس ومصر . وبعث بالحجاج بن مطر وابن البطريق وحنين بن إسحاق وغيرهم إلى القسطنطينيه للبحث عن الكتب ذات القيمة العلمية .

واختاروا من نفائسها الكثير عادوا به إلى بغداد حيث ترجمت إلى العربية.

وكتب علماؤهم من أمثال جابر بن حيان والرازى وابن سينا كتباً وموسوعات فى العقاقير والمستحضرات الكيماوية والعلاج بها أو بالأغذية . وجاء فى مؤلفاتهم الطبية كثير من الفوائد الطبية لأعشاب وأغذية من بينها (التمر) كغذاء . و (الثوم) يحلل الرياح وإذا ضمد به لسع الحية كان الترياق . (والعسل) ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » ..

و (الكمون) : يحلل القولنج ويطرد الرياح

(الراوند) : يفتح سدد الكبد

. (الخطمى) : بذره ينفع فى الحقن الملينة

(النعناع) : يقوى المعدة ويمنع القىء

(الصبر) : يفتح سدد الكبد ويذهب اليرقان .

(الحبة السوداء) : لو كان شىء يذهب السأم عن الجسم لأذهبته الحبة السوداء .

(الزيت) : جميع الأدهان تضعف المعدة إلا الزيت وهو يطلق البطن ويخرج الديدان من الداخل وهو ينفع البواسير .

المستشفيات والصيدليات

أسست المستشفيات منذ أيام الوليد بن عبد الملك ، وفى عصر العباسين أنشئ عدد كبير من المستشفيات فى جميع عواصم ملكهم ومدنهم الكبيرة . وكانوا يخصصون قسما منه لتدريس علوم الطب والصيدلة وأعد جزء خاص للصيدليات وتحضير العقاقير وصرفها للمرضى . واشتهر عدد من الصيادلة من بينهم عيسى المعروف بأبى قريش وكان صيدليا فى أحد المستشفيات العسكرية للمهدى .

وللعرب فضل كبير على فن الصيدلة . إذ أنهم أول من اعترف بالصيدلة كمهنة وعلم مستقل بذاته . وظهرت أيضاً الصيدليات الخاصة وحوانيت العطارة . يقول (تشرش) : « يعود الفضل للعرب إذ أنهم كانوا أول من أوجد حوانيت الصيدلة لبيع الأقرباذينات . ويغلب على الظن أنه لولا العرب لما وصل الطب الأوربى إلى ما هو عليه الآن » . وعرفوا الصيدلة بأنها « العلم الباحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة فى الشكل ومعرفة منابتها صينية أو هندية أو فارسية أو مصرية . ومعرفة زمانها بأنها صيفية أو شتوية أو ربيعية . ومعرفة جيدها من رديئها . ومعرفة خواصها . إلى غير ذلك ، وغرضه وفائدته ظاهران . والفرق بين علم الصيدله وعلم النبات أن الأول بالعمل أشبه والثانى بالعلم أشبه . وكل منهما مشترك بالآخر » .

وقيل إن أول صيدلية أنشئت كانت فى بغداد عام ٧٥٤ .

وفى الصيدليات العامة والخاصة أوعية مختلفة الأشكال والأحجام تحتوى على الأعشاب وأملاح المعادن من بينها العنبر والكافور والقرنفل والحاوى والصندل والزعفران والقرفة والحنظل والمر والمسك والتمر هندى والراوند

والجوز المقيئ والشمر واليبنسون والسنامكى والصبر واللحلاح وأملاح الزئبق والحديد والزرنيخ وأحماض الكلوردريك والنتريك والبورق والكبريت ونترات الفضة . . واستعملوا الهاون والمنخل والمصفاة وغيرها من الأدوات وحضروا أنواع الشراب والجلاب والجوارشنات والإكسير والمستحلب واللعوق والكحول والخل وماء الورد والزيوت العطرية والمراهم والفتائل واللبوس . . .

حنين بن إسحاق :

طبيب نسطورى ولد فى الحيرة ودعاه إلى بغداد يوحنا بن ماسويه ليعاونه فى تحضير الأدوية وترجم بمعاونة ابنه إسحاق ومساعديه مئات الكتب بعضها إلى السريانية وبعضها إلى العربية مثل الحكم والقسم لأبقراط ، والأدوية البسيطة لجالينوس وأقرباذين ديسقوريدس .

ومن المترجمين غيره ثابت بن قرة وابنه سنان . كان للعلماء نشاط ندر مثله فى التاريخ لكتابة وتأليف كتب العلوم والتاريخ والفلسفة . خلفوا وراءهم الكثير من كتب الكيمياء والنبات والموسوعات الطبية والتاريخية الضخمة مثل (قانون) ابن سينا و (فهرست) ابن النديم (ومروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودى . . .

الطبرى :

عاصر على بن الطبرى حنين بن إسحاق . وأهم مؤلفاته الطبية (فردوس الحكمة) ذكر فيه كيفية استعمال الدواء والفصد والحجامة والتعاويذ والأحجبة والأغذية الصحية وقواعد الصحة . وله أيضاً كتاب (أخبار الأمم والملوك) وكان الطبرى أستاذاً لأبى بكر الرازى .

جابر بن حيان :

كان أعظم وأشهر كيماويى العرب . اشتغل أبوه بتجارة العقاقير فى الكوفة . وتتلمذ جابر على الإمام جعفر الصادق فى الكيمياء وأقام له معملا يجرى فيه تجاربه . وذاعت أعماله والأجهزة الدقيقة التى كان يصنعها بنفسه كالأنابيب والبواتق والأفران والأنابيق . واستعمل الموازين يزن بها الأملاح والمعادن . وكان أول عالم وكيميائى استعمل الموازين الحساسة فى تجاربه الكيماوية فكان يذكر وزن كل عنصر من العناصر الداخله فى المركب الكيميائى المراد تحضيره . ومن أهم وحدات الوزن التى استعملها الرطل والأوقية والمثقال والدرهم والدانق والقيراط .

وألف كتاب (الموازين) ودرس التفاعلات فى الكيمياء وابتدع طرقاً للإذابة والبلورة والترشيح والتقطير والترسيب والتصعيد والتكليس والاختزال وغيرها !

وله مؤلفات كثيرة مثل (سر الأسرار) و (الخواص) وهو من أهم كتبه فى الكيمياء، و (إخراج ما فى القوة إلى الفعل)، و (وصية جابر)، و (كيمياء جابر) و (نهاية الإتقان) و (كتاب السموم ودفع مضارها) قسم فيه السموم إلى حيوانية ونباتية ومعدنية . فمن السموم النباتية السكران وقرون السنبل والأفيون والحنظل . ومن الحيوانية مرارة الأفاعى ولسان السلحفاة والعقارب والضفادع . ومن المعدنية الزئبق والزاج والزرنيخ . ومن كتبه أيضاً (السبعون مقالة) و (العلم الإلهى) و (الأحجار) ومؤلفات أخرى كثيرة ترجم معظمها إلى اللغات الأوربية وظلت مرجعاً فى الكيمياء فى جامعات أوربا حتى القرن الثالث عشر . ومن أقوال جابر المأثورة « إن من واجب المشتغل فى الكيمياء العمل وإجراء التجربة . وإن المعرفة لا تحصل إلا بها » . وكان جابر أول من حضر حامض

الكبريتيك بتقطيره من الشبة وسماه زيت الزاج . كما أنه حضر حامض النتريك والصودا الكاوية وماء الذهب وكربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم وأجرى التجارب على الزئبق ومركباته . وأصبح لهذه الكيماويات أهمية عظيمة فى العصور الحديثة . بل تكاد تكون من أسس حضارة القرن التاسع عشر والعشرين فى الكيمياء والصيدلية والزراعة والصناعة مما يدل على عظمة هذا الرجل وعبقريته . ويمكن اعتباره من أعظم علماء العالم فى جميع العصور . ولقد عرف العالم قدره فسموا الكيمياء علم جابر .

أبو بكر الرازى :

ولد فى الرىّ بالقرب من طهران سنة ٨٥٤م وتوفى عام ٩٢٦ . أحب الموسيقى وكثيراً ما تردد على صديق له صيدلى فى أحد المستشفيات ليعزف للمرضى الذين كانوا يجتمعون حوله . وكان لموسيقاه أثر كبير على شفائهم وبالرغم من ذلك فإن ابن جلجل يذكر أنه ترك الموسيقى لأنها لا تليق بأن يعزفها الرجل فيما بين شاربه وشعر ذقنه . وتحول إلى دراسة الطب والصيدلة وأشرف على مستشفيات الرى ثم بغداد . وبرع فى الكيمياء وخاصة علم الكيمياء وحجر الفلاسفة .

وكتب فى ذلك كتابه (المنصورى) الذى أهداه إلى المنصور أمير خراسان والذى ترجمه إلى اللاتينية فيما بعد جيرار الكريمونى وظلت تدرس الأجزاء الطبية والكيماوية منه حتى القرن السادس عشر . وهذا الكتاب الذى يعتبر من أهم ما كتب الرازى كان سبباً فى إصابته فيما بعد بالعمى ثم موته . إذ أنه عندما قدم هذا الكتاب إلى الأمير المنصور ليثبت فيه نظرياته السيميائية وإمكان تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب . كافأه المنصور بألف دينار وطلب منه أن يثبت عملياً صحة نظرياته ، فاعتذر وعندما

ألحّ عليه وقدم له كل ما يحتاج إليه من مال وأدوات أخفق فى محاولاته . فغضب المنصور وأمر بضربه بالكتاب على رأسه حتى يتمزق . وكان هذا سبباً فى إصابته بالعمى .

ولأبى بكر الرازى أكثر من مائة كتاب جمع فيها علوم العرب واليونان والهند ومصر. منها (الحاوى) وهو موسوعة من عشرين جزءاً تبحث فى كل فروع الطب والكيمياء . وكان يدرس أيضاً فى جامعات أوربا بل إنه كان أحد الكتب التسعة التى كانت تدرس فى كلية الطب بباريس سنة ١٣٩٤ .

وكان مؤلفه (الجدرى والحصبة) دراسة علمية رائعة وهى الأولى التى استطاعت أن تفرق بين تشخيص هذين المرضين . وحتى نعرف قيمته الطبية نذكر أنه طبع أربعين مرة باللغة الإنجليزية بين عامى ١٤٩٤ و١٨٦٦ وهو من أوائل الكتب التى أخرجتها المطابع الأولى فى العالم .

وله أيضاً كتاب (سر الأسرار) فى الكيمياء شرح فيه المواد الكيماوية وخواصها ووسائل الحصول عليها وتحضيرها وتنقيتها . ونظرياته فى تقسيم المعادن إلى أرواح وأجساد وزاجات وبوارق وأملاح وأحجار ، ولكل منها صفاتها الخاصة ، هى أول تقسيم لعالم كيماوى .

ومن بين الأجهزة والآلات التى يصفها أجهزة معدنية وأخرى زجاجية ويدهشك أن تعلم أن بعض أجهزته معقد ويحتاج تركيبه إلى دقة عظيمة .

وهو أول من حصل على الكحول بتقطير مواد نشوية أو سكرية بعد تخمرها . وأدخل استعماله فى الصيدليات للعلاج . وينسب إليه اختراع خيوط الجراحة المصنوعة من جلد الحيوانات .

ومن كتبه (من لا يحضره الطبيب) فيعالج المرء نفسه إذا لم يتسن له استدعاء الطبيب . وفى هذا الكتاب وصفات كثيرة مثل :

(شراب الكشوت) لمن لا يحضره الطبيب وهو نافع للصفراويين

والذين بهم يرقان وحرّ فى المعدة والكبد واحتباس الطبيعة وهو مجرب يعالج به الشباب فى الصيف فينتفعون به . يؤخذ بزر كشوت أربعين درهماً وبزر بنفسج وبزر شاهترج ، من كل واحد عشرين درهماً . وأفسنتين رومى ولسان ثور وورق ورد عراقى من كل واحد عشرة دراهم وأجاص وعناب وسبستان من كل واحد مائة حبة ينقع الجميع فى اثنى عشر رطل ماء حار ليلة كاملة . ويطبخ حتى يبقى أربعة أرطال . ويمرس ويصفى . وفى صفوه ثلاثين درهماً ترنجبين . ويصفى ثانية ويعاد إلى القدر مع ثلاثة أرطال سكر ويغلى وتنزع رغوته حتى يصير فى قوام الأشربة ، ويرفع ، الشوربة منه أوقية بماء بارد نافع .

ومن أقواله المأثورة «إذا كان فى استطاعتك أن تعالج بالغذاء . فابتعد عن الأدوية . وإذا أمكنك بعقار مفرد فاجتنب الأدوية المركبة » .

كانت كتابات الرازى تتناول آفاقاً واسعة فى الطب والجراحة . فمن ملاحظات جراحية إلى عقاقير تعالج أمراض العين والصدر والأمعاء والمثانة والمجارى البولية . استعمل مرهم الزئبق لالتهاب الجفون وأوصى بمكمدات الماء البارد فى الحميات . كما ذكر أن العلاج يتوقف على نوع الحمى وأعراضها .

وكان من وسائله العلاجية غسل المثانة بماء العسل أو مغلى بذور السفرجل . واستعمل حقن ماء الخل أو الأفيون المذاب فى ماء الورد لالتهاب المثانة وتسكين آلامها . ثم يتحدث طويلا عن الدجالين والمشعوذين وحيلهم وألاعيبهم .

على بن عباس المجوسى :

ولد فى جنوب غربى آسيا فى القرن العاشر للميلاد . وله موسوعة طبية

(كامل الصناعة في الطب) بها نحو أربعمائة ألف كلمة في جميع معارف العرب الطبية في ذلك الوقت وترجمه إلى اللاتينية قسطنطين الأفريقي.

ابن سينا :

« أعظم أطباء عصره بل جميع العصور » . وحياة هذا الفيلسوف الشاعر والعالم الطبيب والفلكي والمهندس والموسيقى الذى أحاط بكل هذه الثقافات جديرة بالدرس والفحص والتأمل يدعونا إليه ما نقرؤه على صفحات مؤلفاته الخالدة التي تركها تراثاً تتناقله الأجيال .

وتشهد قصة حياته التي كتبها بنفسه ما لاقاه في حياته العملية التي بدأت منذ العاشرة من تقلبات .

ولد ابن سينا عام ٣٨٠ هجرية في قرية (أفشنا) بالقرب من بخارى إحدى مدن التركستان . وانتقلت أسرته إلى بخارى وهو طفل صغير فحفظ القرآن الكريم وقرأ كتب الأدب ولم يتجاوز العاشرة . فلما رأى أبوه رغبته الملحة في التعلم أحضر له مدرساً يعلمه الفلسفة والمنطق . وإذا بالصبي الصغير يفوق أستاذه . فينصرف عنه ويتعلم الطب بمفرده وكذلك علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والهندسة والفلسفة والمنطق والشعر . وإذا به عالم كبير ولما يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره وقد استوعب الكثير من مؤلفات أرسطو وبقراط والفارابي .

وهو يكتب في وصف تلك الأيام : « عند ما يقبل الليل أجلس إلى مصباحي أقرأ وأدون . وكنت أغفو أحياناً إذا أرهقني التعب . وفي أثناء النعاس كانت الأفكار تتزاحم في رأسي حتى إنني كنت أجد حلولا لمشاكل عويصة تأخذ في الوضوح بعد أن استيقظ . وكثيراً ما كنت أهرع إلى المسجد ضارعاً إلى الله أن ينير بصيرتي حتى يتاح لي فهم ما

استعصى من مسائل ونظريات . واستمر الحال على ذلك أعواماً استطعت فى خلالها استيعاب علوم الكلام والمنطق والرياضيات والطبيعة . وبدأت فى دراسة كتاب (الميتافيزيقا) لأرسطو ثم قرأته أكثر من أربعين مرة حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب وإن لم أستطع فهم محتوياته واستجلاء غوامضها . ثم حدث لى أن كنت فى زيارة لإحدى المكتبات فعرض على صاحبها كتاباً زهيد الثمن لا يتجاوز الثلاثة دراهم لحاجة صاحبه إلى المال فاشتريته ووجدت أن مؤلفه هو الفارابى العالم المشهور يشرح فيه بأسلوب واضح سهل كتاب أرسطو (الميتافيزيقا) فطرت فرحاً بهذه المفاجأة السارة ووزعت الصدقات على الفقراء وأنا أحمد الله كثيراً على سابغ نعمته » .

ومنذ صباه الباكر أحب الطب فكان يعالج الناس دون أجر وسمع بأمره نوح بن منصور أمير بخارى فدعاه إليه إذ كان مريضاً وعجز عن علاجه جميع الأطباء فشفاه . وكافأه الأمير بتعيينه فى أحد مناصب قصره وفتح له مكتبته الخاصة فكان يقضى فيها معظم ساعات نهاره وليله .

ولكن حياة القصر الرتيبة لم يكن ليألفها ابن سينا فهى تخالف طبيعته التى تميل إلى التنقل والسفر فطاف بكثير من البلاد حتى استقر به المقام فترة من الزمن فى قرقشند فى قصر حاكم المدينة . ثم ينتقل إلى جرجان وينزل ضيفاً على الأمير قابوس . ويصادف أن أحد أبناء عم الأمير كان مريضا . ولم يوفق أحد من الأطباء فى العثور على علاج له . فيمسك ابن سينا بذراع الفتى ويجس نبضه فيجده سريع الضربات ويصارح أهله بأنه يعانى من مرض (الحب العنيف) . ثم يدعو ابن سينا حارس القصر ويطلب إليه أن يذكر له أجنحة القصر وتفاصيل كل منها وهو فى أثناء ذلك ممسك بنبض المريض . وإذا بالنبض يزداد سرعة فجأة عند ما يذكر الحارس اسم أحدأ جنحة القصر . وسأل الحارس عن اسم الفتيات اللاتى يقمن بهذا الجناح فيزداد النبض شدة وسرعة عند ذكر إحداهن

ويعلن ابن سينا حب الفتى لها ويخبر الأمير بذلك فيسمح له بالاقتران بها .

ويموت الأمير قابوس وينتقل ابن سينا بين الإمارات وينتهى به المطاف إلى جرجان مرة أخرى حيث يهديه أحد المعجبين به دارا يقيم بها وفى هدوء هذا البيت أتيح له كتابة الكثير من مؤلفاته .

وسافر ابن سينا إلى قزوين ثم إلى حمدان وهناك عينه أميرها وزيراً له . وفى حمدان قام بتأليف كتابه المشهور (القانون) وهو موسوعة ضخمة تقع فى عشرين مجلداً جمع فيها أشتات المعارف الدينية والسياسية والطبيعة وما وراء الطبيعة والموسيقى والطب والكيمياء والعقاقير .

وقد توافرت له أسباب الحياة السعيدة والبحث والدرس وتبادل الآراء والأفكار مع العلماء والفلاسفة والأطباء والكيماويين .

ويتألف الجزء الخاص بالطب من (القانون) من خمس كتب الأول منها للتشريح ووظائف الأعضاء وفى الأمراض وأعراضها وأسبابها وقوانين العلاج الطبى . والأجزاء الثلاثة التالية خاصة بقوانين الطب وقوى الأدوية وأمراض الجسم مبتدئاً بالرأس حتى القدمين . والمجلد الخامس وهو الأقرباذين للأدوية المركبة . ويقول سارتون عن ابن سينا « وفى الغالب لم يتناول العلماء مؤلفاً طبياً بالدرس مثل هذا الكتاب » .

وظلت موسوعة القانون الطبية مرجعاً للطب والصيدلة فى كثير من بلاد العالم حتى أوائل القرن الثامن عشر . ولنتأمل ما جاء فيها من ذكر أنواع العطارات والعقاقير ، وفوائدها للأمراض المختلفة . وفى اعتقاده أن فى الإمكان معرفة الخواص الأقرباذينية للدواء من شكله ومذاقه ولونه ورائحته . ووصف العلاج بالكى والتدليك والاستحمام والفصد والحجامة والحقن الشرجية . وذكر الكثير من النباتات الطبية التى استعملها اليونان والعرب والفرس والهند والصين ووصفات للتجميل من بينها كريمات للوجه والجلد وغسول للشعر ، وفى الجزء الخاص بالعقاقير المركبه ذكر طرق

تحضير نحو ثمانمائة عقار مركب .

وله كتاب خاص بالمعادن ظل أجيالا طويلة من أهم مراجع علم طبقات الأرض فى جامعات أوربا .

وموسوعته الأخرى الضخمة هى (الشفاء) فى الفلسفة . ومن كتاباته فى (القانون فى الطب) : « ومن علامات الصحة الشعر الطويل ورائحة طيبة وجسم جميل التكوين » ويقسم عمر الإنسان إلى أربع فترات الأولى فترة النمو وتمتد من الولادة إلى سن الثلاثين. والثانية سن الحيوية والجمال من الثلاثين إلى الأربعين . والثالثة سن الاضمحلال من الأربعين إلى الستين والرابعة هى فترة نحو الفناء وهى ما بعد الستين . ثم هو ينصح الأم المريضة بألا ترضع طفلها ويشير بالاستعانة بالمرضعة ويجعل لاختيارها شروطاً صحية لا تفترق عما نعرفه اليوم . ويتحدث عن الفطام والتسنين ، ويوصى بتدليك اللثة بدهن الديك . وهو يصف اللبن الحامض كعلاج للإسهال عند الأطفال . ويذكر كثيرا من النصائح والإرشادات فى تربية الأطفال وكيفية تدريبهم على كبح جماح شهواتهم وتحويل اهتماماتهم إلى نواحى الروح والفكر ، وكيف أن جمال الوجه والجسم لا يكون إلا لذوى الأخلاق الحميدة .

ثم يوجه اهتمامه إلى الشيوخ كبار السن وواجب تنظيم غذائهم والمحافظة على نظافة أمعائهم . ويذكر فى فصول طويلة فوائد التمرينات الرياضية والتدليك وحمامات البخار .

وتقرأ أحاديثه عن الزواج فى لذة وسرور إذ يقول : وعلى المتزوجين أن يراعوا حسن العلاقات بينهم فيسود الوئام وينتشر جو السعادة والصفاء والهناء . وبذلك يهيئون للأطفال فى فترة الحمل جوا يشمله السعادة . فيولدون أقوياء الجسم . وجوههم جميله وطباعهم هادئة وديعة » .

ويتحدث عن مياه الشرب فيقول « وأحسن المياه هى الجارية التى

تتعرض للرياح وأشعة الشمس وغلى الماء أو التقطير لتنقيته ثم تطهير جو البلاد الموبوءه بحرق الأعشاب العطرية » .

وبالرغم من حياته الآمنة فى طهران فإنه لم يكن مطمئناً إلى الإقامة هناك فكتب إلى نجم الدولة أمير أصفهان يطلب إليه الالتجاء إلى بلاده . فلما علم بذلك أمير حمدان عاقبة بالحبس فى حصن (فردا جان) . فارتاح إليه وكأنه وجد فى سجنه مبتغاه . إذ كانت الحياة الهادئة تساعده على تأليف كتب أخرى جديدة . فكتب فى سجنه كتاب (الحكمة) وكتب فى الطب والتصوف والحب . وعندما أطلق أمير حمدان سراحه لم يلبث أن فرّ هارباً وقاسى فى رحلته عبر الصحارى والجبال الأهوال والمتاعب يذكرها فى كتاب (بحث فى الحظ) ويقول فيه « إن مرور الأيام كفيل بنسيان الهموم والمتاعب . وهو يطفىء شهوة الانتقام ، ويهدئ من ثورة الغضب ويقتل الأحقاد . فإذا بالماضى وكأن لم يكن . تنسى فى غمارها المصائب والمتاعب » .

ووصل إلى أصفهان مدينة الزهور والورود فاستقبله أميرها بالإكرام والترحاب . وأغدق عليه هداياه وبذلك بدأت صفحة جديدة من حياة ابن سينا. وأخذيعمل ويواصل ليله بنهاره. ويعقد الحلقات العلمية والفلسفية . ومات وهو فى السابعة والخمسين . ولعل من سخرية القدر أنه مات بعد أن قاسى من مرضى الدوسنطاريا أمداً طويلا لم يستطع له علاجاً . وهو الذى كانت تهرع إليه جموع المرضى . وقد ذاع صيت نبوغه فى علاج الأمراض حتى بلغ أقاصى الأرض . وقد بدأت كتبه تترجم منذ القرن الثانى عشر . وكانت فلسفته ودراساته فى الطب والطبيعة والميتافزيقا تدرس فى السربون بباريس . أما قانون الطب فقد جعل أساساً لبرامج تعليم الطب فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وكان ابن سينا شاعراً ومن أشهر قصائده الخالدة قصيدته التى

مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

ومن أرجوزته الطبية :

الطب حفظ صحة برء مرض من سبب فى بدن ومن عرض

الكندى :

ولد حوالى سنة ٨٠٠م وتوفى فى بغداد عام ٨٧١ . من أبرز العلماء فى العصر العباسى كان طبيباً ومترجماً وكيماوياً وموسيقياً وترك فيها نحو خمسين مؤلفاً ترجم بعضها إلى اللاتينية (جيرار الكريمونى) . وأهم كتبه الطبية والصيدلية (الطب الأبقراطى) — (والغذاء والدواء المهلك) — (والأدوية الشافية من الروائح المؤذية) — (كيفية إسهال الأدوية وانجذاب الأخلاط) — (أشفية السموم) — (الأدوية المركبة) — وفى الكيمياء رسالة يحذر بها من خداع السيماويين وكذب ادعائهم تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة — ورسالة فى كيمياء العطور .

ثابت بن قرة :

عاصر الكندى وكان طبيباً وعالماً فى الرياضيات والفلك وترجم وألف الكثير من الكتب .

سنان بن ثابت بن قرة :

كان طبيباً للخليفة المقتدر وكان الخليفة يثق فيه كما يثق فى أبيه ثابت بن قرة . لذلك عين سنان رئيساً للمحتسبة لا يسمح لأى طبيب

أو صيدلى أن يحترف مهنته دون تأدية امتحان أمامه . إذ حدث فى بغداد عام ٩٣١ أن أحد الأطباء أخطأ فى علاج أحد المرضى مما أدى إلى وفاته ، فتقدم أهله بالشكوى إلى الخليفة المقتدر .

ويذكر القفطى أن ثمانمائة وستين طبيباً تقدموا للامتحان أمام سنان ابن ثابت . وترك مؤلفات طبية وكان له الفضل فى إنشاء مستشفيات عامة وأخرى متنقلة وزيارة المرضى فى السجون والعناية بهم .

البيرونى :

ولد أبو الريحان البيرونى فى خوارزم وتوفى عام ٤٤٢ هجرية وصفه سخاو بقوله « البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » عاصر ابن سينا وكانت بينهما مجادلات فى العلوم والفلسفة . كتب البيرونى فى الطب والفلسفة والصيدلة والرياضيات والفلك والشعر والطبيعة . وكان أول من حدد الوزن النوعى للعناصر تحديداً دقيقاً إلى حد كبير إذا قورنت جداوله بنظائرها الحديثة وألف كتباً عن المعادن والأحجار النفيسة ومن أهم كتبه (الصيدلة) وهو يعرف مهنة الصيدلة والعقاقير المفردة والمركبة واستعمال العقاقير البديلة عند تعذر وجود العقاقير الأصيلة . وظل فى وطنه حتى الأربعين من عمره دون أن يسافر إلا نادراً . ثم دعاه سلطان الغزنويين فلبى الدعوة وأقام عنده أكبر شطر من حياته بعد الأربعين وقام برحلة إلى الهند ألف خلالها كتاباً عن علومها وأديانها وفلسفتها .

ابن البيطار :

من أكبر علماء النبات العرب . قام برحلات إلى اليونان ومصر

والمغرب والشام وجمع النباتات والحشائش ولازم ابن أبى أصيبعة المؤرخ الطبيب الذى قام بتأليف موسوعته (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) ذكر فيه حياة نحو أربعمائة من رجال الطب والكيمياء والطبيعة من العرب واليونان وقد اعتمد على كتاب القفطى المصرى (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) فى جزء كبير منه .

درس ابن البيطار النباتات الطبية والأعشاب وأخذ يقارن بين دراساته الخاصة وتجاربه عليها وما كتبه ديسقوريدس وجالينوس من الغرب والإدريسى والغافقى من العرب . وعينه الملك االصالح الأيوبى رئيساً للعشابين فى مصر . وأشهر كتبه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) و (المغنى فى الأدوية المفردة) .

من الدولة العباسية إلى الأندلس

عند ما ضعف خلفاء الدولة العباسية بدأ بعض حكام ولاياتها يستقل بها . وظهرت الدولة الطولونية فى مصر وأعقبتها الإخشيدية ثم الفاطمية وكذلك الدولة السامانية فى بخارى والغزنوية فى غزنة والحمدانية فى حلب والموصل .

مستشفى نور الدين فى دمشق :

بنى السلطان نور الدين مستشفاه لذكرى انتصاره على الصليبيين. قال عنه مؤرخو ذلك الوقت إنه لم يكن له مثيل فى العالم . وفى إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى حكاية الظاهرى الرحالة والمؤلف المصرى الذى أراد أن يقف بنفسه على حال المستشفى وأعجب بما شاهده من عناية فائقة بالمرضى وعند ما جاء دور الكشف عليه فحصه رئيس الأطباء فحصاً دقيقاً وجس نبضه فوجد أنه صحيح لا مرض فيه . وبالرغم من ذلك فقد وصف له الدجاج والأشربة والفاكهة الشهية والحلوى وبعد ثلاثة أيام من إقامته كتب له وصفة قدمت إليه وقرأ فيها (إن حد الضيافة فى المستشفى ثلاثة أيام) .

وزار الرحالة ابن جبير هذا المستشفى ووجد القائمين بالإشراف عليه يعنون بتسجيل الإصابات المرضية وقائمة بأسماء المرضى والأموال التى تنفق على المستشفى. ولاحظ عنايتهم بالتطبيب والطعام والدواء وكل هذا دون مقابل .

وكان فى المستشفى مكتبة وصيدلية ومدرسة لتعليم الأطباء والصيادلة الذين كانوا يتقدمون للامتحان قبل ممارسة مهنتهم .

وكان المحتسبة وهم الذين يقومون بالتفتيش على الصيادلة والأطباء والحجامين والفصادين والمجبرين يراقبون أعمالهم .

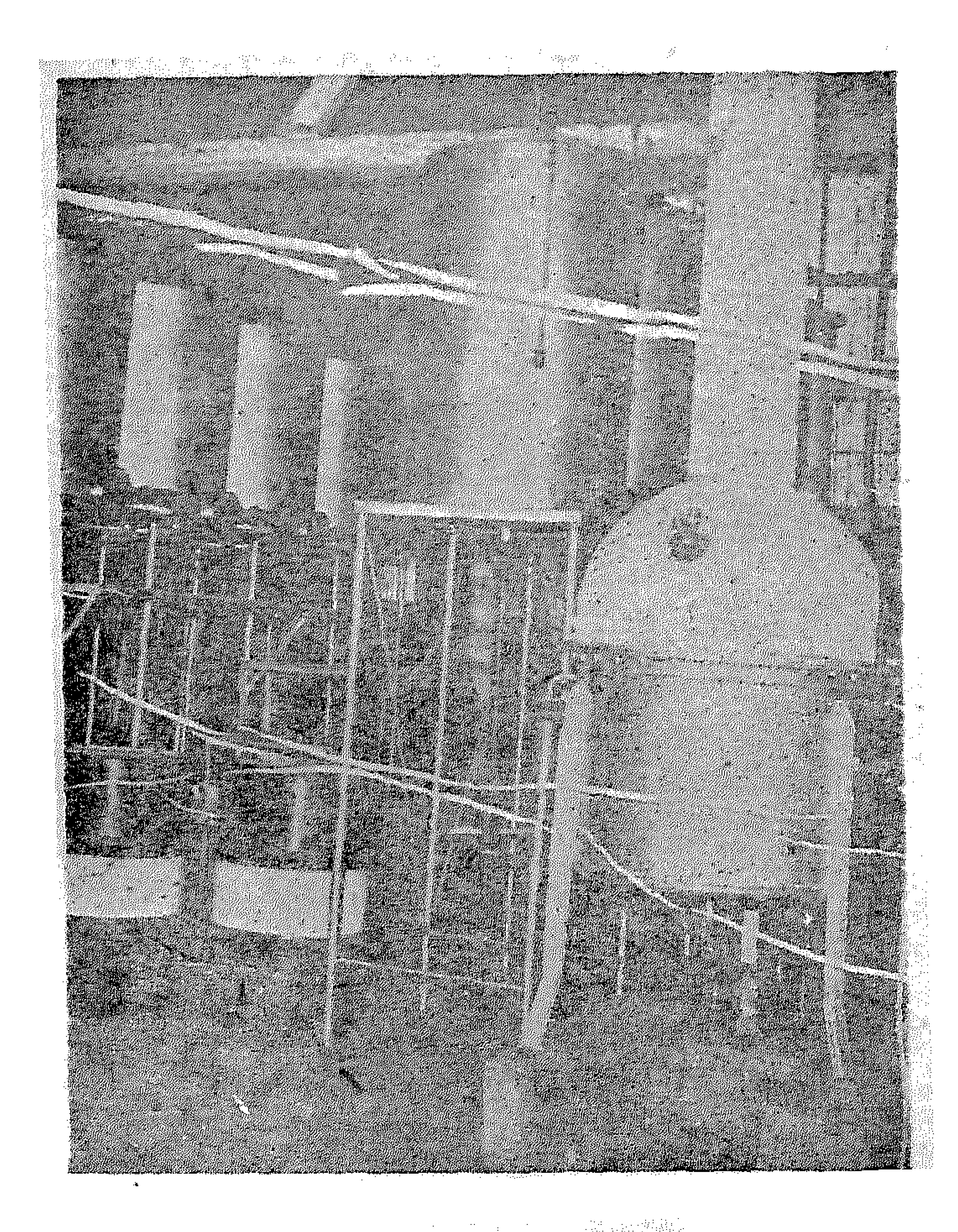
مستشفى ابن طولون فى القاهرة :

أرسل العباسيون أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤هـ وأراد أن تنافس بغداد فى حضارتها وعلومها . فأنشأ أول مستشفى كان يطلق عليه (بيمارستان) فى الفسطاط بعد وصوله إليها بخمسة أعوام وألحق بالمستشفى صيدلية ورتب لهما الأطباء والصيادلة للعناية بالمرضى . وكان المريض عند دخوله تنزع عنه ثيابه وتحفظ لحين خروجه ثم يلبسونه ثياباً خاصة ويفرض له الغذاء والدواء حتى يشفى (فإذا أكل فروجاً ورغيفاً يعطى ماله وثيابه) وينصرف إلى بيته .

الفاطميون فى القاهرة

كانت القاهرة أيام الخلافة الفاطمية من عواصم الحضارة العربية لا تقل ازدهاراً ومدنية وحضارة عن بغداد وأنشئ الجامع الأزهر فى القاهرة فكان مركزا للعلم والدين يجتمع فيه علماء العالم وأدباؤه وفلاسفته كما كانوا يجتمعون للدراسة والتدريس فى جامعة الإسكندرية القديمة . إذ كان الأساتذة والطلبة يقيمون فى مساكن ملحقة بالجامع الأزهر وكانت مكتبته المسماة بالمكتبة الفاطمية من أغنى مكتبات العالم قيل إنها جمعت مليوناً من الكتب .

ومن المستشفيات التى أنشئت فى القاهرة فى ذلك العهد المستشفى المنصورى . وقيل إن السبب الذى دعا الخليفة المنصور إلى إنشائه أنه أصيب بمغص كلوى اضطره إلى دخول مستشفى نور الدين فى دمشق وبعد أن شفى زار أقسام المستشفى قبل خروجه وأعجب بكل ما شاهده ونذر ببناء مستشفى يفوق مستشفى نور الدين إذا هو ولى الخلافة وقد وفى بالنذر



مصنع تقطير شركة النصر للعطور

عام ١٢٨٣ م . وشيد أعظم مستشفيات العصور الوسطى . كان بناء مربعاً تتوسطه النافورات والأشجار والزهور . وكان القرآن الكريم يتبادل تلاوته خمسون من المقرئين ليلا ونهاراً ويقوم الوعاظ بتفسير آياته البينات والوعظ والإرشاد . وكان بالمستشفى أقسام خاصة للمرضى ، فالجراحة قسم وللعيون والدوسنطاريا والحميات والجذام والأمراض العقلية أقسام أخرى وجناح خاص لكل من الناقهين من الرجال والنساء وكانت به فرقة موسيقية تعزف أثناء النهار ومسجد ومكتبة وقاعة فسيحة للمحاضرات وصيدلية يقوم بالإشراف عليها صيدلى . وكان المرضى يمنحون عند خروجهم من المال ما يغنيهم عن العمل فترة النقاهة .

وقد تجدد بناؤه عام ٧٢٦ هجرية أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون. وجدده مرة أخرى الأمير عبد الرحمن كتخذا .

وجعل فيه خدمة ليلية وتوافرت فيه جميع صنوف الأدوية والشراب والعلاج دون مقابل أو تمييز :

وكان الصيادلة لا يمارسون عملا فى هذا المستشفى أو غيره من المستشفيات — التى وصل عددها إلى عشرات المستشفيات — إلا إذا كان معروفاً عنهم الأمانة والكفاية ويعطون التراخيص بعد تقييد أسمائهم فى سجل خاص بهم كما كان لكل صيدلية أمين يتسلم ما بها ويحافظ عليه . وفى القاهرة مفتشون للصيدليات الخاصة والعامة وحوانيت العطارة والعشابين يراقبون أعمالهم .

تذكرة ابن داود :

ترك لنا عدد من أطباء العرب وصيادلتهم والدارسين للنباتات والأعشاب الطبية والعقاقير على سائر أنواعها كتباً لا تقل أهمية عما كتبه الأطباء والعلماء أنفسهم . فهذه تقدم لنا صوراً واضحة لما كان عليه العلاج

بالعقاقير والأعشاب والأحجبة والوصفات الطبية الشائعة الاستعمال توضح لنا مهنتي الطب والصيدلة حتى أواخر القرن الماضي .

ورسموا لنا صوراً لصيدلياتهم العربية الخاصة فى عواصم حضاراتهم وقد ارتدى الصيدلانى ثياباً بيضاء واقفاً بباب صيدلية يصرف الدواء ومن ورائه الأرفف الممتلئة بالأوعية والقوارير . وفى صورة منها الصيدلى يشترى من أحد العشابين المتجولين بعض ما يحمله من أنواع الحشائش التى كانوا يعترفون بمزاياها الطبية ويجمعونها أو يستوردونها من بلاد الصين والهند وأفريقيا الشرقية من صمغ عربى وتوابل وقرنفل وكافور ومسك وصندل وحب العروس وعنبر . . .

وكانوا يستخرجون السكر من قصب السكر ويصنعون منه الشراب والجلاب وأنواع الأشربة التى أتقنوا صنعها . كما أنهم كانوا ذوى خبرة فى استعمال أملاح معدنية كثيرة كأملاح الزئبق والرصاص والحديد والصودا والبوتاس ، كما أنهم كانوا يحضرون فى الجزء الخاص بالمعمل من الصيدلية الزيوت العطرية والكحول والأرواح .

و (تذكرة ابن داود) كتاب ضخم معروف لدى العطارين ومحبى البحث فى العقاقير العربية القديمة كما أنه كان من مراجع الصيادلة فى القرون الماضية ويشمل عقاقير وأعشاباً ووصفات طبية مرتبة حسب الحروف الهجائية بل به بعض التعاويذ والرقى والأحجبة والبخور وتأثير الأبراج على الأمراض . أما العقاقير والوصفات الطبية والعلاج فجزء كبير منها مأخوذ من كتب السابقين من أمثال ديسقوريدس وموسوعته عن العقاقير والأعشاب الطبية وجالينوس وكتبه التى كان من أهمها (العقاقير البسيطة) و (كناشة الطب للراهب السكندرى أهرون ثم (الحاوى) و (الأقرباذين) .وكلاهما لأبى بكر الرازى و (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) لابن البيطار والأدوية المفردة للغافقى .

ولد داود بن عمر فى أنطاكية عام ٩٥٠ هجرية وقام برحلات إلى دمشق وغيرها من بلاد الشام ثم استقر به المقام فى القاهرة وله كتب أخرى غير (تذكرة أولى الألباب) منها كتاب (البهجة والدرة المنتخبة فيما صح من الأدوية المجربة) و (غاية المرام فى إصلاح الأبدان) ومن تذكرة أولى الألباب المشهورة بتذكرة داود .

(الحناء) : « الحناء نبت يزرع .ولا يوجد بدون الماء . ورقه كورق الزيتون ولكنه أعرض يسيرا . وليس فى الخضابات أكثر سرياناً منه ومسحوقه عظيم النفع فى قلع البثور . وماؤه يذهب اليرقان ويفتت الحصى ويقطع النزلات وأنواع الصداع . وهو مع السمن ودهن الورد يحلل الأورام ووجع المفاصل ويقطع الجرب المزمن ويلحم الجراح ويذهب قروح الرأس ويصلح الشعر خصوصاً بماء الكزبرة » .

ويصف (الجوز المقيء) وهو الذى يستخرج منه الصيادلة الكيماويون الآن أملاح الاستركنين وتدخل صبغة الجوز المقيء فى العقاقير المركبة حتى اليوم . وكذلك (جوز ماثل) وهو الداتورة (السترامونيوم) يكتبه كثير من الأطباء فى العصر الحالى لعلاج السعال وأمراض الربو أو يستعمل كأعشاب تحرق يستنشقها المريض أو سجاير يدخنها لضيق التنفس.

ويقول ابن داود عن الداتورة « قيراط منه فى النبيذ يسكر سكراً شديداً . وهو مخدر ومنوم وردىء للدماغ . ودرهم منه يقتل ليومه ، ويداوى بالقىء بماء قد غلى فيه النطرون ثم يسقى اللبن الحليب مطبوخ فيه زعتر . وهو يورث النوم . والإكثار منه يضنى وهو عدو القلب والشربة منه دانق » .

وعن قشر الرمان « إن طبخ قشره خصوصاً مع العفص حتى ينعقد يقطع الإسهال المزمن والدم شرباً ويلحم القروح والجراح طلاء وشرباً وإذا شرب مطبوخاً أسهل الديدان » .

(الشمر) : « الشمر عطرى ذكى الرائحة وهو برى وبستانى ويوجد بمصر فى غالب الأزمنة . ينفع فى الخفقان والسعال والربو وعسر النفس ويحلل الرياح الغليظة والقولنج ووجع الجنب ويصلح المعدة ويدر البول والحيض وينقى المثانة والأخلاط اللزجة ويفتت الحصى ويزيل الحميات والفواق وخبث النفس والصداع ومحروقه يمنع انتشار القروح » .

(الزئبق) : « أحد أصلى المعادن كلها وهو الأنثى . يوجد قطرات تزيد إلى أن تمتزج ويستخرج أيضاً من أحجار زنجفرية بالنار على طريق التصعيد . والزئبق بارد رطب إذا مزج بالكندر والراتنج والشمع والزيت والحناء ودهن به . والزئبق من الداخل قتال . وكثيراً ما يفضى إلى الأمراض الرديئة كوجع العصب . ويعرض منه ما يعرض من السموم ويصلحه القئ بالسيرج واللبن والماء الحار » .

ومن كتب الطب الشعبى المشهورة أيضاً كتاب :

(منهاج الدكان ودستور الأعيان لأبى المنى داود بن أبى النصر من علماء القرن السابع الهجرى .

وفى الفصل الأول منه نصائح (لمن استصلح نفسه أن يكون متقلداً بعمل هذه المركبات أن يكون على غاية من الدين والثقة والتحرز والخوف من الله تعالى أولا ومن الناس ثانياً) : « اعلم . . . وفقك الله لطاعته وأرشدك إلى مرضاته أن الله تعالى خلق للإنسان عقلا وجعله كالسراج يفرق به بين الخير والشر والحسن والقبيح . وجعله مخيراً فى ذلك وأن المبدأ منه تعالى فإذا أراد الله بإنسان خيراً أجرى الخير على يديه وأعانه على فعله وإذا كان غير مستحق لذلك تخلت عنه العناية ففعل الشرور فقوبل عليها فى الدنيا والآخرة . والآن فاحرص يا ولدى أن تكون فى نفسك أولاً تقوى الله تعالى والخوف خوف محبة فى ذاته . لا خوف عقابه فإن أجرك يكون عظيما ويكون جانبك من الناس سليما . . . واعلم أنه لا

ذنب أعظم من ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق لا سيما من كان ضعيفاً أو مسكيناً . كمثل مريض قد أشرفت نفسه على الهلاك فيستدعى طبيباً حاذقاً فيكتب له ورقة تطمئن بها جوارحه على أنها يكون بها برؤه مع عناية الله تعالى واتكل فيها على الصيدلانى أعنى العطار فقد رجع الأمر إليك فلا إثم إن فرطت إلا عليك فهل تستحسن أنت لو كنت مريضاً أن تفرط فى حقك وأنت تعلم أن هذا التفريط مؤد إلى إتلاف المال والروح وأنت تعلم قدر العقاب من الله تعالى على هذين الذنبين . وفى هذا القدر من التنبيه على ما ينبغى كفاية لمن كان ذا بصيرة ولبّ نير فتذكره بكرة كل يوم ومساءه واحفظه ولا تنساه والله أعلم » .

ومن الأدوية المركبة التى ذكرها (منهاج الدكان) الجلاب وهو الأشربة السكرية مثل شراب الورد وشراب دينارى . ومثات الأشربة والمربيات والربوب ، وهذه الأخيرة عصير الفاكهة المركز دون إضافة سكر والجوارشنات لهضم الطعام والسفوف والأقراص والحبوب واللعوقات والترياق والأيارجات والأكحال والأشيافات لعلاج العيون والمراهم للجروح والقروح . وأدهان لزينة الوجه والبخورات والفتائل المسهلة والقابضة والضمادات والجبارات والسعوطات والنفوخات . وفى هذا المنهاج ثبت حسب الحروف الهجائية للأدوية البديلة عند تعذر الأدوية الأصيلة وكيفية فحص العقاقير ومركباتها والتأكد من عدم غشها والذى يقوم المفتشون بالتفتيش عليها . وأعمار الأدوية وكيفية حفظها دون تلف .

وكتاب شعبى ثالث اسمه (الرحمة فى الطب والحكمة) ومما جاء فيه من وصف الأعشاب والتركيبات واستعمالاتها ، وهذه من بين آلاف الوصفات كنموذج لها :

(الثوم) : « قال بقراط الحكيم شفاء للناس من السموم وهو حار يابس حريف إذا أكل مع العسل على الريق قطع البلغم والرطوبات

الفاسدة من الجوف وقوى المعدة وقتل الدود المتولد من العفونات . وأذهب البواسير وطيب النكهة وحلل الريح المنعقدة وإذا سحق مع ملح الطعام وضمد به البواسير الرطبة حللها وقطعها . وإن ضمد به نهش الأفاعى والحيات وعض الكلاب والوحوش وكل شىء له سم يسرى فى البدن قطعه وسكن الوجع وكان سبباً للعافية والله أعلم بغيبه وأحكم »

(الصبر) : « الصبر معتدل الرطوبة يدخل مع كل دواء ومرهم بطبيعته وهو أمان للجوف من جميع العلل إذا أدخل مع المعاجين والسفوفات . . . »

(الحلبة) : « إذا طبخت وشربت لانت العروق والمفاصل اليابسة وأطلقت عسر البول وفتتت الحصاة وتولد منها غذاء جيد . وفى حديث غريب : لو يعلم الناس ما فى الحلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً . . »

(الكندر) : « وهو اللبان الذكر يقطع البلغم وينفع فى السعال . . »

(بزر قطونه) بارد رطب إذا نقع مع السكر فى ماء بارد وماء ورد وعصر وشرب ماؤه سكن الحرارة التى فى الجوف . وإذا نقع فى الخل وحده ساعة ودهن به الأورام والدمامل خف الورم وسكن الألم » .

(وصفة لصبغ الشعر) : « تأخذ حناء مطبوخة وتضربها بالماء حتى يصير رقيقاً . ثم تأخذ من العنب الأسود إن أمكنك وتجعل الماء والحناء فى إنبيق وتصعده وتأخذ ما يقطر منه فيخضب به الشعر الأبيض ثلاثة أيام متوالية فإنه يسود الشعر » .

وبالكتاب علاجات عديدة للصداع وأوجاع العين وضعف البصر وعلاج قروح الرأس وكحل للعين ولنمش الوجه (يطلى الوجه بماء البصل) والخل ونفعه أيضاً فى البهاق والبرص . وعلاج زكام الأنف وقروح الفم وتشقق الشفتين وعلاج الأسنان وتبييضها . وبحة الصوت ووصفة طبية لها وهذه هى :

« خذ جزء فلفل ودار فلفل والجلجلان مثلهم لا تفعل »
« وقاع قلة لهـا مثيل تبرى الأذى ويصلح العليل »
« وجوزة الطيب على البيان وجوزة شرك إليه ثانى »
« لسان عصفور كذا فضفه لأنه من شكلهم فاعرفه »
« واجمعهم جمعاً بسحق ناعم حتى يصير كالرماد الفاحم »

وعلاج داء الثغلبة فى الشعر والبهاق وأوجاع الظهر والمفاصل وضيق النفس وعلاج الحروق من النار أو الشمس وعلل الكبد والكلى والطحال وطرق الفصد والحجامة وحصى المثانة والبول الدموى والصديد وعلاج البواسير . وبينما يعالج أكثر الأمراض بالعقاقير فهو يستعمل السحر والتعاويذ كما أنه يذكر صناعات كيماوية مثل صناعة الحبر الأحمر والأخضر والأزرق والصبغات واستخراج الزيوت الغذائية والعطرية من النباتات وبذورها وزهورها وأوراقها وكيفية دبغ الجلود .

حضارة العرب فى الأندلس

فتح العرب الأندلس فى أوائل القرن الثامن بعد الميلاد فأصبحت إسبانيا فى مقدمة البلاد التى كان لها أثر رائع فى حضارة العلوم والفنون ومنها الطب والصيدلة والنبات. ظهر فيها عدد لا حصر له من العلماء والأطباء والنباتيين والفلاسفة ومختلف أنواع العلوم. وكان لتلك الحضارة الفضل الأكبر فى انتقال علومهم وعلوم من سبقهم من أطباء وعلماء وفلاسفة العالم العربى واليونان إلى أوربا والعالم أجمع. وأعظم ما يخلد ذكراهم حفظهم لذلك التراث العظيم الذى لولاهم لاندثر كثير من نفائسه إلى الأبد.

أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية فى إسبانيا كلها وأنشأ حكامها مدارس للطب والفلسفة والعلوم والفنون الأخرى وبذلوا المال فى سخاء إذ كانت دولتهم قد بلغت درجة عظيمه من الثراء والتقدم وأرسل الملك عبد الرحمن الثالث (٩١٢ — ٩٦١م) لجمع الكتب واجتذاب العلماء للبحث والدرس والتأليف. فأصبحت موطناً للعلوم وأصبح فيها عدد ضخم من المستشفيات والأطباء والصيادلة والكيماويين وعلماء النبات والرياضيات والفلك والفلسفة وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مراكز للعلوم والترجمة من اليونانية والهندية وغيرهما من الكتب القديمة إلى اللغة العربية. وشجع العلماء الأوربيون على ترجمتها إلى اللاتينية وقام بن شبروت بترجمتها من اللاتينية إلى العربية. ومن تلك الذخائر الثمينة مؤلفات ديسقوريدس التى كان قد ترجمها من قبل حنين بن إسحاق فى عصر بنى العباس فى بغداد ترجمها (نيكولا) اليونانى من اللغة اليونانية إلى اللاتينية وكانت هذه الترجمة تقارن بترجمة حنين بن إسحاق لها وإن جاءت شروح

(نيكولا) اضبط لأنواع النبات ووصفها والبلاد التى تزرع فيها وفوائدها الطبية .

وفى عصر الحكم الثالث وهو ابن الملك عبد الرحمن الثالث الذى كان مثل أبيه عظيم الشغف بجمع العلوم ونشرها ، وصل عدد الكتب الموجودة فى مكتبة قرطبة نحو نصف مليون كتاب وضع لها فهرس مكون من أربعة وأربعين كتاباً بكل منها خمسون صفحة . وأرسل مثل أبيه فى طلب العلماء والكتب من جميع مراكز العلوم فى اليونان وبيزنطة ومراكز الحضارات الثقافية فى البلاد العربية لشراء أحدث المؤلفات وكان لا يبخل فى دفع ثمنها مهما كان باهظاً حتى قيل إن النسخ الأصلية من المؤلفات كانت تظهر فى مكتبة قرطبة قبل أن تظهر نسخ أخرى منها فى بلاد الشرق العربى . وقلد أمراء المقاطعات الأندلسية عبد الرحمن وابنه الحكم مثل أمير سرقوسة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة بمكتبتها وجامعتها حيث كانت تدرس علوم الطب والصيدلة والكيمياء . ومدريد التى كانوا يسمونها (مجريط) بجامعتها ومدينتها الجامعية التى أقيمت ليعيش فيها الطلبة .

وفى قرطبة وتلك المدن الحضارية العربية الأخرى نشطت حركة الدراسات فى مختلف ألوان الفنون والعلوم من ترجمة ودراسة وشرح وبحث وإجراء التجارب العملية فى الطب والكيمياء والنبات . . ثم بدأت تلك الحركة الرائعة فى الترجمة من العربية إلى اللاتينية واللغات الأوربية الأخرى . ودرسوا النباتات وأجروا التجارب عليها وعرفوا خواصها الطبية والغذائية والاقتصادية وأنشأوا الحدائق لا لزراعة النباتات التى تنمو فى إسبانيا فقط بل أحضروا أنواعاً عديدة من النباتات كالقطن وقصب السكر والأرز والرمان وأعشاباً طبية وعطرية والبذور والثمار والجذور من جميع البلاد فى الشرق والغرب من المناطق المعتدلة والحارة وأعدوا لها حدائق فى غرف زجاجية يزرعونها ويتعهدونها فى ظروف مماثلة لتلك التى كانت

تعيش فيها وتلائمها ، وكان هذا حدثاً علمياً خطيراً من المرجح أن يكونوا السابقين فى هذا المضمار . بل إنهم بحثوا أيضاً فى تحسين سلالاتها والكشف عن النباتات ذات الفائدة الطبية . وترك لنا علماؤهم من أمثال ابن وافد وأبى القاسم وابن بصال وغيرهم مؤلفات ثمينة فى علوم النبات والصيدلة والطب وجميع العلوم .

أبو القاسم الزهراوى :

من أعظم أطباء العرب الأندلسيين . ألف كتاباً خاصاً بالجراحة (التصريف لمن عجز عن التأليف) . وكان أول من اخترع المجس لفحص المثانة وصنع محقناً لغسل الأذن بالزيت أو بأحد المحاليل التى يعدها بنفسه . وكان محقنه عبارة عن أنبوبة من النحاس أحد طرفيها به قطعة معدنية مدببة والطرف الآخر مغطى بقطعة من القطن .

ثم كتب عن الولادة والطرق التى يجب اتباعها وبها رسوم الأجهزة التى اخترعها واستعملها . وله أوصاف بديعة لأمراض الفم والتهاب اللثة ونزفها وتركيب الأسنان الصناعية وكذلك الجراحة والكسور والكى . وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربى .

أبو مروان بن زهر :

نسبة إلى الزهراء بالقرب من قرطبة . حكيم إشبيلية . وله كتاب (التيسير فى المداواة والتدبير) وهو موسوعة تتكون من ثلاثين جزءاً : يبحث الجزء الأول منها فى العقاقير وتركيبها وطرق حفظها والأوانى المختلفة الخاصة بوضع كل منها . ووصف لقالب توضع فيه المساحيق لتخرج أقراصاً سهلة التناول فكان بذلك من أوائل الرواد الذين مهدوا للصناعات الصيدلية بصناعة الأقراص .

وينسب إليه حجر ابن زهر . كتب رسالة عنه مملوءة بالخرافات . وضع هذا الحجر كحجاب على بطنه كى يشفى نفسه من مرض الدوسنطاريا . وقال إنه ترياق للسموم والحميات والبرص وأمراض الجلد وشاع استعماله ضد الأمراض والسموم وأقبل الناس على شرائه من الصيدليات وحوانيت العطارين بأغلى الأثمان .

وكان ابن زهر أول من كشف عن الجرب والطفيلية التى تنقله . وعرف الأورام السرطانية ووصفها وصفاً دقيقاً . كما أنه ألف كتاباً عن التغذية الصناعية للمريض فكان فى ذلك أول روادها .. يدخل أنبوبة من الفضة فى فم المريض ويصب منها فى جوفه اللبن والسوائل الغذائية . واستعمل أيضاً الحقن الشرجية للتغذية كان يعدها من اللبن والبيض ومغلى الحبوب .

ابن رشد :

كان تلميذاً لابن زهر وصديقاً له يثق به ثقة عمياء فاتبع طرقه فى العلاج وكان قاضياً لأشبيلية ثم قرطبة إلى أن أحب علوم الطب والفلسفة ومن أعظم ما خلده له التاريخ كشفه عن المناعة ضد المرض إذ قال إن مرض الجدرى لا يصيب الشخص الذى سبق إصابته به .

وموسوعته (الكليات فى الطب) ترجمت إلى اللغة اللاتينية كما أنه شرح أرجوزة ابن سينا الطبية .

موسى بن ميمون :

كان تلميذا لابن رشد إلى أن طرد من قرطبة عام ١١٤٧ فهاجر إلى مدينة فاس فى المغرب حيث كانت جامعتها المشهورة فى العلوم . وتظاهرت

أسرة الميمونيين باعتناق الإسلام وكان عقاب الكشف عن كذبهم الإعدام ففروا إلى شاطئ عكا بعد أن كادت العواصف تغرق سفينتهم ثم استقر بهم المقام فى مصر .

نسب إلى موسى دعاء وقسم ابن ميمون ولكن الحقيقة التى اكتشفت فيما بعد أن هذا القسم والدعاء لم يكتب إلا فى القرن الثامن عشر ومؤلفه الحقيقى هو الألمانى (ماركوس هيرتز) أى بعد أكثر من ستمائة عام من العصر الذى عاش فيه ابن ميمون . ومن مؤلفاته (شرح العقار) و (السموم ومضاداتها) و (الحكم الطبية) وهو مأخوذ عن أبقراط وجالينوس وكتب عن الربو والبواسير وغيرها . . .

الغافقى :

نسبة إلى الغافق بالقرب من قرطبة وله كتاب (جامع المفردات) حوى نحو الف وصفة من العقاقير البسيطة وصفها وشرح فوائدها الطبية .

ابن جلجل :

عاش فى قرطبة وهو مؤرخ وطبيب . أرخ للعلماء والأطباء والفلاسفة وكتب عدة كتب فى العقاقير شرح فيها الأدوية المفردة التى وردت فى موسوعة ديسقوريدس وكتب رسالة أخرى فى العقاقير التى لم ترد فى موسوعة ديسقوريدس .

مسلمة بن أحمد المجريطى :

من مدريد واسمها مجريط عند العرب وهو الذى وضع كتباً فى الفلك وفى الكيمياء التجريبية وحارب السيمياء ومن أهم تجاربه الكيماوية أكسدة الزئبق .

علوم العرب واليونان تزحف إلى أوربا

وصلت الحضارة العربية وثقافتها إلى أوربا من إسبانيا وصقلية اللتين اصطبغتا بالصبغة العربيةالإسلامية . فالعرب عرفوا للعلوم أهميتها وأثرها فى الحضارة. ولولا ما بذلوه من عناية فى حفظ تراث الأقدمين من علماءاليونان والهندومصر بترجمته إلى العربية لضاع جزء كبير من مقومات الحضارة الحديثة . إن الإمبراطورية الرومانية لم تترك إلا القليل جداً من آثار العلم وكذا بقية أوربا .

ولكن ذخائر الشرق لم تلبث أن انتقلت من بيزنطة وجنديسابور والإسكندرية ثم دمشق وبغداد وقرطبة وغرناطة وصقلية إلى إيطاليا وفرنسا وألمانيا فأخصبت أرضها بثقافة العلم الذى أخذ ينمو ويزداد خلال الأجيال المتعاقبة . وأقبل بعض الأوربيين الذين عرفوا قدر تلك العلوم إلى طليطلة وغرناطة وأشبيلية من عواصم حضارة العرب يدرسون أولا اللغة العربية ثم ينقبون عن أثمن كتب العلوم الطبية والرياضية والفلسفية والفلكية وغيرها من مؤلفات أبقراط وجالينوس وديسقوريدس وأقليدس وأرشميدس وترجمت إلى العربية ولولا ذلك لاندثر معظمها . ووجدوا فى كتب جابر ابن حيان والرازى وابن سينا وأبى القاسم الزهراوى وابن رشد وابن ميمون ما هو جدير بالدراسة والترجمة إلى اللاتينية وأصبحت تدرس فى جامعاتهم ومدارسهم فى سالرنو ونابولى وبولونيا ومونبيليه وباريس ولها المكان الأول فى مكتباتهم .

بدأت ترجمة الكتب العلمية فى التاريخ الطبيعى والفلك فى دير (سانتا ماريا) فى ريبول بقطالونيا فى منتصف القرن العاشر ثم أصبحت طليطلة المركز الأول للعلوم والترجمة إلى اللاتينية وفى مقدمة المترجمين

الراهب جيرار الكريموني الذى رقى إلى درجة البابوية وصار اسمه البابا سلفستر الثانى وترجم نحو ثمانين كتاباً من العربية إلى اللاتينية من بينها قانون ابن سينا والعقاقير المركبة للكندى وكتاب المنصورى للرازى والفارابى والخوارزمى وابن الهيثم وكتاب التصريف لأبى القاسم الزهراوى وحكم بقراط والأعراض لجالينوس وحكم موسى بن ميمون ومؤلفات أرسطو فى الفيزيقا وما وراء الطبيعة . . .

وشبهوا جيرار الكريمونى أعظم مترجمى الغرب بحنين بن إسحاق لكثرة ما ترجم من كتب العلم . وكان عدد الدارسين والمترجمين فى طليطلة وغرناطة وإشبيلية ضخماً يذكر منهم مرقس الطليطلى ترجم كتاب جس النبض لجالينوس إلى اللاتينية من ترجمة حنين بن إسحاق له من اليونانية وكذلك (ألفرد سارشيل) الذى ترجم وعلق على كتاب أرسطو فى النبات وترجم الجزء الخاص بالكيمياء من موسوعة ابن سينا (الشفاء) .

وهكذا دخلت العلوم الطبية والكيماوية والنباتية والفلسفية والعلمية الأخرى إلى فرنسا وإنجلترا وظهر من المترجمين الإنجليز فى بداية القرن الثالث عشر شخصيات علمية جاءوا إلى طليطلة يدرسون علوم العرب والشرق من أمثال (أديلارد) الذى حمل معه إلى إنجلترا كثيراً من الكتب العربية و (ميشيل سكوت) الذى كان إلى جانب اهتمامه بالعلوم يشتغل بالسحر وذاع عنه التنبؤ بالمستقبل عن طريق دراسة شعر الرأس وتحضير الشياطين . وتعجب لما كان لهذا الرجل نفسه من نشاط فى دراسة أعظم كتب العلم والفلسفة كمؤلفات أرسطو وابن سينا وابن رشد .

وشجع روجر بيكون ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية والدراسة فى المعاهد العربية لإتقان اللغة والتمكن من الدراسة بها . وكان روجر بيكون راهباً درس فى أكسفورد ولم يلبث أن أمر البابا بطرده من الرهبنة لآرائه المخالفة للدين المسيحى . وله رسالة قصيرة عن عيوب الأطباء ذكر فيها

آراء أبقراط وابن سينا والرازى والكندى والمجوسى .

وحارب السحر والتنجيم وأشهر مؤلفاته كان عن علاج الشيخوخة والاحتفاظ بشباب دائم .

العصور الوسطى

بموت جالينوس انتهى عصر ازدهار علوم الصيدلة والطب فى إمبراطورية روما القديمة بل أيضاً عصر لغة الإغريق فى أوربا كلغة العلم. وعادت إيطاليا تكتب وتقرأ اللاتينية وبدأت تختفى علوم جالينوس وبقراط ليحل محلها طب شعبى وخرافات وسحر وإيمان بالمعجزات الدينية التى انتشرت بانتشار المسيحية فى أوربا .

وفى الأقطار المجاورة لإيطاليا من الشمال والغرب كبلاد الغال انتقل أطباء يونانيون ورومانيون من الذين فروا من اضطهاد الدولة الرومانية من معتنقى الدين المسيحى واستقروا فى نواح متفرقة من فرنسا وتركوا آثاراً لما كانت عليه طرق العلاج فى تلك الفترة من الزمان وخاصة أطباء العيون من قطرات جافة تذاب فى الماء وقت استعمالها ووجدوا معها أختاماً كتب عليها أسماء العقاقير الداخلة فى تركيب القطرة والطبيب الذى قام بتحضيرها . وفى الأديرة التى لجأ إليها الرهبان مارسوا العلاج بالأعشاب . وكانت المسيحية تزداد قوة وسلطاناً فسقطت الدولة الرومانية الوثنية لتحل محلها دولة رومانية مسيحية . وفى دير (مونت كاسينو) الذى ذاعت شهرته لبس مسوح الرهبنة رجل عالم ومؤرخ ذو ثراء ومركز اجتماعى وسياسى مرموق اسمه (كاسيودور) قيل إنه من أصل سورى . أنشأ للدير مدرسة ومكتبة جمع فيها أشتات الكتب فى مختلف العلوم واهتم خاصة بكتب الطب

اليونانية وشجع الرهبان على ترجمتها إلى اللاتينية ونسخ عدداً كبيراً من كل كتاب مما كان له أكبر الأثر فى إنقاذ كثير من المؤلفات العلمية والطبية القديمة من الضياع . كان مثلا للرهبان العلماء يحتذى فبعث فى ديره والأديرة الأخرى الحماس لدراسة كتب العلوم وترجمتها إلى اللاتينية . وحبب إليهم التعرف على النباتات الطبية والوقوف على ما فيها من خصائص علاجية . وأنشأ الرهبان فى كل دير حديقة وكانوا يزرعون فيها عشرات النباتات المشهورة لديهم بفوائدها الطبية خلدها (سترابو) فى قصيدة شعرية . . . خلق (كاسيودور) جيلا من الرهبان قادراً على استيعاب كتب الطب القديم ومعرفة الأعشاب الطبية وفوائدها وتقدموا خطوات أخرى إلى الأمام فأصبح فى الأديرة صيدليات بها العقاقير المختلفة ومستشفيات وعيادات خارجية يشرف عليها أطباء . وإذا بالطب يصبح فى يد رجال الدين فى إيطاليا وفرنسا ومعظم بلاد أوربا يعالجون الروح والجسد فى وقت واحد . وازداد نشاط ترجمة كتب العلوم عندما جاء قسطنطين الأفريقى الذى قيل إنه من مواليد قرطاجنة . فقد أحضر معه عدداً من كتب العرب واليونان المترجمة إلى العربية فى الطب وغيره وأقام فى دير (مونت كاسينو) حيث ترجم عدداً كبيراً منها . وقد كانت أحد الأسس التى قام عليها تعليم الطب فى كلية ساليرنو وكان يعاونه عدد كبير من الرهبان الذين تتلمذوا عليه من بينهم حنا السرقى واصطفان الأنطاكى وترجموا مؤلفات ابن سينا والرازى والفارابى وعلى بن عباس المجوسى وأقليدس وأرسطو وأبقراط وجالينوس وغيرهم . . .

كان للأديرة فضل كبير على الاحتفاظ بذخائر الطب العربية واليونانية وترجمتها ودراستها . ولكن بعض الكهنة والرهبان اتخذوا منها وسيلة لإثراء أديرتهم فكانوا يعالجون بالعقاقير والصلوات والأيقونات الدينية بل بالسحر والتعاويذ أيضاً وأصبح الكثيرون لا يعتقدون فى تأثير العلاج

الطبي والعقاقير التي يصفها الأطباء بل ينتظرون المعجزات الدينية لشفاء أمراضهم ويحجون إلى الأماكن المقدسة والأديرة . وأصبح بعضها شبيهاً بالمعابد اليونانية القديمة للإله (أسكولاب) يلجأ إليها المرضى . وانتشر خارج الأديرة العلاج بالكتابات السحرية مثل :

A B R A C A D A B R A
A B R A C A D A B R
A B R A C A D A B
A B R A C A D A
A B R A C A D
A B R A C R
A B R A C
A B R A
A B R
A B
A

تنقص حرفاً فى كل سطر ويعلقها المريض على صدره .

ورأى البابا بيلاج الثانى ما حاق بمهنة الطب من اتجاه الرهبان فى الأديرة إلى الكسب المادى من تحضير العقاقير السحرية والتعاويذ والأحجبة فأمر الرهبان بعدم احتراف الصيدلة .

كان العرب قد جعلوا مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب فى بغداد ومصر والأندلس . وفى كلية طب (ساليرنو) حيث كانت تدرس علوم العرب الطبية وقوانينهم وتقاليدهم ظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر عندما أمر الإمبراطور فردريك الثانى بعدم ممارسة الصيدلة أو الطب إلا بإذن خاص . وفتحت صيدليات

تحضر التذاكر الطبية . كما كانت هناك حوانيت أخرى تبيع الأعشاب النباتية فقط والعطور وأدهنة الوجه . وأيضاً العشابون الذين يجمعون النباتات الطبية أو يستوردونها من البلاد التى تزرعها . ثم يبيعونها للصيادلة الذين كانوا بدورهم يعدّون منها الخلاصات وأنواع الشراب . . .

كان لفردريك الثانى إمبراطور ألمانيا والذى كان له على العربية وترجمة الكتب الطبية منها إلى اللاتينية وكذلك على إنشاء الجامعات فضل كبير خلده له التاريخ بجانب ما سجله له بإصدار أول قانون يمنع ممارسة مهن الصيدله والطب إلا بشروط خاصة من بينها النجاح فى الامتحان . وفتح فزدريك أبواب مملكته للعلماء العرب ودعا الكثير منهم ومن غيرهم من علماء أوربا والشرق لتدريس العلوم الطبية فى كلية طب ساليرنو وجامعة نابولى التى أنشأها . ومن الكتب التى كان على الصيادلة دراستها فى ساليرنو كتاب (مضادات السموم) لمؤلفه (نيكولاى) كأنه بمثابة موسوعة أو دستور طبى للصيادلة به الطرق التى يجب اتباعها فى تحضير العقاقير . وذكر فيه طريقة استعمال الإسفنجة للتخدير وهى مزيج من خلاصة الأفيون والبنج واليبروح ونباتات أخرى ذات تأثير مخدر . تجمع وتجفف فى الشمس ثم تنقع فى ماء ساخن . وعند الاستعمال تملأ الإسفنجة من السائل ويقطر المحلول فى فتحتى أنف المريض ويعتبر هذا أول استعمال للتخدير فى الجراحات والآلام المرضية .

ظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب وفتحت صيدليات تحضر التذاكر الطبية . ١

ويقسم الصيادلة اليمين لأن يكونوا أمناء فى تحضير العقاقير بدقة حسب كتاب (نيكولاى) . وحددت الدولة أثمان العقاقير ووضعت رقابة شديدة فإذا خالف الصيدلى أو الرقيب الذى يقوم بالتفتيش عليه تلك

القوانين أو ارتكب أى غش فى أنواع العقاقير عوقب بالإعدام . . وذلك لحماية الشعب أيضاً من جهل المدعين .

ساليرنو :

كانت كلية الطب فى ساليرنو الأولى فى أوربا اللاتينية لتدريس علوم الطب والصيدلة بالعربية واللاتينية وبقيت نحو تسعمائة عام إلى أن أصدر نابليون قانوناً فى سنة ١٨١١ ونظمت فى كلية بساليرنو قصائد طبية كثيرة فى الطب وقواعد الصحة والأغذية مثل الفاكهة والجبن واللحوم والطيور والأسماك ، وأخرى ذكرت كل العقاقير والأعشاب الطبية المعروفة لديهم وخصائصها الطبية . وعندما اختفت كلية طب ساليرنو من الوجود كانت قد ظهرت جامعات بها كليات طبية فى أنحاء متفرقة من أوربا كان أهمها نابولى ومونبلييه وباريس وبولونيا وبادوا . . .

انتشرت الجامعات وأخذت أوربا تستيقظ لتلك العلوم التى وصلت إليها من علوم اليونان والعرب وترجم إلى اللاتينية أو الفرنسية أو الإنجليزية وبالرغم من ذلك فقد ظهر عدد كبير من السحرة والدجالين والمشعوذين واختلط سحرهم بالطب الشعبى والدينى . ومن الوصفات الغريبة التى شاعت فى القرن الثالث عشر لعلاج أمراض العين « قطرة جافة تصنع بالطريقة التالية : يخلط عدد من الأعشاب والراتنجات والصموغ ولبن الحمير ومرارة كل من النسر والصقر والماعز مع العسل والبلسم . ثم تقلب كل يوم خلال أربعين يوماً متتالية . ثم تجفف وتسحق ويذر منها فى العين » .

السيمياء تصبح كيمياء

انتقلت السيمياء مع العرب إلى أوربا . وأخذ الباحثون عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة يزداد عددهم ونشاطهم، يجرون التجارب ويبحثون وينقبون . وأضاعوا جهود أعوام كثيرة لم يتحقق لهم خلالها شيء مما كانوا يحلمون به . ولكنهم كشفوا عن مواد كيماوية جديدة ومبادئ أساسية إلى جانب ما عرفوه عن العرب من طرق التقطير والتصعيد والتكليس والترشيح والبلورة . وما تحتاجه المعامل من أفران وأنابيق وأجهزة أخرى ثم أملاح كيماوية مثل كلورور النشادر والبورق والصودا والبوتاسا . . .

كان من بين العاملين فى السيمياء فى أوربا من درسوا أو حسنوا وكشفوا واخترعوا، فجهاز التقطير القديم كانوا يستعملون لتبريده قطعاً من القماش المبللة بالماء . أدخلوا عليه أنبوبة طويلة حلزونية يجرى فيها السائل المتحول إلى بخار ومن حوله أنبوبة حلزونية رفيعة يمر فيها ماء التبريد وهو تقريباً الجهاز المستعمل لهذا الغرض فى معامل الكيمياء اليوم . وأصبح فى الإمكان الحصول على الأحماض المعدنية والكحول على درجة أكبر من النقاوة . وكشفوا عن المواد المجففة لما فيها من ماء مثل كربونات البوتاسيوم .

وفى ذلك الوقت اتحدت الصيدلة بالسيمياء إلى حد بعيد وكسبت الصيدلة كثيراً من الكيمياء التى بدأت فى الظهور كعلم له أسس وقواعد .

كانت علوم الصيدلة تدرس فى جامعات أوربا كجزء من الطب يقوم الأطباء بتدريسها وتأليف كتبها . وللعرب أن يفخروا بأن كتاب القانون لابن سينا ظل أحد أطباء جامعة باريس يدرسه لطلبته أكثر من عشرين عاماً وظلت كذلك كتب الأمراض الباطنية لجالينوس والحاوى

للرازى وحكم بقراط المترجم عن العربية والعقاقير البسيطة ليوحنا بن ماسويه وأبى القاسم الزهراوى والجوبى وغيرهم . . . .

وكانت المطابع عقب ظهورها تطبعها فى طبعات أنيقة وذات أغلفة جميلة من الجلد ولا يزال الكثير منها موجوداً فى مكتبات باريس ومونبلييه .

وظهرت كذلك مؤلفات ذات قيمة طبية وكيماوية ونباتية عظيمة كان من أهمها كتاب (الضوء الأكبر) باللاتينية أعده فى نهاية القرن الخامس عشر الصيدلى الإيطالى (مانليوس دوبوسكو) ليلقى الضوء على طرق تحضير الأدوية وطبيعة العقاقير البسيطة وجمع فيه كل ما عرفه اليونان والعرب والرومان والطليان من عقاقير للعلاج .

وصدر فى عام ١٤٩٨ فى فلورنسا أهم الدساتير الطبية الرسمية لذلك الوقت للأطباء والصيادلة .

باراسلوس :

وكان لظهور باراسلوس فى تلك الفترة أهمية عظيمة إذ كان نقطة انتقال الصيدلة والسيمياء القديمة الممتزجة بالخرافات والخدع والأكاذيب إلى الصيدلة الحديثة المؤسسة على علوم الكيميا التجريبية والطب . وكان أول من قال بالعلاج بالكيماويات كالزئبق والزرنيخ والكبريت والحديد كما شجع على إنشاء كليات الصيدلة تدرس فيها الكيمياء على أسس علمية . وأنشئت بها المعامل المزودة بالأجهزة الدقيقة الصنع . وكانوا يعدون خلاصات سائلة من الأوراق والثماروالبذور والجذور أو الأعشاب والكحول بتقطير النبيذ .

ووصفوا باراسلوس بأنه من أعظم الشخصيات العلمية فى التاريخ وتطوير العلاج الطبي وتحضير العقاقير . بل أطلق عليه البعض اسم

(أى الصيدلة) . ومما كتبه باراسلوس يصف فيه المشتغلين بالسيمياء « أنهم يتابعون أعمالهم أياماً وليالى متتالية بينما تتصبب وجوههم وأجسادهم من العرق أمام الأفران المشتعلة . يجدون لذتهم الكبرى داخل معاملهم دون أن يهتموا بالبحث عن التسلية أو الراحة بعيداً عنها . وتراهم يرتدون ثيابهم من الجلد وفوقها معاطف بيضاء ينظفون فيها أيديهم . إنهم يضعون أيديهم فى الفحم والطين والأوساخ ولا يفكرون فى أن يضعوا فى أصابعهم خواتم من الذهب . يغطى وجوههم وثيابهم السناج الأسود كأنهم حدادون أو عمال فى المناجم وبالرغم من ذلك فهم لن يحاولوا إزالتها » . ثم يصف داخل المعمل فيقول :

« أما داخل المعمل فمقبض محزن وسط الأضواء الخافته وأفران وأكوام غريبة من أنابيق وبواتق وأوعية مصنوعة من مختلف المواد وكتب يغطيها التراب وجماجم معلقة فى السقف الذى تتدلى منه أيضاً أنسجة العناكب ... »

فان هلمونت :

وممن جاء بعده (فان هلمونت) الذى كشف عن ثانى أكسيد الكربون .

وازدهرت علوم الكيمياء والكيمياء الصيدلية وتحضير عناصرها وألفت الكتب التى ساعد طبعها على انتشار هذه العلوم فنشر (برنسويك) فى أوائل القرن السادس عشر كتابه عن (التقطير) وأتبعه بكتاب آخر عن (الأعشاب الطبية) كان لهما مكانهما فى ذلك الوقت فى عالم الصيدلة والطب والكيمياء .

واهتموا بالتقطير وظلوا يطلقون اسم (معامل التقطير) على معامل الكيمياء والصيدليات . وأخذت الكشوف تتوالى كما أدخلت تحسينات

وإضافات كثيرة على الأجهزة المستعملة وعملوا على توحيد أسماء المواد بعد أن كان يطلق على المادة الواحدة أسماء مختلفة فكانوا يعنون بزيت الزاج وزيت الكبريت حامض الكبريتيك ووحدوا تدريجياً صفات تلك العقاقير المحضرة حتى تصير ذات درجة نقاوة واحدة . واللون ودرجة الانصهار والذوبان أيضاً . واتسع نطاقها فتحول بعضها إلى مصانع تنتج كميات كبيرة كان منها النترات لصنع المتفجرات والشبه والأحماض وكبريتات الزنك (وكانت تستعمل فى صنع الجلود ودبغها) وكلورود النشادر ومركبات الزئبق المستعملة فى الطب والصبغات . . .

وكان لصناعة أنواع الزجاج المختلفة نصيبه من التطوير . وبدأ زجاج مورانو والبندقية والزجاج البوهيمى تدخل معامل ومصانع الأدوية لما عرفوا فيها من صفات تلائم عمليات التحضير .

ظهرت أيضاً دساتير طبية جديدة كان لها مكانتها عند الصيادلة الذين تحددت مهنتهم وبدأوا يستقلون عن العشابين والبقالين وتركوا لهم عمليات شراء وبيع الأعشاب على أن لا يحضروا منها أدوية تدخل جسم الإنسان . من تلك الدساتير الطبية ذلك الذى وضعه شاراس سنة ١٦٧٦ (دستور تحضير العقاقير) و (الدستور العالمى) الذى ألفه (ليمرى) وظهر فى سنة ١٦٩١ .

واشتهر (جلوبير) بكشفه عن كبريتات الصوداء وهو الكيماوى الألمانى الذى عمل على تطبيق تجارب المعمل الكيماوية على العقاقير الطبية. وحضّر (بيجان) الكالوميل من أملاح الزئبق التى تؤخذ عن طريق الفم . ثم سينت [Seignette] الذى استطاع التعرف فى ينابع الروشيل بفرنسا على الملح المسمى باسمه وله استعمالات عديدة فى الطب .

وكشف (أدريان ميزنخت) عن طرطرات الأنتيمون ولكن حرموا عليه استعماله لأغراض طبية إلى أن عولج به الملك لويس الرابع عشر وشفى .

وتقدم العلاج بالعقاقير النباتية المعروفة من قبل وتلك التى كشف عن فوائدها أو جاءت إلى أوربا من القارة الأمريكية مثل الكينا وعرق الذهب وبلسم بيرو أو من بلاد الشرق كالقرفة والفانليا والفامل ...

كارل شيل :

من أبرز الكيماويين الصيادلة الذين كان لكشوفهم أثر كبير فى تقدم الصيدلة فى العالم . ولم يكن ليمنعه فقره وضعف صحته واضطراره إلى العمل فى صيدلته الصغيرة منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل لكسب قوته .

وكان يعد أجهزة معمله الكيماوية بيديه ومن أدوات بسيطة . ويدهش المرء إذا عرف أن هذا العالم الصيدلى حضر الأكسجين والأزوت والكلور والفلور وأكسيد الباريوم والجلسرين وأحماض الليمونيك والعفصيك والأكساليك والطرطريك والسياندريك للمرة الأولى . كما أجرى دراساته وتجاربه على الأثير وكبريتيد الأيدروجين والشبه .

العقاقير الكيماوية وخرافات الطب الشعبي

أضيفت إلى قائمة العقاقير الطبية الكثير من الكيماويات والأعشاب وخلاصاتها خلال القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وكان من أهمها زيت الخروع وزيت كبد الحوت وجذور البوليجالا والداتورة والبنج واللاحلاح وكف الثعلب (الديجتالا) .

كان إيمانهم عظيماً بالعقاقير إلى حد أن ملعقة كبيرة للدواء كانت من الضروريات فى جهاز العروس وكانت الدساتير الطبية الرسمية فى إنجلترا وفرنسا صورة لما كان عليه العلاج فى أثناء تلك العصور . ففى الدستور البريطانى جاء ذكر عقاقير يدخل فيها العناكب الحية الموضوعة فى الزبدة . واستعملوا أيضاً البيض ومسحوق الجثث المحنطة التى ذاع استعمالها وكانوا يرسلون فى طلب كميات ضخمة من مصر .

وكان بعض ملوكهم وكبار رجالهم يصفون العقاقير الغريبة فوصف الأسقف البريطانى (جورج بيركلى) « ماء القطران » كعلاج لأمراض البشرة ووضح طريقة تحضيره وهى لا تزيد عن وضع كمية صغيرة من القطران فى جالون من الماء وتترك ثمانى وأربعين ساعة حتى ينفصل السائل ويرسب القطران فى القاع .

وذاع لأناس آخرين وصفات أخرى كالعسل والخل وماء البحر وعلاجات للسرطان ولأمراض أخرى غاية فى الغرابة .

كانت علوم الكيمياء الصيدلية والطب العلاجى ما زالت فى طفولتها الأولى فاختلطت أنواع الطب الحقيقى بالوصفات الزائفة التى كانت تضر أكثر مما تفيد وراح ضحيتها الألوف من المرضى . وانتشر السحر والتعاويذ والتمائم والاعتقاد بتأثير الكواكب على الأمراض والأوبئة

وكانوا يعلقون على صدورهم الأحجار النفيسة لتقيهم من الموت . والياقوت ليبعد عنهم الأوبئة والزمرد من الحميات والخيانة الزوجية وغيرها لأمراض العين . والاعتقاد فى منافع مسحوق الذهب أوزيت الذهب أو حسائه أو الدجاج المحشو بقطع منه . ووصفوا أيضاً لمرضاهم مروخ للتدليك صنع من جرو حديث الولادة . . ولبن المرأة كملين وهو أيضاً منشط للشعيرات الدموية . ويدخل براز الحيوانات فى عمل عدد من اللبخات وقالوا بفائدة البول لعمل مكمدات وأدهنة للروماتزم .

ولكنهم وجدوا فى النباتات معظم عقاقيرهم واعتقدوا أن لبعضها فوائد سحرية كاليبروح المسمى أيضاً تفاح الشيطان الذى استعمله من قبلهم الفرس والمصريون واليونان والرومان القدماء للشبه العظيم بينه وبين الجسم البشرى ، وكتب عنه كثير من الأساطير الخرافية . وله تأثير مخدر قوى .

الروّاد الأوائل للطب الحديث

كانت هناك نظريات خاطئة عن أصل المرض وسببه واعتقدوا أن مرضاً معيناً كالطاعون مثلا قد يتحول إلى الملاريا . ثم بدأوا يكشفون عن جراثيم وفطريات قيل إنها المسببة لها . ولكنهم لم يعرفوا علاقتها الأكيدة بالمرض قال البعض بأنها تخلق خلقاً وأكد آخرون إنها كانت موجودة من قبل وتهيأت لها ظروف التوالد والنمو . وكانت مناقشات ومجادلات بين عدد من العلماء . وكان من هؤلاء روّاد عظماء جديرون بالمجد والخلود . من بينهم لوفنهوك مكتشف المجهر وإدوارد جنر أول من طعم ضد الجدرى وباستور الكيماوى الذى كانت حياته مثالا للعالم والمواطن والإنسان. أحب والديه وأحب أهله ووطنه وكان غاية فى الوفاء . بل إن قلبه وسع العالم كله فأحب الإنسانية وعاش وجاهد وبحث وكشف من أجل حياة الملايين الذين أنقذتهم كشوفه ضد الكلب والجمرة الخبيثة . . .

وروبرت كوخ مكتشف ميكروب السل وتلك التجربة القاسية التى مرت بأوربا بسببه . كان ميكروب السل يفتك بالألوف كل عام . وإذا بهذا الخبر العظيم ترتج له أوربا جميعها فيبارح مدنها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مئات القطارات الخاصة تحمل مرضى السل المساكين وقد لاح لهم فى ألمانيا نور قوى وأمل جديد فى الحياة والصحة . وإذا بهؤلاء أنفسهم يصبحون وبالا على برلين وألمانيا وأهلها جميعاً وقد وفد عليهم هذا الجيش الجرار من حاملى ميكروب السل . ثم توالت الاكتشافات الطبية ولكن الأطباء كانوا يقابلونها بمزيد من الحذر . بل يعرضون عنها خوفاً من أن تتكرر مأساة كوخ الأليمة . ولكن كوخ انتصر فى النهاية وأثبت كثير من الاكتشافات العلمية والطبية على مر الأيام

نجاحها الرائع ورسوخ قدمها . فإذا بهم وسط ثورة طبية وكيماوية يصعب اللحاق بها ، والفضل فى ذلك للكيمياء التركيبية التى تستطيع من مواد عضوية قليلة تحضير مئات الألوف من العقاقير المختلفة ومن فرسان هذا الميدان (أرليخ) الذى كان عقاره سلفرسان ، وهو السادس بعد ستمائة مادة كيماوية أجرى تجاربها فى معمله ، هو أول عقار ناجع ضد مرض الزهرى .

وهناك قصص (ليستر) (وإميل رو)(ورونالد روس) و (متشنكوف) و (بهرنج) ومئات من أمثالهم . لكل واحد قصة حياته وبحوثه وجهاده العظيم الرائع ، وتوالت كشوفهم فى الطعوم والأمصال ومهدت جميعها إلى ما صار عليه الطب منذ أواخر القرن التاسع عشر .

جهود رائعة حقيقة بكل إعجاب وسلسلة متتالية الحلقات من الكشوف فى معامل العلم بل معابده كما يقول باستور .

أضواء أنارت طريق الإنسانية حتى بلغت فى القرن العشرين أقصى ما يتمناه الإنسان من تقدم وازدهار قضت فيه أو كادت تقضى على أمراض كان بعضها سبباً فى فناء مدن بل أقاليم بأسرها فى الأزمنة الماضية.

عقاقير جديدة لعصر جديد

فتحت الكيمياء العضوية أبواباً جديدة للعقاقير لم يكن يحلم بها . فتدفقت العقاقير الكيماوية المصنوعة فى المعمل والتى تمثل جزءاً يزيد عن نصف العقاقير الموجودة بالصيدليات فى الوقت الحاضر من أسبيرين وفيناسيتين وسكارين . . .

وبعد أن كشف الكيماويون عن القلويدات والجليكوزيدات المواد الفعالة فى النباتات ثم الفيتامينات والهورمونات من النبات والحيوان أصبح الكيماوى يحضر الكثير منها فى المعمل بل إنه فى بعضها كان يتفوق على الطبيعة منها فى النقاء وسهولة الحصول على كميات ضخمة منها وبالتالى رخص ثمنها .

كان (فردريك وهلر) أول من قلد المواد العضوية بتحضيره (اليوريا) كيماوياً وهى مادة عضوية توجد فى البول . وأسماء أخرى لبطولات أمثال الصيدلى المغمور (فون ليبيج) الطموح . ثم (بيركنز) الذى حضّر صبغة الإنيلين فى المعمل من قطران الفحم وكانت بداية عدد كبير من الأصباغ للصناعة وعقاقير علاجية وغرفات ومواد كيماوية لا يحصرها العد . .

ثم أسرة كورى بأكملها التى عاشت وماتت من أجل العلم وإنقاذ العالم من أمراض وبيلة كالسرطان بأشعة الراديوم ثم النظائر المشعة ولم يفكروا يوماً فيما قد تجره وراءها من اختراع قنابل ذرية وهيدروجينية وحروب فناء . بل كانت لهم مثلهم الإنسانية العليا . و (بانتونج) و (بست) اللذان عزلا (الأنسولين) من البنكرياس وكان عقاراً منقذاً للملايين من المرضى بالسكر . و (دوماج) مكتشف السلفاناميد وفلمنج للبنسلين وحلقات متتابعة من أسرة البنسلين من مضادات الحيوية مثل : الستربتومايسين والنيومايسين والكلوروماسين والتتراسيكلين .

نشأة الصيدلة فى مصر

أنشأ محمد على مدرسة الطب فى عام ١٨٢٧ بالقرب من (أبى زعبل) وكانت تحيط بها حدائق زرعت بالنباتات الطبية وعين أساتذتها من الضباط الفرنسيين وعلى رأسهم كلوت بك . ثم أرسل بعثات طبية لدراسة علوم الطب والصيدلة . وبذلك استطاع أن ينشئ بإرشاد كلوت بك مدرسة للصيدلة استقبلت فى أعوامها الأولى خمسة وعشرين طالباً . وأخرى للطب البيطرى ثم أقيمت مبان جديدة لها بعد ذلك بعشرة أعوام فى نفس المكان الذى سمى باسم القصر العينى ويعرف به حتى اليوم وأنشئت حوله تدريجياً مبان ضخمة لمستشفى جديد وأقسام لكليات الطب والصيدلة والمستشفى القديم قائم فى مكانه منذ أكثر من قرن وربع .

وتحولت لغة الدراسة من الفرنسية إلى العربية ثم إلى الإنجليزية .

وكان من ضمن أساتذة الطب والصيدلة مصريون من أمثال حسنى الرشيدى الذى ألف كتابه (الدر الثمين فى فن الأقرباذين) باللغة العربية قبل تحول الدراسة حوالى عام ١٨٨٢ إلى الإنجليزية .

وفى عام ١٩٢٥ أنشئت جامعة القاهرة وضمت إليها كليات الطب والصيدلة . ثم ما لبث أن انتصرت اللغة العربية وأخذت العلوم فى عصرنا الثورى تدرس بلغة الوطن العربى وأنشئت كلية للصيدلة فى الإسكندرية عام ١٩٤٨ ؛ كانت أعوام الدراسة فى الكليتين حتى سنة ١٩٥٩ أربعة زيدت إلى خمسة حتى يتمكن الطلبه من دراسة الصيدلة الصناعية والهندسة الصيدلية لتفى بحاجة مصانع الأدوية .

ويقوم طالب الصيدلة بقضاء مدة تمرينه فى إحدى الصيدليات خلال عطلات الصيف لمدة لا يقل مجموعها عن أربعمائة ساعة ويمضى جزءاً منها فى صيدلية مستشفى جامعى .

صورة للصيدلة

يقوم الصيدلى بتحضير العقاقير للمرضى . فالصيدلية تجمع بين معمل كيماوى وما فيه من أجهزة ومعايير وأدوات وبين متجر يبيع العقاقير أو يسلمها للمشتركين فى التأمين الصحى . كان منذ أربعين سنة تقريباً لا يبيع إلا ما يحضره بنفسه . أما اليوم فالجزء الأكبر من الصيدلية إن هو إلا أرفف عامرة بالأدوية الجاهزة التى لا سبيل لإعدادها بالصيدلية إذ يدخل فى تركيبها عقاقير كيماوية تحتاج إلى آلات وأجهزة ودقة فى التصنيع لا توجد إلا فى المصانع . .

إن الصيدلى الذى يدير الصيدلية فى استطاعته تحضير هذه الأدوية الجاهزة فلديه من دراساته ما يؤهله لذلك ولكن التقدم العلمى أدخل كيماويات عضوية تشييدية من منتجات كيماويات البترول والقطران والخمائر والفطريات . . . من فيتامينات وبروتينات وهورمونات ومضادات للحيوية كالبنسلين والستربتومايسين والكلورومايستين والتراسيكلين والنيومايسين . . . تحتاج إلى عشرات الخطوات من تحضير وتنقية وبلورة وتجفيف . . . حتى تتحول من مادة كيماوية خام إلى عقار جاهز .

ويبدأ الصيدلى ذو المعطف الأبيض عمله كل يوم ما عدا يوم الراحة الأسبوعية فى التاسعة صباحاً وهو المسؤول عن فتح الصيدلية وإغلاقها فمفاتيح أبوابها يجب أن تكون معه دائماً . فمهنته خطيرة تتعلق بأرواح الشعب وهو مسؤول عن كل عقار يحضر أو يصرف ؛ لذلك كان الصيدلى هو المدير . وأوجب التشريع منذ عام ١٩٤١ تقريباً أن يكون صاحب الصيدلية صيدليا حتى لا تطغى الناحية التجارية على الناحية العلمية والفنية .

ومنذ اللحظة التى يفتح أبوابها على مصراعيها يقبل الشارون فهذا يريد لفافة من القطن أو زجاجة مركيروكروم أو صبغة يود أو زيت خروع

أو جليسرين أو مرهم زنك أو أقراص سلفاديازين أو فيتامينات أو هورمونات ضد الشيخوخة والضعف . وتذاكر طبية قد تشتمل على عقاقير تحضر فى الصيدلية أو جاهزة . ويستشيره البعض فى أمراضهم فهذا عنده جرح قديم لا يندمل أو ضعف أو صداع أو ألم مفاجئ . . بل إن الكثيرين يعتبرون الصيدلى صديقاً حميماً يكاد يكون فرداً من أسراتهم ويعرضون عليه أمراضهم ومشاكلهم العائلية الدقيقة ومتاعبهم . فالصيدلى يستقبل الجميع ببشاشة تبعث الأمل والطمأنينة فى نفوس المرضى واليائسين والمترددين لا يحاول أن يصف عقاراً بنفسه وهذه منافسة غير مشروعة لا يرتضيها لنفسه . إنه يحاول أن يستمع قدر استطاعته إلى قصة حياتهم بل إلى تفاصيلها التافهة . . وكثيراً ما يتردد المريض على الطبيب ويتبع العلاج بطريقة خاطئة ثم يأتى إلى الصيدلى يبثه شكواه بعدم جدوى العلاج الدوائى فيسأل المريض هل هو يطيع جميع تعليمات ونصائح الطبيب فيجيب بأن الشىء الوحيد الذى لا يقوم بتنفيذه هو اتباع نظام خاص فى التغذية أو السهر خارج المنزل إلى ساعة متأخرة من الليل أو تناول الخمر أو التدخين بالرغم من تحذير الطبيب . وإذا كان يشكو من معدته أو كبده أو أمعائه فهو لم يمتنع عن الأغذية الدسمة والبيض والطماطم المطهية ! . . وإذا كان مريضاً بالضغط أو الزلال فهو لم يقاوم رغبته فى الأكل الكثير من اللحوم وإضافة الملح والتوابل ! أما المريض بالسكر فيذهب فى مخالفاته إلى حد صارخ فيتناول الفطائر والحلوى والأطعمة النشوية معتقداً أن العلاج بالدواء سوف يشفيه من علته .

إن الصيدلى له من مهنته الإنسانية أن يشرح لمريضه عواقب أهماله وعناده وما قد تجره عليه من عواقب وخيمة . فهو الصديق وهو الأخ وهو الأب وهو الابن للجميع وتشعر بالأهمية البالغة لواجبه الإنسانى فى الريف أكثر منه فى المدن الكبيرة .

تحضير الأدوية :

يحتل المعمل الجزء الخلفى ويعرف بمائدته الرخامية وأرفف مملوءة، بقوارير الماء المقطر والشراب ومساحيق الأملاح والخلاصات السائلة والصبغات والزيوت الطبية وميزان حساس فى صندوقه الزجاجى وموازين أخرى للكميات الكبيرة من الكيماويات. ويتوفر للصيدلى فى معمله شبه عزلة وإن كان على اتصال دائم بكل ما يحدث من بيع وشراء عن طريق معاونيه وهم عادة بائع ومساعد للمعمل وعامل .

إنه يبذل فى إعداد الدواء المركب كل مهارة ودقة وفن وعلم . فله من دراسته وممارسته المهنة وما لديه من دساتير مصرية وأجنبية . ثم يغلق زجاجة الدواء أو علبة البرشام أو السفوف أو المرهم بخاتم يحمل اسمه : ويسجلها فى دفتر التذاكر الطبية الضخم قد يتسع الواحد منها لأكثر من عشرة آلاف تذكرة ويوجد فى بعض الصيدليات القديمة عشرات المجلدات قد تعود لعشرين أو ثلاثين سنه أو أكثر إلى الوراء حتى إذا رغب أحدهم إعادة تحضير عقار مركب منذ أيام أو أشهر أو عشرات السنين فمن السهل العثور على مفردات تركيبها إذا قدم المريض للصيدلى الرقم المسلسل وتاريخ التحضير لأول مرة إذا أمكن واسم الطبيب صاحب التذكرة .

سموم ومخدرات :

يرفض الصيدلى أحياناً بيع أدوية موجودة فى الصيدلية إذا لم يقدم المريض تذكرة الطبيب وغالباً يحتفظ بها فى سجل خاص بعد كتابتها فى دفتر خاص ويتكرر كل يوم مثل هذا الحديث :

— أرجو أن تعطنى زجاجة (. . .) المنوم

ـ فلتسمحي لى بالتذكرة الطبية

ـ ولكننى أشتريها دائماً دون تذكرة .

ـ آسف يا سيدتى لأن القانون يحتم عدم صرفها دون روشتة تحفظ فى الصيدلية .

ـ إننى أعرف صيدلياً يعطنى إياها دائماً .

وتخرج السيدة غاضبة والصيدلى يعلم أنها لن تجد من يصرف لها تلك الأقراص دون روشتة الطبيب !

وكلما ازداد عدد العقاقير الجاهزة أضيفت أسماء جديدة من المنومات والمنبهات وغيرها من السم إلى قائمة الممنوعات .

ثم دولاب آخر مغلق كتب عليه سموم ورسمت عليه صورة جمجمة وعظمتين وهى شعار ما به من مواد سامه شديدة الخطورة لا تستعمل إلا بدقة وعناية وحذر بالغ .

وفى ركن مرتفع يوجد دولاب صغير بعيد عن الأيدى مغلق قد يكون بداخله دولاب أصغر به المواد المخدرة . إن دولاب المخدرات للصيدلى موضع فخار له لأنه الوحيد الذى يسمح له بالاحتفاظ بها كما أنها موضع قلق دائم له لأن القانون غاية فى الصرامة إزاء الصيدلى إذا أهمل فى استيفاء جميع الشروط الواجبة لصرف العقار المخدر . ولا تكتب المخدرات على التذاكر العادية بل فى استمارات ذات أرقام مسلسلة تسلمها وزارة الصحة للطبيب ويجب أن يكتب عليها اسم الطبيب ورقم التصريح بمزاولة المهنة وعنوانه الكامل ورقم تليفونه ثم اسم المريض وعمره وعنوان إقامته ثم البيانات الموجودة على بطاقته الشخصية . ويقدم الصيدلى كل ستة أشهر تقريراً عن المنصرف وما اشتراه من مخدرات دوائية ثم ما تبقى فى نهاية الفترة فى عهدته .

الصيدلى فى المستشفيات

لصيدلى المستشفى أهمية كبيرة بالنسبة لمرضاه فهو يشرف على تحضير جميع الأدوية التى يحتاجها المستشفى من تركيبات ومحاليل معقمة للحقن والجروح والعمليات .

الدعاية الطبية :

ويقوم بدور له خطورته بدراسة ما تخرجه المصانع من أدوية جاهزة جديدة أو تدخله من تحسينات وهو حلقة الاتصال بين البحث العلمى فى المصنع والتطبيق العلاجى لدى الأطباء .

الصناعات الصيدلية

انتشر عقار السلفرسان أو (٦٠٦) ذلك المركب الكيماوى الذى وصل إليه أرليخ بعد بحوثه وتجاربه الطويلة وهو أول علاج كيماوى لمرضى الزهرى وإن لم يحقق حلم مكتشفه أرليخ فى العثور على الرصاصة السحرية التى إذا نفذت إلى مجرى الدم فى الجسم البشرى قتلت ما فيه من جراثيم ليتمتع بعد ذلك بحياة بعيدة عن الأمراض .

كان العلاج فى ذلك الوقت أى عام ١٩٠٧ والفترة التى امتدت إلى ما بعد سنة ١٩٤٠ علاجاً طويلا مملا يمتد إلى نحو عامين بواسطة حقن السلفرسان المسماة أيضاً (النيوسلفرسان) بعد إدخال تعديلات على تركيبها الكيماوى وذلك بالتبادل مع حقن أملاح البزموت أو الزئبق وكثيراً ماتوقف

مرضى عن متابعة العلاج وظلت جراثيم المرض مختفية بعض الوقت لتظهر من جديد بصورة خطيرة غالباً ما يكون فيها موت المريض بعد أن تحمل الأجيال التالية من نسلة جراثيم الزهرى لينتشر من جديد فى دائرة أوسع .

ولكن السلفوسان بالرغم من أنه لم يكن العلاج الناجع فقد أثبت أن العلاج بالكيماويات حقيقة رائعة تبشر بأروع النتائج . وبدأت فى ألمانيا أبحاث وصناعات ضخمة فى الكيماويات عامة وتخصصت بعض المصانع فى الكيماويات الطبية وأخذت تطبق نظريات العلم الحديثة فى تركيب العقاقير الأولى من مشتقات قطران الفحم والبترول .

لم يكن ذلك أمراً يسيراً . فلقد كانت التجارب على الكيماويات تستمر أعواماً ينتجون خلالها مئات وآلاف المركبات ثم تثبت التجارب أن عدد تلك الكيماويات الذى يصلح لعلاج الإنسان لا يزيد عن أصابع اليد فبعضها سام والبعض يفيد عضواً من الأعضاء بينما يضر أعضاء أخرى فى نفس الجسم . ودواء ثالث يفسد ويتحول إلى مواد كيماوية أخرى بعد تحضيره ببعض الوقت أو لتأثره بالتغيرات الجوية .

كان البحث وكانت التجربة تسير وئيداً وما زال كذلك شعار صناعة الصيدلة الكيماوية فى العالم حتى اليوم ففى العقاقير ما يبدو لأول وهلة أنه صانع بالجسم المعجزات ثم ينقلب إلى سم يفتك به .

إن صناعة الأدوية والعثور على عقار جديد هو حادث له أهميته فى عالم الطب مثل الأخبار السياسية أو الاجتماعية الهامة التى يهتز لها العالم . فأسرة المصنع الدوائى تتألف من عدد كبير من العلماء والتكنولوجيين والمهندسين والأطباء والصيادلة . فهو واحد من تلك الألوف التى جرت عليها الأبحاث النظرية أولا ثم يحضر فى مصنع تجريبى صغير إلى جانب المصنع الكبير وبكميات صغيرة تجرى عليها التجارب للتحقق من نقائه ومقاومته لجميع العوامل التى يتعرض لها ببقائه مدة طويلة قبل الاستعمال.

ثم تجرى عليه التجارب الطويلة المتعددة على الحيوانات فإذا اطمأنوا إليه بدأوا يجربونه على المرضى فى حذر وعناية فى المستشفيات . وتطول التجارب أحياناً وقد تصل إلى خمسة أو عشرة أعوام أو أكثر . .

وفى شهر مايو من سنة ١٩٢٢ حضر (بانتونج) و (بست) أول قطرات من سائل الأنسولين الذى نجحوا فى إعداده من غدة بنكرياس الكلاب .

وأنقذ الأنسولين منذ خروجه من مصانعه الملايين من مرضى السكر فى العالم .

وأخرجت المصانع تباعاً الطعوم والأمصال والعقاقير من شراب وأقراص وحقن من الخمائر والعفن وخلاصات النباتات والحيوانات ومن مضادات الأحياء كالبنسلين الذى كشفه (فلمنج) وأنقذ بدوره ملايين أخرى خلال الحرب العالمية الثانية . وتلاه السترتبومايسين والكلوروماستين والتتراسيكلين . . .

وعدد لا نهاية له من هورمونات وفيتامينات ودماء صناعية . . . وكل ما عرفه العالم من معجزات دوائية .

الصيدلة فى الجمهورية العربية المتحدة اليوم وغداً

إلى أين وصلنا فى تحضير العقاقير الدوائية فى المصانع المصرية اليوم . . . وما هو مستقبل صناعتها ؟

إنها صفحات مجيدة رائعة . . فنى خلال العشرة الأعوام الماضية ارتفعت قيمة العقاقير المنتجة فى مصر من نصف مليون جنيه إلى عشرة ملايين تقريباً.

كانت تستورد من أدوية الخارج المصنعة ما كان فى استطاعتنا أن ننتجه محلياً منذ زمان طويل . ولكن الثورة لم تكن قد عرفت طريقها بعد إلى صناعة الأدوية . . كانت تصل بأثمان باهظة مبالغ فيها كثيراً من الأحيان بينما كان فى وسع بنى الوطن تحضيرها بتكاليف أقل بكثير وفى ذلك ميزة تشغيل اليد العاملة العربية .

وأقيمت مراكز لبحوث الأدوية فى معهد البحوث القومى وفى مصانع الأدوية الكبيرة ومكتبات علمية ضخمة زودت بأحدث الأبحاث التى تجرى فى معاهد الأدوية فى العالم .

وأنشئت شركة النصر لتحضير خامات الدواء وبدأت بالكيماويات الأساسية للدواء والسلفاديازين والسلفاجواندين والسكارين والكورامين (النيكاتميد) ومضادات الحيوية مثل البنسلين والكلوروماستين . والتراسيكلين وأصبحت مصانعنا جديرة بنشر منتجاتها ليس فقط فى ما جاورنا من بلاد أفريقيا وآسيا بل إلى أوربا وأمريكا .

من بين النباتات الطبية والعطرية ما أجريت عليه أبحاث طويلة سوف تظهر فى صورة عقاقير فى المستقبل القريب . فنى الأرض المنزرعة وفى الصحراء ثروة طائلة من النباتات ذات المواد القلويدات والجليكوزيدات أو الفيتامينات أو البروتينات . وتصنع الآن من النباتات العطرية عطور وروائح ومستحضرات تجميل تنافس أشهر الروائح العالمية .

وكذلك من منتجات الحيوان الكثير من بينها الهورمونات والبروتينات أيضاً والألبان المجففة والمكثفة . . وزيت السمك الطبي . . .

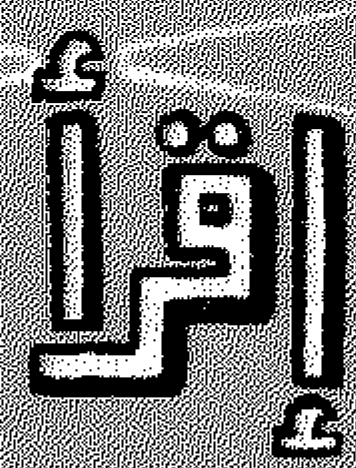
وفي حقل الكيماويات المستخلصة من مياه البحار متسع للتجارب والبحث ففيها أيضاً ثروة ضخمة للعلاج الطبي فقد وجد أن فى أعشاب البحر كميات هامة من فيتامينات (ب مركب) وفيتامينات أخرى وأملاح نادرة مثل التى تدخل فى تركيب الكابسولات للضعاف والمرضى والشيوخ . وبها أيضاً تلك الأملاح الكثيرة التى تركب منها عقاقير المعمل فى المصنع والصيدلية كالفوسفات وملح الطعام وأملاح البوتاسيوم والكلسيوم والمغنسيوم

وفى أعشاب البحر يجدون اليود والبروم وعقاقير أخرى جديدة من ماء البحر ذات أثر فعال ضد جلطة الدم وأخرى شبيهة بمضادات الحيوية لها نفس فائدة البنسلين . . .

إن الحديث عن مستقبل الصيدلة وصناعاتها حديث طويل رائع كله أمل وكله حياة وكله طمأنينة على مستقبل الوطن العربى فى الطب والصيدلة وفى الصناعة وفى الحضارة والتقدم . بفضل العقول الشابة الجبارة التى تبحث وتعمل وتجاهد من أجل لذة العلم ومن أجل مستقبل عظيم للأجيال القادمة من الأبناء والأحفاد .

والصيدلى فى صيدليته أو فى المستشفى أو فى المصنع أو معاهد البحوث يعرف أنه يعمل من أجل تحقيق مثل وطنه العليا ومن أهمها الاشتراكية العلاجية حتى نصل إلى أرفع المستويات الصحية كما أنه يشعر دائماً بأنه يعمل لخير وطنه والإنسانية جمعاء .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف بمصر



دماء فى الفجر

فى سبيل الحرية

تكملة القصة التى بدأها الرئيس جمال عبد الناصر

فاروق حلمى

دار المعارف بمصر

دماء في الفجر

في سَبيل الحرّية

فاروق حلمى

دماء فى الفجر

فى سبيل الحرية

التكملة الفائزة بالمرتبة الثانية للقصة التى بدأها السيد الرئيس جمال عبد الناصر وهو طالب بالمدارس الثانوية ، عن معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ، فى المسابقة التى أجراها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

اقرأ ٢٨٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٣ – يولية سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

تمهيد

يوم لا ينسى . . .

هذا اليوم العابس أوله ، الباسم آخره ، فى عام ١٨٠٧ . . .

قال الإنجليز هذه مصر استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهى على هذا لقمة سائغة تمضغ وتبتلع ، إذ ماذا تستطيع ملايينهم الثلاثة أن تصنع أمام أسطول بريطانيا وجيشها المدرب العظيم ومدافعها وقنابلها ؟

قال الإنجليز هذه هى الفرصة قد سنحت لتحقيق حلم قديم ، وأمل طالما جاش بنفوس الإنجليز القدماء .

وما هى إلا أسابيع حتى رست على شاطئ الإسكندرية أساطيلهم ، ودوت القذيفة الأولى من قذائف الجيش البريطانى . . . وهم يظنون أنها مسمار كبير فى نعش الحرية والكرامة المصرية ، وعن قليل سوف تكفن هذه الحرية وتوسد فى قبرها ويهال عليها التراب .

أصبحت الإسكندرية ذات الماضى الحافل تتقد ناراً وتشتعل ، ناراً رأى المصريون على ضوئها أفظع صور الظلم والجشع والطغيان . .

هام أهل الإسكندرية على وجوههم ، وخرجوا بأطفالهم ونسائهم ، لا يعرفون مصيرهم ، وبيوتهم من ورائهم تعصف بها عواصف الجحيم . . .

نار فى كل مكان . . . نار فى المدينة ، ونار فى القلوب .

والإنجليز سعداء بالنصر الذى فازوا به . . .

ونزلت الجيوش الإنجليزية إلى المدينة تزهو بالنصر : وسارت حتى

وصلت إلى رشيد ، وكانت إذ ذاك بلدة تشعر بقوميتها ، فهبت كرجل واحد ، ولم تنتظر أمر الحاكم بل دبرت أمرها بنفسها ... فقسمت رجالها قسمين : قسماً ذهب إلى الحماد يستدرج الإنجليز إلى المدينة ، وقسماً بقى فى الدور لا يشعر به أحد هناك .

وعندما اقتحمت فلول الأعداء المدينة ، صب عليهم الموت من تلك النوافذ المغلقة .

الفصل الأول

كانت الليلة حارة جافة من ليالى أوائل سبتمبر، وكان الليل قد ولى ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعات ، وكان الهلال قد احتجب منذ ساعات وراء حجب كثيفة من الغيوم المتلبدة فى جهة الغرب ، ولم يسمع أى حس ولا صوت فى الحماد التى وقفت عندها الحملة الإنجليزية تتربص ، ومن جهة الشمال كانت تقوم معسكرات الجنرال فريزر ، وكانت خطوات الحراس المتزنة تقطع السكون التام المستولى على تلك الجبهة . . .

أما فى الجنوب فقد أقام مراد باشا البطل ، هو ورجاله المخلصون غير المنظمين الذين حاولوا أن يستفزوا العدو إلى القتال المباشر . ولكن محاولاتهم ذهبت هباء . . وفى تلك البقعة ساد السكون أيضاً كما ساد فى البقعة الأخرى ، واستولى التعب على الحراس فناموا فى مراكزهم ... كان الجميع يغطون فى سبات عميق تلك الليلة . وكان مراد باشا فى خيمته الخاصة مستغرقاً فى النوم من شدة التعب بعد سهر متواصل دام ليالى طويلة كما نام حراسه إلى جانبه .

وفى ذلك السكون المخيم بدأت حركة هادئة فى خيام الجنرال فريزر . وبدأت أمواج الأجسام البشرية تتحرك ببطء فى سكون الليل البهيم ، وكانوا يقصدون خيمة مراد باشا ، فكانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وهم يتقدمون بسرعة وهدوء ، فى سكون الفجر وصمته ، فكان سيرهم شبيهاً بزحف الأفاعى الهائلة .

وقال قائل منهم بهمس : اسمع ياسير ولنجتن ؛ دع الكابتن برسى يفاجئ الحراس وادخل أنت مباشرة خيمة مراد باشا فاقتل حراسه واقبض عليه .

وما إن انتهى الهمس حتى جد سير ولنجتن فى السير على رأس ستمائة من رجاله المختارين ،وكان كل منهم يلبس قميصه حتى يمكنهم أن يميزوا بعضهم بعضاً حينما يختلطون بالأعداء فى أثناء المعركة ، ولم يكن يفصل بين معسكرات فريزر ومراد باشا سوى نحو ميل من الأرض السهلة المنبسطة . وبينما كان القوم يتآمرون ويتوعدون ويدبرون الخطط ، كان أهل الحماد مستغرقين فى نوم عميق . . .

وكان سير ولنجتن وجمعه المتحرك قد قطعوا نصف المسافة ، وكان من الصعب جداً تمييز القمصان البيضاء لشدة الظلام المخيم ، حتى ليخيل إلى الرائى أنهم أشباح ، ولم يبق أمامهم سوى نصف ميل أو أقل حتى يصلوا بزحفهم . هذا وقوم مراد باشا لا يزالون يغطون فى نومهم . . وفى تلك اللحظة تقدم شخص من الحراس فأيقظهم . وامتدت يده القوية إليهم حارساً تلو حارس فهزتهم هزاً عنيفاً ، وهو يصيح وسط الظلام : هلموا ، استيقظوا ، فالعدو مقبل عليكم ليأخذكم على غرة ويفتك بكم وأنتم نيام .

وقبل أن يتمكن الحرس من الاستيقاظ تماماً ، كانت اليد نفسها قد وصلت إلى الحرس الخاص لمراد باشا وهزته بشدة وعنف ، وعلا الصوت نفسه وهو يقول : استيقظوا ، فقد وصل الإنجليز إليكم . وفى خيمة مراد باشا بدا نور ضئيل ، وكان الباشا مستلقياً على الأرض مدججاً بالسلاح كامل العدة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه فى الوقت المناسب ، ووثب واقفاً فلم يجد أحداً معه فى الغرفة ، ولكنه لمح ظلاً مبهماً لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه فى حلم ، وأن ذلك المنظر لم يكن إلا كابوساً مخيفاً ، ولكنه وجد المعسكر قد عادت إليه الحياة .. وتجاوب نداء القتال ، وصلصلة السيوف وصهيل الخيل وأوامر الضباط تلقى فى كل جهة . . . ولكنه وجد عبارات مكتوبة

على الخيمة ، هذا نصها : « هجوم ليلي . . . فإن ستمائة رجل يزحفون عليكم ، و بينكم و بينهم الآن أقل من نصف ميل » .

وكان السير ولنجتن قد أصبح على بعد ربع ميل ، فسمع بأذنيه هذه الأصوات كلها وشعر بحركة الجند وهم يتأهبون ، فعلم أن تلك المفاجأة التي دبرت بروية و بمنتهى التكتم قد أخفقت ، وإذن فليس عليه إلا أن يرجع خائباً إلى معسكره ، إذ لم يعد في وسعه اقتحام معسكر عدوه ، لأن ستمائة جندي لا يكفون لخوض موقعة حاسمة ، ولأن جنود مراد باشا يحاربون ببسالة و إقدام ، وارتدت الجنود كالأمواج إلى الخلف تجر أذيال الخيبة والفشل .

ولما وصل سير ولنجتن إلى المعسكر ثانياً ، اضطر أن يعترف أمام رئيس الحملة الجنرال فريزر بفشل المفاجأة التي كانت قد أعدت معداتها بنظام دقيق .

قال سير ولنجتن ، وقد بدا الغضب والتذمر على وجهه : « لقد كانت الخيام كلها في الحماد تتحرك فلم أجرؤ على الهجوم ، لأننا كنا نعتمد في الفوز على المفاجأة » . فاحتج فريزر وأخذ يصخب ، ويسب ويلعن ، وقال :

— ومن الذي أفشى لهم الخبر ؟

فزأر ولنجتن كالأسد الغاضب وقال : لا بد أن الشيطان المقنع هو الذي أنذرهم .

وفي الناحية الأخرى من البلدة ، كان الرجل المدعو « المقنع » يتأهب للاختفاء بهدوء كما ظهر .

الفصل الثانى

فى اليوم التالى وقف فريز داخل خيمته ، هو والسير ولنجتن وأركان حرب الحملة وهو يهدر ويصخب كالبركان الثائر ، وكان يقطع الخيمة ذهاباً وجيئة ، ولم يجرؤ واحد على مفاتحته فى الكلام حتى تكلم وحده فقال : لقد أخفقنا فى ست معارك الآن مع مراد باشا ويظهر أنه يتلقى إنذارات فى الوقت المناسب . . .

فقال السير ولنجتن : لقد كانت كلها مدبرة تدبيراً محكماً ، وكان رجالنا يسيرون صامتين كالأشباح فى ليل بهيم شديد الظلام ، ولكن فى كل مرة كان هناك من ينبئه بقدومنا إذ كنا نجد خيامه كلها فى حركة ، فكنا نضطر إلى التقهقر ، فمن غير إبليس أعطاه الإنذار ؟

— جاسوس أمهر منك وأشد حيطة !

فصاح أحد القواد :

— إننى أجزم بأن هناك عاملا خفياً يحرس حياة ذلك الرجل . إن قومه — كما أخبرنا أحد جواسيسنا — يتحدثون عن رجل طويل القامة عريض المنكبين ، وبعضهم يدعوه بالمقنع ؛ وهم يظنون أن القوة التى تحميهم قوة علوية . . . ولكن يظهر أن أحداً لم يره ، فكأنه حقاً رسول من إبليس نفسه .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى ساد الغرفة صمت رهيب ، فاصفرت الوجوه واضطربت الشفاه ، فرسم سير ولنجتن نفسه علامة الصليب ... إن أولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون بذلاقة وعنف ، ويطربهم قتل الأبرياء ، غلبتهم الخرافات على أمرهم ... هؤلاء الذين يطربهم تعذيب الناس ، ذعروا وملكهم الخوف ، فرددت شفاههم المضطربة

صلوات كاذبة طلباً للرحمة من الله الذى كانوا يعصونه كل يوم بأفعالهم.

وحين عاد فريزر إلى الكلام كان خافت الصوت فقال : « سواء أكان الذى أنذرهم إبليس أم غيره ، فهذا لا يهمنا ؛ إنما الذى يهمنا هو أن ننفذ أوامر ماكنا ونتم الاستيلاء على مصر » ... وصمت قليلا ثم قال : « ليس ينقصنا إلا أن يكون لنا داخل المدينة جواسيس مهرة ، لكى يعرفوا كل الخطط التى تدبر » .

قال ذلك ونظر نظرة احتقار إلى الموجودين . فأجابه السير ولنجتن ، بأن الجاسوس ٥٦٦ قد أرسل اليوم إشارة يقول فيها : إن رشيد ضعيفة جداً ، ويمكن الاستيلاء عليها ، إذ أن الإبطاء يمكنهم من جمع صفوفهم. وقد وصل إلى خبر آخر ، وهو أن محمد على باشا قد صمم على الهرب إلى سورية ، بعد أن رأى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزناه فى الإسكندرية ودمنهور ، فهو الآن يحارب المماليك فى الصعيد . . أضف إلى ذلك أنه لم يفكر فى إرسال عدد من الجيش إلى رشيد . وإنى متعجب لهؤلاء القوم الذين يقاومون جيشاً كبيراً وهم ضعفاء جداً إذ ليس لديهم ذخيرة ولا سلاح.

عند ذلك ظهر الابتسام على وجهه وقال :

—هذه أخبار سارة جداً ، وعلى كل حال سوف ننتهى فى مدة قصيرة من هؤلاء القوم ، وبعدها تصير مصر ، من أولها إلى آخرها ، تابعة للتاج البريطانى .

وعند ذلك وقف الجميع إجلالا للتاج البريطانى .

الفصل الثالث

جلس محسن على كرسى منخفض، وغطى وجهه بيديه ، وجلست أمه أمامه، وقد لفت رقبتها بشالها من البرد، وأخذ محسن يفكر تفكيراً عميقاً، حتى إنه نسى أنه جالس مع أمه ... وراح يتصور الموقف، فقد كان هذا اليوم محدداً لحفلة عرسه ، ولكن البلدة أخذت بقدوم العدو إليها، فكان من جراء ذلك تأجيل العرس إلى ما بعد الموقعة ...

لقد كانت وداد وهى من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة ، ذات عينين سوداوين ناعستين وشعر مسترسل على جبينها ووجه مثل البدر وسط السحاب ... أخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس فى الشرفة مع والدته ... وراحت الحوادث الماضية تكر أمامه ، فقد كان ، بعكس أخيه إبراهيم، خاملا لا مكانة له فى القرية .

كان جالساً ذات يوم فى مزرعة فى الطرف الشرقى للمدينة يغنى أغنية شعبية ، فاستولى عليه النوم ، ولكنه قام فزعاً على صوت استغاثة ونباح كلب ، فوجد فتاة تجرى ويتبعها كلب ضخم الجسم، فما كان منه إلا أن هجم على ذلك الكلب وضربه بعصاه حتى جعله يفر من أمام هذه الفتاة الحسناء، فشكرته الفتاة، وعرفته أنه الآن فى مزرعة أحمد بك عاصم والدها . وعند ذلك تآلفت روحاهما وصار يقابلها كثيراً فى تلك المزرعة بدون علم والدها .

وكان لتلك الفتاة ابن عم مغرم بها اسمه «حسن» ، وطالما عرض عليها قلبه فكانت ترفضه بإباء وشمم . وقد أقسم ذلك الشاب أنه سينتقم منها فى يوم من الأيام ، وقد رابه خروجها كل يوم فى وقت الغروب وتوجهها إلى الحقل منفردة ، بدون علم أحد من أهل المنزل . وذات يوم اقتفى أثرها

فوجدها تتلاقى مع محسن بجانب الغدير . وعلى حين غرة خرج من مخبئه ، وفاجأهما معاً ، ونظر إلى محسن نظرة احتقار وقال له : أيها السافل الدنىء ، ماذا تفعل فى تلك المزرعة ؟ !

فقالت وداد : .

– إنه فى هذه الأرض بدعوة منى .

– لا عهد لى بأن الرجال يحضرون بدعوة النساء . . ما هذا إلا لص مجرم . . . ولكن ما بالك تدافعين عنه ؟ !

ولم يخف ما كان عليه من حنق شديد ، ومحسن ينظر إليه والضحكة الهازلة لا تفارق فمه ، كما لم تفارقه نظرة الاحتقار .

عند ذلك تركهما حسن وذهب يعدو نحو المنزل ، فقالت وداد لمحسن :

– بالله عليك اذهب ، فإنه لا يلبث أن يرجع مع رجال المزرعة فيمسوك بضرر . . .

واستجاب محسن لنصيحتها ومضى إلى منزله ، وفى اليوم التالى ذهب هو ووالده إلى والد الفتاة وخطبها منه ، وحدد العرس فى هذا اليوم ، ولكن الاحتفال به تعطل بمناسبة هجوم العدو لاحتلال رشيد .

أفاق محسن من تأملاته على صوت والده يقول له : فيم تفكر ؟ . . . لقد جند كل شبان البلدة ليذودوا عن نسائهم وأطفالهم ، فما بالك تحبس فى المنزل ولا تخرج لتدافع عن بلدتك مع المدافعين عنها ؟ . . . هل تبقى طول حياتك . . .

فقاطعته زوجته قائلة : لقد خرج إبراهيم وتجند ، فليبق محسن معى فى المنزل . إنى لا أستطيع ذلك . . . فماذا أصنع بعد ولدى ؟ وهل يلذ لى العيش بعدهما ؟ . . . هل تجرد قلبك من محبتهما فتريد أن توردهما موارد التهلكة ؟ !

— لا تظنى ذلك أيتها الزوجة العزيزة ، فإنى لست أقل محبة لهما منك ، إنما أنا أكثر منك وطنية ... هل تفضلين حياة ابنك وموتنا نحن فى ذل الأسر ورق العبودية ، أو موته وحياتنا فى نعيم الحرية ؟

وصمت فجأة لأن السكون الذى كان مخيماً على المدينة ، قطعته أصوات أغنية شعبية وطنية وهتافات عالية . . .

حدث كل هذا ومحسن لم يتحرك من مكانه ، فقد كان لا يأبه لأحد فى الوجود ، وعاش طول حياته خامل الذكر ، فما الذى يجعله الآن يقوم ويتحمل كل هذه الأهوال ؟ ! لقد نظر إلى والده وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة المستهترة التى اشتهر بها فى البلدة ، فما كان من والده إلا أن خرج من المنزل وهو يتمتم بكلمات تدل على الغضب والتذمر .

الفصل الرابع

جلس إبراهيم مع أمه فى الصباح ، إذ كان يقوم بمهمة فى المدينة ، فسألته أمه قائلة : هل رأيت أخاك محسناً ؟

فأجاب قائلا : لا . . . هل رأيته أنت ؟

أجابت : رأيته لحظة واحدة .

— وماذا قال ؟

— إنك تعرف محسناً ، فإنه أبدى إعجابه بشجاعة المتطوعين فى شيء من الدعابة. وقبل أن يبدى إبراهيم استياءه عادت الأم إلى الكلام فقالت :

— لا تلم محسناً ، فهو كما خلقه الله . . . إنه لا يبالى شيئاً .

— إنه لا يعنى إلا بلذاته وشهواته ، لقد سمعت أنه كان بالأمس مع عدد من الماجنين يضحكون ولا يأبهون لتلك المحنة التى يجتازها البلد .

وقام الشاب ليذهب إلى عمله.وكان إبراهيم من الشباب المتحمسين الذين ذهبوا إلى القتال ليمحوا العار عن الوطن .

ومدت الأم يدها نحو ابنها المفضل ، فجاءها ثانية وجلس عند قدميها وقبل يديها فقالت :

ــ أرجوك يا ولدى ألا تقدم على عمل من أعمال الطيش ، وألا تتصرف تصرفاً تندم عليه حين لا ينفع الندم .

ــ لا تخافى يا والدتى ، فقد جاءتنا وعود بالمساعدة ... إننى حذر كالثعلب ، ولكن لن أثنى ركبتى للقوة الغاشمة ... إننى أقاتل عصابة السفاحين الذين انتهكوا حرمتنا وداسوا حريتنا ، فإن الواجب على هو أن أخدم بلادى وأبوى .

ثم قبل أمه وغادر المنزل مسرعاً ، ولو استطاعت لأوقفته ، لأن الخوف استولى عليها .

الفصل الخامس

لم يكن الجاسوس ٥٦٦ سوى قطان باشا المستوطن برشيد ، كان قطان باشا من أهل أرمنيا ، وعندما فقدت أرمنيا استقلالها حضر إلى مصر ، وتجنس بالجنسية المصرية واعتنق دين الإسلام ... ولكنه كان من أكبر المرابين فى المدينة فكان يخرج الأموال بفوائد فادحة حتى كرهه الناس ، ولذلك انعزل عنهم ، وعاش فى مزرعة فى الطرف الشرقى من البلدة ، وشيد لنفسه هناك قصراً كان يسكنه هو وابنته .

كانت تلك الفتاة المسكينة لا تخرج من القصر ، وقد فقدت عطف أمها منذ كانت فى السابعة من العمر ، وهى الآن فى الثامنة عشرة .

حدث مرة أن احتاج طاهر بك عمدة البلدة إلى نقود لكي يسدد ما عليه من الدين الذى كان غارقاً فيه إلى أذنيه ، فلم يجد أحداً يلتجىء إليه غير قطان باشا الذى عرض عليه المال بفائدة قليلة ، وعندما حان وقت الدفع لم يجد طاهر بك ما يدفعه ، فذهب إلى دائنه يستمهله فأعطاه مدة أسبوع يدفع بعدها ما عليه من الدين .

وردت على قطان باشا إشارة من الحملة ، أنه لا بد من وجود شخص فى منزل العمدة لكى يحضر لهم الأخبار والمؤامرات والخطط التى يعدها مراد باشا ، لأن كل هذه الأشياء فى عهدة إبراهيم ابن العمدة .

ودبر قطان باشا خطته ، إذ لا بد أن يستولى الإنجليز على مصر ، لكى تنال أرمنيا استقلالها على أيديهم . . . هكذا كان الاتفاق بين قطان باشا والإنجليز .

وحينما حان الوقت لدفع الدين الذى على طاهر بك ، ذهب إلى قطان باشا ليستمهله فقال له قطان باشا :

— والله يا أخى إنى محتاج إلى المال ، ولذلك لا أستطيع إمهالك أكثر من ذلك ، وأملى أن تدفع دينك حتى لا أضطر إلى نزع ملكية الأرض وبيعها .!

عند ذلك اصفر وجه طاهر بك وأخذ يرجو المرابى أن يمهله بعض الوقت ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد . وأخيراً انسابت الدموع من عينى الشيخ المهدم الذى وجد الفضيحة أمامه بسحبها الداكنة ، فقال له قطان باشا :

— إنى أقترح عليك اقتراحاً أنت فيه الرابح ، فإن قبلته كان بها وإلا فسأبيع الأرض بالمزاد اليوم أو غداً ، وأستولى على الدار وأخرجكم منها .

فظهر البشر على وجه الشيخ المهدم وقال :

— لا خيب الله رجائى فيك أيها الصديق العزيز ، ودام عزك . . .

أرجوك أن تسرد على ذلك الاقتراح . وهو مقبول بإذن الله تعالى . .

فقال المرابى :

— إذا رضيت أن تزوج ابنك من ابنتى — وهى كما تعلم على قدر كبير من الجمال — فإننى أرفع ما عليك من الدين والفائدة .

....

[وقف السيد الرئيس فى قصته عند هذا الحد ، فأكملها المؤلف]

وانقضت لحظات من الصمت قطعها طاهر بك قائلا بصوت هدجته الدهشة : ماذا ؟ ... أزوج ابنتك ... أعنى ... ابنى من ابنتك ؟

— وأى غرابة فى ذلك ؟ ... أتراني لا أليق بمصاهرتك يا طاهر بك ؟

فأجاب طاهر بك وقد بدا عليه الارتباك : العفو يا باشا ، ولكنها المفاجأة ... أنت تذهلنى بما تسميه اقتراحاً و ...

فلم يدعه الأرمنى يكمل حديثه إذ بادر بمقاطعته قائلا : أفهم من هذا أننا قد اتفقنا . . .

فاستدرك طاهر بك بسرعة قائلا : لا شك أن مصاهرتك تشرفنى ... ولكن ...

ثم صمت الشيخ تاركاً لعينيه عبء التعبير عن حيرته . . . ولم تخذله فطنة الرجل ، فقد ارتسمت على وجهه المنتفخ ابتسامة عريضة وقال : إن حيرتك لا تدهشنى ، وبوسعى الآن بعد أن اتفقنا أن أوضح لك أسباب هذا الذى يبدو لك أمراً غير طبيعى . . .

وأطلق قطان باشا سعلة قصيرة جلا بها حنجرته ثم قال : عندما قدمت إلى مصر منذ أحد عشر عاماً مع ابنتى نورهان ، كنت قد خلفت وطنى ورائى وقد وطئه المستعمرون بسنابك خيولهم ونشروا فى ربوعه الموت

والدمار ، وسالت فوق أرضه دماء الأبرياء أنهاراً .

وغشيت ملامح الرجل غمامة من الحزن وسادت الغرفة برهة من الصمت لم يلبث الأرمني أن قطعها بقوله : منذ أحد عشر عاماً ، أهلت التراب على جثة المرأة الوحيدة التي عرفت كيف تملأ حياتي بالهناء ، وتسعد شبابي بالحب ... وكان أحد جنود الأتراك قد طعنها عند اجتياحهم بلدتنا طعنة أودت بحياتها وسعادتي ...

وزفر الأرمني وقد بدا الأسى على وجهه ، ثم تابع حديثه قائلا : لم أطق البقاء في البلد الذي أصبح يذكرني كل شيء فيه بزوجتي المسكينة وبأيام شبابي التي لن تعود ، فآثرت الرحيل ، وجئت إلى مصر واستقر بي المقام في رشيد ... أحد عشر عاماً عشتها في قصري الكبير مع ابنتي نورهان المخلوق الوحيد الذي آنس وحدتي طوال هذه السنين ، والمخلوق الوحيد الذي أعيش من أجله ... إنني — كلما نظرت إليها — أشعر بطيف ذلك الإحساس الذي كان يغشاني في تلك اللحظات التي كنت ألتقي فيها بأمها أيام خطبتنا ... وكنت كلما استبدت بي الوحدة وغلف اليأس نفسي ، وجدت في الجلوس إليها والإنصات إلى صوتها الضاحك والتأمل في بسمتها إشراقاً يضيء جوانب نفسي بالأمل ويبدد ما فيها من وحشة وقنوط . . . لم يعد في قلبي مكان لغير ابنتي ، فنذرت وجودي لإسعادها مهما كلفني ذلك ... إنك لا تستطيع أن تتصور كم كانت بسمتها الوضيئة تبهجني فأشعر بأنني أملك الدنيا بأسرها وكم كان يشقيني عبوسها فأود لو أقتل نفسي إن كان في ذلك ما يخفف عنها . . .

فقال طاهر بك مستنكراً : أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم !

وغالب قطان باشا ابتسامة ظافرة كادت تطفو على وجهه ثم واصل الحديث : وقد لاحظت منذ شهور أن شيئاً ما قد حدث ... شيئاً غير م بدت آثاره على ابنتي أول الأمر طفيفة لا تكاد ترى ، ولكنها

تحس ، ثم لم تلبث أن أخذت فى النمو والظهور ... فلم تعد تقبل على الطعام ، وهجرت معزفها ، ولزمت غرفتها لتنطرح على فراشها ساهمة بعينيها من خلال النافذة إلى الفضاء فى شرود صامت ، وأصابها هزال شديد ، وأصبحت لا أراها إلا شاردة الذهن ، مقطبة الجبين وفى عينها نظرة قانطة وكأنها فى محنة لا مفر منها ولا فكاك . . . وحاولت أن أعرف سرها ، فراغت منى دون أن تصارحنى بالحقيقة فلم أثقل عليها ، وراقبتها من طرف خفى فلم أصل إلى شىء . . . وكان طبيعياً بعد انقضاء أكثر من ثلاثة أشهر دون غذاء أو نوم كافيين أن يذبل شبابها وتخر صريعة الهزال والمرض ، فاستدعيت لها طبيباً كبيراً من القاهرة ، ثم آخر من الإسكندرية ، كلفانى الكثير ، ولكن الطب والدواء أخفقا فى أن يعيدا إلى المسكينة ما فقدته . . .

وسعل الباشا مرة أخرى ثم قال : وفى إحدى تلك الأمسيات الموحشة التى كانت الرياح تموء فيها من وراء النوافذ ، أصابنى أرق وصداع سهدانى الليل بطوله . . . كنت لا أسمع غير عويل الرياح الحزين خارج القصر فانقبضت نفسى . . . وظل الصوت القمىء يدوى ساعات طوالا حتى وجدته فى النهاية يعول داخل رأسى ، وأحسست أنى موشك أن أفقد عقلى ، بل لعلنى فقدت عقلى فى تلك اللحظة ، فقد وجدت نفسى أريد أن أخرج إلى الظلام وأن أسب الرياح وأن أصرخ ثم ألقى بجسدى وآلامى وخواطرى فى . . . النيل . . . وكان كل ما حولى يدفعنى إلى ذلك دفعاً . . . ابنتى المحتضرة ، وذلك الصداع . . . وعويل الرياح . . . والوحدة . . . فنهضت من فراشى وتسللت لأهبط إلى مصيرى . . . وعند قمة السلم ، توقفت قدماى . . . وعز على أن أموت دون أن أتزود بنظرة أخيرة من ابنتى ، فتسللت إلى غرفتها ووقفت أمام فراشها ... كانت نائمة وحبات العرق منعقدة فوق جبينها ، فى حين كانت

أنفاسها تتردد فى ضعف وخفوت ... وانحدرت من عينى دمعتا أسف على شبابها التعس واستدرت لأنصرف ، ولكنى ما كدت أهم بالخطو نحو الباب حتى سمعت صوتها يتردد فى خفوت شديد ، فالتفت نحوها فوجدتها مغمضة العينين وانحنيت فوقها لأسمع همسها ظاناً أنها قد تكون ظمأى فأسقيها بيدى قبل أن أودع الحياة ، ولكننى وجدتها لا تزال مستغرقة فى النوم ، ولم ألبث أن سمعت غمغمة غير مفهمومة تنبعث من بين شفتيها ، فأصخت سمعى . . . وبعد لأى استطعت أن أتبين بعض ما أفلته النوم من سرها . . . كانت تهتف باسم رجل . . . كانت تناجيه فى حلمها . . . عندئذ أدركت علتها ودواءها . . . كانت التعسة تعتقد أننى سوف أغضب وأثور لو أننى علمت بسرها ، لذلك لم تجرؤ على مكاشفتى به . . . كان فتاها قد شغفها حباً . . . فكانت تناجيه بخيالها فى يقظتها وبروحها فى منامها ... لقد بكيت ياطاهر بك عندئذ ... لم أكن أدرى أكنت أبكى تأثراً من تلك اللوعة وذلك الحرمان اللذين كان قلب ابنتى ينوء بهما ؟ أم كان بكائى فرحاً بعثورى على مفتاح خلاصها من شقوتها ؟ بكيت كطفل صغير وارتفع صوت نشيجى فأيقظها من أحلامها . . . فأقسمت لها أن أزوجها ممن تحب مهما كلفنى الأمر من جهد أو مال . . . أقسمت أن أزوجها منه ولو رغم أنفه . . .

وتريث قطان باشا لحظة قبل أن يقول : ولهذا جئتك اليوم خاطباً لابنتى فتاها . . . إبراهيم . . . واعذرنى إن كنت قد خرجت عن حد اللياقة فى بدء حديثنا . . . أنت أب ويمكنك أن تقدر موقفى جيداً .

فقال طاهر بك كالحالم : طبعاً ، طبعاً . . .

وأطرق الثعلب العجوز برأسه فى انفعال مصطنع ثم التفت إلى طاهر بك وقال متعجباً : إن ما يدهشنى فى الأمر كله ، هو أن تقع ابنتى فى غرام فتى لم تره سوى مرة أو اثنتين عندما كنت تبعث به إلى قصرى فى

بعض ما بيننا من معاملات . فقال طاهر بك ، ولما يستطع التخلص من حيرته بعد : يا باشا ، أرجو أن يمن الله عليها بالشفاء وأن يهيئ خيراً ، و ... إن مصاهرتك لشرف كبير يعز على الكثيرين ... كل ما أرجوه هو أن تدع لى فرصة أعرض فيها الأمر على إبراهيم .

فنهض الأرمنى وقال وهو يتهيأ للانصراف : سوف أعود لمعرفة رأى إبراهيم . . . غداً . . .

الفصل السادس

همست النسمات الرطبة بقدوم الخريف فارتجفت صفحة الغدير الساكن واضطربت صورة السماء فوقها ، وجفلت عينان كانتا ترقبان فيها عبور السحب الصغيرة البيضاء فى صمت وتأمل ... وهبطت يمامة على غصن شجرة جميز عتيقة وأخذت تتلفت حولها فى رعونة ثم خفقت بجناحيها وطارت محلقة نحو الشرق ، فتبعتها العينان بنظرة هائمة حتى ابتلعها الفضاء اللانهائى . . . كان كل شىء يوحى بقلق مبهم . . . الأصيل بلونه الذى يثير فى نفسها الرهبة ، وذلك النباح الذى كان يطلقه كلب مذعور ويصل إلى سمعها من بعيد ، وعبير الزهور البرية الذى امتزج بالنسمات الرطبة التى بعثت إلى قلبها بخفقة غير مفهومة . . . وانحدرت النظرة الهائمة إلى الأرض متأملة ظلال الأشجار والنخيل وقد بالغت الشمس الموشكة أن تغرب فى إظهار طولها ، وتصورت الحتمة المقبلة وهى تزحف فى بطء وغلبة فتلتهم النور المحتضر ، وتمحو الظلال الطويلة . . . وغشيتها وحشة أعادتها إلى ما كانت تفكر فيه منذ ساعتين وهى قابعة فوق الحجر الكبير الجاثم فوق حافة الغدير . . .

لقد انقضى اليوم كما انقضى الأمس ولم يحضر كعادته ، ترى ما السبب؟ . . . أهو مرض مفاجئ أم فتور في عواطفه؟ . . لا ، لا . . . إنها تعرف محسناً جيداً ، فما من شيء في الدنيا يستطيع أن يحول بينه و بين المجيء . . . حتى المرض ... ولكن . . . إنه برغم ذلك . . . لم يأت . وتذكرت لقاءهما الأخير ... أول أمس ... هنا ... لقد جلس إلى جوارها وأمسك بكفها ثم قال لها بصوت ينبض بالحب والأسى : متى تزول الغمة يا حبيبتي . . . متى؟ . . . إن الأيام تمر ببطء خانق و إن صبري قد نفد من هذا الترقب الذى لا ينتهى ، فالإنجليز فى مخيمهم قابعون والمصريون من بعيد ينظرون ، فلا هؤلاء يهاجمون ، ولا هؤلاء يتحركون وكأنما هى مؤامرة لتأخير يوم زفافنا .

وضحكت من قوله فشاركها الضحك رغم حنقه فبدا كطفل كبير عزيز ، ثم رفع كفها فقبلها بشغف قبلة طويلة ارتعد لها كيانها . . . وانصرف . . . وتبعته خفقات قلبها . . . تماماً كما حدث عندما حضر مع أبيه ليطلبا يدها من أبيها . . . لقد ظلت طوال مكثهم تغافل من بالدار لتقترب من باب القاعة التى كان يتقرر بداخلها مصير قلبها ، عساها تلتقط كلمة تهدئ من روعها وتزيل عنها ذلك الشعور الطاغى بالقلق والتوقع ، كهذا . . .الذى يغشاها الآن . . . كانت تخشى أن يقول أبوها : لا . . . وما أكثر ما سمعته ينطق بهذه الكلمة بلا مبالاة . . . فقد كانت هوايته أن يرفض دائماً . . . وما أندر ما سمعته يقول : نعم . وابتسمت عندما تذكرت اللحظة التى فتح فيها باب القاعة . . . لقد خيل إليها وقتئذ أن قلبها قد كف عن الوجيب وتعلقت عيناها بوجوه الرجال الثلاثة لتقرأ فيها الحكم . . . وانقضت لحظات عصيبة لم تلبث الدماء بعدها أن عادت إلى التدفق من قلبها فى عنف وحشى . . . فقد أدركت أن أباها لم يمارس مع الزائرين العزيزين هوايته . . . واستبدت بها فرحة كادت تقذف بها من

مكمنها خلف الستار إلى أحضان طفلها الكبير العزيز ؛ ولكنها قاومت تلك الرغبة المجنونة بسرعة وحزم . . . وعندما انصرف محسن مع أبيه ، تبعته خفقات قلبها كما حدث أول أمس . . . وتنهدت وداد وهى لا تزال تحملق إلى خواطرها . . . من كان يصدق أن أبى . . . أحمد بك عاصم ، التركى المتعجرف ، الذى لا يكف عن الزهو بالمنصب الذى كان يشغله فى الدفترداريه أيام ولاية خسرو باشا ؛ أو أفندينا محمد خسرو باشا كما يحب أن يدعوه . . . من كان يصدق أن رجلا مثل هذا يسمح بزواجها من مصرى ينحدر من أصلاب الفلاحين مثل محسن ؟ . . .

وما إن وصلت بخواطرها عند هذا الحد حتى صك سمعها صوت أوراق الأشجار الجافة المتناثرة فى الطريق الضيق المؤدى إلى الغدير وهى تنسحق بصوت ضئيل تحت أقدام شخص يقترب ، فالتفتت خلفها ، فوقع بصرها على القادم ــ فهبت واقفة وهتفت فى رقة : محسن . . .

ولكن القادم ظل يقترب دون أن يتكلم ... وتبين للفتاة خطؤها ، فقالت بغضب امتزج بالاضطراب : أوه ... أنت مرة أخرى ؟

ولكن الرجل لم يجبها حتى وقف أمامها تماماً وعلى وجهه ابتسامة قميئة وقال : نعم ... أنا ... هل أدهشك حضورى أو أزعجك ؟

فقالت بجفاء لم تفلح فى إخفائه : ماذا تريد ؟

فقال مستنكراً وقد فارقت وجهه الابتسامة : ماذا أريد ؟ ... أهكذا يكون اللقاء بين أبناء العمومة يا وداد ؟... لم أكن أعلم أن الجحود يمكن أن يصل بأحد إلى حد إنكار رابطة الدم ، ونبذ أبناء العم !

فقالت بإصرار على الجفاء : لم أكن على موعد معك ليكون بيننا لقاء . . . ماذا تريد ؟

فعادت قماءة ابتسامته تعلو ملامحه من جديد وقال : ألا نجلس قليلا حتى نستطيع الحديث ؟

فأجابت بصبر نافد : لست على استعداد للإنصات إلى حديث أحد . . . انصرف ، أرجوك . . .

وأدارت له ظهرها ثم وقفت فى مكانها جامدة . . .

فقال حسن متوعداً بصوت كالفحيح : سوف أنصرف يا وداد ، ولكن بعد أن أتم ما جئت من أجله ، وبعد أن أسمعك رأيى فيك وفى ذلك الفلاح الوضيع الذى لوثت كرامة أسرتنا بزواجك منه . . . فاستدارت له وقد توقد وجهها بحمرة الغضب وقالت وهى ترتعد : خسئت يا بذىء . . . إن قلامة ظفر زوجى أثمن من عشرة رجال من صنفك . . . انصرف خير لك . . .

فرفع حاجبيه وقال متسائلا ببرود : وإلا ؟ . . .

فدقت الأرض بقدمها فى ضيق ثم صاحت : قلت لك انصرف وإلا استغثت . . .

فدفع حسن رأسه إلى الخلف وأطلق قهقهة ساخرة ، ثم كف فجأة عن الضحك وقال بوجه عابس : لو أنك واحدة من حور الجنان أو أميرة من آل عثمان ، لما سمحت لك بطردى . . . وقد فعلتها أنت يا فاجرة .

وتقدم نحوها ببطء فتراجعت مذعورة واصطدم ساقاها بالحجر الكبير فتهاوت عليه جالسة ، وقالت بصوت فيه خوف ومقت : انصرف عنى . . . ماذا تريد منى ؟ ... ابتعد ... فانحنى فوقها ومد يده وقبض على ذراعها بقوة وقال بحزم : لقد تلوثت دماؤك بالقطرات المصرية التى سرت إليك من أمك . وسوف أخلص الأسرة منها . . . سوف تأتين معى إلى طنطا حيث نعيش معاً بعيداً عن هذه البلدة التى شهدت فضيحة زواجك من هذا الفلاح الجبان . . .

فانتفضت بعنف وخلصت ذراعها من قبضته وانتصبت واقفة وقالت باحتقار : إنما الجبان من يستأسد أمام امرأة عزلاء ويسب رجلا فى

غيبته . . . عد إلى رشدك وانصرف . . . أما أنا فلن أكون لغير هذا الفلاح . . . زوجي . . . فصاح التركي قائلا بصوت يرتجف بالحماقة وهو يرفع يده ليهوى بها على وجهها : لقد نفد صبرى معك يا عاه . . .

وقبل أن تمس كفه وجهها ، امتدت يد قوية فأمسكت بمعصمه وجذبته بقوة جعلته يدور حول نفسه وقد توقف النعت البذيء الذى أراد أن يطلقه على طرف لسانه . . . ولم تلبث اليد القوية أن هبطت على صدغه بقوة ثم علبها ذلك الاحمرار الذى صبغ موضع اللطمة من وجهه فخفف من الصفاقة البادية عليه .

وهتفت الفتاة بجزع امتزج بفرحة مفاجئة : محسن . . .

وأجاب محسن بيده اليسرى على الجانب الآخر من وجه التركى الشاب الذى تقهقر إلى الخلف فتعثر فى حافة الحجر الكبير وسقط بظهره على الأرض وهو يغطى وجهه بكفيه ... وأسرع محسن فجثم فوق صدره وأمسك بأذنيه بقوة وجذبه منهما وقال بازدراء : أينا الوضيع يا أغا ؟ ... أنا سليل الذين غرسوا أصول الحضارة والعلم والفن والأخلاق أم أنتم وأبناء عمومتكم المماليك ؟ نحن أم أنتم يا سلعة النخاسين وبضاعة تجار الرقيق ؟ نحن أم أنتم يا من لا تراث لكم ولا مجد ؟ . . . أينا الجبان يا أغا ؟ . . . نحن أم أنتم ؟ . . . هل نحن جبناء لأننا تصدينا للإنجليز وقاتلناهم وقطعنا رؤوسهم وأنتم الشجعان الذين تواريتم فى جحوركم عندما سمعتم طلقة أول مدفع إنجليزى ؟ . . . أينا النذل يا وغد ؟ . . . نحن أم أنتم الذين انتهزتم فرصة انهماك الشعب فى صراعه مع الإنجليز فذهب بعضكم إلى كفر حليم والأميرية والقرى التى حولها فسلبوا الناس مواشيهم ونهبوا أموالهم وهتكوا أعراض النساء والعذارى والغلمان ثم جروهم إلى سوق مسكة حيث باعوهم رقيقاً كما بيعوا ؟... أينا القذر يا قذر . . . أنا أم أنت وقد جئت تبغى الاعتداء على حرمة زواج شرعه الله ؟ ... أليست صفاقة أن

تعيرنى بشرفى وكرمى ؟ ... انهض ، وحذار أن أراك فى رشيد كلها ... حذار يا نذل . . .

وانتصب محسن واقفاً فقفزت وداد إلى جانبه تلوذ به من ذعرها ونهض حسن من رقدته الذليلة وهو ينفض عن ثيابه تراب الأرض وعيناه تفيضان بسيل من المقت الدفين ، ثم استدار فى أناة وابتعد متمهلا ... وظل محسن يرقبه وهو يعتصر قبضته ، ولكن وداد أسرعت فألقت بنفسها على صدره وهمست بنعومة قائلة :

– لقد كان فى حاجة إلى هذا الدرس منذ زمن طويل . . .

فنظر محسن إلى وجهها بعينين زائغتين وقال بصوت متهدج : لقد كان درساً لى بقدر ما كان له ... لقد فاخرته بأمجاد قومى التى كنت لا أكترث بها منذ قليل ... كنت أسخر من المجاهدين الذين حملوا السلاح وذهبوا للقاء الإنجليز ... كنت أفضل أن أحمل كأساً أصبها فى جوفى ، وأن أماجن أصدقائى وسمارى ، ثم أعود إلى الدار لأندس فى الفراش الدافئ الوثير . . . وبعد كل هذا أفاخر بما لم أبذل فيه شيئاً من جهد أو نقطة من عرق أو دم ... لقد فتح هذا الوغد التركى عينى ...

فتظاهرت بالغضب وقالت : كفاك سباً فى الأتراك يا محسن ، أنسيت أننى ابنة أحدهم ؟

– لا تنسى أيضاً أن المرحومة والدتك مصرية ... فلاحة ... يجب أن تحمدى الله وتحمديها على هذا ...

فضحكت وقالت بدلال : لهذا أحب فلاحاً . . .

وفى تلك اللحظة ، دوى طلق نارى مزق الهدوء المخيم ، ثم تقلصت أصابع الفتاة حول ذراعى محسن ، ولم تلبث أن تهاوت متكومة عند قدميه . فأطلق محسن صيحة جزع وهتف باسمها ثم انحنى فوقها ، فشاهد ثقباً فى ظهرها تسيل منه الدماء . . . كان نبضها قد توقف وجمدت

ضحكتها الأخيرة على ملامحها . . .

وجن جنون محسن ، فنهض منطلقاً فى إثر غريمه كعاصفة مدمرة ... وكان القاتل قد وجد أنه إذا توقف ليضع رصاصة أخرى فى غدارته ليقضى بها على محسن فسوف يتيح له الوقت الكافى للحاق به ، فآثر الفرار تاركاً لجريمته عبء الانتقام من غريمه ، مطمئناً إلى أن قلبه لن يلبث أن يكتوى بلهيب الحرمان الحزين . . . وطفق يجرى بكل ما أوتيت قدماه من خفة على الطريق الضيق الذى يخترق المزرعة الكبيرة ... ولم يلبث أن سمع صوت أقدام تلاحقه فى سرعة ، وكلما مضت لحظة ازداد صوت الأقدام قرباً ، فانحرف يساراً ليلوذ بمجموعة كثيفة من النخيل وتابع الجرى ولكن صوت الأقدام ظل يتبعه ، فالتفت خلفه ليتبين مدى اقتراب مطارده منه ثم ... أحس بشىء يصطدم بأذنه بقوة هائلة ... ودار رأسه وغشيت عينيه قتامة كثيفة ودار حول نفسه ثم سقط منبطحاً على وجهه ... ولكنه لم يلبث أن تحامل على نفسه فنهض وهو يسب بالتركية تلك النخلة التى مال جذعها فى تقوس غير مألوف ، كأنها تآمرت مع غريمه فنبتت هكذا عمداً لكى يصطدم بها رأسه فيسقط فريسة سهلة بين براثن ذلك الفلاح المتوحش . . . وانطلق يعدو من جديد ولكن بعد أن كان محسن قد اقترب منه بقدر مكنه من أن يمد ذراعه ويقبض على عنقه ... وسقط كلاهما على الأرض فى صراع مميت ، وبعد لأى تمكن محسن من أن يمسك برأس التركى فى تشبث ... وعلى جذع نخلة ظمآنة ، ظل محسن يدق رأس التركى بقوة حاقدة وكل ما فيه يهتف بالمقت الدفين وظل يدق ... ويدق ... ويدق ... حتى رأى السائل القاتم يصبغ الجذع الجاف ويروى الأرض فوق الجذور !

الفصل السابع

تدلى مصباح صغير وسط الخيمة ملقياً ضوءه الشاحب على رجلين يجلسان حول مائدة صغيرة ... كانا شاباً لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، يرتدى ثياباً تنم بساطتها وانسجامها عن شخصية تتسم بالصراحة والجرأة والإخلاص ، وكهلا ذا لحية مدببة ووجه هضيم وسترة عسكرية تزينها شُرُط من القصب الذهبى ، ويتدلى من وسطه سيف طويل ...

كان الكهل قد أطرق برأسه مصغياً إلى كلمات الشاب الذى لم يلبث أن توقف عن الحديث هنيهة استرسل بعدها يقول :

ــ وقد كلفنى على بك السلانكلى أن أبلغ سعادتكم ضرورة الاستمرار فى مناوشة الإنجليز دون انقطاع لكى نشغلهم عن القيام بهجوم على رشيد فى الوقت الحالى ، إلى أن تتم إقامة المتاريس ويصل إلينا المزيد من الجند والسلاح .

ــ وهل أتى أحمد بك الخازندار بنبأ عن موعد وصول الجيش ؟

ــ لقد أبدى الخازندار بك حيرته للسيد حسن كريت لتأخر الوالى عن إرسال جيشه ، غير أنه يرجح أن التأخير راجع لانشغاله بمحاربة المماليك فى أسيوط .

ــ والسلاح ؟

ــ لم نجد لدى الأهالى سوى اثنتين وخمسين بندقية وسبع عشرة غدارة : وبعض السيوف الصدئة ... أما ثمن البارود فقد استطعنا أن نجمع من الأهالى ثلاثة وثلاثين كيساً أكملها السيد حسن إلى أربعين من حر ماله فأرسلناها مع خمسة رجال من ذوى الخبرة بأنواع البارود ليشتروا بها أكبر قدر ممكن منه . . .

فهز القائد التركى رأسه بأسف عميق ثم قال بازدراء : كنت أتوقع

ذلك . . . لقد جرد قومى الشعب من السلاح واحتكروه لأنفسهم ليعجز الناس عن مقاومتهم كلما حلا لهم أن يسلبوه شيئاً ، كما جردوا السواحل من المدافع وتركوا الحصون والأبراج يبليها الإهمال والموج والزمن لكى تعجز مصر عن دفع أسطولهم كلما جاء بقطيع من آفاق طوروس وأو باش الدردنيل فى ثياب الجند ليزفوا إلى مقعد الولاية قراقوزاً جديداً من رجال الباب العالى . . . إننى خجل من مصر ... خجل من ربى . . . لقد أذلوا أهل هذا البلد وأذاقوه كئوساً مترعة من الشقاء ... لقد أعمتهم مطامع الدنيا فركبوا غرائزهم وتسفلوا بآدميتهم ونسوا أن هذا الشعب يدين بما يدينون به ويؤمن بالله الذى يدعون أنهم له عابدون . . .

وضرب مراد باشا المائدة بقبضة يده فى حنق ثم استطرد يقول : إننى خجل لهم – وقد آليت على نفسى أن أقف مع هذا الشعب ضد كل طامع أو خائن حتى الموت . . . إن إيمانى بالله أضخم من تركيتى ، وراحة ضميرى أثمن من قوميتى . . .

ووجد إبراهيم صدى يتردد فى نفسه لكل كلمة نطق بها قائده الذى آثر أن يحمل السلاح ويقاتل مع الفلاحين بعد أن كان قد تقاعد قبل سفره لأداء فريضة الحج والذى كان قد تفرغ للعناية بشئون مزرعته الكبيرة . كان جيران مراد باشا من المصريين يعدونه واحداً منهم ويعجبون كيف أمكن تركيا ، تلك البلاد الظالم أهلها ، أن تنجب رجلا فى مثل طيبة وإيمان ذلك الرجل الذى كانت رقة قلبه وسخاء كفه سببين جعلا الكثيرين من أهل القرى المحيطة بمزرعته يرتابون أول الأمر فى أنه كان ذات يوم قائداً فى الجيش التركى يحارب ويقاتل ويطعن ويدمر ويقود جنداً . ورغم ذلك ، فقد كان هناك شىء واحد لا يختلف عليه اثنان من جيرانه ، هو أنه رجل يستحق تلك الدعوات الحارة التى كانت تنطلق صباح مساء نحو السماء حاملة إلى الله ابتهالات الفلاحين أن يطيل بقاءه

وأن يديم عليه الصحة والعافية . . . ذلك أن جواره لهم كان بدء عهد من الطمأنينة والراحة لم يكونوا قد ذاقوا لهما طعماً من قبل ، فلم يكن جند الوالى أو أية جماعة من أفاقى المماليك يجرؤون على الاقتراب منهم لسلبهم ماشيتهم أو اختطاف نسائهم فقد كان ما يتمتع به مراد باشا من صيت كبير فى تأديب أمثال هؤلاء بمثابة الدمية التى ينصبونها فى حقولهم لترويع الطيور النهمة وردها عن التهام حبات عرقهم من سنابل القمح أو عناقيد العنب . . .

وأراد إبراهيم أن يقول شيئاً يخفف به عن الرجل الذى خلع ثوب تركيته الملوث فبدت إنسانيته كريمة شامخة ، فقال برقة :

— سيدى ... إن الخير والشر فى كل مكان فبين الأتراك الخير والشرير ومثلهم فى ذلك مثل أى قومية أخرى ... هاك على بك السلانكلى مثلا ، إنه تركى أيضاً ولكنه بطل شهم ، لم يتوان لحظة واحدة عن قتال الإنجليز وتوزيع السلاح على أهالى رشيد . . .

فقال مراد باشا بارتياب : قد تكون شهامة على السلانكلى وحميته هى التى دفعته إلى قتال الإنجليز، وقد يكون السبب هو خشيته من غضب سلطان تركيا الذى عينه فى منصبه ومن إهدار سمعته كجندى — قد يكون هذا الدافع أو ذاك هو الذى جعله يدافع عن المدينة ، وقد يكون كلاهما ، إلا أننى أؤكد أنه لو لم يكن الشعب قد قام بدوره فى المعركة السابقة لما أمكن على السلانكلى أو غيره من القادة أن ينتصر ، إذ كيف تنتصر قوة قوامها سبعمائة من الجند المترهلين الذين يحملون أسلحة قديمة على جيش مكون من ألفى جندى مدربين خير تدريب ، تسيطر عليهم روح الغزو ، ويتسلحون بأحدث الأسلحة ؟ ... لا ... إنه الشعب الذى انتصر فى المعركة الماضية ، وهو وحده الذى سوف ينتصر فى المعركة المقبلة ... أما على بك السلانكلى أو مراد باشا أو أى رجل آخر ، فإنك تغمط الشعب

حقه إن نسبت إلى أيهم فضل الكفاح ... لم يسد أحد جميلا إلى مصر ، ولا تصدق غير هذا . . .

ووجد إبراهيم نفسه فى حرج غامر ، فقد كان فضل الرجل لا ينكر وإخلاصه لقضية حرية مصر لا يعوزه دليل ، ولم يجد إبراهيم حجة يخفض بها أصبع الاتهام الذى صوبه مراد باشا نحو عشيرته من الأتراك ، بل لقد كره أن يجد نفسه يتلمس لهم عذراً يجامل بذكره الرجل الوحيد الذى يكن له الاحترام دونهم جميعاً ، فقد كان يمقتهم ... ويمقت جشعهم ، وغباءهم ، وحيوانيتهم ، وكفرهم بكل شىء ، وبكل معنى إلهى أو إنسانى . . . بل لقد كره أن يكون مراد باشا واحداً منهم . . . وأخيراً ، وجد إبراهيم أن من الأفضل أن يغير موضوع الحديث فقال : إن الذى يحيرنى من أمر هؤلاء الإنجليز أنهم يعبئون الجيوش ويبعثون بالأساطيل ويجشمون أنفسهم أهوال القتال ونفقات الحرب من أجل وعد بذلوه لذلك الرجل الذى أراد أن يعيد زمام الحكم إلى المماليك وأشباه الرجال ، غير مبالين بما يجره هذا عليهم أو على غيرهم من خراب ومشاكل . . . وإن ما يزيد فى حيرتى تمسكهم بدعوة رجل لم يكن يمثل سوى شرذمة من المماليك ، وهم لا يشعرون بذرة من الخجل عندما يعلنون أنهم إنما جاءوا بدعوة من محمد الألفى ، الذى مات ... دعوة رجل ميت لم يفوضه الشعب فى يوم من الأيام للتحدث باسمه . . .

— اسمع يا بنى ... إن دعوة الألفى بك لهم ليست سوى الدرع التى يخفون وراءها السبب الحقيقى لغزو مصر ، فليس من المعقول أن يضحى الإنجليز أو غير الإنجليز بالآلاف من أبنائهم من أجل نزع السلطة من محمد على وتسليمها للألفى وأعوان الألفى ... لا يا بنى ... إن الإنجليز ليسوا من البلاهة بحيث يريقون دماءهم لمثل هذا السبب الهزيل ، وإنما هناك شىء آخر . . . السبب الحقيقى . . .

وبعد لحظة من الصمت استطرد مراد باشا يقول :

ـ إن النفوذ الفرنسي قد تغلغل فى مصر بدرجة أصبحت تهدد مصالح الإنجليز فى الشرق كله بالضياع ، ومصر كما تعلم هى طريق تجارتها الوحيد من الهند وإليها ، والإنجليز بغير الهند وتجارتها وخيراتها يتضورون جوعاً ، فإنهم يعيشون على امتصاص دماء شعوب مستعمراتهم لا سيما الهند ... وفرنسا تعرف هذا جيداً ... وهى لهذا تكافح لبسط نفوذها على الشرق عامة ومصر خاصة لتقطع على الإنجليز طريق تجارتهم ، فهما برغم ذلك الصلح الذى عقد بينهما منذ خمسة أعوام أصدقاء ألداء ... وقد أفزع الإنجليز أن يجدوا أنه لم يكد ينقضى عام واحد على تنصيب محمد على واليا على مصر حتى أصبح مسيو دروفتى القنصل الفرنسي صديقاً حميماً لمحمد على ومستشاره السياسي والعسكرى ، وكان طبيعياً أن ينتهز دروفتى الفرصة فيستخدم نفوذه لخدمة مصالح بلاده التى تتعارض مع مصلحة الإنجليز... وقد وجد الإنجليز أنهم قد أخفقوا فى محاولتهم السابقة فى إعادة السلطة إلى المماليك بالدس لمحمد على والضغط على حكومة القسطنطينية ، ولعلك لم تنس بعد قطع الأسطول التركى التى قدمت إلى الإسكندرية فى العام الماضى حاملة إلينا موسى باشا فى مظاهرة بحرية ضخمة لتنصيبه واليا على مصر من قبل السلطان ، ولولا أن حال الشعب دون إتمام تلك المحاولة لكان حاكم هذا القطر الآن صنيعة من صنائع هؤلاء القراصنة تعاونه جماعة من مماليك الألفى يكونون بمثابة ستار ضخم تختفى خلفه أطماع الإنجليز ومآربهم . . . وطالما تربص الإنجليز للفوز بمصر غنيمة سهلة الابتلاع يضيفونها إلى معدة جشعهم التى لم تتخمها الهند وغير الهند من مستعمرات... وطال تربصهم ... ومات الألفى وهو يدهش لتباطئهم فى الحضور لنجدته كما خيل إليه ، ولكنهم كانوا يتحينون الفرصة . . الحجة الواهية التى يتذرعون بها للوثوب على مصر ... وأخيراً واتتهم ... فقد اعتمدت

تركيا على الروسيا حليفة الإنجليز فوجد هؤلاء الحجة المنشودة ... فكان أسطولهم وكانت حملتهم هذه . . .

كان إبراهيم ينظر إلى شفتى القائد وكأنما يريد أن يرى كلماته كما يسمعها ، فقد كانت كل كلمة ترفع عن بصيرته غشاوة كانت تحجب عنه الحقائق الضخمة ... وأحس إبراهيم بسيل من الفهم ينساب إلى عقله دفعة واحدة ، ولم يلبث أن تفاعل بما كان يعتمل فى نفسه من حقد على الغزاة ذوى الوجوه الحمر فغشيته موجة مفاجئة من الحماسة ـ فقال لمراد باشا فى نزق :

ـ لم لا نشن عليهم هجوماً ليلياً مباغتا نعبئ له كل قوتنا ؟

فقال القائد الكهل بهدوء : إن الهجوم عليهم غير مأمون العاقبة مطلقاً ، فلديهم نحو ثمانمائة جندى تدربوا على ألوان القتال من هجوم ودفاع ومطاردة تدريباً كاملا ، وهم يتحصنون خلف متاريس تطل من فوقها فوهات المدافع والبنادق الحديثة ورجالنا لا يزيدون عن ثلثمائة مقاتل نعتمد على إيمانهم وحماستهم أكثر مما نعتمد على تدريبهم أو براعتهم فى القتال ... هذا فضلا عن أن القيام بهجوم على الإنجليز يستلزم وجود قوة مدربة تبلغ ضعف قوتهم ومدفعيه لدك متاريسهم وإسكات مدفعيتهم لتمهد لهجوم الرجال ... كل هذا يعوزنا لكى نستطيع سحقهم ونتقاضى النصر ثمناً لدماء رجالنا ... لا يا إبراهيم ... لا تدع الحماسة تعميك عن الحذر واستعمال العقل ...

وسكت مراد باشا مفكراً لحظات وأصابعه تعبث بشعيرات لحيته ، ثم استرسل يقول : ليس أمامنا غير الانتظار ومواصلة استدراجهم هم للهجوم علينا بمناوشتهم وإقلاق راحتهم حتى تثور أعصابهم فيضطرون للخروج إلينا من خلف تحصيناتهم وعندئذ ... ولمعت فى عينى مراد باشا نظرة صارمة وهو يكمل حديثه بصوت متمهل : عندئذ ... سوف تثكل

أمهات وتترمل زوجات كثيرات ... هناك ، في إنجلترا ...

وفجأة ، سمع الرجلان جلبة من بعيد استرعت انتباههما فأصاخا السمع ، وانقضت لحظات كانت الضجة خلالها تقترب من الخيمة بسرعة ، وكلما ازدادت قرباً ، ازدادت خفوتاً ، حتى إذا ما أصبح القادمون أمام الخيمة ، كانت الجلبة قد تبددت ، فوثب الرجلان في تحفز واتجه القائد نحو باب الخيمة ويده على مقبض سيفه ، وقبل أن يصل إليه ، شاهد جمعاً من الرجال ممسكين برجل طويل القامة أسمر اللون ، تتدلى من عنقه عصابة من قماش داكن ... وكان الضوء الخافت الذي يلقيه المصباح الصغير إلى خارج الخيمة في تخاذل لا يكاد يتميز عن الظلمة الغامرة كثيراً فأضفى على وجه الرجل الطويل الأسمر قناعاً من الظلمة الشاحبة ، فبدا كمارد رهيب . . .

وتأمل مراد باشا الجلبة الصامتة على مضض وقد أحاطت بذلك العملاق الغريب ؛ ومضت برهة ارتفع بعدها صوته بالسؤال قائلا : من هذا؟

وقبل أن يتمكن أحد من الرجال من الإجابة ، ارتفع صوت من وراء القائد يقول بهدوء :

— أرجو أن يأمر سيدى القائد بإطلاق سراح هذا الرجل ... إنه أحد رجالي ...

فالتفت مراد باشا إلى إبراهيم بدهشة ثم ردد طرفه بين الجند والعملاق ، وعاد فنظر إلى إبراهيم وسأله وهو يشير بأصبعه نحو الأسير قائلا بارتياب :

— أواثق أنت أن ...

فقاطعه إبراهيم مؤكداً بقوله : تمام الثقة يا سيدى ... ولابد أن أمراً هاماً دفعه إلى البحث عنى حتى علم بمكانى فجشم نفسه مشقة الحضور إلى هنا مغامراً بحياته بالاقتراب من معسكر تتحفز فوهات بنادق رجاله لإطلاق الموت على كل شبح يلوح لهم فى الظلام ...

. . . بدا التردد على مراد باشا لحظة، لم يلبث بعدها أن أشار للرجال أن يدعوا أسيرهم . . . وما إن انصرف الرجال ، حتى دخل ثلاثتهم إلى الخيمة ، ونظر مراد باشا إلى إبراهيم متسائلا ، فقال هذا باسماً :

— هذا سلامة... الرجل الذى يعتمد عليه أبى فى إدارة شئون مزرعتنا الصغيرة وأستاذى الذى علمنى كيف أسوس الخيل وأصوب إلى الهدف وأسابق أسماك النهر ، والرجل الذى جعل من كل هجوم إنجليزى علينا رحلة فاشلة تنتهى عند حافة معسكرنا والذى بث فى نفوس جند العدو الذعر حتى إنهم أطلقوا عليه اسم ... الشيطان المقنع ...

وبهت مراد باشا عندما فوجئ بحقيقة شخصية العملاق الذى كان منتصباً أمامه ينظر إلى الأرض حياء من الثناء الذى يكيله له ربيبه إبراهيم . . . وتأمل القائد وجهه الذى لفحته الشمس وملامحه الصارمة وعينيه المتلألئتين ببريق عجيب يشع بالفطنة والجسارة ، وتلك الشعيرات القليلة البيضاء التى لم تستطع أن تخفى حقيقة سنه ، فقد كان يقترب من نهاية العقد الرابع أو تجاوزه بعام أو اثنين .

وسأل مراد باشا نفسه فى دهشة : إذن فهذا هو الأسطورة التى حيره أمرها ، والتى كثيراً ما ساورته الشكوك فى أن يكون لها وجود حقيقى ... إذن ، فالعملاق المقنع ليس شبحاً تبعث به قوة مجهولة لإنذارهم كلما تأزمت الأمور أو كادت ، كما كان يعتقد الرجال ، وكما أوشك هو أن يعتقد ... وتذكر الساعات الطوال التى أرهق خلالها عقله فى تعليل ما حدث ذات ليلة . . ليلة الهجوم الإنجليزى الأخير . ذلك الظل المبهم الذى رآه وهو نصف نائم لما يفق بعد من نومه ... وعندما تمالك حواسه تماماً وجد ذلك التحذير القصير مكتوباً على خيمته بخط كبير ... إنه لا يزال يذكر الكلمات ... نعم ... إنها ... « هجوم ليلى ، فإن ستمائة رجل يزحفون عليكم وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل» ... تماماً ...

كانت هذه كلماته...لا ريب أنه هو... بل إنه قطعاً هو... ها هو ذا اللثام قد انزلق عن وجهة فتدلى من عنقه ... وهذه القامة المديدة إنها قامة ذلك الرجل الذى حاول أن يلحق به ليلة الهجوم فوجده قد اختفى وكأن الأرض قد ابتلعته . . .

ومد مراد باشا يده إلى العملاق مصافحاً ، وشد على يده بحرارة ، وهو يقول بصوت تهدج بالتأثر : دعنى أصافحك يا سيد سلامة ، إن ما أديته لوطنك يدل على بطولة يتغنى بها الرجال وينسجون حولها قصصاً لا أجدها كافية لتمجيد فدائيتك، وإن كنت ما زلت غارقاً فى حيرتى من تقنعك ودأبك على ستر شخصيتك حتى عن رجل مثلى كان يعتقد أنه قد أصبح يتمتع بثقة إخوانه المصريين . . .

ونظر القائد الكهل إلى إبراهيم معاتباً ، ففتح إبراهيم فمه ليقول شيئاً ، ولكن صوت سلامة سبقه إلى القول فى عمق نابض بالرجولة : ليس فى الأمر أية بطولة يا سيدى وكل ما فى الأمر أننى أؤدى واجبى كما يؤديه أى رجل فى هذا المعسكر ولكن بطريقة مختلفة ... إن البطولة الحقيقية يا سيدى القائد إنما تتجلى فى أن يقف رجل مثلك إلى جانب شعبنا متجرداً من كل معنى يخالف الإيمان بالله وحق الإنسانية أينما كانت فى حياة حرة ، مترفعاً عن الركون إلى الراحة التى ما كان أحد ليلومك على الركون إليها ... إن هذا هو المجد حقاً ...

وسارع إبراهيم إلى انتشال قائده من دوامة ثناء العملاق ... فقال معتذراً : أرجو صفح سيدى القائد ، لقد اضطرنى سلامة إلى وعده بألا أفشى سره لأحد حتى زوجته ... لقد حارب سلامة الفرنسيين ولمس بنفسه خيانة بعض الجنود الأتراك لكفاح الشعب فكانوا يتصلون بالفرنسيين ليشوا بالثوار المصريين... وقد تخير سلامة لنفسه مهمة لا يسهل على غيره القيام بها ، فآثر أن يؤديها فى تكتم شديد ، وبالغ فى حذره وحيطته

حتى إنه كان لا يدخل هذا المخيم لتنبيه الرجال إلى هجمات الإنجليز الصامتة إلا ملثماً ، وكثيراً ما جادلته فى هذا فكان دائماً يهزمنى بحجة أن من المحتمل أن يكون قد اندس بين رجالنا أحد المستوطنين الذين أجادوا لهجتنا دون أن يؤمنوا بقضيتنا ممن يسعون إلى الاشتراك فى القتال طمعاً فى الأسلاب والغنائم فيعلم حقيقة أمرى ويبوح بسرى للإنجليز نظير دراهم معدودة . . . ولست أفعل ذلك خشية أن يقتلنى الإنجليز أو جواسيسهم ولكننى أفضل ألا أموت قبل أن أقتل منهم عدداً يبترد به قلبى العامر بلهيب الحقد عليهم . . .

فهتف القائد قائلا بمرارة تضوعت فى نفسه خزياً لخيانة الأتراك : والله لقد أصاب سلامة ... ولم يغب عن فطنة إبراهيم ما بدا فى صوته من ألم ، فعض على شفته السفلى نادماً واكتشف أنه قد نكز نفس قائده دون قصد فى مكان يضج بالألم ، فأخذ يعتصر ذهنه بحثاً عن شىء يمحو به طعنات كلماته التى قالها فى صراحة نزقة ، وبعد لأى استغرق لحظات خالها دهراً قال إبراهيم :

ــ لقد أسعدنا جميعاً ، سلامة ... وأنا والجميع أن تقدم سعادتكم خبرتكم الطويلة بالحروب وأساليب القتال وسيفكم الذى سجل الانتصارات الكثيرة، للدفاع عن حريتنا ، فسارعنا إلى القتال تحت قيادتكم وقلوبنا مطمئنة تماماً إلى أننا سوف ننتصر . . .

فبدت على وجه مراد باشا بسمة حزينة وهز رأسه فى صمت قطعه إبراهيم بالعودة إلى الحديث عن سلامة ليباعد بين القائد وخواطره التى يعرفها :

ــ وبهذه المناسبة ، لقد أثبت سلامة أنه خير عين لنا على الإنجليز، فهو يكمن لهم عن قرب ، ويرصد حركاتهم وسكناتهم مستتراً بالظلمة وجذوع الشجر وعيدان الأرز ... وقد أصبحت تسليته المفضلة اصطياد

دورياتهم .. ونادراً ما تعود إحداها بغير حصان قد انكفأ فوقه راكبه و...
وتنبه إبراهيم إلى أن سلامة يتململ فى وقفته فتذكر أنه لم يسأله عن سبب قدومه فبادره بالسؤال عما حدث... وبأسلوب سريع يختصر الأحداث الكبيرة فى ألفاظ قليلة ، قال سلامة :
ـ كنت أراقب الجانب الغربى لمعسكر الإنجليز فشاهدت وصول قوات إنجليزية هائلة تتكون من نحو أربعة آلاف جندى ومئات من العربات الكبيرة والمدافع الضخمة ...
حملق الرجلان فى وجه سلامة وأذهلهما النبأ بضع ثوان ، صاح بعدها مراد باشا قائلا :
ـ متى ؟ . . متى وصلت هذه القوات ؟
ـ منذ ساعتين تقريباً ...
فوثب مراد باشا من مقعده واقفاً واختطف منظاره واندفع إلى خارج الخيمة وصوب المنظار نحو معسكرات العدو . . . ومضت دقائق خفض بعدها القائد منظاره متمهلا وقد استغرقه تفكير تصحبه دهشة مذهلة ، وأخيراً غمغم قائلا بصوت به رنين الأسف :
ـ لقد تضخم معسكرهم وامتد نحو الشمال وكثفت فيه الخيام، فلم أعد أشاهد النجوم من بينها ... صدقت يا سلامة ...
وترك ذراعيه تسقط إلى جانبه ... ثم عاد إلى الخيمة يتبعه الرجلان فى صمت . . وقطع مراد باشا السكون المخيم بقوله :
ـ لقد تغير الموقف تماماً الآن ... إذا كان الرقم الذى ذكره لنا سلامة قريباً من الحقيقة ، فإن أمامنا الآن نحو خمسة آلاف جندى ومئات المدافع ، وهذا معناه أن الإنجليز يعتزمون اجتياح شمال الدلتا بأسرها ... إن كل ما نستطيعه الآن حيال هذه القوة الهائلة أن نتخذ موقف الدفاع عن أنفسنا إلى أن تصلنا القوات من القاهرة ...

ثم التفت مراد باشا إلى سلامة وقال : إننى أتوقع أن يزحف الإنجليز نحو رشيد ، وأريدك أن تتجه على الفور إلى الشمال لتراقب تحركاتهم من هناك ... نبئنى بأى شىء يثير ريبتك ... هل لديك حصان قوى ؟

— نعم يا سيدى القائد ...

— اذهب يا سلامة ... الله معك ...

وانصرف الفلاح الأسمر ، فالتفت القائد إلى إبراهيم وقال :

— وأنت يا إبراهيم ... لست أجد داعياً لبقائك هنا حتى الفجر ... عد إلى رشيد بغير إبطاء ، ونبه السلانكلى والأهالى إلى القوة التى استقدمها العدو من الإسكندرية ، وليرابط الجميع خلف المتاريس وأسلحتهم فى أيديهم ، ثم اذهب إلى السيد حسن كريت وبلغه أننى أشهد الله على أننى برىء من كل تركى لا يحمل سلاحه لقتال القراصنة . وأننى سأحارب مع الرجال حتى آخر رمق ... سوف أقاتل أعداء مصر وأعداء الله حتى أسقط جثة هامدة ، عسى أن أكفر بموتى عن بعض ما اقترفه قومى من آثام ... عد سريعاً وبلغه ... واطلب منه أن يبعث برسول يستعجل القاهرة إرسال الـ ... نجدة ... قبل فوات الأوان ...

واندفع إبراهيم بجواده إلى جوف الليل والرياح التى كانت تحمل إليه رائحة البحر البعيد ، وأخذت عيناه تبحثان عن ذلك النجم المتألق فى اصفرار ، الذى كثيراً ما تعلق به بصره عندما كان ينبطح فى الليالى الحارة فوق سطح دارهم فى رشيد ، ولكن الأحداث التى حفلت بها الأيام الأخيرة لم تدع عينيه تواصلان البحث عن النجم الصديق ، فتدفقت الخواطر إلى رأسه غزيرة متشابكة وهبطت به من السماء إلى حقائق الأرض . كان صوت سلامة لا يزال يطن فى رأسه ... أربعة آلاف جندى ومئات العربات الكبيرة ... ومدافع ضخمة ... أربعة آلاف آخرون ... مزيد من لصوص البحر لإذلال رشيد والتنكيل بأهلها ... لقد أصبحوا طلاب

ثأر بعد ما ذبح الرشايدة منهم المئات ...

ترى ، ما الذى أخر جيش الوالى ؟ ... أمات رسول السلانكلى فى الطريق ؟ أم أن الجيش قادم ومن خلفه قافلة من العربات المحملة بالسلاح والبارود ؟... ما أحوجنا إلى السلاح والبارود !... إن أحمد الخازندار يؤكد أن الرسول قد بلغ محمد على الرسالة ... وأنه حضر إلى رشيد على رأس جنوده الأربعمائة بموجب أمر أصدره إليه الوالى ليحارب الإنجليز ... هذا السفاك ... ألا يستحى من نهب القرى الآمنة فى المنوفية وهو فى طريقه إلى رشيد ؟ ... خنزير ... نعم ... خنزير نجس . إنه لا يخجل من أن يطلق على نفسه اسم بونابارته الصغير ... أتراك مجانين ! !

ولاحت على مبعدة أشباح نخيلات متناثرة كانت علامته على أنه قد أوشك أن يقطع نصف الطريق بين الحماد ورشيد ... وعادت خواطره تهمس إليه ... لن تمضى ساعة حتى أكون قد أنهيت رسالة مراد باشا إلى السلانكلى ، والسيد كريت ... سوف يوفد السلانكلى رسولا يستعجل النجدة ... النجدة ! ! ... نعم ... هكذا قال مراد باشا ... لقد انقلب ميزان الأمور ... كنا بحاجة إلى مدد صغير نستعين به على سحق البقية الباقية من الإنجليز الفارين من هزيمتهم فى رشيد ... أما الآن ، فنحتاج إلى نجدة ... اللهم عونك ... هيه ! ! ... لقد تجاوزت النخيل ... بقى أمامى نصف الطريق ... من يدرى ... لعل محمد على آت ... لعله فى منتصف الطريق ... لو أن الأمر كذلك لوصل بعد ... كم ؟ ... يومين ؟... ربما ثلاثة ... وهل ينام القراصنة عنا ثلاثة أيام ؟ ... لا أظن ... ولكن ... ليكن ... ليت جيش الوالى فى منتصف الطريق ...

ولكز إبراهيم جواده يستحثه على الإسراع ، وخيل إليه أن خواطره

تركض فى رأسه صغيرة متعجلة كوقع حوافر الجواد ... ووجد نفسه يفكر فيما سيفعله عندما يصل إلى البلدة ... وهمست خواطره إليه ... سوف أوقظه ، وأطلب منه أن يبعث برسالة أخرى إلى الوالى بالقاهرة ... سوف أطلب أن يبعث بها الليلة ... نعم ... الليلة ، مع ... من ؟ ! أريد رجلا له جلد على السفر المتواصل . . . يجب أن تصل الرسالة فى أقرب وقت ، ولكن مع من ؟ ... لم لا أذهب أنا ؟... نعم ... لم لا ؟ سأبلغها بنفسى إلى محمد على، وأشرح له المحنة وأطلب إليه أن يستقيظ وأن يفعل شيئاً ... سأمر قبل سفرى على دار السيد حسن وأطلب إليه أن يبلغ أبى فى الصباح خبر سفرى ... سوف تقلق أمى لغيابى كعادتها ... لا حيلة لى فى هذا ... ترى ... هل ستقلق نورهان ؟ ... هل ستفتقدنى فى غيابى ؟ ... لست واثقاً ... لو أنها كشفت لى مما يحيط بها من غموض ! ... ذلك الشىء الذى لا أراه ولكنى أحسه ... هذه القضبان النفسية التى تحول بينى وبينها ! ! ... ترى أى شىء كانت تقوله لأبيها بالأرمنية عندما دخلت عليهما أول الأمس ! ... أتراها كانت تشكونى إليه ؟ ! ... لابد أنها كانت تشكونى إليه . وإلا فما معنى تلك البسمة الصفراء التى حاول أبوها أن يخفى بها ارتباكه ؟ ... ولكن ... ما حيلتى ؟ ! إنها هى التى تخيرت لنفسها هذا المصير ... ففيم التذمر إذن ؟ ! ولم هذه النظرة المترفعة فى عينيها ... النظرة الباردة القاسية ! ... وهذه الأنفة ! ... إننى لا أفهمها ... ولا وقت لدى لفهمها . ولكن ما الذى يدفعها إلى البقاء يقظى فى انتظار عودتى كلما تأخرت؟... إن المسكينة تحبنى ... نعم ... هكذا قال أبوها لأبى ، ثم ... ألم تسترد عافيتها ونضارتها فى أيام قلائل عندما اطمأنت إلى أنها ستزف إلى ؟ لقد سمع قصتها من أبيه كاملة ، وأدهشه منها كل ذلك الحب دون أن تراه سوى مرتين أو ثلاث مرات ! ... شىء عجيب ، ولكنه ... حدث ! !

وسأله خاطر ملح : كيف رضيت بالزواج منها؟... وفى مثل هذه الأيام التى لا يستطيع أى رجل أن يفكر فى غير البارود والمدافع؟... هل تزوجتها لأنقذ أبى من ورطته ؟ ... أو لعله ثراؤها أو أنه حسنها الرقيق ولثغتها الشهية وبشرتها الناصعة ؟ ... ربما لكل هذه الأسباب مجتمعة ! ... مسكينة هذه الفتاة ... لا ريب أنها تظن بى الظنون لتجنبى إياها منذ أن أصبحت ... زوجتى ... لقد خيبت آمالها ولكن عليها أن تدرك ما نحن فيه الآن ... هذه المحنة ... خمسة آلاف جندى ... عربات كثيرة ... ليس ذنبى أنى لم أقربها ... ثم إننى أعود بجسد مفتت ... وهذه القضبان الخفية التى تفصل بيننا ... والنظرة القاسية فى عينيها ... زوجة متذمرة ... هل هذا احتقار ؟ ! ... فلتتحمل تبعة إصرار أبيها على الزواج فى وقت غير ملائم ... هل كان ذلك الأحمق بحاجة إلى أن يلجأ إلى التهديد لكى يزوج غادة كهذه من رجل مثلى ؟ ذلك المجنون الدميم ... كيف استطاع هذا الرجل ذو الرأس الضخم المفرطح والأنف المتورم أن ينجب هذه الزنبقة الرقيقة ؟ ! هذه الشفافية ! ... إنها فتاة لا بأس بها... سوف يعتاد أحدنا الآخر بعد أن تستقر الأمور... سوف أعمل على أن أزيل القسوة من نظرتها وأن أكون أهلا لحبها ... سأدخرها ... لقد نذرت ... نعم ... سأدخرها ... فاكهة ليوم النصر... وسوف ننجب أطفالا ! ! ... نعم ! لا شك ! ...ترى كيف يبدو أطفالى ؟ فى لون القمح مثلى ؟ أم فى لونها هى ... بياض متورد ؟ ... سوف أسمى أول أبنائى ... مراد ... وعندما ينمو سآتى به إلى الحماد ، وأحكى له قصتنا مع الإنجليز ... قصة النصر ... إن شاء الله ... ألن ينتهى هذا الطريق ؟ ... وهذه الرياح ... ما أقسى لذعها ! ... ولذع الجوع ... إننى جوعان ... مكدود ... يومان بلا نوم ، وصوم منذ الصباح ! ... ما أجمل النوم فى فراش وثير ... وهذا الجوع اللعين ، ما آله ! ... سأمر

على الدار لأتبلغ ببعض الطعام و ... ما هذا ؟ ! وجذب إبراهيم عنان جواده وانحرف به لائذاً بالظلام الحالك خلف شجرة على يمين الطريق... وظل ساكناً يحملق فى الظلام من مكمنه حتى اقترب صوت ركض وتبين شبح رجل على ظهر جواد ينهب الطريق نحو الحماد وكأنما تطارده الشياطين ، فأخرج إبراهيم غدارته وصاح وهو يصوبها نحوه قائلا :

— قف ... من هذا ؟

ورأى إبراهيم الجواد يجفل براكبه وينتصب على ساقيه الخلفيتين ، وتلفت الرجل حوله باحثاً عن مصدر النداء ، فصاح إبراهيم من جديد :

— حذار من الحركة وإلا أطلقت عليك النار ... من أنت ؟

فقال القادم وهو ينظر نحو مصدر الصوت : مسافر إلى الحماد لمقاتلة الإنجليز .

ودهش إبراهيم ، فقد كان صوت الرجل شبيهاً بصوت أخيه ، فأراد أن يستوثق من ذلك فقال :

— من أنت ؟ ... اسمك ؟

— محسن ... محسن طاهر .

فهتف إبراهيم فى عجب وهو يعيد غدارته إلى قرابها ، محسن ! ! ... تقدم ... إننى إبراهيم ... أخوك ...

وبرز بجواده من خلف الشجرة إلى الطريق مقترباً من أخيه وهو يحاول أن يتفحص وجهه فى الظلام ثم قال بوجل :

— ماذا حدث ؟ ... هل حدث شيء لأبى ؟ أو ...

فقاطعه محسن قائلا بسرعة : كلا ... إنهما بخير ... هدئ من روعك .

— لم يحدث شيء ؟ أواثق أنت ؟ ... صارحنى يا محسن ، ماذا حدث؟ لماذا أنت ذاهب إلى الحماد ؟

ـ كنت فى طريقى إليك بعد أن نقبت عنك فى كل مكان فى رشيد ، وفى المزرعة ، والكفور المجاورة ، فلم أجدك ، عندئذ أدركت أنك لابد أن تكون قد ذهبت إلى الحماد فجئت فى أثرك ...

فقال إبراهيم بصبر نافد : لماذا ؟ ... تكلم يا رجل !! ...

فأجاب محسن بأسى : لقد ماتت وداد يا إبراهيم ... قتلها التركى الحقود ... حسن عاصم ، ابن عمها ... قتلها أمامى يا إبراهيم ... فصاح إبراهيم فى ذهول : وداد ؟ ... ماتت ؟ ... قتلها ؟ ... أين هو ؟ أين ؟

ـ إنه ممدد فى غابة النخيل التى تتوسط مزرعة أبيها ... جثة هامدة ... لقد قتلته بيدى هاتين ... بودى لو أستطيع قتله ثانية ...

واندفع الفتى يقص على أخيه ما حدث وختم حديثه قائلا : لقد بددت النكبة الغشاوة عن عينى ... أدركت أننا لن نستطيع أن نحيا حياتنا ونسعد بها مع من نحب ما دام فى مصر أتراك يتعالون ويسيطرون أو إنجليز يهدرون حريتنا ويتحكمون فى حياتنا ... إننى نادم على ما فاتنى من جهاد ... لن يهدأ بالى حتى أحارب الإنجليز مع المحاربين ، وعندما نفرغ منهم ، فلن أصبر لحظة واحدة عن محاربة الأتراك وتطهير بلادنا منهم ...

وفى حسرة بين رغبته فى مواساة أخيه وعجلته لإنجاز مهمته ، قال إبراهيم لأخيه : أكمل رحلتك إلى الحماد ، واطلب مقابلة مراد باشا ... عرفه بنفسك وبلغه أننى سوف أبلغ رسالته إلى القاهرة بنفسى ...

وظل إبراهيم يرقب أخاه من فوق حصانه وقد جمدت الدهشة خواطره حتى تلاشى صوت حوافر جواده ، ووجد نفسه يهتف فيما يشبه الذهول : من كان يصدق أن هذا الماجن المدلل ينقلب إلى رجل ؟!

ثم استدار بحصانه نحو رشيد وتابع السير مواجهاً الرياح .

الفصل الثامن

خلف مشربية تطل من الطابق الثانى على درب ضيق طويل ، جلست حسناء ذات جدائل فاحمة طويلة وبشرة ناصعة تكاد تضىء ما حولها ، تنصت إلى السكون المخيم على الحى ، وقد أسندت رأسها إلى كفها ، وأرسلت طرفها متأملة المصابيح الزيتية الصغيرة المعلقة فى تلك الألواح الخشبية المتفككة التى تظلل أبواب الحوانيت وهى تتأرجح مع هبات الريح فى استسلام . . .

كانت ترى فى تلك المصابيح المتراقصة فى قيودها صورة حقيقية لحياتها . . . وكرت بذاكرتها إلى ثلاثة أسابيع مضت ، يوم جلس إليها أبوها يثرثر بكلام كثير عن واجب الابنة البارة نحو أبيها ، وحق الأب على ابنته من طاعة . . . وعن أرمنيا . . . وذلك الزوج الذى كان عليها أن تتزوجه من أجل أرمنيا . . .

لقد كان أبوها هو كل عالمها الصغير الذى تعرفه ، وتعرف أنه لم يتوان يوماً واحداً عن عمل أى شىء يعوضها به عما فقدته من حنان الأم التى لا تذكر وجهها . . . وقد عودت أباها أن تغمره بثقتها وحبها ثمناً لذلك الحب والحدب . . . وما كانت لتعصى له أمراً أو تتردد فى إتيان ما يطلب منها عن حب ورغبة . . . ولقد أخبرها أبوها فى رقة فياضة عن الدور الذى يراد منها أن تلعبه أمام زوج فرضته مصلحة يرى أبوها أنها تستحق التضحية ، وتوجب الغض عن الميول والعواطف الفردية ، فآمنت بعقلها . . . ولكن شيئاً ما . . . شيئاً عربيداً غامضاً كان قد تسلل إلى قلبها قبل ذلك بأعوام ، جعل قلبها يكفر بما يقول أبوها . . . لقد كانت تستشعر حنيناً غامضاً إلى لون مجهول من الحب ، فيه لذة وانتشاء . . . حب يختلف عن

ذلك الذى تحسه نحو أبيها ومربيتها ... حب يثير أحلامها ويخفق له قلبها...وكان يدفعها إلى الترنم بأغنية أرمنية كانت تسمع أباها يرددها وهى طفلة صغيرة على لسان راع فى وديان أرمنيا يناجى حبيبته البعيدة وراء الجبل ويناشدها أن تطل عليه عندما يمر أمام دارها بعد غيبته الطويلة... وأن تلقى بمنديلها ليحفظه فوق قلبه فيستشعر من وجوده القوة التى تعينه على خطبتها من أبيها. كان إيمانها بوجود هذا اللون من الحب ، بلا منطق ولا تجربة ، وبأن مذاقه يختلف عن هذا الحب الذى ألفته ...

كانت كفأر وقع فى مصيدة لا فكاك له منها ، فعندما كاشفها أبوها برغبته ، تصورت نفسها زوجة لأحد هؤلاء الرجال الذين تمر بهم فى عربتها المغلقة ... مجعد الوجه ، له لحية ضخمة وصوت أجش ، وأسنان صفراء كريهة ، فسرت فى روحها رعدة مزلزلة ... كما تصورت ما يمكن أن يصيب أباها من خيبة أمل لا يخطر بباله أن تصيبه من ابنته العزيزة الوحيدة لو أنها رفضت ما يعرضه عليها ... وبعد صراع نفسى عنيف ... أومأت برأسها المنكسة موافقة فى استسلام وألم ...

وأعلن أبوها اسم الرجل...إبراهيم...فحدقت بعينيها دهشة وعجباً... وتذكرت ذلك الفتى الخجول الذى جاء إلى قصر أبيها ذات يوم يدعوه إلى أبيه ، فالتقى بها على مقربة من سلم الشرفة المؤدى إلى الحديقة ... كان واحداً من الذكور القلائل الذين وطئت أقدامهم ذلك القصر المنعزل ، وكان...والحق يقال أوفرهم وسامة وشباباً، ورقة...مثل ابن خالتها بوغوص...

وتذكرت كيف بعث لقاؤهما العابر فى ذلك اليوم المزيد من عربدة ذلك الشىء الوليد الغامض فى صدرها... وتمنت يومها لو يعود الأسمر الوسيم للسؤال عن أبيها من جديد ... وكيف أن الأيام مضت ، ولم يعد ... وأخذت ذكرى اللقاء تتلاشى حتى طواها النسيان ... وبرزت مكانها الذكرى الدائمة الباهتة ... ذكرى ابن خالتها الذى يعيش فى أزمير ،

يتجر فى الجواهر وينمى ثروته حتى صار عميد تجار الأحجار الكريمة فى ذلك الميناء البعيد ... حيث يسكن قصراً كبيراً شيده فوق الصخور ... ويطل من عليائه على البحر فى كبرياء ... إنها تذكر المرة الوحيدة التى جاء فيها إلى مصر ونزل ضيفاً على أبيها فى قصرهم ، ووجدت فيه رجلا يكبرها ببضعة عشر عاماً غير أنه كاد متورد الوجه ، لامع الشعر ، حديثه رقيق ، ونظراته تنفذ إلى ذات نفسها بلا عناء ... وكان مفهوماً للجميع أنها لن تصبح زوجة لرجل غيره ... وقد أكد ذلك ، تلك الضغطة اللينة التى بثها كفه لكفها فى الخميلة النائية خلف القصر ، والتى سرت فى دمائها لهيباً طالما سهدها وأغرقها فى خضم من أحلام العذارى ، بذلك اللون المجهول من الحب ...

ولقد تساءلت عندما انصرف عنها أبوها ليعلن قبولها الزواج من ابن العمدة عما سيقوله ابن الخالة العزيز عندما يعلم أنها قد خانت العهد الصامت ، وتزوجت من غيره ... رحماك يا إلهى ! ...

ومضى يومان ، وأصبحت زوجة لإبراهيم ... ووجدت نفسها تقارن بينه وبين ابن خالتها وهى أقرب إلى الرضوخ إلى ما آل إليه مصيرها ... إنه ليس فى ثرائه ، ولا يسكن مثله قصراً شامخاً ... وليس فى استطاعته أن ينثر تحت قدميها الجوهر الغالى ، إلا أنه على كل حال ، ليس دميم الخلقة ذا لحية كثيفة أو أسنان كريهة ... وهو فوق هذا لم يبلغ من العمر ما بلغ بوغوص الذى تجاوز الثلاثين بأعوام كثيرة ...

ووجدت فى عنفوان شبابه وقرب خلاصها من وحدتها فى القصر الموحش ، ومن برودة ذلك الحرمان الممل عزاء لها عن ذلك الحلم الرابض فوق الصخور المطل من عليائه على زرقة مياه أزمير ...

وأخيراً ... انصرف الجمع الصغير الذى شهد عقد قرانهما ... وأغلق عليهما الباب ... باب هذه الغرفة ... وهدأت الضجة ... ووقفت

هى فى منتصف الغرفة ... هناك تلهث فى توقع رهيب امتزج بلهفة متوسلة ، تنظر إلى الفراش فتجفل وتلتفت نحو الباب فتتخطاه بعينيها . . .

لم تكن تعرف ما ينبغى أن تفعله العروس بعد أن يغلق الباب ... بعد ذلك الزفاف الصامت الغريب ... هل تظل واقفة . . . أو تجلس على حافة الفراش . . .

لقد نظرت من بين أهدابها إلى ذلك الذى أصبح زوجها ثم أغمضت عينيها ، ووقفت تنتظر فى غيبوبة واعية أن تلفح أنفاسه الهادئة وجهها ، وأن تظل تقترب وتقترب حتى تصير لهباً ينفث فى شفتيها ما يرتجف له بدنها بما لا يقال ... وطال الترقب ... واشتدت اللهفة ففتحت عينيها وقد بددت الدهشة نشوتها ... فماذا وجدت ؟ !

لقد كان يجلس هناك ! . . . على الأريكة . . . ووجدته ينظر إليها بعجب وكأنها دمية خشبية غريبة الهيئة ! ! ولما التقت عيونهما ابتسم فى ارتباك فابتسمت فى حنق ولاح لها أن فى عينيه شيئاً يريد أن يقوله فأمسكت البسمة على وجهها مشجعة ... وبعد أن كادت أنفاسها تزهق سمعته يقول فى حرج بالغ : اذهبى إلى الفراش يانورهان واستريحى ... فإن مهمة ما تضطرنى إلى الخروج ...

— الخروج ؟... الليلة ؟ !

— نعم ... وسأعود فى الصباح .

فنظرت حولها فى حيرة وقالت بصوت مرتجف : تتركنى هنا وحدى ؟... إننى أخشى الظلام .

— تخافين فى بيتك ؟ ... أنت لست فى الدار وحدك ، فالبيت ملىء بالناس ... أمى ... وأبى ، وأخى والخادم ... ولديك نفيسة خادمتك ... أتحبين أن أنادى لك نفيسة ؟ . . .

— كلا ، كلا . . . وصمتت برهة ثم قالت فى تردد ودهشة :

ـ ولكن الليلة ... ليلة عرسنا ... هل هي عادة أن يترك الرجل عروسه ليلة الزفاف ؟...

فنهض زوجها من مكانه واقترب منها وقال مبتسماً وهو يضع يده على كتفها فارتجفت وقال : كلا ... إن عاداتنا ليست من الحمق بحيث تبيح ذلك ... لولا أن أمراً هاماً كنا ... أعني كنت أعد له منذ أسابيع قد حان ميعاد تنفيذه الليلة لما تركتك لحظة واحدة ...

ـ ألا يحتمل ما وراءك التأجيل حتى الصباح ؟

فقال بأسف : لا أستطيع يا نورهان ... ولكني أعدك أن أكون إلى جوارك قبل أن تستيقظي . . .

وانصرف ... دون أن يقبلها ... وتبعته بعينيها وهو يبتعد في الدرب الضيق الطويل حتى ابتلعه الظلام ... وانخرطت في نهنهة باكية ...

وتتابعت الأيام والليالي...لم يعد إبراهيم خلالها إلى البيت سوى أربع مرات ... أربع مرات خلال ثلاثة أسابيع طوال ... كان يعود إليها ورائحة العرق تنبعث من ثيابه المغبرة ، فيرتمي على الفراش صريع الإرهاق والجوع إلى النوم بلا كلمة ، سوى تحية يلقيها كمن يلقي بعبء ثقيل أمضه حمله ... ثم ... شخير طويل ... يبدد ما بناه خيالها من أحلام مثيرة وري مرتقب ...

ومنذ ثمانية أيام قامت إلى مرآتها فتجملت وتعطرت وعقدت جدائلها الطويلة الفاحمة على هيئة تاج مرتفع ، كذلك الذي يزين رأس الحسناء المرسومة في اللوحة الزيتية المعلقة في القاعة الكبرى بقصر أبيها . . . ثم ارتدت من أجله غلالة وردية هفهافة من الحرير الهندي الشفاف ، وانطرحت على الفراش بإغراء ، تاركة لحسنها معاتبة زوجها عند قدومه والهمس في أعصابه : هيت لك . . . ثم جرفتها الأحلام من جديد فاستشعرت منها لذة متوهجة . . . وتخيلت زوجها وهو يغلق الباب بهدوء

كعادته ، ثم . . . يستدير نحو الفراش فيراها . . . فيقبل بعينيه جسدها اللدن ، الذى تشى بأسراره الناصعة الغلالة الوردية المثيرة ، وعندئذ . . . يقترب منها ثم . . . ينقض عليها فيطويها بين ذراعيه ويسحق بدنها الرخو فى أحضانه القوية . . .

وقبل أن ينتصف الليل . . . عاد إبراهيم . . . وأغلق الباب بهدوء كعادته . . . وأوقد الشموع الثلاث ، ثم استدار نحو الفراش فأمعنت فى التناوم . . . وسرت فى أوصالها رجفة خفيفة عندما تكهنت بهبط يديه من جسدها ، واستشعرت فى تلك المواضع دفئاً متزايداً . . . وانقضت اللحظات . . . بطيئة . . . غبية . . . فارتعدت أهدابها فى صبر نافد ونظرت إلى زوجها فى ثورة جبانة . . . ورأته قد جلس على الأريكة وبين يديه أوراق شرع فى قراءتها على ضوء الشموع . . . الأبله البارد . . . لشدما تمقت هذا الرجل . . . ولشدما تتمنى لو تحطم رأسه وتمزق قلبه الذى لا ينبض بعاطفة ما . . . أليست جميلة ؟ ! . . . أهى من الدمامة بحيث ينفر منها هذا الفلاح المغرور ؟!! أليست تفضل هذه الكائنات اللاتى يسرن فى الطرقات وقد وشت ملاءاتهن السوداء الكئيبة بترهلهن المضحك ، وكأنهن خفافيش بشرية سمينة ؟ ! . . . إن هؤلاء النسوة أزواجاً . . . ذكوراً . . . يجدن فيهن شيئاً يدفعهم إلى أحضانهن فى المساء . . . ألا يجد هذا المخلوق بعض هذا الشيء فى ؟ ! . . . إنه لم يقبلنى مرة واحدة . . . واحدة فقط . . . إننى بالنسبة له . . . لست سوى دمية غريبة لا تثير فيه أكثر من نظرة بلهاء ، يذهب بعدها فيرتمى على تلك الأريكة اللعينة أو يخرج إلى تلك المهمة التى تتجدد كل مساء . . . أما أننى امرأة من لحم ودم ، فهذا شىء لم يعلم به بعد ! . . . آه من هذا الغباء ! . . . هذا اللهيب ! . . . لن يكون الجحيم أسوأ من هذا الإهمال . . . هذا

الإذلال . . . والسهد ، والنظر إلى هذا الدرب الضيق الكريه إلى ما بعد منتصف كل ليلة . . . والقلق والحرمان حتى كل صباح . . . وتلك البسمات المقيتة التى يرشقنى بها أهله طوال كل يوم . . . هذا الشقاء . . . يجب أن ينتهى . . . عشرون يوماً أو تزيد ، بلياليها الطويلة ، وأنا أرسف فى قيود هذا الزواج . . . متأرجحة بين اليأس والأمل ، ثم اليأس من جديد . . . كهذى المصابيح المتأرجحة فى استسلام أمام هبات الريح ! . . .

وأقنعت نفسها بأن زوجها يستحق ما يدبره له أبوها . . . أبوها الذى ألقى بها فى هذا الجحيم . . . لقد أفاقت من كابوس مشاعرها فوجدت نفسها قد باحت له بكل شىء . . . كل شىء !!! فربت أبوها على يدها فى حنان وهون عليها قائلا بالأرمنية : لن يدوم هذا الحال يا نورهان . . . سوف نرحل إلى أزمير عندما نصل إلى بغيتنا . . . وسوف تجدين بوغوص فى الانتظار . . . وسوف تنسين هذا الرجل الكئيب . . . ولكن عليك أن تجعلى يوم خلاصك من هذا الشقاء قريباً . . . افتحى عينيك وأصغى بسمعك بحذر شديد . . . تقربى إليه . . . واعملى على كسب ثقته بسرعة حتى يمكنك استدراجه إلى الحديث عن المهام التى توكل إليه دون أن توجهى إليه سؤالا مباشراً . . . لقد أوضحت لك كل شىء أكثر من مرة . . . وتذكرى أنك تقومين بأعظم دور يمكن أن تؤديه فتاة . . . الحرية لبلادك وبلاد أجدادك . . . والمجد والسلطان لأبيك . . . والمال والسعادة والحب . . . لك . . .

وبعد ما كان التردد والفتور فى تنفيذ رغبة أبيها يساورانها كلما أقدمت على ما يراد منها . . . وجدت فى الخيانة سبيل الخلاص الوحيد الذى سوف يباعد بينها وبين هذا البلد الذى لن تذكره إلا وذكرت معه صنوف الحرمان التى تذوقتها خلال إقامتها فيه . . .

الحرمان من حب الأم وحنانها و . . . حب الزوج وتدليله . . .

وكأنما استجابت الأقدار لأمانيها فى الخلاص ، فقد عاد إبراهيم فى مساء اليوم الذى زارها فيه أبوها ، متأخراً كعادته ... مرهقاً ، جائعاً . . . وسقط كثوب فارغ فوق الأريكة وطلب منها وهو يتثاءب أن تعد له طعاماً ، ففعلت وعندما عادت بالطعام . . . كان قد غلبه النعاس وارتفع غطيطه . . . فحاولت أن توقظه ليأكل ، أو ليكف عن غطيطه الذى كادت نغمته الرتيبة تحطم أعصابها ، دون جدوى . . . فلما يئست من إيقاظه تركته محنقة واندست فى فراشها وأسلمت نفسها للأفكار الخانقة...

وفى الصباح ، حضر رجل يرتدى قفطاناً أسود وعمامة خضراء . فاستقبله طاهر بك بالتحية والتبجيل ، وبعد ما احتسيا القهوة ، أرسل طاهر بك فى طلب إبراهيم الذى كان لا يزال نائماً ، فأيقظته فانتبه من نومه وتلفت حوله ورآها ، فقام من رقدته وهتف فى دهشة : أنا هنا ؟!

وكأنما كان يستنكر على نفسه أن يعود إلى بيته لينام !! . . .

وأنبأته نورهان بالزائر ذى العمامة الخضراء ، فهتف فى حيوية من استيقظ من ساعات : السيد حسن كريت . . . لابد أن شيئاً ما قد حدث . . .

وهبط إبراهيم لمقابلة الزائر دون أن يغتسل أو يتذوق طعاماً . . .

واشتمت نورهان رائحة أحداث كبيرة تدور حولها ، ودفعها الحنق والفضول إلى التسلل إلى كوة صغيرة فى الردهة الخارجية تطل على الجالسين فى المنظرة الكبيرة ؛ ولكنها ما إن وصلت إليها حتى سمعت حفيف ثياب حماتها وهى تقترب من مكانها ، فقفزت فى خفة إلى غرفتها فى اللحظة الأخيرة . . . وعندما هبطت أمه إلى المطبخ لتشرف على إعداد الغداء عادت إلى الكوة وأصاخت السمع ، وكان إبراهيم يقول :

ـــ والعدو بقواته الهائلة يستطيع أن يسحق قوتنا الصغيرة التى يعوزها

السلاح والبارود ما لم تحدث المعجزة وتصل النجدة من القاهرة . . . إننا فى حرب يا سيد حسن وفى الحرب لا يمكن أن يخدع المرء نفسه . . . لقد قال مراد باشا إننا نعتمد على إيمان رجالنا وحماستهم أكثر مما نعتمد على تسليحهم ، وإن ما جمعته من أسلحة وذخائر طوال الأربعة الأسابيع الماضية لا يجدى فتيلا أمام أربعة آلاف جندى كاملى التسليح والتدريب تعضدهم مئات المدافع الضخمة . . . ويبدو أن الوالى لا يقدر خطورة الموقف حق التقدير فلم يمدنا بأكثر من تلك القوة الصغيرة التى يقودها أحمد الخازندار ... وحتى هذه القوة من الجند المرتزقة لم تتورع عن سلب قرى المنوفية ونهب أهليها ، وكأنها تتقاضى ثمن القتال الذى سوف تخوضه مقدماً . . . إن النصر لن يتم على أيدى هؤلاء المرتزقة وقد آن لنا أن نعتمد على أنفسنا . . . فقال الرجل ذو العمامة الخضراء : وماذا يرى مراد باشا ؟

فقال إبراهيم : إن مراد باشا لا يخفى قلقه من ضعف موقفنا وقلة عددنا . . . وقد عزم على أن يلتزم جانب الدفاع إلى أن تصلنا النجدة من القاهرة . . .

وصمت إبراهيم برهة قال بعدها بصوت ينغمه الأسف : لقد كلفنى بالأمس أن أبلغك وعلى بك السلانكى بأمر الإمدادات الإنجليزية الكبيرة لكى تعملوا عـلى تدعيم تحصينات المدينـة ولتكتبوا إلى القاهرة لتسارع إلينا بالنجدة اللازمة ، قبل فوات الأوان . . . لقد عرجت على الدار لأتبلغ بشىء من الطعام ، ولكن غلبنى النوم . . . وكنت أزمع أن أذهب بنفسى إلى القاهرة بعد إبلاغكما هذه الأنباء . . .

فربت السيد حسن كريت على ركبة إبراهيم وقال : هون عليك يا إبراهيم . . . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . . . إن مكانك هنا يا رجل . . . فى الميدان . . .

لدينا عشرات بل مئات يستطيعون أداء الرسالة بسرعة وأمانة . . . والآن هيا بنا إلى السلانكلى لنخبره بالمدد الإنجليزى ونستكتبه رسالة لمحمد على . . . أما أنت فعليك بتنظيم جهود الأهالى وتوزيعهم على المتاريس والإشراف على حفر الخنادق . . .

وانقضت الجلسة ، وانصرف الرجال لإتمام تدبيرهم . . .

وجاء قطان باشا فى اليوم التالى زائراً ، يتبعه غلامان يحملان الهدايا إلى دار العمدة . . . لم يكن بالدار سوى النساء ، والخادم يوسف . . . فقادته ابنته إلى غرفة منعزلة ، وأفضت إليه بالأرمنية بكل ما سمعت من أسرار وتدابير . فأمرها أبوها أن تكون على أهبة الاستعداد للهرب معه فى أية لحظة إلى الإسكندرية . . . ثم قال وهو يداعب وجنتها : ومن هناك ، سأبعث بك على ظهر سفينة إلى أزمير ، وسوف ألحق بك بعد ذلك . . . بعد ما يفى الإنجليز بالوعد . . .

ثم علت وجهه ابتسامة خبيثة وهو يستطرد قائلا : وعندئذ . . . ستتزوج الحسناء نورهان من بوغوص . . .

بعد أن انصرف الأرمنى . . . تمددت نورهان فى فراشها واستسلمت لدهدهة الأحلام الناعمة . . . أزمير . . . بوغوص . . . ابن خالتى العزيز . . . سيقدم لى مع كل إفطار جوهرة . . . ومع قبلة المساء هدية . . . ما أحلى ضغطة يده . . . وما أبهى أن أكون سيدة قصر متكبر يطل على المياه الزرقاء العميقة . . .

الفصل التاسع

نحى الجنرال فريزر الخريطة الكبيرة جانباً والتفت إلى القائد الذى كان يجلس فى مواجهته وقد ألقى إليه سمعه باهتمام ، ثم قال :

ـ لقد وصلت فى الوقت المناسب يا جنرال ستيوارت ، وقد آن الأوان لكى ننتهى من هذه المهمة التى كاد أن يطول عليها الأمد ويحل علينا سخط صاحب الجلالة البريطانية.

فقال ستيوارت بلهجة الواثق : لن تمضى أيام قلائل حتى نكون قد غسلنا أيدينا من هذه العملية الصغيرة ، وتكون قواتنا قد بدأت الزحف نحو القاهرة .

ـ إن هذا ما أتوقعه من البطل الذى أدب العصاة فى البنغال ودعم هيبة التاج البريطانى فقد قررت إعفاء الجنرال ويكوب من أعباء القيادة لأن إصابته فى المعركة الأولى أصبحت تعوقه عن الاستمرار فى أداء واجبه على الوجه الذى يكفل لنا النصر وسوف أصطحبه هو والسير ولنجتن معى إلى الإسكندرية على رأس بقية قواته التى نجت من تلك ال ... ال ... مذبحة التى فقدنا فيها أكثر من نصف جنودنا . . . إننى أسند إليك القيادة وأنا مطمئن تماماً إلى أنك سوف تحقق انتصارات ترفع الروح المعنوية التى انهارت بين جنودنا ، وتمحو العار الذى لحق بعلم بريطانيا ....

وتوقف الجنرال فريزر عن الحديث ونظر إلى طرف المائدة حيث يجلس رجل ذو رأس ضخم مفرطح وشارب متدل ، ثم عاد فنظر إلى الجنرال ستيوارت واستطرد يقول باتئاد : وإن الظروف التى سوف تحارب فيها تعتبر أفضل بكثير من تلك التى حارب فيها ويكوب وولنجتن . . . فإن صديقنا قطان باشا أمكنه الحصول على معلومات من مصادر لا يرقى

الشك إلى صدقها ، من مركز الاتصال المباشر بين القوات المتحصنة بالمدينة وعصابات مراد باشا من ناحية وبينهما وبين القاهرة من ناحية أخرى . . . وهذه المعلومات مدونة مع جميع التفاصيل هنا . . .

ومد الجنرال ستيوارت يده وتناول المظروف المغلق الذى قدمه له القائد العام للحملة واستطرد فريزر يقول : لقد قارنت هذه البيانات بالمعلومات السابقة والأنباء التى حملها إلينا مستر بتروتشى قنصلنا فى رشيد فوجدت أننا إذا أحسنا استخدامها فإن النصر لن يكون إلا لنا ... إن فرقتين من الجند تعدان قوة هائلة إذا ما قيست بقوات العدو وأسلحته المضحكة . . . وإن هزيمة المصريين مؤكدة لو أننا استعملنا سلاح المباغة ، دون أن نضيع وقتاً . . . لقد غادرت رسل المصريين رشيد منذ ساعات ليستنجدوا بالقاهرة بعد أن اكتشفوا أننا قد أتينا بقوات كبيرة من الإسكندرية وعيونهم ساهرة ترقبنا ، ويجب ألا نضيع الوقت الثمين ، فتأتى قوات من القاهرة لنجدتهم وفى هذه الحالة لا يستطيع أحد أن يتكهن بالنتيجة . . . إننى أترك كل شىء لحسن تصرفك وأنصح بالقضاء على عصابة مراد باشا أولا . . . إنهم شوكة فى جنب أية قوة تتقدم للاستيلاء على رشيد . . .

وكف فريزر عن الحديث ونظر إلى السير ولنجتن ثم قال له : يحسن أن تزود الجنرال ستيوارت بمعلوماتك عن هذه القوة التى خبرتها بنفسك مدة طويلة يا سير ولنجتن . . .

وبدا الارتباك على وجه ولنجتن وأحس بأصابع فولاذية تعتصر قلبه عند ما تبين نغمة السخرية فى كلمات القائد العام . . .

وابتلع ولنجتن ريقه وقال متردداً : . . . إنها قوة ... صغيرة ... أعنى . . . أنها مكونة من أربعمائة جندى جميعهم من الفلاحين وبعض الصيادين والأهالى . . . وهى على ضآلة أفرادها ، قوة سريعة الكر

والفر . . . وقائدهم يدعى مراد باشا السلحدار . . . تركى استوطن مصر سبعة عشر عاماً . . . كان أحد قادة الجيش التركى ، وكان يختلف عن غيره من قادة الأتراك الذين يحنون رؤوسهم لرغبات سلطان تركيا . . . وجاء الوقت الذى كان لابد فيه أن تصطدم رغبات السلطان باستقلال شخصية مراد باشا ومبادئه . . . فعزله السلطان من منصبه فآثر الرجل أن ينزح إلى مصر ... ليعيش فيها بعيداً عن خناجر أعوان السلطان . . . واشترى مزرعة كبيرة قريبة من رشيد . . . ومنذ أن خلع ثوب القائد وارتدى ثوب المزارع ، أخذ يعمل على اكتساب قلوب الفلاحين فهو يصلى معهم ويوزع عليهم هداياه ويدرس مشاكلهم ويعاونهم على حلها . . . وكان يدرب رجال مزرعته على كيفية القتال والدفاع عن الأرض ضد جباة الأتراك وهجمات المماليك . . . فأصبح مراد باشا فى نظر الجميع ... نصف إله ... يأمر فيطاع عن حب و إعزاز لا عن خوف وإرهاب . . .

وتنحنح الجنرال فريزر منبهاً السير ولنجتن إلى أنه قد خرج عن موضوع الحديث . . . فاضطرب جفنا سير ولنجتن دون أن يتوقف عن الحديث :

ـــ وعندما قمنا بهجومنا الأول بقيادة الجنرال ويكوب ولازمنا سوء الحظ حضر سعادة القائد العام من الإسكندرية ليشرف بنفسه على الحملة التى أسند قيادتها إلى بعد أن جرح للأسف الجنرال ويكوب ، كان على أن أواجه عدة عناصر معادية . . . قائد حامية رشيد التركى اللئيم . . . ومعه الأهالى المرابطون خلف التحصينات والأسوار .. . ومن خلفى قوات هذا الرجل . . . مراد باشا ، التى دربها على حرب العصابات ... كانوا كالشياطين ينقضون على أطراف معسكرنا فى أوقات لم نكن نتوقع فيها أى هجوم . . . وعندما يستيقظ الجند ويتأهبون لتبادل إطلاق النيران

معهم يكونون قد فروا تاركين وراءهم بضعة عشر قتيلا وعشرات من الجرحى من جنودنا . . . وقد وجدت أن رجالى لم يعودوا قادرين على القتال بروح عالية ، فلقد عاشوا فى سلسلة من الحظ السيئ جعلت عزائمهم تخور . . . وقد حاولت أن أقوم بهجمات ليلية مفاجئة على معسكر العدو وأنتقم لما أصابنا من هزائم ، وأسترد ثقة الرجال فى أنفسهم وفى . . . قيادتهم . . . وحاولت ست مرات . . . نعم . . . ست مرات ... وكانت كل هجمة نقوم بالإعداد لتنفيذها خطوة خطوة بعد تفكير عميق وعناية دقيقة ... ثم نبدأ هجومنا ... وفى اللحظة التى كنا نعتقد أن ليس بيننا وبين النصر النهائى إلا فاصل من اللحظات التى لا قيمة لها ... يفسد كل تدبير . . . وتنهار جميع الخطط . . . ونعود إلى خيامنا دون أن نفعل شيئاً . . .

فرفع الجنرال ستيوارت حاجبيه فى دهشة وقال : ... تقول ست هجمات تخفق فى اللحظة الأخيرة . . . كيف ؟ فقال السير ولنجتن بمرارة : المقنع . . . الشيطان المقنع ! . . . فازدادت دهشة الجنرال ستيوارت ونظر إلى ولنجتن نظرته إلى رجل ملتاث العقل : . . . ماذا تقول يا سير ولنجتن ؟ . . . شيطان . . . مقنع ؟ !! . . .

فقال الجنرال فريزر : إنى مضطر أن أقرر أمام مجلسنا هذا ، أنه ثبت لدينا . . . للأسف . . . أن لهذا الاعتقاد أثراً من الحقيقة وأن نشاط هذه الشخصية التى نشك فى وجودها بقدر ما نؤمن بها . . . قد تسبب فى إخفاق جميع هجماتنا على العدو . . . إنى أرجح أن يكون هذا المقنع أحد رجال مخابرات قائد حامية رشيد فقد بث حولنا العيون والأرصاد وأمكننا القبض على أربعة من جواسيسه خلال الأسابيع الماضية . . . ويبدو أن هذا المقنع أبرع رجاله على الإطلاق . . . إنى لواثق أن حنكة الجنرال ستيوارت الحربية وخططه التى تتسم بالمباغتة

سوف تكفل لنا الاستيلاء على رشيد قبل أن تصل معلومات المقنع أو غيره إليها . . . والآن . . .

والتفت فريزر إلى قطان باشا قائلا : باسم هذا المجلس أقدم شكرى لك على هذه المعلومات القيمة التى سيكون لها أثرها فى إحراز النصر على العدو ... ولن أنسى أن أنوه عن مجهودكم فى تقريرى إلى حكومة لندن . . . وصمت قليلا ثم قال : . . . أرجو أن تكون على استعداد للسفر معى إلى الإسكندرية بعد منتصف ليل الغد . . . سوف أحتاج إلى معونتك للاتصال بهؤلاء المماليك الذين لم يصلنا منهم رد حتى الآن. فوقف قطان باشا وقد فهم أنه قد آن له أن ينصرف وانحنى للجنرال فريزر والمجلس ثم قال : سأذهب الآن إلى رشيد . . . سوف أعود إلى هنا مساء الغد من الطرف الشمالى للمعسكر . . . ولكن . . . أرجو أن يسمح لى سيدى الجنرال باصطحاب ابنتى معى إلى الإسكندرية فإننى لا آمن عليها فى رشيد بعد ما حدث . . . وما سيحدث . . . فابتسم الجنرال فريزر وقال : لا بأس . . . لا بأس . . . سوف يسعدنى أن تكون حسناء كابنتك رفيقة سفرى إلى الإسكندرية . . . وانحنى الأرمنى ذو الرأس المفرطح والشارب المتدلى للجالسين فى أدب وانصرف . . .

والتفت الجنرال فريزر إلى ستيوارت قائلا : والآن . . . أرى من الأفضل أن تقوم بدراسة التقرير الذى سلمته إليك ، وسوف تجد فى معلومات مستر بتروتشى عوناً كبيراً لك على تقرير الخطة التى سوف تنتهجها . . . إنى واثق أن اختيارك للكلونيل ماكلود قائداً للقوة التى تتولى القضاء على عصابة مراد باشا اختيار موفق .

فقال ماكلود الذى كان يجلس متخشباً كأحد أصنام المعابد : أشكرك يا سيدى الجنرال وأرجو أن أكون أهلا للثقة التى شرفتمونى بها . . .

فسأله فريزر قائلا : كم يلزمك من الجنود لهذه العملية يا كولونيل ؟

فأجاب ماكلود وهو يبرز شفته السفلى ويضغط بها على العليا فى تفكير : ألف و ... خمسمائة جندى . . . وبدا فى عينى ولنجتن بريق ساخر ، فأدرك أنه قد بالغ فى تقدير العدد الذى يلزمه للقضاء على أربعمائة جندى من المتطوعين فاستدرك قائلا : إن على أن أحاصر المنطقة الشاسعة التى يسيطرون عليها ، وبعد ما يتم لنا الاستيلاء على الحماد ، يتحتم على أن أترك بها قوة كبيرة لصد أى زحف يأتى من القاهرة ريثما يتم لى الاستيلاء على بقية القرى الواقعة بين الحماد ورشيد وتطهير القطاع من كل مقاومة ، وهذه عملية كبيرة لتأمين ظهر الجنرال ستيوارت أثناء استيلائه على رشيد فقال فريزر : ما رأيك فيما يقوله كولونيل ماكلود يا جنرال ستيوارت .

— رأى صائب ولا شك ... إن الألفين والخمسمائة الباقين يكفون لأن أغزو بهم شمال مصر كلها . . . فقال فريزر وهو ينهض من مقعده ويتناول قبعته المريشة بيمناه ويمسك بقبضة سيفه بيسراه فى حركة مسرحية : هذا عظيم يا سادة . . . يبدو أن كلا منكم يحسن تقدير المهمة الملقاة على عاتقه . . .

ودفع فريزر مقعده إلى الوراء ثم وضع قبعته فوق رأسه والتفت إلى الرجال الذين وقفوا جميعاً لتحيته فى احترام وجمود وقال : لقد حان موعد ذهابى إلى الفراش . . . جنرال ستيوارت إنك منذ اللحظة مسئول عن كل شىء ، وأتمنى لك حظاً سعيداً .

— شكراً يا سيدى .

— برسى ! . . . أين كابتن برسى ؟

— هأنذا يا سيدى .

— هل أعددت كل شىء بما يكفل راحة جنرال ستيوارت وكولونيل ماكلود ؟

— نعم يا سيدى الجنرال .

ــ بديع . . . فلنذهب الآن . . . طبتم مساء يا سادة . . .

وفى تلك اللحظة ، كان قطان باشا يتسلل على صهوة جواده من بين الخيام على مهل وهو يتلفت حوله متفحصاً كتل الظلام المحيطة به من كل جانب . . . ثم دار بجواده حول أكمة قريبة لينطلق من ورائها نحو الملاحات فى الشمال . . . وتوقف قليلاً ليتبين المسلك الذى آثره على الطريق المألوف . . . كان القلق والأمل يتنازعان نفسه ويحاول كل منهما أن يستبد بها فأخذ قلبه يخفق بوحشية لم يعرفها من قبل . . . كان كل شىء قد سار حتى تلك اللحظة على ما يرام . . . فقد أدت نورهان الدور الذى رسمه لها بإتقان ، وقد أثنى فريزر على جهوده وشكره على المعلومات التى حملها إليه الليلة . . وكانت مكملة للمعلومات التى حصل عليها بتروتشى وسوف ترسل إليه حكومة لندن بشكرها على ما أداه للتاج البريطانى من خدمات ، وعندئذ سوف يطالبهم بالوفاء بوعدهم . . . تحرير أرمنيا .. . وارتسمت على وجهه المنتفخ ابتسامة تطفح بالبشر والهناء ، وأنصت بذهنه إلى فحيح خواطره . . . نعم . . . سيحررون أرمنيا وعندئذ لن يجد الإنجليز خيراً منى لحكمها . . . لقد خبروا دهائى وحنكتى ، وسوف يسرهم ولا ريب أن يكون حاكم أرمنيا صديقاً مخلصاً للتاج البريطانى . . . أما الشعب . . . هناك . . . فسوف يعدنى بطلا . . . البطل الذى حرر البلاد ، ولن يعترض أحد على كحاكم وزعيم . . . لن يجرؤ واحد على أن يقف أمامى ، وعندئذ . . . رباه !! . . . ما هذا الشىء الذى يـ . . . يتحرك ؟ ! . . . ما . . . إن الظلام يتحرك ... إيه ! ... رجل !! والتفت قطان باشا خلفه بسرعة ليتبين مدى بعده عن معسكر الإنجليز فوجد أنه قد أصبح على مبعدة ربع ميل فمد يده وأخرج غدارته بسرعة ... كان شبح رجل يقفز بين النخيل بسرعة مذهلة ويقترب فى كل قفزة من مكانه . . . أين هو الآن ؟ . . .

ها هوذا . . . رباه ! إنه عملاق كالشيطان . . . ماذا ؟ . . . واصفر وجه قطان باشا واعتصر الخوف قلبه عندما قفز إلى ذهنه خاطر يهمس باسم الشيطان المقنع الذى طالما سمع به والذى كانوا يتحدثون عنه منذ قليل . . . واندفعت الخواطر تطن فى رأسه : ترى . . . هل قدر لكل أحلامى الجميلة أن تموت برصاصة من مثل هذا المخلوق وهى لم تزل بعد . . . أحلاماً ؟ . . . هل تضيع كل تضحياتى وجهودى هباء . . . هكذا ؟ . . . ويلى ! . . . ها هوذا قد اقترب . . . ماذا يريد هذا السفاك ؟ . . . إنه يرفع . . . ماذا ؟ ! . . . بندقية . . .

وسارع قطان باشا فصوب غدارته نحو الشبح ، وقبل أن يضغط أصبعه على الزناد صاح العملاق بصوت فيه رنين العجب وهو يخفض بندقيته ؟ من ؟ . . . قطان باشا ؟

وانطلقت رصاصة الأرمنى نحو صدر الرجل . . . وشاهده قطان يترنح فى مكانه ثم يسقط فى الظلام . . .

وانقضت لحظات قبل أن يفيق قطان باشا من أثر المفاجأة . . . وعندما تمالك نفسه واطمأن إلى أن الشبح الذى هتف باسمه لم ينهض ، أحس بعبء هائل ينزاح من فوق صدره وإن كانت الدهشة ما زالت مستولية عليه . . . وتساءل : . . . ترى كيف أمكن هذا الشيطان أن يعرفنى فى هذا الظلام ؟ . . . لا شك أنه واحد من أهل رشيد . . . بل لعله أحد عملائى . . . لقد كان شيئاً رائعاً أن قتلته ، وإلا . . . رباه ! لكان قد فضحنى ، ولطلع الصبح على رشيد ورأسى متدل من إحدى بواباتها . . . فليذهب إلى الجحيم . . . ولأسرع أنا الآن إلى رشيد . . .

الفصل العاشر

استدار إبراهيم ليضطجع على جنبه الأيمن وهو يكاد يئن من فرط التعب ، فقد كان يومه وليله حافلين بكفاح مرهق دائب .

كان قد فرغ لتوه من مهامه الكثيرة بين إشراف على حفر الخنادق ، وإقامة المتاريس فى مداخل المدينة ، وتوزيع الأهالى عليها وتنظيم إمدادهم بالبارود والزاد من البيوت القريبة بواسطة النساء والشيوخ . . .

ولقد أتم العمل الشاق فى يومين وليلتين طوال طوال ، لم يتذوق خلالها طعم الراحة ، ثم عاد إلى الدار فى غلالة من الغبار ، يترنح تحت وطأة الجهد المبذول وقد تحولت ضربات الفؤوس فى الخنادق إلى نبضات مروعة الألم داخل رأسه .

وارتمى على الفراش يبتهل للنوم أن يرحمه من ذلك الصداع الذى يكاد أن يفتت جمجمته ، ولكن النوم استعصى عليه .

كان عقله ينوء بالتفكير فى الخطر الداهم أكثر مما ينوء جسده بالرهق . . . وتسللت مع أصداء دقات الفؤوس خواطر اليوم والأمس ممعنة فى تأريقه وتهيئته للإحساس بذلك الألم الطاحن المنتشر فى كل ذرة من بدنه .

وتمنى النوم كما لم يتمناه من قبل . . . لو كان النوم شيئاً يشترى ! . . . متى يكف الوخز فى جنبى ؟ . . . ما أمتع أن يغرق المرء فى غيبوبة النوم مثل . . . مثل نورهان . . . وثبت بصره على الحسناء النائمة ، وظل يتأملها فى إمعان وكأنه يراها للمرة الأولى . . . سمع خواطره تفح فى رأسه . . . ترى ما ظنها بى ؟ ! . . . مخدع واحد ، وفراش واحد و . . . زمن طويل ، وزوج لم يقربها ! . . . لم أقبل هذا الفم . . . الشفة الوردية الرقيقة . . .

إن تقبيلها أمتع من النوم الهنىء ... وجدائلها الناعمة ... إننى لم أعبث بها ، ولم أمس هذه الفاكهة التى تنضح بالأنوثة وتضج بالفتنة ...

وأدهشه أن يجد دفئاً عجيباً قد سرى فى دمائه لأول مرة منذ تزوج ، عندما اخترق ببصره ثنيات الغلالة المفهافة ... وأخذ الدفء يتحول إلى حمم متقدة ...

وعلا فحيح خواطره هامساً فى أعصابه مباشرة فأنساه كل شىء ... أما آن لك أن تقذف بنفسك فى فراش زوجك ؟! ألست بشراً ؟ ... إنها زوجتك ... أنثاك ... ولن يلومك أحد .

وفى اللحظة التى هم فيها بالنهوض إلى الفراش ، دوت فرقعة ضئيلة جعلته ينتفض ... وتلاشى الفحيح ... وتطاير الدفء من دمائه ... فاعتدل فى جلسته فى تحفز مرهفاً سمعه ... وتبادر إلى ذهنه أن ما كان يخشاه قد وقع ... وصل الإنجليز إلى البلدة وبدءوا هجومهم ... ولكنه لم يسمع سوى طنين أفكاره السريعة المتلاحقة ... وفجأة سمع صوتاً كأنه آت من جوف قبر سحيق يهتف باسمه ... فهب واقفاً واندفع هابطاً نحو باب الدار ... فقد كان الصوت آتياً من هناك ... وسمع وهو فى طريقه النداء المتخاذل يتردد مرة أخرى ، فأيقن أن الإنجليز قد جاءوا وأن المنادى رسول السلانكلى إليه ... وقبل أن يصل إلى الباب الخارجى صك سمعه صوت شىء ثقيل يرتطم بالأرض ، ففتح الباب وهم بالخروج ، ولكنه كاد أن يتعثر فى شىء متكوم على عتبة الدار لم يكن قد تبينه فى الظلام ، فانحنى فوقه ...

كان رجلاً تلوثت ثيابه بدماء غزيرة قانية ، وقد انكفأ على وجهه وامتدت ذراعه وكأنما ليتشبث بأهداب الحياة فى لحظاته الأخيرة ... ورفع إبراهيم عينيه فرأى على مبعدة خطوات قليلة جواداً مسرجاً تدلى عنانه إلى الأرض ... وقلب إبراهيم الجثة الدامية ولم يلبث أن تبين

صاحبها ، فأطلق صيحة فيها من الدهشة بقدر ما فيها من جزع ... لقد كان الرجل ... سلامة ...

وألصق إبراهيم أذنه فوق صدر سلامة فى لهفة إلى سماع نبضات الحياة تتردد فى صدره ولم يلبث أن انتفض قائماً ونظر خلفه ... كانت أبواب المخادع قد فتحت ووقفت أمه بشعرها الأبيض وثوبها القاتم تنظر إليه فى ذهول ووقف والده إلى جوارها ممسكاً بشمعدان مضىء ... وما إن التقت عيناه بعينى أمه حتى صاحت وهى تدق صدرها فى التياع :

ـ ولدى ! ... محسن !!

فقفز إبراهيم إليها وهدأها مطمئناً وأعادها إلى غرفتها وهى لا تكاد تصدق أنه غير محسن ... وأغلق عليها الباب وهرول إلى الجريح المتكوم على عتبة الدار ... وحانت منه التفاتة إلى أعلى السلم فشاهدها ... كانت نورهان فى غلالتها الرقيقة وشعرها المتناثر فى فوضى حول عنقها تنظر إليه فى تساؤل وهلع ... فصعد إليها وأمسك بمعصمها وأدخلها غرفتها فى صمت ثم هبط إلى حيث كان أبوه منحنياً فوق سلامة ...

ودعا إبراهيم خادمهم يوسف ، الذى جاء مهرولا وهو يفرك عينيه ، فما إن وقع بصره على الجريح حتى انقطع تثاؤبه ، وتدلى فكه الأسفل فى رعب . . .

وتعاون الرجال على نقل الجريح إلى المنظرة الكبيرة ، فأرقدوه على أريكة كبيرة وألقوا عليه غطاء و بعث إبراهيم بالخادم فى طلب الحاج منصور الحلاق الذى اشتهر ببراعته فى إخراج الرصاص تلك البراعة التى اكتسبها عندما كان يعمل فى خدمة المملوك مراد بك ... وجاء الحاج منصور وهو يبسمل ويحوقل ، وطلب موقداً فأتى به يوسف وقد توقدت جمراته ... وأخرج الشيخ أدواته ... وتم كل شىء على ما يرام ، والجريح ما زال فى غيبوبة تامة ...

وانصرف الحاج منصور إلى داره ليكمل نومه على أن يعود إلى سلامة في الصباح ليطمئن عليه ... وجلس الرجال الثلاثة حول سلامة يتأملونه في أسى ... وأخيراً قال إبراهيم لأبيه في إشفاق : عد أنت إلى فراشك يا أبي ... سأسهر مع يوسف إلى جواره حتى الصباح وترقرقت دموع وفية في عيني العمدة ثم غمغم قائلا وهو ينصرف : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه ...

* * *

وأشرقت الشمس على الجريح المسجى فوق الأريكة وقد جلس حوله إبراهيم ويوسف وقد غلبهما النوم وارتفع شخير يوسف فغطى على دقات الباب الخارجي للدار ... وكان الطارق قد نفد صبره فهتف منادياً إبراهيم الذي قفز مستيقظاً وتلفت حوله ثم أيقظ يوسف فانقطع شخيره ثم فتح عينيه وتثاءب ... وعاد الطارق يدق الباب من جديد ، فقام يوسف مهرولا وفتح الباب ، وبعد لحظات دخل الحاج منصور محيياً في إشراق ومرح . . . ولم يلبث أن نظر إلى سلامة ثم إلى إبراهيم متسائلا فهز هذا رأسه وقال بأسف :

— كلا ... لم يفق بعد ...

فجلس الحاج منصور وقال : انظر إلى وجهه الممتقع ... مسكين سلامة ... لابد أنه قد نزف الكثير من الدماء ... ترى من الذي فعل به هذا ؟

— ومن يكون سوى إنجليزي وضيع ؟ ...

— ولكن هجومهم لم يبدأ بعد ... لعله تركي يلهو فأصابه ...

— إن الذي يحيرني أن سلامة كان بالحماد ، فما الذي أتى ...

وأدرك إبراهيم أن لسانه موشك على البوح بما يجب ألا يتحدث عنه ، فبتر تساؤله ونظر إلى الحاج منصور قائلا :

ـ ترى هل يطول إغماؤه يا حاج ؟

ـ لاأظن أن ما فقد من دماء يؤثر فيه مثل ما يؤثر فى رجل عادى ...

والتفت الحاج منصور إلى الباب فهب واقفاً ... فقد كان طاهر بك واقفاً وهو ينظر نحو سلامة بإشفاق ... ووقف إبراهيم ويوسف احتراماً للشيخ الجليل الذى خطا إلى داخل المنظرة محيياً ، وارتفع صوت الحاج منصور يرد التحية : صبحك الله بالخير والصحة والإيمان يا سيدى العمدة ...

وجلس الجميع ... وجد الحاج منصور أن الجميع قد ران عليهم صمت حزين وقد تعلقت عيونهم بوجه العملاق الذى انطرح على الأريكة مغلق العينين ممتقع الوجه فأصابته عدوى القلق والتوقع ولكنه لم يلبث أن طرد ذلك الإحساس واندفع يروى ذكرياته بصوته الرفيع المرح وطريقته الشيقة ، فتحولت الأنظار إليه وبعد لحظات بدأت الملامح تنبسط والنفوس تهدأ ...

واعتدل الحاج منصور فى جلسته ومر بأصبعه حول الحزام الأملس الذى يحيط بقفطانه اللامع المخطط وهو يقول : كنت قد افتتحت حانوتاً للحلاقة أمام جامع الفكهانى بالعقادين ، واستأجرت داراً بالداودية على يسار الداخل من الدرب من ناحية الغورية ... وكنت قد تزوجت أم محمد وكان محمد فى ذلك الوقت عمره شهران ... وبعد زمن قصير أصبح حانوتى مفضلا لدى تجار الحى وأعيانه ، فكانوا ينفحوننى بالمال فى كل زيارة ويرسلون إلى بخدمهم محملين بالخيرات فى المواسم ، وخاصة السيد على الطحان ، صاحب الخان الكبير المجاور للمسجد ، مساه الله بكل خير ... لقد أدمن مجالستى حتى إنه ما من ليلة كانت تنقضى دون أن أجلس وإياه على باب الخان نتعاطى الحديث الشهى ...

وتنهد الحاج منصور ... ثم استطرد يقول : هيه ... كانت الدنيا دنيا والخير كثير ، ولم يكن يشوه جمال الحياة سوى هؤلاء الأتراك الأراذل ...

واعتدل الحاج منصور وبدا على وجهه سيماء من سيروى حادثاً جللا ثم قال : تصوروا !! ...

ثم دق بكفيه متعجباً ومصمص بشفتيه فى دهشة واستنكار .

ولما بدا الشوق إلى معرفة ما وقع على وجوه الرجال قال الحاج منصور متئداً : كانت ليلة الجمعة الأولى التى أعقبت عيد الفطر ... وكنت قد عدت إلى الدار ومعى خير كثير ... لحم ضأن وبرتقال وتمباك ... وكنت قد عدت فى تلك الليلة مبكراً ، فقد كان السيد على الطحان ، مساه الله بالخير ومنحه الصحة والعافية — كان قد لزم داره لمرضه بالحمى ... فلم أجد خيراً من أن أعود مبكراً إلى أم محمد ، فقد كنت نادراً ما أجلس إليها فى غير أيام الجمعة ...

عدت إلى الدار وجلست أنتظر أن تفرغ من إعداد الطعام ... وكنت جائعاً ... جائعاً جداً ، لأننى لم أكن قد أكملت غدائى فى ذلك اليوم ، فقد تصادف حضور ثلاثة زبائن أثناء تناولى الغداء ، وما إن انتهيت من ثالثهم حتى كانت شهوتى قد تلاشت وقضيت بقية يومى بمعدة نصف ممتلئة ...

الغرض ... كنت أنتظر أن تنتهى أم محمد من إعداد العشاء ، وإذا بى أسمع طرقاً شديداً على باب الدار !! ... جمدت لحظات فى مكانى دهشة وعجباً ... من يكون الزائر فى تلك الساعة المتأخرة ؟ وكنت قد انتهيت من صلاة العشاء منذ قليل ... ولكن الطارق العجول لم يدع لى فرصة أطول للدهشة والعجب ، فقد عاد إلى طرقه العنيف الذى كان له ما يشبه دوى مدافع القلعة ... فهرولت نحو

الباب وفتحته ، وإذا بى أمام جمع من الجند ... ثلاثة من الجند الأتراك بسلاحهم ومعهم بمباشى طويل عريض ... وقبل أن أفيق من ذهولى لرؤيتهم كانوا قد دخلوا إلى الدار وتوسطوا القاعة وقال لى قائدهم بلغة مضحكة لا هى تركية ولا هى عربية ، ودق الحاج منصور بكفيه مستغرباً ثم قال مقلداً البمباشى : يا آخى يا هبيبى ... أنا معى ثلاثة نفر ... نحن أقعد هنا أشرة أيام فاقاط ... نحن أقعد فى محل رجال ، وأنت مع هريم حظرتكم فى محل هريمات ...

واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وكتمت الدم على القيح وتظاهرت بالسرور بذلك الشرف الهابط على بعد صلاة العشاء ... صعدت مع أم محمد والرضيع إلى جناح الحريم بأعلى الدار وتركت أسفل الدار للأتراك المدججين بالسلاح ... وكانت ليلة سوداء لم يعرف النوم خلالها طريقاً إلى عينى ... ومن الذى يأمن على حياته أو عرضه أو ماله تركياً ؟ ! . . . الغرض . . . لن أطيل عليكم . . . طلع صبح اليوم التالى وظللت فى أعلى الدار مترقباً خروج الجند على أحر من الجمر ولكن انقضى اليوم بطوله وحل المساء دون أن يرحلوا بل كانوا يرسلون أحدهم فيعود بعد قليل محملا بقناني وطعام وتمباك ... وكان الرضيع قد أصبح يسعل من البرد ، وكنت قد تركت بعض الأغطية بأسفل الدار ، فهبطت فى المساء لأجمعها ، فتصدى لى البمباشى التركى وقال لى معاتباً فى صفاقة : وهل نجلس نحن على الحصير والبلاط ونتغطى بثيابنا ؟... أى شىء يصيب اللحاف أو الملاءة لو أنك تركتهما هنا ؟ . . . ولا أكذب عليك يا طاهر بك . . . لقد تركت متاعى لهم حياء وقهراً ، وصعدت إلى امرأتى وأنا أكاد أنشق من الغيظ والكمد ... ولن أطيل عليك ... لقد انقضت الأيام العشرة وتلتها عشرة وبعدها عشرة ولم يترك أولئك الأراذل دارى بل إنهم أتوا بقطيع جديد منهم حتى امتلأت

الدار بهم وصاروا يطلبون الطعام والشراب فاضطررت إلى أن أتكلف ذلك لهم وكانوا يستعماون أدوات بيتى ويطلبون الطشت والإبريق ويأمروننى أن أصب على أيديهم وأقدامهم الماء كلما أرادوا أن يغسلوها وصاروا يدخلون ويخرجون وأيديهم على الأسلحة وضاق عليهم المكان فطلبوا منى أن أخلى مكاناً بأعلى الدار لزملائهم فلما أظهرت لهم ضيقى ملأوا المكان على برائحة التمباك والعرق والفضلات ، واستعملوا القاعة الكبيرة مرحاضاً ، فضاقت أنفاسنا ، وإلى جانب كل هذه المصائب ، كنت لا آمن على امرأتى وولدى من شرهم طبعاً فلم أكن أبرح الدار ، وظل حانوتى مغلقاً ، وخرب بيتى ونفد ما كنت ادخرته للأيام السوداء . . . ولم أكن أظن أن لبعض الأيام سواداً بتلك الحلكة التى عانيناها والأتراك فى الدار . وأخيراً ، اضطررت إلى أن آخذ امرأتى وولدى ورحلنا تاركين دارنا ومتاعنا لأولئك ...

وقبل أن يكمل الحاج منصور روايته سمع هرج بصحن الدار ودخل الخادم ليعلن أن قطان باشا قد حضر ، فنهض الجميع وخرج طاهر بك يتبعه إبراهيم ليستقبلوا القادم الكبير ...

كانت ملامح قطان باشا الصلدة وعيناه المحملقتان إلى كل اتجاه تنبئ جميعاً بأن شيئاً ما قد حدث ... شىء رهيب ... ولم تفلح تلك البسمة التى اغتصبها إبراهيم من أعصابه ومشاعره فى أن تزيل بعض ما كسا وجه صهره من امتقاع ...

ونظر طاهر بك إلى الرجل فى فضول وجل دون أن يضيف إلى ما تلفظ به من عبارات الترحيب شيئاً ... وجاءت اللحظة التى سيطر فيها الصمت وحده على جو المكان ، وكان على قطان باشا أن يقول شيئاً يبدد به ما أوجده مجيئه من تلق وتساؤل ... وأخيراً ... فعل ... فقال فى صوت خفيض عميق وهو ينظر إلى نهاية الغرفة حيث تلتقى الأرض

بالجدار : إن إيزابيل العجوز تحتضر منذ الفجر ... لقد ساءت حالتها بدرجة أتوقع معها أن تودع الحياة فى أية لحظة ...

إن المسكينة لا تتمنى شيئاً قبل موتها إلا رؤية ربيبتها نورهان ... والوقت يمضى بسرعة لا تسمح لى بأن أحضر فى وقت أفضل من هذا ...

والتفت الأرمنى العجوز إلى إبراهيم وقال موجهاً إليه الحديث: أتأذن لها بالذ ... فقاطعه إبراهيم قائلا فى حرارة: طبعاً ، وعلى الفور ...

وهرول نحو السلم ليصعد إلى نورهان ولكن قطان سارع فناداه بصوت منخفض ، فالتفت إليه إبراهيم وقدمه على الدرجة الأولى ، فقال هذا فى صوت كالهمس : دعنى أنبئها بنفسي دون أن أصدمها . لقد كانت لنورهان بمثابة الأم من وحيدتها ...

* * *

وعندما هبطت نورهان بعد دقائق مستندة إلى ذراع والدها فى تخاذل مصطنع أمكن إبراهيم الذى كان لا يزال جامداً فى مكانه إلى جوار أبيه أن يلمح نظرة حزينة فى عينيها من خلف نقابها الهفهاف ... عندما أصبحت أمامه وهى فى طريقها إلى الباب الخارجى بطؤ خطوها والتقت عيونهما وبدا لإبراهيم أن فى عينيها شيئاً ما . . . شيئاً غير الحزن البادى على ملامحها ... شيئاً كأنه عتاب ... لا ... بل أقسى من ذلك ... لعله تأنيب ... وساءلته نفسه : ترى فيم العتاب والتأنيب ؟ ... أتراها جنت فاعتقدت أننى المهيمن على ملاك الموت الذى يحوم حول مربيتها العجوز ؟ ! . . . لم ينطق أحد بكلمة . . . وسار الأرمنى وذراعه محيطة بكتف ابنته وهبطا الدرجات القليلة المؤدية إلى الفناء ودارا حول النافورة ، ثم قطعا الممشى المؤدى إلى الباب الخارجى والرجلان من خلفهما يسيران فى صمت . . .

وأغلق باب العربة السوداء وقفز السائق إلى مقعده المرتفع فى الأمام

وارتفع السوط وهبط مفرقعاً ، وانطلقت العربة الصغيرة والرجلان ينظران حتى غابت عند انحناءة الطريق وقال طاهر بك : مسكينة نورهان ... لقد كانت تجد فى إيزابيل بعض ما افتقدته من حنان الأم ... سبحان الحي الذى لا يموت ...

فطأطأ إبراهيم رأسه ولم يجد ما يقوله .

وسار إبراهيم متأخراً عن أبيه خطوة وهما فى طريقهما إلى الداخل ، وعندما صعد الدرج المؤدى إلى الطابق الأول قال طاهر بك : عد أنت إلى الحاج منصور وأخبرنى عندما يفيق سلامة . . إننى أشعر بدوار وسألزم غرفتى ...

ولما عاد إبراهيم إلى المنظرة الكبيرة كان الحاج منصور منحنياً فوق سلامة ووجهه يكاد يلتصق بوجهه ... وانتبه الحاج منصور إلى وجود إبراهيم فانتصب قائماً وقال بانفعال :

— لقد عاد إلى غيبوبته ، لا حول ولا قوة إلا بالله ...

فدهش إبراهيم وقال : أوكان قد استرد وعيه ؟

— نعم ... أفاق من غشيته لحظات ولم يلبث أن فقد رشده ... لقد أجهد نفسه بالحديث .

فقال إبراهيم متلهفاً : ماذا قال ؟

— فهمت أنه كان يراقب معسكر الإنجليز عند الطرف القريب من كوم الأفراح ، فشاهد رجلا يخرج من معسكرهم فصوب سلامة بندقيته نحوه ، وقبل أن يجذب الزناد تبين فيه شخصاً يعرفه ... واحداً من أهالى رشيد ، فخفض سلاحه وقد أدهشه وجود ذلك الرجل فى معسكر الإنجليز ، ولكن ذلك الرجل كان قد لمح سلامة فى الظلام فأطلق عليه الرصاص ...

— ومن ذلك الرجل؟

ــ لقد عاد إلى غيبوبته قبل أن ينطق باسمه .

ــ ألم يتكلم عن شيء آخر ... تحركات الإنجليز مثلا ؟

فنفى الحاج منصور ذلك بهزة من رأسه ... فدمدم إبراهيم وهو يقول حانقاً :

ــ أقسم بربى أن أزهق أنفاس ذلك الخائن بيدى لو قدر لى أن أعرفه ...

وجاء يوسف بالقهوة فقدم فنجاناً للحاج منصور ، وأشار إبراهيم للخادم أن يدع فنجانه فوق المائدة المنخفضة ... ولما انصرف يوسف نظر الحاج منصور إلى إبراهيم فرأى آثار الحنق على وجهه بادية فى وضوح فمد يده ووضعها فوق كتفه فى حنو وقال : اهدأ قليلا يا بنى فلن ينفعك هذا الغضب ...

ــ لن أستريح قبل أن أنتقم للدماء التى نزفها سلامة يا حاج ...

ــ سوف نعرفه عما قريب ، ولن يكون مناله بعيداً ما دام واحداً من أهل رشيد ، فقليلا من الصبر الجميل ... اشرب قهوتك وهدئ دماءك...

ولما وجد الحاج منصور أن بعض التجهم قد زال عن وجه إبراهيم وهو يرشف القهوة قال : هذا أجمل بن يمنى تذوقته فى رشيد كلها ... إن يوسف رجل ماهر فى مزج ماء الورد بالقهوة ... ورشف رشفة أخرى من الفنجان المذهب الصغير وقال : إن هذه القهوة المعطرة تذكرنى بالأيام الخوالى عندما كنت أعمل فى خدمة مراد بك ... لقد كان له مزاج خاص فى كل شيء حتى فى احتساء القهوة ...

كان لا يطيب له شربها إلا فى فناجين لها مظاريف من الذهب الخالص ... هيه ! ... عز وثراء ... تصور يا سيد إبراهيم ... أن محمد بك الألفى ، أصل البلاء ... تصور أنه كان يقتنى قصراً متنقلا ... ينقله معه على ظهور الجمال أينما ذهب ! ...

وبدت الدهشة على وجه إبراهيم ونظر إلى الحاج منصور فى شك وقال هذا مبتسماً : كان محمد الألفى يهوى التنقل والسفر ، فكان يقيم فى الشرقية ثلاثة أو أربعة أشهر من كل عام ثم يعود إلى القاهرة ليقضى فيها بقية العام وكان أثناء إقامته فى الشرقية لا يستقر فى أحد قصريه الكبيرين اللذين بناهما فى بلبيس والدمامين ، وإنما كان يقيم فى أرض عربان الشرقية فيقضى هنا شهراً وهناك بعض الشهر وقد اصطنع لهذا الغرض قصراً من الخشب فصله له النجارون قطعاً يسهل حملها وتماسك عند إقامة القصر بمشابك متينة من الحديد ، وكانت أجزاء القصر تحمل على عدة جمال فإذا أراد أن يحط رحاله فى مكان ما ، يقوم الجند والخدم بإقامة القصر فى وقت قصير وتتحول قطع الخشب إلى قصر صغير لطيف يصعد إليه بدرجات ثلاث ، وتفرش أرضه بالطنافس والوسائد ويتسع لثمانية رجال ، يعلوه سقف منقوش ونوافذ من الجهات الأربعة تفتح وتغلق ، وحوله الأسرة من كل جانب ... وكان له بالأزبكية قصران لم يقنع بهما ، وأراد أن يبنى لنفسه قصراً يدل به على سائر الأمراء فاشترى قصر ابن السيد سعودى عند قنطرة الدكة وهدمه وقام بنفسه بوضع تصميم القصر الجديد ، وأمر أربعة من كبار أمرائه بملاحظة الصناع وحثهم على العمل ، واحداً فى كل جهة من جهاته الأربعة. وأقاموا عدة قمائن لحرق الأحجار وطواحين الجبس وأتوا بالأحجار الضخمة من تلال طرة على المراكب ثم نشروها ألواحاً كباراً لتبليط الأرض وعمل الدرج ، وأحضروا للقصر الأخشاب المختلفة من بولاق والإسكندرية ورشيد ودمياط وأهدى إليه الإنجليز نافورة مرمرية عظيمة بها تماثيل لأسماك يخرج الماء من أفواهها ، فأقامها ببستان القصر وتم بناء القصر ودهانه ، ففرشه بالوسائد والمساند والستائر وأضاءه بالقناديل والنجف ، والفنيارات ، فنزل الألفى بالقصر مع أولاده وحريمه ، وازدحمت خيول الأمراء ببابه.

وسكت الحاج منصور رهنيهة ثم قال متسائلا : من أين يأتون بكل هذا المال ؟ إن المرء منا يكد ويشقى ويسهر ويسعى ويجرى ويقفز ويمشى وهو لم يفز بأكثر من قوته وقوت عياله ... فقال إبراهيم : من دمائنا يا حاج ... من النهب والسلب ... إن ما يتمرغون فيه من نعيم لا يساويه أى مجهود بشرى فردى شريف مهما كان ...

ـ صدقت ... لقد كانوا يرسلون زبانيتهم إلى بيوت الناس ليجمعوا ضرائب جديدة لم تكن تفهم لها سبباً . . . لقد بعت ذات مرة نحاس امرأتى لكى أدفع لهم الضريبة وفى اليوم التالى جاء غيرهم يطلبون الضريبة نفسها فلما علموا أننى دفعتها لمن سبقهم ، أبوا أن ينصرفوا قبل أن أعطيهم حق الطريق ؟ ... لقد استدنت من جارى السيد عكاشة مجيدياً دفعته لهم ثمناً لمجيئهم إلى دارى لمطالبتى بشىء لا حق لهم فيه ... لا بارك الله لهم فى شىء . وحتى جند الوالى الجديد ، إنهم لا يفضلون جند المماليك فى شىء ... بل لعلهم أكثر من هؤلاء صفاقة ، فقد كانوا إذا جاء يوم الجمعة ، يرتدون أفضل ثيابهم ويحملون الهراوات المفضضة ويدورون على بيوت الأعيان والتجار يتسولون المنح والعطايا بلا حياء أو كرامة ... لقد دخلوا علينا ذات يوم وكنا فى دار السيد على الطحان بالجمالية ، وكان المجلس يضم جمعاً من أعيان الحى وتجار بين القصرين . اقتحم الأتراك المجلس رغم مقاومة الخدم لهم ، ولم ينصرفوا إلا والمنح فى جيوبهم والغم فى نفوسنا . وما إن ينصرف هؤلاء حتى يأتى غيرهم وهكذا دواليك ... هيه ... ماذا أقول لك يا سيد إبراهيم ؟

لقد ضيقوا علينا سبل الرزق فى كل شىء ... كنت إذا ذهبت إلى ساحل بولاق أو مصر القديمة لأشترى أردب غلة أو حمل حطب أو أى شىء لا يدعنى الأتراك عند قنطرة الليمون أمر قبل أن أدفع لهم نصف فضة وأعطيهم بعضاً مما أحمل ، وكذلك يحدث عند الباب الحديد

وعند كل مدخل إلى القاهرة مثل باب النصر و باب الفتوح و باب الشعرية و باب العدوى وطرق الأزبكية و باب القرافة .

وانقضت ساعة وبعض ساعة وإبراهيم يصغى إلى ثرثرة الحاج منصور عما وقع له فى القاهرة ، وفجأة فتح الجريح عينيه فانتفض إبراهيم فى مكانه وقام فانحنى فوقه ولم يلبث أن اتجه إلى المائدة الرابضة فى ركن المنظرة فأفرغ من الدورق البلورى قدحاً من الماء أمسك به بعناية وهو يصب الماء بين شفتى سلامة ...

وأخيراً قال سلامة بصوت خافت : حذار يا إبراهيم ... حذار من صهرك ... قطان باشا ... فهتف إبراهيم مأخوذاً : ماذا تقول يا سلامة ؟ أفق يا رجل ... فقال سلامة بنفس الصوت الخافت : أنصت يا إبراهيم ... إننى ... فى تمام وعيى ... قطان باشا كان عند الإنجليز ... لقد رأيته بعينى ... ولما هتفت باسمه عندما رأيته مساء الأمس وهو يغادر معسكرهم ، أطلق على الرصاص ... قطان عميل للإنجليز ... لقد أردت اللحاق به بجوادى لأقتله ، ولكن دمائى كانت تنزف ... وكان هو قد ابتعد كثيراً ... صدقنى يا إبراهيم ...

فقال إبراهيم مشفقاً على الرجل الذى كانت لهثات الألم تقطع كلماته : كفى يا سلامة ... إننى أصدقك ... لا ترهق نفسك بالحديث ...

ونصب إبراهيم قامته وقال للحاج منصور فى تصميم :

— ابق إلى جواره ، إن يوسف قد أوشك أن ينتهى من إعداد المرق له ، أما أنا فسوف أعود بعد قليل ...

فقال سلامة بصوته اللاهث الخافت : إلى أين ؟

فقال إبراهيم وهو يغادر الغرفة : إلى الخائن ...

وامتطى إبراهيم جواده وانطلق به مخترقاً الدروب والساحات نحو شرقى البلدة حيث كان يربض على ضفة النيل الشرقية قصر قاتم كبير يتوسط حديقة كبيرة كثيرة الأشجار والنخيل ويحيط بها سور مرتفع من الأحجار يحجبها عن العالم ...

واقترب إبراهيم من القصر فارتدت إلى مخيلته هيئة الأرمنى مع ابنته عندما باغتهما بدخوله فاضطربا وكفا عن الحديث بالأرمنية ، ثم تظاهرا بالضحك لشىء رواه المرائى ... وتذكر الظروف التى أدت إلى تلك الزيجة الغريبة ... الوعيد ... التلويح بالديون ... وتلك النظرة اللائمة القاسية ... إنها ليست لوماً ... لا ... إنها نظرة الظفر الساخر ... نظرة الشامت ... الفاجرة ، ابنة الفاجر تاجر الأعراض والخيانة ... سأقتله ...

وهبط إبراهيم من فوق جواده ويده على مقبض غدارته وصعد سلم القصر الموحش قفزاً ودفع الباب الضخم ودخل إلى القاعة الشاسعة ... وتلفت حوله ... كانت خالية من الناس ، لا صوت ولا حركة ... وتقدم صوب السلم الكبير ولكن صوتاً هادئاً رن فى القاعة يقول : لقد غادر الباشا ومعه الهانم الصغيرة والسيدة العجوز القصر منذ ساعة ...

فأخذ إبراهيم واستدار نحو مصدر الصوت كالبرق وقد أخرج غدارته فرأى العم هاشماً البستانى العجوز واقفاً عند الباب الكبير ... فصاح إبراهيم : أواثق أنت مما تقول ؟

— تمام الثقة يا سيدى ... لقد غادروا القصر فى العربة السوداء وكان الباشا يقودها بنفسه وقد سرح جميع الخدم والحوذى ودفع لهم أجورهم ولم يبق أحداً سوى لحراسة القصر ... لقد شاهدتك وأنت تدخل ... كنت أقلم الصفصافة الكبيرة ...

وأعاد إبراهيم غدارته إلى مكانها واقترب من البستانى العجوز وقال :

— وأين ذهبوا جميعاً ؟
— من ؟ الخدم ؟
— كلا ... السادة ... الباشا ، وزوجتي ؟
فقلب الشيخ كفيه وقال : يعلم الله ، لقد قال الباشا إنهم سيسافرون وسوف يعودون يوماً ما ... إلى أين ؟ ... لست أدرى ...
— هل كانت إيزابيل فى النزع الأخير ؟
— النزع الأخير ؟ ! ... إنها قوية كالحصان ، عنيدة كالبغل ... إنها أقوى منك أنت ...
— فى أى اتجاه سارت العربة ؟ ...
فأشار البستانى إلى الشمال وقال : من هنا ... نحو الساحل ...
فشكره الشاب وهبط السلم فى عجلة وقفز إلى ظهر جواده وانطلق فى أثر غريمه ...

كانت الشمس قد توسطت السماء عندما نظر إبراهيم خلفه فشاهد القصر الكبير عند الأفق ... لم يكن يدرى إلى أى اتجاه يسير . . . وساوره شك فيما أنبأه به البستانى وخطر له أن يعود فيعتصر رقبته بين أصابعه حتى يفضى إليه بالحقيقة ولكنه طرد ذلك الخاطر ...
وعلى مبعدة شاهد عشة صغيرة أمامها طفلان فى ثياب رثة يلعبان مع بعض الدواجن وقد افترشت أمهما الأرض وأمامها رحى تديرها بكلتا يديها فلما اقترب إبراهيم من العشة مال نحوها بحصانه فتوقفت المرأة عن الطحن دون أن ترفع يديها عن مقبض الرحى ووجم الطفلان ورفرفت الدجاجات بأجنحتها العاجزة وتفرقت قافزة هنا وهناك فى حماقة ، وصاح إبراهيم قائلا : هل شاهدت عربة سوداء مرت من هنا منذ ساعة يا خالة ؟
فأشارت المرأة نحو الغرب قائلة : إن كانت العربة السوداء التى يقودها إفرنجى فقد اتجهت إلى هناك . . . إلى الملاحات . . .

ونظر إبراهيم إلى حيث تشير المرأة ... كانت الملاحات بلونها الوردى المترب ممتدة حتى الساحل فى الشمال وإلى ما لا نهاية نحو الغرب . . .

وحيره أمر الأرمنى . . . وتساءل : ترى، أين ذهب ؟ . . . وإلى أين يمكن أن يصل من هذا الطريق؟

وقفز إلى ذهنه خاطر جعله يلكز جواده وينطلق به إلى الملاحات . . . لا بد أنه يريد الوصول إلى الساحل من هذا الطريق القفر . . . ثم يسير بحذاء البحر حتى يصل إلى الإسكندرية . . . خطة شاقة التنفيذ ، ولكنها مأمونة العاقبة . . . يمكننى أن ألحق به بعد ساعة واحدة ، عندئذ سأبعث بروحه إلى جهنم بأسرع مما يريد الوصول إلى الإسكندرية . . .

وانقضى نصف ساعة من السير فوق أرض هشة اختلط فيها التراب بكتل الملح الصغيرة ، وكاد أن يعثر به جواده فوقها مرات كثيرة لولا حذره ويقظته . . . وتوقف لحظة متلفتاً حوله فى كل اتجاه وهو يعجب لعدم عثوره على أثر للعربة الصغيرة فوق الأرض الهشة ثم عاد فانطلق بأقصى سرعته نحو الجنوب الغربى فى الطريق إلى أقرب بلدة تعترض المسافر إلى الإسكندرية . . . إدكو . . .

ومضت ساعة من الركض السريع المتوالى حتى بدت إدكو ببيوتها الصغيرة المتناثرة على شاطىء البحيرة الساكنة . . . واقترب إبراهيم من جماعة من الصيادين كانوا ينشرون شباكهم على الرمال الناعمة ويثقلون أطرافها بالأحجار . . . ومال بحصانه فسأل أحدهم عن عربة سوداء صغيرة يقودها أرمنى أحمر الوجه مفرطح الرأس ، ولكن الصياد هز رأسه هزة جعلت اليأس يتسرب إلى نفسه ، وقبل أن يستدير بجواده ليعود إلى سهوب الملح الوردية ليعاود البحث من جديد ، استوقفه الصياد وهرع

نحو شيخ مجعد الوجه كان قابعاً على حصير ممزق تحت شجرة منخفضة الأغصان وقال :

ـ أنت هنا منذ الصباح كعادتك يا شيخ بدوى . . . هل رأيت عربة سوداء يقودها رجل أحمر الوجه؟

فقال الشيخ بدوى بصوت خائر مرتعش : عربة سوداء ؟ . . . كلا يا بنى . . . لم تمر من هنا عربات منذ أمس . . .

وشكر إبراهيم الرجل وانطلق عائداً ونفسه تكاد تنفجر بالحنق على الأرمنى وعلى الصياد وعلى كل شىء . . .

كانت الشمس تصلى الأرض وما عليها بلهيب خانق ، فآثر إبراهيم أن ينحرف بجواده نحو الدرب الضيق الظليل عند حافة المزارع الخضراء فى الجنوب ، فاندفع مخترقاً السهوب الملحة حتى وصل إلى الدرب المنشود ودار معه حول الحقول المترامية وهو يسائل نفسه فى حيرة : أى طريق يسلك ؟ وفى أى مكان من هذا الإقليم اختفى الخائن وابنته ؟ . . . وقبل أن يسترسل فى تساؤله الحائر حانت منه التفاتة إلى حافة الملاحة القريبة فرأى خطين متوازيين يبعد أحدهما عن الآخر مقدار خطوة وقد خطتهما فى الملح عجلتان . . . . وجذب الفتى عنان الجواد وتوقف ليتأمل امتداد الخطين . . . كانا يمتدان على طول الدرب الفاصل بين الملاحات والمزارع . . . من الاتجاه القادم من شمال رشيد إلى . . .

واستدار ليتبين الاتجاه . . . وعلى مبعدة ثلاثين خطوة ، شاهد إبراهيم الخطين ينحرفان جنوباً حيث ينحنى الدرب فى طريقه إلى . . . الحماد . . . إذن ، فالوغد قد اتجه إلى الحماد !! إلى الإنجليز !! . . .

وانطلق إبراهيم على الأثر . . .

ومضى أقل من ساعة قبل أن يلمح إبراهيم تلك النقطة السوداء التى كانت تتحرك مقتربة من الأفق ، حيث بدت خيام الإنجليز كنقط

بيضاء ضئيلة . . .

حث إبراهيم جواده على العدو ، فاستجاب له . . . وأخذت النقطة السوداء تكبر ، وتكبر . . . وتتضح . . . وبدت العربة السوداء . . . ثم بدا فوقها رأس ضخم مفرطح . . . رأس قطان . . . فأخرج إبراهيم غدارته ، وعندما رفع يده ليصوبها ، كانت رصاصة الأرمني أسبق إليه . . . ومرت الرصاصة بجوار أذنه دون أن تصيبه . . . فجذب إبراهيم الزناد . . . ودوت الرصاصة . . . وشاهد إبراهيم الأرمني يقفز إلى أعلى والقياد في يده ثم يسقط في مقعده . . . وظلت الخيل تعدو بجنون وإبراهيم يلاحق العربة . . . دفعت اهتزازات العربة بالأرمني من فوق المقعد شيئاً فشيئاً حتى تدلى بدنه وأخذ رأسه الدامي يرتطم بالعجلة اليسرى بقوة . . . وأخيراً سقطت جثته على الأرض ، واندفعت الخيل المجنونة منطلقة بالعربة نحو المعسكر الإنجليزي بلا قائد في حين تعالت من داخلها صرخات رعب مدوية .

وتوقف إبراهيم عند جثة الأرمني ، ونظر إليه متحققاً من موته ، ثم حشا غدارته وصوبها نحو الرأس الضخم المفرطح من جديد . . . كان يريد أن يثقب برصاص غدارته كل جزء من بدن الرجل الذي خدعه . . . ولكنه عاد فضن برصاصته الثانية أن تضيع هباء . . . فأعاد غدارته إلى مكانها ونظر إلى الجثة ثم بصق على الشارب المتدلي الذي كان قد تلوث بالدم والتراب . . . وسمع صيحات ثم دوياً من بعيد ، فرفع عينيه إلى اتجاه العربة . . . كانت قد انقلبت براكبتيها عند خيام الإنجليز وقد تجمع حولها بعضهم . . . ثم شاهد جمعاً منهم يتهيأ لامتطاء الجياد وهم يشيرون نحوه فاستدار بجواده منطلقاً كالعاصفة صوب رشيد . . .

وعندما عاد إبراهيم إلى الدار ليطمئن على الجريح العزيز كان الأفق قد تخضب بالشفق . . .

الفصل الحادى عشر

كاد النهار أن ينتصف عندما لاحت لإبراهيم من بعيد مآذن القاهرة وقبابها ، فسرى النشاط فى أعضائه ، ولكز جواده المتعب فانطلق يركض به على الطريق المترب بين المزارع وأشجار الجميز صوب الباب الحديد ... ولاح له على يمين الطريق ثلاثة من أطفال الفلاحين يلعبون ، وما إن رأى الأطفال إبراهيم قادماً نحوهم حتى ابتعدوا عن الطريق وهم يلوحون بأيديهم الصغيرة المتسخة صائحين : الجندى ... الجندى ... ولم يلبث أن خرجت من دار قريبة فلاحة وهرولت فى ثوبها الأسود الطويل نحو الأطفال ثم نهرتهم قائلة : صه يا أولاد . . . اخرسوا . . .

ثم أمسكت والتفتت فى ذعر نحو الفارس القادم وأسرعت فقادت الأطفال أمامها نحو الدار فى هرولة وهى تقول : أتريدون أن تقتلوا كما قتل ابن الشيخ عمارة ؟

وأدرك إبراهيم أن المرأة ظنته أحد جند الأتراك الذين لا تساوى حياة أى مصرى لديهم قلامة ظفر . . .

وعندما وصل إلى الباب الحديد جذب عنان جواده ودخله متمهلا ودار بعينيه فيما حوله متفحصاً ، فرأى جماعة من الجند الشراكة المسلحين بالسيوف والبنادق الطويلة بين جالس وواقف ومستند بظهره إلى الحائط ... ووجد ثلاثة منهم وقد التفوا بفلاح مسن ممسك بحمار أعجف يحمل فوق ظهره سلتين من الطماطم . . . وكان الفلاح يتوسل إليهم أن يدعوه يدخل إلى المدينة ويقول :

— والله ما معى نصف فضة يا جندى . . . أنا لم أبع شيئاً بعد . . .

— لازم إدفع نصف فضة . . . فاهم فلاح ؟ !

ـ أبقاك الله يا جندى . . . دعنى أمر . . . ووالله ، ثلاثة بالله . . . قسم ترتج له السماوات والأرض سأدفع لك عند خروجى آخر اليوم . . .

فقهقه الجند ساخرين وقال أحدهم وكان ذا شارب ضخم :

ـ إنت إضحك ألينا فلاح ؟ . . . إدفع يوق . . . دخول يوق . . . سكتر يا للا . . . جنس هايفان . . .

ـ يا جندى حرام عل . . .

ولكن الجندى لم يمهله حتى يتم كلامه ، بل وكزه فى صدره وكزة جعلت الفلاح يترنح ويكاد يسقط على الأرض . . .

وعاد الفلاح إلى التوسل فصاح فيه الجندى غاضباً : سوس فلاح ... سكتر يا للا .

ـ يا جندى خذ بدل النصف فضة طماطم . . . إننى أسعى من أجل قوت عيالى . . . خذ طماطم مثل الورد . . . خذ بنصفين لا بنصف واحد ودعنى أمر . . . الله يسترك . . .

فانفرجت أسارير الجندى ونظر إلى زميليه ، ولم تلبث أيديهم أن امتدت إلى داخل السلتين تنتقى أطيب ما فيهما ، والفلاح ينظر إليهم فى جزع وحسرة ولا يجسر على الاحتجاج . . . وبعد أن نهب الجنود ما شاءوا وضع أحدهم طماطمة فى فمه وأخذ يلتهمها بشراهة وقال وهو يزدردها :

ـ يا للا فلاح . . . عند خروج . . . إدفع نصف فضة . . . إدفع يوق . . . خروج يوق . . . سكتر . . .

ونظر الفلاح إلى السلتين . . . كان الجند قد نهبوا نحو نصفهما وتركوا الباقى وقد أتلفت مخالبهم معظمه ، فجر حماره والدموع تطفر من عينيه وابتعد خطوات ثم سمعه إبراهيم يغمغم فى حسرة وألم : الله يخرب بيتك يا جندى أنت وهو . . . وكأنما خشى الرجل أن يكون أحدهم قد

سمعه فقد التفت وراءه جزعاً فوجد الجند مشغولين بنهب فلاح آخر يحمل بضاعته من البيض والجبن . . .

ولم يتمالك إبراهيم نفسه من أن يعض شفته حنقاً وقهراً ، ولكز جواده فى عصبية فاندفع به وسط الزحام غير مكترث بسباب الجند الأتراك وصياحهم . . .

وأعماه الغضب مما رأى ، فكاد يصطدم بجواده بأحد السقائين الذى صاح فى اللحظة الأخيرة : حاذر يا جندى . . .

واجتاحه ضيق بكلمة (جندى) التى تقابله فى كل مكان . . . وأوشك أن يترجل كيلا يظن أحد أنه واحد من أخلاط الترك ، ولكنه سرعان ما طرد ذلك الخاطر عندما تذكر أن عليه أن نبلغ الرسالة إلى السيد عمر مكرم فى أقرب وقت ممكن . . .

وعندما وصل إلى باب البحر ، وجد الطريق ضيقاً مكتظاً بالناس ، فجذب عنان جواده وتمهل فى سيره ومضى يتأمل ما حوله من حوانيت وأزياء وعربات وباعة متجولين . . . ونفذت إلى أنفه رائحة سال لها لعابه ، كانت رائحة سمك مقلى تفوح من أحد الدكاكين الصغيرة العديدة المصطفة على الجانبين ، وتذكر أنه لم يذق طعاماً منذ غروب اليوم السابق عندما كان فى ميت غمر . . .

وراودته نفسه أن يعرج على الدكان ليشترى بعض السمك ، غير أنه تذكر أن عليه أن يبلغ الرسالة أولا فأسرع بالمسير . . .

وعندما وصل إلى باب الشعرية ، تمهل فوق الجسر الخشبى الذى يصل بين ضفتى الخليج الضيق الطويل الذى كان يتلوى بين الدور كثعبان أسود لامع لا يكف عن الحركة . . . وجذبت اهتمامه البيوت القائمة على حافتيه وكأنها مبنية فوق الماء ، وقد كست الطحالب الدقيقة أسفل جدرانها فبدت وكأنها طلاء أخضر متعرج من أعلى ، يمتد من دار

إلى أخرى إلى ما لا نهاية ، وقد تسلقت الرطوبة الجدران حتى جاوزت الطوابق الأولى إلى أسفل المشربيات الصغيرة ، وكان لمعظم البيوت سلالم حجرية صغيرة تبدأ من الطوابق السفلى وتنتهى إلى مياه الخليج . وشاهد على أحد هذه السلالم عبداً أسوداً يلقى ببعض القمامة إلى الماء ، وعلى سلم دار أخرى رأى عجوزاً تساوم أحد باعة الخضر الذين يتجولون ببضاعتهم فى قواربهم الصغيرة .

وانتبه إبراهيم على صوت كالدوى المتواصل يعلو على الضوضاء ، فالتفت وراءه ، فوجد جماعة من الجند الأتراك يركضون بخيولهم وهم يتصايحون ، والناس يفسحون لهم الطريق فى ذعر وهرولة ، واندفعت ثلة الترك بجواره ، وعبرت الجسر .

وما إن وصلت إلى الضفة الأخرى حتى دوت صرخة عالية . . . وانقشع الغبار ، وتبين له أن الجند قد داسوا بسنابك خيلهم امرأة كانت تجلس عند مدخل الجسر أمام سلة تبيع منها الفجل والليمون ، ولكنهم انطلقوا غير آبهين لما حدث . . . وتجمع المارة حول المرأة ، ووجد إبراهيم نفسه يطلق لجواده العنان للحاق بعصبة الأتراك ليفرغ فى رؤوسهم غدارته ، ولكن زحمة الطريق عاقته عن التقدم السريع ، ووجد أن اللحاق بهم ضرب من المحال . . .

وتشنجت أصابعه على عنان الجواد وغمغم فى كمد : يا أحط الخلق ، يا خنازير . . . وقبل أن يسترسل فى نطق بقية كلمات السخط المتدافعة على لسانه ، انساب إلى سمعه صوت مؤذن يدعو إلى صلاة الظهر من قمة مئذنة أحد المساجد المجاورة ، فاندفع نحو سوق الليمون ليتجه من هناك إلى دار السيد عمر مكرم . . .

وعندما وصل إبراهيم إلى الدار الكبيرة التى يسكنها السيد عمر مكرم ترجل وقيد جواده بمربط الخيل إلى جوار الباب الكبير ، وتردد فى الدخول

لحظة وهو يتحسس موضع الرسالة من صدره ، ثم دخل ...

وإلى يمين الباب مباشرة ، وجد قاعة فسيحة مزدحمة بالأرائك وغطيت أرضها بسجاجيد كبيرة ، ووجد جمعاً من الرجال ، جاوز معظمهم العقد الخامس ، جالسين على الأرائك وقد تشاغل بعضهم بالحديث ، فى حين قبع الباقون صامتين ، أو منهمكين فى احتساء القرفة .

وأدرك إبراهيم ، أن تلك هى قاعة المنظرة التى ينتظر فيها زوار نقيب الأشراف ، فدخل وأقرأ الجمع السلام ، فانتبه المتحدثون ورفع الصامتون وجوههم إليه وتعالت تحيات الجالسين مع جميع الأركان ...

وقبل أن يقع إبراهيم فى حيرة ، وجد شيخاً وقوراً سمح الوجه ربع القامة يقوم من مجلسه فوق الأريكة المجاورة للباب ويتجه نحوه وقد اكتسى وجهه بابتسامة مرحبة قائلا : أهلا وسهلا ... تفضل ... وأشار الرجل إلى الأريكة التى كان يجلس عليها ...

فقال إبراهيم وقد بدت اللهفة فى صوته : أشكر سيدنا الشيخ ... إننى أرغب فى مقابلة السيد عمر مكرم ...

فقال الرجل والابتسامة لم تفارق وجهه : وأى شيء تريده من السيد ؟

فنظر إبراهيم فى حرج ثم قال : أريده ... أعنى أريد أن أقابله لأمر هام ولا يحتمل التأجيل ...

فسأله الشيخ بلطف قائلا : أولا يستطيع أحد غير سيدنا النقيب قضاء حاجتك ؟

— لا أظن ... إننى ... أحمل له رسالة .

— ممن ؟ !

— من رشيد ...

فرفع الشيخ حاجبيه ثم قال : آه ... من رشيد ! ... تفضل بالانتظار هنا إن شئت ... أو تعال لمقابلته بعد صلاة العصر ...

ـ ولكن الأمر لا يحتمل التأجيل و . . .
ـ إن السيد خرج إلى بيت القاضى ، وسوف لا يعود قبل العصر ...
وشاهد الشيخ الحيرة تكسو وجه إبراهيم فأمسك بذراعه وقال :
ـ تفضل بانتظاره مع المنتظرين وسوف تكون أول من يقابله عند حضوره . . .

فأنس إبراهيم بالرجل وأحس بطمأنينة تسرى إلى نفسه من نبرات صوته ووجد نفسه يجلس إلى جوار الشيخ على الأريكة وهو يغمغم بعبارات الشكر . . .

وقدمت القرفة لإبراهيم فاحتساها وقبل أن يضع فنجانه الفارغ على المائدة المنخفضة سمع الشيخ يقول له : هنيئاً . . .
ـ هناكم الله بالجنة والإيمان . . .
وسأله الشيخ فى رقة واهتمام : وكيف حال رشيد ؟
ـ تركتها والإنجليز يجمعون قواهم للوثوب عليها . . .
فقطب الرجل حاجبيه وقال : ومراد باشا ؟ . . . لماذا لا يبادر بالهجوم عليهم قبل أن يستجمعوا قواهم ؟ . . .

فابتسم إبراهيم فى مرارة واندفع يروى له آخر تفاصيل الموقف ، والشيخ ينصت باهتمام شديد ، إلى أن ختم إبراهيم قصته بقوله : إننا فى رشيد والحماد واثقون من انتصارنا على الإنجليز لو أن الوالى بادر فأرسل جيشاً يعاوننا ، ولقد قدمت لهذا الغرض . . . فقال أحد الرجلين الجالسين على الأريكة المجاورة ، وكان قد سمع كل كلمة رواها إبراهيم :

ـ إنك لن تسمع الصم الدعاء .
فصوب إليه إبراهيم نظرة دهشة واستنكار وسأله : ماذا تعنى ؟
ـ أعنى أن محمد على ليس بالرجل الذى يعتمد عليه فى مثل هذا

الأمر . . إنه ثعلب مراوغ لا يوثق به .

ــ ماذا تقول ؟ . . . الوالى ؟!

ــ نعم ... الوالى ... إنه وصولى لا يختلف فى كثير عن غيره من الولاة ، وكل ما يتميز به هو إتقان الخادعة والتهام الفرائس فى الوقت الملائم .

ولم يشأ إبراهيم أن يصدق أذنيه ، فقد كان معنى هذا أن مجيئه إلى القاهرة عبث لا طائل من ورائه ، وأن رايات الإنجليز سوف ترفرف فوق قلاع مصر عما قريب ، فأدار وجهه إلى الشيخ الوقور الذى كان فى تلك اللحظة مقطب الوجه وهو يصغى إلى ما يدور بينه وبين الشيخ الآخر ، وأدرك الرجل أن إبراهيم لم يعجبه ما سمع فهز رأسه وقال بصوت حزين : إن الشيخ عبد المولى يقول الحقيقة ، فالوالى منكب الآن على جمع أكبر قدر مستطاع من المال استعداداً للفرار من وجه الإنجليز الذين يرابطون فى الشمال والمماليك الذين يرابطون فى الجنوب ... إنه يعلم أنه قد بات محاصراً ، ولذلك وسط المشايخ لدى المماليك لكى يهادنوه بحجة استعداده لقتال الإنجليز ، ولكنه فى الحقيقة يريد أن يجد أمامه فسحة من الوقت يجمع فيها كل ما يستطيع من ذهب ، فإذا ما جد الجد واقترب الإنجليز من القاهرة ، يكون هو فى طريقه إلى الشام حاملا ما غنمه من الشعب ...

فقال إبراهيم وهو لا يصدق أذنيه : ولكن ... كيف اختار الشعب هذا الرجل من بين جميع الأتراك لحمايته ورعاية مصالحه ...

ــ لقد أخطأ الشعب باختياره هذا الأفاق المخادع ... لقد خدع الشعب كما خدع الولاة والمماليك ، وليس جديداً عليه أن يتحلل من قسمه ، ويبرأ من عهده ، لقد فعلها مع الجميع .

ــ كيف ؟ !

ـ عندما قدم هذا الرجل إلى مصر منذ ستة أعوام ، كان الولاة وأعوانهم ، والمماليك وزبانيتهم فى نزاع مستمر على السلطة فى البلاد كما هو الآن ... وتوالت حروبهم ومعاركهم ، وكانت ضحاياهم دائماً من المصريين ... وكانت غنائمهم وأسلابهم أموالنا ومتاجرنا ... وعقب كل حرب تحل فترة من السلم المؤقت ، ولكنه سلم بين المعسكرين فقط ... أما نحن ... الشعب ... فقد كانت سياط جباة الفريقين ترتفع فيها وتهوى على أجسادنا لنقدم لهم ما يفرضونه من ضرائب ... وكان الوالى فى ذلك الوقت هو خسرو باشا ... وكان جنده من الانكشارية القساة الذين لا خلاق لهم ولا ضمائر ... وكانوا يأتون من الفضائح والمخازى ما يقشعر له البدن ويندى له الجبين ؛ فامتلأت النفوس بالحقد ؛ وغلت الصدور بالسخط ولم تلبث القاهرة أن اشتعلت بثورة عارمة على الوالى وجنده الانكشارية ... وكان محمد على قد خلف قائده طاهر باشا فى قيادة الأرنؤود بعد أن قتل طاهر ... فتحالف مع المملوك عثمان بك البرديسى والمملوك إبراهيم بك وتعاونوا على عزل خسرو باشا ، وقد اندفع البرديسى فى تنفيذ ما أوعز به إليه محمدعلى فى حماسة حمقاء ، فاعتقل خسرو باشا فى القلعة ....

وكذلك انصاع له عندما عاد محمد بك الألفى من إنجلترا فتوجه على رأس جيشه إلى الألفى فشتت شمل قواته واضطره إلى الاختفاء من مسرح الصراع إلى جحر مجهول كأرنب مذعور... ولم تثمر خدمات البرديسى فى نفس محمد على سوى الكيد والغدر ... كان محمد على يجد فيه خطراً عليه وعلى أحلامه فى الوصول إلى مقعد الولاية ، ووجد أن لابد له من القضاء عليه بعد أن أدى دوره فى خدمته ... ودبر محمد على أمره حتى هدته حيلته إلى الوسيلة ... فطفق يعلن فى كل مناسبة أن ولى الأمر فى البلاد هو عثمان البرديسى وأنه صاحب اليد العليا فى كل شىء ...

واغتر البرديسي ، وكان أحمق ذا مطامع ، وصدق الأكذوبة الكبيرة التي يرددها محمد علي وعاش قرير العين بما هو فيه من مجد موهوم ... حتى دقت الساعة ، عندما جاء جند محمد علي من الأرنؤود إليه ساخطين يطالبون برواتبهم التي انقضى على موعد دفعها شهور ، فتظاهر بمشاركتهم السخط وأحالهم إلى البرديسي ومماليكه فأسقط في يد البرديسي ، ولم يجد مفراً من أن يفرض ضريبة جديدة على الشعب ، وانتشر جباته في ربوع البلاد وفي يمين كل منهم سوط ... وثار الشعب من جديد ، وكانت ثورته هذه المرة على الأحمق ... البرديسي ... وسارت في دروب القاهرة وحواريها جموع الشعب وهي تهتف ساخطة بسقوط البرديسي حتى النسوة كن يسرن في الطرقات جماعات وهن ينشدن على دقات الدفوف هتافهن الساخر الحزين : إيش تاخد من تفليسي يا برديسي ! !

ووجد الثعلب السمين أن الوقت قد حان ليسفر عن وجهه ويضرب ضربته فتظاهر باستجابته لثورة الشعب ، وأرسل جنده فحاصروا داري البرديسي وإبراهيم بك ، وما إن تنفس صبح اليوم التالي حتى كان سائر المماليك قد فروا من القاهرة ، ناجين بأرواحهم .

وما إن وصل الشيخ إلى هذا القدر من الحديث ، حتى دخل أربعة رجال يحملون سماطاً مدوه في منتصف القاعة ، وجاء آخرون يحملون ألوان الطعام من لحم وخبز وخضر ، ونسقوه على السماط ، وعندما انتهوا من ذلك ، قام الشيخ وخاطب الجميع بصوت مرتفع : تفضلوا يا سادة ... تفضلوا ... الغداء ...

وقام الرجال جميعاً ، ووجد إبراهيم نفسه يقوم مع القائمين ، وجلس بينهم أمام السماط .

* * *

وبعد الغداء ، رفع السماط ، ودخل أربعة من العبيد ، يحملون

الطسوت والأباريق والمناشف والصابون ، وغسل الجميع أيديهم ، وانسحب العبيد بمعداتهم .

وعاد إبراهيم إلى مجلسه بجوار الشيخ ، ونظر إليه مستحثاً إياه على إكمال حديثه فابتسم هذا بمرارة وقال : إنني لا أريد أن أخيب أملك فى الوالى ، ولكنى أسرد لك الحقيقة كيلا تمنى بالخيبة بعد ما يكون الوقت قد فات ...

إن محمد على كما قلت لك ، لا يعمل لغير نفعه ، وقد ظهر لك كيف غدر بحليفيه بعد أن نال منهما ما أراد ... ووجد أنه لو أظهر للشعب زهده فى مقعد الولاية لنال المزيد من ثقته وتأييده فى الوقت المناسب ، فتوجه إلى خسرو باشا ، وفك أسره ، فصفق الناس إعجاباً ... وكان الثعلب يعلم أن أقارب طاهر باشا الذى قتله جند خسرو لن يسكتوا على ذلك ، وقد صح ما توقعه ، فقد ثاروا على الوالى الجديد وعزلوه بالقوة ومحمد على يتفرج من بعيد وكأنه لا يرى ولا يسمع ، وعاد خسرو باشا ذليلا إلى القسطنطينية وخلا مقعد الولاية من جديد ...

ووجد محمد على أن الوقت لم يحن بعد لكى يقفز إليه ، وأدرك أنه لو نصب والياً ، فلن يختلف مصيره عن مصاير من سبقوه من ولاة ، وجد أن من الأفضل أن يستمر فى سياسة تحطيم أصنام الباب العالى حتى يدمرها جميعاً ولا يبقى غيره فى الميدان ، فدعا إليه حاكم الإسكندرية التركى ، أحمد خورشيد باشا ، ونصبه والياً وذهب هو بجنده إلى الصعيد متعقباً المماليك ، وصفق الناس له من جديد ...

وكان خورشيد يدرك مدى خطورة محمد على وخبثه ، فأراد أن يتقى شر تدابيره ، فأتى بجند من الشام ليحلوا محل جنود الثعلب السمين ، واستصدر أمراً من السلطان بتولية محمد على على جدة ، ورفض محمد على أن يهدم خورشيد كل ما دبره وأن تفلت من بين براثنه الضيعة التى

بلا حراسة . . . مصر . . .

وإن هي إلا أيام ثلاثة حتى كان الجند الذين استقدمهم خورشيد باشا من الشام قد ارتكبوا من المخازى ما جعل القاهرة تتحول إلى بركان يقذف بالحمم . . . واندلعت الثورة ، وبحث زعماء المصريين الأمر ، وكانت الأنظار جميعاً متجهة صوب رجل واحد . . . محمد على . . .

كانت ألاعيبه قد انطلت على الناس جميعاً من عامة وعلماء . . . فقد بدا لهم كالملاك الحارس إذا ما قيس بغيره من الأتراك . . . لذلك ، لم يضيعوا وقتاً طويلا فى بحثهم عن حل للمشكلة . . . وسرعان ما استقر الرأى واتجه الزعماء إلى دار محمد على ، وعرضوا عليه منصب الولاية ، فرفع إليهم وجهه وبدت عليه دهشة مفتعلة وقال : ولكننى لا أصلح لذلك ، ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا أكابر الدولة !!!

فقال زعيمنا السيد عمر : قد اخترناك للولاية طبقاً لرغبة الشعب . . . بشروطنا .

ــ وما هي هذه الشروط ؟

ــ أن تكون خادماً أميناً لصالح الشعب ، وأن تعمل على رفاهيته وتسهر على أمنه وحريته .

ــ قبلت شروطكم ، وما كان لى أن أرفض هذا الشرف الأعظم والثقة الكريمة .

وباسم الشعب ألبسه الزعماء الكرك وقفطان الولاية ؛ وتمت بذلك مراسيم توليته ، فسار يخب فى ثوب الولاية بين هتاف الشعب وتهليله إلى مقر الحكم ... إلى القلعة ... ولكن خورشيد أبى أن يتخلى عن مقعده لمحمد على واستكبر أن يعزله الفلاحون ، فأعلن أنه معين بمرسوم بخط السلطان الهمايونى الشريف . . . فعمل الزعماء والمشايخ على استصدار مرسوم كتب بالخط الذى يحبه خورشيد . . . خط السلطان الهمايونى

الشريف . . . وكان المرسوم يقضى بعزل خورشيد وتولية محمد على . . .
واستتب الأمر لمحمد على ، لا سيما بعد أن عضده زعماؤنا عند ما تآمر الإنجليز مع المماليك على عزله فاستعملوا سياسة الضغط على السلطان فأرسل والياً جديداً تزفه مظاهرة بحرية كبيرة وتحرسه مدافع الأسطول التركى ليجلس على مقعد محمد على . . . فكافح الزعماء حتى عاد الوالى الجديد على السفينة التى جاء بها وكافحوا حتى اضطروا السلطان إلى تثبيته فى ولاية مصر . . .

وأخيراً ... ماذا فعل محمد على ؟ ! ... لقد اعتقل الشيخ عبد الله الشرقاوى فى داره . . . اعتقل العالم الجليل وهو أحد الذين نصبوه والياً على هذا البلد . . . لماذا ؟ . . . لأنه جهر برأيه فيه . . . وطلب الكف عن تأييده لمخادعته والتوائه . . . .

وما إن وصل الشيخ إلى هذا القدر من حديثه ، حتى سمع لغط عند مدخل الدار . . . فنهض الرجل الذى كان يمثل نقيب الأشراف فى استقبال الزوار وهرع إلى الخارج وإن هى إلا لحظة حتى مر من أمام الباب جمع من الرجال يتقدمهم رجل طويل القامة مرسل اللحية يرتدى جبة سوداء وعمامة خضراء مثل السيد حسن كريت . . .

وغمغم بعض المنتظرين باسم السيد عمر مكرم . . . وابتعد اللغط ووقع الأقدام وجلس الجميع فى تحفز . . . ومضت لحظات خيل لإبراهيم أنها ساعات طوال ، واستعاد فى ذهنه ما يريد أن يفضى به إلى الرجل ، ولم يقطع عليه تفكيره سوى صوت أحد السابلة وهو يهتف قائلا : اتكالى على الله رأس مالى . . . وما لبث بعدها أن تسللت إلى أنفه رائحة بخور نفاذة ، فأدرك أنه واحد من أولئك الذين اتخذوا المباخر والبسملة والحوقلة وسيلة للرزق . . . وبعد قليل دخل مندوب السيد عمر مكرم فتعلقت به عيون الجالسين فلم يلتفت الرجل إليهم واتجه إلى إبراهيم وأشار

إليه وهو يقول : تفضل . . . السيد النقيب فى انتظارك . . .

فقفز إبراهيم على قدميه ، وتبع الرجل . . .

وعندما تناول السيد عمر مكرم الرسالة من إبراهيم نظر إليه بعينين متفحصتين . . .

ثم مضى يقرؤها . ولم يلبث أن بدت على وجهه علامات الاهتمام الشديد . . . وانتهى الزعيم من القراءة فطوى الرسالة و رفع وجهه إلى الرسول وسأله عن تفاصيل الموقف ، فاندفع هذا يروى له كل شيء بحماسة جعلت صوته يرتجف انفعالا ، وعندما انتهى الشاب من حديثه سأله عمر مكرم عن اسمه فقال :

— إبراهيم طاهر من جنود مراد باشا . . .

وأطرق الزعيم برأسه مفكراً . . . كانت كلمات الرسالة الرهيبة تعنى شيئاً واحداً . . . أن رشيد بل مصر كلها فى خطر ، وعلى القاهرة أن تفعل شيئاً . . . شيئاً سريعاً حاسماً فعالا . . . . ولكن ، ماذا تستطيع القاهرة أن تفعل ؟ . . . ليس أمامه سوى أمرين لا ثالث لهما . . . الاستعانة بالوالى و إعلان الجهاد ليهب الشعب للذود عن حريته . . . ولا بد من الإسراع قبل فوات الأوان . . .

وفجأة رفع الزعيم رأسه ثم صفق بكفيه مرتين ، فأتى خادم نوبى ، فأمره أن يدعو الشيخ بشيراً . . . و بعد دقيقة واحدة دخل الشيخ ذو الوجه السمح فطلب منه الزعيم أن يدعو إليه جميع المشايخ والزعماء فوراً لأمر هام وأن يصرف جميع المنتظرين بلطف لأنه لا يستطيع مقابلة أحد ذلك اليوم .

وعندما تم حضور المشايخ جميعاً ، شرح لهم الزعيم الموقف فى كلمات قليلة ثم أشار إلى إبراهيم وطلب منه أن يسرد لهم التفاصيل ففعل . . .

فشكره السيد عمر وطلب منه أن يتوجه إلى بشير لأنه يرغب فى أن يقيم عنده طوال بقائه بالقاهرة وإلى حين أن يأذن له فى السفر . . .

وبعد أن غادر الشاب القاعة . . . ظل المشايخ يتشاورون فى الأمر ساعة وبعض ساعة ، وأخيراً قرروا التوجه فى الحال إلى محمد على . . .

* * *

وفى قاعة فسيحة من قاعات قلعة صلاح الدين ، تدلت من سقفها المموه بالذهب الممعن فى الارتفاع قناديل ملونة وثريات ضخمة ، توهجت بأضواء مئات الشموع الصغيرة وعكست أجزاؤها البلورية الضوء الحنون فبدت كقطع هائلة من الجوهر تسكب فى العيون مزيجاً مبهجاً من البريق الملون ، وتكشف فى جلال عن فخامة ما تحتويه القاعة من رياش ثمين ينم عن بذخ فاحش وأبهة أسبغت على المقيمين فى ذلك المكان هيبة خرافية تباعد بينهم وبين ما للبشر من خصال وطبائع . وفوق كرسى ضخم يشبه الأريكة نحت جانباه على هيئة أسدين رابضين ، وتدلى من حوله ستاران من المخمل المزركش بالقصب الذهبى ويصعد إليه بدرجات ثلاث غطيت بطنافس بديعة تربع رجل ذو لحية كثة ممشطة تحيط بوجهه فى استدارة وتتصل بشاربه الضخم المنتفش عند جانبى فمه . . كان الرجل يلبس طربوشاً قصيراً أحمر ، يتدلى منه زر أسود غليظ ، وصداراً قرمزياً من المخمل تحليه أزرار صفراء ، وسروالا أسود واسعاً وقفطاناً أسود ، وكان قد أقام ساقه اليمنى فى حين ثنى اليسرى تحته ، وقد احتضن سيفه بيمناه . . . أما يسراه فقد كانت مشغولة بحمل غليونه الثمين الطويل المصنوع من خشب الورد الذى تحيط به أطواق دقيقة من الذهب ثبتت فيها حبات الجوهر . وكان يمسك بطرفه غلام شركسى بهى الطلعة ، كان قد ركع على ركبتيه منكباً على إذكاء النار فيه بتغطيته ويزوده بالطباق المعطر كلما أتى نهم الوالى على ما به ، بعد أن ينفثه دخاناً يتبدد فى جو القاعة . . .

وعلى مقاعد مذهبة صغيرة انتثرت فى جوانب القاعه جلس وفد المشايخ والزعماء فى انتظار ما يقول الوالى . . . ولكن محمد على لم ينبس

بينت شفه . . وإنما مال بجنبه الأيمن ليتكئ على وسادة مكسوة بالحرير الأحمر وهو يمتص الدخان فى نهم وتتابع ، وأرسل طرفه من خلال النافذة الواسعة إلى القاهرة الزاخرة بالمآذن والقباب بعد أن فرغ المؤذنون من الدعوة إلى الصلاة وقد غلفها الغروب بعتمة متزايدة لم تفلح الأضواء الهزيلة المنبعثة من المصابيح التى علقها الأهالى على أبواب الدور والحوانيت فى أن تبدد منها شيئاً . . . وبدت المآذن فى الظلام كأنها أذرع هائلة لكائنات أسطورية امتدت نحو السماء تدعو الله أن يدمر كل من خدع هذا البلد المسكين الذى اكتوى بالأهواء والأهوال . وانتهى محمد على من تدخين غليونه فحمله الغليونجى الوسيم وانسحب فى خشوع . . .

عندئذ التفت محمد على إلى الشيوخ الجالسين أمامه . . . كانوا نفس الجمع الذى ولاه لم يغب منهم سوى واحد . . . المعتقل الشيخ عبد الله الشرقاوى . . وكاد الوالى أن يبتسم عندما تذكر الشيخ الشرقاوى ، لولا أنه أسرع فخاطب عبد الله أغا بكتاش مترجمه قائلا بالتركية :

ــ عبد الله أغا . . . قل لهم إننى قد بادرت بإرسال قوتين ، الأولى بقيادة أحمد الخازندار وقد سافرت فعلا للاشتراك فى القتال ، والأخرى بقيادة حسن باشا وسوف تكون على أهبة السفر إلى الإسكندرية من ساحل بولاق بعد ثلاثة أيام .

فقال السيد عمر مكرم : إن القوة التى قادها أحمد الخازندار لا تزيد على مائة من المشاة وثلثمائة من الفرسان كما جاء فى رسالة السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد إلى منذ ثلاثة أيام ، وإن القوة الإنجليزية لا يستهان بها ، لذلك جئنا اليوم إلى الصدر الأعظم مطالبين بالمزيد من الاهتمام بأمر هذه الحملة . وإن الشعب على استعداد لمعاونته فى قتال الإنجليز .

ــ عظيم جداً أن يبدى الشعب هذه الهمة ، ولكن القتال هو مهمة الجيوش أما الشعوب فواجبها هو تموين الجيش وتعضيده بالمال ، أما أن

يقاتل الأهالى فهذا خطأ لن أسمح بالوقوع فيه مرة أخرى ، كفانا ما حدث فى الإسكندرية ، فرفع السيد عمر مكرم حاجبيه فى دهشة وسأله قائلا :

ـ وهل حدث فى الإسكندرية ما يلام عليه الشعب ؟

ـ لست ألوم الشعب ولكننى ألوم زعيمه هناك . . . الشيخ المسيرى ، وحاكم الثغر أمين أغا . . . لقد مكنا للإنجليز من المدينة دون مقاومة جدية . . . كلا . . سوف أتولى هذا الأمر بنفسى . . .

ـ لست أشك فى أن ما بلغ أسماع أفندينا عما قام به أهالى الإسكندرية بزعامة الشيخ المسيرى مفتريات باطلة . . . لقد وصل الإنجليز إلى الإسكندرية فى أسطول مكون من اثنتين وأربعين سفينة منها عشرون سفينة ضخمة ، وطلب كبيرهم حاكم الإسكندرية والقنصل الإنجليزى فذهبا إليه ومعهم الشيخ المسيرى ، فطلب الإنجليز السماح لهم بالهبوط إلى الثغر فبدا التراخى على الحاكم التركى إلا أنه اضطر إلى أن يقول لهم نظراً لوجود الشيخ المسيرى معه إنه لن يستطيع السماح لهم بالهبوط إلا بمرسوم سلطانى ، فقالوا : لم نأت معنا بمراسيم وإنما جئنا للمحافظة على الثغر من الفرنسيين ، فإننا نتوقع أن يهاجموا مصر مرة أخرى . . . وطالبوا باحتلال الأبراج والطوابى فتصدى لهم الشيخ المسيرى ورفض أن يسمح بجندى واحد من جنودهم بالهبوط إلى البر ، وعندئذ هددوا باستعمال القوة ما لم تسلم الإسكندرية بلا مقاومة فى خلال أربع وعشرين ساعة ، وعندما انقضت المهلة كاد أمين أغا أن يسلم المدينة لولا أن وقف فى وجهه الشيخ المسيرى ومن ورائه الشعب الذى لم يتوان عن إطلاق نيران المدافع من الطوابى والأبراج على الأسطول الإنجليزى والتحم مع القوة الإنجليزية التى هبطت إلى البر عند رأس التين والعجمى ، ولو لم يقاوم الشعب هذه المقاومة الباسلة لما اضطر الإنجليز إلى ضرب المدينة بمدافع أسطولهم فهدموا جانباً منها وقتلوا الكثيرين من الأهالى وقد شهد بذلك أيضاً صديق أفندينا

المسيو دروفتى القنصل الفرنسى الذى بادر بالحرب من الإسكندرية وجاءنى بالقاهرة طالباً سحب الجالية الفرنسية للهرب معها إلى الشام ، لولا أننى طمأنته إلى أننا سوف نبسط عليهم وعلى جميع الأجانب حمايتنا . ولم نتوان عن أن نرسل إليك كاتم أسرارك ديوان أفندى بالأنباء الصحيحة . . . إن الشعب لم يقصر فى أداء واجبه نحو بلاده ويؤسفنى أن أقرر أن الجند الأتراك وحاكم الإسكندرية التركى قد أصابهم الذعر من الإنجليز ففروا من المعركة إلى دمنهور تاركين الشعب يقاتل وحده ، وقد سرت عدوى الرعب إلى حاكم دمنهور وجنده أيضاً ففروا بدورهم إلى فوة برغم مطالبة أهالى دمنهور لهم بالبقاء والمقاومة .

ولعل أفندينا قد بلغته أنباء انتصار الشعب على الإنجليز فى رشيد ... ليت أفندينا كان هنا عندما احتفل الشعب بنصره عليهم ، لقد علقوا رؤوس قتلى الإنجليز بالمئات على هراوات وساروا بها مهللين ومكبرين وهم يسوقون أمامهم أسرى الإنجليز من جند وضباط فى الطرقات والدروب يتقدم الموكب ناقرو الطبول والراقصون بالبيارق وانبعثت من خلف المشربيات زغاريد النساء تحيى موكب النصر وهو يسير من ساحل بولاق إلى باب الشعرية فباب النصر مخترقاً الغورية ثم باب المتولى فبركة الأزبكية حيث غرسوا الهراوات فى وسطها صفين متقابلين. ودوت المدافع من القلعة وأطلقت الصواريخ من الأزبكية ، ورددت حوارى القاهرة ودروبها نداء الحرب والجهاد . . . لقد قام الشعب بالكثير وما زال يستطيع الكثير . . .

كان محمد على ينصت وهو مطرق رأسه . . . وأخيراً رفع الوالى رأسه ثم قال : ما زلت عند رأيى من أن واجب الجيش أن يحارب وأن على الشعب تعضيده بالمال فقط ، إنكم تعلمون أن الذى عاقنى عن المبادرة للقاء الإنجليز بنفسى هم أولئك المماليك الذين أثاروا القلاقل فى الصعيد ، وإنى أرجو أن تسير مفاوضات المشايخ للصلح معهم على

ما يرام حتى نفرغ للعدو الجديد . . . إن كل ما أطلبه منكم جميعاً ، هو أن تثقوا بى وأن تدعوا لى هذا الأمر . . . ثم نهض الوالى ، وكان ذلك إيذاناً لهم بالانصراف فهبوا واقفين واستأذنوا فى الانصراف .

وقبل أن يصل السيد عمر مكرم إلى باب القاعة الكبير دوى صوت الوالى منادياً :

ــ عمر أفندى . . .

فالتفت السيد عمر إلى الوالى متسائلا ، فهبط هذه الدرجات الثلاث والتقى بالزعيم المصرى فى وسط القاعة الكبيرة .

وقال محمد على : إن إعداد جيش للقتال أمر يحتاج إلى نفقات وإن ما يؤخر حسن باشا وجيشه عن السفر إلى الإسكندرية هو هذا الأمر .

وصمت الوالى قليلا ثم قال بصوت كالهمس : إننى بحاجة إلى ألف كيس . . . قدرها على من تشاء من الأهالى والتجار وتول جمعها بنفسك ، و . . . عجل . . .

وخرج نقيب الأشراف من لدن الوالى وهو يغمغم حانقاً : لقد عاد التركى إلى المطالبة بثمن القتال مرة أخرى !

إن رشيد فى خطر ولن يسعفها هذا الوالى المتراخى . . . إن تحرك جيشه معلق بكثير من المال والوقت والصبر . . . إنه يطلب ألف كيس . . . ألف كيس عليه أن يجمعها بنفسه ، فلن يثق الشعب فى أن هذا المال سوف ينفق من أجل مصر لو أن غيره تولى جمعها . . . سوف يجمعها له ، ولكنه لن يعتمد على هذا التركى الجشع كلية . . .

وتذكر تلك الليالى التى كان يحضر فيها محمد على إلى داره متسللا يدق بابه فى تردد ويرجو مقابلته ، ويظل يتحدث عن استعداده للتفانى فى خدمة مصر وأهلها ويقسم بالأيمان المغلظة أنه سوف لا يغمد سيفه حتى تستقر الأمور فى البلاد ويتم القضاء على المماليك ، وينتشر الأمن

والعدل ، وتقام الأحكام والشرائع ، وألا يأتى أمراً إلا بمشورة زعماء الشعب ، فإن خالف هذه الشروط عزلوه وأخرجوه . . فصدقه ، وعمل على إقناع الزعماء بأن محمد على هو الرجل الوحيد الذى يمكنهم أن يتفاهموا معه وأنه الوحيد الذى يستطيع القضاء على سلطان المماليك ، فهو من جنسهم وقادر على فهم حيلهم وطرقهم فى الكيد والقتال ، ومن ورائه جيش من الأرنؤود الأشداء . . . ووافق الزعماء . . . وترددت النداءات بين طرقات القاهرة وأزقتها بمناصرة محمد على والخروج لمقاتلة المماليك وزعيمهم محمد الألفى ، فتكتل الشعب وراءه وحمل السلاح ، واشترك فى القتال ، حتى اضطر الألفى إلى الفرار إلى البحيرة ولكن الشعب فى دمنهور أبى أن يسمح للألفى بدخول المدينة ، فحاصرها عاماً بأكمله وسد خليج الأشرفية ومنع الماء عن البحيرة والإسكندرية . . ولكن الشعب لم يسلم حتى قتل الألفى اليأس ، فمات وهو يلعن محمد على والمماليك الذين انضموا إليه وانخدعوا بوعوده المعسولة وهو يقول : يالضيعتك يا مصر ! . . . انظرى إلى أمرائك وهم حولك مشتتون متناحرون . . . استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الأرنؤود وأصبحوا يأخذون خراجك ويحاربون أمرائك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك .

وتمنى عمر مكرم لو أنه كان قد أخذ برأى الشيخ عبد الله الشرقاوى الذى وقف معارضاً تأييد محمد على بعد أن بدت منه دلائل الخداع والتراخى فى الوقوف إلى جانب الشعب ، عندما اجتمع الزعماء فى دار الشيخ الشرقاوى بحارة كتامة ... ولكنه لم يأخذ باعتراضه وحمل بقية الزعماء على كتابة عريضة إلى السلطان لتثبيت محمد على فى ولاية مصر . . .

وبعد كل ذلك الكفاح والتدبير من أجل توطيد سلطان هذا الرجل ، يكشر الوغد عن أنيابه فيبدأ باعتقال الشيخ الشرقاوى فى داره ، ثم يحاول أن يعقر اليد التى امتدت إليه بالإحسان . . . فقد حاول الثعلب التركى

أن يقضي عليه سياسياً . . . يقضي على ولى نعمته . . . كما فعل بالبرديسي وبإبراهيم بك ، عندما تظاهر بإزماعه السفر على رأس جيشه لمقاتلة الألفي وعهد إليه بحكم مصر نيابة عنه لكي يورطه في المشاكل القائمة ويلصق باسمه ما كان الأتراك يرتكبونه من أفعال همجية ، فاعتذر عن القبول . . . ولم يكن محمد على قد أرسل جيشه إلى أبعد من . . . بولاق !!

وتذكر السيد عمر عندما جاء الإنجليز فبعث إليه بديوان أفندى ليستحثه على العودة إلى القاهرة للوقوف في وجه العدو الجديد ، ومضت أيام دون أن يعود الرجل الذى طالما تملقه وأقسم له بألا يغمد سيفه قبل أن يقضي على أعداء مصر جميعاً ! . . . وأخيراً . . . أخيراً جداً تحرك الوالى في تباطؤ شديد عائداً إلى القاهرة ولكن عن طريق الضفة الشرقية للنيل لكي يستطيع أن يلوذ بالفرار إلى الشام عندما تلوح له بادرة أي خطر يتهدد حياته . . . ولم يخرج عن طوقه حيال المحنة التي أحاقت بالبلاد التي رفعته إلى مقعد الولاية سوى أن يبعث ببضع مئات من الجند بقيادة تركي رقيع أرعن ، لم يتورع عن نهب الفلاحين وهو في طريقه إلى ميدان القتال بعد أن انتهت المعركة !! . . .

ليته عضد الشرقاوى . . . ليته استمع إليه . . . ليته ما وثق بهذا الكلب العقور . هذا المرتزق الذى يطالب بالأجر قبل أداء الخدمة . . . كلا . . . إنه لن يعتمد على أحد غير الشعب . . . الشعب الذى نصر محمد على وهزم الألفي ، والذى قطع رؤوس الإنجليز ، هو الذى سوف يستجيب لنداء رشيد ويرد عنها القراصنة . . .

الفصل الثانى عشر

انعقدت سحب الدخان المنبعثة من قمم النارجيلات المذهبة السامقة فى سماء القاعة وبدا أمراء المماليك فى ثيابهم المزركشة الفاخرة وعماماتهم الصغيرة المحلاة بالجواهر وقد اتكأوا على الوسائد المتناثرة فوق الأرائك المنخفضة وكأنهم فى مجلس شراب وطرب رغم ذلك الحديث الجاد الذى كان يترجمه لهم مصطفى أفندى كتخدا قاضى العسكر . . .

كانوا جميعاً قد اجتمعوا لينصتوا إلى الوسطاء المصريين بينهم وبين غريمهم المخادع محمد على الذى عرض عليهم الصلح والكف عن القتال والاستجابة إلى مطالبهم فأبوا أن ينخدعوا بقوله ورفضوا أن ينصتوا إلى شريف أغا رسول الوالى إليهم وطلبوا حضور الزعماء المصريين والمشايخ الذين يثقون فى كلمتهم وفى قدرتهم على ضمان وفاء غريمهم بوعوده ، ولكن المحنة التى كانت تجتازها البلاد حالت دون حضور السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ، فأناب هؤلاء عنهم الشيخ سليمان الفيومى والشيخ إبراهيم السجينى والسيد محمد الدواخلى الذين جلسوا متجاورين أمام أمراء المماليك يعرضون رغبة محمد على فى الصلح وإنهاء القتال .

وعندما أفضى إليهم الشيخ الفيومى بعرض الوالى قال عثمان بك يوسف بالتركية وهو يشير بمبسم نارجيلته فى حدة :

— لقد أتخمنا محمد على بوعوده الكاذبة . . . إن قولة لم تنجب من هو أشد إفكاً من هذا الرجل . . .

وقال عثمان بك حسن وهو يضع بتؤدة فنجان القرفة التى فرغ من احتسائها :

ـــ إن الموقف قد تغير الآن ، والظروف فى صالحنا وقد حانت نهاية هذا الدخيل ، ولن نغفلت الفرصة . . .

قال ذلك ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية فنشرها وشرع يقرأ منها : لقد جئنا إلى بلادكم بدعوة من المرحوم محمد بك الألفى لتقديم العون له ولكم ، فوجدناه قد مات ، وإننا ما زلنا عند وعدنا ، وإنكم لن تجدوا فرصة خيراً من هذه لتحقيق أغراضكم وتوطيد سلطانكم ، وإن أى تلكؤ من جانبكم سوف لا يندم عليه أحد سواكم . . . وطوى المملوك الرسالة والتفت إلى الشيوخ المصريين وقال :

ـــ إننا لا ننوى مطلقاً أن نندم على شىء ، لئن كان محمد بك الألفى قد مات ، إن حقوقنا لم تمت ولن نسمح لمحمد على أن يهدرها .

فقال الشيخ الفيومى : لو كان الإنجليز جادين فى معاونتكم لما تأخروا عن الحضور كل ذلك الوقت ، إنهم قوم يعملون لمصالحهم الشخصية ويتوسلون إلى ذلك بشتى الوسائل ، وهم يريدون تسخيركم لمصالحهم فلا تغتروا بما يقولونه لكم . . .

فتصدى مملوك شاب ذو ملامح حادة ، كان يجلس فى أحد أركان القاعة دون أن يشارك إخوانه فى التدخين ، للشيخ الفيومى ، وأخرج من جيبه رسالة الإنجليز إليه ، وقال :

ـــ إن هذه الرسالة تتضمن الأسباب الحقيقية التى حالت دون وصول العون الإنجليزى إلينا ، ففيها يقول الجنرال فريزر :

« إن أسباب تأخرنا عن الحضور إلى مصر هو ما كان قائماً بيننا وبين الدولة العثمانية من علاقات الود والصداقة . وعندما اعتدت قوات الدولة العثمانية على حلفائنا الروس أصبحنا فى حل من الحضور إلى مصر منتهزين أول فرصة سنحت لنا . وإننا ـــ وإن كنا قد وجدنا أن محمد بك الألفى قد مات ـــ لا نجد سبباً يسوغ لنا الرجوع عن مصر دون

إتمام ما جئنا لأجله » .

فقال الشيخ السجيني : أرجو أن تكون قد فهمت من روح هذه الرسالة أن الإنجليز مصرون على احتلال البلاد سواء قمتم بمعاونتهم أم لم تقوموا ، وهذا يبين لكم بوضوح أن الإنجليز لم يأتوا لكي يعيدوا إليكم حقوقاً أهدرت ، ولكن لكي يبسطوا سيطرتهم على البلاد ، وأنتم فى هذا الأمر وسيلة يستعينون بها لقضاء مآربهم كما وضح لكم الشيخ سليمان . عودوا إلى رشدكم ودعوكم من الوهم الذى تعيشون فيه .

فقال إبراهيم بك ، وكان أكبر المماليك سناً ، بصوت كالخوار :

— هل لكم أن تبينوا لنا الغرض من الصلح الذى يعرضه الباشا ؟

— الغرض هو إنهاء هذه الحرب التى لا فائدة منها وتوحيد الكلمة وضم الصفوف لمواجهة عدو البلاد ، ولا يخفى عليكم أن الإنجليز قد خاصموا السلطان وأغاروا على مصر ، فاحتلوا الإسكندرية وهاجموا رشيد وهم يمهدون الآن لغزو البلاد جميعها كما فعل الفرنسيون من قبل .

فقال شاهين بك الألفى فى عناد وإصرار : لقد جاء الإنجليز بدعوة من الألفى بك الكبير لنصرتنا ومساعدتنا ، فكيف يليق بنا أن نتخلى عنهم بعد كل المشاق التى عانوها لكى يأتوا إلينا ؟

فقال السيد محمد الدواخلى بصوت فيه رنة الغضب : لا تصدقوا الإنجليز فيما يدعون فإنهم إذا ملكوا البلاد فلن يبقوا على سلطة لأحد ولن يقبلوا أن يشاركهم فيها إنسان ولا تنسوا أنهم من غير ديننا ولا ملتنا ، ولا ينبغى الانتصار بهم على المسلمين .

وقال الشيخ السجينى مخاطباً كبار المماليك : ولا تنسوا أنكم مسلمون ، تربيتم فى حجور الفقهاء وبين أظهر العلماء وتعلمتم الشرائع وأقمتم الصلاة وقمتم بالحج والجهاد فهل يليق بكم أن تقعوا فى جهالة كهذه ؟

فقال شاهين بك المرادى : إن محمد على غادر لا يؤتمن ولا يحفظ عهده . وفتح ياسين بك فمه الواسع لأول مرة وقال : لقد حاول أن يغدر بالسيد عمر مكرم نفسه برغم أياديه البيضاء عليه ، واعتقل الشيخ الشرقاوى ولم يطلق سراحه إلا تحت ضغط الزعماء ، والعلماء ، فهل نأتمنه بعد ذلك على أنفسنا ؟

وقال شاهين بك الألفى والحدة لم تفارقه : إن كان يصالحنا على أن يقطعنا البلاد والأرض فها هى ذى البلاد فى أيدينا وقد عمها الخراب من الحروب وقد انهدمت دورنا وتشتت شملنا ولم يبق لدينا ما نأسف عليه أو نحتمل المذلة من أجله وقد مات إخوان لنا كثيرون وخير لنا أن نستمر فى القتال وألا نركن لوعد أو نثق فى عهد ، حتى نفنى عن آخرنا .

وقبل أن يكمل الألفى الصغير كلامه ، ارتفع صوت الشيخ الفيومى مقاطعاً وقال فى حزم :

— إن من يفعل ذلك ولا يرضخ للصلح سوف نضطر بصفتنا علماء المسلمين وشيوخهم أن نحكم بردته عن الإسلام وكفره بدين الله ، وأن نبيح دمه ، لأن كل من يحاول إضعاف القوة التى تحارب الإنجليز يعتبر إنجليزياً يعامل بمثل ما يعاملون به .

ثم نهض الشيخ الفيومى وقال : سوف نترككم الآن لتتشاوروا فى أمركم وسنعود إليكم بعد صلاة العصر لنستمع إلى قراركم النهائى واعلموا أن من لم يكن معنا عددناه علينا .

وعندما صار المماليك وحدهم دوت القاعة بأصواتهم وقد اختلط بعضها ببعض وامتزجت الحدة بالاتئاد ، ولم تخفت حدة الجدال قبل أن يرفع عثمان بك يوسف صوته قائلا وهو يلمس أعلى صدره بكفيه :

— لقد ظللت محايداً منذ زمن طويل ، وإننى مسلم جاهدت وقاتلت الفرنسيين ولا أحب أن أختم أعمالى باللجوء إلى الإنجليز لأنتصر

بهم على المصريين .

فقال مراد بك الألفى بصوت جعله الغضب رفيعاً : ان هذا هروب من المعركة . . . إن الله لم يأمرنا بأن نسكت على ضياع حقوقنا وتشريد أبنائنا . . . كيف استطعتم أن تحتملوا سماع هذه الترهات التى يتحدث عنها هؤلاء المشايخ . . . إن العثمانيين كانوا يتمنون أن يملكوا مصر منذ أحقاب طويلة ، مضى الزمن والمماليك يقهرونهم ويغلبونهم على أمرهم ، ولم يظفروا منا بغير الطاعة الظاهرة ولعلكم لم تنسوا كيف امتنعنا عن دفع الخراج ولم نمتثل لأوامرهم ، وقد أوغر ذلك صدورهم علينا فولجوا البلاد وملكوها على هذه الصورة وتآمروا علينا ولن يروق لهذا الأفاق ساكن القلعة أن يعود إلى بلاده بعدما ذاق خيرها ، فدبروا أمركم وتيقظوا من غفلتكم . . .

وهز ياسين بك رأسه موافقاً وكذلك فعل شاهين بك المرادى .

وقال عثمان بك حسن محتجاً : هذا من وساوسك وأوهامك .

ولكن شاهين المرادى سأله قائلا : ما الذى تراه ؟

فقال الألفى الصغير وهو ممسك بقبضة سيفه : أرى أن نوحد جيوشنا وأن نسير شمالا حتى الجيزة حيث ننصب خيامنا وأن ننتظر وصول الإنجليز لنجعلهم واسطة بيننا وبين الوالى ونعقد الصلح عندئذ بشروطنا نحن بضمان الإنجليز وألا نعبر النيل إلى الضفة الشرقية ولا ندخل القاهرة حتى يخرج الأتراك منها ويعودوا إلى بلادهم ولا يبقى منهم إلا من يتقلد الولاية والدفترداریة ومثل ذلك . . .

فتساءل عثمان بك يوسف قائلا : كيف نضع أيدينا فى أيدى الإنجليز وهم أعداء البلاد فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الإسلام ؟!

فقال شاهين الألفى وهو يقلب كفيه مستنكراً قول عثمان بك : أما الاستنكاف من الالتجاء إلى الإنجليز فإن العثمانيين لم يستنكفوا من ذلك واستعانوا بهم من قبل فى طرد الفرنسيين من البلاد وكانت تلك مساعدة

حرب ، أما ما أطالبكم به الآن فهو أن نستعين بالإنجليز للتوسط لدى العثمانيين وكفالة الشروط ،وشتان بين مساعدة حرب و وساطة سلم . . . أما أن ننتظر حتى يقع من جانب الأتراك ما يستوجب الاستعانة بالإنجليز فهذا ما لا أوافق عليه ، فقد يتعذر عندئذ تدارك الأمر .

فنهض إبراهيم بك وتهيأ للانصراف ثم قال فى ملل : إنى أقبل أى شرط يعيدنى إلى دارى لأقضى ما تبقى من عمرى مع عيالى تحت إمارة أى إنسان من عشيرتنا فهو عندى أفضل من هذا التشرد .

فنهض خلفه عثمان بك حسن وهو يقول : إنى معك فى هذا يا إبراهيم بك ، وفتح ياسين بك فمه الواسع فبدت أسنانه العريضة وقال :

ـ أما أنا فعلى استعداد لتوقيع أى شروط مقابل أربعمائة كيس .

وتتابع المماليك كل يبدى رغبته فى الصلح وملله من القتال .

وعندما عاد وفد الشيوخ المصريين ، كان المماليك قد جلسوا فى أماكنهم ليبلغوا قرارهم بالكف عن القتال ، وكانت علامات الطمأنينة والثقة بادية فى وجوه الجميع ما عدا وجه مملوك شاب حاد التقاطيع ، فقد وقع شروط الصلح فى عصبية كادت تحطم القلم . و بعد أن تم جمع التوقيعات بلحظات ، كان فارسان يسابقان الريح بجواديهما ليزفا البشرى إلى القاهرة . . .

الفصل الثالث عشر

ـــ تجلدى يا أم إبراهيم، واذكرى قول الله سبحانه . « والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون » . . . لقد ذهب ولدك إلى عالم البقاء بطلا شهيداً من أجل الوطن ، فأنعم بها من شهادة . . .

فأجابت الأم بنهنهة حزينة ثم رفعت إليه عينين تسحان بالدمع الغزير ، ولم تلبث أن انفجرت باكية وهى تغطى وجهها بيديها واهتز رأسها يميناً وشمالا فى لوعة حارقة.

ومن بين شهيق البكاء وزفرات اللوعة ، سمعها السيد حسن كريت تقول بصوت متحشرج : لم يعش ليهنأ بشبابه . . . ذهبت عروسه فلحق بها متعجلا . . .

ـــ هذا قضاء الله يا أم إبراهيم ولا راد لقضائه ، وعهدى بك الإيمان بالله والرضا بقضائه . . . لقد خلقنا الله لذكره وطاعته والدفاع عما أمر به والنهى عما نهى عنه ، وقد استشهد محسن فى سبيل الحق الذى قدسه الله وتسمى به سبحانه ، فهنيئاً له شهادته ، وصبراً على ما قضى به الله . . .

فقالت الأم بصوت يخنقه البكاء وبدنها يرتج بالنشيج : لقد كان يحب الحياة يا سيد حسن . . . كان يضحك لها ويستزيد منها . . كنت أجد فى قربه منى عوضاً عن غياب أخيه . . . كنت أسمع خطواته كلما عاد إلى الدار فى المساء . . . وأنصت إلى خفق حذائه عندما يخفف الوطء كيلا يوقظ أحداً عندما يعود متأخراً . . . كان يتوقف لحظة أمام بابى وكأنه يريد أن يدخل على ليقبل جبينى وأنا نائمة كما كان يفعل كلما كان يرانى مستيقظة . . . لن أرى محسناً بعد الآن ! . . . لن يقبل جبينى . . . لن يقف ببابى . . .

وانخرطت الأم الحزينة من جديد فى نهنهة متقطعة كالأنين . . .
وقام طاهر بك من مقعده وقد بدا على وجهه ضعف ما كان يبدو عليه من شيخوخة ، فربت على كتف الأم وقال :

ــ كفى يا أم إبراهيم . . . كفاك بكاء . . . إنه حى يرزق فى جنات الله . . . « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » . . . هذا قول الله . . . أين إيمانك ؟ . . . كفاك بكاء . . . ليس هكذا يبكى الشهداء . . . قومى معى إلى فراشك . . .

فمدت الأم يدها وأمسكت بكم زوجها وقالت بشك بدا واضحاً فى عينيها :

ــ أصدقونى القول . . . هل مات إبراهيم أيضاً ؟ . . . هل قتله الإنجليز يا طاهر ؟ . . . خبرنى بربك يا سيد حسن . . . أين إبراهيم ؟

فقال السيد حسن مؤكداً : لقد بعث إلى أول أمس البطل الشهيد مراد باشا طالباً إيفاد إبراهيم بنفسه إلى القاهرة لاستعجال النجدة وشرح الموقف لزعماء البلاد ، وقد حمل إبراهيم الرسالة وتوجه على الفور إلى القاهرة وقدرت له النجاة من هذا الهجوم الإنجليزى الغادر . . . ثقى أن ما أقوله هو عين الصدق . . . سوف يعود إبراهيم مع النجدة عما قريب وسوف يثأر من القراصنة لجميع من استشهدوا . . فرفعت أم إبراهيم وجهها نحو السقف وبسطت كفيها فى ضراعة وقالت بصوت مبحوح ودموعها تنحدر فى خطين لامعين فوق وجنتيها :

ــ يا منتقم يا جبار . . . أنت على كل ظالم . . . أنت على كل ظالم يا رب . . اللهم انتقم لى من الإنجليز . . . اللهم أثكل قلوب أمهاتهم . . . اللهم أذقهم الحسرة والندم . . . أنت على كل ظالم يا رب . . .

وقاد طاهر بك زوجته إلى غرفتها برفق ، ثم عاد إلى السيد حسن كريت

الذى كان لا يزال واقفاً فى مكانه وقد أطرق إلى الأرض فى شرود ...
وسأله طاهر بك متردداً بصوت خائر :
— هل . . . هل قتل جميع المصريين ؟ . . . جميعهم ؟
— أكذبك القول لو قلت لا أو نعم . . . إنما سمعت ممن نجا منهم أن الإنجليز انقضوا على جيش مراد باشا من كل جانب بعد أن سحقوا معسكره بنيران مدافعهم ، فقتل كثيرون وأسر آخرون وأمكن بضعة وخمسين رجلا أن يعبروا النيل إلى الضفة الشرقية سباحة بعد أن وجدوا ألا جدوى فى المقاومة ... وقد ذكر لى بعضهم ممن كانوا يقاتلون بجانب محسن أنه قاتل كما يقاتل الأبطال واستشهد كما يستشهدون . . . لقد افتدى قائده بحياته ، إذ تلقى بصدره رصاصة غادرة كانت مصوبة نحو مراد باشا وسقط وهو يصرخ فى الرجال . . . أن اصمدوا وقاتلوا من أجل مصر . . .
وصمت الرجل قليلا ثم استطرد يقول بصوته العميق :
— وعندما فرغ القراصنة من ذلك ، اقتحموا الحماد فاحتلوها وكذلك فعلوا بقريتى كوم الأفراح وأبى مندور ، وبذلك قطعوا كل اتصال بين رشيد وما حولها ، وإن أخشى ما أخشاه هو عبورهم النيل إلى الضفة الشرقية ، فيسدوا المنفذ الوحيد إلى رشيد فيتعذر علينا الاتصال بالقاهرة أو بغيرها . . .
واستطرد السيد حسن كريت يقول فى همهمة خافتة كمن يحدث نفسه :
— يجب أن ننبه القادمين إلى ما حدث كيلا يباغتهم الإنجليز أو ينصبوا لهم كميناً . . . ثم ارتفع صوت الرجل وهو يقول :
— يجب أن أنصرف الآن ، فعلينا أن نوفد رسولا إلى القاهرة عند هبوط الظلام . . .

وقبل أن يفتح طاهر بك فمه ليتكلم ، دوى صوت عميق من أقصى المكان يقول :

– إننى على استعداد للقيام بهذه المهمة يا سيد حسن . . .

وبوغت الرجلان والتفتا نحو مصدر الصوت فشاهدا سلامة وقد ارتدى ثياب الركوب . . . وعندئذ قال طاهر بك مستنكراً : أنت ؟ ! . . . تسافر وأنت لم تسترد بعض ما فقدت من عافية ! . . .

– إننى فى خير حال .

والتفت إلى السيد حسن كريت وقال بحزم : تحت أمرك يا سيد حسن . .

فقال السيد حسن كريت : إننى لن أجد خيراً منك لأداء الرسالة ، ولكنك كما قال طاهر بك . . .

فقال العملاق دون أن يمكنه من إتمام الحديث : لقد استرددت عافيتى وإننى مصر على القيام بهذه المهمة لعلنى أعوض بالقيام بها ما فاتنى من قتال وأنا راقد فى الفراش كامرأة هجرها زوجها . . .

– لا تندم على ما فاتك من قتال ، فإننا لم نخض المعركة الحقيقية بعد وقد ادخرتك الأقدار لمعركة النصر بمشيئة الله . . .

– لن يهدأ بالى قبل أن أذبح عشرة من القراصنة مقابل كل شهيد من رجالنا . . .

وضم الرجل قبضته ناقماً واستطرد يقول من بين أسنانه : سوف أسفك دماءهم النجسة ، أما دماؤنا فلن تضيع هدراً أبداً . . . أبداً . . .

– إذن ، هيا بنا إلى السلانكلى . . .

وعندما خرج سلامة إلى الطريق ، نظر إلى ما حوله بفضول وكأنه يشاهد رشيد للمرة الأولى . . . ونفذت إلى أنفه رائحة عطنة كانت تنبعث من جوف الخنادق الواسعة الحديثة الحفر . . . وعندما رأى منظر الرجال

الكامنين خلف المتاريس ، والمتربصين فوق الجدران وقد ثبت كل منهم أصبعه فوق زناد بندقيته فى يقظة وتحفز ، ثارت فى نفسه روح القتال ، فامتدت يده تتلمس غدارته دون قصد أو شعور . . .

وتلقى سلامة الرسالة من القائد التركى وظل يرددها فى ذهنه طوال ساعات انتظاره حلول الظلام حتى حفظها عن ظهر قلب . . . كانت حثاً للوالى على سرعة نجدة رشيد . . .

وجاء المساء ، وحلك الظلام ، فعبر سلامة النيل ومعه حصانه فى المعدية القديمة التى كان صديقه عوض الله يفخر بها حتى إنه سماها (عروس البحر) . . . وابتسم سلامة عندما تذكر عوض الله العجوز عندما تثور ثائرته كلما كان يلومه مداعباً إياه على زواجه من « زهرة » الصبية الصغيرة التى فى عمر حفيدته . . .

وعندما اقتربت المعدية من الضفة الشرقية ، تهيأ سلامة ليلقى بالحبل الغليظ على الوتد الحديدى الكبير ... وبغتة ، انبعث ومض خاطف تبعه دوى مروع ، فالتفت وراءه . . . وراءه تتابع الومضات البرتقالية والانفجارات الهائلة . . . وأدرك أن الإنجليز قد بدءوا يدقون رشيد بمدافعهم ، فانطلقت من بين أسنانه غمغمة ناقمة ثم أسرع بإخراج حصانه من المعدية وقفز فوق ظهره وانطلق نحو الجنوب . . . إلى القاهرة . . .

الفصل الرابع عشر

أحس إبراهيم بحيوية دافقة ونشوة الشعور بالقوة وهو يخترق جموع الرجال الذين كان كل منهم يكاد يشتعل بالحركة والحماسة .

كانوا خليطاً من طوائف الشعب المختلفة من تجار وصناع وفلاحين وباعة ومجاورين ذوى سحن مختلفة وثياب وأزياء متباينة ، معظمهم عراة الرؤوس حفاة الأقدام وجميعهم قد شمروا عن سواعدهم السمراء ، وقد انكبوا يصنعون شيئاً كاد أن يكتمل ويسد مدخل القاهرة عند ساحل بولاق بمتاريس هائلة .

وقفزت إلى ذهن إبراهيم ذكرى ذلك اليوم التاريخى الذى انقضى منذ أربعة أيام فقط ، عندما أصدر الزعيم عمر مكرم والمشايخ والعلماء نداءاتهم إلى الشعب لكى يهب إلى ملاقاة الإنجليز دفاعاً عن الوطن والمقدسات ، وأن يهبوا الوطن كل ما يستطيعون من مال وسلاح لاستخدامه فى مواجهة الخطر الداهم ، فتقاطرت جماعات الشعب من جميع الطوائف إلى دار السيد عمر مكرم والجامع الأزهر وهى تهتف بحياة الوطن والحرية والجهاد فى سبيل الله ومصر ، حيث ألقى عليهم الزعماء خطبهم الملتهبة ونداءاتهم الموجهة ، فأخذت كل جماعة تتجه نحو ساحل بولاق لبناء المتاريس والتربص للإنجليز .

وفى الطريق ، أصبحت الجماعات جموعاً ، ثم التقت الجموع واندمجت فصارت خضماً بشرياً هائلا ، يموربالحماسة ، ويقوده الإيمان .

وسرعان ما شيدت المتاريس وحفرت الخنادق وربض الرجال فى مواقعهم ، وقسمت الآلاف إلى مجموعات تولى آخرون تدريبهم على أساليب القتال .

وأصبح ساحل بولاق معسكراً هائلا ، انتشرت فيه الخيام ، تدوى فى سمائه طلقات التدريب مختلطة بصيحات التكبير .

وعند الحد الجنوبى للمعسكر ، نصبت خيمة كبيرة، ظل إبراهيم يقترب منها حتى وصل إلى مدخلها فوقف ثم ألقى السلام دون أن يتحرك أو يرى من بداخلها . . . وما إن سمع صوتاً ينبعث من الداخل يرد السلام ويدعوه للدخول ، حتى تهلل وجهه ثم أحنى رأسه ونفذ إلى الخيمة حيث كان الزعيم عمر مكرم جالساً مع اثنين من أجلة العلماء .

وما إن رأى الزعيم إبراهيم حتى ابتدره بقوله :

ـــ جئت فى وقتك . . . اجلس . . .

ففعل إبراهيم وظل صامتاً .

واستطرد الزعيم قائلا وقد بدا الجد فى قسمات وجهه ونبرات صوته :

ـــ لقد فرغ الرجال اليوم من كل ما عهد إليهم فيه ، كما أوشك تدريبهم أن يتم وقد بلغنى أنهم سيفرغون منه فى خلال يومين يكونون بعدهما أهلا للقاء الإنجليز فماذا ترى ؟ . . .

ـــ أن نسير بالرجال فور استعدادهم شمالا بحذاء الضفة الغربية حتى نصل إلى جنوبى الحماد ، وأن نعمل على أن يكون وصولنا ليلا ، ثم يقسم الرجال إلى فريقين كبيرين، يتجه أحدهما شمالا متجنباً مواقع الإنجليز حتى يصل إلى الملاحات ، ويطوق الفريق الآخر الإنجليز من الجنوب والغرب . . . وفى الساعة التى يتفق عليها . . . يبدأ هجومنا من الشمال والجنوب والغرب ... أما ناحية الشرق . . . فأعماق النيل كفيلة بها .

فهز أحد الضيفين رأسه موافقاً وهتف الآخر وقد بهرته الخطة :

ـــ هذا رائع . . . نعم الرأى !

وقال السيد عمر : بورك فيك يا إبراهيم ... موعدنا اليوم بعد صلاة العصر لمناقشة التفاصيل . . . فى دارى . . .

وانصرف إبراهيم من لدن الزعيم ورأسه يزدحم بصور غامضة للأحداث القادمة . واتجه إلى خان « دار السعادة » المجاور لبيت القاضى ، ليتناول غداءه ، ثم يصلى فريضة الظهر فى مسجد الحسين القريب ويظل قابعاً به إلى أن يفرغ من صلاة العصر ، وبعد ذلك يتجه من المسجد إلى دار السيد عمر .

وكان خان دار السعادة بناء حجرياً قديماً من طابقين ، تزين واجهته مشربيات كثيرة تطل على الرائى من الطابق الثانى ، وقد سدت نوافذ الطابق الأول بقضبان متقاطعة من الحديد فى زركشة عربية بديعة ، وانفرج بابه الواسع الذى لا يغلق أبداً عن قاعة واسعة طويلة ، أقرب ما تكون إلى الدهليز منها إلى القاعة ، وقد صفت حول جدرانها أرائك قديمة يبدو عليها آثار عز غابر ، وتتصدرها مرآة هائلة ذات إطار كاد الزمن أن يمحو طلاءه الذهبى ، وكانت صفحتها العريضة تعكس صورة المكان من السقف المزركش الذى تتدلى منه ستة مصابيح زيتية إلى البلاط الضخم العارى الذى تآكلت حوافه ، فتضاعف لعين الداخل اتساع القاعة .

وكان ضجيج الشارع الضيق المزدحم بالمارة والباعة والمجاذيب الذين كانوا يفترشون عتبة الخان وتحت نوافذه يصفع آذان الجالسين بالداخل دون هوادة طوال اليوم . . . وكثيراً ما كانت توشيه صيحات الدراويش وهتافاتهم الغامضة التى تبدو لغيرهم لا معنى لها . . .

اقترب إبراهيم من الخان ، فشاهد اثنين من هؤلاء الدراويش رجلا وامرأة وقد أمسك كل منهما بتلابيب الآخر ، وهما يتنابذان بألقاب جعلت منهما محوراً لسخرية زملائهما الذين كانوا يجلسون فى تراخ وبلادة على جانبى الطريق .

وسمع إبراهيم المرأة تقول وهى تحاول أن تخلص خمارها الأخضر من قبضة الدرويش التركى :

— دع خمارى يابن المرأة . . . دعه . . .

فصرخ فيها الدرويش وأنفه يرتعد من الغضب برطانة مضحكة :
ـ سوس . . هات الفلوس . . . أنت لص . . . أنت انهب . . . اسرق . .
الشيخ أعطى نقود لحظرتى أنا . . . أنا . . .
فضحك الدراويش لمخاطبته المرأة بصيغة المذكر وعنجهيته المضحكة . وارتفع من بينهم صوت ساخر لدرويش كان يدخن فى جوزة وهو جالس على إحدى درجات « سبيل » مقابل للخان :
ـ أعطى رزقك لسيدك التركى ابن الأمراء يا بنت يا خضرة . . .
ثم أضاف مقلداً التركى : أعطى الفلوس لحظرة الشحاذ مهمندار الجناب العالى .
فصاحت المجذوبة وهى تدفع الدرويش التركى فى صدره مستنكرة :
ـ سيدى ! . . . سدالله فى وجهه أبواب الرزق . . . ابتعد ياخطاف ودعنى . . .
فصرخ التركى مستنكراً : أنت كافر . . . ابن كافر . . . ابن كلب أيضاً . . . أنا سيدك . . . وسيد كل فلاحين . . . مفهوم ؟ . . .
ثم بصق على الأرض فسقطت بصقته على قدم زميل له كان يتفرج على ما يدور أمامه فى صمت وقد مد ساقه أمامه فى تراخ .
وعندما سقطت البصقة فوق قدمه ، جذبها بسرعة كمن لدغ ، وصاح فى التركى غاضباً :
ـ أنت حمار رومى يا جاهين أغا . . . ما هذا النجس الذى يتساقط من فمك . . . دع المرأة وابتعد . . .
وقبل أن يرد التركى عليه كان إبراهيم قد نفذ إلى الخان ودار بعينيه فيما حوله وتخير مكاناً يتيح له مراقبة الطريق والتفرج على المارة ، ثم أقبل خادم الخان فطلب منه غداء من ولحم وثريد وبلح .
وحاول أن يستغرق بفكره فيما عليه أن يؤديه من أعمال خلال الأيام

المقبلة ، ولكن صياح المتشاجرين وتعليقات الدراويش والشحاذين حال دون ذلك . . . وهدأت المشاجرة بعد قليل ، وجاء الطعام فأقبل عليه فى غير شهوة ، وقد شرد فكره إلى بعيد . . . إلى رشيد .

وبينما هو على هذه الحال ، إذ صكت سمعه صيحة عالية من الخارج أعقبها صوت رجل يقول وهو ينطق الكلمات كالبله :

ـ ابتعد يابن الأبالسة . . . أتظننى خضرة ؟ ؟ . . . ابتعد وإلا قطعت يدك الطويلة . . .

وارتفع صوت آخر ولكنه جهورى يقول :

ـ دعه . . . دعه يأخذها . . . سأعطيك بدلها . . .

وما إن سمع إبراهيم ذلك الصوت حتى جمد فى مكانه وتوقفت يده بين صحفة الثريد وفمه ، ولم يلبث أن قفز من مكانه وهرول نحو الباب ، وشاهده خادم الخان فصاح فيه وهو مشغول اليدين بصحاف أخرى : إلى أين يا أفندى . . . انتظر . . .

ولكن إبراهيم لم يلتفت إليه وبرز إلى الطريق ووقف على عتبة الخان وتلفت حوله . . . ووقع بصره على صاحب الصوت . . . كان رجلا طويلا أسمر ممتطياً صهوة جواد يتوسط الطريق ومن حوله جمع من الشحاذين والدراويش فى ثيابهم المرقعة يلتقطون ما يلقيه إليهم من دراهم . . . وصرخ إبراهيم فى فرح ودهشة :

ـ سلامة ! . . .

فرفع الرجل وجهه ورأى إبراهيم فهتف متعجباً بدوره :

ـ إبراهيم ! . . . أنت هنا ! . سبحان الله ! . . .

واندفع بجواده نحو إبراهيم وجمع الشحاذين يتبعه ويتعلق بساقيه . . . ثم ترجل سلامة تاركاً عنان جواده لخادم الفندق الذى كان قد أسرع خلف إبراهيم وقد خيل إليه أول الأمر أنه يحاول الفرار قبل أن يدفع

ما عليه ، والتقى الرجلان فى عناق حار طويل وكأنهما افترقا منذ زمن بعيد .

وجلس الاثنان متجاورين أمام المائدة . . . دعا إبراهيم سلامة إلى مشاركته الغداء ، فرحب سلامة قائلا :

— إننى ، والحق يقال ، أكاد أهضم أحشائى من الجوع . . .

ومد يده إلى الثريد وأخذ يأكل بنهم . . .

وراقبه إبراهيم وهو يأكل وخطر له خاطر أزعجه فسأله فى ارتياب وجل :

— لماذا جئت يا سلامة ؟

— جئتُ لما جئتَ له . . . رسالة إلى الزعيم عمر مكرم .

— هل من جديد ؟

فتوقف سلامة عن الأكل وقال بجد يشوبه قلق :

— لقد تحرجت الأمور واشتد الخطب ، وأضحى الموقف لا يحتمل المزيد من الإبطاء . . . وقد حملنى السيد حسن كريت رسالة أخرى إلى الزعيم عمر مكرم أستعجله فيها بذل المساعى لدى الوالى للإسراع فى إرسال الجيش لإنقاذ رشيد وقد وصلت منذ ساعة إلى دار السيد عمر فعلمت أنه ليس بها ، وأنه لن يعود قبل العصر ، فجئت إلى هنا للتبرك بمقام الحسين إلى أن أتمكن من لقائه . . .

وصمت سلامة ، فضاق إبراهيم بصمته ، فقال وقد نفد صبره :

— لم تحاول إخفاء الأمر عنى ؟ . . . ما الذى حدث ؟ . . .

فقال سلامة بصوت عميق خافت : لقد اكتسح الإنجليز الحماد وكوم الأفراح وأبو مندور وقد تركت رشيد مساء أمس الأول وقد حوصرت من كل جانب ، ونيران مدافعهم تطلق عليها بلا انقطاع . . .

فصاح إبراهيم بدهشة : سقطتْ الحماد و . . . ومراد باشا ؟ . . . والمجاهدون . . .

فأطرق العملاق برأسه فى صمت حزين ، فقبض إبراهيم على ذراعه

فى جزع وقال بصوت يضطرب بالقلق :

ــ تكلم يا سلامة . . . ماذا حدث ؟ هل . . . ؟

فأجاب سلامة دون أن يرفع وجهه :

ــ نعم ... استشهد معظمهم ... مراد باشا و ... محسن ، وكثيرون ...

وأدار النبأ رأس إبراهيم ، وبعد لحظات أفاق من ذهوله فقال بصوت أجش يفيض بالمقت : الويل للقراصنة . . . سوف يذوقون على أيدينا أبشع ألوان الانتقام .

ــ متى ؟ . . .

فنظر إبراهيم إلى سلامة بعينين تتألقان بالثقة فى المستقبل : قريباً ... قريباً جداً يا سلامة . . .

ــ كيف ؟

ــ لدينا أربعة آلاف رجل ، وهم مسلحون بدرجات متفاوته . . . وجميعهم على استعداد للسير إلى رشيد ليلقوا بالقراصنة إلى أعماق البحر ...

فصاح سلامة باغتباط : أربعة آلاف ؟ ! ! هذا شىء لا يصدق ! إننا نستطيع بهذا العدد أن نحارب الإنجليز وجيش آل عثمان معاً . . .

ــ وسوف ننتهى من تدريب جميع الرجال فى خلال يومين ، وعندئذ . . . الويل للإنجليز . . .

ــ تنتهى من تدريبهم ؟ . . . متطوعون إذن ؟

ــ نعم .

ــ مرحى . . لدينا أيضاً جيش الوالى . . .

فقاطعه إبراهيم متضجراً : الوالى ؟ . . . إن مصر لن يحميها سوى أبنائها ، إن محمد على لا يريد أن يتحرك للقتال إلا بأجر ، وحتى لو تقاضاه ، فلن نثق فى اهتمامه بما يحدث فى الشمال . . . إنه كما علمت مخادع لا يعتمد عليه . . .

فقال سلامة بدهشة : ماذا تقول يا إبراهيم ؟

فابتسم هذا بمرارة وقال : الحقيقة المرة ... لقد حاول هذا الرجل أن يموه على الشعب ويوهمه بأنه يهتم بالدفاع عنه ، فأرسل بضع مئات من الجند بقيادة المدعو حسن باشا ، فعبروا النيل إلى الضفة الغربية زاعمين أنهم مسافرون إلى الإسكندرية للحرب ، ولكن.. أتدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟

وقبل أن يقول سلامة شيئاً ، استطرد إبراهيم قائلا :

— لقد عسكروا فى إمبابة حيث يقضون وقتهم فى نهب الأهالى بالنهار كعادتهم واللهو والشراب بالليل . . . وكلما جن الليل عاد قائدهم حسن باشا خفية إلى القاهرة ليبيت فى داره بين أحضان حظاياه ، ثم يذهب فى الصباح إلى الضفة الغربية من جديد وهكذا . . . هذا ما فعله جيش محمد على يا سلامة . . . هل تنوى أن تحلم مرة أخرى بهذا النذل . . .

— تبا للأرنؤودى السمين . . .

— فلنرجئ أمره الآن ، علينا أن نتدبر الموقف بما لدينا من رجال وسلاح . . .

— حسن ، ومتى نسير ؟

— بعد ثلاثة أيام على الأكثر . سنقسم الرجال إلى فرقتين . . . ونقسم كل فرقة إلى جماعات صغيرة ... وسوف تقود أنت إحدى الفرقتين وأقود أنا الأخرى . . .

ومضى إبراهيم يسرد له الخطة التى وضعها لهجومه على الإنجليز ثم أخبره أنه سوف يصحبه إلى دار الزعيم عقب صلاة العصر لإبلاغ الرسالة وإقناع الزعيم بإسناد قيادة الفرقة الأخرى التى ستتجه إلى شمال رشيد إليه . فتهلل وجه سلامة ، وانكب على الطعام يلتهمه من جديد وهو يقول :

— هذا ما أتوق إليه منذ زمن بعيد .

الفصل الخامس عشر

نظر الديدبان الإنجليزى بطرفى عينيه متعجباً إلى زميله الواقف على الجانب الآخر من باب القاعة الكبرى بدار القنصلية الفرنسية بالإسكندرية بعد أن اتخذها الجنرال فريزر مقراً للقيادة العامة للحملة . . . لم يكن الديدبان قد سمع خلال خدمته الطويلة فى البحرية البريطانية قائداً يثور على معاونيه وأركان حربه بذلك القدر الذى بدا من الجنرال فريزر الذى لم يكف عن الصراخ بصوت غاضب مرتعد منذ أن دخل عليه الجنرال ستيوارت فى ثيابه العسكرية الممزقة . . .

كان القائد العام يبدو كثور هيجته رؤية شىء أحمر ، وقد اكتسى وجهه بحنق قرمزى وأخذت عضلات وجنتيه تتحرك مع كل لفظ ينطق به فبدا وجهه وقد تدلى منه أنفه الضخم المقوس كمنقار الحدأة شيئاً يثير السخرية والرثاء . . .

ضرب الجنرال فريزر المائدة الكبيرة بقبضته وهو يخاطب الرجل ذا السترة الممزقة الذى كان يقف أمامه وقد تقوست كتفاه فى ذلة وانكسار : لقد أحسنت يا جنرال . . . أحسنت الهزيمة والفرار وأجدت تمريغ كرامة صاحبى الجلالة البريطانية فى أوحال مصر . . .

فقال ستيوارت بمرارة : ولكننى فعلت أقصى ما يمكن لقائد أن يفعله . . . لقد نفذت الخطه التى كنت قد عرضتها على سعادتكم ووافقتم عليها . . . وكان كل شىء يسير طبقاً للخطة الموضوعه على ما يرام حتى اللحظة الأخيرة ، فقد اتجهت بقواتى شمالا واحتللت السهول المحيطة برشيد من جهاتها الثلاث ، وانتظرت حتى تمكن الكولونيل من سحق قوات مراد بك وتشتيت بقاياها ثم احتل الحماد وقريتين تقعان فى المنطقة بين الحماد ورشيد وطهر المنطقة من جنود العدو . . . لم يبق أمامنا عندئذ

سوى أن نقتحم رشيد ونرفع فوقها العلم البريطانى ، وقد مهدنا لهجومنا على المدينة بوابل من قذائف مدافعنا لنرغم حاميتها التى يعضدها نحو ألف من الأهالى المسلحين على التسليم والخروج من وراء المتاريس ولكن مقاومة المدينة اشتدت رغم أننا دمرنا الجانب الأكبر منها بقذائفنا التى بلغ عدد ما أطلقته مدافعنا البعيدة المرمى وحدها عليها ثلثمائة قنبلة ، وقد استمرت مدفعيتنا تصب نيرانها على رشيد اثنى عشر يوماً بلا توقف ، ليلا ونهاراً والمدينة العنيدة لا تستسلم ، بل كان الأهالى رغم ذلك يخرجون من وراء المتاريس ومن جوف الخنادق أحياناً لشن بعض الهجمات التى كانوا يعودون بعدها إلى البلدة وقد خلفوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى من رجالنا . . .

وصمت الجنرال ستيوارت لحظة ثم استطرد قائلا بلهجة فيها رنين ساخر :

— إن رسالتكم الأخيرة التى أنبأتمونى فيها بقرب حضور المماليك جعلتنى أتريث فى الهجوم على رشيد ، ولم أر أن من الحكمة فى شىء أن أتعجل اقتحام المدينة . وإن أى قائد ذى عينين كان باستطاعته أن يرى بوضوح أن نجاح حملتنا معلق على حضور المماليك للاستعانة بهم على تطويق المدينة من جميع جهاتها ، فكنا عندئذ نبعث بقوة كبيرة إلى الضفة الشرقية لنسد على رشيد المنفذ الذى كانت تتسرب منه إلى المدينة الإمدادات والمؤن ونتصدى لذلك السيل الدافق الذى قدم من القاهرة . . .

فصاح فريزر بغضب شديد جعل عروق عنقه تنفر بتوتر ظاهر :
عن أى شىء تتحدث يا جنرال ؟ أى سيل دافق هذا الذى تحاول أن توحى إلى بضخامته وخطورته ؟ . . . أهذه الجماعات من لابسى ذلك الشىء . . . ا . . . الجلباب ، المتسلحون بالمدى والهراوات والبنادق الأثرية ؟ . . . يا للعار ؟ ! . . .

فقال الجنرال ستيوارت بهدوء : إننى كجندى ألتقى بلابسى الجلابيب هؤلاء فى تجربة مريرة لا أجد وصفاً لهجومهم علينا أصدق من

هذا . . . لقد تدفقت جموعهم من كل جانب غير مبالين بالقذائف أو الرصاص . . . لم يهابوا شيئاً مطلقاً . . . ولا الموت . . .

لقد باغتوا الحماد التي كان الكولونيل ماكلود ما زال مرابطاً فيها فانقضوا على قواته ونشروا بينهم الذعر فاضطروا إلى التراجع نحو رشيد حيث كنت أرابط خارجها ، ولكن فرسان المصريين أحاطوا بقلب القوة وكان يقوده ماكلود بنفسه فأبادوا معظم رجاله وخر ماكلود المسكين من فوق جواده صريعاً برصاصة استقرت في رأسه ، وأحاطت جماعة أخرى بالميمنة فقضت عليها وعلى قائدها كابتن ثرلتون ثم تعقبوا الميسرة التي لم تستطع المقاومة طويلا فاستسلمت مع قائدها الماجور وجلسند . . . وتدفق المصريون بعد ذلك نحو الشمال وقاموا بحركة التفاف واسعة طوقوا بها قواتي ، وحملوا علينا بفدائية لم أشهد لها مثيلا طوال حياتي . . . كان كل منهم يقاتل كعشرة من الشياطين ، وكانوا يطلقون صيحات رهيبة وكأنها صرخات زبانية الجحيم وهم يلقون بأجسادهم على المدافع ويتلقون قذائفها في صدورهم . . . وانقضت أربع ساعات كان جنودي خلالها يتساقطون على الأرض صرعى كأوراق الشجر في الخريف ... ولن أنسى ما دمت حياً منظر ذلك العملاق الأسمر المخيف ... لقد مزقت إحدى قذائف مدافعنا ساقه اليمنى ، ولكنه ظل رغم ذلك يضرب ويضرب ببندقيته ، ويصرخ في رجاله يستحثهم لتعقب جماعات جندنا المذعورة وكأن ما أصابه خدش تافه لا يؤبه له . . . إن الشيطان نفسه ليرتعد فرقاً من ذلك الرجل . . .

وصمت الجنرال ستيوارت ثم أدار عينيه في وجوه الجالسين ، وأخذ يتأمل وجه الأدميرال لويس ثم الجنرال فريزر ثم وجه كابتن بيرسي ذا الحاجبين الكثيفين وهو واقف خلف القائد العام جامداً لا يتحرك وقد علق عينيه بشيء لا يراه ولا يطرف عنه ، وأخيراً استقرت نظرة ستيوارت على وجه جنرال شريروك . . . ثم استرسل في روايته بصوت مرتجف

فقال : كان الموقف قد انقلب لصالح العدو ، لا سيما بعد أن فتحت رشيد أبوابها وانطلق منها الرجال نحونا وهم يطلقون نيرانهم ، فألقى معظم جنودنا سلاحهم واضطروا إلى التخلى عن مدافعهم للمصريين . . .

عندئذ وجدت أننا قد حوصرنا من كل جانب فآثرت الانسحاب ببقية الجيش نحو الإسكندرية ، ولكن جموع المصريين الكثيفة ظلت تطاردنا بإصرار واستطاعوا أن يصرعوا أثناء عملية الانسحاب عدداً كبيراً من الجند وأن يأسروا منهم المئات . . . فتوجهت إلى أبى قير حيث لذنا بقطع أسطولنا الراسية فى مياهها وعدنا بها إلى هنا . . .

فقال فريزر : كم رجلا فقدنا فى هذه العملية الفاشلة يا جنرال ؟

ـــ تسعمائة جندى تقريباً بين قتيل وأسير .

ـــ والأسلحة ؟

ـــ جميع المدافع والعربات ونحو ألف ومائتى بندقية .

فبدت الحيرة على وجه القائد العام وقال : لست أدرى كيف أعلل ما حدث فى تقريرى إلى لندن ... خسائر فادحة ، وهزيمة فى كل مرة ... اجلس يا جنرال . . .

فتهالك ستيوارت على مقعد مجاور لقائد الأسطول وران على القاعة صمت عميق قطعه فريزر فى النهاية قائلا بخفوت : لقد خدعنا هؤلاء المماليك الأوغاد . . . لقد بعثت إليهم لأذكرهم بوعد زعيمهم الألفى ، ولكن ها قد مضت الأيام ولم نر بارقة أمل واحدة فى معاونتهم لنا . . .

وللمرة الأولى فتح الجنرال شربروك فمه ليتكلم فقال وهو يعبث بأطراف أوراق كانت أمامه على المائدة : أرجو أن يسمح لى القائد العام أن أسجل ملاحظتى على حالة رجالنا . . . إنهم جميعاً فى حالة من الإعياء البدنى والنفسى لا تمكنهم من القتال فى معركة تنتهى بهزيمة العدو . . . ولهذا ، فإننى أرى أن نؤجل الدفع بهم إلى أية معركة أخرى بعض الوقت

حتى يستردوا روحهم المعنوية وثقتهم فى . . . قيادتهم .

ثم صوب الجنرال شريروك نظرة ذات مغزى نحو الجنرال ستيوارت الذى تظاهر بأنه غير معنى بكلماته . . . وهز فريزر رأسه وقال آسفاً : أخشى أن أقول يا جنرال شريروك إنه لن تكون هناك أية معركة أخرى ... لقد أخفقت الحملة ، فقد تضافرت عوامل كثيرة على إحباطها . . . نكث المماليك بوعدهم ، واستبسل المصريون بدرجة لم ندخلها فى حسباننا وقتل عدد كبير من خيرة ضباطنا ، ولدى نبأ مؤكد بأن محمد على قد استأسد بعد ما تحقق من انتصار المصريين علينا فأعد جيشاً كبيراً يحتمل أن يكون قد تحرك من مرفأ القاهرة فجر اليوم فى طريقه إلى هنا . . . إن الموقف أسوأ مما يمكن تصوره أيها السادة ويبدو أنه لا مفر أمامنا سوى أن نعرض الصلح . . . وتبادل الجميع نظرات سريعة فيها مزيج من الدهشة السافرة والغبطة الخفية ، ولكن رجلا واحداً لم يشارك الجمع غبطتهم الخفية . . . هو فريزر نفسه ، فقد كان يعلم أن اسمه سوف ينقش فى التاريخ مقروناً بالفشل الذريع . . .

وأدار القائد التعس رأسه نحو الضابط الواقف خلفه وقال من بين شفتين سرت فيهما رعشة لا تكاد ترى : كابتن برسى . . . بلغ سير. ولنجتن أن يعزز الحراسة حول الإسكندرية وأن يراقب جميع المسالك إليها . . . إننى لا أثق بكفاية الخضم المحيط بالإسكندرية فى إعاقة تقدم جيش محمد على إذا بدا له أن يقتحم المدينة علينا. ثم التفت إلى الجنرال شريروك وقال : وأنت يا شريروك، لقد وقع عليك اختيارى لحمل رسالتى التى أعرض فيها الصلح وتسلم المدينة لمحمد على . . . خذ معك بعض ضباطك فى زورق واعبروا المخاضة وجدوا فى ركوبكم للالتقاء بالوالى فى أبعد نقطة ممكنة عن الإسكندرية اليوم . . . لن تكون مهمتك شاقة ، فكل ما أطلبه منه هو أن نتبادل الأسرى والجرحى قبل الرحيل . . .

الفصل السادس عشر

سيطرت فرحة شاملة على الميناء الذى كان قد اكتظ بجموع الشعب منذ الصباح الباكر وازدحمت أركانه بالأعلام والبيارق والزينات الكثيفة ، وبدا الناس فى ثيابهم الملونة المتباينة وكأنهم فى يوم عيد نادر ، وانبعثت من هنا وهناك نغمات المزامير ودقات الطبول المختلطة بزغاريد النساء الواقفات على المشارف المرتفعة وطنين الحديث والتعليقات المرحة التى تعالت من كل مكان ومن كل فم ، فمن قائل : سبحان الله يا أخى ... قادر على كل شىء . . . لقد خلق الإنجليز بوجوه حمراء فى لون الخجل الشىء الذى لا يشعرون به . . . انظر إلى ضباطهم الواقفين هنالك عند سلم السفينة . . . إنهم ينظرون إلى الناس باسمين وكأننا قد جئنا لتحيتهم ولننثر فوقهم الورود والرياحين . . . ألا إنهم قوم لا يستحون.

فيرد عليه رجل كان يقف بجواره قائلا : إننى لا أشاركك هذا الرأى ، فلابد أن فيهم من يعرف الخجل ، ولكن الشىء الذى لا أعرفه هو اللون الذى تصطبغ به وجوههم عندما يخجلون . . .

ــ لن يكون الأحمر على كل حال . . .

فقهقه ثالث وقال : اللون الأصفر يا معلم .

ــ ولم ترجح أنه الأصفر بالذات ؟

فقال الثالث وهو لا يزال يضحك : إننى لا أرجح شيئاً على شىء يا صاحبى ، إنه لون وجه قائدهم الواقف أمام الحرس فى ثيابه المزركشة وكأنه ببغاء قرعاء . . .

– حقاً ! ما أخف ظله وهو ممتقع هكذا ! . . . إنه يبدو لى كمالك الحزين . . .

وتعالت الضحكات النابعة من القلب تجلجل فى سماء الميناء وتمتزج بنغمات المزامير وزغاريد النساء . . . وفجأة ارتفعت صيحات التكبير والتهليل فى زئير أخذ يقترب على أفواه كتل الشعب المتراصة فتحولت الأبصار نحو باب الميناء وتبعت القلوب العيون ، وارتفعت آلاف الأذرع ملوحة فى فرحة وثقبت الزغاريد الطويلة الدائبة الآذان بلا توقف وكأنها تصدر من حناجر لا تخضع صاحباتها لضرورة التنفس ، وانتابت المزامير والطبول حمى مبهجة فارتفع الزمر والنقر فى نزق وأمعنت الأنغام فى الارتفاع والتلوى نشوانة بفرحة الجلاء . . .

واقترب الموكب المرتقب فى اللحظة التى انطلقت فيها مدافع الإسكندرية وأبراجها تعلن ساعة الخلاص . . . وتقدم مئات الجند من الأتراك بحرابهم المفضضة فانتشروا على جانبى الطريق إلى السفينة ، وبدا الوالى ذو اللحية المستديرة والعمامة الضخمة وهو يسير متبختراً منتفخ الأوداج منتفشاً كديك رومى سمين ، وإلى جواره كان الجنرال فريزر يسير فى ثيابه المزركشة وقبعته المريشة وفى عينيه نظرة زائغة . . . ومن خلف الرجلين ، كان جمع من زعماء المصريين وعلمائهم يتقدمون بهيئتهم الجليلة وهم يردون ببسماتهم الوقورة الواثقة على تحية الشعب لهم وبدا بعض الضباط الأتراك وهم يتبعون الجمع فى خيلاء وحماقة وكأنهم أصحاب ذلك اليوم ، وثلاثة من قواد الإنجليز يسيرون بخطوات قصيرة متلاحقة وعيونهم تنظر إلى الناس فى حذر . . .

وبعيداً عن الجموع الكثيفة المتدافعة للوصول إلى الصفوف الأمامية للتمتع برؤية موكب الجلاء عن قرب ، وقف جمع صغير من الناس ينظرون إلى الإنجليز بتشفى وشماتة ، وقد توسطه شيخان ضاعفت

الأحداث من تجاعيد وجهيهما المؤمنين . . . كانا رجلا يستند إلى عصا وامرأة فى ثياب سوداء ، ومن حولهما وقف ثلاثة رجال ينظرون . . . رجل نحيف طويل يرتدى جبة سوداء وعمامة خضراء وشاب حاد النظرات ممتلئ بالرجولة وعملاق أسمر وخط الشيب شعر فوديه . . . ساقه اليمنى من الخشب . . .

والتفت الشاب ذو النظرات الحادة إلى العملاق ذى الساق الخشبية وقال بصوت مرتفع وهو يشير إلى سفن الإنجليز : انظر يا سلامة ، لقد أخذت آخر سفنهم فى الابتعاد . . . لقد ذهب الإنجليز . . .

ومال طاهر بك على أذن زوجته التى كان الدمع يترقرق فى مآقيها وقال :

— هل ترين السفن وهى تبتعد يا أم إبراهيم . . . انظرى إلى هذه الفرحة وأنصتى إلى الزغاريد . . . لقد تحرر الوطن من الإنجليز ، لقد صنع ولدك محسن هذا اليوم مع إخوانه الشهداء الأبرار . . . لقد استشهد من أجل هذه اللحظة المقدسة ... فى سبيل الله، والوطن ... والحرية ...

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

اقرأ

عروسة على الرف

صوفى عبد الله

دار المعارف بمصر

عروسة على الرّف

صوفي عبد الله

عروسة على الرّف

اقرأ ٢٨٤
دار المعارف بمصر

قرا ٢٨٤ – أغسطس سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

عروسة على الرف

ارتفع الهتاف وامتلأ الشارع الكبير برجال يحملون الأعلام والطبول والدفوف ينشدون الأغاني والأهازيج على نغمات الطبل والدف . . . ومن حولهم تجمع الأولاد والبنات الصغار يصيحون ويهللون . . وتعالت الزغاريد من النوافذ ، وخرجت النسوة على عتبات دورهن يمتعن العيون بالموكب الضخم وهو يقطع الميدان فى طريقه إلى الساحة . إنها الليلة الكبيرة ، ليلة المولد .

وجرت الطفلة هانم تتسلق إفريز الحجرة الصغيرة المعتمة وتتعلق بقضبان النافذة الوحيدة فى الحجرة ، وتتطلع بعينين مبهورتين إلى آلاف الأرجل تمر بها فتثير غباراً يملأ الجو ويدخل فى عينيها ، فتدمع وتعطس ولكنه لا يثنيها عن التحديق إلى أيدى الصغار الذين يمرون بها . البنات يحتضن العرائس الزاهية . والصبية يتأبطون الأحصنة المزركشة والفرحة تملأ وجوههم وعيونهم وهم يجرون خلف الموكب فى ثياب جديدة متعددة الألوان .

ولم تتحرك هانم من مكانها ، ولم تمسح الدموع التى ترقرقت فى عينيها من أثر الغبار ، وظلت يداها الصغيرتان تقبضان بتوتر على القضبان وعيناها تتابعان الموكب وصدرها يعلو ويهبط . وجسمها يرتجف من أثر الانفعال . .

وبكى مصطفى ، ودخلت حسنية تتأبط عروسة المولد وتصرخ بصوتها « المسرسع » الصغير تنادى هانم ، وهانم لا ترد ، كانت هناك فى آخر الشارع أمام دكان عم متبولى بأرففه « المرصوصة » بالعرائس والأحصنة تتفقدها واحدة واحدة بذهنها عن بعد ، وتتمنى لو كانت لها هذه العروس الكبيرة ذات الثوب الأحمر والتاج المزركش بالأخضر والأصفر الذى يشبه

المروحة . . المروحة التى رأتها فى يد الست الكبيرة حينما أخذتها أمها عندها يوماً ، وضمتها السيدة إلى حضنها . وأعطتها عشرة قروش ، وتركتها تمسك المروحة الزاهية الألوان ، وألبستها فستاناً جديداً .

وصرخت حسنية :

ـ بنت يا هانم ، أين أنت ؟ ألا تسمعين صوت مصطفى وهو يبكى ؟

وقفزت هانم من فوق الإفريز ، ونزلت تجرى حيث يرقد مصطفى على الأرض . ولكنها اصطدمت بحسنية ، وخطفت عينها العروسة فى يدها ، فوقفت مبهورة « تبحلق » فيها دون أن تتكلم . . .

وابتسمت حسنية فى زهو . وهى تنقل بصرها بين هانم والعروسة ، وتتأرجح فى وقفتها يميناً ويساراً كأنها تهدهدها ، ثم قالت لهانم :

ـ أين عروستك ؟

ومدت هانم يدها الصغيرة تتحسس التاج الذى يطوق رأس العروسة ، وانزلقت أناملها إلى وجه العروسة وملابسها تتحسسها برفق ، وسرت رعدة فى جسمها ، وارتفع صوت حسنية « المسرسع » .

ـ ألم يحضر لك والدك عروسة ؟

وأجابت هانم كالحالمة :

ـ ماما ستحضر لى عروسة معها ، وستحضر أيضاً حصاناً لمصطفى .

وارتفع صوت مصطفى بالبكاء ، فجرت إليه هانم ، وأخذت تبحث عن الحلمة البلاستك لتضعها فى فمه ، ولكنه لم يسكت ، ظل يصرخ ، فتربعت على الأرض وأخذته فى حجرها وجعلت تهدهده . . وجلست حسنية أمامها ووضعت عروستها فى حجرها ، وسألتها :

ـ لماذا لم يحضر لك والدك عروسة ؟ بابا أخذنى معه فى الصباح وأحضر لى هذه العروسة .

وأجابتها هانم دون أن تحول نظرها عن العروسة :

٧

— بابا لن يحضر ، تشاجرت معه ماما أمس وتركنا ومضى ، سمعته يقول إنه تزوج ولن يأتى ليرانا أبداً . . . وماما قالت لى أنها ستحضر لى عروسة إذا لم أترك مصطفى يبكى .

— ومتى ستأتى والدتك؟

— ستأتى الآن . .

وأشارت بيدها الصغيرة إلى رف فى ركن الحجرة عليه مصباح . ويدها الأخرى تهدهد بها مصطفى وقالت :

— سأضع عروستى هناك على هذا الرف ، وماما ستعلق المصباح فى مسمار حتى لا يكسره مصطفى ، وعروستى هناك سيراها كل من يدخل الحجرة ، أما حصان مصطفى فسأضعه فوق الدولاب . .

كانت حسنية تتابعها بعينيها وعروستها فى حضنها ، ونظرت هانم إلى الدولاب الخشبى الصغير المركون على الحائط .

كلا لن تضع الحصان فوق هذا الدولاب القديم ، لقد كسرت رجله منذ أيام وسقط كل ما فوقه ، وأمها استمرت فترة طويلة فى إصلاحه ، ونقلته من موضعه فى الوسط إلى الركن ، وأسندت رجله بقطع خشبية وحذرتها من الاقتراب منه لئلا يقع فوقها وتموت . . . وأكدت عليها أن لا تجعل مصطفى يقترب منه وهو يحبو على الأرض ، وإلا وقع عليه وهشمه . . . كيف إذن تضع فوقه الحصان ؟ سيقع الدولاب ويتهشم الحصان ، يجب أن تبحث عن مكان آخر للحصان .

وحولت عينيها نحو الرف : إن الرف لن يسع سوى عروستها ، فعروستها كبيرة ، وفستانها « منفوش » وزاه ، ولا يمكن أن تضع بجانبها الحصان . . وراحت تبحث بعينيها فى كل ركن فى الحجرة : أين يا هانم أين ؟ !

وصاحت حسنية :

٨

ـ بابا أحضر لنا حلوى أيضاً .

وأخرجت من جيب فستانها قطعة حلوى سمسمية ، كسرتها إلى قطعتين أعطت هانم قطعة وأخذت هي الأخرى ، وصرخ مصطفى يريد أن ينتزع القطعة من يد هانم ، فوضعت طرفها فى فمه فقبض عليها بشفتيه وراح يمتصها فى نهم ، وهانم مشغولة عنه بالتنقيب بعينيها عن مكان يصلح لحصانه الذى ستحضره أمها معها بعد قليل .

إن مصطفى شيطان ، لا يدع شيئاً فى مكانه ، كل ما تقبض عليه يده يحطمه ... لن تدعه يحطم الحصان ، فلن تستطيع أمها أن تشترى له حصاناً آخر . إن أمها مسكينة ، تعمل طول اليوم فى المنازل ، وفى آخر النهار تشترى بالنقود القليلة التى تكسبها ما يأكلونه . . إنها زعلانة من والدها لأنه لم يعد يعطيها نقوداً كما كان يفعل وهو معهم . . أخذته منهم المرأة الثانية .. ترى ما شكلها ؟ !

كان والدها يجلسها على ركبتيه ويهدهدها . . وكان يشترى لها الحلوى . يأخذها من يدها إلى دكان عم متبولى وتختار هى ما تريده . .

وتذكرت العروسة الكبيرة التى اشتراها لها فى العام الماضى . لم تستطع أن تحملها فحملها عنها والدها ، وحملها هى على الكتف الآخر . . . وظلت تضحك طوال الطريق وتحتضن العروسة ، ونامت وهى فى حضنها ، وفى الصباح لم تجدها بجانبها ، وجدت أمها وضعتها هناك على الرف ، ولما بكت لتعطيها إياها ، وجدتها مكسورة ، وقالت لها أمها : إنها نامت عليها فكسرت رقبتها وذراعيها ، وبكت ، وولولت ، ووعدها أبوها أن يشترى لها غيرها ، ولكنه لم يشتر لها أخرى كما قال ، وكل يوم كانت تنظر إليها وتبكى دون أن تلمسها خوفاً على رأسها أن يتحطم ، ولكن أمها أقنعتها يوماً أن تأكل منها لأن النمل سيأكلها ، واضطرت أن تأكل — وهى متضررة — كل يوم قطعة . . لم يكن مصطفى موجوداً . . لم تكن أمها قد ولدته بعد ..

ونظرت إلى مصطفى فإذا قطعة الحلوى بين يديه يمتصها بلهفة ، فأجلسته على الأرض وقامت مع حسنية تتفقدان المكان الذى ستضع فيه عروستها الكبيرة ، وأمسكت بعروسة حسنية ووضعتها على الرف لتريها كيف يكون منظر عروستها هى :

— ولكن العروسة التى ستشتريها لى ماما أكبر من هذه .

فنظرت إليها حسنية بامتعاض وقالت : أكبر من هذه ؟ يا سلام ! هذه أكبر عروسة فى محل عم متبولى .

كلا ، إن حسنية تكذب . عم متبولى لديه عرائس أكبر كثيراً من عروستها هذه.

— سترين إذا كانت عروستى أكبر من عروستك أم لا . . .

وخطفت حسنية عروستها من فوق الرف ، وضمتها إلى صدرها وألقت نظرة ازدراء جانبية على هانم ، ثم هزت كتفيها ومشت خطوتين ووقفت والتفتت فى كبرياء من فوق كتفها وقالت : سنرى إن كانت عروستك أكبر من عروستى يا ست هانم . نادينى حينما تأتى والدتك .

وخرجت حسنية وأغلقت الباب من خلفها ، ووقفت هانم تنظر نحو الباب المغلق وهى تغمغم :

— نعم سنرى يا ست حسنية إذا كانت عروستك أكبر من عروستى .

وشهق مصطفى ، فالتفتت إليه ، فإذا وجهه كقطعة من الدم . وقد استلقى على ظهره وراح يرفس برجليه ويديه .

وذعرت هانم ، وجرت إليه وأجلسته فى حجرها وجعلت تهزه وهو يشهق شهقات متوالية ، واللعاب يتساقط من فمه .

ووضعته على الأرض ، وقامت تجرى نحو القلة ، وخضبت وجهه بالماء دون فائدة ، كان يزداد شهيقه ، وجحظت عيناه ... وصرخت وجرت نحو الباب ، وقبل أن تضع يدها عليه فتح وظهرت أمها على عتبته ، وما

إن رأتها على هذه الحالة حتى لطمت وجهها :

ـ ماذا حدث يا بنت ؟

والتفتت إلى الطفل فإذا به يرفس برجليه ، فألقت ما بيدها أرضاً ، وجرت نحو الصغير كالمجنونة تصرخ بها : ماذا فعلت به ؟.

وتبعتها هانم مرتاعة : أعطيته قطعة حلوى من حسنية .

ـ يا شيطانة . ألم أقل لك لا تعطيه شيئاً !

ومدت الأم يدها إلى حلق الصغير ، وأخرجت منه قطعة حلوى كبيرة ، فاسترد الطفل أنفاسه وراح يصرخ . فأعطته جرعة ماء ، وغسلت وجهه ويديه ، وأجلسته فى حجرها وألقمته ثديها ، ثم أخذت تؤنب هانم على إهمالها ، فلو لم يرسلها الله لمات الطفل فى يدها .

ووقفت هانم مذهولة تحدق فى أمها والدموع تترقرق فى عينيها الواسعتين لا تدرى بماذا تجيبها ، وقلبها يدق : وذهنها يتصارع .

أين العروسة ؟ ألم تحضر لها أمها العروسة كما وعدتها ؟

والتفتت خلفها ، فرأت العروسة ملقاة على الأرض ورأسها منفصل عن جسدها عروسة صغيرة صغيرة جداً . . أصغر كثيراً من عروسة حسنية . ورأسها منفصل عن جسدها ! !

وركعت هانم على الأرض أمام جسد العروسة الملقى ورأسها المنفصل ، وأمسكت بالرأس لتلصقه بالجسد ، فتحطم الجسد فى يدها إلى قطع صغيرة ! . . فشهقت شهقة مكتومة ، وانحدرت الدموع تجرى على خديها وتتساقط على قطع الحلوى . ومن خلفها سمعت صوت أمها :

ـ لا تبك ياهانم . سأشترى لك أخرى . .

ستشترى لها أخرى . لقد سمعت مثل هذا الكلام من قبل . . لن تشترى لها أخرى . ولن تضع عروسة على الرف . . وستشمت بها حسنية .

ووقعت يداها فى حجرها . . وانفجرت باكية .

صباحية مباركة

انزوت فى ركن من الحجرة قصى ، ويدها على خدها ، وقد جفت دموعها واستولت عليها دهشة أغرقتها فى طوفان من التفكير .

ماذا حدث ؟ هل بطل سحر التعويذة التى كانت تستخدمها كلما أرادت شيئاً ؟ كيف إذن تواجه أيامها ؟ . .

وتحسست ذراعها ومعصمها وراحة يدها ... وتملكها شعور بالزهو ، وسرحت بخاطرها تستعرض أيام العز التى مرت بها مرور البرق .. وفجأة اقشعر بدنها وتداخلت فى نفسها وصوت بعيد يصك سمعها ، صوت أجش صاخب يأمرها :

— ستك يا بنت . بنت سيدك العمدة . إياك أسمع أنك أغضبتها . أذبحك ، أشرب من دمك . سامعة . .

وبكت . بكت بصوت حبيس ، وتعلقت بذيل أمها ترجوها ألا تدعها تذهب :

— فى عرضك يا امه ... أبوس يدك ... أبوس رجلك ... أشتغل هنا معك ، لا تتركينى يا امه ...

وزجر العمدة ، وانهال والدها عليها ضرباً ، على وجهها ورأسها وجسمها ... لم يدع مكاناً إلا وضربها فيه ! وبحذائه الكبير الضخم راح يرفسها فى بطنها ، ولم تستطع أمها أن تقترب منها ...

وألبسوها ملابس جديدة صنعتها لها سيدتها ابنة سيدها العمدة ، وسافرت معها إلى القاهرة ... إلى المدينة الكبيرة ... المدينة الواسعة ، وأجلسوها بجانب العربجى فى العربة الحنطور ... وأخذت تتطلع حولها بذهول . وهى ترى الترام لأول مرة ، والعربات والسيارات ... والأتوبيسات

والزيطة ... والهيصة . ودار رأسها مع عينيها إلى خلف وأمام ويمين وشمال .. وسيدتها يكاد يغشى عليها من الضحك ... ثم قضت ، يوماً ويومين تعامل برفق ، وكلما حضر زائرون لسيدتها نادت عليها :

ــ يا بنت يا خضرة . تعالى هنا كلمى سيدك الدكتور وستك حفيظة هانم .

وتحضر بين يديهم ، فيديرونها يميناً وشمالا ، كأنهم يرون عجباً!... ثم يتكلم كل منهم كلاماً لا تفهمه ، ولا تدرى مغزاه ، فحيناً يقولون إنها الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان ، وحيناً آخر يسمونها المسخ ويجعلونها تمشى أمامهم ثم يضحكون ضحكات عالية صاخبة !... ثم يناديها أحدهم قائلا :

ــ حياة أسيادك يا خضرة ! ...

لقد رأت القرداتى وهى ذاهبة إلى السوق ، وسمعته يقول للقرد حياة أسيادك . ورأت القرد يمشى على رجليه الخلفيتين ويرفع الأماميتين ، فهل هى كهذا القرد حقاً ؟! صحيح أنهم كانوا يعيرونها فى البلد دائماً بشكلها القبيح ويدللون أختها الحلوة البيضاء كلهطة القشدة ... أما هى فغالباً ما كانت أمها تكلفها بالأعمال الشاقة ، وأخوها يركلها ، ولا تجد من يحنو عليها ...

وتنظر خلسة إلى المرآة وهى تنظف حجرة نوم سيدتها ، فترى وجهها لا يختلف عن وجوه الآخرين . صحيح أنها سمراء اللون جداً ، محروقة ... وفمها واسع وشفتاها غليظتان . وبرغم أن عينيها منتفختان فإنهما واسعتان ، وشعرها ناعم ليس كشعر سيدتها الخشن ... لم تكن تعلم أن شعر سيدتها فظيع إلى هذه الدرجة ، إلا حينما غسلته وخرجت به من الحمام منفوشاً قصيراً ولكنها لم تلبث أن عادت به من الخارج جميلا ناعماً أملس !! أما هى فحينما تغسل شعرها يبدو ناعماً طويلا غزيراً ...

ـ يعطى الحلق للى بلا ودان ! .

هكذا كانت تقول لها سيدتها وهى تشدها من شعرها . وأخذتها عند الحلاق الذى قصه لها عن آخره . لكم بكت وهى تعصب لها رأسها بمنديل ولكن سيدتها لطمتها قائلة :

ـ شعرك قذر ، وأنت تحملين سيدك الصغير ! .

وتململت فى جلستها تتحسس يدها مرة ثانية ، وتذكرت ابن سيدتها نادر ، وهو يكبرها قليلا ، تذكرته حينما كان يلوى ذراعها خلفها ويضربها على ظهرها ضرباً مبرحاً ويأمرها أن تمشى على رجل واحدة ! ... ثم على يديها ! ويوم أخذوها إلى حديقة الحيوان قال لها أمام قفص القرود :

ـ سوف نتركك هنا ... سيضعونك فى قفص بجانب هذه القردة .

ونظرت إلى القردة الكبيرة الهائلة برعب ، وبكت ، وتوسلت لسيدها نادر أن لا يدعها بجانبها فهى مخيفة شنيعة المنظر ، فلكزها فى رأسها وهو يضحك ، ودفعها ناحية القفص وهو يقول :

ـ أبشعة هى ؟ انظرى كيف تخاف منك ! احمدى ربك إذا رضيت هى أن تعيش بجانبك ولم تحتج وتطلب تغيير وضعها ! ...

وقضت عاماً فى عذاب أليم ، مهما فعلت لترضيهم لا تجد سوى الشخط والضرب والإهانة ! ... وأثناء الليل كانت تفكر لماذا يعاملون الأسطى على الطباخ بطريقة غير التى يعاملونها بها ؟ أليس هو مثلها ؟.. إنه يؤدى ما تؤديه من أعمال : يكنس ويمسح ، ويغسل الأطباق ويعد المائدة ! ولكنهم يعاملونه باحترام ، لا يشتمونه ولا يضربونه مثلها ! ألأنه رجل وهى فتاة ؟! ربما ... إنها ليست طفلة فهى كسيدتها الصغيرة نادية وقد سمعت أبوها يقول عنها إنها عروس فى الخامسة عشرة ! ..

وانفرجت شفتاها الغليظتان عن ابتسامة باهتة ، وربتت على معصمها. كان ذلك اليوم يوم تحول فى حياتها تماماً .. يوم تركتها سيدتها مع

أم سيد الغسالة الجديدة لتنظيف البيت ، لأن الأسطى عبده الطباخ سافر إلى بلدته فى أجازة قصيرة . ووجدت نفسها — لأول مرة فى حياتها — تأمر أم سيد أن تنظف الغسيل ، وتدعك الجوارب جيداً . . وياقات القمصان ... ثم طلعت معها لتنشر الغسيل على السطح ، وتركت باب الشقة موارباً . ولكن الهواء اللعين ، لا تدرى لحسن حظها أو لسوء بختها خبط الباب وأغلقه ...

وارتعدت . وراحت تلطم خديها . ماذا تفعل ؟ .. ستأتى سيدتها وسيدها ويضربانها حتى يكسرا عظامها ... سيطرد سيدها العمدة والدها من خدمته ...

وهدأت أم سيد من روعها وقالت لها لا تخافى سأقول إننى أنا التى تسببت فيما حدث . ولكنها ظلت تبكى وتولول ... لأن أم سيد لا تعرف سيدتها فستكسر عنقها ، ستذبحها ، ستحرق أصابعها بالنار .

ونزلتا الى الجيران تسألانهم عن مفتاح لفتح الشقة ، ولكنهم اعتذروا ! ! وصعدت خضرة إلى السطح وأخذت تقيس بنظرها ارتفاع الحائط إذا قفزت منه إلى الشرفة . وضربتها أم سيد ودفعتها أمامها قائلة : إياك ، سيدق عنقك ، ستموتين ، هل جننت ؟ !

وانفلتت من بين يدى أم سيد ، وجرت إلى الناحية الأخرى . وقبل أن تلحق بها قفزت من فوق السور إلى الشرفة ! وصرخت أم سيد ، وأطلت عليها وهى تلطم خديها ، ولكنها نظرت إليها وابتسمت ، فلم تكن تشعر بشىء . وقامت وفتحت لها الباب ، فدخلت وهى تنظر إليها مبهوتة وتتحسسها ... وفجأة شعرت بآلام حادة فى يدها اليمنى ورجلها اليمنى أيضاً ولم تستطع رفعهما كأنهما كيسان من الرمل ! وارتمت على الأرض وراحت تصرخ وتشد شعرها ...

وفى هذه الأثناء حضرت سيدتها ، واندفعت أم سيد تحكى لها كل

ما حدث بالتفصيل ... يا للعجب ! لقد رأت وجه سيدتها يصفر كلون الليمون ، وبدلا من أن تضربها حملتها مع أم سيد إلى الأريكة التى لم تكن تجسر على الجلوس عليها ، وأرقدتاها فوقها . وطلبت من أم سيد أن تحضر لها زيتاً ساخناً وظلت تدلك لها معصمها ورجلها وهى تصرخ ، ثم لفتهما بقطعة من الصوف وسقتها زجاجة كوكا كولا ! وغطتها وتركتها لتنام ! . .

وحضر سيدها الكبير ، وسيدها نادر ، ورأت الكل فى خدمتها ! ...

استريحى يا خضرة : لا تقومى من الفراش يا خضرة ! حاولى أن تحركى يدك يا خضرة ! ... اقبضى أصابعك ، افتحيهما ... كلى ياخضرة ! اشربى يا خضرة ! .. سيدتها تحضر لها الطعام بنفسها وترجوها أن تأكل ! والأسطى عبده يخدمها ! .. وسيدها نادر يعطيها مجلة لتتسلى بالنظر إلى الصور ! ..

وتحسنت حالتها جداً بعد يومين بفضل العناية التى أحاطها بها الجميع ، ولكنها لم تحاول أن تمشى ، ولا حاولت أن تحرك يدها ، بل ظلت تصرخ كلما لمسها أحدهم ! .. ولماذا تفعل ؟ إنها كذلك سعيدة منعمة فلم تجد فى حياتها كلها مثل هذه الرعاية والحنان ! ولم تعد تسهر على راحة سيدها الصغير ، كما منعوه من الاقتراب منها . . .

ومر أسبوع . ورأت فى عيونهم القلق ، وسمعتهم يتناقشون فيما بينهم عن حالتها . وخوفهم أن يكون حدث بها كسر ، وإلا فكيف بعد كل هذه العناية ولبخ العدس بالبيض ، وبذر الكتان ، ولا تستطيع مجرد وضع رجلها على الأرض ؟! ...

وفى اليوم الثامن ، حضر الطبيب ، وكشف عليها ، وحرك رجلها ومعصمها وأمرها أن تقف . فوقفت ومشت خوفاً منه ، وأمرها أن تمسك الكوب بيدها فأمسكتها وهى ترتعد وقال لهم : ليس بها شىء ..

وبدأت سيدتها تكلفها بأعمال خفيفة ، وكانت تعرج برجلها وترخى يدها فتربت عليها وتقول لها : استريحى أنت يا خضرة ، لا تتعبى يدك ! .

واستمرأت الراحة ، وكانت تتحرك ببطء . وتئن كلما أرادت أن تهرب من عمل يكلفونها به ... وأصبحت ليدها المرتخية إلى جانبها سحر التعويذة الذى لا يقاوم ! ولكنها لم تهنأ طويلا بحياتها الرضية .

وذات يوم فوجئت بدخول سيدها العمدة بهيبته وهيلمانه ، وفى ركابه الولد سيد السايس العبيط ، وأم سيد بيديها الطويلتين المعروقتين وهى تقفز كالحدأة ... ونودى عليها فجاءت ترتجف بين يدى العمدة ، فربت عليها وسألها عن حالها . وقامت أم سيد وأمسكت بذراعها تفركه بين يديها ... ثم جذبت رجلها بعنف ، ورغم الألم الذى استشعرته لم تستطع أن تنبس بكلمة ، وصاحت فيها وهى تضربها على ظهرها :

— قومى يا بنت قومى . بنا على البلد ... أنت مثل الحصان ما بك شىء . . .

وبين يوم وليلة أعدوا لها ثيابها القديمة والجديدة ، وأعطاها سيدها خمسة وعشرين قرشاً ، وكذلك سيدتها ، وفى صباح اليوم الثانى شدوا الرحال إلى القرية ، وذهبوا من المحطة فوراً إلى بيت العمدة حيث كان فى انتظارهم المأذون ، ومعه أبوها وأمها . وكتبوا كتابها على الولد سيد السايس العبيط ، وتكفل العمدة بتوزيع الشربات وإقامة ولمية من الفت واللحم لأهل القرية ، وبعد الأكل اصطحبتها أم سيد هى وابنها وما تبقى من الفت واللحم إلى الحجرة التى يقطنانها ! ...

وفى الصباح ، أحست بلكزة فى جنبها ، ففتحت عينيها مذعورة فإذا أم سيد واقفة فوق رأسها ، ويداها المعروقتان فى وسطها تصيح بها :

— قومى يا بت فزى ، حتنامى للضحى وإلا إيه ! ناموسيتك كحلى ! .

واستوت جالسة ، تفتش عن سيد بجانبها ، فإذا به فى ركن بعيد

يتناول إفطاره وينظر إليها ببلاهة دون أن يقول شيئاً ! فأسعفها عقلها أن تلجأ إلى التعويذة ، فتحسست ذراعها وأرخيها بجانبها وراحت تئن كما كانت تفعل عند سيدتها بنت سيدها العمدة . وانتظرت من حولها الاهتمام واللهفة اللذين تعودتهما كلما قالت آه يا ذراعى ! . ولكنها لم تكد تتم حركتها حتى شعرت بيد حماتها المعروقة تجذبها من ذراعها المرتخية جذبة كادت تخلعه من جسمها وانهالت بقبضة يدها الأخرى لكماً على ظهرها ، وقذفت بها إلى الركن الآخر من الحجرة وهى تقول وعيناها تقدحان شرراً :

— لا تظنى أنك تستطيعين اللعب على مثل بنت العمدة ! .. قومى اكنسى الحجرة واغسلى الملابس . لقد انتهى عهد الدلع ! ...

ووضعت أمامها كسرة خبز وقطعة من الجبن القريش ، وجلست هى بجانب ابنها تأكل من الخيرات التى جلبتها معها من بيت العمدة لإفطار العروسين .

وأسندت رأسها على راحة يدها السليمة ، وراحت ترقب زوجها الأبله بطرف عينها . ثم نظرت إلى ذراعها نظرة غيظ وحسرة وعتاب ، وتصعبت أسفاً على التعويذة التى بطل سحرها . ومسحت بظهر يدها دمعة ساخنة طفرت من عينها . ومدت على مضض يداً متلكئة إلى قطعة الجبن القريش التى تحاكى الجير لوناً وملمساً .

وعندئذ صفعت سمعها زغرودة أطلقتها الجارة العجوز العوراء أم إسمعيل . فرفعت عينها لترى وجهها يسد الطاقة الوحيدة المطلة على الطريق بحيث حجبت ضوء الصباح ، وما إن التقت نظراتها الشاردة بعين أم إسمعيل الواحدة حتى هتفت بها قبل أن تستعد لإطلاق زغرودة أخرى :

— صباحية مباركة يا عروسة .

الليلة عيد

وقفت من بعيد تنظر إلى شباك الضريح والدموع تتساقط على وجنتيها . وقد قبضت بيدها الصغيرة على شمعتين كبيرتين ، وفمها لا يكف عن التمتمة بأدعية أغلب الظن أنها سمعتها عن والدتها أو جدتها دون أن تدرى معناها ... إنها عاجزة عن اختراق جماهير الناس التى يزدحم بهم الطريق وصحن الضريح ... فالليلة ليلة المولد الكبير ، مولد السيدة زينب . وقد قيل لها إن السيدة تستجيب لكل دعاء من الأعماق فى ليلتها هذه المباركة.

وراحت « زينب » الصغيرة — التى لم تتجاوز السابعة من عمرها — تبكى بحرقة ، وعيناها تخترقان الجموع فى نظرة يائسة :

كيف يمكن أن تصل إلى الضريح ؟! لابد أن توقد هاتين الشمعتين الليلة بأى شكل ... لابد أن تقدمهما لأم هاشم . .

وإذ هى فى حيرتها الباكية ، تقدم منها شيخ معمم ، ذو لحية بيضاء طويلة ، تبدو عليه المهابة وسألها فى رفق :

— لماذا تبكين يا صغيرتى ؟

ووقفت حائرة وقد تولاها الخوف ، وبكفها الصغيرة أخذت تمسح دموعها ، وتجفف عينها ، فخيل إليه أنها فقدت والدتها وسط الزحام فاقترب منها وربت على كتفها فى حنان وأدناها منه قائلا :

— قولى لى ماذا حدث ؟

ورفعت إليه عينين مخضلتين بالدموع ، ثم تهلل وجهها الطفلى ، لقد سمعت من جدتها أن بجانب الضريح شيوخاً يستطيعون أن يقوموا بكرامات كثيرة ، وهذا الشيخ الجليل ، تبدو عليه الطيبة ، ولربما استطاع أن يعيده إليها . . ووقفت تنظر إليه فى ضراعة ، ثم قالت على استحياء :

ـ لقد ذهب . . لن يعود مرة ثانية ... هل تستطيع أن تعيده إلى ؟

وبهت الشيخ لكلماتها ، ولم يلبث أن جلس القرفصاء وأخذها بين ذراعيه ، وسألها وهو يربت عليها :

ـ من هو الذى تريدين أن أعيده إليك ؟

فأسرعت تمسح دموعها والطمأنينة تزحف إلى نفسها ، وارتكزت بيدها الصغيرة على كتفه وهى تحدق فى عينيه بعينيها البريئتين ، وقالت :

ـ أبى .

ـ أبوك ؟ وأين ذهب أبوك ؟

وهزت كتفيها ببراءة الأطفال وقالت بيأس :

ـ لا أدرى .

ـ كيف أعيده إليك إذن وأنت لا تعرفين مكانه ؟

وعاودها اليأس ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وحاولت التخلص من بين ذراعيه وقد تملكها غضب شديد :

ـ كنت أعلم أن أحداً لن يستطيع إرجاعه إلى .

وتشبث بها الشيخ وصاح فى لهجة ودود :

ـ ومتى ذهب ؟

ـ منذ زمن طويل .

ـ ومن قال لك إنه لن يعود ؟

ـ سلمى . صديقتى .

ـ وهل تعرفه سلمى .

ـ كلا .

ـ إذن كيف عرفت أنه لن يعود ؟

ـ سلمى تعيش مع والدتها عند جدها . وأنا أعيش مع أمى عند جدتى مثلها تماماً .

ـ وأين ذهب والد سلمى ؟

ـ لا أدرى . ولا هى أيضاً تدرى . ولكنه أحضرها عند جدها وذهب ، وأمها سوف تذهب مع رجل آخر وتتركها عند جدها .

ـ وهل أمك ستذهب أيضاً مع رجل آخر وتتركك عند جدتك ؟

ـ لا أدرى . . .

ـ إذن لماذا تعتقدين أن والدك لن يعود مثل والد سلمى ؟

ـ سلمى قالت لى إنه ما دام قد تركنا نعيش مع جدتى فلن يعود بعد ذلك أبداً مثلما فعل والدها . .

ـ وهل أبوك غاضب من أمك ؟

وسكتت قليلا كأنما تسترجع الماضى ، ثم سرحت بعينيها الصافيتين وقالت :

ـ رأيتهما مرة يتشاجران .

ـ متى كان ذلك ؟

ـ قبل أن يتركنا ويرحل .

ـ وماذا قال لك عند ما تركك ؟

ـ قبلنى كثيراً ، وضمنى إلى صدره . وقال لى لا أدرى كيف سأعيش بدونك يا حبيبتى ...

وغلبها البكاء ، وعادت تستعطف الشيخ من بين دموعها :

ـ ألا تستطيع أنت أن تعيده إلى ؟ أرجوك ؟

ـ ألم يرسل لك خطابات ؟

ـ كلا . وكنت أعتقد أنه سيحضر الليلة كما قالت لى والدتى ، فالليلة عيد عند الناس كلها ... ولكن لم يحضر .

ـ وماذا جاء بك إلى هنا ؟

ـ لقد أرسلتنى أمى لأشترى حلاوة طحينية لعشائى .

ونظر إلى الشمعتين فى يدها وسألها :

— ومن أين لك هاتان الشمعتان ؟

— لم أشتر الحلاوة ، واشتريت بدلا منها شمعتين لأضعهما على ضريح السيدة جدتى قالت إن أم هاشم تستجيب الدعاء ، أحقاً تستطيع أن تعيد إلى والدى ؟

وأسقط فى يد الشيخ إذا قال لها نعم تستطيع فهو لا يدرى بالضبط سر اختفاء والدها ، ربما مات ويخفون عنها الخبر ، أو طلق والدتها ... وعاد يسألها :

— ما الذى جعلك تعتقدين أن والدك لن يعود ؟ هل قالت لك ماما ذلك ؟

— ماما لم تقل لى شيئاً .

— لماذا لا تسأليها ؟

— لأنها تكذب على . كلما سألتها قالت سوف يحضر قريباً ، ولكنه لم يحضر. وأمس سألتها : هل سيحضر بابا على المولد ؟ فقالت نعم ... ولكنه لم يحضر .

— من أدراك ؟ ربما تجدينه الآن فى البيت إذا عدت .

— لن أجده ... إنه لن يعود . سلمى قالت لى ذلك . .

— لا تصدقى سلمى . إنها كاذبة . سأعود معك إلى البيت لأعرف الحقيقة من ماما .

— لن تقول لك الحقيقة . إنها دائماً تخفيها ... تخفيها عن كل الناس.

— كلا. لن تخفيها عنى . هيا معى وسأحاول أن أجعل ماما تعود إلى بابا .

وأجابته بحزن :

— لن تستطيع . سلمى قالت لى إن الشيخ حاول أن يصلح بين

والديها ، ولكن أمها رفضت أن تعود ، ومنذ ذلك اليوم لم تر والدها أبداً ...

وقام الشيخ وأمسك بيد زينب وقال وهو يسير إلى جوارها :

ـ تعالى . سأحاول . ربما هداها الله .

وجذبته من يده إلى الضريح وقالت متوسلة :

ـ خذنى أولا إلى هناك لنضع الشمعتين . لتعيد هى إلى بابا .

* * *

وذهلت الأم الشابة وهى ترى الشيخ داخلا عليها ، وفى يده ابنتها ، واعتقدت أنها ضلت الطريق ، أو أن النقود وقعت منها ، أو ضلت فى زحام المولد . وقد بدأ القلق يراودها ، ولكنها لم تلبث أن رحبت بالشيخ وأدخلته إلى القاعة . وحضرت الجدة متسائلة :

ـ أين كنت يا زينب ؟ ماذا حدث ؟

ولم تجبها زينب ، بل لاذت بكتف الشيخ الذى جلس لا يدرى كيف يبدأ حديثه ، وعجبت الأم الشابة وسألتها :

ـ هل أضعت النقود يا زينب ، أم ضللت الطريق فى الزحام ؟

وأجابها الشيخ :

ـ كلا . لم تضيع النقود ، ولم تضل فى الزحام ، بل اشترت شمعتين أوقدتهما على ضريح السيدة .

وبهتت الأم وصاحت :

ـ شمعتان ؟! فيم إذن كان بكاؤك لشراء حلاوة طحينية لعشائك ! ذنبك على جنبك ، ستنامين دون عشاء .

وتنحنح الشيخ متسائلا :

ـ وأين السيد والدها ؟

ونظرت إليه الأم الشابة بدهشة ، ثم قالت :

ـ ليس هنا !

وتجرأ الشيخ وسألها :

— أين هو إذن ؟

— فى عمله .

— أين ؟

ولما لم تجب قال :

— وجدت ابنتك بجانب الضريح تبكى بحرقة كى تعيد أم هاشم إليها والدها الذى أخفيتم عنها مكانه ! ..

ومصمصت الجدة شفتيها ، وجذبت الأم ابنتها إلى صدرها وقالت وهى تقبلها :

— ألم أقل لك إنه سيعود قريباً . . .

وأزاحت زينب ذراعى أمها وعادت تلوذ بكنف الشيخ صارخة :

— كلا ، إنها دائماً تقول ذلك . وأبى لن يعود .

وقالت الأم مستدركة :

— إنه يعمل فى السد العالى منذ عام . وسيعود قريباً فى إجازة . وربما عاد الليلة . ولكنها لا تريد أن تفهم . ولا تريد أن تصدق . ولا أدرى من الذى أدخل فى روعها هذا الإحساس الغريب ، فهى لا تكف عن البكاء .

وصرخت زينب :

— ألم أقل لك ...

وسألها الشيخ :

— ألا يرسل لك خطابات ؟ ألا يرسل لها صوراً ؟ أريها لها حتى تصدق .

وبلعت الأم ريقها وسكتت . وطال الصمت لحظة لم يكن يسمع فيها إلا لغط سهرة المولد فى الليلة الكبيرة آتياً من بعيد . وانبرت الجدة تقول :

ـ منذ سافر لا تصلنا منه إلا حوالة بريد فى أول كل شهر ، ولا كلمة ، ولا حرف .

ورفع الشيخ حاجبيه الأشيبين قليلا وهو يربت بأصبعه تحت ذقن الطفلة التى لم تزل يدها على ركبته وهى تنقل عينيها بين وجوه المتحدثين .

ـ ألعله غاضب ؟

وأجابت الجدة :

ـ نعم غاضب... رفضت الذهاب معه .. وكم ألح عليها ، ونحن أيضاً كم ألححنا عليها . . . ولكنها أصرت أن تمكث هنا معنا حتى يعود . والرجل . يا ولداه . كادت عينه تخرج من وجهه لهفة على ابنته . والبنت هى الأخرى لم تفارق حضنه منذ وعت ليلة واحدة ، لا تنام إلا على ذراعه.. لم تجف لها دمعة منذ فارقها ...

وأومأت الأم بيدها فى ضيق ، فالتفتت الجدة إليها صائحة :

ـ أيعجبك منظر ابنتك ؟ ألن ترجعى عن صلابة رأسك حتى تصاب الطفلة بمكروه ؟ ألا ترين كيف أصبحت ؟

وقطب الشيخ قائلا :

ـ لقد قصت على قصة غريبة عن فتاة تدعى سلمى تؤكد لها أن أباها لن يعود وأنك ستتزوجين من رجل آخر وتتركينها عند جدتها كما فعلت أم سلمى . وأن كلّ ما يقال لها عن عودة والدها كذب فى كذب . . لهذا فزعت إلى أم هاشم تسألها النجدة وشهقاتها تكاد تخنقها.

ودقت الجدة على صدرها وقالت لابنتها :

ـ أرأيت ؟ أيعجبك هذا الحديث ؟ خذى ابنتك وقومى إلى زوجك وحيثما يكن فامكثى معه . . هداك الله . . .

وسكت الشيخ قليلا وهو يرقب التردد على وجه الأم الشابة ، ثم قال بصوت خافض ولكنه يفيض بالعتب :

٢٥

ـ أتريدين أن تخسري ابنتك بعد أن أصررت على خسران أبيها ؟ أهذا ما تريدين حقاً ؟

. . . .

وعندما خرج الشيخ تلك الليلة وفى يده عنوان والد زينب فى السد العالى ليرسل إليه برقية كى ينتظر أسرته الصغيرة فى الغد . قامت الأم تجمع ملابسها وملابس ابنتها . . وقدمت الجدة لزينب قطعة من البطاطة قائلة :

ـ كلى هذه يا زينب .

وأمسكت زينب بقطعة البطاطة ، وتكومت على الأريكة والنوم يداعب جفونها وقالت :

ـ سآكل نصفها ، والنصف الآخر سأحتفظ به لبابا ...

وقضمت قضمة واحدة ، وقبل أن تبتلعها دهمها النوم ، وعلى وجهها ابتسامة رضا . . .

وساد الصمت بين المرأتين وهما تجمعان الثياب من هنا وهناك . . وأصوات سهرة المولد فى الليلة الكبيرة تترامى إليهما من المدينة الساهرة عن بعد .

من أجل أمى

كل شىء فيه يذكرك بشجرة الدوم ذات الثمار الخشبية الصلبة التى تنبت فى الصعيد الأعلى وسط القفار المهملة ، ويجد الغلمان والبنات هناك لذة غير مفهومة لنا فى نحتها بأسنانهم البيضاء ، نحتاً فيه مشقة ، ليحصلوا على حلاوة يسيرة فى أفواههم . . ولكن حلاوة التحدى والانتصار تزيد من عذوبتها كثيراً ، وعيونهم العسلية القاتمة تتوهج من أثر المجهود . رأسه نفسه ثمرة دوم كبيرة ، ما أشق العثور فيها على العذوبة الكامنة تحت صلابتها وعنادها .. ولكن هذه العذوبة موجودة ، وقد تطالعك فجأة على غير انتظار ، وفمه الغليظ وأنفه المفلطح قليلا ما ينفرجان عن ابتسامة . ولكن هذه الابتسامة حين تشرق تسطع عليك كالشمس . إلا أن « عويس » الصغير لا يعرف كيف يتكلفها للمجاملة أو النفاق . . . فابن النوبة القادم منها إلى القاهرة حديثاً لم يتعلم هذا التمثيل المألوف فى حواضرنا الكبيرة . . . يقول ما فى رأسه بلا مبالاة . ولا تحوير ، ويفعل أيضاً ما يخطر بباله بلا تردد أو تفكير . إنه ابن الطبيعة العذراء الذى قضى سنوات عمره العشر ملتصقاً بأمه فى ظلال أبى سنبل ، كما يلتصق المهر الصغير بأمه ، لا يعرف من الحياة إلا إحساساتها البسيطة المباشرة ، والتعبير عنها بمثل تلك البساطة المستقيمة . ولا حرج بين المهر وأمه أن تركله أو يعضها لاهياً أو غاضباً أو متدللا : . . يمرح بين الجبل والنهر ، وشجرات النخيل المتناثرة ، وشجرات الدوم التى يغرم بثمارها غراماً لا مزيد عليه .

وفجأة وجد عويس نفسه محمولا فى قطار يطلق الدخان ويرمى بالشرر بين زحام من الناس لم يعهد له مثيلا فى حياته من قبل . حتى أبوه

الذى اصطحبه معه لم يكن يألفه كثيراً . فهذا الأب بواب فى القاهرة لبث لا يزور مسقط رأسه فى النوبة سبع سنين نسى فيها الصغير شكله ، وتعود فيها ألا يكون معهما — هو وأمه — ثالث . . . إلا عنزتهما الصغيرة التى تحلبها أمه لتقدم له اللبن مع الشاى به ثلاث مرات أو أربعاً فى كل يوم . . . فلما انشقت الأرض عن هذا الأب فجأة ذات صباح أنكره إنكاراً شديداً ، وأنكر معه إقبال أمه على هذا « الدخيل » ، واختصاصها إياه بخير ما تطهو من الاوبيا (التى يسمونها هناك الكشرنجيج) ، وصار هذا الدخيل يحظى بأكثر اللبن لشايه ، وللشاى الذى يقدم للرجال الآخرين من الجيران الذين يزورونه للترحيب بمقدمه . . . ولم يخفف من هذه الغصص كثيراً ما قالوه له من أن هذا الرجل أبوه... فالحياة كانت جميلة جداً وسائرة على خير حال بدون هذا الأب . فما لزوم الأب وفى الأم الكفاية ؟

وذات صباح أيضاً أخذه هذا الرجل معه ، فالقرية ستهاجر إلى النوبة الجديدة ، وعويس رجل ولا بد أن يعمل كما يعمل الرجال — هكذا قالت له أمه وقد خانته وحالفت ضده هذا الرجل الدخيل — فى القاهرة . . . أم الدنيا . . .

وظل يبكى طول الرحلة ، وأبوه يسرى عنه حيناً ، ويضيق بإصراره على العويل حيناً آخر فينهره ويلكزه ، ثم يشترى له عود قصب يمصه الصغير وهو يبلله بدموعه التى تنحدر من عينيه الواسعتين كأنهما عينا إله فرعونى من أجداده الغابرين .

وبهذه « الزفة » من العويل دخل عويس بيت تلك الأسرة فى القاهرة ليبدأ حياة الرجال ، خادماً تحت التمرين .

ويا له من تمرين . . . فثمرة الدوم صلبة لا تلين ، ولا بد من صبر وجهد طويلين شاقين إلى أن تجود بعذوبتها الكامنة فيها . والحق أن ثمرة

الدوم كانت فى هذه المرة شديدة العناد ، حتى خيل إلى من ينحتونها بأسنانهم أنها زلطة صاغتها الطبيعة على شكل دومة . . . وهموا بالتخلى عنها مراراً ، لولا أن والد عويس اختفى من القاهرة ليعمل فى الإسكندرية ولم يترك عنوانه . . . ومضت أربعة شهور لم يعد فيها ليرى ابنه أو يتقاضى أجره المتراكم . . . فلم تكن لهم حيلة فى استبقائه . . . وهو ينتهز كل فرصة ليتكوم فى الشرفة باكياً ينادى أمه . . . أو مقلباً ناظريه بحيرة فى نجوم الليل ، كأنه يفتش بينها عن النجوم التى كان يراها فى موطنه حين كان ينعم بجوار أمه . . .

وفجأة جادت الدومة العصية بعذوبتها . مرض ابن الأسرة الصغير ، فإذا عويس يتكوم إلى جوار فراشه لا يبارحه متسقطاً كل لفتة منه ليقضى له ما يطلبه . وجفت دموعه على فراق أمه . وانحلت عقدة لسانه ، وراح يسلى المريض ابن السنوات التسع بألعاب وأغان نوبية فى لهجته الساذجة التى تبعث الابتسام فى وجه المريض المهموم . . .

ومن هذا اليوم شعر عويس —بعد انقضاء أربعة أشهر— أنه جزء من هذا البيت ، ولم يعد يتحدث عن أمه ، وفتح حواسه لكل ما حوله فى الشارع ، وفى التليفزيون ، وفى صور المجلات يسأل عن كل شىء ، ويدركه إدراكاً بسيطاً يشيع الابتسام فى كل من حوله ، ويتركونه يتصور الأمور كما يحلو له ، أو كما يستطيع بتفكيره الساذج الذى لم تدخل الحضارة شيئاً من التعديل على فطرته الأولى . . . وبدأت تنهال عليه أمارات العطف من أفراد الأسرة والجيران ، ويجدون تسلية كبيرة فى الرد على أسئلته الكثيرة ، مستمتعين بنظرة العجب والفضول التى تطل من عينيه الكبيرتين الحالمتين ، ثم تعليقاته التى يمتزج فيها خيال الأمانى بالتصور الأسطورى.

ثم بدأ كل شىء يتخذ اتجاهاً جديداً عند ما طاف رجل ينادى بصوت منغوم : « ما يربى الملاح إلا الملاح . . . » وطار عقل عويس

عندما شاهد ما يبيعه الرجل من الكتاكيت ... فها هو ذا أخيراً شيء فى المدينة لا يختلف عما عهده فى مسقط رأسه . كل شيء هنا إذن يمكن أن يكون بخير إذا استطاع أن يربى سرباً من هذه المخلوقات الصغيرة الرقيقة التى تطلق صوصوتها بلا انقطاع .

وخلسة حمل « عويس » ما معه من نقود الهبات — وقلما كان يبقى منها للغد شيئاً ، فهو يشترى الحلوى والمياه الغازية بإسراف شديد — واشترى ستة كتاكيت وضعها فى صندوق من الورق المقوى وحملها إلى سطح البيت . . . ولم يفض بسره إلا إلى صديقه الصغير ابن الأسرة الذى صار بعد شفائه من مرضه يكتب له كل يوم خطاباً إلى « الست مدينة » أم عويس . وابن الأسرة الصغير تسلل خلسة ورأى الكتاكيت ثم نقل الخبر — خلسة أيضاً — إلى أمه . . . ولكن السيدة تجاهلت الأمر ، وتركته يتلهى بهذه الهواية الجديدة .

وبدأ عويس يقلع عن شراء المياه الغازية والحلوى . . . فلا بد من شراء قمح وبرغل للكتاكيت ، ولم يفته أن يشترى كل يوم بيضة يسلقها ويخلطها بالبرغل زيادة فى بره برعيته الصغيرة . . .

وفى نجوة من الأسماع كان عويس يحلم أحلام يقظته بصوت عال وهو يجالس صديقه الصغير . . . ولم يضحك الصديق الصغير بل اشترك معه فى الحلم الذهبى ، وصار يساعده بما يعرفه من العمليات الحسابية على تغذية أحلامه بالأرقام .

الكتاكيت ستغدو دجاجاً يبيعه عويس بمكسب كبير . فالدجاج أثمانه مرتفعة لحسن الحظ — حظ عويس طبعاً باعتباره منتجاً ! — ثم يشترى بطاً صغيراً . والبط لحسن الحظ غالى الثمن أيضاً ، ويبيعه عندما يكبر ليشترى عنزة تلد له ويبيع نتاجها ليشترى جملا .

نعم جمل ! ولم يتنازل عويس عن فكرة الجمل هذه ، وإن لم يهضمها

صديقه الحضرى ، لأن الجمل كان يحتل مكانة عالية من طفولة عويس وترتيبه لقيم الأشياء . . . ومن تربية الجمال يربح ويشترى سيارة رمسيس . فالسيارة الصغيرة كانت أهم شىء لفت نظره فى القاهرة . ولعل السر فى حجمها ، وعنده أنها أرخص سيارة يمكن شراؤها بثروته فى أقرب فرصة ممكنة .

– سيارة ؟ وماذا تصنع بها ؟ . . .

– اذهب بها إلى كوم أمبو وأحضر فيها أمى « مدينة » وأطوف بها القاهرة التى لم ترها فى حياتها .

وظل هذا الحلم يتكرر كل يوم بضع مرات مع تحوير قليل فى التفاصيل ، وإدخال تحسينات بقصد تقليل المدة . وبصعوبة شديدة اقتنع عويس أن ارتفاع أسعار اللحم من شأنه أن يجعل تربية البقر أهم وأربح من تربية الجمال . . . وعلى مضض وافق على هذا التعديل الجوهرى وأخذت « الخطة » صورتها النهائية ، وشرع صديقه يجرى الحسابات المطولة بطريقته الساذجة لمعرفة المدة اللازمة للوصول إلى السيارة « رمسيس » . . . ويبدو أن هذه « الحسبة » لم تكن شيئاً سهلا ، فقد اضطر لإعادتها أكثر من مرة ، وفى كل مرة يخرج بنتيجة مختلفة . . . وعويس جالس القرفصاء بجانبه يرقب حركاته وعبوسه ومجاهداته مع الأرقام ، تماماً مثلما كان جد من أجداده يرقب ساحر القرية وهو يتلو التعاويذ ويتصل بالجان . وفى عينى عويس الواسعتين غموض وتوسل ورهبة وأمل . . .

وضايق الفشل المتكرر المحاسب الصغير فأسقط سخطه على عويس :

– قم من جانبى ولا تحدق فى هكذا . . . حملقتك تجعل الأرقام تروغ منى . . . اذهب واصنع شيئاً مفيداً .

وباستكانة تسلل عويس ليصنع « أفيد » شىء يمكن أن يشغل به

وقته : صعد إلى السطح ليتفقد رعيته الصغيرة . . . ومعه وعاء ماء وطعام... ولكنه عاد بعد دقيقتين اثنتين وعلى وجهه كل علامات الذعر . . .

— « الساب » . . . « الساب » أكلت الكتاكيت .

وبمشقة استطاع أن يفهم ما يعنى بعد أن كرر عويس كلمة « الساب » عشرين مرة وكأنه لا يجد شيئاً غيرها يقوله . ولما أعيته الحيلة جعل يموء بفمه ، فأدرك صاحبه أنه يعنى « القطة » . . . فهم حيث ولد عويس يسمونها « الساب » .

ولم يبك عويس . تحولت الفجيعة عنده إلى نار تتبخر فى وهجها الدموع . غدا رجلا من الجنوب . الفجيعة عنده لا تعنى البكاء . بل تعنى الثأر . . .

تحول تفكيره إلى الثأر من « الساب » . . . التى رآها تجرى وفى فمها كتكوت ، وتركت الأخرى مجندلة . إنه لن ينسى شكلها الأبيض المرقط بالسواد . قطة كبيرة شريرة . هكذا ظل يكرر أوصافها وهو يتلفت كالمجنون ، واشترى « نبلة » قوية بعشرة قروش ، وأعد ذخيرة من الزلط ، ولكن القطة لم تظهر ، كأنما ألهمها شىء أن خطراً يترصدها هنا .

ولماذا هذه القطة بالذات ؟ هكذا سأل عويس نفسه ، وشرع بعدها يصب جام انتقامه على أى قطة يقع عليها بصره. وذات مرة ذهب إلى السوق ليشترى خبزاً — والأسرة تنتظره لتتغدى — فغاب ساعة كاملة وعاد ممزق الثياب ، لا لشىء إلا لأنه لمح قطة ، فوضع سلة الخبز على الأرض وجرى بالطوب وراء القطة من شارع إلى شارع ، ولما عاد وجد غلاماً « ابن حلال » يجرى بسلة الخبز فطارده وصب عليه غيظه الذى فاته أن يصبه على القطة . . . وخرج من المعركة بعين متورمة وجلباب ممزق . . . ومع هذا لم يتعلم عويس ألا يجرى وراء القطط تاركاً سلته ، فمنظر أى قطة كفيل أن ينسيه كل حذر ، حتى صارت لوثة القطط حديث الشارع

كله ، ومثار نكات لاذعة كان يقابلها بالعض على شفتيه فى صمت وإصرار ...

وذات يوم تهلل وجه عويس كأنما كتاكيته بعثت إلى الحياة من جديد . فقد لاح له انتقامه الكامل دانى القطوف . . .

القطة إياها رآها تتسلل فى تثاقل إلى السطح . . . وبالخفة التى يتعلمها أبناء الجبل فى تعقب الحيوان بلا صوت ، تسلل هو أيضاً بعد أن خلع حذاءه وارتد إلى طباع الفطرة . ورآها تدخل . . . أين ؟ . . . فى ذلك الصندوق نفسه الذى افترست فيه كتاكيته ! .

الفاجرة ! . . لقد اتخذت من بيت ضحاياها سكناً لها . . . وكمن يتسمع . . . فانتهى إليه مواء طويل كأن بها مغصاً حادا . وبخفة الذئب تلصص من وراء كومة قش وأدرك أنها تلد . . .

المجرمة ! فى ساعة ضعفها هذه سيعرف كيف يقضى عليها . . . وتلفت حوله فى السطح ، ثم بخفة الذئب نزل إلى الطريق . . . وراح يجول وهو يتلفت بعناية كمن يبحث عن شىء معين . . . إلى أن رأى فى رحبة معدة للبناء قطعة من الدبش ثقيلة . لعلها أثقل من عويس نفسه . ولكن النار التى تستعر فى داخله زودته بقوة أجداده الذين نقلوا الصخر إلى قمة الهرم . . . وصعد سلم الخدم والحجر على كتفه بخفة وتؤدة شديدتين . . . وهو يحاذر أن يراه أحد حتى لا يسأله أو يعابثه كما يفعلون معه عادة . . .

وعلى السطح أرهف سمعه وهو يكتم أنفاسه اللاهثة فلم يسمع شيئاً . . . ودار من وراء كومة القش واسترق النظر . آه . . . إنها لم تزل هناك . . . ولمح خمس هريرات صغيرات عمياً . هكذا يكون الثأر أتم . . . لتلك الكتاكيت الستة . . . موتها وحدها لا يكفى . موتها مع ذريتها وفلذات أكبادها هو الذى يمكن أن يشفى غليله بعد أن حرقت كبده على معقد آماله فى أن يكون الفارس البطل فى حياة أمه . . .

وعاد بهدوء شديد وهو يعض على شفته السفلى فحمل الحجر ، ووازنه بين يديه جيداً فوق رأسه ، وتمكن منه بيديه ، كي تكون الضربة الواحدة قاضية ، انبطح على بطنه فوق كومة القش ليفاجئها من الخلف... ورويداً رويداً زاد اقتراباً ، فكلما قربت المسافة كانت الضربة أقتل.

وأخيراً انكشفت لعينيه الواسعتين كعيني إله مصرى قديم الصورة الكاملة . . . رأى الحريرات الصغيرات الخمس العمى كل واحدة منها التقمت ثدياً من أثداء القطة الكبيرة ، وهى راقدة مستسلمة ، والأنفاس تتردد بقوة فتعلو أضلاعها وتهبط . جو غريب غامض من الأمن يرفرف على العائلة الوادعة . . .

وحدق بعينيه الكبيرتين طويلا والحجر فوق رأسه ، وتراخت يداه شيئاً فشيئاً وهو يستغرق فى الصورة الماثلة لعينيه ، إلى أن استقر الحجر فوق القش .

وبسكينة وحذر تسلل راجعاً وقد أسدل جفنيه على عينيه ، ونزل إلى المطبخ ، وجلس على حافة النافذة ويده تحت ذقنه ، ولزم الصمت طويلا . . . وقد استغرقه شرود شديد ، ثم انثنى ففتح درج صوان المطبخ وأخرج منه نبلته وهو يعض على شفته السفلى بعزم ، وفتح الباب وتسلل منه . . . ولكنه لم يصعد إلى السطح ، بل نزل إلى الشارع وراح يبحث عن « حسن صيام » خادم البيت المجاور ، فقد ساومه يوماً ما على نبلته بخمسة قروش فأبى أن يبيعها فالرجل الحق لا يبيع سلاحه — هكذا علموه — ووجد حسن الذى استغل الموقف وأبى أن يدفع الآن أكثر من أربعة قروش ... تناولها عويس بلا مناقشة ومضى فاشترى زجاجة من اللبن .

وصعد السلالم إلى السطح ، وقد ازدادت أسنانه انغراساً فى شفته ، ولكن ضياء غريباً كان فى هذه المرة يشع من عينيه . . . ضياء بلا شرر . . .

إحداهن . . .

وقفت أمام الرسول مذهولة . فاغرة الفم . جسمها ينتفض . لا تكاد تصدق سمعها . تحاول أن تتكلم . . . تسأله . . . ولكن الكلمات كانت تقف فى حلقها . ثم تموت على شفتيها ! نسيت أنها بقميص نومها الذى يكشف عن صدرها وذراعيها . . . لم تفطن لنظرات الرجل النهمة وهى تفض الخطاب الذى قدمه لها . . . وتقرأ سطراً واحداً كتب بخط كبير واضح : سأعود اليوم . « عزت » . . .

هل حقاً سيعود ؟ غير معقول ؟ ! كيف؟ ! متى ؟ !

لكن الرسول لم يتكلم . أدى التحية العسكرية وانصرف . . .

وأغلقت الباب من خلفه ، وكأنما انطلقت شحنة انفعالها المكبوت من عقالها . . . فهى تقفز ، وتتوثب ، وتصرخ ، وتبكى ، وتضحك ، وتنادى بأعلى صوتها . . .

وخرجت حماتها من الحجرة مروعة ، فهجمت عليها تحتضنها وتقبلها ، وتدور بها فى البهو كالمجنونة . . . المسكينة تحاول أن تستوضحها الأمر دون فائدة ! . . . فراحت تبكى وتضحك معها . . . وفجأة تركتها فى ذهولها واندفعت إلى حجرتها .

هل سيعود حقاً ؟ ! . . . لا بد أن تلقاه فى أجمل صورها . . . لا بد أن تلبس الثوب الذى يحبه . . . لا بد أن تسرع قبل أن يحضر . . .

— ماذا قال الرسول ؟ هل قال إنه سيحضر فوراً ؟ . هل قال إنه سيحضر اليوم صباحاً ؟ مساء ؟ . . أم باكراً ؟ . . أم بعد أيام ؟ . . .

وعادت تقرأ الكتاب :

سأعود اليوم « عزت » . . .

وتبعتها حماتها تسألها فى لهفة . فوجدتها تخلع قميص نومها وتقفز من المشجب إلى الصوان ، ومن الصوان إلى السرير وهى تردد :

— سيصل اليوم ! . . . عزت ! . . . سيصل اليوم . . .

ثم نظرت إليها متوسلة :

— لا تفتحى له الباب. دعينى أكن أول من يقابله ... أرجوك . أتوسل إليك .

وتركتها حماتها وهى تخبط كفاً بكف ، وتجرجر رجليها فى إعياء شديد .

— لقد جنت المسكينة ! . . .

وأخرجت ثيابها من الصوان واحداً فى إثر الآخر ، تقذف بها فوق السرير ، وعلى الأرض ، وفى كل مكان ! . . .

— كلا . ليس هذا . . . ولا هذا . . . ولا هذا ! ! .

أحقاً سيعود ؟ ! أين كان إذن طوال هذه الشهور ؟ ! لم تسأل الرسول . . . أكان يعلم مكانه ؟ ! منذ ثلاثة أو أربعة أشهر على ما تذكر وصلتها منه آخر صورة ، كان قوياً باسماً تبدو علامات الصحة على محياه ...

وأخرجت صندوق خطاباته تقلب فيه ، ثم نحته جانباً وأسرعت تحضر حقيبة يدها .

— ها هى صورته الأخيرة . يبدو فى أوج صحته . . .

ووضعتها بجانب أول صورة أرسلها ، فبدا لها أوفر صحة وعافية . . .

— ماذا أصابه إذن ؟ لم انقطعت أخباره عنها ؟ ! لم يمرض فى حياته قط . . . على الأقل منذ أن عرفته . وأحبته . وتزوجته . . . كان فى بزته العسكرية صورة مشرقة للضابط القوى البنية ، نال أكثر من كأس فى مباريات كرة القدم . كان أحد الأبطال المعروفين . . .

واحتضنت الصورة وقبلتها . . . لم يبرح خيالها منذ أن رحل .

وارتعدت . كم كان قاسياً ذلك اليوم . . . لم تستطع أن تفهم معنى الواجب. واجب الضابط حين يدعى للميدان ... رفضت أن تصدق أنه سيتركها ، وإلى أين ؟ إلى الحرب ؟ . . . ولم يمض على زواجهما سوى شهرين . . . كان قوياً حازماً وهو يسوق إليها النبأ ، لم يهزه استعطافها أن يؤجل الذهاب لأسباب كثيرة ! . . . أصر أن يرحل . . . وأن يرحل فوراً !

وتتابعت الصور أمام عينيها ، وهى تودعه فى الخامسة صباحاً أمام البيت ، وهو يركب السيارة الجيب وبجانبه جندى . . . وهى تتوسل إليه والدموع تخنق صوتها ، أن يواليها بخطاباته . . . وهو يشد على يدها مشجعاً ويقبل يد والده الواقف بجوارها ويشد على يد أخيه . . . وهو يركب السيارة وينطلق كالسهم فى غبشة الصباح . . . ويخلفها وراءه لا تكاد تصدق نظرها . . . وحموها يصحبها معه إلى بيته لتعيش معهم لحين عودته ظافراً . . . وهى تمشى بجانبه لا تحس بأقدامها على الأرض ! . . . .

أيام كئيبة تلك التى مرت بها رغم ما لاقت من ترحيب وحب لدى أهله ! . . . ولكن خطابات عزت التى كانت تصلها يومياً ، بل مرتين فى اليوم . كانت لها أكبر عزاء وسلوى فى وحدتها النفسية ، بل إن أخبار انتصاراته المتلاحقة . كانت مثار فخر بين قريناتها ، بل بينها وبين نفسها كلما هزها الشوق والحنين إليه . . .

ثم أرسلت إليه تزف البشرى . بشرى الجنين الذى تحرك فى أحشائها . كان خطابه مؤثراً للدرجة التى جعلتها تبكى مدى يومين كاملين ، وعدها أن يكون بجانبها ليستقبلاه معاً ، ابنهما الأول وثمرة حبهما الكبير . . .

و بكى الطفل . . . ومن رحلتها الطويلة تنبهت على صرخاته المتلاحقة فقامت إليه وقد أنستها زحمة الحوادث أن تلبس ثوبها ، ظلت بملابسها الداخلية ، وانحنت تتحسس ثيابه. آه. إنه غير مبتل ، لقد حان وقت رضاعته.

وأخذته فى حجرها وألقمته ثديها ، وبيد حانية راحت تتحسس شعره الذى يشبه شعر أبيه . . . أما عيناه فهما صورة من عينى عزت . . . حتى الشامة التى فى خده كأنما طبعت بالكربون من الوجه الصبيح الشاب إلى الوجه الطفلى الصغير ! . . .

ولكنه لم يحضر . وانقطعت أخباره قبل مولد الطفل بثلاثة أشهر ! . انقطعت خطاباته مع أنه يعلم أن خروج طفله الأول إلى نور الحياة بات وشيكاً ! . وتضاربت الأقوال ؛ من قائل إنه فقد . إلى قائل إنه مريض ، إلى قائل إنه معتقل لمخالفته الأوامر ! . . .

كلا ! ليس عزت بالذى يخالف الأوامر . ليس عزت بالذى يرتكب حماقة من هذا النوع . . . إنه مثال الضابط الشهم ، القوى الشكيمة . . . إنها تعرفه . . . تعرف هذه المزية : مزية الموت فى سبيل الوطن . . . أين هو إذن ؟ لم تجد جواباً شافياً على أسئلتها الملتاعة فى كل مكان لجأت إليه ! . . .

وعاشت بين اليأس والرجاء شهوراً ثلاثة قضتها فى جحيم من عذاب الشك والحيرة . شىء واحد كان يبعث الأمل فى نفسها : مرتبه الذى كان يصلها فى أول كل شهر . . .

وفى شدة محنتها ، وفى كابوس أيامها . . . ولد الطفل . خرج إلى الحياة لتستقبله بمفردها . بعيون باكية حزينة ، وعزت لا تعرف أراضيه ! . خيب ظنها ، تركها تستقبل الطفل دون أن يقف بجانبها ، ولد لتستقبله الحياة قرحها البكاء ، بدلا من زغرودة الفرحة لمقدمه .

— أيكون هذا الخطاب دعابة سخيفة من أحد الأصدقاء ؟

وحاولت أن تتذكر شكل الرسول ! ولم تستطع . . . أمسكت بالخطاب وراحت تعيد تلاوته عشرات المرات . . .

— أهذا خط عزت ؟

ووضعت الطفل فى سريره ، وأسرعت تضاهى خط الخطاب بخطاباته كلها واحداً واحداً . . .

— كلا ! إن خط عزت صغير ممشوق . . . أما هذا الخط ! . . ربما كتب الورقة فى عجلة لتصلها فى أسرع وقت لتكون على أهبة لاستقباله. إن خطه كبير . غير متقن . ليس كخطوط الخطابات التى يكتبها فى تأن وإتقان . . .

وبكى الطفل مرة ثانية . . . وغامت عيناها ، وتراقصت السطور أمام ناظريها . وأحست كأنها جمر نار يلسع خديها . . . وتساقطت دموعها لتطمس الكلمات! . . .

— لا شك أنها دعابة سخيفة ! .

وتنبهت لبكاء الطفل المتواصل . لقد تركت المسكين قبل أن يتم طعامه و. . . ووقفت أمام سريره تنظر إليه وهو يرفس برجليه ويداه متشنجتان كأنما يحتج على معاملتها السيئة فى إطعامه. . .

واختفى من أمامها وجه الطفل ، وحل محله وجه عزت بابتسامته المشرقة وصوته العذب . وسمعت صوته يناديها :

— سلوى ! . . سلوى ! . . .

ووضعت كفيها على وجهها ، وتركت لدموعها العنان ! . . . ولكنها شعرت بيدين قويتين تحاولان أن ترفعا يديها من فوق عينيها . . .

إنه حموها ، الرجل الطيب المسكين ، كانت دائماً تحاول أن تخفى تخفى لوعتها عنه حتى لا تزيد أحزانه . . . فأحزان الرجال موجعة .

ورفعت كفيها عن عينيها ، ولكن نظراتها اصطدمت بوجه آخر ! وجه عزت بلحمه ودمه ! . . .

وشهقت شهقة مروعة ، ولم تستطع أن ترتمى بين أحضانه على الفور ؛ لأن سرير الطفل الذى لم ينقطع بكاؤه أبى إلا أن يثبت وجوده .

حنان

انحسر الموج عن الشاطئ . واندفعت الطفلة الصغيرة الجميلة بكل حيوية الطفولة البريئة ، اندفعت تجرى وهى تتعثر فى خطاها تسبقها صرخاتها المرحة ويداها ممدودتان كأنما تستعطف الموج أن يعود ، وفزعت الأم الشابة فأسرعت تصيح خلفها قبل أن يدركها المد مرة ثانية :

— حنان . . . ارجعى . . .

ورفعت سيدة نصف عينيها عن شغل التطريز الذى فى يدها . وكانت تجلس فى كابينها على بعد خطوات قليلة ، رفعت عينيها تتطلع إلى الأم الشابة والطفلة السعيدة المرحة ، وانطلقت من صدرها أنة جريحة وتمتمت تحدث نفسها .

— حنان . . . يا له من اسم ! .

وغامت عيناها خلف قطرات من الدموع ترقرقت ، ثم انحدرت فوق خديها الغائرين ، فرفعت يدها تتحسس ثم عادت تحدث نفسها من خلال دموعها :

— ترى كيف أصبحت الآن ابنتى أنا . . . حنان ؟ !

وتدفقت عذوبة الذكريات فانتشلتها من حاضرها عبر ستة عشر عاماً . وعلى شاطئ آخر ، شاطئ شعبى ، كانت تجلس وبجانبها مدحت وأمامهما طفلتهما حنان فى سلة كبيرة مما تحمل فيها الأطفال الصغار . . . كانت فى شهرها الثالث ، جميلة ، يانعة كالزهرة المتفتحة . . . ولكن شيئاً فيها لم يكن طبيعياً : صمتها المطبق وعدم تمييزها لمن حولها من الأشخاص والأشياء ! . . . لم تكن تعرف أمها . وهى أول من يتعرف عليه الطفل ! .. ولا أباها ! .. كل الأشخاص حولها سواء ! ..

كانت حنان طفلتها الأولى بعد زواج دام خمس سنوات . زواج أقل ما يوصف به أنه حلم كل عذراء . فمدحت زوج توافرت فيه كل مميزات فارس الأحلام . رشيق أنيق عطوف حبيب إلى النفس مريح للأعصاب . وهي تعبده من دون الله ، وترى فيه زخر أيامها وجنة حياتها . . . وحنان . طفلتها المعبودة . لكم هفت نفسها إلى الأطفال مدى الخمس سنوات . ولكن مدحت لم يكن يريد رغم حبه الشديد لهم . . . لم يكن يريد أن يكبل نفسه بطفل وهو يعبد حياة الانطلاق . حياة التحرر من كل الالتزامات التي تعوقه عن الاستمتاع بمباهج الحرية ، والأطفال قيد ، ولو كانوا قيداً من حرير ، ولكنه لم يستطع الصمود طويلا أمام إلحاحها .. وجاءت حنان .

وحمل الهواء إليها صوت حنان . الطفلة المرحة السعيدة وأمها تلعب معها بالكرة على الرمال ، ثم تجرى خلفها فتدركها والطفلة تقفز وضحكاتها تملأ الجو . . .

لكم هفا قلبها إلى هذا الدور من سني الطفولة العذب لابنتها حنان ، لكنها لم تدركه . . . لم تدركه لأن حنان ابنتها لم تكن كبقية الأطفال ! كانت تأكل وتنمو وتزداد جمالا . ويكتسي وجهها بحمرة العافية ، ومع ذلك لا تتكلم ولا تتحرك ، ولا تناديها بأعذب لفظ حلمت به في حياتها ، لم تقل لها ماما لأن قدرة التمييز كانت تنقصها ، ولم تلفظ كلمة بابا لأن إدراكها كان قاصراً تماماً . . . بل كان معدوماً !

وأصبحت حنان الغصة التي يشرق بها حلقاهما ! . . أصبحت نكبة حياتهما من حيث أراداها فرحة وحدتهما . . . لم ينفع معها طب أو دواء . وأجمع الأطباء أنها ستعيش وتكبر ولكن عقلها سيظل متخلفاً ! . .

ووضعت يديها على عينيها تحجب الذكرى المرعبة وأحست نفسها تنسلخ من حاضرها ، وتتمتم بتوسل :

ـ مدحت . أريد طفلا آخر . أريد طفلا يشعرنى بأمومتى . . .

وسمعت صوته أقرب إلى البكاء :

ـ كيف ؟ ! . كيف يمكن أن تخطر ببالك هذه الرغبة القاسية ؟

وأجابته فى ضراعة :

ـ إن حنان لا تعرفنى . وأنا أريد طفلا يعرفنى يا مدحت ويناديني ويتجاوب معى . . .

وتحشرج صوته بدموع يحاول جهده أن يحتجزها :

ـ إن حنان محتاجة لكل حبنا ورعايتنا . . . إن حنان عاجزة وأى طفل آخر سيسلبها حبنا وحناننا . . .

وصاحت فى لهفة :

ـ لا تقل هذا . ستكون حنان دائماً فى المكان الأول من نفوسنا ، ومهما كان طفلنا الثانى فلن يستطيع أن يحرمها حناننا .

ـ هذه محض تخيلات . . . لقد لمست بنفسى كيف يحرم مثلها الرعاية إذا وفد على الأسرة طفل جديد . . .

وقالت فى عتاب :

ـ لسنا نحن يا مدحت ممن يتصرفون هذا التصرف الجائر . . .

ـ أنت واهمة يا رجاء . . . كلامك محض تخيلات . . . ولن أسمح لك بالخوض فى هذا الموضوع بعد الآن .

وجثت على ركبتيها وراحت تستعطفه بدموعها .

ـ أرجوك يا مدحت وأتوسل إليك . لا تحرمنى اللذة الوحيدة فى الحياة . . . لا تحرمنى الأمومة . . .

وصرخ فيها بيأس :

ـ إن كلامك كخنجر يطعننى فى صدرى ... أليست حنان ابنتك؟! كيف تقولين إننى حرمتك لذة الأمومة ؟ ! أتنكرين عليها بنوتك ؟ ! .

— إنها ابنتي يا مدحت ولكن أمومتي معطلة بالنسبة لها . . . إن شعور التجاوب بيني وبينها معدوم ! . . إنها لا تعرفني ! ! .

— وهل هذا ذنبها ؟ ! أما يكفيك ما بها حتى تريدين حرمانها عطفك لتغدقيه على طفل آخر فيكبر معها إحساسها بالاضطهاد من القدر ومنك أيضاً ؟ !

ودفن رأسه بين يديه مستنداً على ركبتيه فى يأس مر ، وخرج صوته كالأنين :

— رجاء ، اعقلى ، وإلا كانت نتيجة تصرفاتك وبالا علينا .

وقالت فى لجاجة :

— ولنفرض أنها استمرت على هذا الحال . . . التى تفكر . . .

ولم يدعها تتم بل صاح وقد تملكه غضب شديد :

— نعم لن أفكر فى طفل آخر قبل أن أراها قادرة على خدمة نفسها وفى غنى عن كل إنسان .

وفى صوت هامس قالت :

— هل هذا قرارك الأخير ؟

وأجابها بحزم :

— نعم . هذا قرارى الأخير ولن أتراجع عنه مهما حدث .

وأحست بجمر نار يحرق صدرها وزفرت بحرقة :

— ترى كيف أصبحت يا حنان ؟ . . .

وشدتها الذكرى وهى ترى الشهور تمر وحنان تزيد فى فجيعتها . نعم فجيعتها هى ، فإن كان يأسه من عدم تقدمها للشفاء وحزنه على مصيرها يعد فجيعة ، فإن ألم حرمانها من الأمومة وعقارب الغيرة التى تلدغ أحشاءها كلما سمعت طفلا ينادى أمه . . . هذه الأحاسيس كانت تدنو بعقلها شيئاً فشيئاً نحو النهاية !

وبدأ عامها الثالث وهى طريحة على ظهرها حتى الحركة لا تستطيعها. شيء واحد هو الذى تقدمت فيه صوت كالصراخ تفتح به فمها إذا تلكأوا فى إطعامها ثم تدير نظرها فيما حولها وترفع يدها وتضعها فى فمها وتحدث غرغرة .

ووصلت الأزمة برجاء إلى منتهاها ، فاختلت بمدحت ذات مساء وكانت خلواتهما نادرة ، وسألته وهى تحاول أن تدخل على نبرات صوتها شيئاً من الليونة والانكسار :

ــ علام عولت يا مدحت ؟

ولم يجبها بل رفع عينيه عن الجريدة متسائلا بعينيه وأحست بشجاعتها تخونها تحت وقع نظراته فتشاغلت بوضع صحاف الطعام أمامه على المنضدة الصغيرة . وخرج صوتها ضعيفاً مرتجفاً :

ــ ألم تصل إلى حل ؟

وأجابها فى دهشة :

ــ حل ؟ لم ؟ .

ــ لقد تقدمت الحال بحنان وأظنها أحسن كثيراً الآن .

وانتظرت أن يرد عليها ، بأى كلام ، ولكنه تشبث بالصميت ، فأردفت بسرعة ، وقد أحست بشجاعتها على وشك أن تخونها :

ــ ألم يأن الأوان بعد ؟

فأجابها ببرود :

ــ أوان ماذا ؟ .

وغاظها بروده وأمدها ببعض القوة وارتفع صوتها قليلا وهى تقول :

ــ أوان إنجاب طفل .

وبنفس البرود القاتل قال :

ــ كلا .

وأحست لبروده مخالب تنزع قلبها من بين ضلوعها فانفجرت فى يأس :

— إذن طلقنى .

وكأنما نزلت على يافوخه بقضيب من حديد، فاتسعت عيناه وبرزت ونفرت عروق رأسه ، وجف حلقه ، وخرج من بين شفتيه شبه فحيح :

— أطلقك ؟ ! .

— نعم . لأحقق أمومتى المعطلة من زوج آخر .

وألجمت صراحتها لسانه فراح ينظر إليها غير مصدق واستدركت هى :

— ما دمت تبخل على بهذه الرغبة التى تقتلنى ببطء فلن أعيش معك . . . إن حبك وحنانك كله قد تحولا إلى ابنتك حنان وليس لى مكان فى نفسك . . . لقد كرهتنى يا مدحت . . . كرهتنى لدرجة أنك تضن على ببعض السعادة التى تملكها أنت ولن تكلفك شيئاً ! . . قلت لك ألف مرة إن سعادتى فى الأمومة وقد حرمتنى منها . فلا أقل من أن أبحث عنها مع آخر ! . .

وكأنما كلماتها هى القشة التى طفحت بكيل همومه فصرخ وقد انفجرت ينابيع حقده جميعاً .

— أيتها المجردة من كل عاطفة ، يا جاحدة ، يا قاسية ، إليك عنى . اذهبى . . . تزوجى . . . انجبى ، أما أنا فسأعيش لابنتى . واسعدى أنت بحياتك . فليس لك بعد الآن موضع فى بيتى . . .

وسقطت يديها من فوق عينيها اللتين غاصتا فى الهحر أمامها ، ولم تبك . . . لم تسقط دمعة واحدة من عينيها . كانت أحشاؤها تبكى .

نعم . لقد تزوجت ولكن الله حرمها من الإنجاب .

وأحست بحركة عجلات تمر بالقرب منها فوق الأرض المرصوفة فالتفت بطرف ذابل فإذا بعينيها تصطدمان بشابة جميلة يانعة وممتلئة الجسم ، فارعة الطول . تجلس فوق كرسى فى عجلات مستندة الرأس على وسادة مثبتة على ظهر الكرسى ، وعيناها لا تطرفان ! ويداها راقدتان فى حجرها فى استسلام ومن خلفها رجل طويل نحيف أسمر اللون أبيض الشعر فى لون الثلج يدفع الكرسى ببطء بينما تسبح عيناه فى الفضاء اللانهائى غير عابئ بما حوله من عجيج الحياة ! . .

وألجم فوها . . . لم تصدق نظرها . أصابها ذهول . . . ولم تفق إلا والعربة قد اختفت عن ناظريها ، وصاحت فى يأس :

ـ حنان . . . ابنتى .

وسمعتها حنان الأخرى . . . الجميلة الصغيرة . والتفتت إليها وقذفتها بالكرة وهى تصيح فى نشوة ثم جرت رافعة يديها نحو الموج المنحسر تحاول أن تستوقفه فأسرعت إليها بالكرة وقد غشيت عيناها بالدموع ، ولكن الصغيرة حدقت فى وجهها المتقلص ، ثم جرت منها مذعورة وارتمت فى حضن أمها . . . .

الشاطئ

الموج والصمت والغروب .

كل شيء عليه غلالة ذهبية من شعاع الشمس التى يبدو قرصها المتوهج وكأنه يهم بالغوص فى لجة البحر عند حافة الأفق . . . وعن كثب منه لمحت عينها خيطاً متراقصاً من الدخان الأسود ينبعث من سفينة كبيرة خارجة من الميناء إلى عرض البحر . إلى أين ؟ . لا أحد يدرى إلا من على ظهرها من الراكبين . أما بالنسبة لها هى فهو المجهول . ذلك المكان الغامض الذى لا تعرفه . وأغمضت عينيها وتصورت نفسها وقد حملها خادم من الجن فألقى بها فى هذه اللحظة على ظهر تلك السفينة التى لا تدرى وجهتها .

وغمرتها هذه الفكرة الوهمية بسعادة ذهبية كتلك الغلالة التى تنفضها أشعة الغروب على الكائنات من حولها .

لقد لبثت سنوات تزيد على العشر تدرى فى كل لحظة من لحظات كل يوم من أيامها إلى أين هى ذاهبة ، بل إنها تدرى ذلك دائماً أكثر مما ينبغى ، قبل السادسة صباحاً بدقائق تكون قد أتمت ارتداء ثيابها على عجل ونزلت تستقبل الهواء البارد فى شارع الترعة ، فلا بد لها من إدراك القطار الباكر إلى الزقازيق . ولكنها قبل ذلك تكون قد اختلست دقائق قبلت فيها هدى ونجوى وفتحية وإبراهيم وسميحة وهم نيام ، خمسة بالتمام والكمال أخرجتهم أحشاؤها الواحد — عفواً ! بل الواحدة — بعد الواحدة إلى نور الدنيا فى هذه السنوات العشر وفى كل مرة يصر « صبرى » على أن ولى العهد سيهل بطلعته البهية فى المرة القادمة وفى المرة القادمة أيضاً تأتى فتاة جديدة ، وفى المرة الرابعة أشرقت طلعة إبراهيم ولكن المسألة فيما يظهر صارت عادة روتينية مثل مواعيد القطار الذى تركبه فى الذهاب إلى

الزقازيق والإياب منها كل يوم لتعانى مشاق التدريس . فبعد إبراهيم جاءت سميحة .

وسوت بدرية خصلة من شعرها عبث بها الهواء وهى مغمضة العينين . وأوشكت أن تتحسس بيدها خاصرتها . فهى فى شك من أن رقم ستة يوشك أن يشرع فى الوجود .

وقطبت حاجبيها . لن تنسى الخلاف الذى ثار بينها وبين صبرى لأنها أعلنت بعزم قاطع عن رغبتها فى الاكتفاء بهؤلاء الخمسة من الذرية الصالحة . وتظاهر صبرى بالموافقة . وبدأت تتعاطى حبوب منع الحمل بانتظام . وكانت ليلة عاصفة تلك التى اكتشفت فيها أن صبرى استبدل الأقراص بأقراص شبيهة بها مما يعالج به الصداع .

وبدأت الحياة تبدو لها عبثاً . كأنها جاموسة محكوم عليها أن تدور فى ساقية مغمضة العينين . وكلما همت بالتقاط أنفاسها صاح الموكل بها أن تستمر وشخشخ فى يده بالسوط .

هذا مصير تعرفه جيداً . تعرفه بحذافيره المتكررة . وهى تريد شيئاً آخر . تريد وجهة مجهولة تمضى بها إلى أفق جديد . إلى شاطئ جديد . بعيد . لا تريد أن تعرف عنه شيئاً سوى أنه جديد .

لقد كادت تجن بعد تلك الليلة العاصفة . إنها ليست ببعيدة . لقد حدثت منذ أربعة أيام فقط . وتدخلت لبنى بنت خالها ، جزاها الله خيراً ، وألحت هى وزوجها عصام على اصطحابها بمفردها — لا رجل ولا أطفال ! — إلى الشاطئ أسبوعاً للاستجمام من كل شىء حتى لا تنهار أعصابها ، وأمام العاصفة لم يجد صبرى بداً من الانحناء .

وكان استجماماً حقاً ... يومها هذا الأول على الشاطئ الضاحك بزرقة الماء وزرقة السماء . آه لذلك الأزرق الساحر الصفاء . وآه لأخيلة جميلة بهيجة وعتها ذاكرتها يوم كانت طالبة فى الجامعة تحب الشعر وتحفظه .

وتحب الموسيقى وتسمعها . ولكن ذلك عهد مضى وانقضى . وها هي ذي تلقى ذلك الأزرق الساحر بالصفاء في يومها هذا الأول على الشاطئ لا كما تلقى الصديق القديم . بل كما تلقى غريباً لا عهد لها به من قبل . ولكن اليوم كان بديعاً من كل وجه . حتى لقد وجدت نفسها مدفوعة بحكم الصنعة — والزوجية وإدارة البيت والأمومة نفسها تغدو بمضى الوقت صنعة في كثير من جوانبها — تحاول أن تسأل نفسها حين أتت لبنى بالشطائر للغداء :

— ترى ماذا يأكل اليوم صبرى والأطفال ؟

ولكن السؤال لم يلبث أن تسرب من ذهنها كما يتسرب الماء من بين الأصابع المنفرجة ، وقالت لها لبنى وقد لمحت شرودها الوقتى :

— من غرور الآدمى أن يظن الدنيا ستتوقف عن الدوران والحركة لولا شخصه الجليل ، ثقى أنه لا لزوم لشرودك وأن من تكدرين صفوك بالقلق عليهم لا ينقصهم بغيابك شىء .

وقال عصام نكتة من نكاته الصاخبة ، وأخذ كل من ثلاثتهم يخطف الأكل من الآخر . هذا المرح بلا شك سر حيويتهما وشبابهما المتجدد . فلهما ابنتان متزوجتان وابن يطلب العلم فى الخارج . ولكن القلق لا يجد سبيلا إلى قلبيهما . وما أشد حبهما للمشى . أما هى فشد ما تكرهه وهى تمشى كل يوم بالإكراه عدة أميال من المدرسة إلى المحطة . ومن البيت إلى المحطة وبالعكس . لقد رفضت أن تبارح مكانها من الشاطئ عندما عزما عليها بالسير معهما فوق الكورنيش ساعة أو أكثر . وآثرت هذه الوحدة مع الموج والصمت والغروب . . . وصوت راديو ترانزستور يأتيها من بعيد يحمله إنسان مجهول يرسل أغانى أم كلثوم من تلك المحطة الجديدة أغنية وراء أغنية . . .

وتلفتت تصعد النظر صوب الكورنيش . لقد طال غيابهما ثم شغلت نفسها بلملمة الأشياء المبعثرة استعداداً للإياب إلى الشاليه متى عادا .

وجدت يداً تلملم معها الأشياء . لا بد أنه ذلك البحار المهذب الذى أتحفه عصام بالسجائر وبعض النقود نظير خدماته . ولكن البحار يرتدى سروالا من سراويل الصيادين لا بنطلوناً أنيقاً جيد الكى . ورفعت بصرها فى آخر شعاعات الغروب .

— أهو أنت ؟ غير معقول ؟ . . .

والتقت يداهما فى مصافحة قوية . وكان واقفاً وظهره إلى البحر فحجب ما بقى من قرص الشمس ، أما السفينة الراحلة نحو المجهول فكان قد اختفى كل أثر لها .

ولم يعد المجهول مجهولا وقد تشبثت عيناها بعينيه . فالسنوات الإحدى عشرة لم تغير منه كثيراً . حتى هذه السمرة لعلها من أثر الشمس على الشاطئ . فعيناه الضاحكتان لم تزالا ينبوعين من صفاء وفهم ومرح . ولكن ما هذه السحابة التى عبرت بهما الآن وهو يتأمل ملامح وجهها . هل يراها تغيرت إلى هذا الحد؟ البطون الخمسة ورحلة كل يوم. والسنوات التى تكر بلارحمة . ولكن هذا كله كان حريا أن يتبدل لو لم يفترقا .

وجلس وجلست وراحت عيناه تربتان على ملامحها واحداً واحداً كأنه يتفقد أشياء عزيزة طال به افتقادها . وبصوته الأجش الخفيض أخذ يسألها عن أحوالها . سؤال عادى ككل سؤال يلقيه إنسان على إنسان بعدطول افتراق . ولكنها أحست بما وراء الكلمات من شجن يوشك أن يكون عتاباً . ولكنه يعلم أنه لا ذنب لها . وأن أباها — غفر الله له ورحمه — هو الذى أبى إلا أن يصنع ذلك الفراق .

— من أبوه ؟ من أسرته ؟ .

وكانت ضعيفة . ولم تستطع وهى الجامعية التى أوشكت أن تتخرج أن تدافع عن القيم الجديدة التى تؤمن بها . أما الحب والغرام فعند ذلك الرجل من الكبائر والمحرمات . ودفنت جرحها فى قلبها وهى تراه يطرد

الشاب الرقيق ويرده رداً عنيفاً بعد أن جمع المعلومات عن أسرته المتواضعة فى القرية . لم يكن هذا الأب — رحمه الله — يقيم وزناً للشعور الرقيق وحب الفنون وحب الحياة والآمال العريضة فى قلوب المحبين .

لا شيء تغير فى سعد . وبصوت متعثر حاولت أن تموه تعثره باصطناع المرح لخصت له أحوالها فى إحصاء سريع للعمل والسفر والذرية .

— وأنت ؟ .

وتجهم وجهه تجهماً عابراً .

— وحيد إن شئت . وغير وحيد .

وبسخريته المعهودة رسم لها فى بضع كلمات قريبة أمه القروية التى تعبد البيت وتدق صدرها بيدها إذا حدثها عن الذهاب معه إلى السينما . وعن الأطفال الثلاثة الذين تتحسر على أنهم لم يصبحوا سبعة . وضحك وضحكت .

— أنا وأنت هنا . والماء والسماء . لقد كفر الزمن إذن عن كل أخطائه فى حقنا . كم ستمكثين ؟ .

وتنهدت وقالت :

— أسبوعاً . انقضى منه اليوم .

وبلهجته المرحة هتف بها :

— نعمة جزيلة . « أسبوع فى الجنة » . عنوان جيد من عناوين الأفلام . أليس كذلك ؟

وفجأة تغيرت ملامحه من الهزل إلى الجد . هكذا كان عهدها به حين يقطع الهزل فجأة ليقول أخطر ما فى ذهنه من قرارات . لقد صنع هذا يوم صارحها فى الرحلة الجامعية بحبه . ترى ماذا سيقول الآن ؟ ها هو ذا يمد يده بحركته العصبية ويتناول يدها بين يديه ويضغطها بعنف فتشعر

بالرجفة القديمة تسرى فى أوصالها جميعاً وتتعلق عيناها بشفتيه . كأنها توشك أن تسمع منهما صوت قدرها :

— اسمعى يا بدرية . سنكون مجرمين فى حق نفسينا إذا نحن تعامينا عما أحسن به القدر إلينا ، وقد كفر بهذا اللقاء عن كل ما أفسد به حياتنا فى هذه السنين . كفانا ضياعاً يا بدرية ! .

وأحست بالعالم يدور بها . وماء البحر يفور كالطوفان ويكاد يغمرها وغضت بصرها بسرعة تستجمع شتات قواها المبعثرة . وازدادت يده إلحاحاً على يدها . وتحول صوته إلى هدير طنان فى أذنيها .

— كفانا ضياعاً . كفانا . . . كفانا . . .

وفى شبه حلم سمعته يقول لها قبل أن تفلت أصابعه المتشنجة يدها :

— غداً فى العاشرة صباحاً فى إتينيوس . لن ندع قطار السعادة يفوتنا مرة أخرى . أتسمعيننى .

وألفت نفسها تومئ برأسها من غير أن تقوى على فتح عينيها . ولما فتحتهما بعد برهة كان ظهره يلوح لها على بعد خطوات . وصوته لم يزل يطن فى أذنيها ، وموضع أصابعه المتشنجة على يدها لم تزل تحسه يبعث الخدر فى ذراعها كله .

غدا . . .

ولم تنم ليلتها من التفكير فى ذلك الغد !

استولت عليها دوامة رهيبة لا ترحم : هدى ونجوى وفتحية وإبراهيم وسميحة عيونهم اللامعة القلقة تتعلق بها عن بعد . وأيديهم الصغيرة تمتد لتتعلق بأذيالها . وسعد يطن فى أذنيها صوته الهادر يدعوها ألا يفوتهما قطار السعادة . . . كفانا ضياعاً كفانا . . . كفانا ! . . . وتمرغ فى الوسادة رأسها المحموم وتتمنى أن تشرق الشمس . شمس ذلك الغد

المرهوب. فلم تعد لها طاقة بما يحمله لها الليل من قسوة وعذاب وشكوك وصراع . . .

قطار السعادة ؟ ! . . .

ها هي ذي عقارب الساعة تدنو ببطء من العاشرة . وهي جالسة أمام النافذة . نافذة قطار آخر يشق طريقه لا إلى المجهول . بل إلى مكان تعرفه جيداً طيلة هذه السنين .

أتراه الآن أمام النافذة في ذلك المقهى الكبير وعيناه تتحسسان الطريق بحثاً عن طلعتها كلما وقفت سيارة أتوبيس ؟ كم سيجارة أحرقها حتى الآن وهو في الانتظار ؟ كم سيجارة سيحرقها قبل أن يوقن بأنها لن تأتي ؟

وتنهدت بدرية وأرسلت طرفها من نافذة القطار ، وملأت صدرها من آخر نسمات البحر التي يحملها الهواء من الشاطئ البعيد ، الشاطئ الذي جاءته مفتوحة الذراعين لترتمي أسبوعاً بين أحضانه وتنسى فيه أعباء السنين إلى حين . وها هي ذي بعد يوم واحد تغادره هاربة من سراب الأحلام إلى دنيا تعرفها ، وأيد خمسة تمتد على البعد لتتعلق بأذيالها ، فترسم على وجهها المكدود ابتسامة واهنة وتملأ صدرها مرة أخرى من الهواء وقد اختفت منه في هذه المرة رائحة الشاطئ البعيدة

حجرة مكيفة بالهواء . . .

أزعجتها كلماته لحظة يسيرة خوفاً من أن تكون أذناها قد خدعتاها . فأحياناً يثقل سمعها فتختلط عليها معانى الألفاظ . ولكن صوته فى هذه المرة اخترق أذنيها ، وتسلل — رغم هدوئه — إلى عقلها مباشرة . ولم يعد هناك مجال للتكذيب . . . فارتعدت وأحست بالدم كله يهرب من جسمها . . . وتحولت إلى قطعة من الثلج . شىء واحد كان يعمل بإصرار . عقلها . . . أحقاً تقول عيناه ذلك ؟ .

كان حلم حياتها ذات يوم أن تعمل مع « الدكتور إبراهيم على » الطبيب العبقرى الذى طبقت شهرته الآفاق . . . وأصابتها نشوة وأحست بقلبها يكاد يقفز بين ضلوعها حينما علمت أنه عين مديراً للمستشفى الذى تعمل به .

وأخذت نفسها بالحزم ، وراحت تعمل بلا كلل لتثبت له خطأ النظرية التى تسيطر على عقول الرجال : أن المرأة مهما بلغت من المناصب فهى هى . . . الأنثى التى يبهرها الزخرف ، وتتعلق عيناها ببريق المظاهر ، وتنسى نفسها أمام سطوة الجاه . . .

لم تكن تعلم أن للاستقامة والترفع ضريبة فادحة . . . إن لم تدفعها من سمعتها — الناصعة البياض — فلا أقل من أن تستقضى من عملها . فليس للشرف والنزاهة مكان بين مرضى النفوس . . .

ولكن . كيف استطاع هذا الدخيل أن يقنع الدكتور إبراهيم بهذا الوضع المقلوب ؟

— الدكتور سيد يقول هذا . . . وأعتقد أنه لا يكذب ! .

وراحت تتذكر بجهد أول مرة وقعت فيها عيناها على الدكتور سيد

هذا . . . كانت تمر فى الردهة مسرعة لتكون بجانب الدكتور إبراهيم أثناء قيامه بإحدى العمليات الجراحية ، حينما اصطدمت عيناها بشخص قمئ الهيئة ، أشبه بالفأر ، انحنى لها فى احترام زائد حتى كاد رأسه يلامس ركبتيه ! وردت تحيته فى عجلة دون أن تعيره التفاتاً ، ظناً منها أنه أحد المترددين على المستشفى للزيارة ، وما كان أكثرهم . . .

وما كادت تلبس رداءها الأبيض وتعاون الدكتور إبراهيم على ارتداء ثيابه المعقمة حتى فوجئت بدخول هذا الشخص حجرة العمليات ، وفى أدب جم انحنى بين يدى الطبيب الذى بادر على الفور يقدم كلا منهما للآخر :

— الدكتور « سيد » طبيب الامتياز الجديد بالمستشفى . الآنسة « سعدية » رئيسة الحكيمات وديناموالمستشفى الذى لا يعرف الراحة . . .

وأمسك بكتف الدكتور سيد وهو يقول بلهجة ودية :

— هأنذا أمسك الخشب ! .

وضحك الثلاثة فى مرح ، ولا تتذكر بعد ذلك أنها رأته إلا فى مناسبات قليلة جداً تبودلت بينهما تحية عابرة ، ولكنها لم تنس أن تحيته لها كانت دائماً بانحناءة شديدة من رأسه ، حتى ليكاد رأسه يلمس ركبتيه !

ثم ترامت إليها أنباء غير سارة عن الدكتور سيد . وأنه يتخذ من حجرته وكراً فى الليل : يمارس فيها أعمالا لا تليق بشرف المهنة ! . . .

ثارت ، ولكنها لم تفعل شيئاً ، أرادت أن تتأكد بنفسها من صدق الرواية ، وكان هذا دأبها دائماً . . . فأن تكون مظلومة خير ألف مرة من أن تكون ظالمة ، فحين يظلمها أحد تستطيع أن تسترد حقها بنفسها ، أما إن ظلمت أحداً فعسير عليها جداً أن تسترد اعتبارها أمام من ظلمته . لأن التجنى سيكون من صفاتها حتى ولو كانت بعد ذلك على حق . . .

ومرت الأيام دون أن يصلها جديد ، أو تلاحظ ما يثير الشك ،

وحمدت الله فى سرها ، واستراح ضميرها لأنها لم تسئ الظن . . .

وذات ليلة ، أصيب أحد المرضى بعد منتصف الليل ، بنوبة قلبية حادة ، وأثناء مرور سعدية فى دورتها الليلية ، سمعت أنيناً متقطعاً من إحدى غرف الدرجة الأولى ، فأسرعت تفتح الباب فإذا بها أمام مريض فى النزع الأخير ! وحاولت أن تسعفه ، ولكن الحالة كانت من الخطورة بحيث يتحتم وجود الطبيب المنوب معها ، وضربت الجرس عدة مرات « لبثينة » الممرضة المختصة بالحجرة ، ولكنها لم تتلق أى جواب ! . فجرت كالمجنونة إلى حجرة الطبيب ، وأسرعت تفتح بابها بعنف ، ولكنها تراجعت مذعورة لهول ما رأت ! ... كان بداخلها الدكتور رسيد ومعه بثينة !

ومرت الأحداث بعد ذلك بسرعة مذهلة . فهناك مريض فى النزع الأخير ، وطبيب يتعين عليه أن يسرع لإسعافه . . . وممرضة واجبها أن تكون بجانبه ... ورئيسة حكيمات مسئولة عن كل خطأ يحدث أثناء الليل !

وتمت الإسعافات بصورة آلية جداً . . . ظل الثلاثة بجوار فراش المريض يعملون فى سرعة وصمت ، والرجل يتأرجح بين الحياة والموت . . .

ومع بزوغ أول أشعة النهار ، استرد أنفاسه ، ثم راح فى سبات عميق . . .

وخرجت سعدية من حجرة المريض دون أن تنبس بكلمة ، مضعضعة الرأس والحواس ، وارتمت على فراشها بكامل ملابسها .

وعند الضحى استيقظت ، ورأسها يكاد ينفجر من صداع مميت ، فقامت إلى الحمام تغتسل ثم طلبت «بثينة» ، فقيل لها إنها خرجت منذ الصباح الباكر ، لأن نوبتها كانت فى الليل ! . . .

وأخذت تسترد هدوءها شيئاً فشيئاً .

يجب أن تمنع مثل هذه المهازل أن تحدث فى المستشفى . يجب أن يضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أن يتخذ من ملاذ

الرحمة الوحيد للمرضى مكاناً لقتلهم . . . ماذا كان يحدث لو أنها لم تفطن إلى الصوت الشاكي بالصدفة ؟ !

وعند الظهر طلبها الدكتور إبراهيم لمقابلته .

حسناً . لقد أسعفها الحظ ، وبدلا من أن تطلب هي مقابلته أتيحت لها فرصة أفضل . يجب أن يوقع عقاباً صارماً على الدكتور سيد هذا ! . أما هي فستعرف كيف تؤدب بثينة بطرقها الخاصة . . . فالدكتور سيد تأديبه ليس من اختصاصها . . .

ودخلت عليه بكل اطمئنان تملؤها الثقة فى عدالته وحسن تصرفه . ولكنها روعت بنظرة الجد الصارم التي تنبعث من عينيه . والمقابلة الجافة التي تلقاها بها ... لم تعتد منه سوى الابتسام المهذب ، والترحيب والمودة !

وألجم لسانها الموقف ، وانتظرت أن يطلب منها الجلوس كعادته ، ولكنه لم يفعل . وابتدرها بصوت هادئ برغم شحنة الغضب التي كانت تتوارى خلفه : لماذا فعلت ذلك ؟ .

ولم تفهم ماذا يقصد ، وزادتها الدهشة إمعاناً فى السكوت . . .

— ليس من حقك أن تهجمي على حجرة طبيب وتفتحيها بدون إذن . . .

وفغرت فمها . فهذا آخر شيء كانت تنتظر أن تسمعه منه . . .

أكان الأفضل إذن أن تترك المريض يموت ! . أليس من حقها أن تلجأ إلى الطبيب المنوب بأى شكل إذا استدعت حالة المريض ذلك ؟ ! .

ولم تستطع أن تكتم غيظها ، ورغم رهبة الموقف ، خرجت عن هدوئها وهي متأكدة أن الحق كله معها . . . وستناله بتوضيح الموقف الذى لا بد أن الدكتور سيد أفهمه إياه على غير حقيقته . . .

— إن المسألة ليست بهذه السهولة يا سيدى . فالمريض كان على وشك الهلاك ، ثم إن التبعة تقع على الممرضة المهملة التي وجدتها فى حجرة الطبيب ، كما تقع على الطبيب أيضاً . . .

وسكتت تسترد أنفاسها من هول ما ستقول . وعيناها معلقتان بكلمة من شفتى الطبيب ترد إليها حقها المهضوم ، وما إن أتمت حديثها حتى أتاها صوته خافتاً كأنه الهمس :

— لقد سمعت عنك ثناء كثيراً يا سعدية ، ولمست بنفسى حبك لعملك وتفانيك فى الخدمة ، ولكن رغم هدوئك الظاهرى ، إلا أنك عند ما تثورين تصبحين « طويلة اللسان » ! . . .

وصعقت لكلماته . فلم تتصور أن يكون رده على حديثها هذه الصفة التى هى منها براء . وبجهد استطاعت أن تسيطر على نفسها وتسأله فى هدوء :

— وماذا فعلت لأستحق منك كل هذا التأنيب؟ ماذا قال لك لتصدقه وتكذبنى ؟ ! . . .

— لم يقل لى شيئاً سوى الحقيقة . . ..أنت لا تدرين ما يخرج من فمك أثناء ثورتك . اسألينى أنا ! . إنه بلا شك أذكى من أن يجهل الحقيقة ، فلماذا يغالط ؟ . لماذا يغالط ؟ لا بد أن هناك سبباً قوياً . قوياً جداً . . . أقوى عنده حتى من الحق . ومن العمل ، ومن الضمير ! . . .

ونظرت إلى عينيه لتستوثق من جدية ما يقول ، فهالها ما رأت فى إنسانيهما من « دعوة » صريحة ساخرة ! . . . وانتابها ألم ممض ، وسقطت جميع القيم فى نظرها . . .

— أحقاً تقول عيناه ذلك؟ أحقاً تقولان لها : كلنا « سيد » يبحث عن بثينة ؟ . . . هذا لن يكون ! .

وانتفضت تنفض نظراته عنها ، واندفعت إلى الباب تفتحه ، فصفع وجهها سخونة الجو المشبع بعناء الحياة . بعد جو التسلط والرخاء ، والراحة داخل الحجرة المكيفة الهواء . . . ووقفت لحظة خلف الباب تسترد أنفاسها ، ثم سارت فى طريقها رافعة الرأس . شامخة الأنف ، من غير أن تلقى نظرة واحدة إلى الوراء . . .

الليمونة كاملة . . .

جلست فى الفراش ويداها معقودتان حول ركبتيها وقد عصبت رأسها بمنديل لعله يخفف وطأة الألم الممض الذى يكاد يخرج عينيها من محجريهما . . . وزفرت زفرة طويلة وصوت أمها الخافت يأتيها عبر الحجرة :

ـــ علام عولت يا ابنتى ؟ الرجل ينتظر رداً هذه الليلة . . . وإنى لخجلة منه ، لا أدرى كيف أجيبه بعد كل هذا التسويف .

علام عولت ؟ ! وهل ترك لها الاختيار ! إنها مجبرة أن تقبل أو . . .

وسرى صوت أمها يقطع عليها تيار أفكارها . وفى نبراته أسى ولوعة :

ـــ لو كنت أجد منفذاً واحداً لرفضت . فكرى فى حالتنا .

يا لخيبة آمالها ! يا لتعس أيامها ! . . أبعد كل هذا المجهود الذى بذلته حتى حصلت على الثانوية العامة ، يحال بينها و بين إتمام تعليمها . . .

وسرح خيالها ، وإذا بصوت والدها الحانى يسرى فى أذنيها كأنغام الموسيقى العذبة : . . . ستكونين أول فتاة تعمل فى السلك السياسى . . . ليكن التفوق رائدك . . . كانت هذه أمنيتى التى لم تتحقق . . . ولكنى سأحققها فيك . . . وأخوك يرغب أن يكون طبيباً . . . ماذا قلت ؟

وهل تحلم بغير هذا العمل الذى أعدت نفسها له منذ بداية مرحلتها الثانوية ؟ كانت تتطلع دائماً إلى السفر إلى الخارج . . . منذ صغرها وهى تعشق كتب الأسفار . ومنذ قرأت فى الجرائد عن أول سفيرة لأمريكا فى إيطاليا ، وهى تتتبع أخبارها ، وترى نفسها بعين الخيال تتدرج فى المناصب حتى تصل إلى هذا المنصب . . . تمثل بلدها : فى فرنسا ، لندن ، أمريكا ، الهند ، الصين ، إيطاليا . . . آه ! ليتهم يبعثون بها إلى إيطاليا ، بلد الفن والجمال . . .

— هل استقر رأيك على شيء يا عديلة ؟

آه ! هذا صوت أمها تريد أن تعرف رأيها ، ولكن . هل تستطيع أن تقرر الآن وأمامها أربع سنوات فى التعليم الجامعى . . .

— لقد قابل أخاك أمس ، وطلب منه أن يبلغك تحيته ، ورجاه أن يعرف رأيك الأخير هذه الليلة ، ليستطيع تدبير أموره ليكون على أهبة الاستعداد فى نهاية هذا الشهر . . .

— نهاية هذا الشهر ؟ ولمَ كل هذه العجلة ! .

وحاولت الأم الطيبة أن تغتصب ابتسامة وهى تقول :

— الرجل متيم بك ، لو بيده الأمر لتزوجك الليلة ... ولكنك أنت ...

وشعرت عديلة بيد تعتصر قلبها !

لماذا مات والدها ؟ . . . لماذا خذلها ؟ . أبعد كل الذى كان يمنيها به يتركها هكذا للأقدار ؟ . كيف يمكن أن يتبدل حالها فجأة من النقيض إلى النقيض ؟ ! . منذ ستة أشهر فقط كانت حياتها تمضى على خطة مرسومة . . . خطة رسمتها مع والدها الحبيب لطريق جهاد حافل فى دنيا التعليم . . . وبين يوم وليلة . انتهى والدها ! . كيف انتهى ؟ لا تدرى ! كان فى أوج صحته ، وريعان شبابه ! . . .

أصيب بنوبة قضى على أثرها ، وعرف السبب بعد موته : خسارة فادحة فى المضاربة فقد على أثرها آخر قرش يملكه ! . وانتهى كل شيء . . بانتهائه ! . انتهت حياة العز التى كانوا يحيونها ، ولم يجدوا من يمد لهم يد العون . . . تنكر لهم الجميع . . . فامتدت يد الأم إلى أثاث البيت تبيعه قطعة قطعة . . . فأخوها فى شدة الحاجة لكل مليم ينفقه على تعليمه بكلية الطب ، ومن الإجرام أن يحرموه من كليته ، وأمامه ثلاثة أعوام . . . وهو مجد ، ثم إنه بر الأمان الذى تتطلع إليه والدتها ليقيل عثرتهم و ... والصغير لم يتجاوز الرابعة عشرة ، وأمامه شوط طويل فى التعليم . . . وهى . . .

وانهمرت الدموع سخينة من عينيها .

لماذا يضحي بها ؟ ! . لماذا تحرم من تعليمها ؟ . . .

— إذا استثنينا رغبتك فى التعليم ، فالرجل ممتاز : أخلاق ووجاهة ، ومال ، ومركز — وهو يعبدك . فكرى يا عديلة ، فكرى يا ابنتى . . . ستعيشين عيشة منعمة فى فيلته المؤثثة بأفخر الرياش . . . ثم لا تنسى أنه سيتكفل بجميع مصروفاتنا حتى يتخرج شقيقك .

ولم تستطع أن تسيطر على أعصابها ، فانفجرت تبكى بأعلى صوتها ، وأسرعت أمها تحتضنها وتنشج معها واختلطت دموعها بدموع ابنتها . . .

وأحست الفتاة بوخز ضميرها للآلام التى تسببها لأمها الطيبة ، بشكل خارج عن إرادتها ، وقالت من خلال دموعها :

— سأعمل يا أمى ، سأعمل وأتم تعليمى وأنفق على البيت .

وهزت الأم رأسها فى أسى ظاهر وقالت : بكم تعملين ؟ قولى لى يا حبيبتى ... أيكفى ماتتقاضينه للطعام أو الكساء أو مصروفات أخيك؟ وهل ستساعدك صحتك أن تجمعى بين العلم والعمل والتفوق الذى تنشدينه؟ أخيل إليك أننى لم أفكر فى إيجاد مخرج لحالتنا قبل أن أعرض عليك الزواج ؟ . ولو كنت أنا أصلح لأى مهنة لما توانيت عن العمل . . .

وضمتها إلى صدرها تربت بحنان على شعرها ووجهها واستطردت :

— ومع كل لا تحزنى . . . سنحاول هذه الليلة أيضاً التأثير عليه ، ربما لان قلبه وتراجع عن إصراره وأذن لك بإتمام تعليمك بعد الزواج .

— ألم تحاولى معه قبل ذلك يا أماه ؟ . إنه عنيد ، يفكر بعقلية أمثاله الذين يروا فى المرأة متعة لا شريكة .

وتراءى لها « عبد المقصود » بصوته ذى البحة التى تشبه الحشرجة ، حينما يدخل عليهم ويداه محملتان بالأكياس ، وابتسامته العجيبة تملأ وجهه المستدير ، وكأنما تسمع صوته وهو يقول :

— إيه يا ست عديلة ... ما هذا الدلال . . . سأجعلك ست الناس كلهم . . . انظرى ماذا أحضرت لك : سمكاً من الصنف الذى يحبه قلبك بورى معتبر . . . وصندوق تفاح دليشس أصلى . . . الولد شكرى الفكهانى لا يظهره إلا لأهل المفهومية بالناس الأكيلة ... عدم المؤاخذة المسألة ليست مسألة مقدرة ، المسألة مزاج قبل كل شىء . . . هو حد واخد منها حاجة غير اللقمة أولا . . . والهدمة ثانياً . . .

ويضحك بفجاجة معجباً بمستواه العالى فى فلسفة الحياة ، وتحس بفمها كالحنظل وهى تستعيد حركاته وهو يقول :

— بينا يا ست أم جلال على المطبخ ، سأطعمكم طبق سمك لم تأكلوا فى حياتكم مثله ، لا تقولى لى الحاج زكى السماك ولا غيره . . .

ثم يقول وهو يغمز بعينه ناحية أمها : محسوبك يا ست عديلة طباخ ماهر ... سأعلمك أنا الطبخ على أصوله ... قال جامعة قال ... البنت من دول متى اتجوزت وجوزها مهنيها ومكفيها ومعيشها أحسن عيشة ، ناقصها إيه . . . إنت غاوية تعب ووجع قلب . . .

كيف ! . . . كيف تستطيع أن تندمج مع هذا الرجل فى حياة واحدة ؟ ! إن آخر ما يطمع فيه من دنياه ، أكلة شهية يملأ بها بطنه . . . والطريقة التى يأكل بها . لا يمكن أن تفتح نفسها على الإطلاق حتى ولو قدم إليها أفخر أنواع الأطعمة . . . ورغم المنشفة التى يمسح بها فمه . إلا أن حركته نفسها ومنظر وجهه يجعلانها تحس بإصرار أنه فى الحقيقة يمسح فمه بظهر يده . ثم لا يلبث أن يتجشأ .

أعوذ بالله ! . . . كيف تستسيغ أمها حركاته ! . . . وتؤمن على كلماته بحماسة ! . . . طبعاً . . . طبعاً . . . فغاية مناها أن تستر ابنتها فى كنف رجل ثرى يضمن لها المأكل والمشرب . . . أما ما عدا ذلك فهو فى عرفها بطر ودلع بنات !

وأحست برغبة ملحة لكوب شاى ، وسرعان ما تمثل لها عبد المقصود وقد انتهى من طعامه ، وتراخى فى جلسته على الأريكة يدخن سيجارة ويقول : اعملوا لنا كباية شاى . . . نحبس على الأكلة التمام . . . .

لقد عافت نفسها الشاى ، بعد أن كان مشروبها الوحيد تحتسيه طول يومها . . . كان ريقها يتحلب للونه الأحمر العقيقى . . . لم تكن تطيقه مخلوطاً بشىء ... لا لبن ولا نعناع ولا ليمون ... أما مع عبد المقصود فقد أصبحت لا تطيق شربه إلا بعد أن تعصر عليه نصف ليمونة . فالليمون يساعدها على مقاومة « الغثيان » الذى تحس به يجيش فى أحشائها . . .

عجباً لأمها لا تسألها عن سر هذا الليمون ، وقد درجت أن تراها طفولتها تتغزل فى صفاء لونه وطعمه . . .

إن السيدة الطيبة الكسيرة الجناح ، تفهم . وتدرى . ولهذا تتجاهل وتلزم الصمت ، ولا تنبس بكلمة حتى لا تنكأ الجرح الذى تعلم كم هو غائر فى وجدانها ، وكم هو حافل برصيد متزايد من الصديد الكامن .

أمع مثل هذا المخلوق يكتب عليها أن تقضى بقية عمرها ، هى التى كانت ترى فى الزواج شركة مناصفة بين اثنين متقاربين فى السن ، متقاربين فى الثقافة ، يبنيان حياتهما معاً خطوة خطوة ، وما عدا ذلك فهو فى نظرها عملية بيع وامتلاك . . . ومع هذا فقد كان الزواج آخر ما تفكر فيه ... شىء واحد كان يسيطر على عقلها ، مستقبلها العلمى .

وانتزعها صوت أمها من هوة تعاستها :

— لا عليك . سأعيد عليه الكرة لعل الله يهديه وتستمرين فى تعليمك وإذا أصر . . . ماذا أقول ؟ . . . الأمر لله : هو يتولانا برحمته . ما دامت هذه إرادتك .

وطأطأت الأم رأسها وتنهدت من قلب صديع وأردفت :

— لن ينسانا الله ! . . . هونى عليك ، قومى انفضى هذا الحزن

عنك . فأنا لا أطيق أن أراك على هذا الحال .

وشعرت بوخزات ألم فى قلبها . . . وهي ترى أمها مطرقة ، حريصة على ألا تتلاقى نظراتهما . . .

يجب أن يضحى أحد أفراد هذه العائلة المنكودة بنفسه لينقذ الباقين . ولن تغفر لنفسها أبداً أن تكون السبب فى نكبة تلحق بهم ... ستقضى حياتها تعسة . . . هذا صحيح . ولكن . . . هؤلاء ؟ . . .

أحداً ! . . . من يكون هذا الأحد ؟ . . .

ومرة أخرى اعترضت صدرها غصة ... ونظرت إلى أمها فوجدتها كانت تمعن النظر فيها ، ولكنها ما إن ثبتت نظراتها فى عينيها حتى أسرعت تغضهما .

وشعرت أن قلبها وصل إلى قرار ، وبحركة بطيئة ، ولكنها ثابتة . خلعت العصابة عن رأسها ، ورمتها بعيداً ، وأنزلت رجليها من فوق الفراش ونظرت إلى أمها طويلا . . .

وكأنما أحست أمها — بطريقة ما — بشيء جديد يدور فى نفس ابنتها ، فرفعت إليها عينيها وقابلت نظراتها بثبات صامت . وقالت عديلة بصوت متهدج : سأتزوجه . . .

وخيل إليها — من سحابة غشيت عينيها — أن وجه أمها كسته فرحة كسيرة . وأغمضت عديلة عينيها وقد أحست بهوة تفغر فاها لتبتلعها . واستنجدت بكل ما لديها من روح السخرية حتى لا تفقد شجاعتها ، وقالت وشبح ابتسامة يتراقص على زاوية فمها المررور : اعملوا لنا شاى ...

وبعد لحظة أردفت وقد زاد تراقص شبح الابتسامة على زاوية الفم . تراقصاً امتدت جذوره إلى أحشائها : . . . وعليه الليمونة كاملة !

سؤال صعب

ارتفعت أصوات ضحكات صاخبة تجاوبت أصداؤها في أركان الشارع الهادئ . ومرقت سيارة الأتوبيس كالسهم بعد أن لفظت آخر شرذمة من ركابها . . . واتخذ الصحاب طريقهم وهم يتبادلون النكات والدعابات إلى سهرة لا يدرى إلا الله إلام تمتد . . .

وانفصل أحمد عن الشلة المرحة وانعرج إلى شارع جانبي وأصواتهم تلاحقه بكل ما فيها من مرح وانطلاق . ولم يلبث أن هدأ الكون من حوله ولفه الليل الساجي بغلالة من الصمت . . .

وأحس وحشة لمنظر البيوت الساكنة تتناثر من حوله كأنها شواهد تضم رفاتاً أقلقها صوت دقات حذائه الرتيب على أرض الشارع المرصوف فتململت في رقدتها . . . ومد يده إلى جيبه ليخرج صندوق سجائره كالعادة ، فإذا بها ترتد خاوية . وفجأة قفز إلى ذاكرته العهد الذى قطعه لزوجته منذ خمسة عشر يوماً أن ينقطع عن التدخين . . .

وتجمع سخطه كله . وكاد ينشق غيظاً ، فلم يشعر فى حياته أنه بحاجة إلى سيجارة كحاجته فى هذه اللحظة . . . وراح يلعن الزواج ، واليوم الذى كبل نفسه به . وحكم عليه بتغيير عاداته التى ألفها وعاش عليها أكثر من خمسة عشر عاماً . . .

وشق سكون الليل صوت المذيع ينهى موجز أنباء صوت العرب ، فالتفت مذعوراً فإذا عم محروس العجوز صاحب كشك السجائر على ناصية الشارع قد غلبه النوم فراح يهوم على كرسيه الخشب الصغير بجانب الراديو . . . وقادته قدماه إليه ، وقد علقت عيناه بعلب السجائر المتراصة التى لم يكن يخلو منها جيبه يوماً . . . وأحس بوحشة إليها كالتى

يستشعرها الإنسان لبعد حبيبه . وخفق قلبه ، وجف ريقه . . .

ماذا لو اشترى صندوقاً صغيراً ، أو حتى سيجارتين ؟ ! .

وجد فى السير يدفعه الشوق ، وقبل أن يصل دقت ساعة الراديو تعلن الثانية بعد منتصف الليل .

وارتدت خطواته ، وعاد أدراجه . . .

آه ! انتهت إذاعة صوت العرب ليواجه إذاعة من نوع آخر ، ولن يزيد المسألة تعقيداً برائحة السجائر التى لا بد أن تكتشفها بمجرد دخوله .

وكأنما استيقظ من حلم ليواجه الواقع ، ذلك الواقع الذى يتمثل فى السيدة حرمه ، التى لا شك أنها ساهرة الآن فى انتظاره ، كى تؤنبه بكلماتها ، أو بنظراتها ، أو بصمتها وهو أضعف الإيمان . . .

أربعة أشهر مرت على زواجه ، صحيح أنها لم تكن عسلا كلها كما كان يتصورها قبل الزواج . بل تخللتها نوبات من الغضب والسخط والندم . . . ولكن ثريا بنت حلال قد تسوق الدلال فى بعض الأحيان ، بيد أنها سرعان ما ترضى وتسلس القياد بكلمة حلوة ، أو مداعبة لطيفة .. ثم ماذا يصنع هو؟ ! . ما ذنبه وقد تأصلت فيه عاداته ؟ ! لقد تزوج ليسعد لا ليشقى بتقييد نفسه . والتضييق عليها ؟ ! تزوج لتكميل راحته ، لا لهدمها أو التنقص منها ! . . . صحيح أنه اتفق مع ثريا على يومين فى الأسبوع يسهر فيهما خارج البيت ، ولكن عمله فى الشركة مرهق صباحاً ومساء ، وهو لا يستطيع أن يخرج من المكتب فى الثامنة مساء ليعود تواً إلى البيت ، فكأنه خرج من زنزانة إلى زنزانة ! فإذا به يطاوع عادته ويمضى مع الشلة متعللا بأنه لن يمكث معهم إلا ساعة أو بعض ساعة ريثما يروح عن نفسه عناء العمل الطويل الشاق ، ولكن « المجال » يجرفه فلا يعود إلا كما عاد الليلة فى نيالثاة صباحاً . . .

وتطورت المسألة تطوراً طبيعياً دون أن يحس بنفسه حينما أصبح اليومان المتفق عليهما للسهر مع الرفاق ثلاثة ، ثم أربعة ، ثم خمسة ثم ستة . . . ولكن ما ذنبه ؟ أهو ضعيف أمام عاداته أو تراها تريد أن تجعله يضيق بحياته معها تحت اسم عش الزوجية السعيد ؟ ! .

وتوقف عن المسير وهو يردد لنفسه :

عش الزوجية السعيد ! . كلمات جوفاء يطلقونها ليوقعوا بالرجل ، الفريسة المسكينة داخل قضبان السجن الأزلى ، سجن الزواج ! . .

وتمثلت له « ثريا » زوجته بقوامها الجميل، وجسمها البض وبشرتها الناعمة الملساء ، ودلالها الذى يأسر القلوب . . . فشعر بالذنب ، وانتابه ندم لهذا التجنى السافر رغم ما تتيحه له من سعادة ودفء وجو لا يتوفر إلا فى كنف الزواج . . .

ولم يجدها ساهرة إلى جانب الراديو كما كان يتوقع . كانت راقدة فى فراشها فى قميص أبيض بديع كشف عن ذراعيها وصدرها البض . . . ولم يجسر على الاقتراب منها . فقد صدمته نظراتها التى تطفح بعتاب هادئ . وردت تحيته بصوت لا يكاد يسمع . . .

وحاول أن يتلهى بخلع ملابسه ليجنب نفسه مشقة العتاب . . . وأحس بجوع قاتل فنهض إلى المائدة حيث تركت له ثريا عشاءه ، فوضع الجبن والزيتون وقطعة اللحم المشوى والفاكهة على صينية وجاء بها إلى السرير ليأكل كما كان يفعل فى أعقاب السهرة وهو أعزب . . . فهو لا يطيق أن يغير عاداته القديمة ، ويجب أن يشعر أنه لم يفقدها ، بل احتفظ بها وأضاف إليها شيئاً جديداً : هو متعة هذه الزوجة التى تعنى بالبيت وتدفئ معيشته بحرارة شبابها . . .

ولم تر ثريا جدوى فى إثارة الجدل حول هذا الموضوع كما كان يحدث معظم الليالى . . . فاكتفت بالتنهد وقالت فى استسلام :

— ترى . . . ماذا كان يمسي حال البيت لو لم أكن زوجة مثالية ، وكنت — لا قدر الله — فوضوية ، أتشبث بعادات العزوبة وامتيازاتها فى عدم تحمل مسئوليات الزواج ، وما تتطلبه المعيشة الزوجية من تخل عن عادات العزوبة ؟ . . .

ولم يرد عليها . . . لأنه لم يعرف بالضبط بماذا يجيب . . .

وأدارت له ظهرها وأغمضت عينيها ، وحاولت أن تستسلم للنعاس .. فحمد ربه مرتين : مرة لأن عصافير بطنه سكنت بعد أن التهم الطعام . ومرة أخرى على أن زوجته العزيزة اكتفت بهذا السؤال الفلسفى الرصين . . . ثم رقد ، ولم يلبث أن راح فى سبات عميق إثر تعب اليوم وإجهاده فى السهر . . .

وشعر بيد تهزه ، وصوت زوجته يصيح فى أذنه :

— قم يا أحمد ، قم أعد إفطارك ، لقد تأخر بك الوقت ، ولست بحالة طيبة حتى أقوم لأعد لك القهوة ، فبى رغبة للنوم . . . ولا تنس يا عزيزى أن تأخذ الباب وراءك . . . ولا تحدث ضجة لأنى أريد أن أستمتع بالنوم إلى الضحى كما كنت أفعل وأنا فى بيت أبى . . .

ولم يشأ أن يستفتح اليوم بخناقة ، فصدع بالأمر ، وتحرك على أطراف أصابعه إلى أن أتم اللبس ، والأكل ، وخرج دون أن يشرب القهوة وهو يكاد ينشق غيظاً ، وقد عول على أن يعاقبها بعدم الحضور إلى البيت لتناول الغداء ظهراً ، وبغير أن يخطرها بالتليفون كى يعذبها بانتظاره عبثاً . . .

وقضى وقتاً عصيباً ليمنع نفسه من العودة ، ولكن ما إن حان موعد الانصراف حتى لان قلبه وأسرع إلى البيت .

ودخل على أطراف أصابعه كى يفاجئها بقبلة حارة تنسى معها كل ما حدث بالأمس ، فهو يعرفها ، ويعرف قلبها الطيب الذى لا يمكن

أن يحتبس الغضب أكثر من دقائق . . . ولكنه وجد البيت خاوياً ، ووجد المطبخ بارداً لا رائحة فيه لطعام ، ووجد المخدع منكوشاً وقميصه القذر الذى خلعه فى الصباح مكوراً على الأرض مكانه ! . . . وراح يذرع حجرات البيت فى قلق فلمحت عينه ورقة على المائدة ، فالتقطها ليقرأ فيها هذه السطور .

أحمد . لقد خرجت للترفيه عن نفسى فلا تنتظرنى للغداء . . . تصرف يا عزيزى كما كنت تفعل أثناء العزوبة . . . ولن تعدم مكاناً تأكل فيه . . .

ثريا

ووضع الورقة فى جيبه وهو لا يكاد يصدق عينيه وانصرف يبحث عن مطعم يأكل فيه ، وقد بيت لها أمراً . . . وعاد فى المساء بعد خروجه من المكتب مباشرة . عاد ليجدها واقفة وسط بركة من الماء . فقد نسى صنبور الماء مفتوحاً فى الحمام سهواً بعد أن غسل وجهه ظهراً ، ففاض الماء لأن البالوعة مسدودة . . . ولما كان البيت خالياً فقد غرقت الشقة ، وتلفت السجاجيد . . . وكانت ثريا تفضى إليه بهذه التفاصيل بهدوء قاتل ، فصاح بها :

— ولماذا أنت واقفة هكذا ؟ لماذا لا تتحركين لتجففى هذا الطوفان ؟ .

فأجابته ببرود قاتل :

— إننى تعبة من الفسحة طوال النهار فى حديقة الحيوانات . . . ستجد المكنسة وراء باب الحمام ، وتستطيع أن تقوم أنت بالعملية دون إرهاق . . .

ودفعته برفق فى كتفه ، فزعق زعقة عظيمة صحا على أثرها من حلمه المزعج ، ليجد ثريا وعلى وجهها أعذب ابتساماتها تقول :

ـــ قم يا أحمد الإفطار جاهز .

ولم يجب . بل راح يجيل نظره فيما حوله فى شرود عابس ، فصاحت به وهى تتأمل وجهه :

ـــ قم ! ما بال وجهك متغيراً هكذا ؟ ماذا بك ؟

فأجابها وهو يبتلع ريقه ويستعيد هدوءه ويمد إليها ذراعين مشوقتين

ـــ لا شىء يا حبيبتى . . . لقد كنت أجيب عن سؤال صعب . . . اللهم اجعله خيراً . . .

من نوع آخر

كانت تجمع ملابسها ودموعها تتساقط محرقة على خديها ، وشهقات مكتومة تندفع إلى حلقها فتقبض عليها بشفتيها المحمومتين فى إصرار عنيد . وصوت كهدير الموج يضرب جوانب رأسها فى طرقات كرجع الصدى . . .

— اخرجى من بيتى يا خائنة . . . يا سارقة . . . يا متشردة . . .

خائنة ! . . . سارقة ! . . . متشردة ! . . .

كلمات لم تسمعها طوال عمرها ، عمرها الذى يربو على التسعة عشر ولا جرؤ إنسان أن يوجه إليها مجرد كلمة لوم . . .

وانهمرت دموعها أكثر غزارة وقد تمثلت والدها المريض متهالكاً ضعيفاً فى أحد أركان سريره الكبير ، وعيناه الكليلتان لا تفارقان وجهها الحزين ، وصوته الواهن يخرج ضعيفاً متقطعاً من بين شفتيه .

— راجية ، يا ابنتى . . . إياك . . . إياك وأصدقاء السوء . . . احرصى ألا يخدعك أحد . . . كونى جادة . . . واعية . . .

ونكس رأسه وتهدل جفناه وخرجت الكلمات من فمه كالحشرجة :

— تباً لى من وغد خسيس . . . ارحمنى يا رب . . .

وانكفأت راجية على وجه أبيها توسعه قبلا ، وتتحسس رأسه الأشيب بيدها ، وتقول فى صوت يقطر حناناً :

— وما ذنبك يا أبى ؟ لقد خدعك المجرمون . . . وقعت فى أيد شريرة لا ترحم . . . لو لم تكن طيب القلب ، صافى السريرة ، لما صدقتهم وضمنتهم بكل ما تملك . . . ولكن صبراً فالله يمهل ولا يهمل . . .

فأجابها فى صوت يائس :

— يمهل ولا يهمل ! سنتان وأنا طريح الفراش والصدمة أودت

بوالدتك . . . وأنت . . . أنت يا بنيتى انظرى كيف وصلت بك الحال . . .

ونكست رأسها استسلاماً . . .

كيف وصلت بها الحال فعلا ؟ ! من كان يظن أن راجية المدللة ابنة العز والجاه ، الطالبة بكلية العلوم تعمل مربية أطفال لتنفق على أختيها ووالدها العليل ، ولتدبر من المبلغ أيضاً ما تستطيع أن تتم به تعليمها ؟ !

وأتاها صوت والدها العليل كسيراً واهناً :

— ولكن . . . ألم تجدى عملا هنا فى القاهرة بدلا من غربتك وبعدك عنا فى الإسكندرية ؟ ألا يوجد من صديقاتك من تبادلك مكانها فى البنك هذه الأربعة الأشهر فقط ؟

لقد كذبت عليه ، كذبت عليه وادعت أنها ستعمل ببنك فى الإسكندرية ، وإلا كانت الصدمة أودت بحياته ، وراحت تطمئنه وهى تحتضنه :

— احمد ربك يا والدى أن وفر لى هذا العمل السهل بأجر مجز . . . وهل كانت رغبتى أن أبتعد عنكم ؟ . لقد حفيت قدماى ولم أجد من يمد لى يد العون ، ثم عشرون جنيهاً ليست بالمبلغ الهين . وسأعود إليكم ومعى مبلغ كبير من المال يمكننى من التفرغ لدروسى ولم يبق سوى عام على تخرجى ، ثم لا تنس يا أبى أننى سأتقاضى مرتباً كبيراً إذا أحرزت التفوق ولن يتسنى لى ذلك إلا إذا أحسست بالاطمئنان المادى من جهتكم ، والاستقرار وحده هو الذى سيوفر لى التفرغ . . .

ونظر إليها والدها فى إعزاز وحب ، ثم قال وهو يربت خدها :

— ليحفظك الله يا بنيتى ، ليرع خطاك ويرزقك بأبناء الحلال فى كل خطوة تخطينها . . .

وتنبهت إلى واقعها ، وترقرقت الدموع فى عينيها :

أبناء الحلال ! . . . آه لو كان والدها يعلم أى عمل هذا الذى تقوم به؟ ولكن ما ذنبها وقد سدت جميع السبل فى وجهها ، ثم إن مربية لثلاثة أطفال فى بيت عريق كهذا البيت الذى التحقت به ، وبهذا المرتب الضخم بالنسبة لحالهم، ليس بالأجر الهين ، صحيح أن العمل صعب ، والأطفال شياطين ، ولكنها مضطرة . . . والمضطر يركب الصعب .

وغمغمت ، نعم يركب الصعب . . . ولكن كيف حدث هذا الذى حدث ؟ ! كيف جرؤت هذه السيدة الكريمة الرفيعة أن تنهال على رأسها بهذه الشتائم المرة ؟ ما الذى رابها فى تصرفاتها ؟ . . . إنها لم ترتكب إثماً . بل كانت مثال المربية الأمينة المطيعة الطيبة ، لقد تناست كبرياءها بمجرد أن قرأت الإعلان ، وأقبلت على عملها بكل همة ونشاط ، يحفزها للتفانى أب مريض وأختان فى مسيس الحاجة للتربية، وسنة طويلة من العمل الشاق فى كليتها لتضمن التفوق . . .

واعترض تفكيرها « صبحى » بوجهه الهادئ ، وابتسامته المشرقة وصوته الأجش العميق :

— أنت قدرى يا راجية . . . لقد صممت وانتهى الأمر .

إنها لم تجاره فى تصرفاته . . . لم تفتح له قلبها يوماً ولا أطلعته على سرها الدفين ، لم ترتكب شيئاً يعيبها ، كانت دائماً تصده وترجوه أن يبتعد عن طريقها ، فليست الإنسانة التى تصلح له .

كانت تقول له ذلك لتبعد عن ذهنه شبهة أصلها ، ولكنه كان يجيبها دائماً :

— مهما كنت . لن أتخلى عنك ، قولى لى فقط من أين أتيت ؟ وهل أنت وحيدة فى هذه الحياة ، من أهلك ؟ أمن الإسكندرية أنت ؟ قولى لى يا راجية . . . أريد أن أعرف كل شىء عنك ، أريحينى بربك . . .

لماذا لم تصده من أول الأمر ؟ ليتها فعلت ، ليتها لم تطاوع عواطفها ،

وتتناس وضعها فى البيت . . .

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى خلا لهما الجو فيها ، فمنذ التحقت بالعمل وهى تراه بين حين وآخر فى زيارة أخته ربة البيت ، ومنذ لاحظت نظراته المريبة إليها ، وهى تتحاشاه خوفاً من أن يعرف سرها ، وكثرت زياراته ، ولا تدرى هل كانت الصدف أو أنه تعمد أن يحضر حينما تكون أخته فى الخارج . . . وبذلك تسنى لها أن تجاذبه الحديث ، ويتناقشا فى أمور كثيرة . وكانت تشعر باحترامه وتقديره لها .

ألعله تنبسم من حديثها أنها غير من هن فى طبقتها ؟

كلا ! لو كان هذا صحيحاً لما حاول أن يقبلها عدة مرات . . . نعم عدة مرات . . . وآخرها أمس . . . وكان الأحرى به أن يحترمها ، ولكنه لم يأبه لصدها وتوسلاتها ، وهجم عليها كالوحش الكاسر . . .

رباه ! . . .

وتهالكت على المقعد وجسمها كله يرتجف كأنما أصيبت بطعنة خنجر فى أحشائها . . .

لماذا فعل ذلك ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ !

ربما تستطيع أن تقنع نفسها أنه فعل ذلك عن رغبة تسلطت عليه لكثرة صدها له ، ولكن الذى لا تستطيع فهمه إطلاقاً هو : كيف سمحت له نفسه أن يخبر أخته بما حدث كله وهو المعتدى الأثيم ؟ . ألعله أراد الانتقام منها ؟ وحتى . . . أخته لم تقبل منها دفاعاً أو حتى تفسيراً لموقفها ! ورمتها بأقذع الألفاظ ، وطردتها شر طردة ! . . .

لقد كانت تنتظر بفارغ صبر ، نهاية هذا الشهر لتعود من حيث أتت دون أن يقف إنسان على سرها ، وقد عولت أن تسقط هذه الفترة تماماً من حياتها ، ولكنها لم تمهلها . . .

وجمعت حوائجها ، ووضعت ما ادخرته من نقود خلال الثلاثة

الأشهر فى حقيبة يدها مع أوراقها الخاصة وخطابات والدها التى كانت تصلها على شباك البريد ، وكل ما تخشى ضياعه ، ثم اقتطعت بعض النقود لتذكرة السفر وبعض المصاريف النثرية ، ووضعتها فى جيب سترتها حتى لا تعرض مدخراتها للنشالين ، وتسربت من الباب الخلفى كى تتجنب أى موقف حرج .

وفى القطار جلست تستعيد أيام شهورها الثلاثة لحظة بلحظة وكلما اعترض فكرها خيال صبحى ، أحست بحنين إليه يشوبه عتاب حزين لا موضع فيه لنقمة ، ثم لا تلبث أن تلوم نفسها وتزجرها .

وأفاقت من رحلتها الطويلة مع نفسها على صوت الحمالين فى محطة القاهرة والناس من حولها يخرجون سراعاً وإذا هى وحيدة فى الديوان كله . فقامت على عجل تلملم متاعها القليل . . .

وصعقت ، وأصابها دوار ، وأحست أن قدميها تخذلانها .

أين الحقيبة ؟ . أين حقيبة يدها ؟ .

وراحت تفتش الأريكة ، وتحتها ، وفوق رف الأمتعة . . .

وأصابها خبال . . . لا يمكن أن تكون وضعتها فوق الرف ، لقد كانت بجوارها طوال الوقت ! فى حجرها ! فى حضنها ! من جرؤ أن يخطفها منها ؟ !

وحاولت أن تتذكر أشكال من كانوا معها ، ولكنها لم تستطع أن تتبين وجهاً واحداً . . .

لم تكن تحس بوجود أحد معها . . . عاشت هذه الساعات فى جو مغلق ، جو قاتم ، لا مكان فيه لغير أحزانها .

وخرجت كالمصعوقة إلى ناظر المحطة ، وكان رجلا جليلا ودوداً ، طلب منها أوصاف الحقيبة وكل شىء فيها ، وكتب مذكرة ووعدها خيراً وطلب منها أن تمر عليه فى اليوم الثانى .

وانصرفت وهى على يقين أنها لن تظفر بها. كانت تمشى كأنها تسبح فى ضباب . وكل ما حولها خيالات . . . لقد فقدت كل شىء ، حتى المبلغ الذى ستستر به أيامها حتى تتخرج، تبخر . . . ذهب . . . يا لتعسها وشقاء مآلها . . .

وكان عليها أن تتجلد أمام والدها الذى استقبلها بفرحة دهشة ولم تجعله أو أختيها يفطنون إلى كربتها ووجيعتها .

ولم يزر الكرى جفنيها طوال الليل ، راحت تردد فى أنين :

ــ لعل الله يكرمها ، إنه ليس بظالم ، إنها لم ترتكب إثماً . . .

وغفت عن وهن وقد بزغت أولى تباشير الصباح ، ثم تنبهت فجأة على صوت طرقات كأنها آتية من أسفل . وقامت مفزوعة والكرى ملء جفنيها فإذا الطرقات على الباب الخارجى . وأسرعت تفتحه على عجل حتى لا يوقظ الطرق والدها المريض وأختيها النائمتين .

وفى فرجته رأته، رأت صبحى بقامته، بلحمه ودمه، يمد إليها يده بالحقيبة ، فخانتها قدماها ، وأحست أنها تهوى ، ولكن ذراعين قويتين احتضنتاها ورفعتاها عن الأرض ، ولم تدر بنفسها .

وأفاقت فوجدته بجانب فراشها :

ــ لقد نسيت الحقيبة فى البيت يا راجية ، اعذرينى أنى فتحتها لأعرف عنوانك، كان لا بد لى أن آتى حالا لأحضرها لك . لقد ركبت قطار منتصف الليل الذى وصل فى الخامسة صباحاً .

وقالت فى هزال :

ــ شكراً . . .

ولم يدعها تتم ، وضع يده على فمها وبيده الأخرى رفع يدها فى إعزاز وجعل يقبلها بشغف وحنان وإكبار وقال :

ــ راجية . لقد أحببتك منذ وقع نظرى عليك ، أحببتك قبل أن

أعرف تضحياتك . . . قبل أن أعرف نبلك .

ونظرت إليه متسائلة فى صمت .

– قرأت كل شيء . قرأت كل أوراقك ، لم أستطع لأن أمنع نفسى . وبعد أول ورقة وجدت نفسى مدفوعاً بقراءة المزيد ... وكل ورقة تكشف لى عن جانب جديد . جميل ... عزيز على نفسى يجعلنى أشعر بتواضع شديد وأنا أسألك : أترضينى شريكاً لحياتك ؟

وكانت دقات قلبها تتلاحق بعنف فلم تدر بماذا تجيبه وأحست بسخونة على خديها وهى تسأله :

– ولكن لماذا ؟ . . .

فأدرك أنها تسأل عن أخته . لماذا قال لها :

– كان لا بد أن أخبرها . . . كنت غرًّا . هيأت لى عاطفتى أنى سأجد الجميع يقفون فى جانبى ، وأولهم هى . . . ولكن للأسف .

وضغطت على يده ، ولم تستطع أن تحبس دموعها . . . ولكنها كانت دموعاً من نوع آخر .

الطريق المرسوم

كان صوت جهاز راديو بعيد ، عبر الشارع يطن فى أذنيها ، وهى تسمع سؤاله . . . وتتلقى تحديق نظراته القوية ، كأنه يريد أن يصب عليها كل ما لديه من تيار مغناطيسى .

وقاومت اضطرابها وراح عقلها يصب اللعنات على أولئك المخترعين المغفلين الذين أضاعوا وقتهم فى ابتكار أجهزة بهلوانية تافهة ، ولم يفكروا فى اختراع نافع جداً ، ولازم جداً ، إنه الاختراع الوحيد الذى تشعر بلزومه لها فى هذه الساعة بالذات ، وكل مسكينة فى موقفها من بنات حواء. ولا بد أن هناك مائة مليون مسكينة مثلها فى مثل موقفها هذا من نماذج لأبناء آدم الجبارين يشبهون هذا الماثل أمامها يصب عليها كل نيران نظراته المضطرمة العارمة ، التى تثير فى أعماق كيانها الضعيف أعتى البراكين . . .

لماذا لم يشغل هؤلاء العباقرة أنفسهم باختراع أهم ألف مليون مرة من الراديو والتليفزيون ؟ اختراع « ترانزستور » بطارية صغيرة جداً يضىء نوراً أخضر أو أحمر أو أصفر كأنوار علامات المرور لتعرف المرأة هل المرور ممكن ، أو خطر ، أو بين بين . جهاز صغير كهذا يكشف عما فى قلب آدم وعقله نحو المسكينة التى يصب عليها سحره الطاغى . . . فتعرف هل هو صادق أو يغرر بها . . .

وتذكرت شيئاً آخر ففزعت ... تذكرت أن هذا الجهاز «الترانزستور» لو أتيح لكل الناس ، فماذا يكون موقفها حين يسلط زوجها هذا الجهاز على عقلها . . .

كلا ! يجب أن يكون هذا الاختراع الثمين وقفاً وحكراً عليها هى فقط . . . آه يا رب لو استطاعت فقط أن تعرف ! !

وأعاد عليها سؤاله ، وهو يصب فيها نيران نظراته فيسحق عقلها وإرادتها سحقاً ، وهي تتماسك :

ــ لا أدرى لماذا تصرين دائماً على تعذيبي ؟ . .

وأخذت عيناها تتفحصه في توجس . فرغم صوته الحزين وملامح وجهه المتقلصة ،لم تستطع أن تكون فكرة واضحة عما يتكتمه في دخيلة نفسه : هل هو صادق حتماً ، أو يمارى ويلعب بها ؟ . . أترى حقاً يحبها أم يريد أن يستشف طوايا نفسها؟. إن نفسها جياشة بالأحاسيس ... تحسها كالبركان على وشك الانفجار . . . لا تدرى في أى لحظة سيفلت منها زمامها . . . ربما الآن . . . فوراً . . . أو بعد دقيقة ... أو ربما تستطيع التحكم ويمر الموقف بسلام وتتغلب على ضعفها . . . الله أعلم ... أما إذا تغلب هو وصار سيد الموقف . . . رباه ! . إن نفسها تفلت منها فتعربد وترتكب من الأفعال ما لا تجسر أن تواجه به هذه النفس إذا عادت إلى حالتها الطبيعية ! . . .

حالتها الطبيعية ؟ !

إذن هي لا ترتكب هذه الأعمال وهي في وعيها !

أحقاً إن داخل النفس البشرية شخصيتان متعارضان كامنتان ، هما : الخير والشر ؟ أتكون الشخصية الشريرة هي التي تستحوذ عليها وتشل تفكيرها الطبيعي وتجعل بذور الشر الكامنة تتشعب كالأخطبوط تمتص كل ما حولها وتعيث فساداً دون أى رادع من الشخصية الأخرى المستنيمة لها ؟ !

إن سلطانه أقوى الآن ، في هذه اللحظة بالذات ، من أن يدعها تفكر ، فقد أحست بجيشان عواطفها تمور وتملأ جسدها ثم يزحف إلى لسانها اسمه الحبيب فإذا به يقفز إلى شفتيها فتهمس به في نشوة . . . فيمد لها يده المرتجفة بعود ثقاب ليشعل لها سيجارة ، فتتلامس الأيدى وتتلاقى

العيون فى نظرة صامتة جياشة تزلزل جسمها كله . . .

* * *

منذ عام عرفته . . . كان صديقاً لزوجها ، أحضره ذات يوم إلى البيت لتناول طعام الغداء ، وقدمه إليها وهو متهلل بعودة صديق طفولته من الخارج. وكانت جلسة ممتعة تخللتها ذكريات الطفولة العذبة وأطوار الشباب وما مر بهما ، وقص عاطف على صديقه زوجها ما مر به فى حياته ، ومأساة حبه ، وهربه إلى الخارج بقلبه الجريح ، وعزوفه عن المرأة والزواج بعد ذلك ، وحاول زوجها أن يثنيه عن عزمه ، ضارباً بها وبحنانها وحبها وإخلاصها أكبر مثل يدحض فكرته، وإذا كانت امرأة قد خانت عهوده ، فليس معنى ذلك أن كل النساء سواء . . .

وأغضى عاطف ولم يحر جواباً . ولكن سحابة حزن رانت على الموقف ، فأسرع زوجها يدير دفة الحديث إلى ظروف العمل والطقس ودخلت ابنتهما فى هذه اللحظة من نزهتها الصباحية مع دادتها ، وراحت تتقافز ، وساد الجو مرح جميل بدخول الطفلة اللطيفة . . .

أما هى فلم يستطع جو الموقف أن ينتزع من نفسها إحساسها بالرثاء لهذا الشباب الفارع الوسيم ، وراحت تختلس إليه النظر وهو يداعب طفلتها فى حنان وإقبال شديدين . . .

وتعددت زيارات عاطف للبيت ، وأصبح يدخل ويخرج فى أى ساعة يريدها بعد ما أعطاه الزوج مطلق الحرية والثقة مساهمة منه فى إبعاد روح الكآبة عن صديقه العزيز . . . وإشعاره بجو العائلة الدافئ ليعيد إليه ثقته بأن هناك نساء فضليات . . .

ولم تكن سهير بأقل رغبة من زوجها فى إدخال السرور على قلب عاطف . . . ولما كانت متزوجة منذ ست سنوات ، ولم تنجب سوى هذه الطفلة ، لأن مانعاً ألم بها بعد ولادتها ، قرر الأطباء أنه سيزول

بمرور الزمن ، ولكن السنوات مرت ، وهى فى شوق ملح للأطفال . مما جعل الفراغ يلون حياتها ، ولم يفلح حب زوجها وحدبه فى ملء حياتها، لأن أعماله الكثيرة كانت تعوقه عن مرافقتها إلى أمكنة اللهو والنزهات ، فانطوت على نفسها تجتر آلامها فى صمت حتى لا تزعج زوجها وتسبب له خيبة أمل فى العش الهنىء الذى بناه وزوده بكل مريح وجديد ليسعدها ويدخل على قلبها السرور . . .

وبمرور الأيام أحست سهير أن وجود عاطف معها قد فجر فيها ينابيع شبابها بعد ركود . . . وفى كل مرة يجلس إليها تكتشف فيه أشياء افتقدتها فى زوجها . . . وارتاحت إليه وأصبحت تحس بوحشة لغيابه ، وشعر ببوادر استلطافها له فراح يتقرب منها ويرمى شباكه حولها ! . .

وذات يوم ، وقد انفردا فى البيت انتظاراً لعودة زوجها من عمله ، كان هذا الموقف الذى قلب حياتها رأساً على عقب ، فقد راح يلقى فى أذنيها كلمات الحب والهيام . وأحست أن الموقف سيفلت من يدها وقد تملكتها نشوة كادت تدفع بها بين أحضانه ونسيت كل شىء إلا صوت نداء يصرخ فى أعماقها . . . وفى هذه اللحظة سمع صوت أقدام زوجها فوق الدرج ، فعادت إليها حواسها المستنيمة ، وفى لمح البصر تغلبت على عواطفها وأخذت سمتها الطبيعى . . .

* * *

لماذا تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك اليوم ؟ لا تدرى ، ولا تدرى أيضاً إذا أتيحت لها مثل هذه الفرصة هل كانت تستعيد الذى فعلت أو تحجم عنه . إنها تستسلم للحظتها ولا تفكر فيما يكون بعد ذلك. وهذا — للأسف — عيبها الذى فشلت فى التغلب عليه مهما قاومت ! . وكان زوجها يعلم فيها هذا الضعف لذا حرص أن يجنبها الوقوع فيه دون أن يفتئت على حريتها حتى لا يقوى فيها هذه الرغبة وهو يعلم أن كل ممنوع مرغوب . . .

ولم يغب عنه الاستلطاف الذى بينها وبين صديقه ، وخوفاً من أن تحدث كارثة أحس ببوادرها فى عيني زوجته ، ولم يكن يخفى عليه ما تدبره — مهما فعلت — إذا به يترك كبرياءه جانباً ، ويعاتبها عتاباً قاسياً لحركات بدرت منها ومن عاطف — لم تخف عن عينيه — وطلب منها فى حزم ، ولكن فى رفق ، أن تتحكم فى عواطفها ، ولا تندفع وراء نزواتها ، وسيقطع هو علاقته نهائياً بهذا الذى كان يعتبره يوماً أعز أصدقائه . . .

وشعرت بكلمات زوجها كطعنة نصل فى أحشائها ، خصوصاً وهى تقسم له أنه لا يوجد بينها وبينه أى شىء تلام عليه كانت تعلم أنها تكذب وأن ثمرة خطيئتها تتلوى فى أحشائها تنهشها متلذذة بامتصاص دمائها ، وأن الأمر قد خرج نهائياً من يدها ، ولم يبق غير أيام لتفاجأ بجريمتها ماثلة أمام عينيها ! . . .

نعم . إنها قطعت كل صلة لها به بعد هذا الحادث ولكن شعوراً موجعاً كئيباً لازمها لعظم الذنب الذى ارتكبته فى حق نفسها وزوجها ، وودت لو تطعن الجنين وترديه ميتاً قبل أن يخرج إلى الوجود ، وتدفن معه عارها وسرها الذى سيصبح بعد ولادته علماً على رءوس الأشهاد ! . . .

شيئاً واحداً كان يريح أفكارها المكتئبة ويومض نوراً من الأمل فى نفسها ويجعلها تتأرجح بين الشك واليقين :

لماذا لا يكون المولود ابن زوجها ؟ . . ألا يمكن أن يكون حملها جاء نتيجة حالتها النفسية وهى تحس أنها محبوبة مشتهاة من رجلين فى آن واحد ؟ . . .

لكن القدر كان يدخر لها فى جعبته عقاباً ظنت أنها تستطيع الإفلات منه ، وإذا المولود صورة طبق الأصل من عاطف . . .

رباه ! أى مصيبة حلت بها ، أى كارثة ستحطم حياتها ! أى عار

سيلحق بأيامها . . . لقد فقدت كل شيء . . . فقدت نفسها أولا ، وستفقد زوجها وبيتها والحياة الناعمة والابنة الجميلة . . . لقد تجسمت لها شناعة الموقف بعد ما انجلت الغاشية ، وأحست أنها تسقط من شاهق إلى الحضيض حيث الخزى والعار والشنار . . .

وكرهت الطفل ، كرهته من كل قلبها ! . . . كانت ترتعد فى جزع كلما قدموه إليها لترضعه ، فتحسه ثعباناً ينهش ثديها ! . . وتود لو تصرخ من أعماقها أن يبعدوه عنها ، والناس يدخلون إليها مهنئين بعد ما انقطع الأمل فى إنجابها مرة ثانية ! . . .

إنها تحاول أن تتماسك وتقبل عليه كيلا يفتضح أمرها ، رغم أن الأمومة غاضت من قلبها وكأنما لا تربطها بهذا الوليد أى عاطفة ، ففيه يتجسم عارها ، وبوجوده يظل كالسيف المسلط على عنقها . . .

كانت ترتعد وتتيبس أطرافها كلما رأت زوجها يلاطفه ويقبله ويتفحصه بعينيه ، فهو أول من يدرك الشبه الذى بينه وبين عاطف ، بعد الشك الذى أصابه من علاقتهما . . .

ترى هل يفاجئها يوماً بهذا الاتهام ؟ لا تظن . . . فزوجها عاقل حليم . ولكنها لم تجربه فى مثل هذا الموقف . . .

ونما الطفل . جميلا ذكياً لطيفاً . . . يتدفق صحة ، ومع نموه كان ينمو هلعها ، ومع كل حركة والتفاتة منه كان رعبها يتضخم . . . فنظرات عينيه وتكوين جسمه ، صورة لا تخطئها العين لشريكها فى الجريمة . . .

ألم يلحظ ذلك زوجها ؟ !

ربما نعم . وربما أيضاً لا ، فلم تظهر عليه أى بادرة تنم على شكه .. ولم يفاتحها فى أمر عاطف منذ ذلك اليوم . يوم العتاب . . .

كان صوت ضميرها يؤرقها ! . . .

كان لا يتركها لحظة هادئة هذا الضمير . كان عذابه أشد من

عذاب الجحيم . . .

وكلما حاولت أن تختلق لنفسها عذراً ، وكلما حاولت أن تنفى بنوة الطفل للآخر... وجدت دليلا يؤكد عدم انتمائه للزوج . فينهار كل أمل للصلح مع نفسها . . .

وساءت صحتها ، وانتابتها الهواجس ، وصارت تلازمها فى ليلها وأثناء النهار ، وقررت فى النهاية أن تهمل الطفل حتى تسوء صحته ويموت . . .

لكنها لم تستطع . كان قلبها ينزف وهى تراه يمد لها يداً صغيرة بضمة متلهفه إلى صدرها . . فتقبل عليه تلقمه ثديها ودموعها تنهار غزيرة فوق الوجه الملائكى ، وتذوب كراهتها له ويحل محلها إشفاق مرير .

وثارت كوامن الأثرة فى نفسها بعد عذاب أوشك أن يصل بها إلى الجنون . وراحت تجادل نفسها :

كيف يمكن أن تستسلم لهذه الأفكار المميتة ؟ . كيف ترضى بهذا العذاب الذى يضنيها ويحيل حياتها إلى شقاء ؟ . أهى المرأة الوحيدة التى زلت فى حياتها ؟ أهى الوحيدة التى استسلمت فى ساعة ضعف ؟ ! . كم من امرأة ارتكبت أضعاف أضعاف مافعلته ويعشن هادئات ناعمات يتمتعن بحب أزواجهن وثقتهم ! . لماذا تترك نفسها عرضة للانهيار وقد انقطعت عن هذا الرجل منذ اليوم الذى حلفت لزوجها ألا تراه ، وعاشت عيشة الفضيلة والإخلاص ؟ . . لماذا لماذا ؟ !

ويجيبها صوت من أعماقها هازئاً :

إذا سقطت المرأة مرة واحدة فى حياتها لا يمكنها أن تعيش عيشة الفضيلة بعد ذلك أبداً . . . لا تخدعى نفسك . . .

هراء . لقد سقطت وتابت ، وأصبحت منذ ذلك اليوم امرأة أخرى ، حتى إنها تنظر إلى ما بدر منها وتتعجب كأن إنسانة غيرها هى التى فعلته.. إنسانة لا تمت لها بصلة . . .

وفجأة مرض الطفل ، أصيب بالتهاب رئوى حاد ، وكتب له الطبيب عديداً من الأدوية . بعضها كل ثلاث ساعات ، والبعض الآخر كل ست ساعات ، وشدد فى المحافظة على المواعيد ، نهاراً وليلا . فالخطر كامن فى التهاون أو الإهمال .

وبدأت فى تنفيذ التعليمات بدقة . . . ونسيت أحقادها كلها ، ومر النهار وهى على حال من القلق والتوجس والانفعال ، وهى تستمع لحشرجة أنفاس الطفل تتردد فى أنحاء الحجرة بينما أنينه يأتيها خافتاً ، وقد التهبت وجنتاه بحمرة قانية ، وأسبل جفنيه فى استسلام ضعيف . . .

وزحفت جيوش الظلام تطبق على الحجرة الصغيرة ، والطفل المستسلم والأم الساهرة بجانبه ، وانتشر السكون فى البيت كله . فالأب يرقد فى الحجرة المجاورة مع ابنته ، والخادم فى المطبخ . . .

ومر الوقت ثقيلا بطيئاً ، وهى جالسة بجوار الفراش ويدها على خدها ، وعيناها على وجه الطفل فى شرود ساهم .

وسبحت أفكارها بعيداً ، وغامت عيناها فى تيه من الخيالات والأحداث ، واختلطت المرئيات ، وإذا بالطفل يتمثل لها رجلا ، وإذا ما حدث بينها وبين هذا الرجل يتراءى أمامها فى صورة واضحة ليس فيها لبس . . .

وتتململ فى جلستها ، والحوادث تتراءى لها كشريط سينمائى وتنتفض بذور الشر الكامنة فى أعماقها وتصيح بها :

اتركى الطفل دون دواء ، سيموت ميتة طبيعية ، لن يلحق بك أى شك . . . إنها فرصتك الوحيدة . . .

وتصاب برعشة حادة ، وتفتح عينيها مذعورة لتصطدم بتباشير الفجر تأخذ طريقها إلى الحجرة الصغيرة الساكنة من خلف زجاج النافذة . . . وطار عصفور واصطدم بالزجاج المغلق ثم ولى هارباً فى ذعر . وقامت

كالملسوعة تنظر فى ساعتها ثم إلى وليدها ، وشهقت شهقة مروعة .

كان جثة هامدة . . .

مات الصغير قبل أن تسعفه بالدواء ! . .

وانكفأت على الجثة الصغيرة تبكى بحرقة . . . وسياط نار تلسع قلبها ، وانتابها إغماء حينما خلصوه من بين يديها عنوة ليذهبوا به إلى مقره الأخير . . .

وحينما أفاقت أحست كأن شيئاً من البرودة أو الهدوء العلوى يسرى فى أجزاء جسمها جميعاً ، ولم تستطع إلى البكاء سبيلا ، كأنما انسكبت آلامها كلها وأزيح عبء ثقيل عن كاهلها ، وشعرت بخفة وانطلاق ! . . .

* * *

وحار الناس فى أمرها ، لما يرونه فيها من رزانة وعقل وعزوف عن البكاء لايتفق مع تحرقها السنين الطوال إلى طفل ؛ ومن يدرى ربما لاتنجب سواه ، وكانوا يهزون رءوسهم متعجبين لقدرتها على ضبط أعصابها !

ولا تعدم متحذلقاً من المغرمين باستنباط الحكم من الأحداث الجارية ، يهز رأسه هزة العليم وهو يقول :

ــ حقاً ليست العبرة بالصلاة والصوم ، فهذه المرأة لاتصلى ولاتصوم ولكن لا شك أن جذوة الإيمان التى فى سريرتها حية متوقدة ، وإلا لما استطاعت أن تجد بهذه السرعة العزاء والسلوان . . .

وتهز هى رأسها وصوت جهاز راديو بعيد يطن فى أذنيها عبر الشارع . . .

ويمضى كل شىء فى طريقه المرسوم .

دقات لا تكذب

بلغت الباخرة مرسى الثغر وتدافع الركاب نحو سلم النزول إلا «سعفان» ، فقد راح يطيل الحديث مع صديقة سفره الشابة اللطيفة « سناء ». وهو يتباطأ لعل الله يلهمه ما يفتح أمامه طريقاً لدوام هذه العلاقة القصيرة التى بدأت بتلاقيهما على الباخرة . وفى أعماقه يهمس إحساس غامض أن نهايتها ستكون بلحظة الوداع وافتراق كل منهما عن الآخر بعد المرور من الجمرك .

إن حديثها ولهجتها تدل على أنها من بيئة معرقة فى أصول الترف وتقاليد الخاصة من علية القوم . توارث أهلها الترفع والامتياز كابراً عن كابر ، فكانت حركاتها وإشاراتها وألفاظها بمقدار . وطريقة معيشتها لها طابع مميز يدل على أصالة العرق وصراحة النسب الكريم فى اعتدال واتزان . . .

أما هو فمن سواد الناس كان جده فلاحاً أجيراً ، وصار أبوه تاجراً متواضعاً ، ثم تقدمت به الحظوظ فأثرى ، على استقامة فيه ، فأرسل ولده إلى الجامعة ، ثم بعثه بعد ذلك إلى بلدان أوربا عيناً له فى مصا نعها يشترى من نتاجها ما يستزيد به من إدرار الرزق وسعة التجارة ، فزادت ثروته وأثرى ثراء مكن ابنه من السفر فى الدرجة الأولى والظهور بمظهر فخم . . .

والتقى «سعفان» على ظهر الباخرة فى الدرجة الأولى الفاخرة بالآنسة سناء . وكانت فى سناء خفة روح وحب للطلاقة ، فإذا بها وهى فى حالة سأم على الباخرة تتعرف بهذا الشاب المصرى ذى الاسم الذى لم تألفه فى بيئتها . وللجديد طرافته التى تستهوى النفس فى معظم الأحيان . . .

كانت هذه الطرافة هي العامل الأول على امتداد المعرفة بينهما وازدياد الألفة ، فهى تعشق كل تغيير ، وتجد فيه متعة ما بعدها متعة . . .

لذلك لم تكن أقل منه رغبة لحظة الوداع فى امتداد تلك المعرفة ، كما شعرت أنها لا تستطيع أن تقول له وداعاً لا لقاء بعده. كأنما كانت المعرفة ضرورة زالت بزوال دواعيها . ولعل شيئاً آخر دفعها إلى استدامة هذه المعرفة ، هو ظرف هذا الفلاح الذى يأبى إلا أن يذكر الناس بأنه فلاح. فهو يتكلم أحياناً وبلا مناسبة بالجيم والجاف . . . مع أنه يجيد الحديث بلهجة أبناء القاهرة المألوفة . ومع أنه لم يولد ولم ينشأ بالريف . . . ولكنه الحنين إلى الأصل القديم والاعتزاز الكريم به فى مواجهة ذوى الأصول والأحساب . . .

وكذلك اجتمع الذوق وحب التحرر والاستلطاف على حمل سناء على دعوة سعفان إلى تناول العشاء مع عمتها فى قصرها ، فتلك العمة هى البقية الباقية من أهلها ، وهى كافلتها وراعيتها بعد فقد والديها وهى طفلة . . .

ومع الأيام وجدت فيه عشيراً لطيفاً فى غير رخاوة ، وسميراً أنيساً فى غير ضعة ولا ملق . . . وسحرتها منه تلك البساطة المعتزة بنفسها ، وذلك التواضع الذى ينبض بالإباء والشمم . . . وفهمه للحياة بعقلية متحررة مستقلة ، وليس تفكيره من قبيل الصيغ المحفوظة والقوالب المنقولة .

وبدأ حبه — دون أن تفطن — يسرى فى نفسها سرى النار ، يزيده اشتعالا تلك النظرات الطويلة المحرقة التى كانت تضبطه يصوبها إليها فى سكون مشحون بعواطف مكبوتة لا تجد طريقها للانفجار !

وكلما اختلت بنفسها تتجاذبها عوامل مقلقة . كانت تقارن بينه وبين أبناء بيئتها ، إنه يختلف عنهم اختلافاً بيناً . فى الذوق . فى الطباع . فى

العادات وطريقة التفكير . كانت تعيش فى صراع بين عاطفة قوية فوارة تدفعها نحوه ، وبين عقل يحذرها من زواج غير متكافئ فيشمت فيها الأعداء والأحباب .

أما سعفان برغم الحب الذى كان يتلظى فى قلبه فقد أحجم عن مصارحتها خوفاً من أن ترده رداً يجرح كبرياءه وكرامته ، ورغبة فى استدامة هذه المودة التى يفرق من انقطاعها إن هو تمادى وأعرب لها عن مكنون قلبه . . .

وذات مساء . وكان على موعد معها لتناول الشاى فى قصرها المطل على النيل ، وفى الشرفة ، وبين أنغام الموسيقى الشجية الهادئة ، قدمت سناء فنجان الشاى لسعفان وعيناها إلى الأرض حتى لا تلتقى بعينيه المحرقتين ، فقد أصبحت تقلقها نظراتهما وتجعلها تفقد بعض اتزانها .

ولامست يده يدها فى حركة طائشة لم يستطع التحكم فيها فانسكب بعض الشاى المغلى على يده ، فجفل ولكنه كتم الألم الذى استشعره للسعة السائل الحار ، وفزعت سناء ودون أن تدرى أخذت يده بين يديها فى لهفة بالغة . . . وفى الحال سقطت كل الحواجز التى أمسكت كلا منهما عن الآخر وتعانقا فى لهفة مشبوبة تقطعت لها الأنفاس . . . وغابا عن العالم فى قبلة أودعاها كل أشواقهما وحرمانهما الطويل .

* * *

— عمتى : سأتزوج سعفان .

وزوت عمتها ما بين حاجبيها ، ولم يرقها أن يكون زوج ابنة أخيها اسمه سعفان ، وقالت فى هدوء مشوب بالأنفة :

— وهل يصلح هذا الاسم للارتباط باسمك يا سوسو ؟
فأجابتها فى مزاح لم تخطئ فيه العمة صدق العزيمة والتصميم :

— لقد انتويت أن أتزوج الشخص يا عمتى لا الاسم فلست ممن يتزوجن الأسماء . . .

وتزوجا . وأمضيا شهراً يتجولان فى أكبر مصايف أوربا ينهلان من الحب ما حرما نفسيهما منه طويلا . . .

وبمجرد وصولهما انهالت عليهما الدعوات للتكريم بالزواج وسلامة الوصول . وفى الحفلة الأولى ، ألفت سناء نفسها قد تزوجت الاسم فعلا كما قالت عمتها حينما تزوجت الشخص . . . فقد راح الشبان والشابات يلذعون عريسها بالنكات . . . أما ذوو الشعور البيضاء فكانت نظراتهم صامتة ، ولكنها ناطقة نحو هذا « الدخيل » الذى قفز من فوق السياج وقطف زهرة من زهرات مجتمعهم الراقى . . .

وتجاهل سعفان لأنه قدر أن هذه الحياة هى حياة سناء التى لا تستطيع أن تعيش بدونها ، ففيها ولدت وفيها نشأت وعن جوها وتقاليدها اكتسبت أنفاسها ولحمها ودمها ومقومات شخصيتها . . . ومن جهة أخرى فهو يعزها إعزازاً لا يستطيع معه أن يخدش كرامتها أمام بيئتها بتصرف هو أقدر على إتيانه لو أن الأمر اختلف وكان هؤلاء الناس لا يمتون إليها بصلة . . .

وانقضت الأيام وهو يتجرع المهانة والسخافات إرضاء للزوجة الحبيبة التى أنشب حبها فى قلبه أنياباً تدميه يعسر عليه نزعها ، وهو ينتظر بصبر وجلد أن تزهد فيما يسبب الألم لزوجها فتبتعد — دون طلب منه — عن البيئة التى لا شغل لها إلا تشويه عباد الله العاملين . ولكنها لم تفعل ! . .

وذات مساء زاد فتى من الفتيان فى تعريضه به ، فلم يملك نفسه وأعلنها حرباً باردة ، فى تهكم وزراية . . . فلم يفطن إلى قاعدة من القواعد المتفق عليها فى ذلك الوسط وما دونه إلا وخالفها جهراً . . . ولم ينطق بكلمة إلا بلهجة الريف الخالصة . ولا سمع تعبيراً أوربياً إلا وسخر

منه وتساءل عن معناه حتى إذا فسره له مفسر أطلق ضحكة مجلجلة ، وهو يستعيد الكلمة مرات بشكل ساخر متهجم ! .

وكأن هذا لم يشف غليله فراح يتناول بعض ألوان الطعام بيده . بين استنكار الحاضرين وتغامزهم. حتى إذا خيل إليه أن الكيل قد طفح دعاها للانصراف قبل انقضاء الحفل وهى تكاد تذوب خجلا . . .

لم ينظر إليها ولم يحدثها طوال الطريق وقد بيت أمراً فى نفسه، وراح يقود السيارة فى اندفاع مجنون . وهى بجواره منكمشة على نفسها . . .

ووصلا إلى البيت ، ودخلا حجرتهما فى صمت ، وجلست سناء على حرف الفراش واجمة شاردة ... ولم يلبث سعفان أن وقف أمامها وقال لها فى جد لم يخفف منه رقة صوته :

— سناء . آسف لما حدث هذه الليلة . ولكنى لم أطق صبراً ... لقد انتهزتها فرصة لكى أهيئ لك العذر المناسب أمام بيئتك . . . لقد تبين لى — للأسف الشديد — بعد فوات الأوان . أن بيئتينا مختلفتان جداً . . : اختلاف الزيت والماء ... وقد أحسست شقوتك بهذا الزواج الذى اندفعت إليه عن جهل بحقائق الحياة . . . وقد غالطت نفسى شهوراً ولكنى لم أستطع الاستمرار ! ... وما حدث الليلة تعلة كافية لكى تقولى إنك أنت التى طلبت الطلاق ، لأنى لست الرجل المناسب .

وكسا الوجوم وجهه ، وتخاذل صوته . وكادت تخونه شجاعته وبقى غير متجاسر على النظر فى عينيها . . . وهو ينتظر كلمة من شفتيها تنهى هذه الحياة التى يعتقد أنه لا جدوى فى استمرارها على هذا النحو المزرى . ولما لم تتفوه بكلمة وأصبح الصمت ثقيلا على نفسه قال وقد بدأت ثورته تهدأ قليلا :

— آسف يا سناء . . . لم يكن من ذلك بد . . . ولكنها النهاية المحتومة . . .

ولم تتكلم ! . . لم ترد ! . . أحست بوخزات من نار تلسع أحشاءها وتدمى قلبها ، وراح شريط حياتها الطويل يتراءى أمام ناظرها ؛ بين طبقتها المترفة ، والفراغ العاطفى الذى كانت تستشعره معظم أيامها . . . والملل الذى كان يلف وجدانها . . . و بين ما أنبته فيها حب سعفان من إحساسات جديدة لم تألفها مدى حياتها ... وهدوء واستقرار وخلود إلى البيت الذى لم يكن له معنى فى حياتها الغابرة . . .

وشعر سعفان أنه سيضعف أمام حزنها وأراد أن ينهى الموقف المفجع بأى شكل . . . و إذا بها تندفع بين ذراعيه وتقول من أعماقها :

ـــ لا تتركنى يا سعفان ، هى النهاية . . . أجل ، ولكنها نهاية حياة قديمة . . . و بداية حياة وليدة . . .

فنظر فى عينيها غير مصدق ، فاستطردت قائلة :

ـــ أجل . . . لقد انتهوا من حياتى من حيث بدأت أنت . . . بل من حيث بدأنا معاً . . .

ففغر فمه وقال مبهوتاً :

ـــ وتخسرين المجتمع ؟ وتخسرين أصدقاءك وذويك ؟

فابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت :

ـــ أتحسبنى غبية إلى هذا الحد فلا أعرف إذا خيرت بين العالم و بين نفسى أيهما آخذ وأيهما أدع . . . سعفان حبيبى ! . لقد خيرت فاخترت . . .

فقال مستبشراً :

ـــ أحقاً ؟ أمن قلبك هذا الكلام ؟ .

فرفعت ذراعيها تحتضن رأسه إلى صدرها المتهدج فى لهفة وقالت :

ـــ لا تسلنى ! اسأل هذا الذى تسمع دقاته . . .

مسألة مستوى . . .

وقفت أمام المرآة تنظر إلى صفحة وجهها وقد أرهقها المرض وطبع على خديها لوناً قاتماً زاده قتاماً هالات سوداء حول عينيها الذابلتين. ورفعت يدها تتحسس خصلات شعرها الجعد ، ثم تحاملت إلى التليفون تطلب رقماً . وانزعج زوجها وهو يسمعها تخاطب الكوافير فى حديث طويل ترجوه فيه أن يحضر بنفسه ، وهو يعتذر بسبب كثرة العمل لظروف العيد . وأخيراً اقتنعت بعد إلحاح ، أن يرسل لها العامل الجديد الذى وفد على المحل حديثاً . وهو من أكفأ من عمل لديه ، وسوف ترى بنفسها مبلغ ما يتمتع به من مهارة فائقة . وصاح الزوج بعد أن وضعت المسماع :

— ولماذا تعرضين نفسك لنكسة يا حبيبتى ولم تبلى بعد من مرضك ؟

فرفعت حاجبيها فى دهشة بالغة ، وقالت وهى ترمقه بنظرة متعالية :

— أتظن أننى أسمح لنفسى أن يرانى أقاربك وأنا على هذا الحال من تشعث الشعر ورداءة الخلقة ؟ !

— ولكن منظرك ليس رديئاً على الإطلاق ، وهم ليسوا غرباء . . . ثم إنهم أناس بسطاء جداً ، ولا بأس من أن يروك وأنت فى فراشك ما دمت مريضة ! . . . وسترتاحين جداً إلى طيبتهم وبعدهم عن المظاهر . . .

— أنت تعلم يا رفيق أننى نشأت فى بيت يحرص على مستوى معين فى كل دقائق الحياة . . . لم أر يوماً والدى إلا بكامل ملابسه كأنه على أهبة استقبال أغراب . . . كذلك أمى . لم تكن تخرج من حجرة نومها إلا وهى فى أبهى منظر يمكن أن تقع عليه عين إنسان . . . ولو كنت رأيتهما يا رفيق لما خطر ببالك قط أن تناقشنى فى مثل هذه الأوليات . . . ولو أنك أعلم بها منذ يوم تعارفنا وزواجنا ! . . .

وهز رفيق رأسه مغلوباً على أمره . . . فهي فعلا من ذلك الطراز من النساء الذى تشعر نحوه بقدر متساو من التقدير والاستلطاف . فلا تدري هل الاستلطاف مبعثه التقدير أو الاستلطاف يحدث على الرغم من التهيب الذى تشعه فيك الشخصية القوية المترفعة . . .

فحينما أعجب بأناقتها فى ذلك الحفل الذى تلاقيا فيه لأول مرة ، زاد تقديره لها وهو يلاحظ تصرفاتها وطريقة حديثها وإشاراتها وتلميحاتها . . . ولم تنته السهرة حتى وقعت من نفسه موقع الاستلطاف الشديد . . . وصمم على الزواج منها ، وأقرته هى بعد ما تقصت على أهله ورضيت عنهم . وإن كانوا أقل منها مركزاً . . . وزاد تقديره لها المركز المرموق الذى كانت تحتله فى عملها . وحينما تقدم يطلب يدها من قريبها — لأنها يتيمة الأبوين وهو كافلها — استراح إلى البيئة التى سيصاهرها .

ولكن رفيقاً كان يعتبر الزواج شيئاً ، وفترة التعارف والخطبة شيئاً آخر . . . فهو فى بيته يريد أن يكون حراً . يخلع عنه مع ملابسه قواعد الاتيكيت التى يكبل نفسه بها طوال اليوم ، بيد أن زوجته لم تكن توافقه على أي تصرف خارج عن القواعد التى تربت عليها وكانت أمارات الاستياء ترتسم على وجهها بوضوح كلما رأته يخرق إحدى هذه القواعد . . .

فمثلا إذا حدث أن خلع ملابسه بعد حضوره من عمله ظهراً قبل أن يتناول طعام الغداء ، نبهته بلطف أن ظهوره بهذا المنظر ليس مستحباً أمام الخدم . . . والبيجامة جعلت للسرير لا للتخطر بها فى البيت . . .

وهكذا كانت دائمة التنبيه له فى كل صغيرة من حركاته ، ولكن «رفيقاً» — رغم ما كانت كلماتها تسبب له من مضايقات — كان يقدر فيها معدنها المترفع . . . وبقدر هذا التقدير يحس بنوع من الاستلطاف لها والزهو بها أمام الناس . . .

— رفيق . أرجوك أن تخرج الصينية الكبيرة المصنوعة من الفضة من البوفيه . والكئوس المورانو لأننى لن أستطيع القيام بهذا العمل وحالتى كما تعلم .

— يا زوجتى العزيزة . . . يا حبيبتى . لماذا تجازفين بهذه الأشياء الثمينة وأنت غير قادرة على الإشراف عليها الآن ؟ . أرجوك ! . إن عمتى وزوجها لن يعنيهما أن يشربا فى كئوس من المورانو أو أكواب من الألومنيوم . . . تأكدى ! . والله . إنهما لن يفرقا بين هذا وذاك . . . ثم ما الداعى للصينية الفضية ؟ . . . إنها كبيرة الحجم جداً تتسع لثلاثين أو أربعين كأساً . . . وهما اثنان لا أكثر . . . وأنا لا أحسن استعمال هذه الأشياء . والخادم فى عطلتها . . .

— كيف تقول هذا يا رفيق؟ إننى أعجب حقاًمن ملاحظاتك العقيمة! هذه الصينية جعلت خصيصاً لتقديم الشربات للضيوف وفى هذه الصينية نفسها كانت جدتى تقدم الشربات ، ومن بعدها قدمت فيها أمى الشربات. وفيها سيقدم فى بيتى الشربات . . . ثم إن أقاربك يجب أن يشعروا بحقيقة المستوى الذى نحرص عليه فى معيشتنا . فالمسألة كما ترى مسألة مستوى قبل كل شىء . أم تريدنى أن أحطم القواعد التى نشأت عليها خوفاً من أن تكسر كأس ؟ . . ولهذا السبب تتعلل بضخامة حجم الصينية كأنه سيرهقك حملها دقيقتين ؟ وهو كذلك يا عزيزى ! سأقوم أنا على خدمتهما ما دمت لا تريد ذلك . . . هون عليك ! . .

وسمع صوت جرس الباب فأسرع رفيق وقامت تيسير تعدل من هيئتها ، ودخل شاب يحمل فى يده حقيبة . وبأدب شديد راح الحلاق يعتذر عن تأخره لأنه نسى رقم البيت واضطر للعودة إلى المحل ليتأكد من صحة العنوان . . .

وتقدمه رفيق إلى البهو الصغير حيث تجلس زوجته . وأضاء مصباحاً

جانبياً لكيلا يتعب الضوء الشديد عينيها لأنها لم تكن تتحمل الضوء طوال مدة مرضها . . .

ونظر الأسطى عباس إلى شعر تيسير ثم إلى وجهها ، ثم عاد يطيل النظر إلى عينيها ، وتولاه شبه ذهول وجعل يفتح فمه ويغلقه عدة مرات دون أن يقول شيئاً ! . . ورفيق ينظر إليه فى عجب من أمره . . . ثم صاح الأسطى عباس فجأة :

— غير معقول ! . . . والنبى تيسير ! . . . أقطع دراعى إن لم تكونى تيسير . . . تيسير عبد الحميد حسونة !

ورفعت تيسير إليه عينين أرهقهما المرض ، رفعتهما إليه فى دهشة واستنكار لتجد نفسها وقد صعقت فجأة فلم تستطع أن تفوه إلا بكلمة واحدة :

— عباس ؟ ! . . .

وسكتت بعدها كالتمثال ، فلم يفتح الله عليها بكلمة أخرى ، وانطلق عباس يقذف الكلام من فمه كالمدفع الأوتوماتيكى الرشاش ، بعد أن أثارته هذه المفاجأة ففجرت ينابيع طبيعته الساذجة :

— طبعاً عباس ! . فاكرانى ؟ . . . أظن لا يمكن أن تنسينى ؟

ثم التفت إلى « رفيق » المصعوق وصاح وهو لا يرى شيئاً سوى ما أطلقته مخيلته من صور مزدحمة كانت حبيسة فى قمقم ذكرياته :

— لا مؤاخذة يا بيه . . . تيسير أنا مربيها . . . على يدى هذه . . . يا ما أخذت منى العلق الساخنة وهى صغيرة . . . فاكرة يا تيسير ؟ . . فاكرة حينما شددتك من شعرك فجريت إلى أمى تبكين وتولولين . . . والشتائم المنتقاة تتدفق من فمك الصغير حتى لطمت أمى وجهها وركبها عفريت جعلها لا تقول إلا كلمة واحدة ترددها كالمجنونة « يا فضيحتك يا أم عباس ! يا فضيحتك يا أم عباس ! . . . »

وأخذ يضحك حتى دمعت عيناه . . . قبل أن يقول لها :

— وشعرك لم يزل هو هو . فروة من الليف ! . هكذا كنا نسميها : « تيسير أم ليفة » . وكنت أجرى وراءها وأقول لها : « راس العبد ياراس العبد» الله يرحمها والدتك . . . كانت تقول لى « يا واد يا عباس بطل شيطنة يا واد . . . والنبى لأقول لأمك إن ما رجعت عن البنت . . . إنت مالك ومالها يا واد » . . . والمرحوم أبوها يا سعادة البيه . . . عليه ألف رحمة ... كنت أروح إلى سوق السمك وأقول له : « أمى تقول لك يا معلم عبد الحميد وحياة عينيك نقى لها أقتين بساريا ، بيدك الحلوة » . . . ألف رحمة تنزل عليه . كان راجل طيب . . . ابن حلال وأمير . . . كان لا يعود آخر النهار إلا وفى يده أكلة سمك معتبرة للعيال ، وورقة فيها السمك الكهنة والبواقى للقطط ! . وكانت القطط عارفة ميعاد رجوعه . . . تتلم وتستناه على رأس الحارة ، وأول ما يهل على رأس الحارة تعمل له مظاهرة كبيرة ، نقوم كلنا نقول لتيسير : أبوك جه ! . . . أصلنا كنا جيران يا سعادة البيه . . . احنا الناس اللى فوق . وهم الناس اللى تحت ... فين زمان . . . سنين طويلة . . . كانت أيام حلوة صحيح . . . ووالدتك الله يرحمها ! ، كانت الناس كلها تاكل صوابعها وراء الكشرى اللى تبيعه على راس الحارة . . .

واقترب من تيسير وراح يتفقد شعرها ، ثم مصمص شفتيه وقال :

— كانت دائماً تقول : نفسها قبل ما تموت تشوفك معلمة تاخدى ٧ جنيهات فى الشهر ... ورحنا مدرسة المعلمات ... وتركنا الحارة من سنين ... لكن صحيح مصير الحى يتلاقى ... قص وإلا فورمة إن شاء الله أخوك عباس دلوقت أسطى قد الدنيا . . . طلباتك كلها . . . الأخوية لها حق . . . أمال ! . . .

وفى هذه اللحظة ، أقبل « رفيق » من المطبخ يحمل الصينية الفضية

المترامية التى تتسع لثلاثين كأساً ـ وعليها كأس مورانو به شراب أحمر وقال ، وهو ينحنى أمام الأسطى عباس فى أدب مموه :

ــ اتفضل . . . اتفضل اشرب يا أسطى عباس .

وصاح الشاب مذهولا :

ــ ــيا خبر ! كل الصينية دى ؟ وتاعب نفسك التعب ده كل ليه يا سعادة البيه ؟ . . إحنا قد المقام . . . دى الحكاية ما تستاهلش ده كله . . . نهارنا أنس ! . . .

وأجاب رفيق فى صوت حالم :

ــ . . . المسألة قبل كل شىء . . . مسألة مستوى . . .

اللطخة الحمراء

كانت تطفر فى الطريق بقدها الممشوق لا تشعر بالأرض تحت قدميها كأنها تسبح فى الهواء والحياة من حولها شعلة . لا كائنات ولا عربات ولا شيء يعترض مسيرها . . . وعيناها الجميلتان مثبتتان على نقطة مضيئة . . .

نعم . آن لها أخيراً أن تفيء إلى واحة كل ما فيها ينبئ عن الراحة والهدوء النفسى .

وشق الكون نفير حاد لسيارة مسرعة وصوت مزعج لاحتكاك فراملها بالأرض . وتنبهت « سناء » للسيارة تكاد تلامسها ورجل يفتح بابها فى عنف ويخرج منه فى حالة هياج شديد ثم جموع تتقاطر حولها كأنما الأرض انشقت ولفظتهم ! . ونظرت مبهوتة لما يدور حولها محاولة أن تخترق سور الآدميين الذى ضرب حولها ، بيد أن الرجل لم يترك لها مجالا للفرار بل صاح فيها بعنف :

— أنائمة أنت ؟ لولا لطف الله لدهمتك السيارة . . .

وأحست بضحكة تدغدغ حلقها لمنظر الرجل المهتاج بصلعته التى تبرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وحتى هذه اللحظة لم تكن تعتقد أنها المعنية بكل هذا الهرج . ولم تسعفها الكلمات. ولا وجدت من نفسها ميلا للدخول فى معركة . والوقت لا يسمح ، ولا الظروف أيضاً تسمح . . . فعلى بعد خطوات ، وفى المنتدى الرابض على مشارف الضاحية ... ينتظرها . . .

وبحركة آلية نظرت إلى ساعة معصمها ، وبحركة آلية أيضاً اخترقت الجموع التى بدأت تتفرق حينما لم يجدوا ما يستدعي تجمهرهم . وجدت

فى السير لتعوض الدقائق التى فقدتها . . .

وانعطفت إلى اليمين بسرعة وإذا بعجوز متداعية تعترض طريقها مادة إليها يداً معروقة صائحة بصوت لا يكاد يسمع :

— إلهى لا يحرمك من شبابك وينجح مقاصدك .

واستبشرت خيراً لدعواتها ، ودون أن تكلف نفسها إلقاء نظرة عليها ، ألقت فى يدها الممدودة قرشاً وانتفضت كأنما لتلقى عن كاهلها آخر وعثاء الطريق ، وهى ترنو بعينيها المتهللتين إلى المدخل الحديدى الضخم بأبوابه ذات القضبان المزركشة وخلفه يربض المبنى الكبير الفخم المتعدد الحجرات والأبهاء يطل فى عظمة من مكانه على حديقة مترامية الأطراف ، جميلة التنسيق انتثرت بين خمائلها مظلات متعددة الأشكال ومن تحتها مقاعد عليها وسائد وثيرة زاهية الألوان . . .

ودلفت من البوابة الكبيرة فانحنى لها البواب نصف انحناءة وراحت تتفرس الوجوه فى نظرة عابرة ، فالوقت حوالى الظهر والرجال قلة ضئيلة معظمهم شباب انهمكوا فى المطالعة ، أما الشيوخ فجلسوا مسترخين تحت المظلات يستمتعون بالنسمة الهينة . . .

ودارت دورة وهى تحاذر النظر إلى ساعة معصمها خوفاً من نظرة ماكرة تتعقبها . . . ولما لم تجده اختارت مظلة نائية وجلست وظهرها إلى المبنى الكبير حتى لا تطالعها العيون ، وحمدت ربها أن أحضرت معها كتاباً وفى زعمها أنها تستطيع قطع الوقت فى المطالعة لحين حضوره ...

ما الذى أخره عن موعده ؟ !

ألقت على نفسها السؤال وهى تهبط على المقعد فى تكاسل وقد زالت نصف فرحتها بقرب لقياه . . .

ألعله استدعى إلى المستشفى لحالة مستعجلة ؟ ربما . . . فهو لا يمتلك وقته . إنه طبيب امتياز حديث التخرج عرضة لأن يطلب فى أى ساعة ،

وكثيراً ما كان يعتذر أو يتهرب ليسرع إلى موعدها ليجلس معها نصف ساعة أو ربعها ثم يعود على كره منه . ولكنها الضرورة — الضرورة يا سناء هى التى تحتم على أن أتركك وأنا أتحرق شوقاً للجلوس معك — وتتضاحك على مضض وهى تودعه وتوصيه بمرضاه خيراً . . .

ولمحت النادل مقبلا . . .

أف لهذا الرجل ، إن منظره بأسنانه السوداء المكسرة ، وضحكته الغبية تشعرها بالتقزز من كل شىء حتى من حياتها . . . ودائماً تقع قرعتها فيه . . . ودون أن ترفع عينيها لترد على تحيته المعتادة قالت :

— عصير رمان .

وقلبت صفحات الكتاب دون أن تقرأ كلمة واحدة ، ولم يلبث أن عاد النادل بما طلبت . . . هكذا دائماً حظها يتعقبها . . . صاحت وقد نزلت قطرة كبيرة من العصير على ثوبها الأبيض الناصع .

— انظر ماذا فعلت ؟

فاتسعت ضحكته حتى كشفت عن أسنانه كلها ، وقال يحاول تهوين الأمر عليها :

— لا عليك يا سيدتى . قليل من الصابون والماء وينتهى كل شىء .

وقالت مغيظة :

— أى ماء وصابون يا رجل ؟

— الماء والصابون يا سيدتى . . . يزيلان كل شىء . المسألة بسيطة ، لا تشغلى بالك بها !

وهزت رأسها مستنكرة وهى تلعن ساعتها ونهارها . فهذه اللطخة ستترك آثارها فى الثوب إلى أن يبلى . . .

وسرحت بخاطرها .

بالأمس القريب كانت زوجة لرجل تعبده ! . بالأمس القريب

كانت تعتقد أنه محور الحياة كلها وهى جزء من هذا المحور ، لا حياة لها بدونه . . . هو ماضيها وحاضرها ومستقبلها . . . لها رب فى السماء وهذا الرجل ربها على الأرض ، إشاراته أوامر ، وكلماته منزلة . . . وبين يوم وليلة رماها بيمين الطلاق ! . . .

لماذا ؟ ! . ماذا فعلت ؟ !

لم تفعل شيئاً . كانت جريرتها كلها أنها أحبته ، أحبته بكل كيانها وبكل ذرة فى جمسها ! . . . ولماذا رفض حبها ؟ أهى دميمة ؟ بالعكس هى آية فى الحسن ... ليس هذا ادعاء بل بشهادة كل من يراها ويعرفها .. بل إن جمالها يدير الرءوس . . . أهى مهملة فى بيتها ؟ هى سيدة بيت ممتازة فى كل شىء . . . وهى محدثة لبقة تعرف كيف تسيطر على المجلس من حولها . . . ما هو ذنبها إذن ؟ . ذنبها كما قال لها البعض أن الغرام المشتعل كثيراً ما يرهق بعض الرجال أو معظمهم فيتحول حبهم إلى بغض شديد ! . . .

أحقاً ؟ ! لو أن هذا الكلام قيل لها عن أى رجل آخر لما صدقت فما بالك والكلام عن « عارف » زوجها المحب المحبوب . . . ولكنها صدقت ، صدقت وهى تضرب كفاً بكف ودموعها تتساقط محرقة على خديها ، وصدى صوته الأجش يخترق طبلة أذنها فى وقع غريب :

— أنت طالق . . .

وأقسمت بينها وبين نفسها أن لا تكون لرجل بعد الآن . . . أن لا تجعل إنساناً يلمسها . فلا يوجد على ظهر الأرض من يستحق حبها .

ومرت الأيام وهى معتكفة لا تريد أن ترى أحداً أو يراها أحد . ورفضت حتى أقرب المقربين إليها . . . وتكاثرت النساء حولها كل واحدة منهن بكلمتها . . .

. . . ليذهب إلى الجحيم ، هل خلت الدنيا من الرجال . . . أنت

صغيرة وجميلة . . . بمثلك لم تتزوج بعد ... ستجدين عشرات وعشرات يتمنون ظفرك . . . علام الحزن والبكاء ؟ !

لقد لفظها وسار فى طريقه لا يحمل شيئاً من آثار حياتهما السابقة . كمن ينفض غباراً عن سرواله ويواصل سيره . . . أما هى . . .

ولم تعلق ، تركتهم يتكلمون وانطوت على نفسها تجتر آلامها فى وحدتها .

وفجأة مرضت والدتها ونقلت إلى المستشفى ، وفى المستشفى لازمتها وكان طبيبها المعالج يتردد عليها ليلا ونهاراً لخطورة حالتها .

وذات ليلة اشتد عليها المرض رغم تحسن حالتها أثناء النهار ، فأسرعت تستدعي الطبيب فقيل لها إنه خرج لحالة مستعجلة ، وأسرع الدكتور « عمر » نائبه لعيادة المريضة ، وحول سرير الأم الغائبة عن وعيها وقفت سناء فى شبه ذهول وراح الدكتور عمر يعمل بهمة ونشاط . . .

كانت الساعة بعد منتصف الليل بقليل حينما فتحت الأم عينيها وأخذت تتطلع بعينين نصف متنبهتين إلى الوجهين المطلين عليها : وجه ابنتها القلق ووجه رجل غريب لم يسبق لها أن رأته .

وفى هذه الليلة لم تستطع أن تكتم شعورها وهى ترى الحياة تدب فى جسم أمها بعد موات . . . فانهارت أعصابها وانكفأت تقبلها وهى تشهق شهقات مكتومة ، ورفعت أمها يدها فى وهن تداعب رأسها ولا تجد القدرة على الكلام . أما الدكتور عمر فلم يتركها حتى اطمأنت تماماً أن الخطر زال عن أمها وشيعته بابتسامة . . .

ورفعت عينيها عن الكتاب لصوت ضحكات طفل جلجلت بجانبها ، وشد الطفل طرف ثوبها مداعباً وجرى تسبقه ضحكات عابثة . . .

وابتسمت . لكم ودت أن يكون لها طفل من زوجها ولكنها لم تنجب برغم السنوات الثلاث التى قضتها معه . ألعله كرهها لهذا السبب ؟ .

وهزت رسها كأنما لتطرد شبحاً مزعجاً عن ذاكرتها . وتداخلت صورة عمر لتطرد البقية الباقية من الطيف الذى حوم حول أفكارها ، ورأت ابتسامته المضيئة تنعكس على المرئيات .

إنه شديد الشعور بالمسئولية نحو مرضاه ، عرفت فيه هذا أثناء الفترة التى قضتها والدتها فى المستشفى . لا شىء مهما بلغت أهميته . . . يثنيه عن عيادة مريض . . . إنه يقدس عمله ويتفانى فيه . لكم هى معجبة بشهامته وإخلاصه ورجولته ، برغم صغر سنه .

إنه فى الثامنة والعشرين ، أما هى ففى السابعة والعشرين . فإذا قيست أعمال المرء بسنه قدرت له وهى مستريحة الضمير أربعين عاماً . . .

ولأول مرة فى حياتها راحت تقارن بينه وبين من كان زوجها ، فلشهور قليلة مضت لم تكن تجرؤ على وضع أحد بجانب زوجها فى الميزان ! . ووجدت نفسها تتحلل من رق الرجل الذى استعبد عواطفها ثلاث سنوات . كلا . لم يكن استعباداً هذا الذى كانت تشعر به نحوه لأنها هى التى اختارت هذا الوضع عن طواعية ، وبمحض إرادتها . . . وهى التى أرادت لنفسها أن تعيش داخل إطار حياته . . . لا رغبة لها إلا من خلال رغباته . ولا كيان لها إلا بما يجود هو به عليها من فيض كرمه . . .

لماذا ألغت نفسها هكذا ؟ لا تدرى ! وإنما الذى تدريه أنها إذا أحبت فنيت فيمن تحب . لا وجود لها إلا من خلال وجوده . .

وتسربت برودة إلى أطرافها وهى تسائل نفسها :

ألعلها مع عمر أيضاً انتهجت هذا المنوال ؟

وبرغم إحساسها بالهزيمة ، فقد ارتفع صوت من أعماقها يحتج . عمر إنسان ، عمر شديد الشعور بالمسئولية ، عمر لا يلقى الكلام على

عواهنه . . . لقد أحبك بإخلاص ، ولم يفتح لك قلبه إلا بعد أن تأكد أنك تبادلينه عاطفته . . .

واستنكرت « تبادلينه عاطفته » هذه . لقد أقسمت أن لا تسلم قلبها بعد الجحود الذى منيت به من زوجها . . . ألعل عمر مثل زوجها ؟ . . . كلا وألف كلا ، فلا وجه للمقارنة بينهما . . . لقد خدعت فى زوجها وأعماها حبها له عن تبين عيوبه . أما عمر فلم تسلم قلبها له إلا بعد شهور من التعارف والاستكشاف حتى اطمأنت له تماماً . . .

ورفت ابتسامة على جوانب فمها وصوته العميق يسرى بين أعطافها وكلماته العذبة تداعب مسامعها : « ألم يحن الوقت بعد أن تثقى بى ؟ تأكدى أننى مخلص فى كل ما أقوله لك ؟ . . » كانت متأكدة من حبه وإخلاصه . ولكنها كانت زاهدة فى بناء حياة جديدة يشاركها فيها رجل تعطيه قلبها وروحها ، ثم يغدر بها . ليست مستعدة لتجربة ثانية بعد فشلها فى الأولى . . .

ولكن الحب عنيد ، وجبروته لا يقهر ، وعمر إنسان وهى عاطفية وسريعة الانقياد حينما تؤمن بشخص . . . وقد آمنت بعمر ، ولكنها لم تنس نفسها فى أحرج المواقف . كانت دائماً مسيطرة على زمامها كيلا يفلت منها ، أخبرته بقصة زواجها . ولن تنسى الدهشة التى ارتسمت على وجهه حينما علم أنها كانت زوجة ثلاث سنوات ، ولم يصدق سمعه . وشعرت بخيبة أمل . فمهما ظلمت المرأة فى حياتها وأصابها من سوء الحظ ما أصابها ، لا لعلة فيها بل لنقص فى الرجل أو لحكم جائر منه . . . فهى الملومة دائماً . . . أليست تسمى مطلقة ؟ . أليس الطلاق وصمة فى جبين أى امرأة ؟ . إن الأصابع تشير إليها أينما ذهبت . . .

لقد أقنعته من أول الأمر أنها لن تتزوج ثانية ، واقتنع بكلامها ، واتفقا على أن يكونا صديقين . وبر بوعده ، ولكن الأيام أثبتت لهما أن

الصداقة غالباً ما تتحول إلى حب . حب قوى مكتسح إذا تلاقت الأفكار واتفقت المشارب .

وعرض عليها الزواج ولم تستطع أن ترفض . كان حبه قد تسلل وتشعب واستكان فى كيانها كله . . .

واليوم . اليوم سيزف إليها البشرى . بشرى موافقة أمه وإخوته على زواجهما ليتوجا حبهما باجتماع شملهما . . .

وتنهدت من قلب متخم بالسعادة ، وأحست بخطوات تقترب ولم تجرؤ على الالتفات خوفاً من أن تشى عيناها بمكنون صدرها ، وشعرت بنبضات قلبها تكاد تتوقف حينما ارتسم خياله على أديم الأرض بجانبها ... ومرت لحظات لم تدر خلالها بنفسها ... وأخيراً أتاها صوته العميق الهادئ يقول فى نبرة اعتذار وأسى :

ــ آسف يا سناء . . . تأخرت عليك .

هنا فقط استطاعت أن ترفع عينيها حينما صفعها ما فى صوته من لوعة :

ــ حالة مستعجلة ؟

فأجابها وهو يحاذر التقاء عينيه بعينيها :

ــ كلا !

فسكتت هنيهة . ولما لم يتم سألته :

ــ ماذا إذن ؟

فقال ببطء .

ــ لم أستطع . . . فى هذه المرة .

وشردت ببصرها وكل خلية فى جسمها تنبح معولة . وأتاها صوته كأنه من أعماق جب :

ــ سأقنعهم يا سناء . أبشرى سأقنعهم. والدتى مريضة لم أستطع أن

أقسو عليها . تركتها حتى تسترد عافيتها . . .

ورفعت إليه يدها مشيرة أن لا يتم وقد امتلأ فمها بطعم الحنظل . وفجأة رفعت رأسها فى تحد وقامت بكبرياء ومدت إليه يدها قائلة :

ـ وداعاً . . .

وهنا فقط فطن إلى اللطخة الحمراء فى ثوبها ، فتشبث بهذه الفرصة ليكسر حدة الموقف ، وصاح بها فى استهوال :

ـ ما هذا ؟ .

ـ هذا ؟ . . . لا شىء . لطخة . مجرد لطخة .

ـ ولكنها فظيعة . . . لقد أفسدت ثوبك . . .

وبابتسامة باهتة قالت له فى استهانة وهى تهم بالسير فى مواجهة الشمس . . .

ـ لا تشغل بالك بها . . . قليل من الماء والصابون . . . وينتهى كل شىء . . .

وجاء الأوان . . .

لم تكن تشعر بنفسها وهي تعبر الشارع فى خطوات كسيرة يائسة . وصوت ضميرها كالسياط تحسه ينهال على يافوخها فى دقات رتيبة مزعجة تسلمها لأسى مر . . . وقد انحنى رأسها كأنما لتتحاشى نظرات الناس من حولها . . . وفجأة أحست بخبطة قوية ارتج لها جسمها كله ، وشعرت بآلام مبرحة ، وقبل أن تبتعلها الدوامة سمعت أصوات صراخ كأنما تأتيها من عالم سحيق . . . ورأت وجوهاً تتقاطر حولها تنظر إليها من أعلى . . . وأفواهاً تفتح وتغلق فى سرعة عجيبة دون أن تسمع لها صوتاً كأنها ترى شريطاً سينمائياً صامتاً . . . وحاولت أن ترفع جفونها ، ولكن شيئاً ثقيلا . . . ثقيلا جداً أطبق عليها . . . ثم غشيها ظلام دامس . . .

كانت الأصوات تتسرب إلى أذنيها هامسة وهي تحاول بجهد أن تفتح عينيها . . . ولكنها لم تر إلا بياضاً يحيط بها . . . يحيط بها من كل جانب . . . ومن وسط هذا البياض رأته . . . رأته يقبل عليها بطلعته السمحة . وابتسامته الرقيقة . فشعرت بدبيب الحياة يسرى فى جسمها كله كالكهرباء ... وأشرق وجهها ومدت يدها مرحبة تستقبله فى سعادة . فقال فى حنان بصوت مختلج هامس :

— كيف حالك ؟ أسعيدة أنت ؟ . . .

نعم . هى أكثر من سعيدة . . .

ومشيا متجاورين لا تكاد رجلاها تلامسان الأرض من فرط سعادتها . . . واخترقا الشوارع المزدحمة وكأنها خلت إلا منهما . . . ووصلا إلى مكان عملهما .

كان هذا دأبهما كل صباح . . . حتى أمست تعيش لساعة

اللقيا . . . تنام وطيفه آخر ما تغلق عليه عينيها . . . وتصبح لتفتح جفونها على خياله ماثلا أمامها . . .

لم يقل لها مرة إنه يحبها . . . وكان حسبها أن ترى السعادة تطل من عينيه حين يراها قادمة، فيمد إليها يده وكأنه يحتويها بين ذراعيه . . . وتمشى بجانبه يتكلمان فى كل شىء عدا الحب . . .

كانت تنتظر وتترقب يوماً يكاشفها فيه بحبه ... ولكنه لم يفعل . . . وساورها ندم لاستسلامها للهواجس ... فمن يدرى ؟ ربما هو يرى فيها زميلة طيبة يستريح لحديثها ثم ينساها. تماماً حينما يدير لها ظهره ويذهب كل منهما إلى حال سبيله . . .

وتململت فى رقدتها . وأخذت نفساً عميقاً أحسته ينتزع من أحشائها . وسمعت لغطاً من حولها ... ولكنها لم تفتح عينيها . . . لأنها رأته مقبلا وهى تخترق الدرب فى طريقها إلى بيت صديقتها . . . وكان آخر شىء يمكن أن يخطر على بالها أن تراه فى هذا المكان . . .

وتهلل وجهها ، وأقبل يصافحها ، وقالا فى صوت واحد . . .

— إلى أين ؟ !

وضحكا معاً فى وقت واحد أيضاً ... ومشيا متجاورين . . . دون أن يوجه أحدهما إلى الآخر رداً على سؤاله ... كأنما كانا على موعد متفاهم عليه بينهما . . . وضغط على يدها ... فارتجفت وهمس صوت من أعماقها :

— ترى هل آن الأوان ؟

وغمرتها سعادة . ولم تسحب يدها من يده، وظل قابضاً عليها ولصوت خطواتهما على الطريق المرصوف نغم أشجى فى أذنها من موسيقى موتسارت . . . وقال دون أن يلتفت إليها :

— أريد أن أراك . . .

فتضاحكت من فرط نشوتها وقالت :

ـ ها نحن . . .

فقال جاداً .

ـ كلا . أريد أن أجلس معك بمفردنا . . .

وأحست برجفة . فلم يسبق لها ـ برغم طول عهدها بالعمل ـ أن أقدمت على مقابلة إنسان فى الخفاء . . . لقد كان وضوحها وصراحتها أكبر من أن يجعلاها ترتكب مثل هذا العمل ... ولكن المفاجأة أذهلتها عن تدبر أمرها . ووجدت نفسها تسأله بصراحتها المعتادة :

ـ على انفراد ؟ أين ؟

وأجابها بثبات :

ـ فى أى مكان .

ـ لماذا ؟

ـ لأتحدث معك فى أمور تهمنا نحن الاثنين . . .

أخيراً ... ها هى ذى فرصتها السانحة قد واتتها ... ها هو ذا أخيراً سيكشف لها عن حبه ورغبته فى الزواج منها . . . ولكن لماذا لا يقول لها الآن بصراحة ؟ وإلى أى مكان يا ترى يريد أن يصحبها ؟

ورفعت عينيها إلى وجهه . . . وتعجبت . . . فبدلا من أن ترى صدى لسعادتها على وجهه . . . رأته حزيناً مهموماً !

ترى ماذا به ؟ . وأى أخبار هذه التى يريد أن يسوقها إليها ؟ وما الذى يرغمه على الارتباط بها إذا كان هذا الارتباط لا يجلب إلى قلبه السعادة المنشودة ؟ !

ووجدت نفسها تسير بجانبه كالمنومة ... فهى تثق به . . . وإحساسها يقول ذلك . . . وإحساسها لم يكذبها قط ... ثم إنه إنسان نبيل لم يصدر منه طوال مدة زمالتهما ـ وقد أربت على العام ـ ما يدل على أنه شخص

عابث أو لاه كما يفعل معظم الشباب فى سنه . . .

سنه ؟ . . . ترى كم يبلغ من العمر ؟ . . .

وانتزع هذا السؤال كل شىء من مخيلتها ، وراح يلح عليها : كم يبلغ من العمر ؟ . ثلاثين . . . خمسة وثلاثين . . . أربعين . . . كلا . لم يصل بعد إلى سن الأربعين . أو هكذا خيل إليها . . .

ووجدت نفسها فى شقة صغيرة ذات حجرتين مفتوحتين على سعتهما ، إحداهما رأت بداخلها سريراً كبيراً يحتل معظم الحجرة . . . أما الثانية فكانت مظلمة لم تتبين مابداخلها . . . وعلى أريكة كبيرة فى البهو جلس ، وأجلسها بجانبه . . . وقبل أن تفيق إلى نفسها احتواها بين ذراعيه وراح يقبلها بنهم شل عقلها عن التفكير تماماً . . .

وحتى فى هذه اللحظة لم يتسرب الشك إلى نفسها . . . وساقتها عاطفتها المكبوتة للاستسلام لعناقه ، ولكنها شعرت الغدر فى أنفاسه ولمساته وأصابعه المتشنجة تعبث بأزرار ردائها . . .

وانتزعت نفسها من بين ذراعيه ، وأحست بانكسارها يطغى على غضبها . . . وبمرارة فى حلقها . . . وألم يعصف بكيانها . . .

وتأوهت آهة طويلة ، ثم فتحت عينيها فإذا وجه والدها يطل عليها فى حنان دافق ، وأخواها الصغيران كل منهما يمسك بإحدى يديها . . . وقال أبوها بصوت يذوب حناناً :

— ألم أقل لك يا حبيبتى حاذرى من الشرود وأنت تعبرين الطريق ؟ الحمد لله على سلامتك . . .

وقالت بصوت ضعيف واهن ، وهى ترمق أخويها الحبيبين بعينيها الكابيتين ، وكأنها آتية من رحلة بعيدة :

— ماذا حدث ؟ أين أنا ؟

وأجابها الطبيب :

— أتشعرين بألم فى جسمك ؟
وصاح والدها بحنان :
— سليمة بإذن الله .
وأجاب الطبيب .
— ليس بها خدوش .
ولم ترد . . . شرد ذهنها بعيداً عن الحجرة ومن فيها . . .

لا بد أن الطبيب فحص جسمها قطعة قطعة ... الأطباء لا يصدرون أحكامهم القاطعة على عواهنها . . . لا بد أنه لم يجد فى جسمها أثراً لخدش . . . سليمة حقاً ... لا ترى العيون — حتى عيون الأطباء التى تفحص كل شيء — شيئاً فيها غير سليم . . .

ورفعت عينيها وأجالت نظرة كسيرة ... نظرة مجروحة... فى وجه أبيها . ثم فى وجه الطبيب . . . ولم يفتها فى هذه المرة أن تغتصب ابتسامة باهتة على شفتيها الباهتتين . . .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع.

---

٥ قروش ج.ع.م. ١٠٠ مليم في ليبيا ١,٥٠٠ ديناراً في الجزائر

٦٠ ق . ل . ٧٥ فلساً في العراق والأردن ١٥٠ فرنكاً في المغرب

٧٥ ق . س ١٢٠ فلساً في الكويت ١ ريالا سعودياً

٦٠ مليماً في السودان ١٢٥ مليماً في تونس

اقرأ

فيتامينات وهرمونات



الدكتور محمد صدقي عبده
الدكتور محسن الناصوري
الدكتور نجيب الإبراشي

دار المعارف بمصر

٥

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

فيتامينات وهرمونات

الدكتور محمد صدقي عبده
الدكتور محسن الدناصوري
الدكتور نجيب الإبراشي

فيتامينات وهرمونات

اقرأ ٢٨٥
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٥ – سبتمبر سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

فيتامينات وهرمونات

نسمع كل يوم حديثاً شيقاً عن الفيتامينات والهورمونات وقدرتها العجيبة على التأثير فى الإنسان ، ويمتد مدى هذا التأثير منذ نشأته جنينا فى بطن أمه ، حتى يترعرع ويشب ، ثم يشيخ ويرد إلى أرذل العمر ، وهو لا ينفك فى جميع أطوار حياته تلك عن التأثر فى كل عضو من جسمه ، بل فى كل خلية من خلاياه بهذه المركبات الهامة الحيوية .

رأس دبوس :

لكى نتفهم أسرار هذه المركبات ، وكيفية قيامها بهذه الوظائف الشتى يلزم أن نعرف كنهها ، ثم نعرج إلى تفصيل وصفها وآثارها . ولكى نجيب عن الأسئلة المتواترة عن الخيط الرفيع الذى يميز الفيتامينات والهورمونات عن بعضها البعض ، نورد فيما يلى أوجه الشبه والتناقض بينهما .

والفيتامينات والهورمونات ، مواد عضوية متباينة التركيب ، قوية المفعول بدرجة يمكن معرفة مداها ، لو علمنا أن مقدار رأس الدبوس منها ، يحدث آثاراً قوية وعميقة ، فمثلا مقدار جزء من عشرة أجزاء من المليجرام من هورمون الغدة الدرقية (الثيروكسين) ، يكفى الجسم يوماً كاملا .

فواكه وخضراوات . . . وحيوانات :

تنتشر الفيتامينات فى الطبيعة ، أى فى الفواكه والخضراوات ، وكذا فى الأغذية الطبيعية الأخرى . وهى لا تدخل فى تركيب أنسجة الجسم

ولا تمدها بالطاقة . وللخلية الحية احتياجات يومية منها ، تمكنها من القيام بوظيفتها التى خلقها الله من أجلها .

وتفرز الهورمونات بانتظام بواسطة غدد خاصة ، ولما كان الإفراز ينساب فى الدم مباشرة ، فقد سميت الغدد الصماء .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ، أن هورمونات الحيوانات الثديية مطابقة فى تركيبها وتأثيرها لهورمونات الإنسان ، ولذا فهى لحسن الحظ تصلح لعلاج الإنسان .

والفيتامينات ذات مفعول أكيد بالفم ، ويشترك معها فى هذه الخاصية بعض الهورمونات ، فى حين أن بعضها الآخر عديم المفعول إذا أعطيت بالفم ويرجع ذلك إلى تأثرها بالعصارات الهاضمة . أما نقص الفيتامينات أو اضطراب الهورمونات من حيث الزيادة أو النقصان ، لا بد — إن عاجلا أو آجلا — أن يضر بالصحة ، وتظهر أعراض ذلك الضرر على الجسم .

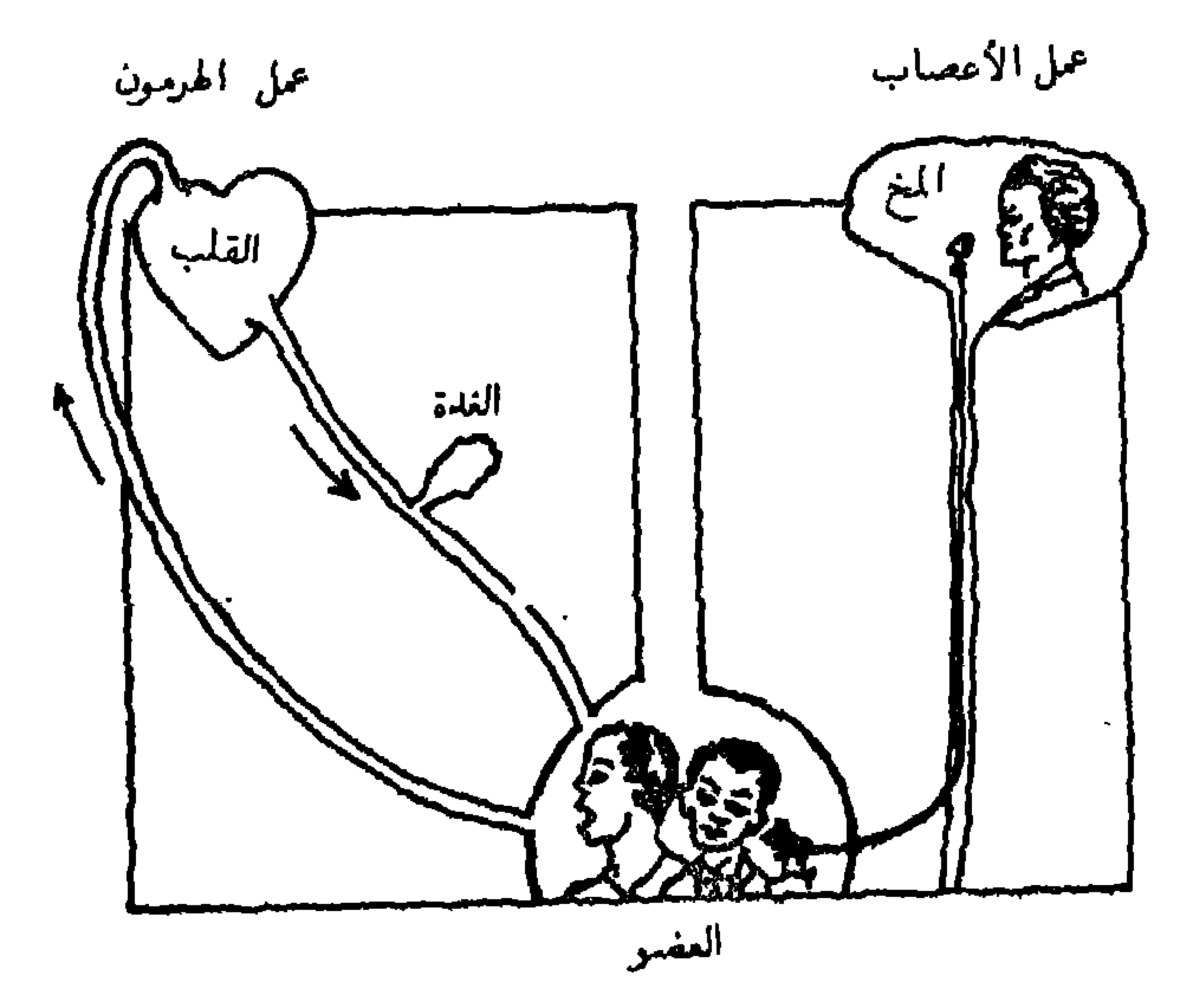
نقص . . . وزيادة :

ولا يقتصر حدوث أعراض نقص الفيتامينات على عدم تناولها فى الطعام ، بل يحدث أيضاً فى حالات أخرى ، منها اتباع عادات من شأنها أن تؤدى إلى تفضيل أغذية فقيرة فى الفيتامينات ، وذلك بسبب الجهل أو الإهمال أو كليهما معاً كذا الإصابة بأمراض الجهاز الهضمى التى تسبب فقدان الشهية والقيئ المستمر والإسهال المزمن ، ما يضعف من الاستفادة من الغذاء وما يحويه من فيتامينات ، وكذا حامض المعدة وأمراض الكبد ، كذلك تناول الأدوية المضادة للميكروبات فهى تقتل بكتيريا خاصة فى الأمعاء يمكنها تكوين بعض الفيتامينات داخل الجسم ، فيحرم الجسم من هذا المصدر الطبيعى الداخلى .

أما اضطرابات الهورمونات ، فيرجع إما لزيادة أو نقص فى إفراز الغدد الصماء وهذه الاضطرابات قد تكون وراثية أو مكتسبة مما يجد من تغيرات فى الغدد من تضخم أو ضمور أو أورام حميدة أو خبيثة أصابتها ، أو التهابات ميكروبية ألمت بها ، وقد ترجع إلى خلل فى الخلية نفسها أو قصور فى أداء الكبد لواجبه فى التمثيل الغذائى وربما كان السبب الإجهاد العقلى أو العضلى أو السموم أو العدوى أو البيئة أو نوع التغذية إذا كان غير مناسب ناقصاً أو مضراً بالصحة .

تلغرافات . . . وجنود مرور :

ولكى نتصور العلاقة بين الفيتامينات والهورمونات ، يمكن أن نتخيل الآتى :



إذا وضعت أصبعك على كوب ماء ساخن ، فإن الجهاز العصبى يحمل رسالة تلغرافية للمخ بالحادث ، فيرد المخ بالتلغراف آمراً العضلات المختصة لرفع أصبعك . ولكن فى الحياة العادية للخلايا ، تقوم الخمائر داخل الخلايا بتسهيل العمليات الكيميائية المعقدة لتحويل الغذاء إلى الطاقة وتخزينها وحرقها ، والخمائر بدورها تتكون داخل الجسم بمساعدة الفيتامينات.

أما توحيد هذه العمليات لكى يعيش الجسم كوحدة متناسقة ومتعاونة فيقع على عاتق الهورمونات التى تفرزها الغدد الخاصة وتوزعها فى الدم فتعمل مثل جنود المرور الذين يشيرون لبعض العمليات أن تسرع وأخرى أن تهدأ وثالثة أن تتوقف حسب ما يلزم للجسم فى الأحوال والظروف المختلفة التى يتعرض لها الإنسان فى حياته اليومية .

الفيتامينات

متى عرفت الفيتامينات

أمراض نقص الفيتامينات قديمة قدم الإنسان نفسه ، إذ وجدت علامات أمراض للكساح والإسقربوط فى مومياء إنسان ما قبل التاريخ ، وعرف الأطباء القدماء البرى برى ، كما ورد فى مخطوط « إيبرس » الذى كتب حوالى ١٦٠٠ سنة قبل الميلاد ، ما يفيد بأن قدماء المصريين استعملوا كبد الأغنام فى علاج مرض العشى الليلى .

عصير الليمون :

والواقع أن لكل فيتامين قصة اكتشاف ، فمثلا عندما قام «جاك كريبر» سنة ١٥٣٥ برحلته إلى نيوفونلند ، مرض بحارة السفن الثلاثة التى صحبها بالإسقربوط . وقد روى أن البحارة فى غمرة يأسهم ، أحضروا صورة السيد المسيح ووضعوها أمامهم وأخذوا يصلون أمامها إلى أن قيض الله لهم أحد الهنود ، فعلمهم تناول عصير الليمون ، فذهب عنهم المرض وبرأوا مما ألم بهم .

وقد عرف الطبيب النمسوى « كرامر » سنة ١٦٠٠ أن الإسقربوط سببه النقص الغذائى .

وكانوا فى هذا الوقت يضعون عصير الليمون فى أوعية من الحديد ويتركونه معرضا للهواء ، مما كان يعرض ما فيه من فيتامين للتلف بسبب الأكسدة ، فلا يكون له تأثير ناجع ، فأخر ذلك تعمم استعماله فى القرن التاسع عشر .

وفى عام سنة ١٨٢٤ أوضح « شوت » فائدة استعمال زيت كبد الأسماك فى علاج الكساح . أما أعراض الإسقربوط فقد تمكن « تاكاكى » من استئصالها فى الأسطول اليابانى بإعطاء الموالح لهم فى غذائهم ، وقد أثبت « فون برجن » سنة ١٧٥٤ أن العشى الليلى يتسبب من سوء التغذية .

وقد كان الظن السائد حتى هذا الوقت ، أن هذه الأغذية الوقائية يرجع مفعولها السحرى فى الشفاء إلى أنها تتعادل مع السموم التى تسبب الأمراض .

ولم تتم معرفة أن الأغذية الطبيعية الطازجة تحتوى على مواد خاصة ضرورية للحياة خلاف المواد الغذائية المعروفة إلا بإجراء التجارب على الحيوانات ، ثم تتابعت الاكتشافات التى أوضحت لنا حقائق جديدة عن الفيتامينات أفادت كثيراً فى طرق الوقاية وأساليب العلاج .

لبن طازج ... ولبن جاف :

وقد جرب ليونين فى سنة ١٨٨٦ إعطاء الفئران الطعام الذى يحتوى على جميع المواد الغذائية حينذاك ، وهى المواد النشوية والبروتينات والدهون والماء مضافاً إليها رماد اللبن ، فلم تفلح . ولكن عند ما استبدل رماد اللبن باللبن الطازج ، عاشت الفئران سليمة وفى صحة تامة ، واستنتج من ذلك أن اللبن الطازج لا بد أن يحتوى على مادة غذائية غير معروفة ولكنها ضرورية للحياة .

وفى سنة ١٨٩٧ لاحظ « إيكمان » أن الدجاج يصاب بأعراض تشبه أعراض « البرى برى » إذا أطعمت بالأرز الأبيض ، وتعافى إذا أضيف قشر الأرز إلى غذائها . وعرف بعد ذلك أن المادة المضادة « للبرى برى » لا تتعادل مع مادة سامة تسبب المرض كما كان يظن فى ذلك الوقت ، ولكنها ذاتها مادة ضرورية قائمة بذاتها .

الفيتامينات

لا جدال فى أن أحسن مصادر الفيتامينات هو الأغذية الطبيعية . وهذه معظمها رخيص وفى متناول الجميع . ولكن بالرغم من ذلك تبين أن الأمراض والتشوهات التى تنتج عن نقصها منتشرة .

وتقسم الفيتامينات إلى مجموعات لتسهل دراستها .

أولا : فيتامينات قابلة للذوبان فى الماء :

وهى تمتص من الأمعاء بعد أن تهضم لتتحلل إذا كانت متحدة مع مواد أخرى والزائد عن حاجة الجسم منها يفرز فى البول . وهى تشمل :

١ — فيتامين ب المركب وتتكون مجموعته من الفيتامينات ب ١ والريبوفلافين ب ٢ والبانتوثنيك ب ٣ والكولين والبيوتين والأنوسيتول والبيريدوكسين ب ٦ والنياسين ب ٧ وحمض البارا أمينوبنزويك وحمض الفوليك وفيتامين ب ١٢ أو الفيتامين الأحمر .

٢ — فيتامين ج

ثانياً : فيتامينات تذوب فى الدهون :

وهى لا تذوب فى الماء وتحتاج لامتصاصها فى الأمعاء إلى وجود الصفراء . ويفرز الزائد منها عن طريق البراز .

وفى هذه المجموعة نجد أن كل فيتامين له وظيفة مختلفة ، وتشمل هذه المجموعة فيتامينات ا ، د ، ه ، ك .

وإذا وازنا بين تأثير العوامل المختلفة على الفيتامينات نجد أن فيتامين ب ١ والبيريدوكسين يتأثران بالحرارة . أما ا ، حـ فيتأثران بالعوامل المؤكسدة ، فى حين أن ب ١ ، ٢ يتأثران بالضوء .

هذا ، وقد اتبعنا هنا تقسيم الفيتامينات حسب وظيفتها ليسهل توضيح خواصها وتأثيرها .

فيتامينات ضرورية للتمثيل الغذائى

يمتص الجسم ما يلزمه من الثيامين عن طريق المعدة والاثنى عشر ثم ينتقل مع الدم ويتحد مع الفوسفات مكونا مركبا يسمى « كوكر بوكسلاز » ينتشر فى جميع خلايا الجسم وخاصة الكبد والكلى والكرات البيضاء .
ويعتبر الكوكر بوكسلاز ضرورياً لإتمام احتراق الأحماض التى تتخلف عن تمثيل المواد السكرية لتنطلق منها الطاقة ، ومن هنا صارت له أهمية قصوى فى منع زيادة حموضة الدم فى مرض السكر .

ويساعد الثيامين على طرد الماء وملح الطعام من الجسم . ويقوم الثيامين بتنشيط الغشاء المخاطى للأمعاء ويزيد الشهية لتناول الطعام .

وينتج عن نقص الثيامين التهاب أو ضمور أعصاب الأطراف والإصابة بمرض « البرى برى » وذلك لأن خلايا الجهاز العصبى وكذا عضلات القلب لا تحصل على طاقتها إلا عن طريق المواد السكرية وهذه بدورها لا تحترق إلا فى وجود الثيامين .

وقد كانت أولى المشاكل التى واجهت العلماء بعد استعمال مضارب الأرز الآلية فى القرن التاسع عشر هو انتشار مرض البرى برى بشكل مريع فى السكان الذين يتكون معظم طعامهم من الأرز المقشور أو الدقيق الأبيض ، وإذا علمنا أن الأرز هو طعام نصف سكان العالم تبين لنا أهمية نقص الفيتامين عند من يعتمدون على الأرز كغذاء .

أما فى مصر وبقية الشرق العربى ، فإن هذا المرض نادر الحدوث لحسن الحظ ، وذلك لاعتمادنا على الخبز المصنوع من الحبوب .

الريوفلافين : (أو فيتامين ب ٢)

هو صبغة صفراء تمتص بسهولة فى الأمعاء . وبعد الامتصاص تتحد مع الفوسفات والبروتين فتتكون مجموعة أنزيمات تساهم فى عمليات تمثيل المواد الكربوايدراتية والبروتينية ، لذا فهو ضرورى للنمو . ويتم اتحاد الريبوفلافين مع الفوسفات والبروتين فى الغشاء المخاطى للأمعاء والكبد وكرات الدم الحمراء .

والريبوفلافين لازم لعمليات التنفس للأنسجة التى تتغذى بالشعيرات. ونقصه يسبب التهاب هذه الأنسجة لأن البشرة المبطنة للشعيرات تموت فى غيابه ، فتضعف الشعيرات وترتخى . وهذا يسبب أعراضاً كثيرة مثل احمرار الوجه . وأول ما يتعرض لذلك هو الأجزاء حول الفتحات مثل الفم واللسان والعين . فيصاب الفم بالتهاب فى زواياه وكذا الشفتان واللسان . وتحتقن شعيرات العين بالدم كذلك .

البيريدوكسين : (فيتامين ب ٦)

يحتاج إلى النضج بالطبخ قبل إمكان امتصاصه فى الجسم . وهو بدوره يتحد مع الفوسفات ليكون إنزيماً ضرورياً لعمليات تمثيل الأحماض الأمينية لا سيما تلك التى تمنع تدهن الكبد والتى تزيد قدرة العضلات وقوتها . لذا فنقصه يسبب سرعة التعب مع تقلصات عضلية .

البيريدوكسين لازم للاستفادة من الأحماض الدهنية غير المشبعة . لذا فهو مفيد فى أمراض الجلد ، مثل حب الشباب والأكزيما ، بفرض أن منشأ هذه الأمراض هو عدم القدرة على تمثيل هذه الأحماض بداخل الجسم .

والبيريدوكسين ضرورى لنشاط قشرة الكظرية ، لذا فهو يقلل مادة الهيستامين التى تتهم دائماً بأنهاسبب زيادة الحساسية فى الجسم وهو يفيد الاضطرابات التى تحدث للمسافرين بالبحر أو بالطائرات وكذلك فى قيئ الحمل .

وفوسفات البيريدوكسين ضرورية لوظيفة الجهاز العصبى المركزى وخاصة فى تمثيل حامض الجلوتاميك الذى تعتمد عليه خلايا هذا الجهاز لمدها بالطاقة، لذا فإن نقص فيتامين ب ٦ يسبب أعراضاً عصبية وعقلية وتشنجات وأرق . ولما كان البيريدوكسين سريع التأثر بالحرارة . لذا فإن الألبان المعقمة ينقصها هذا الفيتامين . والأطفال الذين يعتمدون عليها قد يعانون أعراض نقصه .

كثيراً ما نقابل وخاصة فى الريف مرضى بالبلاجرا ، ويسترعى نظرنا ما يبدو عليهم من ضعف وما يظهر على أيديهم وأرجلهم من تشوهات . بسبب نقص فى النياسين أحد فيتامينات ب المركب ويسمى بحمض النيكوتينيك .

يمتص النياسين بسهولة إذا كان حامضاً غير متحد . أما إذا كان متحداً فإنه يحتاج لهضمه قبل امتصاصه . ويتحول بعد الامتصاص إلى مركب أميدى، وتحتوى الكرات البيضاء على ٩٠٪ من النياسين الموجود فى الجسم ، أما الكبد فيحتوى على كميات منه تظل ثابتة حتى إذا نقص الفيتامين فى الجسم .

يوجد مركب النياسين فى جميع الخلايا التى تحرق الكربوأيدرات وخاصة الكرات البيضاء وعضلات القلب .

ويلزم توفر حمض النيكوتينيك لاستفادة الجسم من الحديد ، لذا فإن قلته تسبب أنيميا . لهذا تظهر بقع فى الجلد والغشاء المخاطى للفم . وقد

وجد أن هذه البقع ليست ملانين ، ولكنها مركب حديدى لم يتم تمثيله داخل الجسم .

والآن إذا تتبعنا أعراض مرض البلاجرا ، نجد أنها تبدأ بدور بسيط من تعب الصحة يستغرق من ٤ إلى ٨ شهور ، فيتسبب عنه فقد الوزن وانهيار القوة وأعراض اضطرابات هضمية مثل فقد الشهية للطعام والأرق والغثيان والصداع وعسر الهضم وألم فى البطن مع إمساك أو إسهال . وقد وجد أن نصف المصابين بالبلاجرا عندهم نقص فى حامض المعدة ، ويرجع ذلك إلى ضمور الغشاء المخاطى للمعدة . ويحس مريض البلاجرا إلى جانب ذلك بتوتر فى الأعصاب ودوخة عند ما يقف وألم فى الأرجل وظهور بقع داكنة حول الوجه والأنف أما اللسان فيكون أحمر ملتهبا . وتظهر الأعراض الجلدية على هيئة التهاب فى الجلد فى الأجزاء المعرضة لأشعة الشمس ، وهى تنتشر فى الوجه والرقبة وظهر الأيدى وظهر الساعد ، وتبدأ باحمرار مثل حرق الشمس ثم تتحول إلى حمراء داكنة مع ظهور قشور كالتبن ويصير الجلد سميكاً ويكون كهيئة الصاج المقشور ، وتظهر كذلك على الأرجل عند من يمشى حافياً وهذه الإصابات تكون متساوية على الجانبين ومرتفعة عن الجلد الذى حولها .

تتوطن البلاجرا حيث يتكون الغذاء الأساسى من الذرة فقط كما فى غالبية الريف المصرى وذلك لنقص النياسين فى طعامهم . وقد سجلت حالات نقص غذائى فى النياسين فقط ، ولم تحدث إصابة بالبلاجرا ، وسبب ذلك أن البلاجرا ترجع لنقص فى كثير من العناصر الغذائية مثل ب ٦ ، ب ١ ، ب ٢ وحمض الفوليك ، إلى جانب الأحماض الأمينية ، ولذا يكون سبب البلاجرا اقتصادياً قبل أن يكون نقصاً فى الدواء ، ويكون العلاج بإعطاء الأغذية الغنية بفيتامين ب المركب إلى جانب النياسين والبروتينات .

وعند ما تتحسن الأحوال المعيشية للفلاح المصرى ، ويقبل على تربية الدواجن لتمده بالبيض ، والجاموس والبقر ليمده باللبن ، لاستئصلت شأفة هذا المرض ، وقد لاحظنا نقصاً كبيراً فى حالات البلاجرا وشدتها فى الأعوام الأخيرة وذلك نتيجة لتحول غذاء الفلاحين من الذرة إلى القمح . وتعميم علاج الإصابات بالطفليات .

فيتامينات ضرورية للأنسجة

يعتبر **فيتامين حـ** أو حمض الأسكوربيك أسرع الفيتامينات قابلية للأكسدة ، وهو لا يتأكسد بشرط وضعه تحت غاز النيتروجين أو ثانى أكسيد الكربون كما يحدث عند تعبئته لتحضيره على هيئة حقن .

ومن خواص حمض الأسكوربيك أنه يفسد بسرعة ، حتى إن الخس إذا قطع فقد ٨٠ ٪ من فيتامين حـ فى الدقيقة وخاصة إذا كانت السكين معدنية

ويوجد فيتامين حـ فى جميع الأنسجة الحية وخاصة الفواكه الطازجة والنباتات الخضراء وخاصة الجذور والأوراق والموالح وخاصة فى القشرة وكمية فيتامين جـ فى الفواكه والخضراوات تصل إلى أقصاها قبل النضج مباشرة ، ويكون الجزء الخارجى هو الأغنى ما عدا البطاطس . وغدد الجسم غنية بفيتامين جـ وخاصة الغدة فوق الكلية .

وتتكون بعد قطف الفواكه أو الخضراوات مباشرة خميرة خاصة مؤكسدة لفيتامين جـ ، ولذا يستحسن وضع الخضراوات فى ماء يغلى بسرعة لقتل هذا الإنزيم ، ثم يطبخ فى آنية مغطاة .

يمتص فيتامين جـ بسهولة فى الأمعاء الدقيقة ، ولا يختزن حمض الأسكوربيك ، ولو أن بعض الغدد غنية به وذلك لحاجتها إليه فى عملية التمثيل الغذائى .

فيتامين حـ ضرورى لتكوين وحفظ المادة بين الخلوية ، وهى تشمل نسيج العظام والأسنان والألياف الضامة المبطنة للأوعية الدموية .

وقد وجد أن سرعة التئام الجروح يعتمد على كمية فيتامين ج ، وكذا تكون المواد الزلالية فى الأنسجة ، كما أن كميات كبيرة من فيتامين ج تنتقل من الأنسجة للتركز فى الجروح لتكوين المادة بين الخلوية اللازمة لالتئام الجروح.

لذلك يقل فيتامين حـ فى الجسم بعد العمليات لشدة الاحتياج إليه . وجد العلماء أن إفراز فيتامين ج يقل فى حالات الحمى الروماتيزمية واستنتجوا على ضوء هذه الحقيقة أن سبب المرض ربما هو عدوى من نقص حمض الأسكوربيك . وقد قام بعض الأطباء بإعطائه فى هذه الحالات ، فسبب هبوطاً فى الحرارة وتحسناً فى آلام المفاصل ، ولعل سبب ذلك هو علاقته بالغدة فوق الكلية ، وما ثبت حديثا من علاقة هذه الغدة بعلاج الروماتيزم .

وفيتامين ج ضرورى لتكوين المادة الملونة، ولذا فهو يفيد فى بعض الأمراض المتعلقة بتكون هذه المادة فى الشعر والجلد .

وفيتامين حـ له علاقة بتمثيل الحديد فى الجسم ، إذ لوحظ عند نقصه أن تكون الكرات الحمراء فى نخاع العظام تقل ، كما أن المريض المصاب بالأنيميا لا يتحسن على الحديد وحده، بل يجب إعطاؤه فيتامين حـ معه ، وتفسير ذلك أن هذا الفيتامين ضرورى لامتصاص الحديد من الأمعاء ، يقلل فيتامين سمية الزرنيخ والرصاص والذهب والزئبق ، وذلك لأنه يتحد معها ويكون مركبات يمكن للجسم أن يطردها ويتخلص منها بسهولة ويسر .

تحدث الإصابة بمرض **الإسقربوط** عند نقص فيتامين حـ . وتبدأ أعراضه بعد استمرار نقص هذا الفيتامين من الغذاء مدة ثلاثة شهور إلى سنة ، ويبدأ بنقص فى الوزن وشعور بالتعب لأقل مجهود ، ونزيف

حول شعيرات الدم فى الجلد بسبب عدم تماسك جدرانها لنقص المادة الضامة التى تلحم جدران الشعيرات مما يؤدى إلى سهولة النزف منها .

أما الأسنان فتتخلخل ويحدث نزيف فى اللثة ، وفى حالة إصابة اللثة تمتلئ الشعيرات بالدم وتحمر اللثة وتتورم وتترك حافة مليئة بالفضلات المتعفنة ، ثم تتقيح اللثة وتبيض وتصير رائحة الفم كريهة بسبب حدوث عدوى فى أسفل الأسنان .

سبحة الإسقربوط :

ويحصل تغيرات فى نهاية العظام النامية ، مما يسبب ظهور علامات مميزة هى صف من نتوءات حادة تكون مستديرة فى الكساح بسبب تورم فى المفاصل الضلعية القصعية تسمى سبحة الإسقربوط .

أما عظام الجسم فيضعف تكوينها وتصير هشة لعدم تكوين النسيج العظمى ، وتلتئم الجروح ظاهرياً ، ولكن لا تلتئم فى الداخل .

يوجد **فيتامين د** فى المنتجات الحيوانية ، أما الخضراوات فهى فقيرة . وتحصل الحيوانات على فيتامين د من افتراس الحيوانات الأخرى الغنية به أو من تأثير أشعة الشمس على جلدها أو على غذائها (مثل الدريس وهو يزيد فيتامين د فى اللبن) . وتأثير أشعة الشمس على الجلد يكون فيتامين د على الجلد وليس بداخله لأن أشعة الشمس تنفذ من ٠,١٥ — ١,٢ ملليمتر فى الجلد فقط ، فالطيور تهرش لتنزيل الزيت على منقارها من الغدد الدهنية وتنشرها على الريش لتعريضها للأشعة ثم إما يمتصها الجلد أو تأخذها بمناقيرها ، والفئران تلحس فروها وكذا القطط ، أما القرود فهى تفلى بعضها ، ويتكون فى جلد الرياضيين بعد تعرضهم لأشعة الشمس . . . ولذا يجب عدم الاستحمام بعد أخذ حمام الشمس مباشرة .

وبينما تكون أشعة الشمس عمودية فى الصيف ، فإنها فى الشتاء تكون مائلة مما يسبب حجز نسبة كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية لأنها تمر فى طبقات جوية أكثر حتى تصل إلى سطح الأرض، مما يضعفها . لذا فإن الكساح غير معروف فى المناطق الحارة وهو يكثر فى المناطق القطبية ، ولولا أن غذاء الإسكيمو غالباً من لحوم الحيتان الغنية بهذا الفيتامين وخاصة فى الكبد لما نجوا من هذا المرض الوبيل .

يتحكم فيتامين د فى تمثيل الكالسيوم والفوسفور والاستفادة منهما ، وهو ضرورى لتكوين العظام والأسنان ، وهو يلزم لامتصاص الأمعاء للكالسيوم والفوسفور .

يوازن فيتامين د بين الكالسيوم الفوسفور فى الجسم بواسطة تحكمه فى تمثيل الفوسفور ، فهو ينقل الفوسفور من الأنسجة الرخوة إلى العظام بتحويل الفوسفور العضوى إلى غير عضوى ، كما يساعد على تمثيل الفوسفور فى العضلات .

والفوسفور غير العضوى المتكون يتحد مع الكالسيوم الموجود فى مصل الدم ليكون فوسفات جير غير ذائب ، ومما يساعد على هذا فعل إنزيم فوسفاتاز العظام .

وتتكون العظام بترسيب أيدروكسيد وفوسفات الجير مع أملاح كربونات وسترات الصوديوم والماجنسيوم والفلورين على مادة عضوية أساسية ، ويحتاج ذلك عدا فيتامين د إلى مساعدة فيتامينى ا ، حـ .

والأغذية المضادة للكساح يجب أن تحتوى على فيتامين د ، وكذا كميات مناسبة من الكالسيوم والفوسفور ، فإذا قل أو انعدم واحد من الثلاثة أو أكثر أدى ذلك إلى الكساح ، ومن ناحية أخرى كلما كان الكالسيوم والفوسفور مناسباً ، كلما قل الاحتياج إلى فيتامين د . . .

وقلة فيتامين د تمتنع ترسب أملاح الكالسيوم والفوسفور فى العظام بينما يقل الفوسفور والكالسيوم فى الدم ويفقدا فى البول ، هذا ويتأثر تمثيل الفوسفور أكثر من الكالسيوم .

وقد لاحظ العلماء أن السترات والطرطرات يكونان مركباً ذائباً مع الكالسيوم مما يساعد على امتصاصه ، والسكريات التى لا تحتاج إلى توفر فوسفات فى الأمعاء لامتصاصها . مثل سكر اللبن — توفر الفوسفات للجسم ، وتسمى هذه المواد بالمواد التى تمنع الكساح أو العوامل المضادة لمرض الكساح .

أما فيتات الحبوب فهى تتحد مع الجير فى الطعام ليعطى مركبات غير ذائبة تذهب مع البراز ولا تكتفى بهذا بل تأخذ معها الفوسفور وكذا الحديد ، لذا فإن مركبات حمض الفينيك وهى موجودة فى الحبوب بكثرة تمهد للكساح ، لذلك يستحسن إضافة كربونات الجير أو فوسفات الجير ١٥ جم لكل ١ كجم دقيق ليعوض الكالسيوم والفوسفور اللذين يفقدهما الجسم من غذائه بسبب اتحادهما مع تلك المادة الموجودة فى الحبوب .

يحدث الكساح فى أوقات النمو السريع فى سن أربعة شهور ، وكذا فى سن دخول المدارس إذ تزداد حاجة الجسم إلى تلك العناصر اللازمة لتكون العظام وإذا لم تتوفر فى الأغذية تعرض الجسم لهذا المرض .

وبوادر أعراض الكساح وجود أجزاء لينة فى الجمجمة تحس بأطراف الأصابع ، ويلى ذلك تضخم نقطة التحام الضلوع مع الغضاريف فيظهر صف عقد منتظمة يسمى سبحة الكساح ، وهى مستديرة . وكل عقدة عرضها نصف سنتيمتر وطولها ١ سنتيمتر ، وتختلف فى الحجم تبعاً لشدة الحالة ، وتكون واضحة جدا فى الأطفال النحاف لأنها ترفع الجلد ، وفى الأطفال السمان لا تظهر إلا بعد اختبارها بالأصابع ، ويحدث كذلك

كبر فى عظم الكوع والركبة ورسغ اليد، وسبب هذه الانتفاخات هو أن العظم عند نموه الطبيعى يزيد فى الطول بأن تترسب أملاح الجير فى الغضاريف ، أما فى الكساح فان الغضروف يستمر فى النمو بدون احتوائه على أملاح معدنية مما يسبب هذا الانتفاخ المميز لهذا المرض .

وفى الكساح يكون العظم ليناً بسبب قلة ترسب أملاح الكالسيوم ، ولذا يكون سهل الثنى تحت ثقل الجسم مسبباً تشوهات كثيرة ، فتعوج الأرجل ويتشوه الصدر ويصير شكله مثل القمع وكذا تبرز الجبهة .

وليس الكساح مرض العظام فقط ، فإنه يحدث كذلك ارتخاء العضلات وضعفها مما يسبب كبر البطن ، كما تشوه الأسنان وتتأخر فى الظهور وتتزاحم وتكون خشنة فى حروفها وغير لامعة أو ناعمة وتزداد الالتهابات المخاطية وأمراض الجهاز التنفسى مثل نزلات البرد والأنفلونزا والالتهاب الرئوى .

لين العظام :

يظهر لين العظام عند البلوغ لزيادة الاحتياج إلى فيتامين د بسبب سرعة النمو فيفقد العظم أملاحه ويضعف مما يسبب لين العظام وضعف وألم بسيط فى العظام فى المنطقة البطنية القطنية ومنطقة الأفخاذ ، ويمتد هذا الألم ويحدث تشوه العظام فيقل حجم الجسم ويقل فى الطول ويلين العمود الفقرى الذى يعوج وتتأثر الأرجل ويحدث كسر لأقل صدمة كما قد يحدث ضعف فى العضلات وارتخائها ، ولكن الأسنان لا تتأثر .

ويحدث لين العظام فى الحوامل ، ويزيد بتكرار الحمل والولادة إلى أن يسبب ضيق عظام الحوض ، ويؤدى إلى عسر الولادة فى الطفل الثالث والرابع رغم سهولتها فى الطفل الأول .

فى السينما :

إذا لاحظت عند دخول السينما أثناء العرض أنك لا يمكنك رؤية ما أمامك لمدة طويلة ، ولم تكن تشكو من مرض فى العصب البصرى أو الشبكية ، فأنت مصاب **بعشى الليل** ومحتاج إلى**فيتامين ا** . ذلك أن قدرة العين على الرؤية فى الظلام تستلزم توفر مركب خاص يسمى (أرجوانى النظر) بسرعة مواتية وبكمية كافية ، وأرجوانى النظر له حساسية شديدة للضوء وهو يتكون من صبغة حمراء تحتوى على فيتامين ا .

والرؤية ليلا مهمة جداً للجنود والشرطة وسكان الريف والصيادين على السواحل . بعد امتصاص فيتامين ا من الأمعاء تحمله الأوعية اللمفاوية إلى الكبد الذى يتولى مد الجسم به تبعاً لاحتياجاته .

وفيتامين ا ضرورى لحفظ خلايا البشرة المبطنة لقنوات إفراز الغدد ، وخاصة غدد العرق والغدد الدهنية — وفى حالات نقص هذا الفيتامين تنسد هذه القنوات بخلايا القشرة الميتة مما يسبب موت بصيلات الشعر فيصير **الجلد محببا** . ويدعى أحياناً « جلد الأوز » .

أما النقص الشديد فى فيتامين ا فيسبب فى العين **جفاف الملتحمة** مما يعرضها لأمراض خطيرة قد تؤدى إلى فقد البصر ولو أن هذا قليل الحدوث .

فيتامين هـ : ضرورى لكيان الأنسجة العضلية والدموية ، وهو ينشط جميع الخلايا التى بها انقسام ونمو سريع مثل خلايا الخصية والجنين لذلك يسبب نقصه تغيرات فى الحيوانات المنوية والجنين ، مما يؤثر على قدرة الإخصاب عند الرجل والحمل عند المرأة .

الخروف والفأر :

ويزيد فيتامين هـ الاستفادة من البروتين ، وهذا يحمى الكبد من المواد السامة . ويلزم فيتامين هـ للنشاط العضلى ، فمثلا يحتاج الخروف إلى فيتامين هـ أقل مما يحتاج إليه الفأر ، وذلك للاختلاف الشاسع فى مقدار نشاطهما العضلى . لذلك يفيد فيتامين هـ الأطفال المصابين بضمور عضلاتهم .

وفيتامين هـ لازم كذلك لتكوين النسيج الضام الضرورى لمرونة الأوعية الدموية ويستعمل لتوسيع شرايين الأطراف .

فيتامينات ضرورية للدم

هذه المجموعة من الفيتامينات لازمة لتكوين خلايا الدم الطبيعية ، لذا فنقصها يسبب أعراضاً خطيرة .

حمض الفوليك: له تأثيرات متعددة لتكوين أنواع كثيرة من الأحماض الأمينية التي تتكون منها البروتينات . فبعضها يلزم للكبد والبعض الآخر ضروري للعضلات وغيرها يلزم لتكوين نواة الخلية. ومن هنا جاءت فائدتها لخلايا الجسم عموماً فبدونه لا تنضج الخلية ولا تتكاثر ، وعلى ذلك فهو يزيد انقسام كرات الدم البيضاء فيفيد في علاج نقصها .

ولما كانت أورام السرطان منشؤها زيادة انقسام الخلية فقد جربت المركبات المضادة لحمض الفوليك — ومنها الأمينوبترين — في علاج سرطان الدم الحاد « اللوكيميا (الحادة) » ولكن وجد أن نجاحها محدود وسميتها شديدة .

ويشبه حمض الفوليك في ضرورته لبعض عمليات التمثيل الهامة بلورات حمراء اللون هي فيتامين ب١٢ (الفيتامين الأحمر) .

وسنورد قصة اكتشاف فيتامين ب١٢ كمثال لما يتكبده العلماء من تعب وجهد قبل أن تتوج أبحاثهم بالنجاح .

والأنيميا التي سببها نقص الحديد علاجها سهل أما إذا كان النقص في تكوين الخلية بأن يصبح ما يتكون من خلايا حمراء غريب الشكل يتكسر بسهولة فيصير عمره قصيراً حتى يقل إلى أربعين يوماً بدلاً من ١٢٥ يوماً صار العلاج عسيراً . هذه الخلية الشاذة تحتوي على كمية عادية

من الهيموجلوبين بل قد تكون كميته أكثر من الطبيعي كما تكون الخلية أكبر حجماً من الطبيعي ولكن المشكلة هي أن عدد الخلايا قليل بل قد يقل باستمرار وقد ينقص ما يحويه المليمتر المكعب من الدم إلى حوالى مليونى خلية ونصف فقط أى حوالى نصف الطبيعى .

تسمى هذه الحالة الأنيميا الخبيثة. وكان مرضاً مميتاً حتى سنة ١٩٢٦ ذلك لأنها تقضى على المريض فى مدة سنتين إلى خمس سنوات حتى قرر مينوف ومر، فى ذلك العام أن يقصرا غذاء مرضى الأنيميا الخبيثة على طعام يحتوى على الكبد . وقد بنيا هذا الاختيار على ما قام به هوبيل قبلهما حينما استنزف جزءاً من دم كلاب التجارب لتصاب بالأنيميا وجرب تغذيتها بأنواع مختلفة من الأطعمة ليعرف أيها يستطيع أن يساعدها على الشفاء فوجد أن الكبد هو أحسن هذه الأطعمة .

تحسن المرضى على التغذية بالكبد بسرعة غريبة ولكن كان على مثل هؤلاء المرضى أن يأكلوا كميات كبيرة من الكبد وبانتظام فإذا توقفوا عن ذلك لأى فترة من الزمن عاودهم المرض ثانية وكان عليهم أن يختاروا بين أكل الكبد على فترات أو أن يلاقوا الموت ببطء . وفى عام ١٩٣٧ نال هذان العالمان جائزة نوبل على هذا الاكتشاف . والآن كان لا بد من البحث عن ذلك العامل الذى يحويه الكبد والذى يشفى مرضى الأنيميا الخبيثة .

فى عام ١٩٢٧ بدأ كل من كون وميتون فى تحليل الكبد لتركيز هذا العامل المضاد للأنيميا الخبيثة فبدآ بفرم قطعة كبد نيئة ثم غمراها فى ماء بدرجة خاصة من الحموضة وأخذا فى تقليب هذا الخليط فترة من الزمن وبذلك ذابت فى هذا الماء بعض المواد الموجودة فى الكبد . ولم يذب بعضها الآخر وقاما بعد ذلك بترشيح هذا المزيج وبذلك فصلا المحلول عن

المواد غير الغذائية فيه وقاما بإطعام مجموعة من مرضى الأنيميا الخبيثة المحلول وحده ومجموعة أخرى الجزء المتبقى من الكبد الذى لم يذب ثم أخذا عينات من دم كلتا المجموعتين وفحصاها ليكتشفا أى من المجموعتين زاد من عدد الخلايا الحمراء الناقصة النمو دلالة على وجود العامل المضاد للأنيميا الخبيثة فوجدا أن المحلول المائى أى خلاصة الكبد هو الذى يحتوى على مثل هذا العامل .

ثم قاما بتسخين خلاصة الكبد لكى تتماسك المواد البروتينية الموجودة بفعل الحرارة و بذلك يمكن فصلها من المحلول و يبقى العامل المضاد للأنيميا الخبيثة فى المحلول . وبعد ترشيح هذا المحلول ينقى من بعض الشوائب ويتبقى العامل المضاد للأنيميا الخبيثة فى الخلاصة المائية . وقد نجح كون بعد ذلك فى عام ١٩٣٠ فى تركيزه وتنقيته حتى إن ١٤٠ ملجم منها كان كافياً لشفاء مريض من الأنيميا الخبيثة . وفى عام ١٩٤٠ وجد العلماء أن كمية صغيرة جداً تصل إلى جزء من ألف من الجرام تستطيع أن تساعد على سرعة نمو بعض البكتريا .

وقد ظهر أن فيتامين ب١٢ مادة حمراء وكان هذا اللون الأحمر فى أول الأمر غريباً فاعتقد العلماء أنه لشوائب فى الفيتامين وقد ظل اللون الأحمر ملازماً الفيتامين فى كل مراحل تنقيته وعند ذلك ظهر شىء يدعو إلى الدهشة فإن هذا اللون يشبه لون بعض المركبات المعروفة والتى تحتوى على عنصر الكوبالت . وفعلا ثبت أن فيتامين ب١٢ يحتوى على الكوبالت أى أن الكوبالت ضرورى للجسم ولكن بكميات متناهية فى الصغر حتى إن الجسم يحتوى على ١٢ ملجم ويبلغ نصيب كل خلية مئات الآلاف من ذرات الكوبالت . هذا ولم يعرف تركيب فيتامين ب١٢ الكيميائى حتى سنة ١٩٥٦ .

وقد برزت هنا مشكلة فإن الجسم يحتاج إلى ١ – ٢ ميكروجرام من فيتامين ب١٢ ومن الصعب تصور أى طعام لا يحتوى على هذه الكمية الطفيفة من الفيتامين . كما أن بكتريا الأمعاء تكون فيتامين ب١٢ أى أن كمية الفيتامين فى أمعائنا أكثر مما نحتاج إليه . إذن لماذا يحدث مرض الأنيميا الخبيثة ؟

لابد أن فيتامين ب١٢ لا يمتص داخل جسم هؤلاء المرضى ومما يؤكد ذلك أن براز هؤلاء المرضى يحتوى على ب١٢ أكثر من براز الأصحاء.

إذن نقص الامتصاص هو السبب ويؤكد هذا علاج الأنيميا الخبيثة فإذا حقنا ميكروجراماً من ب١٢ فى الدم تحسن المريض ولكى نحصل على نفس التحسن يجب أن نعطى بالفم كمية أكبر مائة مرة من تلك التى نحقنها . أما فى الأصحاء فنجد أن مثل هذه الكمية لها نفس التأثير سواء حقنت أم أعطيت بالفم .

ومما يجدر ذكره أن الطن من الكبد الطازج يحتوى على أقل من عشرين مليجراماً من هذا الفيتامين .

وفيتامين ب١٢ ضرورى لتكوين الأحماض الدهنية اللازمة لنقل الدهون فى الجسم وهو يجدد أنسجة الخلايا إذ يزيد الشهية للطعام ويضاعف نشاط خلايا الجسم .

بعد تناول الطعام تقوم عصارة المعدة وعلى وجه التحديد ما يفرزه الجزء المتوسط من المعدة بالتأثير على الغذاء أو حتى على العشاء المخاطى للمعدة فتنتج مادة تسمى العامل الداخلى وهذا يتحد مع فيتامين ب١٢ الموجود فى الغذاء (وهو العامل الخارجى) لتكوين العامل اللازم لنضج لكرات الدموية الحمراء وهذا الأخير مركب يسهل امتصاصه فى الأمعاء ثم يذهب للكبد ونخاع العظام للتخزين ثم ينطلق عند اللزوم لينشط

إنزيماً خاصاً فى الدم يقوم بإطلاق حمض الفوليك من مركباته وهذا يتم تحويله إلى مركب السنزوفورم ثم إلى حمض الفولنيك بمساعدة فيتامين هـ وتوفر حمض الفولينيك مع العامل اللازم لنضج الكرات الحمراء . يلزمان لإتمام نضج هذه الكرات ، وحدوث نقص فى أيهما يسبب **الأنيميا الخبيثة** ، ويتم اختزان كل من حمض الفوليك وفيتامين ب ١٢ بمساعدة الآخر ، وإعطاء حمض الفوليك أو فيتامين ب ١٢ يمكن الجسم من استعمال ما لديه من الفيتامين الآخر ، وإعطاء فيتامين ب ١٢ مع حمض الفوليك يعالج الأنيميا الخبيثة دون حدوث أعراض عصبية .

عند ما تقل نسبة مادة خاصة فى الدم تسمى البروثرومبين ، يحدث النزف الدموى لأتفه الأسباب مثل غسل الأسنان بالفرشاة ، أو جرح الجلد ، أما إذا هبطت أكثر من ذلك فتظهر بقع دموية حمراء كبيرة فى أماكن الاحتكاك والضغط .

ويتكون البروثرومبين فى الكبد بمساعدة **فيتامين ك** ، ويقوم البروثرومبين بدور هام فى عملية تجلط الدم ، إذ يتكون منه الثرمبين الذى يحول الفيبريزوجين (مادة ذائبة فى الدم) إلى ألياف رفيعة تسد الجرح .

تلزم الصفراء التى يفرزها الكبد لامتصاص فيتامين ك من الأمعاء لذا فإن المرضى المصابين باحتباس الصفراء يعطون فيتامين ك بواسطة الحقن تعويضاً لهم عما فقدوه من عدم امتصاص هذا الفيتامين من الغذاء .

فيتامينات ضرورية للجلد

شيب الشعر :

أوحت الدعاية البراقة بأن حمض البانتوثنيك أو "فيتامين ب ٣" مفيد فى منع شيب الشعر ، ولكن لم يثبت أن له فائدة أكيدة فى هذا المجال اللهم إلا أنه ينشط الشعر ويثبت لونه ويمنع سقوطه .

وهو يزيد مقاومة الجلد ويمنع احمراره بسبب تأثير أشعة الشمس أو بسبب زيادة الحساسية فى حالات الإصابة بحب الشباب أو الأكزيما .

ويساعد فيتامين ب ٣ فى تكوين بروتين الدم وهرمونات الغدة فوق الكلية ، لأنه يدخل فى تركيب الإنزيمات اللازمة لتكوين هذه المواد .

وفيتامين ب ٣ ينشط نمو خلايا البشرة ، لذا يستعمل فى علاج بعض الجروح ، وقد يفيد كذلك فى أمراض الجهازين الهضمى والتنفسى المزمنة .

اللون الخمرى :

يتعرض المصيفون لأشعة الشمس لمدة طويلة ليس فقط للاستفادة من أشعتها فى تكوين فيتامين د فى الجلد ، ولكن لتكتسب جلودهم اللون الخمرى الجذاب . وهذا لا يتأتى إلا بالتعرض للشمس لمدة طويلة قد تحرق الجلد . ولكن بفضل استعمال دهان يحتوى على حمض البارا أمينو بنزويك أمكن التعرض لأشعة الشمس مدة طويلة نسبياً .

هذا ولما وجد العلماء أن أورام السرطان غنية بالبيوتين أحد فيتامينات ب المركب ، جربوا أحد مضادات البيوتين وهو الأفيدين وهو يوجد فى

بياض البيض النيئ ، ويتحد مع البيوتين ليكون مركباً غير قابل للهضم ، ولكن بدون جدوى .

ويسبب نقص البيوتين شحوب لون الجلد وجفافه فى الوجه والأطراف وتظهر قشور على الجلد مثل التبن .

وقد يفيد البيوتين فى علاج أمراض الجلد التى تتسبب من التهاب الغدد الدهنية مثل الصدفية وحب الشباب والصلع . هذا وتسمى الأحماض الدهنية التى يتعذر على الجسم أن يكونها داخل أنسجته بكمية تكفى لجميع احتياجاته **بالأحماض الدهنية الضرورية**، ويسميها البعض فيتامين ف ، وهى لازمة لاستفادة الجسم من الدهون وذلك لأن عملية تمثيل الدهون داخل الجسم تستلزم تجميعها فى الكبد ولكن بالرغم من ذلك لا يتبقى الدهن هناك، بل يتم التخلص منه أولا بأول بواسطة أكسدت . ولكى **تنقل الدهون** أو الأحماض الدهنية من الأنسجة للكبد وبين خلايا الكبد ذاتها ، ثم من الكبد للأنسجة فيلزم أن تكون على هيئة مركبات مع الفوسفات (فوسفوليبيدات) وهذه أسهل ذوباناً من الدهون ، وبالتالى أسرع انتقالا .

وتدخل الأحماض الدهنية الضرورية فى تركيب الفوسفوليبيدات ، وكذا **الكولاين**. ومن هنا كانت أهمية الكولاين فى **منع تدهن الكبد .**

وتوجد مادة فى الحبوب اسمها الفيتين تحتوى على **الأينوزيتول** . وهو كذلك مفيد فى منع تدهن الكبد، وهو يوجد فى جميع الخضراوات والبقول .

مصادر الفيتامينات

لقد ثبت أن كثيرين لا يقبلون على الأغذية الطبيعية الغنية بالفيتامينات ، وهذا يرجع إما إلى الإهمال أو التعود أو الجهل ، ومن أمثلته الحكم الخاطئ على القيمة الغذائية للطعام من ثمنه .

والقاعدة الذهبية فى التداوى بالفيتامينات هو أنه فى حالة كمال الأغذية ، ليس لإعطاء أدوية فيتامينات أى ضرورة . أما إذا كان المريض ناقص التغذية فهو أحوج للأغذية الطبيعية من تناول حبوب من زجاجة فيتامينات ، هذا إلى جانب أن الغذاء الطبيعى يحتوى على عناصر لم تكتشف بعد لازمة للاستفادة من الفيتامينات داخل الجسم ، ومن ناحية أخرى فإنه الغذاء الطبيعى يحتوى على الفيتامينات على هيئة مجموعات تكمل وتساعد بعضها .

	ب١	ب٢	ب٦	ثيامين	پارا أمينوبنزويك	بيوتين	فوليك	ب١٢	حـ	سترين	أ	د	هـ	ك	ف	كولين
لحوم																
كبدة	+	+		+	+		+	+	+		++					+++
لحوم حمراء	+		+	+				+					+			+++
سمك						+	+				+	+				+++
خضراوات																
قرنبيط										+				+		
كرنب							+		+	+				+		
لفت									+	+				+		
فلفل أخضر						+	+		+	+						
جزر									+	+						
طماطم									+					+		
بطاطس	+								+							
بطاطا									+		+	+	+			
زيت كبد الحوت				+							++	++		+		
زيت بذر القطن													+	+	++	

	ب١	ب٢	ب٦	نياسين	بيوتين	فوليك	ب١٢	ح	سرين	ا	د	هـ	ك	ف	كولين
بقول															
فول سوداني			+	+											
فول أخضر															
فول جاف	+					+						+			
فواكه															
موالح									+						
عنب						+			++						
أغذية أخرى															
بيض	+	+					+		+	+	+				+
جبنة		+								+	+				+++
عسل أسود	+	+	+	+											
خميرة غير حية	++	+	+	+			+			+	+				+++

متى عرفت الهرمونات

كان الاعتقاد السائد منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر أن الأعضاء المختلفة تحتوى على مواد حيوية لها مفعول سحرى فى شفاء الأعضاء المماثلة لها .

فمثلاً كبد الثعلب يجدد أنسجة الكبد. ومخ الأرنب يشفى الأعصاب ورئة الثعلب تعالج أمراض الرئة وأعضاء الجنس تجدد حيوية الشباب وترجع له عنفوانه .

وقد اكتشف جالينوس الغدد فى القرن الثانى ووصف أريتيوس مرض السكر .

أما الأقزام والعمالقة فكانوا مصدر عجب ودهشة منذ أيام جوليات .

واكتشف العلماء منذ أبقراط أمراض الغدد ووردت لنا عنها ملاحظات هامة منها أن طفلاً بلغ الحلم وهو فى الثالثة من عمره .

أما فى القرن الثالث فقد اكتشف « ألبرخت هولد » أن الغدد تفرز إفرازات داخلية فى الدم .

ثم جاء « تيوفيل وبوردو » طبيبا بلاط لويس الخامس عشر ووصفا أن كل عضو يفرز إفرازاً يصبه فى الدم وأن هذه الإفرازات تؤثر كمجموعة فى الجسم كله .

ثم انتقل الاهتمام من الملاحظة والتخمين إلى العلم على يد علماء التشريح فى عصر النهضة الذين بينوا تشريح هذه الغدد ورسموها بأيديهم . وكان يتم هذا التشريح على أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام وأمام القضاة والعلماء والفنانين .

وقد وصف فيزاليوس الغدة النخامية وسماها بهذا الاسم بدعوى أنها تفرز الأفكار السوداء من المخ على هيئة مخاط من الأنف ولذا كان يستعمل السعوط منذ زمن بعيد « لترويق » المخ .

ووصف « باراسيلسس » القماءة فى القرن السادس عشر أما أول من لاحظ أمراض الغدد فهو طبيب إنجليزى يدعى « كاليب بارى » سنة ١٧٨٦ إذ لاحظ بروزاً فى عين المريض بمرض الجويتر الجاحظ .

وعندما حاصر الأسطول الإنجليزى سنة ١٨١١ شواطئ فرنسا لمنع وصول نترات شيلى إلى نابليون حتى لا يتمكن من صنع البارود . أخذ علماء فرنسا يحاولون صنع النترات اللازم فأضافوا حامضاً مركزاً إلى رماد حشائش البحر فتصاعدت أبخرة حمراء هى اليود الذى لم يكن معروفاً من قبل . ثم عرف فيما بعد علاقة اليود بالغدة الدرقية .

أما « أديسون » الطبيب الإنجليزى فقد وصف المرض الذى سمى فيما بعد باسمه سنة ١٨٥٥ وذكر جميع أعراضه من الصنف وهبوط ضغط الدم إلى تلون الجلد وعرف أن سببه ضعف الغدة الكظرية الذى يسبب هذه الأعراض المرضية الخطيرة .

وكانت هذه هى أول ملاحظة عن اضطراب الغدد الصماء . ومع أن أديسون لم يكن يعرف كيف تتحكم الغدة فوق الكلية فى الجسم .

ولما لم يقابل هذا الكشف باهتمام مع أن علماء غيره اهتموا بملاحظاته وقاموا باستئصال الغدة فوق الكلية للحيوانات ولاحظوا تأثير ذلك على صحتها فيئس أديسون واستقال من المستشفى الذى كان يعمل بها وغلبه اليأس وختم حياته منتحراً .

كان « كلود برنارد » يدرس كيمياء الجسم ولاحظ أن الكبد يقوم بالمحافظة على مستوى السكر فى الدم ثابتاً بواسطة تخزينه ثم إطلاقه فى

الدم . لذا اعتبر أن الكبد غدة تفرز هرموناً واستنتج من هذا أن صحة الإنسان تعتمد على توفر ظروف ثابتة فى الجسم يمكنها مقاومة التأثيرات الخارجية بمساعدة الإفرازات الداخلية .

وقد حدا هذا التفكير الذى اعتبر الجسم كله وحدة تؤثر وتتأثر ببعضها إلى التوسع فى دراسة كيمياء الجسم الحى وسرعان ما ساعد تطور العلوم الحديثة إلى التقدم فى هذا الميدان .

خلاصة الخصية :

لما جاء « براون سيكوارد » سنة ١٨٨٩ وهو عالم فرنسى ووجد أن حيويته قد اضمحلت وأن قوته تضاءلت وولى عنه الشباب إذ كان عمره ٧٢ سنة اندمج يعالج نفسه بخلاصة الخصية . وسرعان ما جرى دم الشباب حاراً فى عروقه فلما انتشر هذا الأمر تهافت الناس فى يوم وليلة على هذا العلاج بعضهم لكى يسترد صحته والبعض الآخر ليلهو أو يتاجر .

وفى سنة ١٨٩١ تمكن « موراى » من تحضير خلاصة فعالة للدرقية وعالج بها مريضة مصابة بضعف الدرقية واستمرت تتعاطى الدواء بقية حياتها وقد عاشت هذه المريضة إلى سن أربعة وسبعين سنة واستعمل فى علاجها الغدة الدرقية لعدد هائل من الخرفان هو ثمانمائة وسبعين خروفاً .

ملايين الخراف والخنازير :

وقد أصبح إنتاج الهورمونات بالتخليق الكيماوى فى المعمل هو الوسيلة المفضلة لتوفيره للعلاج أما استخلاص الهورمونات من مصدرها الطبيعى أى من الغدد الحيوانية فيستلزم عدداً هائلاً من الحيوانات فمثلاً لكى

نحصل على كيلوجرام من هورمون الأستيروجين نحتاج إلى عشرين مليار خنزير ولتحضير كيلوجرام واحد من هورمونات الكظرية نحتاج إلى غدد مليونين ونصف مليون خروف .

وفى القرن العشرين علم أن الجهاز العصبى ليس هو وحده الذى يتحكم فى الجسم بل إن إفراز الغدد الصماء الذى سماه « بابليس وهارونج » سنة ١٩٠٢ بالهورمون واعترضوا على تسميته هيرمون — نسبة إلى « هيرمز » رسول الآلهة عند الإغريق لأنه لم يتنزه عن النفاق والفساد أما هورمو فهى بالإغريقية معناها ينشط

كان أول طريق لمعرفة الغدد الصماء هو ملاحظة التغيرات التى يحدثها نقصها فى المرضى . ثم بإزالتها عن حيوانات التجارب .

كذا تجربة إعطائها على هيئة خلاصة مركزة فى حيوانات التجارب لتوضيح تأثير زيادة إفرازها فى الإنسان .

وفى سنة ١٩٢٠ نجح « فيليب سميث » فى إزالة الغدة النخامية من الفأر . ثم تلى ذلك استخلاص إفراز الغدة النخامية وتجربة تأثيرها فى حيوانات التجارب لكى تعود إلى حالتها الطبيعية .

ثم قام الكيميائيون بتحضير خلاصات أنقى ثم أنقى حتى تم تحضير الهورمون فى صورة نقية خالصة مما مكن بعد ذلك من تحضيرها كيميائياً بالمعمل .

على أن كثيراً من الهورمونات المعقدة التركيب لم تتم معرفة تركيبها بعد حتى يمكن تحضيرها فى المعمل مثل هورمون النمو .

أما النيروكسين فقد عرف تركيبه وتم تحضيره فى المعمل وثبت أنه مماثل تماماً للهورمون المستخلص من الغدة الدرقية .

وهورمون الذكورة « التستيرون » كان أول ما جرب فى عالم الغدد حينما قام برتهولد سنة ١٨٤٩ بزرع خصية فى جسم ديك قد أزيلت خصيته فاحتفظ الديك بحالته الجنسية كما هى واستنتج من ذلك أن الخصية أثرت بإفرازها عن طريق الدم .

هذا وتحضير الهورمونات كيميائياً يستلزم خطوات كثيرة والناتج منه كمية ضئيلة . وقد اتجه العلماء حديثاً إلى تحضير مركبات تختلف عن المركبات الطبيعية وتفوقها أما فى قوة مفعولها أو فى تخصصها فى نوع واحد من التأثير على الجسم أو أن يكون امتصاصها بطيئاً مما يتيح استمرار مفعولها مدة طويلة .

هذا وقبل بدأ العلاج بالهورمونات لابد من إجراء فحوص وبحوث لمعرفة هل الاضطراب ناشئ عن زيادة أو نقص فى إفراز الهورمونات لأن كلاهما يسبب اضطرابا فى الأعضاء الحيوية . فكما أن المنبهات العصبية تؤثر على الغدد الصماء كذا تؤثر الهورمونات على الجهاز العصبى .

والواقع أن الهورمونات من أهم العوامل الضرورية لتنظيم عمليات التمثيل الغذائى فى الجسم ووظائف الخلايا والأنسجة .

وقد تتأثر وظيفة عضو بالذات بمجموعة هورمونات — تنبع من غدة صماء واحدة أو من غدد مختلفة — تعمل سوياً فى اتجاه واحد .

يختلف الإفراز الهورمونى حسب طور الحياة للإنسان فهو فى طفل غيره فى شاب غيره فى كهل أو عجوز وأى خلل فى مستوى الهورمون اللازم لكل سن يؤدى إلى أعراض مرضية .

أثر الهرمونات

للغدد اللعابية وكذا الغدد الهضمية قنوات تحمل إفرازها إلى الأعضاء التى تحتاج إليها .

أما الغدد الصماء فتصب إفرازها مباشرة فى الدم الذى يحملها بدوره للأنسجة فتتأثر بها تأثراً مباشراً يؤدى إما إلى زيادة أو نقص أو تعديل فى وظيفتها الفسيولوجية أو فى نموها . وبعد قيام هذه الإفرازات الخاصة أو الهورمونات بتأثيراتها تتحول إلى مواد أقل فاعلية تفرز فى البول أو الصفراء .

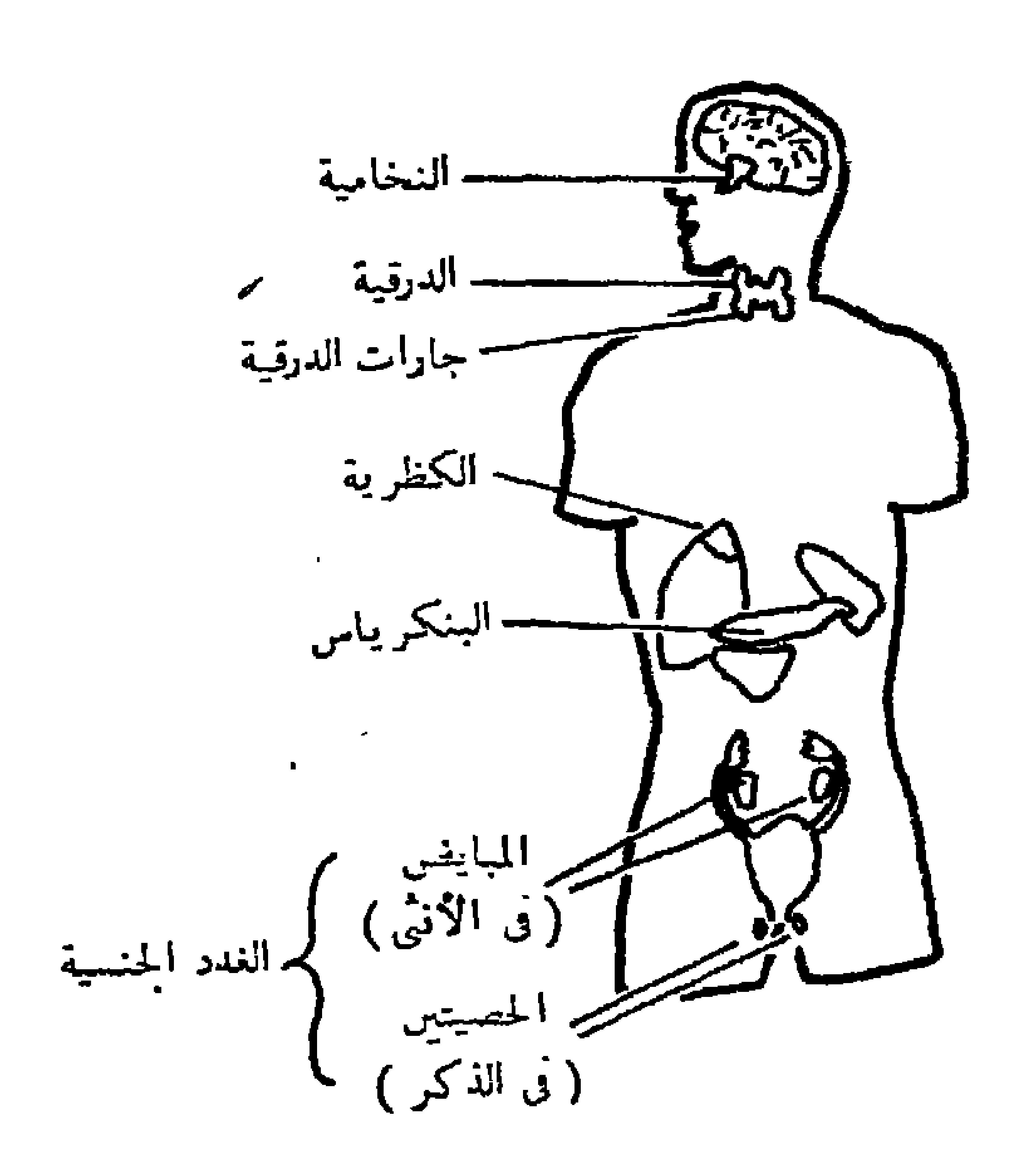
نصف كيلوجرام

والغدد الصماء التى تبلغ الستة أو أكثر عدداً لا يتجاوز وزنها نصف الكيلوجرام . وهى مع ذلك تتحكم فى الجسم كله من حيث طوله أو قصره سمنته أو نحافته حتى فى جنسه ذكراً أو أنثى .

لا يختص الإنسان وحده بالهورمونات فالحيوانات فى الواقع لها هى الأخرى هورموناتها . حتى الحشرات تفرز هورمونات من غدد خاصة بها متحورة من جهازها العصبى .

وبعض هورمونات الإنسان مشابهة تماماً لمثيلاتها فى الحيوانات والواقع أن مريض السكر مدين بحياته لهورمون الأنسولين الذى يستخرج من

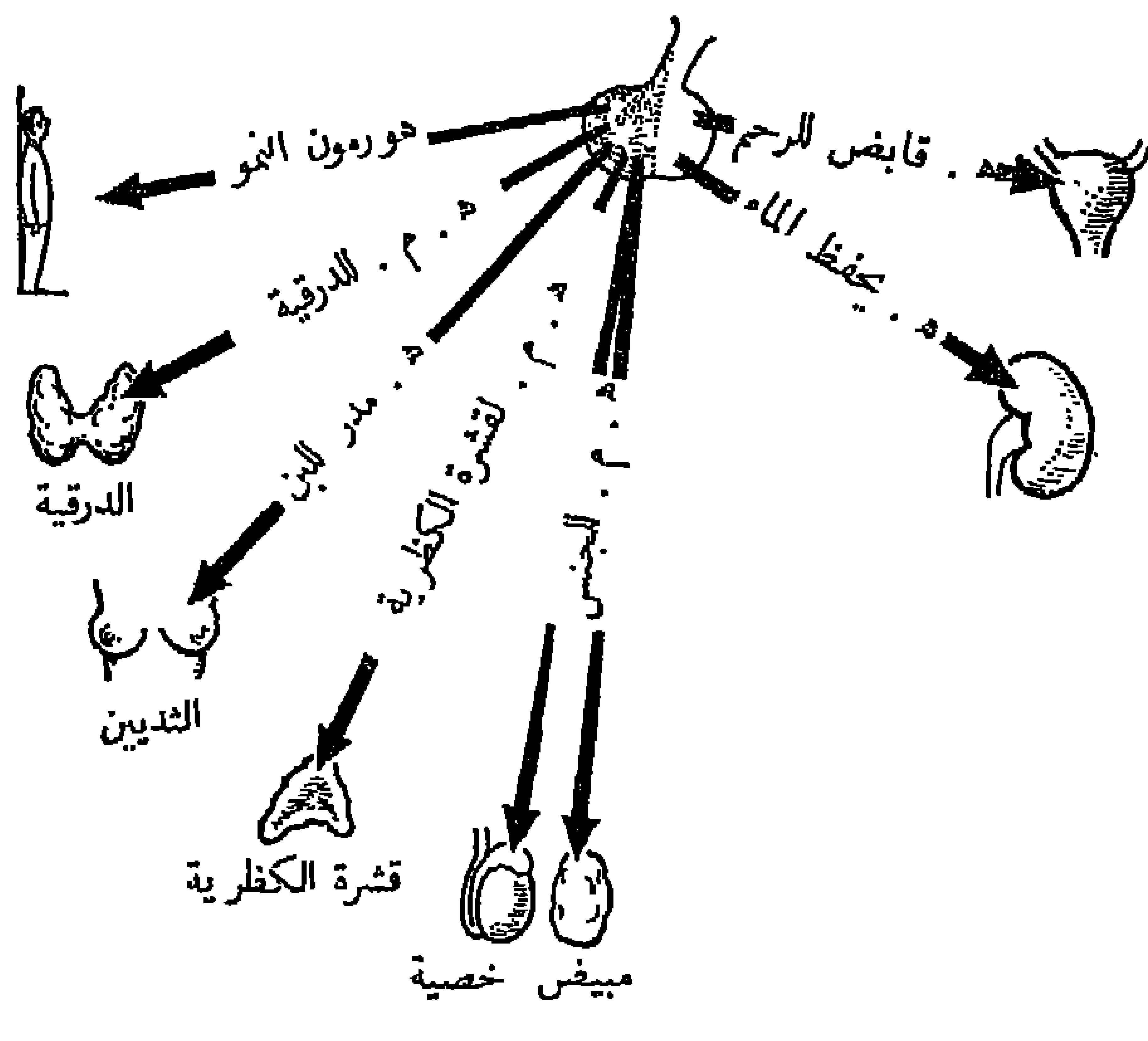
الخراف كما أن الثيروكسين الذى تفرزه الغدة الدرقية فى الإنسان يحول أبو ذنيبة إلى ضفدعة ويفتح عيون الفئران المولودة ويدر لبن البقرة .



الهرمونات

والغدد الصماء تقع متفرقة فى الجسم ويوجد فى الرجل كما فى المرأة غدد النخامية والدرقية والجاردرقية والكظرية والبنكرياس أما الغدد التناسلية فهى مختلفة وتتكون من الخصيتين فى الرجل والمبيضين فى الأنثى ولا تنشط

إلا عند البلوغ والغدة النخامية لها الفخر لأنها تتحكم فى جميع غدد الجسم .



هورمونات النخامية

تتكون الغدة النخامية الأمامية من جزأين منفصلين يقعان واحداً أمام الآخر ليكونا غدة مستديرة فى حجم ثمرة الكرز . وهى توجد فى تجويف عظمى فى قاع الجمجمة وسط السطح السفلى من المخ . وللغدة عنق ينتهى بالغدة النخامية الخلفية .

تنشأ الغدة النخامية فى الجنين من خلايا تكون جزءاً من الفم ومظهرها لا يدل على مدى خطورتها إذ أنها تفرزست هورمونات مختلفة . وقد يكون

فى الإمكان تفسير ذلك لو أنه كان هناك ست أنواع من الخلايا ولكن لم يكتشف للآن سوى نوعين فقط من الخلايا وربما أمكن للخلية أن تفرز أحد الهورمونات فى وقت من الأوقات ثم تفرز غيره فى حين آخر .

والغدة القريبة من النخامية هى الغدة الدرقية وهى توجد فى الرقبة مثل الفراشة وفصاها الأيمن والأيسر يقعان على جانبى الحنجرة ويصلهما نسيج من خلايا الغدة الدرقية يمر أمام القصبة الهوائية تحت الحنجرة . والغدة الدرقية هى أكبر غدة صماء ووزنها يزيد قليلا عن الأوقية أى أن وزنها أكثر من وزن النخامية ستين مرة وخلايا الغدة الدرقية متراصة كأنها جدران كرات مجوفة وسطها يحتوى على مادة زلالية شفافة وكل مجموعة من هذه الكرات يضمها نسيج خلوى وأوعية دموية وتسمى حوصلة . وخلايا كل حوصلة تفرز هورمون الدرقية الذى يتجمع فى وسط الحوصلة ليكون المادة الزلالية الشفافة ثم يمر فى الخلايا الدم ولذا فإن الغدة الدرقية هى الغدة الوحيدة التى تخزن الهورمون الذى تفرزه .

ويوجد فى الناحية الجانبية والخلفية لفصى الدرقية غدد الجاردرقية وعددها أربع وهى تتفاوت فى حجمها وعددها وسكانها وهى بالرغم عن ذلك لها وظيفة هامة .

تقع على كل من جانبى العمود الفقرى الغدة الكظرية أى واحدة فوق كل كلية .

والغدة الكظرية صغيرة بالمقارنة بالكلية وحجم كل منها خمسة سنتيمترات مكعبة ووزن الواحدة منها ستة جرامات . ويمكن التكهن بأهمية هذه الغدد من امتلائها بالدم إذ أن حجم الدم الذى يصل إليها كل دقيقة أكثر من حجم الغدة نفسها . والواقع أن كل غدة منها هى غدتان معاً الجزء الخارجى أو القشرة وتتكون من خلايا مكدسة على هيئة صفوف منتظمة تكون ثلاث طبقات .

أما الجزء الأوسط من الغدة فهو يتكون من خلايا تتحكم بما تفرزه من هورمونات فى ضغط الدم .

أما البنكرياس فيقع خلف المعدة فى نفس مستوى الغدد الكظرية ويسميها الجزار « الحلويات » ولها قناة تصب فيها العصارة الهاضمة لتصل إلى الاثنى عشر . ويوجد على طول البنكرياس مجموعة خلايا منتشرة تفرز الهورمون مباشرة فى الدم عن طريق الوريد البابى إلى الكبد ثم القلب .

لما كانت جميع الهورمونات تفرز فى الدم وتصل إلى القلب مباشرة فإن الأنسولين يكون هو الهورمون الوحيد الذى يصل إلى الكبد قبل القلب ولا غرو فإن الكبد هو أهم عضو له علاقة بتأثير هورمون الأنسولين .

جميع الغدد السابقة تقوم بوظيفتها مدى الحياة أما الغدد الجنسية فهى تبدأ وظيفتها عند البلوغ . لذا فهى تظل غير ناضجة حتى تلك المرحلة حينئذ تفرز هورمونات تتحكم فى النضوج الجنسى للجسم كما أنها تحوى الخلايا التى تكون الجنين الذى سيولد فيما بعد .

تحتوى خصية الرجل على قنوات متشابكة تتكون فيها الحيوانات المنوية ثم تخرج إلى قنوات خاصة . أما المسافات بين القنوات فتوجد بها الخلايا التى تفرز الهورمون .

ولأن نمو الحيوانات المنوية لا يكتمل إلا عند درجة حرارة أقل من درجة حرارة الجسم نجد أن الخصية تقع خارج الجسم مغلفة بكيس الصفن . ولو أن هذا يعرضها للصدمات والحوادث .

ومبيض الأنثى أكثر تعقيداً فى تكوينه وفى وظيفته فهو يحتوى منذ الولادة على بويضات لم تنضج بعد وهذه تنمو وتخرج من الرحم لتنتظر الإخصاب . وعدد البويضات غير الناضجة أربعمائة ألف ينضج منها أربعمائة فقط يكتمل نموها وتنزل من المبيض مستعدة للأخصاب وذلك

ابتداء من سن البلوغ حتى سن اليأس .

أما خلايا المبيض التى تفرز الهورمون فهى لا تقوم بعملها إلا عند البلوغ ثم تضمر بعد سن اليأس .

عرض وطلب :

يخضع إفراز الغدة الصماء لعامل منظم ضماناً لتوفير الصحة للجسم . قد يكون هذا العامل المنظم هورمونا منشطاً من الغدة النخامية .
وقد يكون نسبة تركيز مادة معينة فى الدم .

فمثلاً يقلل الأنسولين مستوى السكر فى الدم فإذا زادت نسبة السكر فى الدم يزيد إفراز الأنسولين إلى أن يعود السكر فى الدم إلى المعدل الطبيعى . وإذا قل السكر فى الدم يقل إفراز الأنسولين .

كذا نشاط الدرقية تنظمه النخامية . فعندما يقل إفراز الدرقية تزيد النخامية إفرازها من الهورمون المنشط للدرقية . وعندما يزيد إفراز هورمون الدرقية يقل إفراز هورمون النخامية المنشط للدرقية . أى أن الغدة النخامية والغدة الدرقية تتعاونان على الحفاظ على مستوى ثابت من الثيروكسين

تملك الحشرات خلايا عصبية متحورة لتفرز هورموناً أى أنها تحولت من وظيفة نقل المؤثرات العصبية السريعة إلى إفراز هورمونات تقوم بوظيفة كيميائية بطيئة . هذا النظام يعتبر أبسط نظام للغدد الصماء وهو خطوة فى طريق التطور حتى تصل إلى منتهى الروعة والكمال فى الإنسان الذى أمكنه التحكم فى بيئته بفضل التنوع والتخصص فى خلاياه وأنسجته وغدده.

ومن دلائل قدرة الخالق أن الجنين يطوى كل تاريخ التطور فى التسعة الشهور التى ينموها داخل الرحم .

فبينما نخاع الكظرية خلاياه عصبية وخلايا النخامية تنشأ من الفم وخلايا البنكرياس تنشأ من القناة الهضمية وهذا التطور مهيأة له هذه الخلايا منذ نشأتها حتى إن المركبات الكيميائية التى تحتاج إليها الخلية لإنتاج الهورمون توجد فى الأمشاج التى تورث من الوالدين .

هذا ولو أن كل غدة تفرز الهورمون الخاص بها فهى تظل مرتبطة بغيرها من الغدد أى أن الهورمونات تعمل كمجموعة أو كفريق متكامل تؤثر وتتأثر ببعضها البعض .

الأنسولين

الخلايا التى تسمى « جزر لانجرهان » فى البنكرياس هى التى تضمحل دون غيرها عند مرضى السكر . هذه الخلايا تفرز هورمون الأنسولين الذى يهيمن على تمثيل السكر فى الجسم . أما الذى يتحكم فى إفراز الأنسولين فهى نسبة السكر فى الدم .

وتاريخ معرفة مرض السكر مشوق، ففى ورقة برد « أبرز » — وهى صحيفة طبية فرعونية أيام موسى عليه السلام — وصف إدرار البول من غير ألم ، لكن مع هزال وضعف .

ووصفه « شانج شونج كنج » سنة ٣٠٠ بعد الميلاد بأنه مرض العطش ، لأن مريض السكر قد يشرب عشرة لترات من الماء فى اليوم ويفرز مثلها من البول .

نمل على البول :

وأول من استنتج أن بول مريض السكر حلو المذاق هو طبيب هندى عاش منذ ١٥٠٠ عام اسمه « أيود منهانسورستا » فقد وجد النمل يفد جماعات على بول مريض السكر ، ولاحظ أن مريض السكر يشكو الضعف والهزال وإدرار البول ويعانى من الدمامل .

ووصف ابن سينا سنة ١٨٨٠ غرغرينة مرض السكر .

وأول من لاحظ علاقة البنكرياس بمرض السكر هو « كاولى » سنة ١٧٨٨ إذ وصف مريضاً مات من السكر وكان البنكرياس متغيراً وبه حصوات ونسيجه مفرى .

وشبه مارشال سنة ١٧٩٨ رائحة مريض السكر برائحة التفاح المتعفن. واكتشف لانجرمان سنة ١٨٦٩ الخلايا التى سميت باسمه .

أما ونيكوفسكى فقد وجد سنة ١٨٨٩ أن الكلب إذا نزعت منه خلايا لانجرمان مرض السكر .

حينما كان العلماء يدرسون الخمائر الهاضمة فى البنكرياس ويستأصلون هذا العضو فى الكلاب لدراسة نتيجة ذلك على الهضم لاحظوا أن بول هذه الكلاب دون غيرها يتراكم عليه الذباب بأعداد وفيرة فبدأوا يستنتجون أن هناك إفرازاً هورمونيا يتحكم فى احتراق السكر فى الجسم فحضروا خلاصات البنكرياس وحقنوها فى الكلاب التى استئصلت غددها فكانت هذه الكلاب تموت منها وقد تبين بعد ذلك أن السبب هو احتواؤها على كميات ضخمة من الأنسولين وليس لوجود مادة سامة بها . ثم توقف هذا البحث عند قيام الحرب العالمية الأولى .

وفى أثناء الحرب أخذ طبيب شاب فى الجيش الكندى اسمه بانتنج يفكر فى مرض السكر وعلاقته بالبنكرياس . وعندما رجع إلى الحياة المدنية بعد الحرب استمر فى هذا التفكير ولحماسته الشديدة أعطوه معملاً فى تورنتو وانضم إليه طالب طب اختاره بالقرعة هو « بست » .

أخذ بانتنج يفكر كيف يستخلص الهورمون من البنكرياس إنه إذا تركه أذاب نفسه بالعصارة الهاضمة . وكان قد قرأ ذات ليلة أن الخلايا التى تفرز العصارة الهاضمة تموت إذا ربطت القناة التى تحمل العصارة للأمعاء . ثم أخذ يحضر خلاصات من بنكرياس ربطت قناته واستمر فى عمله شهوراً قاسية دون بارقة أمل وأخيراً حدثت المعجزة . فقد أمكن للخلاصة من بنكرياس أن تقلل السكر فى دم كلب مريض بالسكر .

وقد نالا على ذلك الكشف جائزة نوبل ثم مات بانتنج فى حادث

طائرة فى الحرب العالمية الثانية أما بست فصار أستاذاً للفسيولوجيا . وباكتشاف الأنسولين انفتحت ميادين جديدة فى علم وظائف الأعضاء وظهر واضحاً أن الأنسولين ضرورى ليستفيد الجسم من الأغذية وخاصة السكريات .

ومن المدهش أن إنتاج الأنسولين من بنكرياس الخراف نجح واستمر قبل أن يعرف تركيبه الكيميائى حتى أمكن الدكتور سانجر سنة ١٩٥٨ أن يكتشف تركيبه الكيميائى وحصل على جائزة نوبل .

يعتبر السكر (الجلوكوز) المصدر الرئيسى لجميع الطاقة فى جسم الإنسان . ويحتاج المجهود العقلى والعاطفى والعضلى إلى توفر السكر فى الدم عند حد ثابت هو حوالى مائة جرام جلوكوز فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم . ويعتبر المخ أول الأعضاء احتياجاً لذلك لذا فإن أى نقص فى نسبة السكر فى الدم تؤثر على الفكر والعاطفة قبل أى نشاط آخر فى الجسم .

يستعمل البروتين أساساً لبناء أنسجة الجسم وللنمو أما الدهون فهى مصدر أساسى للطاقة وهذا لا يمنع أن أى من هذه الأغذية يتحول للآخر داخل الجسم للمحافظة على الصحة .

فمثلاً يمكن أن يتكون السكر من البروتين كما يمكن أن يخزن السكر الزائد على هيئة دهن أى أن الطعام العادى بعد هضمه وامتصاصه يتحلل داخل الجسم إلى مركبات بسيطة نسبياً يمكن للجسم أن يشكل منها مواد جديدة حسب احتياجاته فمثلاً إذا زاد احتياج الجسم للطاقة زاد تكوين السكر وإذا زادت كمية السكر تحول الزائد إلى دهن وإذا احتاج الجسم إلى تعويض أنسجته كون بروتينات .

هذا يوضح كيف أن مرض السكر ليس سببه كثرة أكل الحلويات

أو الإسراف فى الطعام الدسم وكيف أنه يمكن أن تتولد الطاقة فى أجسامنا حتى لو كان معظم طعامنا بروتينات وأننا نسمن إذا أكلنا سكريات بكثرة حتى او لم نأكل الدهون .

ومن الواضح أنه إذا كان الجسم ليس عنده القدرة على تحويل ما يصل إليه من طعام إلى ما يحتاج إليه فعلاً لأصبح تحت رحمة الظروف ولما أمكنه المحافظة على تكوينه الثابت فى جميع الظروف والأحوال.

والمعمل الكبير الكفء وهو الكبديستقبل الطعام المهضوم من الأمعاء ويحولها إلى مركبات أبسط ويبنى منها أى مركب يحتاج إليه الجسم ببرباعة وكفاءة ونشاط عظيمين . أى أن على الكبد يقع حمل استفادة الجسم مما يصل إليه من طعام أقصى ما يمكن من فائدة أيا ما كان هذا الطعام .

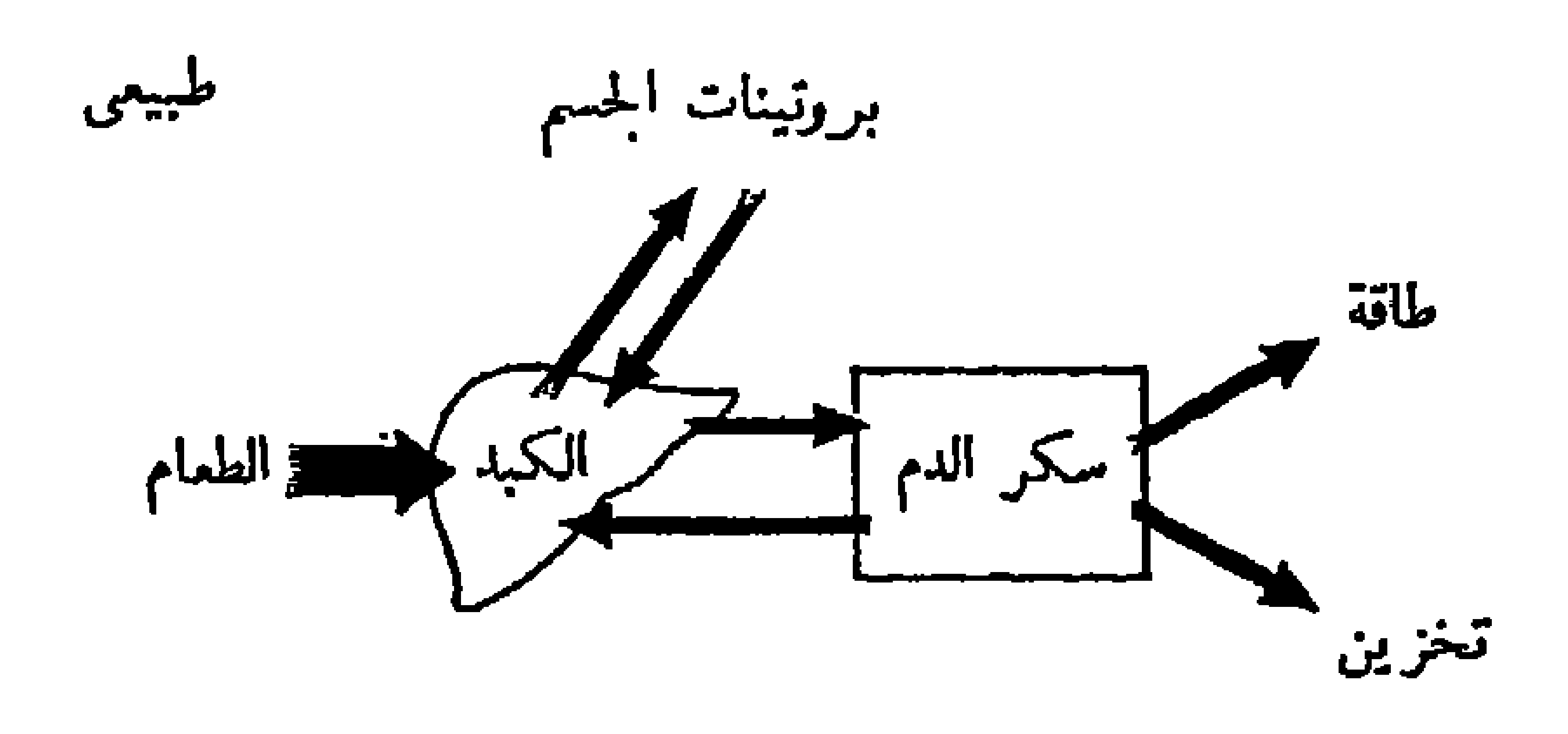
لذا فإن مرض الكبد يؤدى إلى تغير فى كيمياء الجسم جميعه يودى إلى الموت .

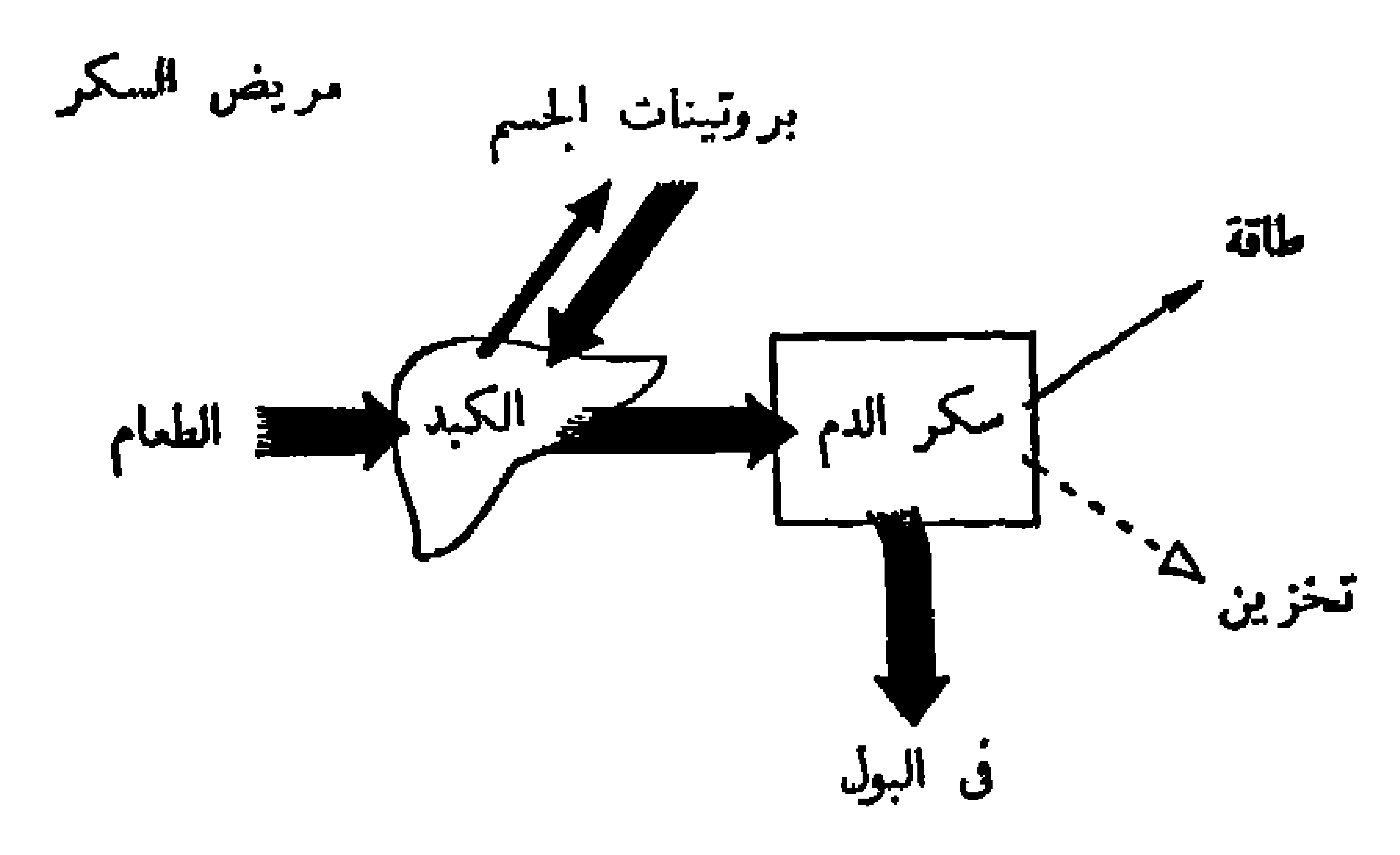
والذى يتحكم فى هذا المعمل الكيميائى هو الغدد الصماء وأولها البنكرياس لأنه يصب ما يفرزه من أنسولين فى الكبد قبل أى عضو آخر .

رأينا كيف أن هورمون النمو يوجه الجسم نحو بناء أنسجة جديدة ولا يهتم بتوفير الطاقة الحرارية للجسم أى أنه يمنع احتراق الجلوكوز لتوفير الطاقة وبذا فإنه يضاد فعل الأنسولين كما أن الكورتيزون الذى يهدم الأنسجة البروتينية فى الجسم ليحولها إلى السكر الذى يلزم له أنسولين ليحترق ويكون طاقة تساعد على مواجهة الأخطار والصدمات فإذا لم يتوافر هذا الأنسولين الزائد أصيب الجسم بمرض السكر .

أى أن الكبد يقوم بتوفير مايلزم الجسم من بناء وطاقة تبعاً لاحتياجات

الجسم يوجهه فى ذلك الهرمونات المختلفة منها هورمون النمو وهورمونات الكظرية المتحكمة فى تمثيل المواد الكربوأيدراتية مستوى السكر فى الدم يظل ثابتاً اعتماداً على التوازن الدقيق بين عامل زيادة وهو الامتصاص من الأمعاء وعاملى نقص يتحكم فيهما الأنسولين هما احتراقه فى الأنسجة وتخزينه فى الكبد .





تمثيل الجلوكوز

تتحول المواد النشوية والسكرية إلى جلوكوز أثناء عملية الهضم ويمتص الجلوكوز من الأمعاء والجلوكوز هو السكر الوحيد التى يمكن للجسم أن يستفيد منه وجميع أنواع السكر تتحول إليه فيما عدا سكر الفواكه (الفركتوز) فيستفيد منه الجسم مباشرة . ويختزن الجلوكوز — وكذا الفركوز — فى الكبد على هيئة جليكوجين الذى يمكن للجسم أن يحوله بسرعة إلى جلوكوز عند الحاجة . ومن الواضح أن السكريات الزائدة تختزن على هيئة دهون فى أجزاء خاصة فى الجسم ويؤدى تراكمها إلى البدانة .

من هذا يتضح أنه لكى يتحكم الأنسولين فى تمثيل الجلوكوز فى الجسم فيلزم له أن يؤثر على عمليات تمثيل أخرى كثيرة فى الجسم تتعلق بالبروتينات والدهون . والأنسولين هو الذى يدخل الجلوكوز داخل الخلية لكى يحترق . لذا يؤدى نقص الأنسولين إلى نقص احتراق الجلوكوز وزيادة تراكم الجلوكوز وعدم اختزان الجلوكوز على هيئة جليكوجين فى الكبد فينتج من هذه العوامل مجتمعة تراكم السكر فى الدم ومما يزيد الطين بله تأثيرات هورمونات النخامية والكظرية . أما إذا أعطى المريض ما يلزمه من أنسولين فإنه يشفى .

حقاً إنه من المؤسف أنه لا يمكن القضاء على مرض السكر بالرغم عن كل الأبحاث التى تجرى فى هذا الشأن .

ولما كان على الأقل واحد من كل مائة وخمسين يعانى من مرض السكر فيلزم لهؤلاء معرفة جميع ما يمكن عن هذا المرض الذى يعانون منه والحقيقة أن مريض السكر قبل اكتشاف الأنسولين كان يعانى من العطش والضعف ، مهدد دائماً بخطر الغيبوبة . أما بعد اكتشاف الأنسولين فلا غرو

أن هناك رياضيين عالميين يعانون من مرض السكر ويعالجون بالأنسولين .

عندما يشك المريض فى وجود مرض السكر فهو يكشف عن وجود السكر فى البول ذلك لأن الكلى الطبيعية لا تسمح للجلوكوز أن يفرز فى البول إلا بعد أن يزيد مستوى السكر فى الدم عن مائة وثمانين مليجراماً فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم وهو أعلى ما تصل إليه نسبة السكر فى الدم فى الشخص السليم .

هذا وبعض الأصحاء تسمح كليتهم بإفراز السكر فى البول بالرغم من أن مستواه فى الدم أقل كثيراً من ١٨٠ ملجم فى المائة وهناك كثيرات من الحوامل عندهن هذه الظاهرة . قد يوجد سكر اللبن فى البول عند المرضعات وفى أواخر الحمل . هذه الحالات لا تعتبر إصابة بمرض السكر .

والحقيقة أن الفيصل النهائى فى إثبات وجود مرض السكر من عدمه هو تحليل الدم قبل وبعد إعطاء جرعة من الجلوكوز . فالشخص السليم يبدأ بمستوى سكر فى الدم طبيعى ثم يعلوا إلى أقل من الحد الطبيعى الأعلى للسليم ثم يرجع إلى مستواه الأول فى مدى ساعتين . أما مريض السكر فيبدأ بمستوى أعلى من الطبيعى ثم يرتفع أعلى من الحد الطبيعى ثم لا يرجع لمستواه الأول على مدى ساعتين .

أى أن ارتفاع مستوى السكر فى الدم عن الطبيعى دليل على مرض السكر ولكن سبب هذا الارتفاع يحتاج إلى دراسات متشعبة لأن أسباب المرض متنوعة تنوعاً شديداً حتى يمكن القول إن كل مريض له نوع خاص به من مرض السكر يختلف عن غيره . فهو يتراوح بين الهين الذى يكفى فى علاجه التمسك بنظام معين من الطعام إلى الشديد الذى يحتاج إلى الحقن بالأنسولين مدى الحياة . وفى كلتا الحالتين يكون المريض فى

حالة جيدة بشرط الاستمرار فى العلاج . أما إيقاف العلاج بدعوى التحسن الظاهرى فى الصحة العامة فيؤدى إلى نكسات خطيرة .

إن علاج مرض السكر ممكن ومريض السكر يمكنه أن يعيش حياة طبيعية نشيطة ولكن الشفاء التام لا زال مستحيلاً .

يتساءل مريض السكر كيف ومتى أصبت ؟

الحقيقة أن كل مريض يذكر أنه أصيب بالمرض أو اكتشف بتحليل البول أنه أصيب بمرض السكر إثر محنة مالية أو صدمة عاطفية أو حزن شديد أو حادث عنيف .

الواقع أن هذا ليس هو السبب وإنما المرض كان موجوداً عنده طوال الوقت والذى ضاعفه فصار ظاهراً هو ذلك الحادث .

ومرض السكر يصيب غالباً الكهول والشيوخ ولا يشفق على الشباب ولا يرحم الأطفال . كما أنه يتوارث فى بعض العائلات .ووراثة مرض السكر صفة متنحية وليست غالبة لذا فهى تقل بالتوارث . فمريض السكر ليس له أن يخاف من أن يصاب أولاده بالمرض إذا كانت زوجته غير مريضة بالسكر . أما إذا كانت زوجته مريضة بالسكر فليس حتماً أن يصاب أطفاله بالمرض وعادة مريضة السكر تضع طفلاً كبير الحجم وقد يكون عرضة للإصابة بمرض السكر فيما بعد .

والواقع أن مرضى السكر يتباينون :

فهناك البدين الذى اكتظت عنده خلايا الدهن ولم تعد الأنسجة قادرة على تخزين دهن أزيد فتعذر على جسمه تحويل السكر الزائد الذى يلتهمه إلى دهن كما أن الأنسولين الذى يفرزه البنكرياس لا يكفى لاحتراق هذه الكميات الهائلة من السكر فإذا زاد السكر فى الدم نتج

مرض السكر . وهذا الصنف من المرضى يتحسن جداً إذا نقص وزنه .

أما النحاف فهم كذلك ليس عندهم أصلاً أى خلايا دهنية لتخزين الدهن فحتى كمية السكر القليلة التى يتناولونها لا يمكن خزن جزء منها كما هو الحال فى الشخص الطبيعى فتصبح عبئاً على الأنسولين الذى يفرزه البنكرياس فيصابون بالمرض .

ومن الغريب أن مريض السكر البدين ليس عنده نقص فى الأنسولين ولكن تأثير الأنسولين فى جسمه ضعيف هذا بسبب فعل الهورمونات التى تفرزها النخامية والكظرية والتى تضاد تأثير الأنسولين لذلك فهو يتحمل أكثر من غيره ارتفاع نسبة السكر فى دمه .

أما مرض السكر فى صغار السن فيسبب لهم فقد الوزن ولو أن الشهية للطعام قد تزيد فيرتفع السكر فى الدم ويفرز فى البول فيسحب معه الماء ويسبب العطش كما أن الجسم يسحب طاقته من الدهون التى لا يتم احتراقها فيتكون الأستيون الذى قد يسبب الغيبوبة . وإعطاء الأنسولين يشفى المريض من أعراضه ولذا فإن سبب مرض السكر هنا هو نقص الأنسولين.

عدا مجموعة البدينين الذين ليست عندهم الحساسية للأنسولين ويستفيدون من نظام الطعام وصغار السن الذين عندهم نقص فى الأنسولين ولولاه لتعرضوا لخطر الموت توجد مجموعة عندها مرض السكر متوسط ولكن لا يستفيدون فائدة تذكر من نظام الطعام .

لهؤلاء وجد العلاج بالأقراص . وبالطبع لا يوجد الأنسولين على هيئة أقراص لأنه يتأثر بالعصارات الهاضمة .

هذه الأقراص هى مركبات تولبيتامين .

كان تركيب البنسلين غير معروف فى فرنسا أيام احتلال الألمان لها فحاول الكيميائيون تجربة مركبات جديدة مشتقة من السلفا التى كانت معروفة قبل ذلك . وأثناء تجربة أحد هذه المركبات شعر المريض بدوخة وإغماء وثبت بعد ذلك أن ذلك يرجع لنقص السكر فى الدم فجرب الدواء على مرضى السكر ونجح .

وهو مفيد فى حالات مرضى السكر المتوسط الذين ليس عندهم نقص شديد فى الأنسولين أما مرضى السكر الصغار السن فهو لا يفيدهم ذلك لأنه ينبه البنكرياس الذى يفرز كمية صغيرة من الأنسولين إلى زيادة إفرازه .

لمريض السكر الذى يداوم على العلاج بدقة أن يطمئن على حالته أما المريض الذى يهمل العلاج فهو معرض لأزمات قد تكون شديدة وقد تكون هينة .

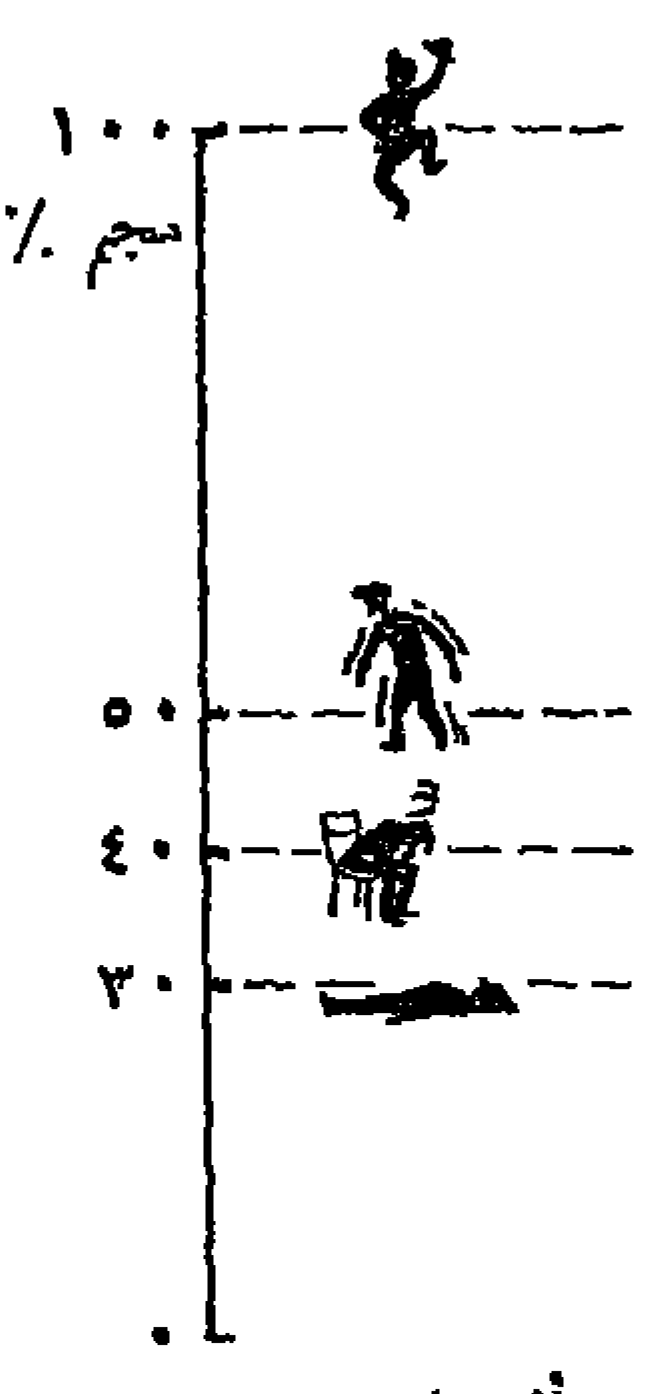
حتى عند المرضى الذين يداومون على العلاج والمرض عندهم ليس شديداً قد تهرم عندهم الشرايين قبل الأوان وخاصة الشعيرات التى فى قاع العين فينفجر وتنزف. ومن الغريب أن بعض الذين لايداومون العلاج قد لا يصابون بأمراض الشرايين .

هبوط مستوى السكر فى الدم قد يتسبب من زيادة الأنسولين وقد تكون الزيادة بسبب تعاطيه كعلاج خصوصاً إذا ضعف إفراز النخامية أو الكظرية لأنهما يضادان مفعول الأنسولين .

والواقع أن مستوى السكر فى الدم هو نتيجة توازن عدة عوامل من الطعام والأنسولين والمجهود العضلى فلو زاد المجهود العضلى مع التأخر عن ميعاد الطعام أدى إلى غيبوبة نقص السكر .

وقد تأتى زيادة الأنسولين من زيادة إفراز البنكرياس له فيشعر المريض بالدوخة والعرق وخاصة بعد طعام غنى بالسكريات أو النشويات لذا وجب على هؤلاء المرضى الاعتماد على الأغذية البروتينية .

وقد لاحظ الدكتور مايو حصول غيبوبة شديدة بسبب نقص السكر فى الدم عند بعض المرضى وكان سببها ورماً خبيثاً فى الخلايا التى تفرز الأنسولين فى البنكرياس وهذه الغيبوبة تأتى فى فترات غير منتظمة وعلاجها جراحى .



تأثير انخفاض
نسبة السكر فى الدم

هذا وللأنسولين استعمالات أخرى عدا علاج مرض السكر فهو يستخدم لقدرته على تنبيه الشهية وما يتبعها من زيادة الوزن وهو يفيد خلايا الكبد كما يستعمل فى إحداث صدمات لعلاج بعض الحالات النفسية والعقلية .

وهناك خلايا أخرى فى البنكرياس تفرز هورمونا يسمى **جلوكاجون** هو يضاد أثر الأنسولين فى تحويل الجلوكوز إلى جليكوجين فى الكبد وبهذا يسبب الجلوكاجين زيادة نسبة السكر فى الدم عن طريق تحلل جليكوجين الكبد إلى جلوكوز .

هورمون النمو

تفرز الغدة النخامية الأمامية هورمونا ينشط النمو يؤثر مباشرة على الأنسجة النامية ، وعلى الأخص الهيكل العظمى والعضلات . فتزيد العظام فى طولها وتربو فى وزنها ، وذلك عن طريق زيادة تكون البروتين داخلها ، ويتم ذلك بتوجيه الطعام الزائد عن حاجة الطاقة إلى النمو ، كما ينشط احتراق الدهون بمساعدة هورمون الأنسولين .

يبدأ هورمون النمو عمله منذ تكون الجنين بعد الحمل ، وينشط فى أواخر أشهر الحمل ، وكذلك أثناء السنة الأولى من عمر الطفل وكذا بين سن ٦ ، ٨ سنين ، ويعاود نشاطه فى فترة البلوغ .

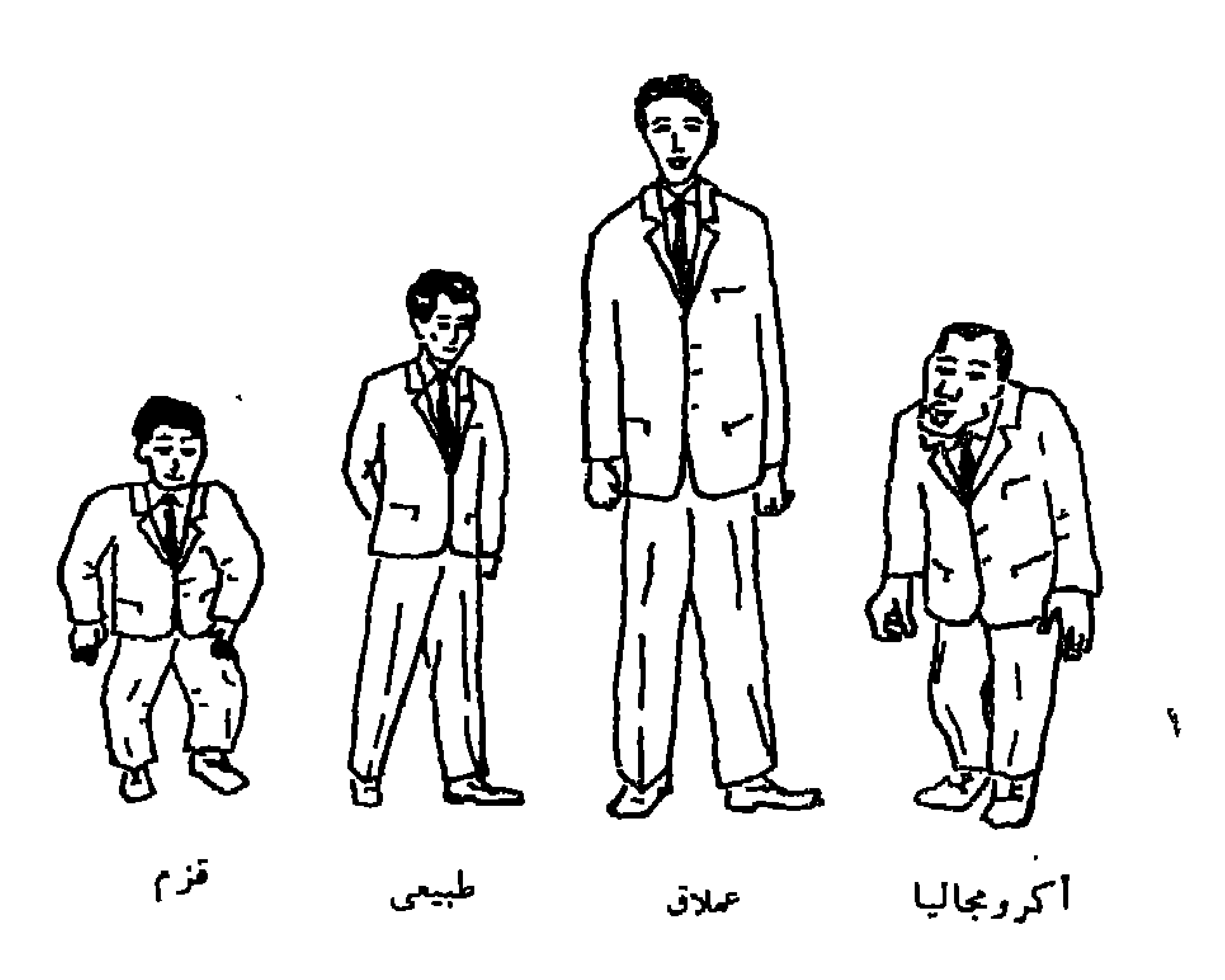
عمالقة وأقزام

إذا قل هورمون النمو **قبل البلوغ** يتوقف النمو ، فيصير الطفل الذى كان طبيعياً عند ولادته قزما قليل الحظ من النمو الجسمى . وقد يستمر نموه بعد ذلك ولكن ببطء شديد ، وربما يتوقف نهائيا . فيصبح الطفل فى سن ثمانى سنوات مماثلا فى طوله لطفل فى سن سنتين صغير الرأس قصير الأطراف ضعيف الجسم . وإذا كبر فى السن تظهر على جلده علامات تقدم السن ، بينما تظل ملامح وجهه فى براءة الأطفال ، ويكون ذكاؤه طبيعياً ، ولكنه سريع التأثر العاطفى

ومثل هذا القزم يختلف عن القزم بالوراثة ، فهذا الأخير مع صغر جسمه وبطء معدل نموه ، فإن تكون العظام والتحام الكراديس والنمو العقلى والنضوج الجنسى وملامح الوجه لا تتأخر عن وقتها الطبيعى . فهو عادى فى كل شىء ما عدا صغر الجسم .

أما إذا زاد هورمون النمو قبل **البلوغ** فتستمر العظام الطويلة فى النمو لتأخر التحام الكراديس ، ويصبح المريض **عملاقا** طوله أكثر من مترين ونصف مثل أهالى بحيرة « تشاد » فى أواسط إفريقية . أما الذين يصابون بزيادة هورمون النمو **بعد البلوغ** فتتضخم عندهم عظام الوجه والأطراف ؛ فيزداد نمو الفك الأسفل مع الجزء الأسفل من الوجه وتتباعد

هورمون النمو



الأسنان وتكبر الرأس وتصبح التقاطيع غير دقيقة وتكبر الأذن وتتضخم الشفتان ويكبر الأنف ، وبذا يشبه وجه المريض وجه الغوريلا ، وتسمى هذه الحالة « بالأكروميجاليا »

وسبب هذه التشوهات هو زيادة نمو العظام بعد التحام الكراديس بسبب تراكم طبقات العظام فوق بعضها دون نموها فى الطول . والمريض بهذا المرض يصيبه مرض السكر بسبب إضعاف هورمون النمو للأنزيم الخاص الذى يحول الجلوكوز إلى مركب قابل للاحتراق داخل الخلية ويسمى الهكوكيناز .

وقد وجد أن الفئران تتأثر بهورمون النمو الخاص بالخراف ، أما الإنسان فلا يؤثر فيه إلا هورمون النمو لنوع خاص من القرود ، ولعله يكون متوفراً قريباً . والجدول الآتى يساعد على معرفة مدى الاختلاف فى الطول والوزن عن الطفل الطبيعى :

	ولد		بنت	
السن بالسنة	الوزن كجم	الطول سم	الوزن كجم	الطول سم
١	١٠	٧٥,٢	٩,٧	٧٤,٢
٢	١٢,٥	٨٧,٥	١٢,٣	٨٦,٦
٣	١٤,٦	٩٦	١٤,٤	٩٥,٧
٤	١٦,٥	١٠٣,٥	١٦,٤	١٠٣,٢
٥	١٩,٤	١١٤,٣	١٨,٨	١٠٩,٧
٦	٢١,٩	١١٧,٥	٢١	١١٦
٧	٢٤,٦	١٢٤	٢٣,٧	١٢٢,٣
٨	٢٧,٣	١٣٠	٢٦,٤	١٢٨
٩	٣٠	١٣٥,٥	٢٩	١٣٣
١٠	٣٢,٦	١٤٠,٣	٣٢	١٣٨,٦
١١	٣٥,٢	١٤٤,٢	٣٥,٧	١٤٤,٧
١٢	٣٨,٣	١٤٩,٦	٣٩,٧	١٥١,٩
١٣	٤٢,٢	١٥٥	٤٥	١٥٧
١٤	٤٨,٨	١٦٢,٧	٤٩,٢	١٥٩,٦
١٥	٤٥,٥	١٦٧,٨	٥١,٥	١٦١
١٦	٥٨,٨	١٧١,٦	٥٣	١٦٢,٢
١٧	٦١,٨	١٧٣,٧	٥٤	١٦٢,٤
١٨	٦٣	١٧٤,٥	٥٤,٥	١٦٢,٥

هرمون الدرقية

تزن الغدة الدرقية في الشخص البالغ حوالى أوقية وهى تحتوى على جزء من خمسة أجزاء من يود الجسم كله أو ما يقرب من عشرة مليجرامات يود . ذلك لأن للغدة الدرقية ميل لامتصاص اليود من الدم أقوى بمقدار ثمانين مرة عن ميل الأنسجة الأخرى .

والغدة الدرقية هي الغدة الوحيدة التى يمكن رؤيتها عندما تتضخم .

خيط حرير

وقد كان « كندال » سنة ١٩١٩ هو أول من حضر الثيروكسين نقياً من الغدة الدرقية للخنزير وأول من حضره نقياً فى المعمل « هارنجتون » سنة ١٩٢٦ هذا ويحتاج الجسم يومياً إلى ٢٠ ميكروجرام يود ويزيد الاحتياج لليود عند الحوامل لذا تتضخم غددهم وتنشط حتى قيل إنه فى قرية بها جويتر يربطون خيط حرير حول رقبة السيدة فإذا انقطع هذا الخيط ثبت أنها حامل .

وبعد امتصاص اليود فى الغدة الدرقية تتحول فى داخلها فى ظرف دقيقة إلى هورمون الغدة الدرقية (الثيروكسين) الذى يتميز بعدم تأثره كغيره من الهورمونات بالعصارة الهضمية وهناك أدوية تقلل من هذا التحول وهى مشتقات الثيويوراسيل الذى كان يستخدم أصلاً سماً للفئران .

وخلايا الدرقية تقع على هيئة دائرة وسطها تجويف يتجمع الثيروكسين فى التجويف ويختزن متحداً مع مادة بروتينية ثم قبل أن يذهب للدم يتحول ثانية إلى ثيروكسين يوزعه الدم على الخلايا ويفقد الثيروكسين ذرة من الأربع ذرات يود فيتكون مركب جديد مفعوله أقوى خمس مرات من مفعول الثيروكسين وكما أن هورمون النمو يؤثر على جميع الجسم كذا هورمون الدرقية يؤثر على جميع خلايا الجسم .

ثلاث قمحات فى السنة

يقوم الثيروكسين بتنبيه كافة عمليات التمثيل فى الجسم بطريق زيادة استعمال الأكسوجين فى الأنسجة . والمعروف أن ملليجراماً واحداً من الثيروكسين يزيد التمثيل الغذائى فى الجسم بمقدار يعادل احتراق ربع كيلوجرام جلوكوز . ومما يدل على قوة تأثير هذا الهورمون أن ما يكفى الجسم منه لمدة سنة لا يزيد على وزن ثلاث حبات من القمح . ولقدرة الثيروكسين على زيادة التمثيل الغذائى فى الجسم فإن إفرازه يزيد عندنا الشعور بالبرد .

والثيروكسين يرفع نسبة الجلوكوز فى الدم لأنه يزيد امتصاصه من الأمعاء ويطلق المخزون منه فى الكبد .

وهو يزيد سرعة القلب ويسبب طرد الكالسيوم والفوسفور من العظام لتغرز فى البول مما يؤدى إلى ليونتها ويقوم كذلك بالمساعدة فى التحام الكراديس .

يود مشع :

تستعمل طرق عديدة لقياس مدى نشاط الغدة الدرقية فى حالتى الصحة والمرض .

فمثلاً تحليل كمية اليود الموجودة فى الدم أو البول المتحدة مع البروتين يبين كمية هورمونات الدرقية. ذلك لأن هذه الهورمونات تتميز باحتوائها — دون غيرها — على اليود . وهى توجد فى الدم كما تفرز فى البول ملتصقة بالبروتينات .

الوزن الذرى لليود العادى — غير المشع — ١٢٧ أما اليود المشع فوزنه الذرى ١٣١ وللغدة الدرقية خاصية عدم التمييز بين الصنفين من اليود .

لتشخيص نشاط الغدة الدرقية يعطى المريض جرعة صغيرة عشرين ميكروكورى — من اليود المشع يبتلعها المريض فيخرج منه إشعاع يمكن قياسه وتحويله إلى تأثيرات كهربائية فى أثناء مروره فى جهاز « جايجر موار » .

وهناك جهاز أكثر حساسية يعتمد على مرور الإشعاع فى بلورة يخرج منها ومضة ضوئية كلما مر فيها تأثير كهربائى. وهذا الضوء يحوله جهاز خاص إلى تأثيرات كهربائية . هذه التأثيرات الكهربائية الناتجة سواء من جهاز جايجر أو جهاز الإشعاع الوميضى يمكن عدها بجهاز عد ألكترونى خاص يعطينا عدد النبضات الكهربائية فى وقت محدود هى عدد ذرات اليود التى انفجرت فى تلك المدة والموجودة فى المكان المسلط عليه جهاز العد — الغدة الدرقية — وهذا يبين ما تركز من الجرعة داخلها أى مدى نشاطها .

هذا ويستعمل اليود المشع بكميات أكبر للعلاج — عشرين

ملليكورى – فتتركز ذرات اليود المشع فى الدرقية وتتلف إشعاعاتها خلايا الغدة النشيطة .

هذه الطريقة أفضل من استعمال العلاج بالأشعة لأن هذا الأخير يمر بعد خروجه من الجهاز المولد على الجلد والعضلات قبل أن يصل إلى الغدة الدرقية

اليود المشع تمتصه الدرقية ويتركز فيها والزائد يفرز فى البول فإذا زاد نشاطها زاد تركيز اليود فيها وقل ما يفرز فى البول والعكس صحيح .

أى أن قياس إشعاع اليود المتجمع فى الدرقية والذى يفرز فى البول يعطى لنا صورة دقيقة وواضحة عن نشاط الغدة . ومما يساعد على ذلك تقدم الطبيعة النووية واستعمال الأجهزة التليفزيونية الحديثة .

هذا وتتأثر جميع اختبارات الغدة الدرقية بالأدوية التى تحتوى على يود ويتناولها المريض من نقط أو دهانات أو مراهم أو الأدوية التى تقلل نشاط الدرقية أو خلاصة الغدة أو الأدوية المضادة للدرن وروماتيزم المفاصل أو حقن الصبغة قبل التصوير بالأشعة وإذا علمنا أن هذه التأثيرات قد تمتد إلى سنتين تصورنا كم تحتاج هذه الاختبارات إلى دقة شديدة .

كما أن المراهم التى تحتوى على ديزورسين تضعف الغدة فقد كان أحد الصحفيين يعالج قروحاً ناتجة عن دوالى فى ساقه بمرهم يحتوى على ريزوربين فأخذ يشكو من التهاب فى أحباله الصوتية أفسد صوته وقد تبين بعد ذلك أن السبب هو قلة هورمون الدرقية من فعل المرهم .

ويسبب انعدام أو ضعف الغدة الدرقية الوراثى فى الجنين حالة **القماءة** ولظهور أعراضها على الطفل ابتداء من سن الستة شهور فيكون

الجلد سميكاً جافاً مرتخياً وعليه بقع رمادية خضراء مع انخفاض فى درجة الحرارة بسبب البطء فى الدورة الدموية . ويبطئ معدل النمو فالقمىء فى سن الثمانى سنوات طوله يوازى طول الطفل العادى فى سن السنتين . وملامح الوجه عليها سماء البلادة ويبرز اللسان سميكاً كبيراً خارج الفم . ويتميز القمىء ببطء فى نشاطه وعقليته مع تأخر فى نمو الأعضاء التناسلية.

ويحدث هذا الضعف الوراثى بسبب إصابة الأم بالجويتر البسيط ويحدث هذا فى المناطق التى يقل فيها اليود فيولد الطفل مريضاً بهذا المرض .

وقد وصف نوريس فى سنة ١٨٤٨ مرض القماءة وذكر أن فى قريته التى عددها خمسمائة وأربعون، أربعة عندهم بلاهة تامة وسبعة عشر بلاهة جزئية وكلهم عندهم جويتر وأن معظم الباقين عندهم جويتر حتى الأجانب الذين يأتون للقرية يصابون بالجويتر .

وكانت الأفكار السائدة فى تلك الأيام أن وجود تسمم أثناء عملية الإخصاب عند الوالدين هو الذى سبب هذا المرض .

وقد ذكر هلتون فاج ١٨٧١ أن القماءة متفرقة ووجد أن ليس عندها أى غدة درقية واستنتج أن هذه مشابهة للحالات المتوطنة .

وقد عرف بعد ذلك سبب القماءة المتفرقة وهو ليس نقص اليود عند الأم الحامل ولكن سببه هو غياب إنزيم خاص ضرورى لتحويل اليود الذى تمتصه الدرقية إلى ثيروكسين، ونقص هذا الإنزيم هو مرض وراثى .

وكان اكتشاف فاج هو الذى مهد لاستنتاج سبب أمراض الدرقية وأن علاجها يكون بإعطاء خلاصة الغدة .

ولم يعد الآن مرض القماءة مأساة لوعولج مبكراً وأعطى هورمون الدرقية . أما تأخير التشخيص فيسبب إتلاف المخ ، أما كمية الهورمون فيجب أن تكون كافية وتزيد بزيادة السن وتعطى مدى الحياة .

أما ضعف الدرقية فى المراهقين ويصحبه تضخم فى حجم الغدة فيسمى الجويتر البسيط . وهو يحدث إذا قل اليود فى ماء الشرب . ويحدث كذلك بسبب الاقتصار على الأطعمة الخالية من اليود مثل اللبن واللحم والخبز والزيوت النباتية وعدم تناول الأغذية الغنية باليود مثل سمك البحار وزيت كبد الحوت . وقد لوحظ أن تجفيف الملح فى الملاحات قرب رشيد على هيئة أكوام معرضة للشمس والهواء يفقده معظم ما به من يود . وملح الطعام الذى عند البقال خال من اليود وذلك بسبب امتصاصه اليود بواسطة العلبة الورق ذلك لأن اليود قابل للتطاير وهو فى حالته الصلبة .

وفى الواحات :

يوجد اليود فى الصخور البركانية وتغسله مياه الأمطار فينزل إلى البحيرات والبحار ويوجد فى الأسماك وحشائش البحر لهذا فإن التربة فى الواحات لا تحتوى على يود ونباتات وحيوانات الواحات خالية من اليود كما أن مياه لآبار خالية منه .

يجفف سكان الواحات وخصوصاً الفرافرة السمك فى الأفران ويصحنونه إلى بودرة ويخلطونه بالماء ويأكاونه طول العام . وهذا يجعلهم فى مأمن من الإصابة بالجويتر البسيط . أما بقية الواحات فيعتمدون على ما عندهم من غذاء وهو خال من اليود لأن تربة الأرض خالية منه ولا يأتيهم من الخارج غير الزيت والشاى والسكر وهى جميعها خالية من اليود كما أنهم لا يشترون

السمك لذا فإن الجويتر البسيط ينتشر بينهم وهو يصيب حوالى ثلث من هم فى سن عشرة إلى خمسة عشر .

أما العلاج فيكون بغذاء يحتوى على يود . وقد عالج قدماء الصينيين الجويتر بمسحوق الإسفنج قبل اكتشاف أن الأسفنج غنى باليود بأجيال . أما أسهل طريقة لذلك فهى إضافة اليود إلى ملح الطعام بنسبة واحد فى الألف . وهذه طريقة سهلة واقتصادية وخالية من الأخطار .

أما الكرنب والقرنبيط ففيهما مادة تساعد على عدم الاستفادة من اليود . وهذه المادة موجودة بكميات قليلة حتى إن الأمر يستلزم أكل أطنان منهما قبل الإصابة بالجويتر .

إذا أصيب الكبار بضعف فى الغدة الدرقية تظهر عليهم أعراض مرض الميكسيديما وهى تصيب فى الغالب النساء فى منتصف العمر فتضمر الغدة حتى تصبح خلايا متفرقة لا تفرز الهورمون فيصاب المريض بسرعة التعب وبلادة التفكير وبضعف فى الذاكرة . وقوة التركيز ، ولكن الذكاء وسرعة البديهة والميل للفكاهة يبقيان ، ويبتلى المريض بجفاف الجلد وخشونة وذبول الوجنات ويفقد الشعر نعومته ويتساقط ، ويقل إفراز العرق ، ويزيد وزن الجسم نتيجة لتكون نسيج تحت جلد الوجه والأطراف ، ممتلىء بسائل يحتوى على بعض الزلال والمواد المخاطية مما يعطى للجسم مظهراً ممتلئاً .

هذا ويقل التمثيل الغذائى فى الجسم ، ويقل ما يدفعه القلب من الدم ، وتبطىء الدورة الدموية مما يؤثر على وظيفة الكليتين ، وتتوقف دورة الحيض فى السيدات بسبب فقدان أثر الثيروكسين المنشط فى جميع عمليات التمثيل ومنها وظائف الغدد الجنسية التى تتحكم فى دورة الحيض عند المرأة .

ويصاب مريض الميكسيديما كذلك بفقر الدم بسبب انعدام نشاط نخاع العظام فى تكوين كرات الدم الحمراء .

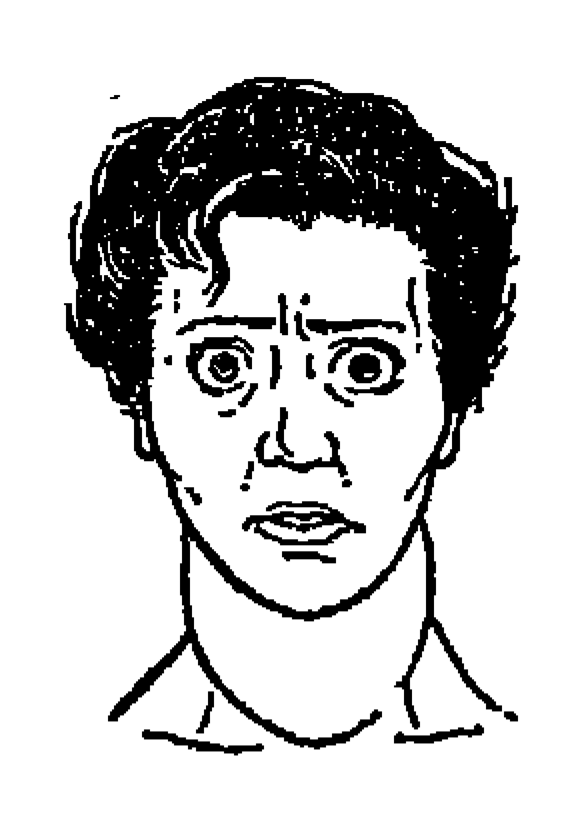
القلق :

يشكو المريض بزيادة إفرازالثيروكسين (الجويتر) السام والواقع أن الغدة الدرقية لا تفرز سما ولكن زيادة إفراز الثيروكسين هى التى تسبب الضرر من إسراع القلب فى ضرباته نتيجة لزيادة عمليات التمثيل فى الجسم لذا لا يتحمل الحر وهو دائم الرعشة كثير الحركة سريع التهيج يحس أنه مثل الدينامو ، ولكن يصحب ذلك شعور بالتعب والضعف وسرعة النبض. ومن الملاحظ أنه يفقد وزنه بسرعة رغم إقباله على الطعام بشهية . وإذا سلمت عليه وجدت يده دافئة وأصابعه مبللة بالعرق لزيادة عدد الشعيرات الدموية تحت الجلد . والذى يظهر الإصابة بالجويتر السام فى الغالب هو القلق على الأقارب والأصدقاء فقد تصاب الأم بالجويتر السام عند مرض ابنها الحبيب ولكنها لا تصاب به بسبب أى مرض يصيبها كما قد ينشأ الجويتر السام عند البلوغ .

هذا وتصيب أمراض الغدة الدرقية الإناث أكثر من الذكور وكذا الحوامل أو من هم فى سن اليأس .

ويقوم بتنشيط الغدة الدرقية هورمون تفرزه الغدة النخامية الأمامية وتسمى **الهرمون المنشط للدرقية** إذ أنه يزيد وزن الغدة الدرقية ويضاعف كذلك من شدة نهمها لليود لأنه ينشط الخمائر التى تحول اليود إلى ثيروكسين . وتسبب قلة هذا الهورمون ضمور الدرقية .

وينشأ من زيادة هذا الهورمون مرض جريف وهو نوع من أنواع الجويتر السام .





يكون للعين منظراً خاصاً فى تسمم الدرقية فى البداية تبرز قليلا ويرتفع جفن العين الأعلى ثم تجحظ العين . والواقع أن سبب بروز العين ليس هو الثيروكسين إذ أن تجربته وحده أثبتت أنه لا يسبب وحده هذه الحالة . كما أن العين قد تبرز وحدها دون أى خلل فى الدرقية أو حتى بعد العلاج من تسمم الدرقية . والواقع أن النخامية هى التى تسبب ذلك ولكن هورمون النخامية المنشط للدرقية ليس هو السبب لأن يفرز بكثرة فى الميكسيديما ولا يصحبه هذا الجحوظ . فربما فى حالة زيادة نشاط الدرقية تفرز النخامية هورموناً من نوع المنشط للدرقية ولكنه يسبب الجحوظ .

كلاب الحراسة :

عند ما نهض أحد علماء التشريح النرويجيين ، وأعلن فى نادى الأطباء عثوره على أربعة جسيمات صغيرة ملتصقة بالغدة الدرقية ، سخر منه زملاؤه. ولكن أثبت العلماء بعد ذلك أن هذه الجسيمات الصغيرة تفرز هورمون الجاردرقية. وهذا الهورمون يحافظ على نسبة الكالسيوم فى الدم

عن طريق سحب الكالسيوم . وبالتالى الفوسفور من العظام وطرده من البول ، ولذا يمكن تسمية هذا الهورمون بكلب حراسة الكالسيوم فى الدم إذ أنه يعض العظام لينهش ما بها من كالسيوم إذا لزم الأمر . ونحن إذا تأملنا تكوين العظام نجد أنها نسيج متغير رغم أنها فى ظاهرها هيكل صلب يحمل الجسم . وهى تتكون من نسيج مخاط تترسب فيه فوسفات الكالسيوم التى تصل للجنين من دم أمه ، وكلما تحول هذا النسيج إلى عظام تكونت خلايا أخرى وهذه تتعظم ويتكرر هذا إلى أن تلتحم الكراديس عند ما يحدث البلوغ .

أقوى من الصلب :

ومن عجائب صنع الخالق أن قوة العظام تكمن فى ترسب بلورات فوسفات الجير حول ملايين القنوات الدقيقة بطريقة متداخلة حتى إن سطح بلورات فوسفات الجير الموجودة فى الجسم يصل إلى مائة فدان . لذا فإنه بالرغم من أن ثلث وزن العظام ماء فإن له قوة الصلب وثلاثة أضعاف قوة الخشب ويحتاج إلى وزن ثمانية قناطير توضع فوق إحدى الفقرات حتى يمكن سحقها .

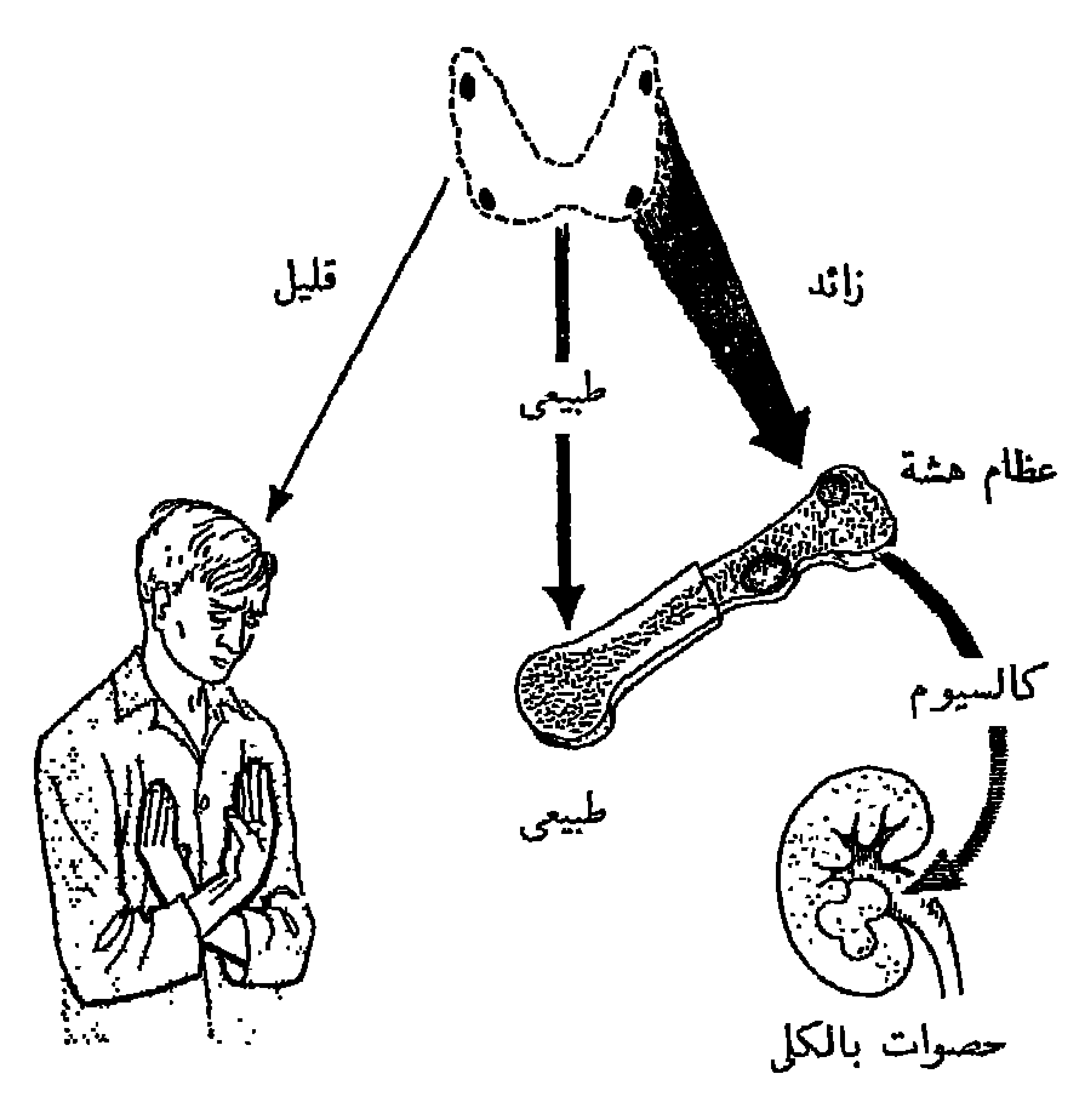
وتحتوى العظام على ٩٨٪ من الكالسيوم فى الجسم . والعظام فى تغير مستمر .

ويبدأ تكون العظام فى الجنين على هيئة قطعة مطاطة فيرسب فيها تدريجيا فوسفات الجير وتمده أمه وهى حامل بما يحتاج إليه من جير . ونمو العظام يتم بترسب فوسفات الجير فى خلايا تقع فى نهاية العظام وبعد أن يصير ذلك الجزء عظاما تتكون طبقة أخرى أمام الطبقة السابقة وتتحول

إلى عظام بنفس الطريقة ويستمر هذا حتى سن البلوغ إذ تلتحم حينئذ الكراديس ويتوقف نمو العظام .

وحركة العظام تساعد على زيادة ترسيب فوسفات الجير فتزيد قوتها لذا فإن عدم تحريك العظام يسبب ضعفها وفقدها لفوسفات الجير . كما أن العظام إذا وضعت فى الجبس للعلاج ضعفت .

والغدد الجاردرقية تعمل فى صمت لحفظ الكالسيوم فى الدم ولا تظهر قيمتها إلا عند ما تمرض .



فى حالات نقص هورمون الجاردرقية — كما يحدث نتيجة استئصال جزء من هذه الغدة عن طريق الخطأ أثناء إزالة الدرقية فيقل إفراز الفوسفور

فى البول ويزيد فى الدم تبعاً لذلك . أما الكالسيوم فيقل فى الدم وتظهر أعراض نقص مثل انقباض عضلات اليدين والقدمين وعضلات الحنجرة أما ازدياد هورمون الجاردرقية فيسبب فقد الفوسفور فى البول فيقل فى الدم .

وقد كان المظنون أن هذه الغدة تزيد إفراز الفوسفور فى البول مما يسبب سحبه من العظام ومعه الكالسيوم ولكن وجد أن زيادة الكالسيوم تتم حتى بعد إزالة الكلية .

هورمونات الكظرية

١ – هورمونات النجدة :

يتعرض الجسم لأزمات تتفاوت فى عنفها وشدتها ولكنها على أى حال تحتاج إلى نجدة سريعة فعالة . ومن أجدر من الهورمونات فى القيام بهذا الدور . وللغدة الكظرية نصيب الأسد فى نجدة الجسم مما يلم به من أزمات .

ويبلغ حجم الغدة الكظرية ٤٪ من حجم الكلية ، ولو أن حجمها فى الجنين أكبر من حجم الكلية . أما حجم الدم الذى يمر فيها كل دقيقة فهو أكثر من حجم الغدة نفسها . ومما يدل على أهمية هذه الغدة وخطورة وظيفتها فى الجسم ، أن إزالتها تسلب الجسم الحياة ، على حين أن إزالة أى غدة أخرى لا تسبب الموت .

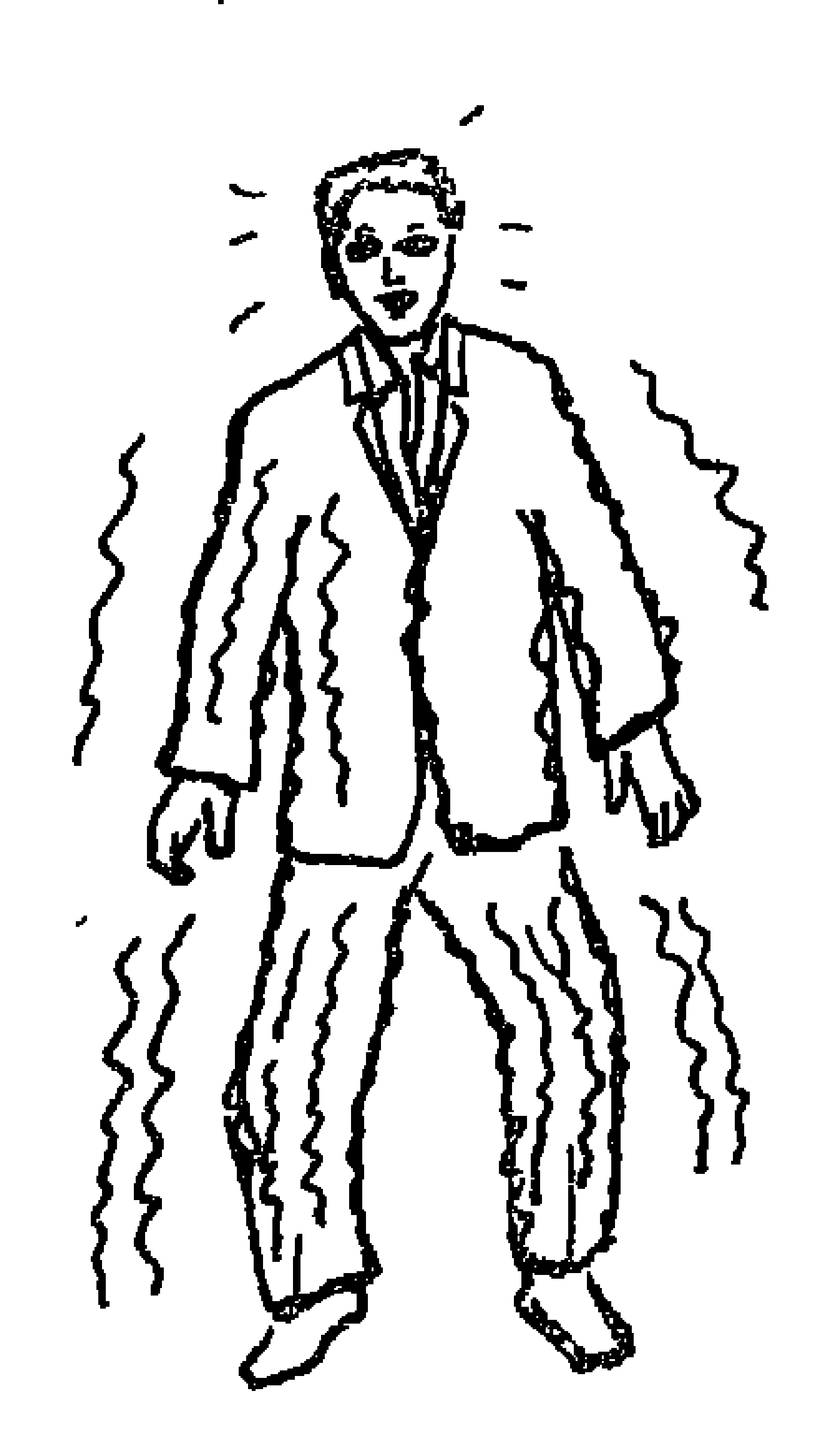
والمقصود بالأزمات هنا هو ما يتعرض له الإنسان من أخطار فى الحياة كالبرد والحر والحروق والإجهاد العضلى والصدمات العقلية والعاطفية والقلق . هذه كلها أو بعضها تؤثر كمنبهات كيميائية لتحت السرير البصرى الذى يؤثر بدوره على الغدة النخامية الأمامية . **فتفرز الهورمون المنبه للقشرة الكظرية** بكميات كبيرة . فيزيد إفراز هورمونات قشرة الكظرية المسماة : بهورمونات النجدة .

تخترق النيران ولا تطفئها

وهورمونات النجدة هذه تمكن الجسم أن يخترق نيران الأمراض دون

أن يحترق بها ، ولكنها فى نفس الوقت لا تطفئها . وتجابه هورمونات النجدة حالة القلق أو الصدمة عن طريق ملاءمة الجسم لها وإعداده لمقاومة حالات الخطر لمدة طويلة نسبياً .

هورمونات النجدة



النجدة النجدة ! ! !

يحتاج الجسم إلى كميات مضاعفة من الكورتيزون لملاقاة الصدمة ولكن تكفيه كمية قليلة لحياته اليومية . أثناء الحرب العالمية الثانية كان الاهتمام شديداً للعمل على حماية الطيارين من التعب والإرهاق خصوصا من التعرض لقلة الأكسوجين فى الطبقات العليا ومتاعب السرعة الشديدة وأثناء الغارات الجوية على لندن كان يظن أن الطيارين الألمان يحقنون

بمادة تساعد على تنشيطهم واهتمت المخابرات بمعرفة هذا العقار السحرى وأشيع أنه خلاصة قشرة الكظرية فأخذ العلماء يجتهدون فى تحضير هورمونات الكظرية ولما وجدوا أن حقنها فى الشخص العادى لا تفيده لأن عنده منها ما يكفيه علموا أن هذه القصة كانت من قبيل الدعاية .

أما علاقة الغدة الكظرية بحالات القلق والصدمة فيرجع الفضل فى دراستها إلى العلامة هانز سيلى إذ وضع أولى نظرياته عن كيفية مجابهته الجسم للأخطار سنة ١٩٤٠ ، وفسر كيف أن الجسم يجابه الصدمات المفاجئة ويقاومها وينجو منها دون أن يتغير فى تركيب أنسجته شيء ما . وقد وجد أن تأثير القلق أو الصدمة يختلف من شخص لآخر حسب طبيعته ووراثته والأمراض التى أصيب بها وكذا غذائه .

خوف — مقاومة — إجهاد

وتتم هذه العملية على مراحل هى الخوف الذى هو بمثابة دعوة للجسم للاستعداد للنزال ويبدأ بتلقى الصدمة وهذه تستمر من دقائق إلى أربع وعشرين ساعة يحدث أثناءها انخفاض ضغط الدم وهبوط كل من حرارة الجسم ونسبة تركيز الدم وزيادة حموضة المعدة . وهذا يفسر قرحة المعدة فى أكثر من يتعرضون للغارات الجوية .

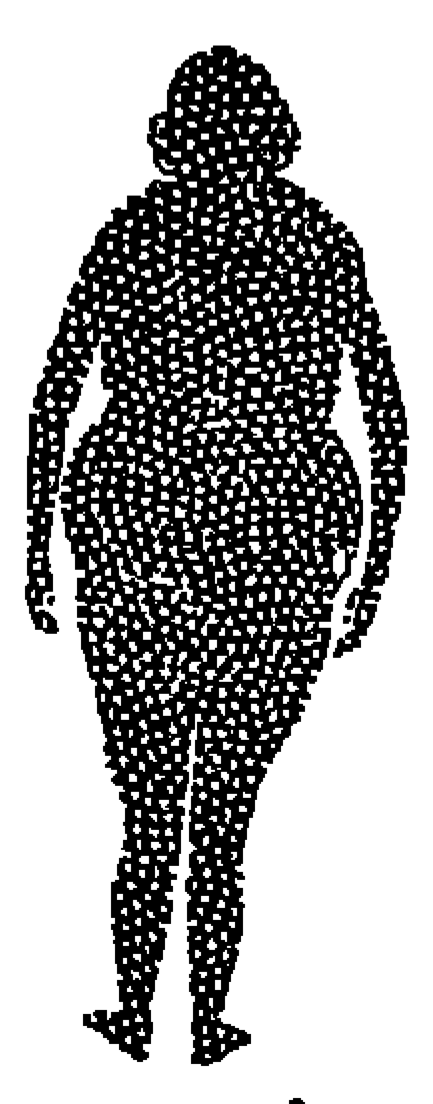
إذا لم تحدث الوفاة من تأثير الصدمة يلى ذلك رد الصدمة وتحدث منه تغيرات فى حجم أعضاء الجسم لإفراز هورمون خاص من باطن الكظرية بعد أن تزيد قوة الجسم وثورته ضد الخطر المحدق به . فيزيد ضغط الدم ويرتفع السكر فى الدم من المخزون فى الكبد .

أما المقاومة فتستمر إلى أن ينتهى الخطر أو ينهار الجسم . ويصحب المقاومة ارتفاع نسبة السكر فى الدم وعدم ذهاب الدم للأمعاء وذلك ليتمكن

الجسم من القيام بمجهود عضلى مفاجئ عند اللزوم ويكون الأجسام المضادة لأى سموم قد تهدد الجسم .

يؤدى هذا إن عاجلاً أو آجلا للإجهاد الذى يتسبب عند تهدم الأنسجة مشتقات الكورتيزون .

كان تأثير هورمونات الكظرية الشافى على روماتيزم المفاصل حافزاً لنشاط بحوث الكيمياتيين لتخليق مركبات متشابهة لهذه الهورمونات فى تأثيرها فأصبح الكورتيزون مفيداً فى أمراض متنوعة من الحمى القشية إلى عضة العنكبوت ولكن الكميات التى تستعمل أكثر كثيراً من النسبة التى يوجد بها الهورمون فى الدم أى أن الكورتيزون يستعمل كدواء وليس كهورمون طبيعى وإن تأثيره كهورمون يكون غير مرغوب فيه ولما نجح الكورتيزون فى علاج كثير من الأمراض انفتح مجال جديد للربح أمام شركات الأدوية فبدأت بحوث ضخمة لتخليق مركبات مشابهة للكورتيزون



تأثير زيادة
الكورتيزون

فى التركيب ولكن تختلف عنها فى بعض التفاصيل ممايجعلها تفيد فى حالات خاصة مع إحداث أقل ما يمكن من الأضرار التى اشتهر بإحداثها الكورتيزون مثل نحافة الساقين وضمور العضلات وترهل الجذع إلخ وهذه التأثيرات من مشتقات الكورتيزون حتى إن حالاتها تفوق كثيراً الحالات الناتجة من اضطراب الهورمونات الطبيعى .

والذى يهم الكيميائيين ليس هو انتاج هورمون طبيعى بكميات كبيرة ولكن استحداث أو تخليق مركبات جديدة لها خواص الهورمون فى علاج بعض الأمراض ولكن ليس لها تأثيره كهورمون و بدأوا بمادة متوفرة ورخيصة وهى صفراء المرارة ولما وجدوا أن هذه لا تسعفهم بما يكفى الإنتاج لتلبية الطلب المتزايد على هذه المركبات لجأوا إلى نبات « يام » من المكسيك الذى يستعملونه هناك مثل الصابون ومن أفريقيا نبات « رجل الفيل » كما أن هذه المركبات تسبب ضمور الغدة الكظرية بسبب إيقاف إفراز Acth وهذا يجعل الكظرية تتوقف لشهور قبل أن تنشط ثانياً وفى هذه الأثناء تكون أى صدمة مثل عملية جراحية قد تكون خطيرة .

هذا وتعتبر الكظرية معملا كيميائياً رائعاً يفرز من الهورمونات حوالى الثلاثين تؤثر على تمثيل السكر والملح والماء والبروتين والجنس والصدمات . وهذه الهورمونات تساعدنا فى الحياة وقد أمكن للكيميائيين تحضير مركبات مماثلة .

يتم ارتفاع ضغط الدم أثناء الصدمات عن طريق انقباض الأوعية الدموية للجسم أما الأوعية التاجية التى تغذى القلب فهذه تنفرج ليتقوى القلب فى انقباضه ، كذا تقل حركة الأمعاء وتتسع حدقة العين وتنفرج الشعب الهوائية وينساب الجلوكوز فى الدم من المخزون فى الكبد ، كل هذا يتم أول الصدمة بفضل هورمونى باطن الكظرية وهما الإدرينالين والنور أدنالين ويتم إفرازهما تحت تأثير الأزمات أيضاً .

أما إذا أصيب باطن الكظرية بأورام ، فتفرز هذه الهورمونات بكثرة مما يؤدى إلى ارتفاع شديد فى الضغط وكثرة إفراز العرق واتساع حدقة العين وسرعة النبض وارتعاش الأطراف .

٢ - هورمونات التمثيل الغذائى :

تفرز قشرة الكظرية تحت تأثير هورمون النخامية الأمامية المنشط للكظرية هورمونات تتحكم فى التمثيل الغذائى للمواد الغذائية (الكربوأيدراتية والبروتينية والدهنية) وأهم هذه الهورمونات الكورتيزون والهيدرو - كورتيزون فهى تقوم بتحويل الأحماض الأمينية إلى جلوكوز وفى نفس الوقت تقلل من احتراق الجلوكوز فى العضلات .

وجه كالقمر :

إذا زاد إفراز هذه الهورمونات نتج عن ذلك مرض كشنج وأعراضه هى : إعادة توزيع الدهن فى الجسم بحيث يتراكم بشكل ملحوظ فى الوجه فيصير فى استدارة القمر وكذلك في الجذع وخلف الرقبة مع زيادة نسبة السكر فى الدم ، وارتفاع فى ضغط الدم ، وتخلخل فى عظام العمود الفقرى ، ويحدث هذا المرض فى مقتبل العمر ، ونسبة الإصابة به فى الإناث ضعف نسبتها فى الذكور . ويؤدى تحول الأحماض الأمينية لجلوكوز إلى ارتخاء العضلات وهزالها ، فيبرز البطن وتهن الفقرات وينحنى العمود الفقرى ويظهر ألم شديد فى عظام الظهر والضلوع .

يحفظ الملح :

وتفرز قشرة الكظرية تحت تأثير هورمون النمو ، هورمونات تتحكم فى امتصاص الصوديوم والبوتاسيوم فى أنابيب الكلية ، إذ أنه يزيد امتصاص الصوديوم والكلوريد الذين ترتفع نسبتهما فى الدم ، ويقلل امتصاص البوتاسيوم الذى يفرز فى البول ، وأشهر هذه الهورمونات وأقواها مفعولا ولو أنه يفرز بكميات أقل من غيره هو هورمون **الألدستيرون** .

وهورمون الألدسترون يحفظ للجسم ملح الطعام لأن فقد هذا الملح من الجسم يسبب سرعة التعب وضعف العضلات وفقد الشهية وانخفاض ضغط الدم وتحدث هذه الأعراض لمن يعملون فى حرارة الصيف . ويمكن التغلب عليها بتناول ملح الطعام . هذا ، وأهمية ملح الطعام للجسم ترجع إلى الصوديوم وليس للكلوريد .

السكر البرونزى :

إذا أصيبت قشرة الغدة الكظرية بإصابة درنية نقص إفرازها من الهورمونات ونتج عن ذلك مرض أديسون . ويختار هذا المرض ضحاياه من الرجال والنساء على حد سواء وفى أى سن . وتظهر أعراض هذا المرض تدريجيا وببطء بإحساس بفقد القوة ونقص الوزن مع أعراض معوية وهبوط فى ضغط الدم ويضعف كفاءة الكليتين بسبب هبوط دورة الدم وارتفاع نسبة البوتاسيوم فى الدم ونقص نسبتى الصوديوم والكلوريد فيه . وتظهر بقع نحاسية على وجه المريض بالأديسون وهو يتبول كثيراً ، لذا سمى هذا المرض بالسكر البرونزى .

لون الحرباء :

أما تلون الجلد والغشاء المخاطي في مريض أديسون فسببه هو هورمون تفرزه الغدة النخامية الوسطى يسمى الهورمون المنشط ، للمادة الملونة. وهذا الهورمون يسبب كذلك تلوين الجلد فى الحيوانات الفقرية الدنيا بسبب تمدد الحبيبات الملونة فى الجلد .
أما فى الثدييات فهو ينبه تكوين مادة الملانين الملونة . وقد وجد أن تغيير الزواحف للون جلدها يرجع إلى تأثير هورمون فى الغدة النخامية وبهذا تتلون بلون المكان الذى توجد فيه فتدرأ الخطر المحدق بها .

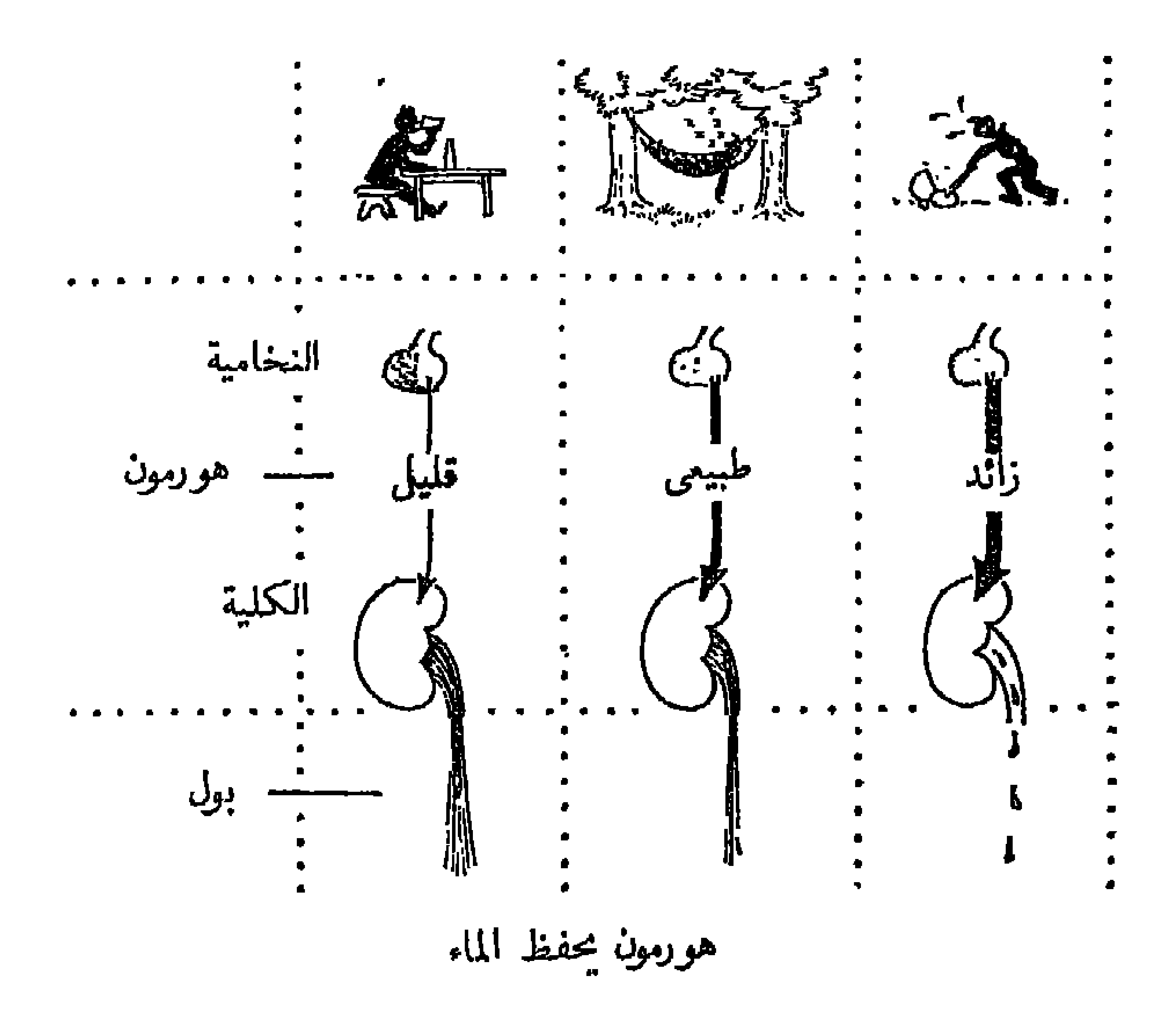
٣ — هرمونات تتحكم فى صفات الجنس الثانوية

تفرز هذه الهورمونات قشرة الكظرية تحت تأثير الهورمون المنشط لقشرة الكظرية وهى تتحكم فى صفات الجنس الثانوية بعضها يتحكم فى الذكر والبعض الآخر فى الأنثى .

يحفظ ماء الحياة :

يحتوى جسم الإنسان على ٦٠٪ من وزنه ماء ، أى على مايقرب من خمسة وثلاثين لتر ماء نصفها حول الخلايا والباقى داخل الخلايا وثلاثة ألتار فقط فى الدم . ويفقد الجسم من هذا الماء لترين ونصف لتر فى اليوم ، أكثر من نصفها عن طريق البول ، والباقى مع هواء الزفير والعرق . ولما كان الماء ضروريا للحياة أكثر من الغذاء ، فهناك هورمون يحفظ للجسم ماء الحياة فيه وذلك عن طريق التحكم فى إفراز الماء فى البول وهذا هو **الهرمون المضاد لإدرار البول** الذى تفرزه الغدة النخامية الخلفية .

وطبعاً كلنا يلاحظ البول غامق اللون قليل الحجم إذا لم نشرب لمدة طويلة وفاتح اللون كثير الحجم عند ما نشرب كثيراً .



هورمون يحفظ الماء

أما كيفية تحكم هذا الهورمون فى إدرار البول ، فيرجع إلى وجود مراكز حساسة لضغط الدم الأسموزى موجودة تحت السرير البصرى الملاصق للغدة النخامية الخلفية ، فإذا عطش الجسم زاد الضغط الأسموزى للدم ، فتحس بذلك الغدة التى تفرز الهورمون فتتنبه لإفرازه ، فيقل إدرار البول ، والعكس يحدث عند ما نشرب الماء بكثرة .

السكر الكاذب

أما إذا ضعفت الخلايا التى تفرز هذا الهورمون بسبب عدوى ميكروبية أو أورام مجاورة أو صدمة فى الرأس نتج مرض البول السكرى الكاذب فيحس المريض بعطش شديد قد يدفعه لشرب الماء بكثرة شديدة ، فقد يشرب خمسة عشر لتر ماء فى اليوم لأنه يكون كمن يحاول ملء حوض ماء بالوعته مفتوحة . ويمضى المريض يومه بين كوب الماء ودورة المياه . وإذا لم يجد المريض ماء دفعه العطش الشديد أن يطفىء ظمأه حتى بماء البرك ، وقد يصل إلى حد أن يشرب بوله إذا لم يجد ماء ينقع به غلته .

ويفرز المريض من عشرة إلى أربعين لتر بول يومياً ، وتكون كثافته خمس كثافة البول العادى .

فأر الصحراء :

تعيش حيوانات الصحراء على قطرات قليلة من المياه فبفضل هذا الهرمون نجد فأر الصحراء يفرز كمية بول قليلة جداً تحوى كمية كبيرة من هذا الهورمون ويمكنه بهذا تحمل الجفاف وقلة المياه .

هرمونات الجنس

أنثى أم ذكر :

يقرر جنس المولود وقت التحام الحيوان المنوى بالبويضة ، وذلك لأن جميع الصفات المورثة التى تسمى جينات مسجونة داخل ٢٣ زوجاً من الأمشاج (الكروموزومات) الموجودة فى نواة الخلية .

وهذه الأمشاج متناهية فى الصغر لدرجة أن عددها لم يعرف إلا سنة ١٩٥٦ .

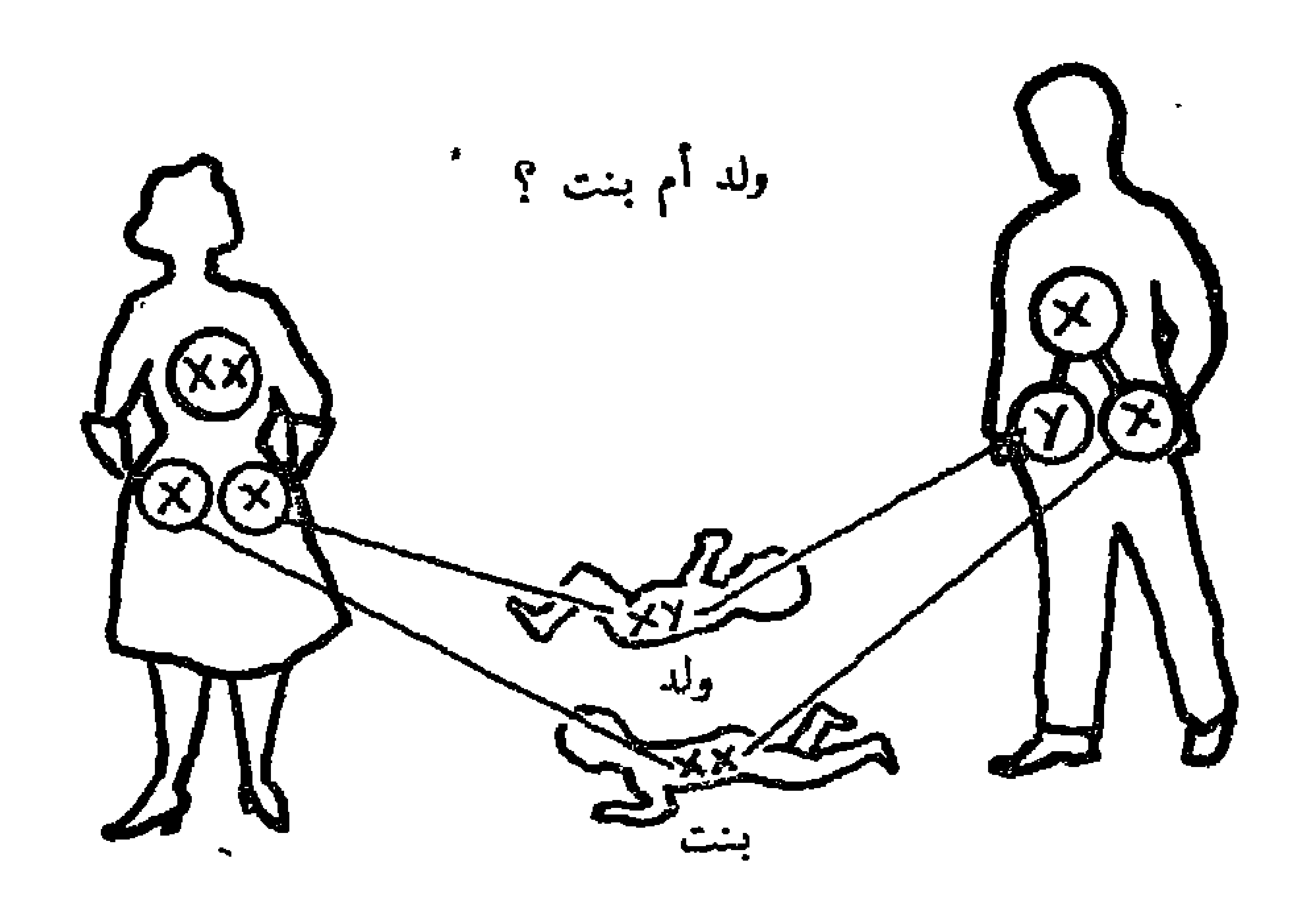
ومن هذه الأمشاج زوج واحد مختص بالجنس يتكون من اثنين متشابهين فى الأنثى هما (xx) ، أما فى الولد فهما مختلفان واحد (x) والآخر أصغر فيكونان معاً (x y) .

ولما كانت خلية الجنين عند بدأ تكوينه ، لا بد أن تحتوى على ٢٣ زوجاً من الأمشاج فقط فلا بد أن نصفهايأتى من الحيوان المنوى ونصفها الآخر من البويضة . وفى نفس الوقت نجد أن الحيوان المنوى أتى من انقسام خلوى من خلايا الخصية ، فهو إذن يحتوى على ٢٣ فرداً من الأمشاج لأنها نشأت من انقسام خلية من خلايا الخصية فهى تحتوى على ٢٣ فرداً من الأمشاج واحد منها (x) أو (y) .

وفى حالة البويضة (X) فقط .

لذا فإن التحام الحيوان المنوى بالبييضة ينتج خلية تحتوى على أحد احتمالين ، أما ٢٣ ز وجاً من الأمشاج فزوج منها (xx) أى أنثى أو واحد منها (x y) أى ذكر أى أن الصدفة وحدها هى التى تتحكم فى جنس الجنين .

هذا ولا يبدأ النشاط الجنسى فى المولود إلا قبيل مرحلة البلوغ فتصدر إشارة من تحت السرير البصرى تؤثر على النخامية الأمامية فتفرز الهورمون المنشط للجنس أما الذى يعطى هذه الإشارة فى الإنسان فلم يعرف للآن .



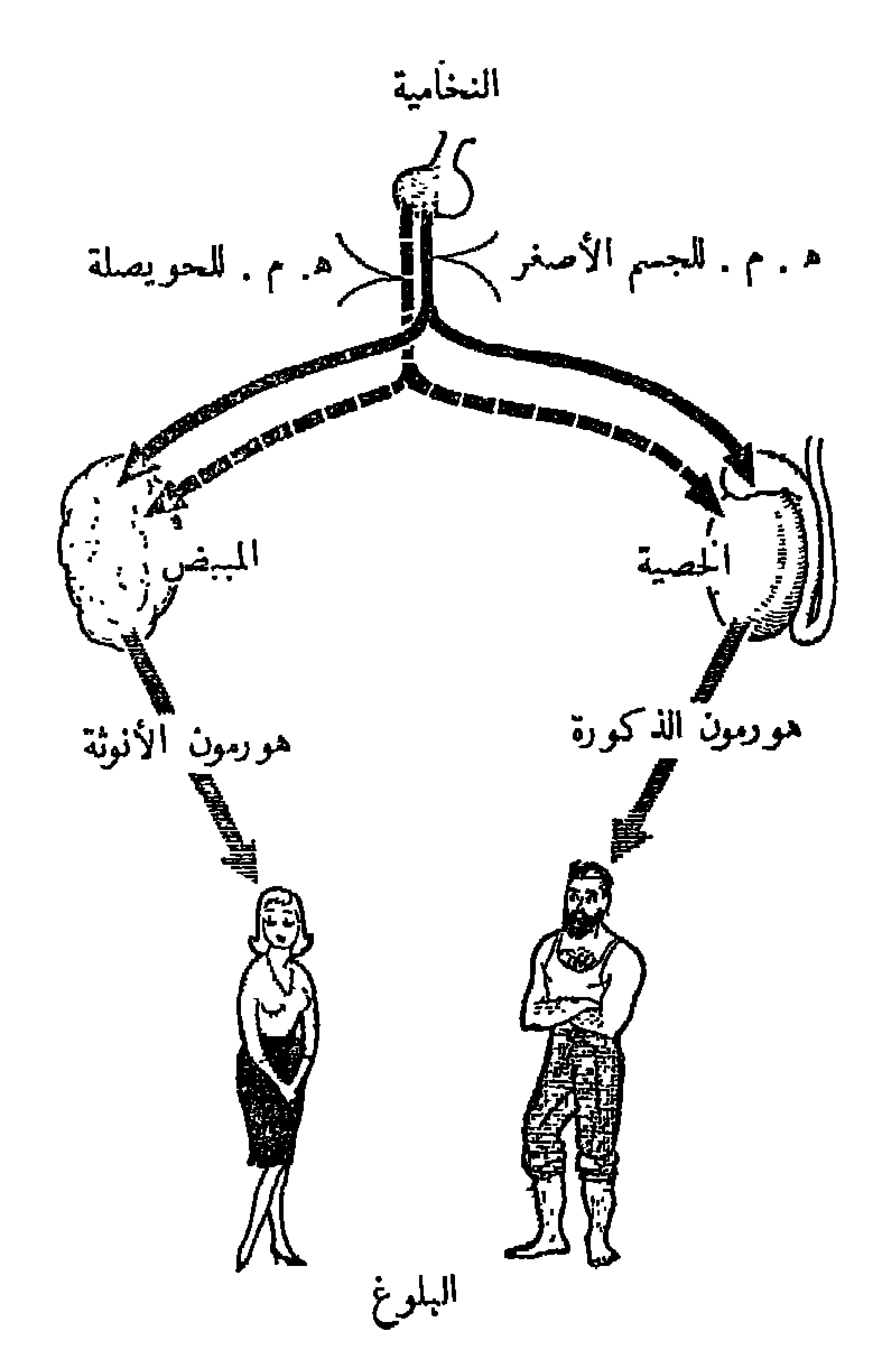
فمثلا الحشيش الأخضر الذى يوجد حول جدول المياه فى الربيع يؤثر على عين الضفدعة فيكون إيذاناً ببدأ مرحلة البلوغ ، ذلك لأنه إذا وضع زجاج لونه أحمر يحجز اللون الأخضر لامتنع موسم التزاوج بين الضفادع .

وتكون مرحلة البلوغ دقيقة ومثيرة للمشاكل لأن الرغبة الجنسية توجد قبل القدرة على الإنجاب وتسبق هذه بدورها نضج الشخصية الذى يلزم لتحمل مسئولية الإنجاب .

الأنثى : فى سن الثامنة تقوم مؤثرات عصبية من الجهاز العصبى بحث الغدة النخامية على إفراز الهورمونات المنشطة لغدد الجنس . وهذه

تؤثر بدورها على أعضاء الجنس التى تكون قد نمت إلى الحد الذى يكفل لها الاستجابة إلى هذا التأثير .

وهورمونات الغدة النخامية المنشطة لغدد الجنس ثلاثة أنواع تختلف فى وظائفها ، ولكن يلزم تعاونها مع بعضها لأداء هذه الوظائف كما أنها لا تختلف فى الأنثى عن الذكر .



فبينما يؤدى **الهورمون المنشط للحويصلة** إلى انقباض الحويصلة لتنطلق منها البويضة وتتحول هى إلى الجسم الأصفر يقوم **الهورمون** الثانى وهو **المنشط للجسم الأصفر** بالمحافظة على ذلك الجسم، ويختص الهورمون الثالث بتنشيط نمو ونضج **الغدد اللبنية فى الثدى** .

يحتوى المبيض على أربعمائة ألف بييضة لا تنمو وتنضج منها إلا واحدة كل شهر. تحوط البويضة نفسها بكرة تحفظها ، وتتحرك هذه الكرة إلى سطح المبيض ثم لا تلبث أن تنفجر مثل البالون ، وتخرج منها البويضة ، وتنزل إلى التجويف البطنى ثم إلى قناة فالوب ، وتدفعها فى سيرها زوائد مثل الأصابع . أما الغشاء فلا يلبث أن يصير كيساً ممتلئاً بسائل أصفر (الجسم الأصفر) ويصبح المبيض مقبرة للحويصلات الصفراوية . تفرز الحويصلة الأستروجين الذى يزيد تدريجياً ثم يفرز الجسم الأصفر البروجستيرون ويزيد هذا الإفراز و يصحبه قليل من الاستيروجين من خلايا باقية من الحويصلة .بعد التبويض بأسبوعين ، يتلاشى الجسم الأصفر ، ويتوقف الهورمونان .

تفرز الحويصلة **الاستيروجين** الذى ينطلق فى الدم إلى جميع أجزاء الجسم موجهاً الإحساس والتكوين نحو الأنوثة بجميع مظاهرها المعروفة . وهذه تشمل نعومة الجلد ورقة الصوت وبروز الصدر ونمو وتكون حلمات الثدى ونمو القنوات اللبنية والأنسجة الضامة والدهنية فى الثدى ، كذا زيادة نعومة الشعر ونموه فى بعض المواضع الحساسة فى الجسم ، وزيادة نمو النسيج الضام للأعضاء التناسلية الثانوية وبتنشيط الدورة الدموية فيها ، وتتم هذه التغيرات فى مدى عام تقريباً ، ويؤثر الأستيروجين على الجدار الداخلى للرحم الذى يصبح خصباً مستعداً لاستقبال البويضة الملقحة ، بعد أن يكون البروجسترين قد أعد بطانة الرحم لاستقبالها وتفرز

خلايا المشيمة هورمونها الذى يشبه هورمون النخامية المنشط للجسم الأصفر ، وبفضله تبقى الحويصلة فى المبيض ولا تتلاشى ، وبذا يمتنع الطمث أثناء الحمل .

هذا وبعد الشهر الرابع من الحمل يتلاشى الجسم الأصفر ، وتستمر المشيمة فى إفراز الأستيروجين والبرجستيرون الذى يحل نهائياً محل الجسم الأصفر ، وهذا الأخير يزول ويتلاشى .

ويحث هورمون النخامية المنشط للبن نمو الثدى بسرعة ، فتتفرع غدده ويتراكم فيها الدهن . وأثناء الحمل يكبر حجم الثدى فى النصف الأول ، وتنمو خلاياه فى النصف الثانى .

متى تنطلق البويضة

لاحظ طبيب فى مستشفى للأمراض العقلية وهو يقرأ درجة الحرارة للمرضى يومياً ، أنها ثابتة للرجال وتختلف فى النساء بحيث تكون ثابتة عند معدل فى الأسبوعين الأولين ، ثم ترتفع وتبقى مرتفعة إلى أن تحصل العادة الشهرية . وهذا الارتفاع لا يتعدى من نصف إلى درجة واحدة فرنهيت . وإذا حدث حمل بقيت الحرارة مرتفعة . من هذا أمكن معرفة وقت انطلاق البويضة .

ودرجة الحرارة هذه تؤخذ فى السرير بمجرد الصحو من النوم ، كما أن الترمومتر يجب أن يهز قبلها من الليل ، لأن هذا المجهود بسبب زيادة درجة الحرارة .

هذا ويبدأ ارتفاع درجة الحرارة فى اليوم التالى لانطلاق البويضة .

متى تلقحت البويضة ؟

ولمعرفة حدوث الحمل ، هناك عدة طرق تعتمد على أن الحامل تفرز في بولها هورمون المشيمة المنشط للجنس ، وهو يؤثر على الغدد الجنسية في بعض الحيوانات تأثيراً أمكن به تشخيص الحمل في أسابيعه الأولى . وطريقة ذلك هي حقن البول في وريد الأذن لأرنبة بالغة قد فصلت عن الذكر . ثم يفحص مبيضها بعد يومين ، فإذا ظهرت فيه نقط حمراء تمثل الجسم الأصفر ، دل ذلك على وجود الحمل أما إذا حقن البول تحت الجلد في فئران لم تبلغ بعد فتظهر بعد يومين نقطاً حمراء في المبيض وإذا حقن في الغدة اللمفاوية في ضفدع ذكر ، فإنه يفرز حيوانات منوية بعد ثلاث ساعات من الحقن .

مظاهرة احتجاج

أما إذا لم يتم تلقيح البويضة ، فيتلاشى الجسم الأصفر ، ويختفي هورمون البروجستيرون فجأة . وبما أن الشعيرات الدموية تحت غشاء الرحم حساسة لنسبة الأستيروجين ، فإن نقصه يجعلها تنفجر وتحدث تقلصاً في غشاء الرحم الذي ينسلخ على هيئة طبقات ويطرد البويضة للخارج مع نزول حوالي مائة سنتيمتر مكعب من الدم عند طرد الغشاء المخاطي للرحم. وتتكرر هذه الدورة كل ثمانية وعشرين يوماً تقريباً. هذا ويحتوي دم الطمث على خميرة تمنع تجلطه .

والعادة الشهرية مظهر لاحتجاج الرحم الذي أعد نفسه للحمل فذهب مجهوده سدى .

هذا ، ودورات الحيض الأولى في أول البلوغ وكذا الأخيرة قبل سن اليأس تكون غير مصحوبة بتكون بويضة في المبيض .

وعند توقف النشاط الجنسى فى سن اليأس (الحلقة الخامسة من العمر) يضمر المبيض ، ويستمر ضمور الأجهزة الجنسية الداخلية ، ويقل الاستيروجين وتتوقف العادة الشهرية . ثم يزيد نشاط هورمون النخامية المنشط للجنس . يؤدى ذلك إلى اضطرابات قلما تنجو منها سيدة ، وهى سرعة النبض والأرق والميل للقىء وسخونة الوجه وزيادة إفراز العرق واحمرار الجلد .

تحتاج المرحلة الثانية من الولادة ليتم خروج الجنين وطرد المشيمة إلى انقباض الرحم بشدة فتقوم النخامية الخلفية بإفرازها **هورمون قابض للرحم** .

كذلك يؤدى هذا الهورمون إلى انقباض القنوات اللبنية يساعده كذلك تنبيه الرضيع للحلمات فيندفع اللبن إلى فم الرضيع .

لبن الأم :

وإذا تتبعنا قصة تكون اللبن فى ثدى الأم ، نجد أنه قبيل البلوغ يتكون قرص صغير من الأنسجة تحت الحلمة ، ثم يكبر حتى يتصل بالطبقة الدهنية التى تقع تحته ثم لا تلبث أن تكبر تحت تأثير هورمونات الجنس مجتمعة ، كل له دور خاص به .

وقد يختلف حجم الثدى من سيدة لأخرى ، كما قد يختلف الثدى الأيمن عن الأيسر ، ويرجع هذا إلى اختلاف فى عدد الخلايا الخاصة به .

فمثلا يحتاج نمو الأنسجة إلى الأستيروجين الذى يزيد تراكم الدهن ، ويزيد الأنابيب فى حجمها وعدد فروعها والبروجستيرون الذى ينمى البراعم التى تنتهى بها الأنابيب . أما تكوين اللبن فيحتاج إلى هورمونات النمو والأنسولين والغدة الدرقية . أما إدرار اللبن فيتم بفضل هورمون النخامية

المدر للبن ، ويزيد إفرازه قبل الولادة ، وبعد الولادة يخلو له الميدان بسبب اختفاء الأستير وجين الفجائى .

وسبب عدم نزول الحيض عند بعض الأمهات أثناء فترة الرضاعة هو أن النخامية قد لا تفرز هورموناتها الجنسية المنشطة ، وتقتصر على إفراز الهورمون المدر للبن .

يحمل الدم الغذاء لخلايا الثدى التى تستخلص منه البروتين والدهون اللازمة لتكوين اللبن ، كما يحول الجلوكوز تحول الدم إلى سكر لبن ، ويسلب الثدى يومياً حوالى الثلث من غذاء الأم ، فإذا نقص غذاء الأم لجأ إلى المخزون فى جسمها ثم يبدأ بفرز لبن ضعيف فى قيمته الغذائية .

والرضاعة هى التى تزيد إفراز اللبن ، كما أن اضطراب الأعصاب يوقف إدرار اللبن من ثدى الأم .

الذكر :

يوجد فى الجنين خلايا تقع بجوار الكلية تتطور بعد ذلك وتتكون منها إما الخصية فى الذكر أو المبيض فى الأنثى ، ويتم تحورها إلى خصية فى مدة أسبوعين وتتكون بداخلها أنابيب ، ثم تبدأ رحلتها إلى أسفل البطن ، وقبيل الولادة بقليل تنزل إلى كيس الصفن وهى تظل بدون وظيفة أثناء الطفولة ، ويتم هذا النزول بواسطة هورمون النخامية للجنس ، ولو تعذر هذا النزول بسبب ضيق خلقى فى مجرى هبوطها فإنها تضمر ، وخاصة تلك الخلايا التى تفرز الحيوانات المنوية .

ويزيد حجم الخصية خمسة أو سبعة أضعاف حجمها فى الطفولة ، وعند البلوغ تفرز هى الذكورة (**التستيرون**) تحت تأثير هورمون النخامية المنشط للجسم الأصفر ويزيد الإفراز بالتدرج مؤدياً إلى ظهور علامات

الرجولة من زيادة حجم الأعضاء التناسلية ، وزيادة جلد كيس الصفن ، ونمو الحنجرة وخشونة الصوت وغزارة شعر الإبط والعانة وضعف نمو شعر الرأس ، وتضخم سريع فى العضلات بسبب زيادة تكون البروتين فى الجسم ، ويزيد عرض المنكبين ويضيق الحوض ويزيد نمو عظام الأطراف وعضلاتها . نمو الخصية يتم بتأثير النخامية وهو يزيد قوة انقباض عضلات المثانة ويوسع الأوعية الدموية ويزيد نمو النسيج الكلوى ويزيد عدد كرات الدم كذلك .

هذا ونمو الشعر يحتاج إلى جانب توفر التستيرون ، إلى استعداد الجلد لنمو الشعر فيه . فالهنود الحمر لا تنمو لهم لحية لأنه لا يوجد فى وجوههم بصيلات شعر .

العقم والرجولة

أما خلايا الخصية التى تفرز الحيوانات المنوية ، فهى تنمو وتفرز تحت تأثير هورمون النخامية المنشط للحوصلة . لذا نجد أن الحيوان المنوى له خلايا وهورمونات خاصة به فى الخصية ، بينما الذكورة لها هرمونات أخرى مسئولة عنها ، ولذا قد يكون الرجل كامل الرجولة وعقيما .
ناحية أخرى لها أهميتها هى تأثير التستيرون على الشخصية ، وهذا واضح فى تجارب الحيوانات ، فنحن إذا أعطينا كلبة صغيرة تستيرون فإنها ترفع رجلها عند ما تتبول مثل الكلب . وإذا أعطيناه للفرخة ، فإنها تسيطر على الفراخ الأخرى . وإذا أعطى لرجل يشكو نقصاً فى هذا الهورمون فإنها سرعان ما تتغلب على عواقب هذا النقص الجسمية والنفسية .

وكما أن التستيرون مسئول عن مظاهر الذكورة فى الإنسان فهو كذلك فى الطيور والحيوانات .

فلو أزيلت خصية الديك ضمر عرفه . وإذا حقن بالتستيرون نما العرف. وبسبب التستيرون تكون منقار العصفور الذكر والعلامة السوداء أسفل ذقن الضفدعة .

وقد أحدثت إزالة الخصية فى الغزال تأخر نمو القرون . وفى البابون تلاشى الشعر الرمادى الجميل الذى يشبه التاج ويميز الذكر عن الأنثى .

وإذا حقنت الفئران المخصبة بالتستيرون نمت خصيتها . وإذا أزيلت الخصية من ذكر الماعز ذو الرائحة النفاذة ، ضعفت الغدد التى تفرز هذه الرائحة وهى التى تميز الذكر عن الأنثى ، كما أن إزالة الخصية فى الغزال تؤخر نمو القرون .

ويعتمد الريش الملون للدواجن على المبيض ، كما يعتمد عرف الديك على التستيرون . والتستيرون له تأثيرات قوية على كثير من النواحى الجنسية وغيرها ، من زيادة حجم الأعضاء التناسلية ونمو الحنجرة وخشونة الصوت وغزارة شعر الإبط والعانة وضعف نمو شعر الرأس وتضخم سريع فى العضلات بسبب زيادة تكون البروتين فى الجسم وزيادة تراكم أملاح الجير فى العظام .

اضطراب هورمونات الجنس

النخامية :

إذا **انعدم** إفراز النخامية **المنشط للجنس** فى **الأطفال** ذكوراً أم إناثاً ، امتنع نمو أعضائهم التناسلية ، ويبقى نمو الجسم طبيعياً. وإذا أضيف إلى ذلك ضعف **هورمون النمو** نتج قزم ضامر الأعضاء التناسلية .

ولو قل إفراز النخامية المنشط للجنس فى **البالغين** فقدوا ميلهم الجنسى ، وأصيبوا بالعقم. فى **الذكور** يسقط شعر الإبط والعانة والوجه ، وتصبح الحيوانات المنوية ناقصة التكوين. وفى **الإناث** تتأخر وتضطرب العادة الشهرية . أما إذا **ضمرت الغدة كلها** كما يحدث بسبب النزيف بعد الولادات العسرة ، فإن جميع هورموناتها المنشطة تضعف ، وتضمحل تبعاً لذلك جميع الغدد التى تحتاج لتنشيطها مثل الدرقية والجنسية الكظرية ، وينتج عن ذلك مرض (شيهان) ، فتضمر الأعضاء والغدد الجنسية والثدى ويتساقط الشعر وتنقطع العادة الشهرية .

المبيض :

عند ما **يضعف** إفراز المبيض فى الطفلة ينتج مرض (تيرنر) وفيه يتأخر نمو البنت وتضمر أعضاؤها التناسلية ولا ينمو الثدى ، ولكن قد يظهر شعر العانة ، ذلك لأنه يعتمد على هورمون الذكورة الذى يوجد فى قشرة الكظرية وفى المبيض أيضاً بكميات قليلة .

الخصية

يؤدى ضمور الخصية فى الولد إلى توقف نمو أعضائه التناسلية ، فمثلا تشكو بعض السيدات من زيادة نمو الشعر على أجسامهن ، وهذه المشكلة الهامة قد يرجع سببها إلى اضطراب هورمونى كما أسلفنا ، وقد يكون سببها استعداداً موروثاً يجعل بصيلات الشعر شديدة الحساسية للهورمونات التى تسيطر على نمو الشعر .

هذا ، وتسعون فى المائة من حالات البلوغ المتأخر أو المبكر الأولاد أو البنات ، لا يكون سببها اضطراب هورمونى ، ويزول دون تدخل علاجى . كثيراً ما نلاحظ فتيات يفضلن ألعاب الأولاد الخشنة ، وأولاد لهم مظهر خارجى فيه طراوة ونعومة ، ولكن هذه أعراض مؤقتة سرعان ما تزول بازدياد نشاط الغدد الجنسية بعد البلوغ . ويرجع سببها إلى تفاوت الاستعداد الوراثى من الناحية الجسمية والنفسية .

إذا أصيب الكبد بتليف — كما يحدث من الإصابة بالبلهارسيا فى ريفنا — يعجز عن تخليص الجسم من هورمون الأستيروجين الذى تفرزه قشرة الكظرية فى الرجال ، فترتفع نسبته فى الدم مسببة أعراضاً أنثوية عند الرجال ، مثل فقد الميل الجنسى وتضخم الثديين ونعومة الصوت وسقوط شعر الوجه .

كذلك تليف الكبد الذى ينشأ عن سوء التغذية عند رجال البانتو فى جنوب إفريقية ، والذى ينشأ من نقص فيتامين ب المركب والبروتينات من غذائهم يؤدى إلى عجز الكبد عن التخلص من الأستيروجين أولا بأول ، فيتراكم هذا وكثيراً ما يسبب لهم سرطان الثدى .

وبهذه المناسبة يمكن تفسير حدوث هذا السرطان بأن خلايا الثدى تستجيب للأستروجين ويصحب ذلك تضخم الثديين ، أما شكل الجسم فقد

يظل كما هو أو يصير مفرط السمنة ، أو يزيد طول الذراعين والساقين (**يونوخيد**) أما زيادة إفراز الخصية فى الولد فيسبب ظهور علامات البلوغ المبكر ، ولكن الخصيتين لا تنموان .

قشرة الكظرية :

زيادة هورمونات الجنس التى تفرزها قشرة الكظرية فى جسم **الجنين الأنثى** تنتج أعضاء ذكورة ثانوية خارجية ، أما فى **الأطفال الإناث** فيؤدى ذلك إلى بلوغ مبكر حتى إنها قد تحيض وهى فى السنين الأولى من العمر . وفى الأطفال **الذكور** يحدث بلوغ مبكر أيضاً فتنمو أعضاء التذكير ما عداه الخصيتين ، وتتضخم العضلات ، ويسمى الطفل هرقلا صغيراً .

أما فى **الرجال** تضعف صفات الذكورة ، فيضعف الميل الجنسى وتضمر الأعضاء التناسلية ويتضخم الثديان .

وفى **الإناث** بعد البلوغ يسبب فقد الأنوثة وخشونة الصوت ، وضمور الثدى وينمو الشعر على الوجه وتتضخم العضلات وتبرز تفاحة آدم .

تسبب هورمونات الجنس نمواً سريعاً فى العظام يعقبه التحامها ، لذا فإن البلوغ المبكر ينتج عنه قصر الأرجل ، بينما البلوغ المتأخر ينتج عنه أيدى وأرجل طويلة .

البدانة

الغرض من تناول الطعام توفير الطاقة للجسم ليقوم بالعمليات الأساسية للحياة . كما يعوض أنسجة الكبار وينمى أنسجة الصغار .

والآن ماذا يحدث إذا زاد الطعام عن الاحتياجات السابقة ؟ حينئذ يختزن الزائد على هيئة دهن يتراكم فى أنسجة الجسم المختلفة وبخاصة تحت الجلد فيزيد وزن الجسم .

والبدينون يعانون من ضغط الدم أكثر من النحاف ثلاث مرات ، ويعانون من صعوبة التنفس عند التعب وعدم تحمل الحر وكثرة العرق وتصلب الشرايين والاضطرابات الهضمية والصداع والدوخة والأرق والالتهابات الجلدية وكذا العقم عند النساء البدينات.

وقد وجد العلامة « جوسلين » أن كل عشرين مصاباً بالسكر تجاوزوا سن الأربعين فيهم ثمانية عشرة سمان وواحد نحيف وواحد وزنه عادى، كما أن الحالة النفسية والنشاط الذهنى أحسن عند المتحرر من البدانة .

وقد تبين من فحص أعمار الذين يؤمنون على حياتهم ، ومقارنة ذلك بأوزانهم ، أن زيادة الوزن تسبب زيادة فى الوفيات بنسبة من ٢٥٪ إلى ٧٥٪ وأن زيادة الوزن بعد سن ٤٥ مصحوبة دائماً بنسبة وفيات أكثر .

وعلى هذا يستحسن ألا يزيد وزن الجسم بعد سن الثلاثين عن معدله الطبيعى . .

نسبة الوفيات فى كل مائة ألف

الوزن	أقل من ٤٥ سنة	أكبر من ٤٥ سنة
وزن عادى	٤٦٣	١٣٠٨
نحيف	٤٩٤	١٢٧٤
شديد النحافة	٥٤٠	١٤٨٠
بدين	٥٢٧	١٨٢٤
شديد البدانة	٦١٤	٢٠٥٠

وقد أحصى أن كيلوجراماً واحداً زيادة فى الوزن العادى للإنسان بين سن ٤٠ ، ٤٥ يقابله زيادة فى نسبة الوفيات بمقدار ٣٪ .

وأسباب البدانة متعددة . كما أن تعليل سبب البدانة ليس سهلا ميسوراً فى كل الأحوال ، إذ وجد أن البدينين يحتاجون لكمية من الطاقة مثل العاديين ويفقدون طاقة أكثر إذا عملوا .

ويمكن إرجاع البدانة عموماً إلى أحد الأسباب الآتية :

١ ــ الإسراف فى الطعام :

لم يكن الإنسان الفطرى يملك ما يسد رمقه فالذى يدفعه إلى جلب الطعام هو غريزة الجوع التى كانت غريزة فطرية للبقاء أما الآن فليس هناك ما ينبه الإنسان إلى أنه تجاوز الحد فى الأكل إذا كان الطعام لذيذاً .

فنحن نتناول طعامنا تحت تأثير أحد عاملين : الجوع أو الشهية

يرجع الإحساس بالجوع إلى انقباضات المعدة الخاوية من الطعام أو إلى حاجة الجسم للغذاء ويحصل هذا الإحساس حتى لو كانت المعدة ممتلئة بأطعمة غير مغذية .

وقد خلط أدولف « وكنيدى » سنة ١٩٥٠ طعام الفأر بضعف وزنه بودرة تلك فوجد أن وزن ما يأكله الفأر قد زاد بمقدار ثلاثة أمثال وزنه أولا وانتفخت معدته بأضعاف امتلائها العادى قبل أن يكف عن الأكل .

من هذا نستنتج أن هناك تنظيم داخلى يمكن الجسم من معرفة ما يكفيه من السعرات الحرارية بصرف النظر عن امتلاء المعدة .

وقد وضع « بردنيك » و « كورست » سنة ١٩٥٣ نظرية أن الإنسان يأكل ليحتفظ بحرارته ويمتنع عن الطعام إذ زادت هذه الحرارة ، وهناك من يفسرها بالتأثر بمخزون الدهون فى الجسم أى معنى ذلك أن الشخص البدين لا يأكل كثيراً والواقع ليس كذلك فى أغلب الأحوال .

أما ماير سنة ١٩٥٢ فقد فسر سبب الشهية للطعام بحاجة خلايا الجسم للسكر لاستعمالها . ولكن مريض السكر تزداد شهيته للطعام مع العلم بأن نسبة السكر فى دمه تكون مرتفعة . اللهم إلا إذا كان المقصود هو السكر الذى يدخل الخلية للاحتراق .

أما زيادة الشهية للطعام فلها أسباب عديدة منها التعود مثال ذلك الطفل الذى ينشأ فى عائلة اعتادت الإسراف فى الطعام وهناك مركز للإحساس بالجوع يقع بجوار الغدة النخامية وعرفه العلماء فى حيوانات التجارب وسمى باسم مكتشفه بريسود .

وقد حكى أن رجلا فرنسيا كان يأكل فى مطعم يسمح لزبائنه بالخبز مجاناً ولكن لما أصيب بورم أتلف عنده خلايا مركز التحكم فى الشهية زادت رغبته فى الطعام لدرجة أن صاحب المطعم كان يعطيه مالا ليأكل

فى مكان آخر . كما أن طفلا أصيب بنفس المرض – مرض بريسود – فكان يأكل كميات هائلة من الطعام ثم يقع فى سبات عميق ويصل يومه بين الأكل والنوم حتى صار مثل كرة من الشحم .

وقد أمكن العلماء إزالة خلايا مركز التحكم فى الشهية للطعام فى الفئران فكان الفأر بعد ساعات قليلة من العملية يأكل حتى تمتلىء أمعاؤه ولكنه بعد مدة يأكل فقط ليحافظ على وزنه .

أى أن الشخص السمين مرت عليه فترة زيادة فى الشهية للطعام وزيادة فى الوزن ثم تعقبها فترة المحافظة على الوزن ويكون العلاج فى فترة زيادة الشهية للطعام ممكناً أما بعد ذلك فمن الصعب إذابة الدهن المتراكم فى الجسم .

ولعل ما درج عليه الناس من أن السمنة والامتلاء دليل على سمو المنزلة الاجتماعية والنجاح فى الحياة آخذ فى الزوال بتحسن أحوال المعيشة وحصول كل فرد على ما يسد رمقه .

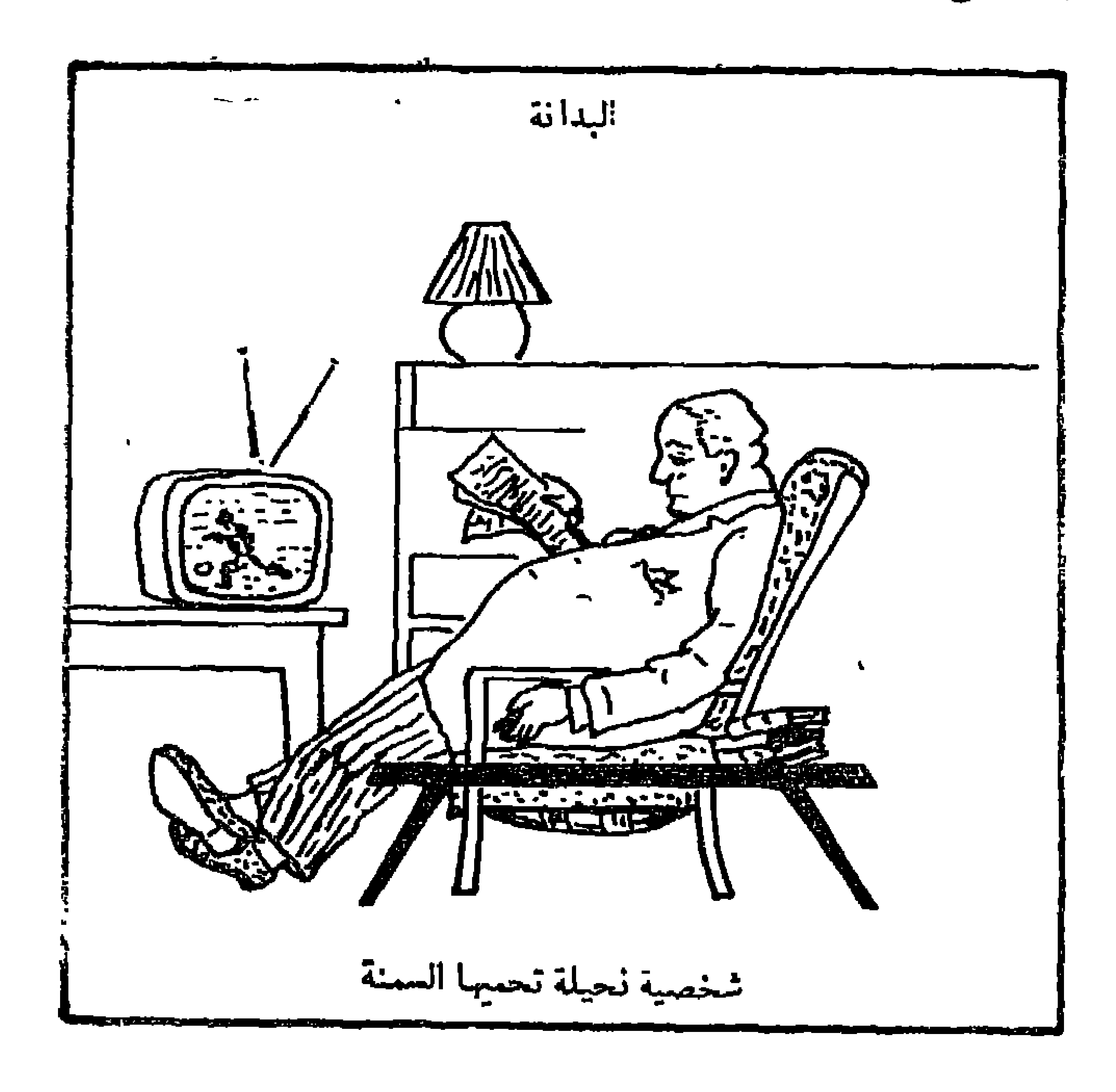
ومن ناحية أخرى قد يسبب اضطراب الحياة المدرسية أو العائلية للطفل أو تأخره عن أقرانه فى المدرسة ، شعوراً بالنقص يعوضه الطفل بالتهام الطعام لأن الشعور بالامتلاء يضفى على الإنسان الهدوء والأمان ويعوضه عن الفشل . وتحدث نفس العقدة فى الكبار أيضاً . ففى الرجال ، تحدث بسبب الفشل فى تبوؤ المركز الاجتماعى ، وفى النساء بسبب الفشل فى الحب .

وبوجه عام تتحكم الشهية وليس الجوع فى حياتنا فى الإقبال على الطعام . إذ أن التفنن فى تقديم الأطباق الشهية ، يدفع الإنسان إلى أن يأكل ما لا يحتاج إليه ليتلذذ بالتهامه فيسمن .

وعند ما يقول السمين إنه لا يأكل كثيراً ، فهو صادق لأن حجم

ما يأكله ليس كبيراً ، ولكنه يتخير الأغذية الغنية بالسعرات الحرارية من حلويات وفطائر ونشويات وشطائر وكريمات ومكسرات . فمثلا مائة جرام خس تعطى عشرين وحدة حرارية ، بينما نفس الوزن من زيت الطعام يمدنا بألف وحدة حرارية . كما أن عشرة جرامات زيت زيادة عن كفاية الجسم من الطعام تعطى عشرة أرطال زيادة فى الوزن فى السنة .

ويمكن القول بطريقة أخرى إن البعض عنده قدرة على أن يقلل طعامه إذا قل نشاطه ، فيبقى وزنه عاديا ، والبعض الآخر يستمر فى تناول نفس الكميات من الأطعمة وهو مخلد للراحة ، وفى نفس الوقت


البدانة

شخصية نحيلة تحميها السمنة

يكون الشبع عنده يعتمد على حجم الطعام وليس على ما يعطيه من سعرات حرارية . وينتج عن ذلك تحول هذه الطاقة الزائدة إلى دهون تتراكم فى الجسم وتسبب السمنة .

لذلك يجب مراعاة الوزن حسب السن والطول كما هو مبين بالجدول . وفيما يلى يبين جدول الوزن الطبيعى ومدى علاقته بالطول والسن فى الذكر والأنثى :

أما الاعتماد على الرياضة البدنية فهى طريقة غير ناجحة إذ أن فائدتها طفيفة فى تقليل الوزن ، فمثلا صعود السلم خمس طوابق يخلص الجسم من الطاقة التى يحصل عليها من تناول فنجان مملوء بالسكر الناعم . وأن السير خمسة كيلومترات يخلص الجسم من أوقية فحسب من الدهن المتراكم فى الجسم . وأن مشى دقيقة يخلص الجسم من تراكم دهون تعطى ٩ كالورى ولو استمرت فى التراكم عشرين سنة لزادت الوزن ١٥ رطلا .

لذلك فإن الاتجاه الحديث هو تفضيل الحمية والاعتماد عليها للتخلص من الدهن الزائد . وطريق ذلك هو أن تكون الطاقة التى يحصل عليها الجسم من الغذاء ، أقل من احتياجاته . فيضطر الجسم أن يحرق بعض الدهن المختزن به ، فيقل وزنه .

والواقع أن الرغبة الملحة عند البدين فى التخلص من الدهن الذى يتراكم عدة سنوات فى مدى أسابيع ، غير عملى . ذلك أن الجسم يحتاج لوقت كاف لكى يتعود نظام الطعام الجديد . ويستحسن الاقتصار على فقد اثنين أو ثلاثة كيلوجرامات كل شهر .

أما الغذاء فيكون خالياً من الدهون ، ويحوى مائة جرام نشويات يومياً ، إذ أن هذه الكمية هى التى تكفى لحرق الدهن المخزون فى الجسم وبذا لا ترتفع نسبة الحموضة فى الدم .

الطول	١٥ سنة		٢٠ سنة		٢٥ سنة		٣٠ سنة	
سم	بنت	ولد	أنثى	رجل	أنثى	رجل	أنثى	رجل
١٤٢,٥	٤٥,٣		٤٧,٦		٤٩	—	٥٠,٣	—
١٤٥	٤٥,٨	—	٤٨,٥	—	٤٩,٨	—	٥١,٢	—
١٤٧,٥	٤٦,٢	—	٤٩,٤	—	٥٠,٧	—	٥٢,١	—
١٥٠	٤٧,١	٤٦,٢	٥٠,٣	٥٠,٧	٥١,٦	٥٣	٥٣	٥٤,٨
١٥٢,٥	٤٨,٥	٤٧,١	٥١,٦	٥١,٦	٥٢,٦	٥٣,٩	٥٣,٩	٥٥,٧
١٥٥	٤٩,٨	٤٨,٥	٥٣	٥٣	٥٣,٩	٥٤,٨	٥٥,٣	٥٦,٦
١٥٧,٥	٥١,٢	٤٩,٨	٥٤,٤	٥٤,٤	٥٥,٧	٥٦,٢	٥٦,٦	٥٨
١٦٠	٥٢,٥	٥١,٢	٥٥,٩	٥٥,٧	٥٧,١	٥٨	٥٨,٤	٥٩,٣
١٦٢,٥	٥٤,٤	٥٣	٥٧,١	٥٧,٥	٥٨,٤	٥٩,٨	٥٩,٨	٦١,٢
١٦٥	٥٦,٢	٥٤,٨	٥٨,٩	٥٩,٣	٦٠,٢	٦١,٦	٦١,٦	٦٣
١٦٧,٥	٥٨	٥٦,٦	٦٠,٧	٦١,٢	٦٢,١	٦٣,٤	٦٣,٤	٦٤,٨
١٧٠	٥٩,٨	٥٨,٤	٦٢,٢	٦٣	٦٣,٩	٦٥,٢	٦٥,٢	٦٦,٦
١٧٢,٥	٦١,٦	٦٠,٢	٦٣,٩	٦٤,٨	٦٥,٧	٦٧	٦٧	٦٨,٤
١٧٥	٦٣,٤	٦٢,١	٦٥,٧	٦٦,٦	٦٧,٥	٦٨,٩	٦٨,٤	٧٠,٧
١٧٧,٥	٦٥,٧	٦٤,٣	٦٧,٥	٦٨,٤	٦٨,٩	٧١,١	٧٠,٢	٧٢,٩
١٨٠	٦٨	٦٦,٦	٦٩,٨	٧٠,٦	٧٠,٧	٧٣,٤	٧٢	٧٥,٧
١٨٢,٥	—	٦٨,٩	—	٧٢,٩	—	٧٦,١	—	٧٨,٤
١٨٥	—	٧١,١	—	٧٥,٢	—	٧٨,٨	—	٨١,١
١٨٧,٥	—	٧٣,٤	—	٧٧,٥	—	٨١,١	—	٨٣,٨

أما الزلاليات ، فيتناول كل فرد حوالى جرام منها لكل كيلوجرام من وزنه .

وإذا طبقنا هذا النظام على حياتنا اليومية ، يمكن القول بأن الشخص إذا حرص على أن يقتصر يومياً على تناول رغيف خبز وبيضة وكوب لبن وقطعة من اللحم الأحمر ، إلى جانب بعض الخضراوات فإنه يحافظ على صحته ويقلل وزنه بمقدار مناسب فتكون الغدد اللعابية هى المسئولة عن السمنة .

وهذا النظام لا ينجح فى معظم الأحوال للسبب الآتى : يأكل البدين أكثر مما يلزمه ولكن ليس معنى ذلك أن كل بدين يأكل كثيراً فربما كان الشخص النحيف يأكل مثل — أو ربما أكثر من — صديقه البدين وعندما يحاول البدين أن يقلل وزنه بتقليل طعامه أو يحاول النحيف زيادة وزنه بأن يأكل أكثر يبوءان بالفشل .

يرجع السبب هنا إلى مدى نشاط كل منهما فنلاحظ أن البدين تتميز حركته — بسبب ميله الفطرى أولا وبسبب ثقل وزنه ثانياً — بالبطء فهو يعد الخطوات كما يقولون ويؤدى الأعمال بأقل ما يمكنه من مجهود أو حركة .

يأكل الرياضى كمية ضخمة من الطعام لتمده بالطاقة التى تلزم لتمكينه من مزاولة رياضته . فإذا اعتزل الرياضة فهو سيستمر لمدة ليتناول الطعام الذى تعوده فيسمن

وإذا قلل البدين طعامه بقصد تقليل وزنه فالذى سيحدث — دون أن يشعر — هو أن يقل التمثيل القاعدى عنده أى أن الطاقة التى تلزم ليحتفظ بجسمه بمظاهر الحياة الضرورية فى هذه الحالة يعمل القلب والتنفس والهضم بينما العضلات تكون فى راحة واسترخاء تامين إلى أقل

مما كان عنده قبل ذلك فيذهب تقليله فى الطعام سدى لهذا السبب .

أما النحيف فعند ما يزيد من التهامه للطعام ليسمن يزيد تمثيله القاعدى كذلك دون أن يشعر ويظل على نحافته .

٢ – اضطراب التمثيل الغذائى :

وهذه حالة استعداد وراثى يقل فيه احتراق الدهون فى الجسم أو يزيد تخزينها فى الأنسجة .

٣ – اضطراب هورمونى :

زيادة أو نقص بعض الهورمونات يسبب سمنة تختلف من حالة إلى أخرى . فزيادة هورمونات قشرة الكظرية المختصة بالتمثيل الغذائى تسبب مرض كشنج .

ويعتبر دور المريض فى علاج البدانة دوراً إيجابياً ، فهو لا يتلقى تعليمات الطبيب فقط ، بل يلزم أن يكون ملما بأصول التغذية وأن يكون قوى الإرادة فلا يهتم بالشعور بالجوع ، ويدرك أنه شعور طبيعى بل صحى أيضاً .

وقد وجد أن التمرينات الرياضية لا يمكن لكل شخص أن يتحملها إذ أن فائدتها طفيفة فى تقليل الوزن ، فمثلا صعود السلم خمس طوابق يخلص الجسم من الطاقة التى يحصل عليها من تناول فنجان مملوء بالسكر الناعم ، وأن السير خمسة كيلومترات يخلص الجسم من أوقية فحسب من الدهن المتراكم فى الجسم .

الهورمونات والشخصية

تؤثر عوامل عديدة فى تكوين الشخصية، بعضها وراثى وبعضها مكتسب . فالمصاب بتأخر فى البلوغ ، محروم من سرعة البديهة أو الثقة بالنفس هادئ عزوف عن المجتمعات غير ناضج عاطفياً .

أما المصاب بضعف الجنس بعد البلوغ فشخصيته لا تتأثر إلا قليلا أما القزم فهو دائماً موضع التحقير والتطاول بسبب ضآلة حجمه ، والمصاب بالأكروميجاليا الذى يشبه الغوريلا أو السيدة ذات اللحية ؛ لا يخلوان من شعور بالامتهان والخجل والعزوف عن المجتمعات ، والعملاق يجد نفسه منقبض الصدر ، لأنه مضطر أن يعيش فى عالم مناسب فقط لمن هم أقل منه حجماً ، فهو دائم الانحناء ، بينما غيره يسير منتصب القامة ، ولا يرحمه الناس من نظرات السخرية والشفقة .

أما الشخص البدين ، فيجب أن يتمتع بقدر غير قليل من الصبر وقوة الاحتمال ورحابة الصدر لكى يحتمل الانتقاد إذا جلس على كرسى أو ركب القطار أو وقف فى الترام مع أن المضايقات التى يتعرض لها تجعله أشد حساسية من غيره .

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة

مجموعة « الكتب العلمية المبسطة »

معلومات مفيدة وطريفة موضحة بالصور الملونة والرسوم التوضيحية

● صدر منها :

١ – الحرارة
٢ – الضوء
٣ – الكهرباء
٤ – حيوانات نعرفها
٥ – جسمك والآلة
٦ – حيوانات ما قبل التاريخ
٧ – الكائنات الحية
٨ – الجاذبية الأرضية
٩ – مجمع الحشرات
١٠ – الصوت
١١ – الأرض الزراعية
١٢ – المغنطيسيات
١٣ – فلنسأل رجل الأرصاد الجوية
١٤ – الآلات
١٥ – أقرب الجيران إلى الأرض
١٦ – الأزهار والبذور والثمار
١٧ – ما وراء المجموعة الشمسية
١٨ – الطيور
١٩ – العلماء وأدواتهم
٢٠ – السحب والمطر والثلج
٢١ – سطح الأرض المتغير
٢٢ – مصانع النبات
٢٣ – عالم النبات
٢٤ – المادة والجزيئات والذرات
٢٥ – الحياة منذ كانت
٢٦ – علم أم خرافة .

ثمن الكتاب الواحد بين ١٠ و ١٥ قرشاً

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



فى الاسكندرية
بعد القاهرة ..
ألذ مشروب
فى أجمل مصيف
مصر كولا
أجمل
تحية
مصرية ١٠٠
شركة القاهرة لتعبئة الزجاجات
احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الغذائية
مصر كولا

